

# تاريخ الحضارة المصرية

مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي "النجالة"

# منتہی سورا الازبکیہ

---

WWW.BOOKS4ALL.NET

وزارة الثقافة والإرشاد القومي  
المؤسسة المصرية العامة  
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

# تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني  
والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

أمين النحوي  
محمد مصطفى زيادة  
إبراهيم نصحي  
مراد كامل  
حسين مؤنس  
جمال الدين الشيال  
محمد عبدالعزیز مرزوق

ألفه  
نخبة من العلماء

الموزع  
مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي أنفجالة



القيّم الأول

العصر اليوناني والروماني

# مصر في عصر البطالمة

للدكتور ابراهيم نصحي

## الفصل الأول - دولة البطالمة

الفتح المقدوني - قيام دولة البطالمة - الفتح الروماني

البحار فان الاسكندر قرر أن يقضى على سيادتهم البحرية بالاستيلاء برًا على قواعد الأسطول الفارسي . ولذلك سرعان ما استولى على شواطئ آسيا الصغرى وفينيقيا ومصر وقدمت له برقة فروض الطاعة .

اولا - الفتح المقدوني

١ - الاسكندر في مصر :

فتح الاسكندر مصر في خريف عام ٣٣٢ ، وما كاد يصل الى منف حتى سارع الى تقديم القرابين للالهة الوطنية ، وتتويج نفسه في معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء ، لكي يظهر أمام المصريين في ثوب ملك شرعي خليفة الفراعنة القدماء ، فيضمن اخلاص المصريين وخضوعهم له . لكن الاسكندر لم ينس أيضا أنه يوم خرج من بلاد الاغريق قاصدا فتح الشرق قد أعلن انه رافع لواء الحضارة الاغريقية ، ولذلك أقام في منف حفلا اغريقيا : رياضيا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الاسكندر من مهامه في منف وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حجج الى معبد آمون في واحة سيوة ، فقد كان

حبا لله مصر بوفرة من موارد الخير وأسباب الحياة الكريمة ما جعلها مهد الحضارة والعرفان ، ويسر على الراشدين من حكامها اعلاء شأنها ، ولفت أنظار الطامعين اليها حتى أصبحت قبله كل دولة تنشئ بناء امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت دولة الفرس وقامت على أنقاضها امبراطورية المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر الطويل وفتحت صفحة جديدة التقت فيها الحضارتان المصرية والاغريقية جنبا الى جنب . فالى أى مدى صدق العلامة ابن خلدون في قوله ان المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتراء بالغالب ؟ سنحاول بقدر ما تسمح لنا المصادر القديمة ، أن نبين الى أى مدى تغيرت أم بقيت على حالها مختلف نواحي الحياة في مصر على عهد حكامها الجدد .

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الاغريق في عصبة كورنثا بزعامة مقدونيا ومشروع محاربة الفرس ، ذلك العسود المشترك لمقدونيا والاغريق ، لدعم زعامة مقدونيا . ولما كان الفرس يتمتعون بسيادة

الى بابل وافته المنية في ١٣ من يونية سنة ٣٣٣ ولما يتم الثالثة والثلاثين من عمره . وبوفاة الاسكندر يبدأ في العالم الاغريقي العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الهيلينستي . ولما كان تاريخ مصر منذ الفتح المقدوني قد أصبح متصلا اتصالا وثيقا بالعالم الاغريقي فان عهد البطلمة ينتمى الى العصر الهيلينستي الذي ينتهى بموقعة اكتيوم في عام ٣١ ق . م ، تلك الموقعة التي بسط الرومان في أعقابها سلطانهم على مصر : آخر مملكة هيلينستية .

### مؤتمر بابل

وغداة وفاة الاسكندر اجتمع قواده في بابل ليعثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية التي توفي مؤسسها قبل أن ينظم وراثة العرش وطريقة الحكم فيها ودون أن يترك وصية أو يرشح خلفا له . وبعد خلاف عنيف تم الاتفاق على أنه يرتقى العرش شاب معتوه يدعى فيليب ارهيداوس Arrhidaeus كان أخا غير شقيق للاسكندر ، مع الاعتراف بحق جنين روكسانا Roxana ( زوجة الاسكندر الفارسية ) اذا كان ذكرا في مشاركة فيليب الملك بشابة شريك تحت الوصاية . وبهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية لكنها لم تكن الا وحدة في الشكل فقط اذ انها قسمت في الفعل بين قواد الاسكندر نتيجة للقرار الذي اتخذه أولئك القواد بتوزيع ولايات الامبراطورية

ذلك المعبد يتمتع بشهرة عالمية تضارع ما كان لأعظم معابد الوحي عند الاغريق . وبين ان الاسكندر كان يستهدف من وراء زيارة ذلك المعبد النائي تحقيق ثلاث غايات : أولاها ، اثبات صلة نسبه بالآلهة أمام الرأي الدولي العام ، فقد كان على وشك بناء امبراطورية واسعة مترامية الأطراف تضم بين جوانبها عناصر شرقية وعناصر غربية ، وكان يرى أن تأليهه أقوى ضمان لسيطرته على هذه الامبراطورية . وقد كانت غايته الثانية من الحج الى معبد الوحي في سيوة الحصول على تأييد الاله آمون لمشروعاته التي كانت ترمى الى بسط سيادته على العالم . أما غايته الثالثة فكانت اشباع ميوله للمخاطرة ورغبته في اقتفاء أثر بطلى الأساطير الاغريقية يرسوس وهرقل اللذين شاع الاعتقاد قديما ان الاسكندر كان ينحدر من سلالتها وورد في الأساطير انهما تزودا بمشورة آمون سيوة قبل الاقدام على جلائل أعمالهما .

وحين عاد الاسكندر الى منف اقام حفلا اغريقيا ثانيا ووضع نظاما دقيقا لحكم مصر ثم تركها في ربيع عام ٣٣١ في حماية جيش وأسطول مقدونيين ليستأنف منازلة الفرس . وفي العام نفسه أنزل الاسكندر بدارا ملك الفرس هزيمة فاصلة في موقعة جوجميلا Gaugamela ، ثم أرغل في أواسط آسيا حتى قلب اقليم البنجاب للاستيلاء على ولايات الامبراطورية الفارسية . وحين عاد

تتكيف عادة بمجموعتين من العوامل :  
 احدهما هي العوامل الطبيعية التي جعلت  
 مصر أولا جزءا من وادى النيل ، بل جعلت  
 حياتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت  
 مصر ثانيا وفيرة الخيرات في بعض النواحي ،  
 مع فقرها الشديد في بعض النواحي الأخرى ،  
 وجعلت مصر ثالثا حلقة الاتصال بين افريقيا  
 وآسيا وأوربا . ويترتب على ذلك أن تسعى  
 مصر الى انشاء علاقات خارجية لتصرف  
 ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد  
 ما تفتقر اليه ، وأن يكون لنشاط السياسة  
 المصرية ثلاث جهات : احدها افريقية  
 والأخرى آسيوية والثالثة أوربية . ومن  
 الطبيعي أن يتباين اهتمام مصر بكل جهة تبعا  
 للظروف الدولية المحيطة بها في كل عصر .  
 وهذه الظروف الدولية هي المجموعة الثانية  
 من العوامل التي تتكيف بها سياسة مصر  
 الخارجية .

وفي ذلك الصدر من عهد الفراعنة حين  
 كانت مصر ، أو كادت أن تكون ، المركز  
 الأوحد للحضارة ، كان طبيعيا أن تستنفد  
 الجبهة الافريقية نشاط السياسة المصرية .  
 وحين قامت الى جانب مصر مراكز للحضارة في  
 آسيا ، كان طبيعيا أيضا أن يكون للجبهة  
 الآسيوية كذلك شأن كبير في السياسة  
 المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الافريقية  
 تستأثر باهتمام السياسة المصرية . وعندما  
 أخذت تظهر في شمال البحر الأبيض المتوسط

فيما بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاة من  
 قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت  
 الأطماع التي تجيش في صدور أغلب هؤلاء  
 القواد واضحة جلية ، ولذلك فانهم  
 لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين  
 كانوا سيحكمون باسم الملكية متى توافرت  
 لديهم القبوة الكافية لتأييد رغبتهم في  
 الاستقلال . وقد كان كذلك بين قرارات  
 مؤتمر بابل : أن يكون پرديكاس القائد العام  
 للجيش والمهيمن على شئون الامبراطورية ،  
 وأن يكون كراتروس وصيا على الملك المعتوه  
 وكذلك على طفل روكسانا عندما يولد ،  
 وحامى شخصيهما وحامل أختام الدولة ، لكن  
 المؤتمر لم يقرر لمن تكون السيطرة والكلمة  
 النافذة ، أليرديكاس أم لكراتروس ، وبذلك  
 أضاف عاملا آخر من عوامل الشقاق .

### ثانيا - قيام دولة البطالة

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى  
 بطليموس . فما كانت أهداف بطليموس  
 مؤسس أسرة البطالة التي حكمت مصر من  
 عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . ؟ وما كانت  
 أهداف خلفائه ؟ لكي تفهم سياسة البطالة  
 الداخلية على حقيقتها يجب أن نلقى أولا  
 نظرة عاجلة على سياستهم الخارجية وذلك لأن  
 النظم التي وضعوها لحكم مصر تأثرت الى  
 حد كبير بالدور الذي أرادوا أن يلعبوه في  
 العالم الاغريقي .

ومن الجلي أن سياسة مصر الخارجية

## ١ - تفكك الامبراطورية المقدونية

ومهما اختلف المؤرخون في تفسير سياسة البطلمة الخارجية فلا خلاف في أمرين : أحدهما أن الجبهة الأوربية في نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطلمة قد غدت الجبهة الرئيسية ، والأمر الآخر ان البطلمة كانوا يريدون انشاء امبراطورية . وسواء أكان بطلميوس الأول وابنه وحفيده من بعده يريدون انشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان يتعين أولا وضع الأساس الذي يقام عليه هذا الصرح ، أى بناء دولة قوية غنية مستقلة في مصر . ولا ريب في أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم فصح عرى الامبراطورية المقدونية ومكافحة كل من تحدته نفسه باحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه الخاص . ولذلك فان بطلميوس الأول اشترك في عدة تحالفات كانت أهمها ثلاث : احداها ضد پرديكاس الذى أراد أن يلسم شعث الامبراطورية ويوحدها وقرر غزو مصر ليجعل من واليها عظة للولاة الآخرين لكنه فشل أمام خط النيل الحصين ولقى حتفه هناك ( عام ٣٢١ ) . وكانت التحالفتان الأخريان ضد أنتجونوس Antigonos الذى أصبح بدوره خطرا يهدد سلامة الولاة الآخرين وانتهى الأمر بالقضاء عليه في موقعة ايسوس Ipsos عام ٣٠١ ق.م. وبموت أنتجونوس ماتت معه فكرة احياء الامبراطورية المقدونية، وكان قد أكد انحلالها واستقلال الولاة كل

مراكز جديدة للحضارة استرعت هذه المراكز في الحال اتباع مصر ، لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية فانه لم يكن للجبهة الأوربية الا حظ يسير من اهتمام مصر قبل العصر الصاوى .

وعلى عهد البطلمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا اذ انه حين كان نجم الحضارات الشرقية قد أفل كانت حضارة الاغريق قد قفزت الى الأمام فقزات خاطفة أوصلتها سريعا الى ذروة المجد حتى تضاءلت الى جانبها الحضارات القديمة طرا ، وغدا بحر ايجة أهم مركز للحضارة في العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل في حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفى الاسكندر في شرح الشباب واقتسم قواده امبراطوريته كان لذلك نتائج عديدة يعنينا من أمرها ثلاث : احداها أن عرش مصر آل الى أسرة مقدونية الأصل اغريقية الحضارة ، والنتيجة الثانية ، نشوب صراع عنيف بين قواد الاسكندر دام أربعين عاما وتمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على انقاض الامبراطورية المقدونية : هى دولة البطلمة في مصر ودولة السليوكيين في سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هى احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ولا سيما بين البطلمة والسليوكيين .

منهم بولايتهم انهم حذوا حذو اتيجونوس  
ولقبوا أنفسهم ملوكا ( عام ٣٠٦ - ٣٠٥  
ق . م . ) .

ووسط الأطماع الجامعة التي كانت  
تجيش في صدور خلفاء الاسكندر استشعر  
بظلمة الحاجة الى جيش كبير وأسطول  
قوى ليفوز باستقلال مصر ويحافظ على هذا  
الاستقلال ويحرز مكانة سامية في السياسة  
الدولية . ولما كانت تحت امرة منافس البطالمة  
جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، اذ كانت  
مؤلفة من خيرة جنود العصر ، وأغنى  
المقدونيين والاغريق ، فقد اعتقد بظلمة  
وخلفاءه الأوائل انه لتحقيق سياستهم  
الخارجية بل المحافظة على كيان دولتهم ، لا بد  
من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز  
جيوش وأساطيل منافسيهم ، ومعنى ذلك  
ضرورة استقدام الاغريق وأشباههم للخدمة  
في قوات البطالمة المحاربة . ولما كانت ثروة  
مصر الطبيعية قاصرة عن الوفاء بحاجات  
الجيش والأسطول فانه كان يتعين استيراد  
الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج . وقد  
كانت الطريقة المثلى لضمان الحصول على  
هذه الضروريات هي الاستيلاء على بعض  
الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

## ٢ - بناء امبراطورية البطالمة

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسيا لبناء  
الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى  
مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب

الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها  
الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح  
المقدوني ، فانه لم تكن هناك مندوحة عن  
اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق  
البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما  
دقيقا ، وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها .  
وللقيام بهذه الأعمال الانشائية الواسعة كان  
بظلمة الأول وخلفاءه في حاجة الى  
رءوس أموال والى أعوان مخلصين يستطيعون  
فهم مرامهم والتفاني في خدمتهم . ومعنى  
ذلك ان البطالمة الأوائل كانوا يستشعرون  
الحاجة أولا الى الاغريق لا لبناء جيوشهم  
وأساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم  
شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقد  
كانت تتوافر لديهم رءوس الأموال وكذلك  
الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم  
التجارة السائدة في عالم البحر الأبيض  
المتوسط . وثانيا الى السيطرة على الطرق  
البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها  
الخارجية . فلا عجب ان اعتبر بظلمة الأول  
وخلفاءه سيادة بحر ايجة عماد كيانهم السياسى  
ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

وازاء كل هذه العوامل نرى أن بظلمة  
الأول حين كان معنيا بالفوز باستقلاله ثم  
بالذود عنه قد : ( ١ ) استولى على برقة لحماية  
حدود مصر الغربية ، ( ٢ ) استولى على جوف  
سوريا ( فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا )  
وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطئ

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطلميوس  
الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها  
جديدا لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت  
الجهة الأوربية أو ان شئت الجهة الأوربية  
الشرقية أو الجهة الشمالية محور نشاطها  
الرئيسى . وقد أفضت الظروف الى اتجاه  
جديد آخر كان نحو آسيا . حقا ان الجهة  
الآسيوية كانت منذ أمد بعيد موضع اهتمام  
مصر لكن آسيا الصغرى لم تكتسب قبلا  
من الأهمية فى هذه الجهة مثل ما أخذت  
تكتسبه منذ أيام بطلميوس الأول . فضلا  
عن ذلك فان الاتجاه الآسيوى لم يكن يوما  
وثيق الاتصال بالاتجاه الأوربى للسياسة  
المصرية على النحو الذى نراه منذ بداية عهد  
البطلمة .

وعندما ارتقى عرش مصر بطلميوس  
الثانى كانت دولته أقوى دولة فى العالم  
الهلينستى . وكانت تليها دولة السلوكيين  
وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر  
فى بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات  
الشرقية البعيدة وجانبا كبيرا من آسيا  
الصغرى وسوريا ( فيما عدا جوف سوريا ) .  
وكانت الدولة الثالثة هى مقدونيا وكانت  
تسيطر على بعض المدن الاغريقية فى شبه  
جزيرة البلقان . وقد عنى بطلميوس الثانى  
أولا بدعم حدود مصر الغربية ، وثانيا بارسال  
حملة تأديبية الى قبائل النبط فى البتراء ،  
واخضاع الأدميين والبحر الميت وشرق

آسيا الصغرى الجنوبية وذلك لحماية حدود  
مصر الشرقية والحصول على المعادن  
والأخشاب التى يفتقر اليها وادى النيل ،  
والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية  
الآتية من الشرق الأقصى ، وضمان سيادة  
مصر فى بحر ايجه . و ( ٣ ) سبق الدول  
الحديثة الى الاتجار بالحرية فانه تحت ستار  
اتقاذ عصبة بحر ايجه من ربة اتيجونوس ،  
طرد حاميات اتيجونوس من عصبة الجزر  
ووضع مكانها حاميات بطلمية للذود عن  
« الحرية الاغريقية » ، ثم سارع الى بلاد  
البلوبونيز فوضع حاميات بطلمية فى سيكيون  
وكورثا حماية للحرية الاغريقية من أعدائها  
الظالمين ! ولا شك فى أنه لم يهدف من وراء  
ذلك الا الى الفوز بسيادة بحر ايجه وكسب  
عطف الاغريق فيسيطر على الطرق التجارية فى  
العالم القديم ويحصل من العالم الاغريقى على  
ما يحتاج اليه من الرجال ورءوس الأموال .  
ويجب أن يتلاحظ أن السيطرة على عصبة  
جزر بحر ايجه كانت لا تكسب البطلمة الا  
سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحر  
ايجه ، وان استكمال السيطرة على هذا  
البحر كان يقتضى فرض حماية مصر على  
شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية  
وكذلك الاستيلاء على موانئ فلسطين وفينيقيا  
وقد شيد بطلميوس الأول جانبا مهما من هذه  
الامبراطورية وترك لخلفائه استكمال بنائها  
اذ أن السياسة التى وضع هو أساسها لم يحد  
عنها أحد من خلفائه الأوائل .

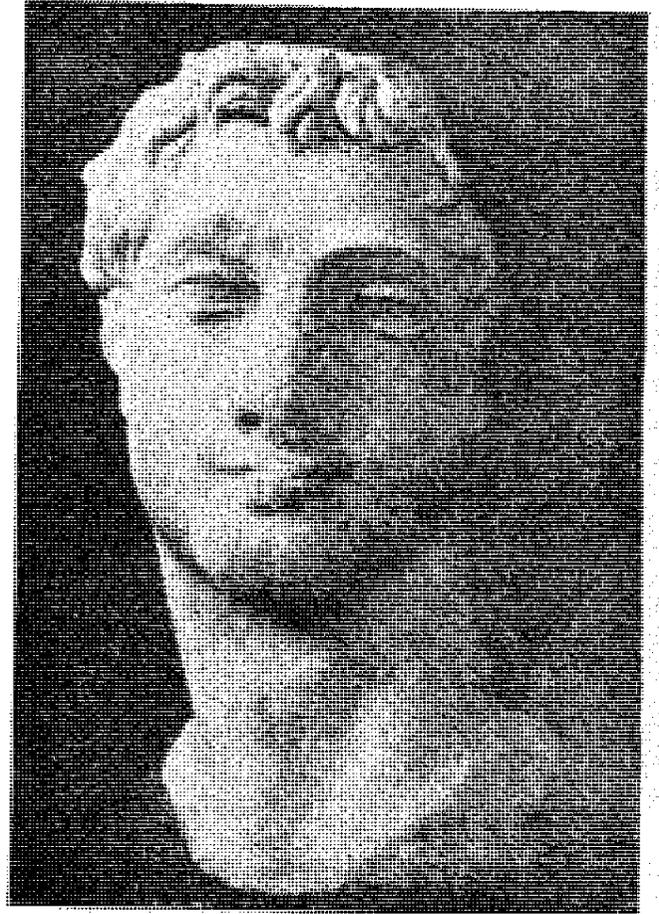
بسط نفوذه على كريت وثبت سلطانه على  
عصبة جزر بحر ايجة .

وهكذا بين أن الاتجاهين الجديدين  
الذين ظهرا في أفق السياسة المصرية على  
عهد بطلميوس الأول قد استمرا مسيطرين  
على هذه السياسة في عهد بطلميوس الثاني  
أيضا . بل لعل سيطرتها قد ازدادت قدرا ما  
في عهد بطلميوس الثاني على نحو ما يتضح  
من اتساع نطاق فتوحه في بحر ايجة وعلى  
شواطئ آسيا الصغرى . لكن لعهد بطلميوس  
الثاني ميزة خاصة ، ففي عهده بدأ اتجاه

الأردن . وذلك لضمان الحصول على التجارة  
الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد  
العرب . ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه  
بالطرق التي تربط وادي النيل بالبحر  
الأحمر . وثالثا وطد حدود مصر الجنوبية  
واهتم بطرق أعالي النيل . ورابعا دعم سلطان  
مصر في جوف سوريا . وخامسا استرد  
ممتلكات مصر على شاطئ آسيا الصغرى  
الجنوبى التي كان أبوه قد فقدها في عام ٣٠٦  
وأضاف إليها ممتلكات جديدة هناك ،  
وعلى شاطئ آسيا الصغرى الغربي . وسادسا



رأس من المرمر يظن أنها تصور برينيكى الثانية  
زوجة بطلميوس الثالث .



رأس تمثال من المرمر  
لبطلميوس الثالث .

جديد كل الجدة في سياسة مصر الخارجية .  
ويبان ذلك أن مصر في عهد هذا الملك كانت  
أول دولة هيلينستية أنشأت علاقات سياسية  
مع روما ، ففي عام ٢٧٣ ق . م . أرسل  
بظلميوس الثاني بعثة الى روما نجحت في  
عقد اتفاق بين الدولتين . ويبدو أن هذا  
العمل كان جزءا من سياسة عامة اتهجها  
بظلميوس الثاني مع الدول الغربية ، اذ تنهض  
الأدلة على وجود علاقات قوية حوالى ذلك  
الوقت بين مصر وسيراكوز أعظم دولة في  
صقلية وكذلك بين مصر وقرطجنة . ومن  
المحتمل أن الدوافع التي أملت على بظلميوس  
الثاني سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية  
قبل كل شيء ، لأن الأسواق الغربية كانت  
تستطيع المساهمة بقدر كبير في رخاء مملكته .

ان السياسة الخارجية التي وضع  
بظلميوس الأول أساسها وسار بظلميوس  
الثاني على نهجها أصبحت سياسة تقليدية  
لدى ملوك البطالمة الأوائل . وآية ذلك أن  
بظلميوس الثالث أيضا لم يكدر يرقى العرش  
حتى وضع نصب عينيه تحقيق هذه الأهداف  
نفسها والوصول بها الى تيجتها المنطقية .  
فهو لم يستعد فقط الممتلكات التي فقدتها  
مصر أيام أبيه على شواطئ آسيا الصغرى  
الجنوبية والغربية بل أضاف اليها أملاكاً  
أخرى على تلك الشواطئ ، وكذلك على  
شاطئ الدردنيل وفي غاليلوى وتراقيا . أما  
الحملة التي قام بها بظلميوس الثالث حتى

سليوكيا على نهر الدجلة في مستهل حكمه —  
عندما توفي أنطيوخوس الثاني ملك سوريا  
ونشب خلاف عنيف بين زوجه الأولى  
لاوديكي وزوجه الثانية برينيكي شقيقة ملك  
مصر — فانها لم تكن الا في سبيل نصره  
أخته والدفاع عن حقوق ابنها ، فهو لم يحاول  
عندئذ الاحتفاظ بالفتوحات التي تمخضت  
عنها هذه الحملة كما أنه لم يحاول فيما بعد  
استغلال الأزمات التي قطعت أوصال  
امبراطورية السليوكيين لتوسيع رقعة  
امبراطوريته داخل آسيا ، مع ان الفرصة  
كانت مواتية له اذ ذاك لاقتطاع ما يشاء من  
الولايات الشرقية في تلك الامبراطورية .  
ولا جدال في أن امبراطورية البطالمة قد  
وصلت في عهد بظلميوس الثالث الى أقصى  
اتساعها ولا في أن هذه الامبراطورية كانت  
امبراطورية بحرية . أما فكرة تكوين  
امبراطورية عالمية فانها كانت بعيدة عن أذهان  
البطالمة لأنها حتى اذا كان من الميسور تحقيقها  
فانه لم يكن من الميسور المحافظة عليها .  
وجملة القول ان بظلميوس الثالث اقتفى بدقة  
خطوات أبيه في اتجاهات السياسة الخارجية  
نحو الشمال والشرق والغرب .

### ٣ - بداية النهاية

وعندما ارتقى بظلميوس الرابع عرش مصر  
وأطلق العنان لشهوته الجامحة ، اعتقد  
أنطيوخوس الثالث ان الفرصة قد سنحت  
لسلب مصر جوف سوريا ، غير انه عندما تهيأ

اضطرت تدريجا الى طرح تحقيق الهدف  
الثانى جانبا ازاء ضغط ثلاث قوى فنية وثابة  
وهى روما وفيليب الخامس وأنطيوخوس  
الثالث ، وازاء الضعف الكامن فى البطلمة  
الأواخر وفى رجالهم الذين ألقيت اليهم  
مقاييد الحكم ، وازاء الثورات المصرية  
الخطيرة التى كانت تكاد لا تنقطع منذ عودة  
المصريين مظفرين من معركة رفح ، وأخيرا  
ازاء الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطلمة  
منذ عهد بطليموس السادس .

فلا عجب أن اتفق المؤرخون على اعتبار  
موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذى بلغت  
فيه دولة البطلمة أقصى اتساعها وأوج مجدها ،  
والعهد الذى أخذت فيه عوامل الضعف  
والاضمحلال تدب إليها حتى سقطت هيبتها  
وزهدت سطوتها ففقدت أملاكها فى الخارج  
وتزعزع سلطانها فى الداخل ، وأصبحت  
تتناوبها الغزوات والثورات الى أن انتهى بها  
الأمر الى افول نجمها وزوال استقلالها .

#### زوال امبراطورية البطلمة

وقد أثار مخاوف مصر انكباب  
أنطيوخوس الثالث على لم شمل امبراطوريته  
وتوسيع رقعتها ، فعملت مصر على التقرب  
من مقدونيا وروما ، لكن اضطرابات مصر  
الداخلية وخوار عزيزة حكامها وفسادهم  
شجعت أصحاب المطامع ، أعداءها منهم  
والحلفاء ، فان فيليب الخامس ملك مقدونيا  
وصديق مصر اتفق مع عدوها اللدود

لتحقيق ذلك ترك بطليموس عبثه ومجونه  
وخف للدفاع عن امبراطوريته . ومن أجل  
ذلك أعاد تنظيم الجيش وأدمج للمرة الأولى  
فى قواته المحاربة عددا كبيرا من المصريين  
دربهم وسلحهم وفقا لأصول فنون الحرب  
الحديثة فكان لهم الفضل الأكبر فى الانتصار  
فى موقعة رفح فى عام ٢١٧ ق . م . ولما كان  
جيش أنطيوخوس يتكون من الاغريق  
والمقدونيين الذين كانوا يعتبرون سادة  
فنون القتال فى ذلك العصر ، فان النصر الذى  
أوتيه المصريون فى هذه المعركة وينهض دليلا  
على أن الجندى المصرى لا ينقصه  
الا التدريب والسلاح لاثبات كفايته فى ميدان  
القتال ، أعاد الى المصريين ثقتهم بأنفسهم  
وحفزهم على القيام فى وجه حكامهم الطغاة  
الذين أوسعهم ظلما وارهاقا .

ويتضح مما أسلفناه انه كان للسياسة  
الخارجية التى اتبعها البطلمة الثلاثة الأوائل  
هدفان رئيسيان وهما : استقلال مصر  
استقلالا تاما سياسيا واقتصاديا ، والتمتع  
بأكبر قسط من السيطرة على عالم بحر ايجة .  
وقد نجح أولئك البطلمة والى حد بعيد فى  
تحقيق هذين الهدفين ، وكان لسياستهم  
الخارجية أول الأمر جهتان رئيسيتان  
احدهما فى الشمال والأخرى فى الشرق ثم  
أصبحت لها جبهة ثالثة فى الغرب . أما منذ  
منتصف عهد بطليموس الرابع فان مصر لم  
تحاول الا تحقيق الهدف الأول ، اذ أنها

أنطيوخوس الثالث على إقتسام ممتلكاتها الخارجية . وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها منها سوى قبرص وبرقة . وقد أفزعت روما أطماع فيليب وأنطيوخوس ، ولذلك فإنها ما كادت تخرج في عام ٢٠٢ ق . م . منتصرة من صراعها مع قرطجنة حتى اشتبكت مع فيليب ثم مع أنطيوخوس وهزمتها ، الأول في عام ١٩٧ والثاني في عام ١٨٩ ، وذلك بحجة الدفاع عن حرية الاغريق وأملاك بطلميوس المسلوبة .

٤ - وقد مهدت الأحداث السبيل أمام روما لتبسط سلطانها الفعلي على مصر وان احتفظت مصر باستقلالها الاسمي . ويعزى تغلغل النفوذ الروماني في مصر الى عاملين : أحدهما الأخطار الخارجية التي استهدفت لها مصر ولا سيما من ناحية السليوكيين فإنها ما كادت تتخلص من مخاطر أنطيوخوس الثالث حتى أقدم أنطيوخوس الرابع على الاستيلاء على قبرص وغزو مصر نفسها مرتين ولم ينقذها من برائته الا تدخل روما التي أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص اليها . والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر بطلميوس السابع واتخاذهما روما فيصلا وحكما في هذا النزاع الدموي الذي استغلته روما الى أقصى حد لتحقيق أغراضها . وبرغم هذه الأحداث الداخلية الجسيمة وكابوس

النفوذ الروماني الثقيل ، فان مصر لم تنس جوف سوريا وحاولت مرارا استغلال الاضطرابات التي كانت تقطع أوصصال امبراطورية السليوكيين لاستعادة ذلك الجزء الجميل من ممتلكاتها السابقة ، لكنها باءت بالفشل . ولم تلبث أن فقدت أيضا برقة ، اذا أن بطلميوس الثامن ايوارجيس الثاني كان قد نزل عنها لابنه غير الشرعي بطلميوس ابيون وهذا أورثها لروما في عام ٩٦ ق . م .

#### ٥ - صحوة الموت

وحيث بدا محققا ان أسرة البطالمة ستزول في ظرف سنين قلائل كما زالت من قبل أسرة السليوكيين ، شاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد اشراقا يخطف الأبصار قبل أن تغيب الى الأبد . وبيان ذلك أن ارتقت عرش مصر عندئذ فتاة موهوبة تمكنت من استخدام قوة روما لتنفيذ أغراضها حتى كادت أن تجنى من وراء ذلك امبراطورية عالية . فقد سيطرت كليوبترة أولا على يوليوس قيصر الى حد انه أصبح مؤكدا انه عندما يقيم نفسه ملكا على روما سيعلمن زواجه منها رسميا فتشاركه سلطانه الواسع . لكن نبلاء الرومان لم يلبثوا أن أجهزوا على آمال كليوبترة عندما أجهزوا على قيصر في عام ٤٤ ق . م .

ومع ذلك لم تلبث كليوبترة أن أوقعت في شباكها مارك أنطونيوس حين أصبح الحاكم المطلق في النصف الشرقي من

الإمبراطورية الرومانية . وقد وضع أنطونيوس نفسه وكل ما يملك تحت امرة كليوبترة ، فانه تزوجها وقسم بينها وبين أولادها كل الولايات الرومانية في آسيا . ولما لم تنفع كليوبترة بالنصف الشرقي في العالم الروماني فانها دفعت أنطونيوس لمنازلة أوكتافيوس من أجل الفوز بالنصف الغربي أيضا وحكم العالم الروماني بأجمعه . وهكذا بدا لكليوبترة بعد عشر سنين من تبسيد أحلامها بمقتل قيصر أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح امبراطورة العالم . لكنه لم يكن مقدر لها أن تحقق أحلامها فقد بدد أوكتافيوس تلك الأحلام بانتصاره في موقعة اكتيوم ( عام ٣١ ق.م ) ودخوله الاسكندرية في العام التالي وضمه مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

ولابد من أن يستوقف النظر فيما قدمناه أن البطالمة لم يولوا الجهة الجنوبية من عنايتهم قدر ما أولاهم الفراعنة منذ أقدم العصور . وقد كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة للبطالمة الأواخر الذين اكتنفتهم المخاطر من كل جانب حتى شلت حركتهم . فكيف نسر ذلك بالنسبة للبطالمة الفاتحين ملوك الأسرة الأوائل ؟ لقد عرفنا ان البطالمة الأوائل انصرفوا بوجه عام الى تكوين امبراطورية بحرية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية مدفوعين الى ذلك بعدة عوامل أهمها ظروف النضال مع خلفاء الاسكندر الأكبر

على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة أصلهم ونشأتهم ، وما بينهم وبين الاغريق من الوشائج حتى انهم جعلوا اعتمادهم على الاغريق في تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم ان امبراطورية تتألف من أقاليم تمت بصلة الى الحضارة الاغريقية وتقع بالقرب من مراكز هذه الحضارة تكون أبقي على الدهر وأجدي عليهم وخير نصير لهم في تحقيق ما كانوا يهدفون اليه من لعب الدور الأول في سياسة البحر الأبيض المتوسط الدولية .

ولا ريب في أن البطالمة قد استشعروا أن مكاتهم الدولية - في عالم تعتبر فيه الحضارة الاغريقية أرفع الحضارات طرا - كانت تتوقف الى حد كبير على ظهورهم في نوب رافعي لواء الحضارة الاغريقية بخلع مسحة ولو ظاهرية من هذه الحضارة على دولتهم . واذا تصوروا ان ذلك كان أمرا ميسورا فيما يخص مصر فيبدو انهم اعتقدوا انه كان ضربا من المحال فيما يخص كل وادي النيل . ولعل البطالمة أن يكونوا قد قدروا ان تحقيق وحدة وادي النيل كان من الممكن أن يحمل في طياته خطرا داهما عليهم باعتبارهم ملوكا اغريقيا أخرجوا من أفق تفكيرهم بناء دولة قومية وذلك لأن وحدة الوادي بما تنطوى عليه من احياء سيرة الفراعنة العظام ومجد وادي النيل القديم قد تقضى الى بعث أمة وادي النيل من جديد ، فيتلاشى في أرجاء بلادها الفسيحة رسل الحضارة الاغريقية ولا يلبث أن يرتقى فرعون

وطنى، عرش وادى النيل . ومن ثم فان البطالة  
بوجه عام اكنفوا بالمحافظة على سلامة حدود  
مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مع  
جنوب الوادى والاهتمام بتجارة الجنوب  
والشرق .

ويتضح اذن من كل ما مر بنا انه ازاء  
الظروف التى اكنفت البطالة اتخذت  
سياستهم الخارجية وجهات جديدة صوب  
الشمال والشرق والغرب ، فقد قدروا انه كان  
يمكنهم الاستغناء عن وحدة وادى النيل  
بامبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية  
التى أنشأوها مع الغرب وكذلك مع الجنوب  
والشرق . لكن بين ان التوفيق قد أخطأهم

في هذا التقدير ، فمن ناحية كلّفهم انشاء هذه  
الامبراطورية جهودا مضية وأموا لا طائلة  
ودفعهم الى معالاة الاغريق على حساب  
المصريين واستنزاف موارد البلاد واستثارة  
عداء الكثيرين عليهم .

ومن ناحية أخرى عندما اشتد ساعد  
منافسيهم وأخذت روما تتسع باطراد في شرق  
البحر المتوسط فقد البطالة امبراطوريتهم  
البحرية ولم يجدوا في داخل دولتهم عضدا  
كافيا حتى للاحتفاظ بملكهم من العدوان  
الخارجى . وهكذا استنفد البطالة  
قوتهم وأضاعوا ثروتهم فالتهمت روما دولتهم.

## الفصل الثاني - إدارة الحكم

السلطة المركزية - المدن الاغريقية - السلطة المحلية - قوات البطالمة

### أولا - السلطة المركزية

#### ١ - الملك

من بطاقته التي كون أفرادها على مضي الزمن بلاطا ينقسم طبقات يميز كل منها عن الآخر ألقاب فخرية . ولما كان أول هم للملك هو أن تفيض عليه ضيعة بالبركات ، فقد كان وزير المالية أخطر مساعدي الملك شأنا وأوسعهم نفوذا الى حد أنه كان يكاد يسيطر سيطرة تامة على كل نواحي الحياة العامة في البلاد . وكان هذا الوزير الخطير يدعى ديويكتيس Dioiketes . وهو لقب يحمل معنى « مدير الضيعة » ولذلك يتخذ العلماء دلالة واضحة على أن البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعتهم الخاصة .

وليضمن الملك استدرار الخيرات من ضيعة كان يجب أن يولي اهتمامه لتصرف العدالة حتى يستتب الأمن وينصرف الناس الى مزاولة أعمالهم ، ولذلك فان الموظف الكبير الذي يدعى أرخيديكاستس Archidicastes ، ومعناه كبير القضاة يعتبر المساعد الثاني للملك .

وعلى عهد البطالمة الأوائل الذين وجهوا عناية كبيرة الى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها على نحو لم يسبق له مثل كان يوجد وزير للأشغال Architecton

منذ اقتصر بظلميوس الأول على يرديكاس اعتبر البطالمة مصر ضيعة آلت اليهم بحق الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة استغلوا المعتقدات الدينية السائدة بين رعاياهم ونصبوا أنفسهم آلهة لهم ، وبذلك أصبح سلطانهم لا يستند الى حق الفتح فحسب بل أيضا الى حق الملوك الالهى . فلا عجب ان الملك بظلميوس كان يعتبر صاحب مصر وسيد رعيته المطلق . فقد كان على رأس الأداة الحكومية وكبير القضاة والقائد الأعلى للجيش والأسطول ومصدر القوانين التي يخضع لها جميع سكان البلاد والدساتير التي تعيش في كنفها المدن الاغريقية وكذلك الجاليات الأجنبية التي تكونت خارج تلك المدن .

#### ٢ - الوزراء

ولما كان يتعذر على الملك أن يباشر بنفسه كل السلطات التي يتمتع بها فانه كان يعتمد على مساعدة عدد من الشخصيات الكبيرة . وكان الملك يختار أغلب مساعديه الرئيسيين

المعقدة . واذا كان التوفيق قد حالف هذه الأداة الحكومية على عهد البطالمة الأوائل فانها فسدت في الشق الثاني من عصر البطالمة وأصبح كل همها ارهاق الأهالي وابتزاز أموالهم . غير أن مرد ذلك ليس الى عيوب في تصميم الأداة الحكومية ذاتها وانما الى الظروف التي كانت تعمل فيها والأهداف التي وجهت اليها .

#### ثانيا - المدن الاغريقية

وقد كانت في مصر البطلمية ثلاث مدن اغريقية ، وهى الاسكندرية وقرطيس وبطوليميس . وبالرغم من انشاء هذه المدن في مملكة يقوم على رأسها ملك مستبد مطلق السلطة ، ووسط مدن مصرية تخضع لهذا الملك وموظفيه خضوعا تاما وليس لها أى رأى في حكم نفسها ، فان المدن الاغريقية وان شاركت المدن المصرية في خضوعها للملك وذلك بوصفه الها لأنه لم يكن لسلطان الآلهة حد ، وفقدت تبعا لذلك سيادتها ، فانها لم تفقد حق ادارة نفسها بنفسها ، وبعبارة أخرى حق تمتعها باستقلال ذاتى يعطى مواضئها حق حكم أنفسهم .

وقد كان هذا الاستقلال الذاتى أهم فارق يميز المدينة الاغريقية عن المدينة المصرية والمواطن الاغريقى عن المواطن المصرى ، فقد كان الاغريقى يرى أنه يعيش في مدن ويشترك في حكم الجماعة التي ينتمى اليها ، أما المصرى وغيره من الشرقيين فانهم في نظره كانوا

كانت مهمته تحسين نظم الرى وصيانة وسائله ويرجع انه كان يوجد كذلك وزير للحرب يقوم بالاشراف على تجنيد الجيوش ودفن مرتبات الجنود ومنح الاقطاعات .

ولما كان الملك مصدر جميع السلطات والمرجع الأول والأخير في تنفيذ القوانين ، تستمد منه السلطات المركزية والمحلية نفوذها واليه شخصيا كان يُوجه فيض الشكاوى والالتماسات ومنه شخصيا كان يصدر سيل من الأوامر ، فقد كانت له سكرتيرية خاصة كانت تنقسم قسمين يختص أحدهما بشئون مراسلات الملك ، ويختص القسم الآخر بالأوامر وفيما يظن أيضا بالتوقيع على الشكاوى المرفوعة الى الملك .

وبطبيعة الحال كان يتعذر على الملك وسكرتيرته ووزرائه النهوض بشئون حكم وضعت له نظم دقيقة معقدة في بلاد غنية متحضرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من الموظفين المدربين . ويعتبر من أعظم أعمال البطالمة نجاحهم في انشاء هذه الأداة الحكومية الدقيقة في بلد أجنبى من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . ولا شك في أن هذه الأداة الحكومية كانت الى حد ما من تراث الماضى لكنها غدت في مجموعها أداة اغريقية منظمة تنظيما دقيقا ، ويتألف رؤساؤها ومدبرو مصالحتها المختلفة وأقسامها المتعددة من اغريق لم يعلمهم ماضيهم للاضطلاع بمثل هذه الأعمال

الاسكندر قد أنشأها في خلال حملته . ولعل الاسكندر أن يكون قد توخى من وراء تشييد الاسكندرية ثلاثة أهداف : أحدها انشاء مدينة اغريقية تكون مصدرا لاشعاع الحضارة الاغريقية بين ربوع مصر ؛ وثانيها أن تخلف هذه المدينة صور في العالم التجارى ولا سيما ان مصر برغم ازدياد علاقاتها مع العالم الاغريقى ازديادا مطردا لم يكن لها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ميناء جدير بها ؛ وثالثها اقامة قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجة وشرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد جعل بطليموس الأول مقره في منف الى أن اطمأن ، بعد انتصاره في عام ٣١٢ على ديمتريوس ، الى قدرته على الدفاع عن شواطئ مصر الشمالية . وعندئذ نقل مقره الى الاسكندرية التى أصبحت منذ ذلك الوقت مقر البلاط وعاصمة مصر . وسرعان ما غدت الاسكندرية أكبر مدينة اغريقية في العالم تفوق في اتساعها أكبر المدن الاغريقية القديمة ، وغدت كذلك في طليعة عواصم الحضارة الاغريقية وظلت محتفظة بمكان الصدارة طوال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد الى حد أن حضارة هذين القرنين عرفت باسم « حضارة الاسكندرية » . واذا كان ما كشفت الحفريات عنه لا يمكن أن يصور حقيقة ما كانت عليه هذه المدينة في عصرها الزاهر ، لأن أكثر معالم المدينة

لا يعيشون الا في قرى لأنه مهما كان اتساع مواطنهم ومهما جاورت هذه المواطن المدن الاغريقية فانها لم تتمتع بأى نوع من أنواع الاستقلال وانما كانت تخضع لأى حاكم موفد من قبل السلطة المركزية . واذا كان انشاء المدن الاغريقية في مصر لم يؤد الى أى تأثير في نظم المدن المصرية فان نظم هذه المدن الاغريقية كذلك لم تتأثر نتيجة لوجودها الى جانب المدن المصرية . واذا قيل ان مدن مصر الاغريقية لم تكن دولا ذات سيادة فانه يمكن الرد بأن ذلك لم يكن خاصة انفردت بها مدن مصر الاغريقية فقد كان أيضا شأن كافة المدن الاغريقية التى قامت في الممالك التى أنشئت على أقطاب الامبراطورية المقدونية .

وقد كان انشاء المدن الاغريقية في مصر أمرا ضروريا ، لأن الاغريق تشبعوا بالفكرة القائلة بأن المدينة هى البيئة الأساسية لحياتهم العامة ، والنظام الطبيعى الوحيد الذى يستطيع أن يعيش في كنفه الرجال الأحرار ، لأن نظم المدينة الحرة كانت تكفل لمواطنيها حرية القول والرأى والعمل وتبيح لهم المشاركة في ادارة دفة شئونهم وتوفير لهم من أسباب الحياة ما هو خليق بانسان يحترم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . فلاعجب ان كان الاغريق ينشئون مدينة لأنفسهم حيثما نزلوا في مكان واتخذوه مستقرا دائما لهم .

١ - الاسكندرية

وهى أول مدينة تعرف عن يقين ان

الى الشاطئ، يصبح للمدينة مرفأ على البحر ، هما الميناء الكبير والميناء الغربى ، وكان يمكن استخدام أيهما تبعا لهبوب الريح.

وقد وضع تخطيط الاسكندرية المهندس الرودىسى دينوكراتس وفقا لأحدث قواعد فن تخطيط المدن . وكانت المدينة مستطيلة الشكل يمتد جانبها الطويلان فى محاذة البحر من ناحية وبحيرة مريوط من ناحية أخرى . وكانت تشق المدينة شوارع تقاطع عموديا مع بعضها بعضا موازية بوجه عام للشارعين الرئيسيين فيها ، وكان أحدهما يمتد من باب كانوب ( أبو قير ) فى الشمال الشرقى الى باب الغرب فى الجنوب الغربى . أما الآخر فكان يجرى من باب الشمس عند بحيرة مريوط فى الجنوب الشرقى الى باب القمر شرقى جسر الهپتاستاديوم الذى أنشئ لربط جزيرة فاروس بالبر .

وقد كانت المدينة تتألف من خمسة أحياء أطلق على كل منها اسم حرف من حروف الهجاء الاغريقية الخمسة الأولى . وكان أهم هذه الأحياء جميعا هو حى القصور الملكية وكان يشغل ربع مساحة المدينة أو ثلثها تقريبا ويطل على الميناء الكبير ويمتد حتى شارع كانوب ويحتوى أهم معالم العاصمة ، فقد كانت توجد فيه القصور الملكية ودار العلم والمكتبة والجيمنازيوم والمحكمة ومدافن الاسكندر الأكبر والبطالة . أما مضمار

القديمة لا يزال مطمورا تحت مباني المدينة الحديثة فاننا نستطيع أن نتبين مما كتبه شعراء القرن الثالث انهم كانوا يعتبرونها أعظم مدينة فى العالم حيث تتوافر كل نعم الحياة ومباهجها . وحسبنا أن نستشهد بما أورده هيرونداس Herondas على لسان امرأة عجوز تحدث الى شابة رحل عنها زوجها الى الاسكندرية : « لقد انقضت عشرة شهور منذ سافر ماندريس Mandris الى مصر لكنه لم يرسل اليك كلمة واحدة . ولا شك فى أنه قد نساك وانتهل من منبع سرور آخر ! مصر ! ( يقصد الاسكندرية ) هناك حيث يوجد معبد الالهة ( ارسينوى ) وكل شئ يمكن وجوده فى أى مكان آخر : ثراء وملاعب ومجد وراحة وعظمة ومباهج وفلاسفة وذهب وشبان وملك كريم ودار للعلم وخر وكل الأشياء الطيبة التى يمكن أن تتوق اليها النفس ، ونساء يفقن فى عددن ويضارعن فى جمالهن الالهات اللائى احتكمن الى باريس » .

ويبدو ان الاسكندر قد اختار المكان الذى شيدت عليه الاسكندرية لبعده عن رواسب فرع النيل الكانوبى ، وسهولة وصول مياه الشرب اليه وقرب بحيرة مريوط وجزيرة فاروس منه ، فقد كانت البحيرة تتصل بالنيل وتهىء للمدينة ميناء يربطها بداخلية البلاد ، كما أنه بد جسر من الجزيرة

سباق الخيل وساحة الألعاب فانهما كانا يقعان في أطراف المدينة ، أولهما في الناحية الشرقية ، وثانيهما في الناحية الجنوبية الغربية ، في حي راكوتيس حيث أقيم معبد السيراييوم .

وفي مواجهة حي القصور الملكية وعلى صخرة شرقى جزيرة فاروس شيدت منارة الاسكندرية المشهورة التي كانت احدى عجائب العالم القديم . وبرغم اندثار معالم هذا البناء الشامخ منذ عدة قرون فانه بفضل نتائج الأبحاث الحديثة نستطيع أن نكون فكرة تكاد أن تكون تامة عن هذه المنارة . ولقد كان يربط الجزيرة بصخرة المنارة جسر مائل يرتفع رويدا رويدا ويقوم على ستة عشر قوسا ويبلغ طوله ٦٨ مترا تقريبا . وشيد حول القسم الأول من المنارة ، لحمايته من طغيان البحر ، سور ضخم يبدو انه كان يحيط بكل جوانبه من الخارج افريز لا يعرف عرضه . وفي الوسط داخل هذا السور أقيمت المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يعلوها المصباح . وكان القسم الأول رباعي والثاني ثماني والثالث اسطوانى الشكل . أما المصباح فانه كان يتكون من ثمانية أعمدة تغطيها قبة أقيم عليها تمثال يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار تقريبا ، يرجح أنه كان تمثال پوسيدون اله البحار . وقد بنيت المنارة من الحجر وزخرفت بلوحات منحوتة من المرمر والبرونز .

وإذا كان كليومنيس النقراطيسى هو أول

من بدأ في تشييد الاسكندرية فانه كان لبطلميوس الأول والثانى أكبر نصيب في ذلك حتى يبدو أنه في عهد بطلميوس الثانى كانت المدينة قد استكملت أهم المظاهر التي اشتهرت بها في عصر البطلمة والرومان . ومع ذلك فان كل البطلمة تقريبا قد أسهموا في تجميل الاسكندرية .

ولم يتألف سكان الاسكندرية منذ فجر تاريخها من الاغريق والمقدونيين فقط ، اذ أن هذه المدينة بما توافر فيها من أسباب الكسب والحياة البهيجة الرغدة بوصفها عاصمة البطلمة وثغرا مهما ومركزا صناعيا كبيرا جذبت اليها الناس من كل فج وغدا سكانها سرعا خليطا عجيبا من مختلف الأمم مما جعل استرابون يصفها بأنها « خزان عام » . واذا كان من العسير تتبع ما مر بسكان الاسكندرية من تطورات فانه يمكن الجزم على الأقل بأمرين : أحدهما انهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من الاستقلال الذاتى . ولعل هذا هو ما حدا بالفيلسوف فيلون الى القول بأن الاسكندرية « عدة مدن داخل مدينة واحدة » ، والأمر الآخر انهم كانوا ينقسمون دائما طبقات تأتي في مقدمتها : طبقة المواطنين ، وكانت تتألف من أفراد أقدم الأسر الاغريقية وأعظمها شأنًا ، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة . ومثل ما كانت الحال في أكثر المدن الاغريقية كان المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات .



لوحة من الفسيفساء وجدت في الدلتا والآن في متحف الاسكندرية ، وهي تصور الاسكندرية بوصفها سيدة البحار . وقد صورت الاسكندرية في شكل سيدة ترتدي عباءة حريرية وتزين رأسها بتاج بحري وتمسك في يدها اليسرى زينة مؤخر سفينة .

والرأى السائد اليوم أنه في عهد البطالمة  
الأوائل كان لطبقة المواطنين مجلس للشورى  
Boulé وجمعية شعبية ، لكن يبدو أنه في  
عهد أحد البطالمة الأواخر ألغيت هاتان  
المنظمتان اللتان كاتتا تعتبران من أهم مظاهر  
الحياة العامة في المدن الاغريقية . ولما كانت  
الاسكندرية تتمتع باستقلالها الذاتي وكان  
الاستقلال السياسى يستتبع حتما وجود  
استقلال قضائى ، فانه كانت للاسكندرية  
محاكم مستقلة . وبوصف الاسكندرية مدينة  
مستقلة كان لها حكامها المحليون الذين  
ينتخبهم أفراد طبقة المواطنين . .

### ٢ - قنراطيس

أما قنراطيس ، تلك المدينة الاغريقية  
القديمة التى تأسست فى عهد ابستىك الأول  
فانها كانت شديدة الشبه فى مظهرها الخارجى  
بأى بلد مصرى ، فقد كانت تتألف من بيوت  
مبنية من اللبن على جوانب شبكة معقدة من  
الشوارع والأزقة . لكن قنراطيس مثل  
الاسكندرية وبطوليميس كانت تختلف عن  
المدن المصرية اختلافا بينا من الناحية السياسية  
اذ أن مدن مصر الاغريقية لم تخضع للسلطة  
المحلية ، وان لكل مدينة منها كيانها المستقل  
ودستورها الذى يكفل لمواطنيها حقوقا  
سياسية تمكنهم من الاشتراك فى حكم  
مدينتهم وتحد من استبداد السلطة المركزية  
ومثلها . وتشير القرائن الى أن قنراطيس قد  
احتفظت فى عصر البطالمة بنظمها بوصفها

مدينة اغريقية حرة . ويسود الاعتقاد أن  
دستورها كان يشبه دستور مسيليا Masslia  
ويمتاز بمجلس أرستقراطى . وقد كان طبيعيا  
أن تتضاءل أهمية قنراطيس التجارية بعد  
تأسيس الاسكندرية لكن مخلفاتها الأثرية  
تدل على أنها كانت لا تزال مزدهرة فى عصر  
البطالمة الذى احتفظت فيه كذلك بثقافتها  
الاغريقية وأنجبت عددا من أبرز رجال الأدب  
الاغريقى .

### ٣ - بطوليميس

أما بطوليميس التى أثنأها بطلمىوس  
الأول غربى النيل فى أقاصى الصعيد  
( المنشأة بالقرب من أخميم ) لتكون مهدا  
للحضارة الاغريقية فى الوجه القبلى ومركزا  
لمقاومة نفوذ العاصمة المصرية القديمة طية ،  
فقد عفا عليها الزمن الى حد أنه يتعذر علينا  
الجزم اذا كانت تشبه قنراطيس  
أو الاسكندرية ، وان كان الأرجح أن  
مهندسى بطلمىوس الأول اتخذوا من  
الاسكندرية نموذجا يحتذونه فى تشييد  
بطوليميس .

ولا تدع الوثائق سبيلا الى الشك فى أن  
بطوليميس كانت تنعم بكل النظم الدستورية  
المألوفة فى المدن الاغريقية ، فقد كان لها  
مجلس شورى وجمعية شعبية ومحاكم  
مستقلة وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين . وكان  
المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات  
ويتوافر لديهم ما كانوا يتمتعون به فى بلادهم  
الأصلية من المعابد والمعاهد والمسارح .

ويجدر بالملاحظة أولا أن مديرية الفيوم وكان ثلثا سكانها من الاغريق ، قد اختصها البطالمة بنظم لم تعرفها باقى المديريات ، اذ كانت تنقسم لثلاثة أقسام merides على رأس كل قسم منها ابيستاتس . وحوالى منتصف القرن الثالث قست الأقسام الى نومارخيات ، والنومارخيات الى أقاليم ، والأقاليم الى قرى . وثانيا ان المنطقة الممتدة من الحدود الجنوبية لمديرية هرموبوليس حتى أسوان كانت تعرف باسم منطقة طيبة ، وأنها منذ عهد بطلميوس الخامس وضعت تحت سلطة حاكم عام ، وذلك فضلا عن تقسيمها الى عدة مديريات أسندت ادارتها الى عدد من القواد كان لكل منهم نائبه على رأس كل مديرية تقع فى دائرة اختصاصه . وثالثا ، ان بطلميوس الخامس ذهب الى حد اقامة حاكم عام على كل أقاليم مصر بسبب ما ساد البلاد من اضطراب . ومرد النظام الادارى الذى انفردت به منطقة طيبة وزيدت فيه القيود والضوابط الى الثورات القومية التى اندلح ليهيها على عهد البطالمة الأواخر وكانت مدينة طيبة أهم معاقلها .

#### رابعا - قوات البطالمة

##### ١ - الجيش

عرفنا أن مصر كانت جزءا من امبراطورية الاسكندر التى اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى ليعتوا تلك

أخذ البطالمة عن الفراعنة نظام تقسيم البلاد الى مديريات ، فقسوا الدلتا ووادى النيل - فيما عدا المناطق التى خصصت للمدن الاغريقية - الى مديريات ، كان كل منها يؤلف وحدة ادارية منفصلة عن الأخرى واستحدث البطالمة من التعديلات فى التفاصيل ما يضمن لهم حسن تطبيق هذا النظام والسيطرة على البلاد سيطرة تامة . ومن أمثلة ذلك انه حتى الفتح المقدونى كان يحكم كل مديرية مدير Nomarch لكن البطالمة لم يلبثوا أن اعتبروا كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها قائد Strategos أجنبى ومدير . ولما كان من اختصاص القائد الاشراف على شؤون المنطقة العسكرية والمدينة جميعا ، فقد أصبح المدير مرءوسا للقائد وتضاءلت أهميته حتى لم يعد له فى القرن الثانى قبل الميلاد نصيب فى الادارة .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد متفاوت من الأقاليم topoi . وكما كان لكل مديرية عاصمتها كذلك كان لكل اقليم عاصمة حيث تتركز ادارته ، وكان كل اقليم ينقسم الى عدد من القرى Komai ، كان لكل منها حاكمها الادارى epistates ومثلو الادارة المالية . وكان يشترك فى ادارة شؤون القرية جماعة من شيوخها كانوا يعرفون فى خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد باسم شيوخ المزارعين أو شيوخ مزارعى الملك .

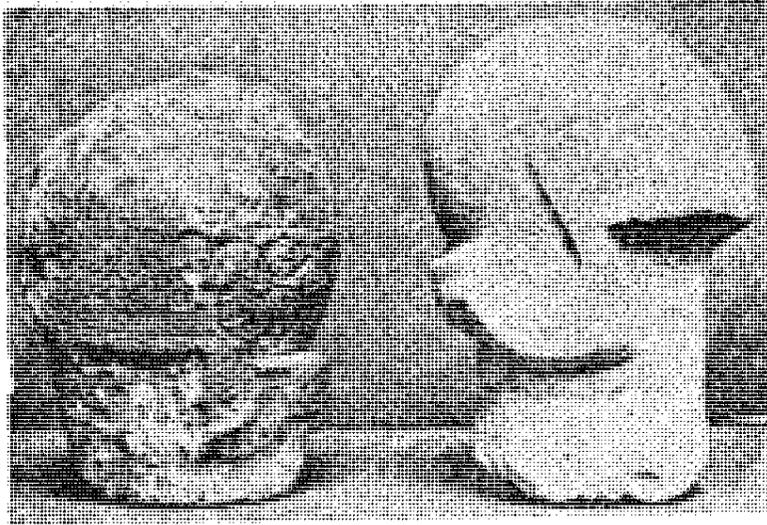
الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش الى ما قبل معركة رفع في عام ٢١٧ ق ٠ م .

وكانت الفرق المرتزقة في جيوش الاسكندر وخلفائه فئتين رئيسيتين . أما الفئة الأولى فتشمل تلك الفرق القومية التي كانت تحتفظ في الجيش الذي تنضم اليه بملابسها وأسلحتها القومية وتدمج في ذلك الجيش بسبب نوع السلاح الذي اشتهرت به . وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا باسم جنسيتها وأحيانا بالاسمين معا . أما الفئة الثانية فانها كانت تتكون من أولئك الجنود المرتزقة الذين كان يجندهم ضباط مرتزقة اما من بين مواطنيهم واما من أسواق الجنود المعروفة في العالم الاغريقي . وكان يمكن استخدام جنود هذه الفئة مشاة أو فرسانا . واذا كان الجنود المرتزقة لا يتعاقدون في الأصل الا على القيام بحملة واحدة ضد عدو معين فانه فيما يبدو أصبح بعض الجنود المرتزقة يكونون فرقا دائمة في خدمة البطالمة .

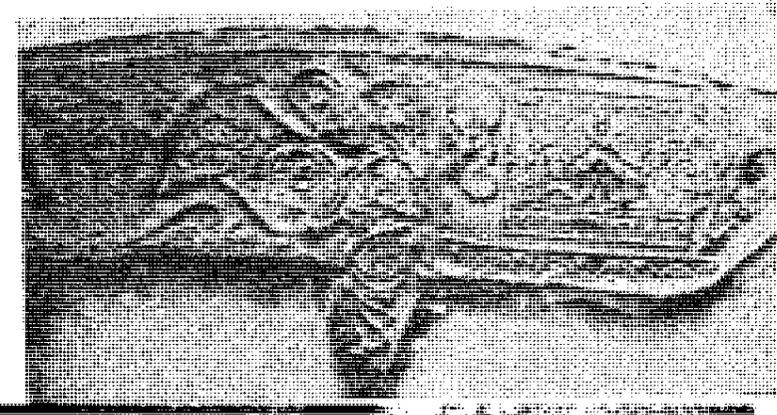
وحين وفد بطليموس على مصر وأخذ بشيد فيها صرح مملكته كانت لا تزال توجد تلك الطبقة الوراثة من المحاربين المصريين . ومن ناحية أخرى كانت تحت امرة منافسى البطالمة جيوش وأساطيل مؤلفة من خسيرة جنود العصر وأعنى المقدونيين والاغريق ، الذين أثبتت حملات الاسكندر وخلفائه

الامبراطورية من جديد ، وأن بطليموس الأول كان يشد الاستقلال بمصر وبناء دولة قوية غنية فيها . ولذلك رأى هذا العاهل ضرورة تكوين جيش وأسطول قويين يمكنانه من الذود عن حياض مملكته ومن تحقيق أهدافه الخارجية .

وقد اتخذ بطليموس من القوات التي كان الاسكندر قد تركها في مصر نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم . واذا كنا لا نعرف كيفية تكوين الجيش البطلمي فاننا نعرف على الأقل انه بعد ما تم تكوينه كان يتألف من ثلاث فئات رئيسية وهي : الفرق النظامية والفرق المرتزقة والفرق المصرية . وتشير القرائن الى أن أكثر أفراد الفرق النظامية كانوا يجندون من مختلف أنحاء شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجه . ومع ذلك فان هذه الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب انها كانت في الأصل كذلك ، وبسبب اعتزاز البطالمة بأصلهم المقدوني ، ولا سيما ان الجيش كان يعتبر قبل كل شيء جيش الملك بطليموس . وتدل الوثائق على أن الفرق النظامية كانت قسمن وهما فرق الفرسان و فرق المشاة ؛ وعلى أن فرق الفرسان كانت مرتبتين : أولاهما أرفع مكانة من الثانية . وقد كانت فرق المرتبة الأولى تميز بالأرقام ، أما فرق المرتبة الثانية فانها كانت تميز بحسب جنسية أفرادها . وكانت فرق المشاة النظامية تميز بالأرقام وتعتبر أقل مرتبة من فرق



نموذجان من الحجر الجيري للخسوذات المقدونية . عشر عليها بين أطلال منف  
( ميت رهينة ) حيث وجدت نماذج مماثلة كثيرة .



جزء من الخوذة التي توجد الى اليسار في الصورة العليا . لاحظ تفاصيل الزخرفة .

جيش أنطيوخوس المؤلف من الاغريق  
والمقدونيين أشعل روح الوطنية الكامن في  
صدور المصريين وأعاد اليهم الثقة بأنفسهم  
فاتنفضوا تأثيرين على البطالة .

وإذا كان المصريون قد أدمجوا في صلب  
الجيش على عهد بطلميوس الرابع فانهم كانوا  
يؤلفون فرقا مستقلة بهم واستمروا يكونون  
جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة  
البطالة فيما يبدو . ولا بد من أن ثورات  
المصريين على البطالة الأواخر قد جعلت هؤلاء  
البطالة يأسفون على بدعة بطلميوس الرابع ،  
وذلك لأنهم لم يعتمدوا ثانية على المصريين في  
تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجرأوا على  
إخراج المصريين من الجيش .

## ٢ - الاسطول

لما كان البطالة الأوائل قد بنوا امبراطورية  
بحرية واسعة وأحرزوا انتصارات بحرية  
كبيرة ، فلا سبيل الى الشك في أنه كان لهم  
أسطول بحري قوى ، لكن ليست لدينا  
معلومات عن كيفية تكوين هذا الأسطول  
ولا عن قوته في العهود المختلفة .

وعلى كل حال يجب أن تفرق بين  
عنصرين من رجال الأسطول وهما : عنصر  
المجدفين وعنصر المحاربين . وحيث ان بحارة  
الأساطيل القديمة كانوا يتألفون من أدنى  
طبقات السكان ، وان البطالة وضعوا المصريين  
في أسفل الدرك ، فلا بد من أن بحارة  
الأسطول البطلمي كانوا يتألفون من المصريين  
وهذا هو ما تؤكد الوثائق . ولما كان البطالة  
الأوائل قد وضعوا جل اعتمادهم على  
المقدونيين والاعريق في تكوين قواتهم البرية  
فلا بد من أنهم فعلوا الشيء نفسه في تكوين

تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس . فماذا  
فعل البطالة ؟ لا شك في أن البطالة الثلاثة  
الأوائل اعتمدوا الى أقصى حد في تكوين  
جيوشهم على المقدونيين والاعريق لتقتهم في  
كفايتهم ، ولخوفهم من ألا يخلص المصريون  
الطاعة لهم ، ولرغبتهم في عدم استنهاض همة  
المصريين وانعاش روحهم القومية ، فالجيش  
في كل دولة وفي كل عصر قلب الأمة النابض ،  
لكن لا بد من أن أولئك البطالة كانوا يخشون  
أيضا اغفال أمر الجنود المصريين كلية ، وذلك  
لكيلا ينشر أولئك الجنود روح التذمر في  
البلاد . فكيف حل البطالة الأوائل هذه  
المشكلة ؟ يبين ان البطالة الثلاثة الأوائل لم  
يسرحوا الفسرق المصرية لكنهم كانوا  
لا يعتمدون عليها في القتال بل يعهدون الى  
بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال  
الثانوية ويسلحون بعضها الآخر بالأسلحة  
الخفيفة أو بأسلحتها المصرية العتيقة استعدادا  
للطوارئ في حالة الضرورة القصوى ، الى  
أن تهددت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة في  
وقت نضب فيه معين الرجال في بلاد الاغريق ،  
وتقص فيه عدد الجنود الأجانب الذين كان  
البطالة قد أنزلوهم في مصر ، فاضطر  
بطلميوس الرابع ، لمواجهة هذه الأزمة ، الى  
تدريب المصريين وتسليحهم مثل الاعريق  
والمقدونيين وتكوين قلب الجيش منهم .  
ويحدثنا پوليبوس بأن ما فعله بطلميوس  
الرابع كان عملا صائبا فيما يخص الحاضر  
لكنه كان بدعة خطيرة تتهدد المستقبل .  
ووصف عمل بطلميوس الرابع بأنه بدعة  
يدل على أنه لم يسبقه الى ذلك أحد من  
البطالة . والخطر الكامن في هذه البدعة هو  
ان انتصار المصريين في معركة رفع على قلب

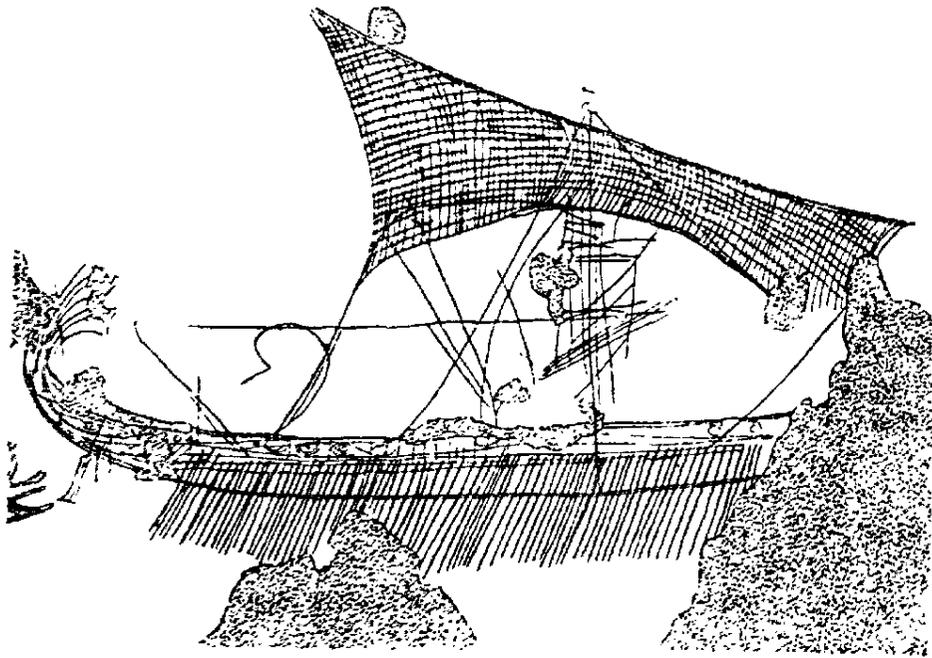
ثلاث فئات رئيسية ، وهي : أولا ، أولئك الذين كانت مهمتهم ضمان الاحترام اللازم لكبار الموظفين والدفاع عنهم اذا اقتضى الأمر. وثانيا ، رجال الشرطة بأدق معاني الكلمة . وثالثا فئة يقوم أفرادها بمهام مختلفة يصعب تحديدها .

ويبدو أنه في القرن الثالث كان الضباط وأرفع رجال الشرطة مقاما من الاغريق ، ثم أفسحت صفوفهم تدريجا للمصريين . أما رجال الشرطة العاديون فانهم كانوا في الغالب من المصريين منذ القرن الثالث ، وكان رجال الشرطة المصريون يمنحون اقطاعات متواضعة منذ بداية الأمر ، أما غير المصريين فانهم كانوا يمنحون مرتبات ، لكن يبدو أنه بمضى الزمن أخذ يتسع نظام منح اقطاعات لرجال الشرطة حتى شملهم جميعا ، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين .

قواتهم البحرية ، اذ لا يعقل ألا يعتمد أولئك البطالة على المصريين في تكوين قواتهم البرية ثم يعتمدون عليهم في تكوين قواتهم البحرية . وعندما أدمج البطالة المصريين في صلب الجيش منذ عهد بطلميوس الرابع ، لا يعد أنهم فعلوا ذلك أيضا في الأسطول . ومع ذلك فاننا نعتقد أنه كما كان الحال في الجيش ، كان أكثر جنود البطالة البحريين وأرفعهم مقاما ، حتى بعد عهد بطلميوس الرابع ، من الاغريق ومن على شاكلتهم .

### ٣ - الشرطة

وكان رجال الشرطة يتصلون بالجيش اتصالا وثيقا ، اذ أنه منذ القرن الثالث كان يوجد بين رجال الشرطة محاربون مصريون ، ومنذ القرن الثاني كان رجال الشرطة يساهمون في تكوين القوات المحاربة . ويمكن تقسيم رجال الشرطة بوجه عام



هذه صورة احدى سفن ثلاث خططها شخص في جدار منزل ديونيزوس في ديلوس . والصورة تمثل سفينة حربية اغريقية ما كانت تمخر عباب بحر ايجس في أواخر العصر الهيلينستي .

## الفصل الثالث - سياسة البطالة الدينية

أن بطلميوس الأول قد حمل بعض ألقاب الفراعنة التقليدية ، وان بطلميوس الثاني والثالث قد حملوا هذه الألقاب جميعا . ويستخلص من القرار الذي أصدره الكهنة في منف عقب موقعة رفح أن بطلميوس الرابع قد ذهب الى مدى أبعد من أسلافه في التشبه بالفراعنة ، فهو لم يكتف بحمل كافة ألقاب الفراعنة التقليدية بل انه توج أيضا على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طبيعيا أن يقتفى سائر البطالة المتأخرين أثر بطلميوس الرابع لأنهم كانوا جميعا ملوكا ضعافا ويعملون على مسألة المصريين .

### ٢ - احترام الديانة المصرية

وازاء رغبة البطالة الملحة في أن يظهروا أمام المصريين في ثوب الفراعنة الحقيقيين اعترفوا بالديانة المصرية دينارسميا ، وسمحوا للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكي يثبتوا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية حذوا حذو الفراعنة في تقديم القرابين للالهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حق حماية اللاجئيين اليها ، وانشاء المعابد والهيكل أو اصلاحها وزخرفتها ،

لقد عرفنا كيف كان البطالة يعتبرون أنفسهم سادة مصر بحق الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يقيموا حكمهم كذلك على حق الملوك الالهى ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين كافة رعاياهم ، ولذلك كان التسامح الدينى أبرز ما تتصف به سياسة البطالة الدينية بوجه عام .

### أولا - البطالة والمصريون

#### ١ - اتخاذ صفات الفراعنة

لما كان المصريون يعتبرون فرعون واهب النعم والحياة ومالك الأرض والسيد المطلق على أهلها ، فقد كان من الفطنة واصالة الرأي أن يتخذ البطالة صفات الفراعنة ، ليتمتعوا بمكاثتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويصبغوا مركزهم بصبغة شرعية في نظرهم ، ولا سيما أن الاسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه فرعوناً في منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التي درج الفراعنة على حملها منذ غابر الزمن . وتشير القرائن الى أن البطالة اتخذوا صفات الفراعنة بالتدريج ، ففى الوثائق الهيروغليفية والديموتيقية ما يثبت

وتصوير أنفسهم على جدرانها وكذلك على النقود والأحجار الكريمة في شكل آلهة مصرية .

ان نبوءة مثل نبوءة « صانع الفخار » التي تتحدث عن تحرير الوطن واجلاء الأجنب واعداد العاصمة الى منف واقامة فرعون وطنى لتعبير تعبيراً بليغاً عما كان يجيش فى صدور المصريين من الآلام والآمال وتصور لنا حقيقة مشاعرهم نحو هؤلاء الفراعنة الجدد . وان دلت هذه النبوءة على شىء فى تدل على أنه مهما أنفق البطالة من جهد فى الظهور أمام المصريين فى ثوب أسلافهم الفراعنة الوطنيين فان قلوب المصريين لم تطمئن اليهم ولم تعتبرهم فراعنة حقيقيين ولم ترفى الاسكندرية عاصمة للبلاد . فلا عجب ان كان المصريون يتوقون الى فرعون وطنى يقيم فى عاصمة وطنية بعد أن يحرر الوطن من مغتصبيه الأجنب .

### ٣ - موقف البطالة من الكهنة المصريين

كان رجال الدين المصريين يحتلون منذ عهد بعيد مركزاً رفيعاً وأهمية خطيرة فى حياة البلاد ، بحسب الملوك حسابهم ويعتبرهم الأهالى مرشديهم وزعماءهم الروحانيين ، يستمعون الى نصائحهم وينزلون على ارادتهم . وازاء ذلك استقر رأى البطالة على أن يتخذوا منهم أداة لنشر الهدوء والسكينة فى البلاد ، ولذلك فانهم حين أظهروا اجلالهم واحترامهم

للديانة المصرية استنوا من النظم ما يكفل تقليم أظافر رجال الدين وخضوعهم لهم . وقد كان العامل المادى من أهم الوسائل التى لجأ البطالة اليها للحصول على طاعة القساوسة فانهم أسندوا ادارة أراضي المعابد الى الحكومة ، واستولوا على دخل الضريبة التى كانت المعابد تجيها من زارعى الكروم والفاكهة والبقول ، وألغوا احتكار المعابد وصناعتى الزيت ونسج الكتان لكى يقللوا من قوة الكهنة ويسطوا لهم أيديهم أو يكفوها تبعاً لموقف الكهنة منهم .

ويبين أن تضيق الخناق على الكهنة قد زج بهم فى صفوف الثوار مما حدا بالبطالة الأواخر الى محاولة كسب ود الكهنة بثتى الوسائل . ومع ذلك يبدو من تجويد المنح للكهنة فى عهود مختلفة بل فى العهد الواحد نفسه ان الكهنة لم يفلحوا فى استرداد كل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التى كان البطالة الأوائل قد سلبوهم اياها . وذلك لأنه عندما ضعفت السلطة المركزية وفسدت الأداة الحكومية كثيراً ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على تنفيذ قراراتها .

ويبدو أن الكهنة قد انقسموا فرقا وأشياغا ازاء سياسة البطالة نحوهم ، اذ حين كانت العلاقات متوترة بين البطالة وكهنة آمون فى طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالة ومنافى أولئك الكهنة ولا سيما كهنة منف .

على هذا النحو سننته تأليه حاكم مصر بعد وفاته ، وسنرى توا الآثار البعيدة التي تربت على اتباع هذه السنة .

وتشير كل الدلائل الى أن بطليموس الثانى هو الذى خطا الخطوة الثانية فى هذه العبادة . وقد كان أول ما فعله هذا الملك انه اتبع سنة أبيه ، فرفعه الى مصاف الآلهة بعد وفاته . ولم يكن ذلك بدعة فقد كان الاغريق يألون تأليه موتاهم الذين أسسوا مدنا حرة ، وبطليموس الأول لم يؤسس مدينة فصص بل ملكة عظيمة . ويبدو أنه عندما توفيت بريشكى أم بطليموس الثانى أشركها فى العبادة مع أبيه المؤله .

وقد مهد تأليه بطليموس الأول السبيل لتأليه سلالة ، لأن تأليه رأس أسرة البطالة أكسب سلالة صفة غير عادية سمت بهم فوق مستوى سائر البشر ، فلم يكن عسيرا عليهم بعد ذلك أن يرفعوا أنفسهم الى صف مؤسس هذه الأسرة . لكن على حين أن بطليموس الأول وزوجه رُفعا الى مرتبة الألوهية بعد وفاتهما رُفع سلالتهما من ملوك مصر الى هذه المرتبة فى حياتهم واحتفظوا بها بعد مماتهم . ولم يعد اليوم سبيل الى الشك فى أن بطليموس الثانى رفع نفسه وزوجه الى مصاف الآلهة فى أثناء حياتهما وعبد الاثنان معا باسم الالهين الأخوين ( Adelpoi ) ، وأقيم لهما معبد خاص فى الاسكندرية وقرنت عبادتها بعبادة الاسكندر

وكما عنى البطالة بكسب ولاء المصريين وودهم عنوا أيضا بكسب ولاء الاغريق وعظفهم . وقد كان الاغريق يدينون للبطالة بالامتيازات التى منحوها ، لكن لما كانت غالبيتهم رجالا أحرارا نشثوا فى جمهوريات اعتادوا الاشتراك فى حكمها ، وكانت مصر فى عهد البطالة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ، فقد لجأ البطالة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة الملوك عبادة اغريقية رسمية عامة فى الدولة حتى لا يرى الاغريق غضاضة فى تمتع أولئك الملوك بتلك السلطة المطلقة .

وبرغم ما يكتنف انشاء هذه العبادة من الغموض ، فاننا نستطيع أن نتبين أربع خطوات . أما الخطوة الأولى فقد خطاها بطليموس الأول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر دينا اغريقيا رسميا عاما فى مصر ، له كاهن مقدونى أو اغريقى يتمتع بمكانة رفيعة ويعينه الملك كل عام وتؤرخ باسمه كافة الوثائق فى طول البلاد وعرضها ، سواء ما كان منها مكتوبا باللغة الاغريقية أم المصرية ولما كان بطليموس خليفة الاسكندر فى حكم مصر ، فقد أصبحت سلطته بعد تأليه الاسكندر مستمدة من مصدر الهى ، وبذلك حق له أن يتمتع بالسلطة الشاملة فى مملكته . فضلا عن ذلك فان بطليموس قد وضع

## ٢ - احترام الديانة الاغريقية

وقد كان البطالمة مثل غيرهم من المقدونيين اغريقيا في كل نواحي حياتهم : في ثقافتهم وديانتهم والى حد كبير في أسمائهم ، بل انهم ادعوا انهم من سلالة الآلهة الاغريقية . وازاء عواطفهم الدينية وأصلهم السماوى الاغريقى وتعاليمهم الاغريقية ، كان طبيعيا أن يظهروا احترامهم للديانة الاغريقية ويعترفوا بها ديانة رسمية في دولتهم .

وفضلا عن كل ذلك كان يوجد دافع سياسى له وزن كبير في نظر البطالمة ، فقد كانوا فى حاجة الى رجال ورءوس أموان من بلاد الاغريق لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان يتعين عليهم كسب عطف الاغريق ، بأن يظهروا أمامهم فى ثوب حماة الحضارة الاغريقية ، وأن يشتوا للملا أجمع اجلالهم للديانة الاغريقية . فلم يكتف البطالمة بالاعتراف بالديانة الاغريقية ديناً رسمياً فى مصر ، بل أسبغوا عليها شتى مظاهر العطف ، فشيّدوا المعابد لآلهتها ، ومنحوا الضياع لمعابدها ، وأباحوا للاغريق حرية اقامة شعائرها ، وأقاموا صلوات وثيقة مع أشهر مراكز العبادة فى بلاد الاغريق ، وأنشئوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الأولمبية أو الحفلات الأثينية الجامعة ، كان يحج اليها الشعراء والمتبارون من كافة أنحاء العالم الاغريقى . وتصور لنا أشعار ثيوكرتوس كيف كانت تتجاوب فى شوارع

الرسمية العامة فكان يشرف على طقوس العبادتين كاهن واحد أصبح لقبه عندئذ « كاهن الاسكندر والالهين الأخوين » ؛ على حين أن عبادة بطلميوس الأول وزوجه برينيكى لم تترن بعد مع عبادة الاسكندر . وقد خطا بطلميوس الثالث الخطوة الثالثة فانه سمح باستمرار قرن الالهين الأخوين فى انعبادة مع الاسكندر بعد وفاتهما ، ولذلك عندما اقتنى خطوات أبيه ورفع نفسه وزوجه فى حياتهما الى مصاف الآلهة قرن عبادتهما بعبادة سلفيهما والاسكندر . فكانت هذه هى المرة الأولى التى تترن فيها عبادة الملك الحاكم وزوجه بعبادة سلفيهما وعبادة الاسكندر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاعدة ان كل بطلميوس وزوجه يرتقيان العرش يؤلهان ويخلع عليهما لقب الهى يميزهما عن غيرهما من البطالمة المؤلهين وتترن عبادتهما بعبادة أسلافهما وعبادة الاسكندر ، فنشأت على مر السنين وتعاقب ملوك وملكات البطالمة سلسلة جديدة من الآلهة . وعندما لاحظ بطلميوس الرابع ان سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرون مع الاسكندر الأكبر فى العبادة الرسمية العامة تبدأ ببطلميوس الثانى وزوجه ، على حين انه كان من حق مؤسس الأسرة وزوجه أن يكونا فى المقدمة ، خطا الخطوة الأخيرة فى تحويل هذه العبادة الى عبادة أسرية بوضع بطلميوس الأول وزوجه على رأس سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرون فى العبادة مع الاسكندر .

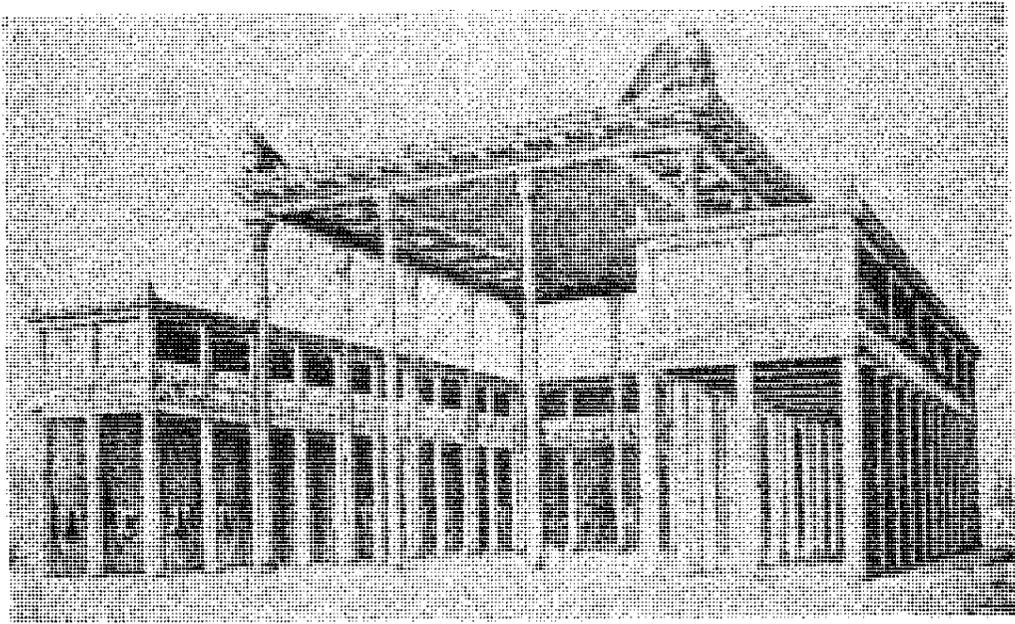
بوصف قاعة الولايم وكانت على شكل سرادق مستطيل شيدت أربعة من أعمدته المصنوعة من الخشب على طراز مصرى فى شكل النخيل . ولم يدخر الملك جهدا ولا مالا فى تجميل هذه القاعة وتزيينها ، فقد علفت حولها ستائر مزركشة وجلود حيوانات مفترسة وصفت على جانبيها مائة أريكة موشاة بالذهب وفرشت أرضها بالطنافس الفارسية ونثرت بالورود والأزهار وزين السرادق بأبدع ما أخرج المبرزون من المثالين والمصورين وأجل ما ابتكره أمهر الصناع من الأقمشة المزركشة بالذهب والدرع الموشاة بالذهب والفضة ووضعت فى مكان بارز من السرادق أريكة عرضت عليها آنية كثيرة من الذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة .

ويحدثنا كاليكسنوس بأن المهرجان أقيم فى مضمار السباق ودام من الصباح حتى

الاسكندرية فى أثناء اقامة هذه الحفلات اصداء مختلف اللهجات الاغريقية . وتدل الآنية الجنازية التى عثر عليها فى الاسكندرية وكانت تضم رماد جث بعض المبعوثين ارسمين الى هذه الحفلات انهم توفوا فى الاسكندرية فى أثناء أداء واجبهم الرسمى .

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات البطوليمايا Ptolemaea التى أنشأها بطلميوس الثانى تخليدا لذكرى أبيه المؤله . ويحتمل أن هذه الحفلات التى كانت مثل الحفلات الأولمبية تقام كل أربع سنوات ، قد أقيمت لأول مرة فى عام ٢٧٩ ق . م . بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بطلميوس الأول . ويبدو أن المهرجان الذى وصفه كاليكسنوس Callixenos كان بمناسبة احياء هذا الحفل أول مرة .

وقد بدأ كاليكسنوس وصفه الرائع

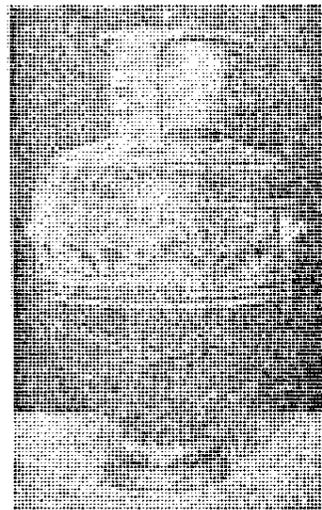
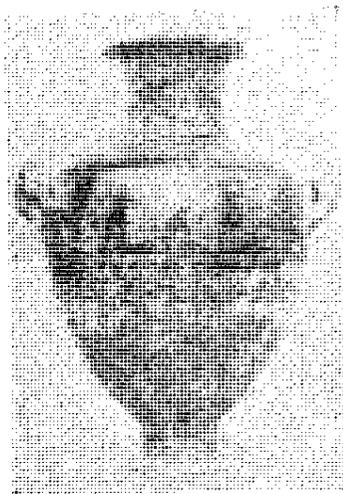
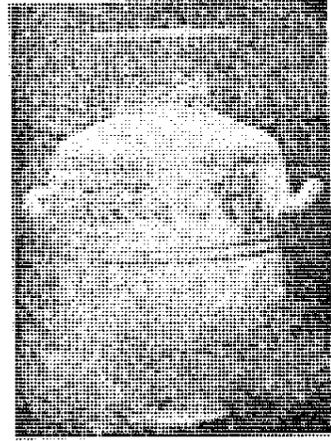
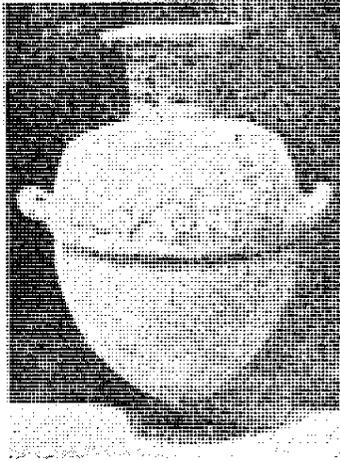


خوان ولايم بطلميوس الثانى على نحو ما وصفه كاليكسينوس وتصوره أحد العلماء المحدثين

غفيرة من النساء والرجال والأولاد ، يمثل بعضهم مناظر من القصص الدينية الاغريقية ، ويرتدى بعضهم الآخر أبهى الثياب ويحملون أكاليل الورد أو آنية من الذهب أو الفضة تفيض بالنيذ أو المأكولات أو البخور أو العطور .

وقد عرضت في المهرجان أنواع كثيرة من الحيوان والطيور النادرة واشترك فيه ٢٣٢٠٠ فارس و ٥٧٦٠٠ راجل كاملي العدة . ولعل القسم الذي يمثل عودة

الليل ، ولذلك كان يتقدمه ذلك القسم من المهرجان الذي يمثل نجم الصباح ، ويأتي في المؤخرة القسم الذي يمثل نجم المساء . وقد تبع نجم الصباح القسم الخاص ببطلميوس الأول وزوجه المؤلهين ، ثم تلت ذلك أقسام أخرى خصص كل منها لاله واحد أو أكثر ، وكان أحدهما للاله ديونيسوس ، وآخر للالهين الاسكندر الأكبر وبطلميوس الأول ، وآخر للاله زيوس وغيره من الآلهة ، وكان يصور كل قسم جمهرة من التماثيل والأشخاص تحملهم عربات يتقدمها ويسير خلفها أعداد



صورة آنية جنازية مما دفن فيها السفراء الأجانب الذين توفوا في الاسكندرية عند تمثيل بلادهم في حفل البطوليمايا .

ديونيسوس مظفرا من الهند كان أروع ما في هذا المهرجان الفريد الذي كان يسوده روح اغريقى بحت ويغلب عليه طابع حفلات ديونيسوس . واذا كان ملك مثل بطليوس الثانى لم يتصف بالسفه والاسراف بل عرّف بحرصه ودقة نظمه المالية قد أنفق على اقامة هذا المهرجان ما قيمته اليوم حوالى نصف مليون جنيه مصرى ، فان هذا يدلنا على مدى الأهمية التى كان يعلقها على اظهار اهتمامه بمظاهر الحياة الدينية الاغريقية وكذلك على استعراض دلائل ثراء دولته وقوتها أمام مبعوثى الدول الأجنبية .

### ثالثا - الاغريق والديانة المصرية

وقد كان الاغريق ينظرون الى الديانة المصرية نظرة اجلال واحترام ، بسبب قدم عهدها وغموض أسرارها . ودرج الاغريق منذ عهد هيرودوتوس على تشبيه الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية ، لكن لا ريب فى أن هذا التشبيه لم يكن الا تشبيها سطحيا لم ينفذ الى أعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهة الاغريقية ، وآية ذلك ان الاسكندر الأكبر والبطلمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة الاغريق وآلهة المصريين . وتشير القرائن الى أن اغريق مصر سواء أكانوا ينزلون فى مدن مصر الاغريقية أم فى خارج تلك المدن قد استمسكوا بعبادة آلهتهم القديمة : زيوس وهيرا وديمترو وافروديتى وغيرها . ولعله قد

ساعد على استمساك الاغريق بالهتهم ، وعدم اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير هذه الآلهة فى أشكال تجافى ذوقهم وعقليتهم وتصورهم لما يجب أن يتوافر فى صور الآلهة من صفات توائم مكائنها الرفيعة . ومع ذلك فان بعض الاغريق ، نتيجة لتلك التشبيحات ، وباعتبارهم نزلاء فى تلك البلاد التى تتمتع بحماية هذه الآلهة ، رأوا من الفطنة واصالة الرأى كسب عطف هذه الآلهة . ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت أسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضا بعضها الآخر بأسمائها المصرية حين لم تكن لهما مرادفات بين آلهتهم ، لكنها كانت تتمتع بحجة كبيرة بين المصريين استرعت أنظار الاغريق ، ومثل ذلك بيس Bes وتورت Taurt وسبك . ولا يبعد أن تبعد فريق من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو قد أفضى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية بالآراء الدينية المصرية ، لكن يجب ألا نبالغ فى قيمة ذلك ، لأنه اذا كان بعض الاغريق لم يروا غضاضة فى بعض الأحيان فى عبادة الآلهة المصرية فان الاغريق جميعا لم ينقطعوا عن عبادة الآلهة الاغريقية حتى خارج المدن الاغريقية . فقد كان المجال متسعا أمامهم لعمل ذلك ، اما فى الجاليات أو الجمعيات الاغريقية أو فى بيوتهم الخاصة .

ومن ناحية أخرى استمسك المصريون على الدوام بدياتهم ، التى كانوا يفاخرون بها

ويعتبرون المذاهب الاغريقية صورة مقنعة لها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من النقص الى حد يستنفر مشاعرهم ضد اتباعها . فلا عجب انه لم يقم دليل واحد على أن الديانة الاغريقية استهوت ولو نفرا قليلا من المصريين .

سياستهم الدينية ازاء المصريين والاعريق ، فانه باستثناء بطليموس الرابع ، الذى أراد أن يفرض على اليهود عبادة ديونيسوس واضطهدهم عندما رفضوا الارتداد عن دينهم ترك سائر البطالمة الآخرين لليهود حرية العبادة .

ويبدو أن سياسة البطالمة بوجه عام كانت مشبعة بروح العطف على اليهود ، لأن فلسطين كانت واقعة بين شقى الرحي ، أو بعبارة أخرى كانت ميدان سلسلة من الحروب الضروس بين البطالمة ومنافسهم السليوكيين ، الذين كانوا يتطلعون دواما الى حرمان مصر اياها . وبطبيعة الحال كان عطف البطالمة على يهود مصر يكسبهم تأييد يهود فلسطين ويساعدهم على تنفيذ سياستهم السورية .

#### ٢ - الفرس

وتتحدث الوثائق عن كثيرين ممن يدعون « فرسا » أو « فرس السلالة » مع أن أقلهم فقط يحملون أسماء ايرانية ، على حين ان أكثرهم يحملون أسماء اغريقية أو مصرية أو اسما اغريقيا ولقبا مصريا . وتشير الوثائق الى وجود عدد كبير من الفرس بين الجنود وأبناء الجنود فى مصر البطلمية والى أن هؤلاء الفرس استمروا يكونون طبقة خاصة حتى فى العصر الروماني . ومهما اختلف المؤرخون فى تفسير كثرة عدد الفرس فلا شك فى أن الفرس كانوا يتمتعون بالحرية الدينية فى مصر البطلمية .

#### رابعا - البطالمة وعناصر السكان الأخرى

##### ١ - اليهود

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق فى دولة البطالمة . ويرجع استقرار اليهود فى مصر الى عهد بعيد يسبق عصر البطالمة كثيرا ، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة فى أعقاب الفتح المقدونى وكذلك بعد ضم فلسطين الى مصر فى بداية عصر البطالمة . وتشير المصادر القديمة الى انتشار اليهود فى مختلف أرجاء مصر ، لكن أكثرهم كانوا يعيشون فى الحى الرابع فى الاسكندرية . وكان يهود مصر يزاولون مختلف المهن والحرف ، وكان من بينها الاشتغال بالتجارة واقراض الأموال ، لكن ذلك لم يكن وقفا عليهم ولا عملهم الرئيسى . وقد منح البطالمة الجالية اليهودية فى الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتى لم يمنحوه لآى جالية أخرى فى أى مدينة اغريقية ، لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين .

وقد كانت السياسة الدينية التى اتبعها البطالمة بوجه عام ازاء اليهود ، تقوم على أساس التسامح الدينى الذى قامت عليه

### ٣ - عناصر أخرى

وتشير القرائن الى أن سائر العناصر الأجنبية الأخرى التي استقرت في مصر ، مثل النراقين والفريجين والسوريين والفينيقيين والعرب ، قد أحضرت معها عباداتها وآلهتها كما فعل الاغريق واليهود ، وانها قد تمتعت جميعا بحريتها الدينية في ظل ذلك التسامح الديني الذي كان أحد الدعائم الأساسية التي أقام عليها البطالمة سياستهم الدينية .

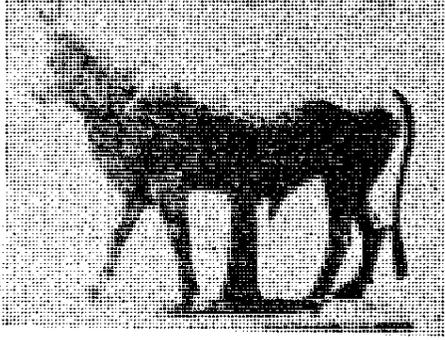
### خامسا - ديانة سيرابيس

لما كان بطلميوس الأول يعتقد ان ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والاغريق معا في العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وان استمرار النفور الديني الذي كان هيرودوتوس قد لاحظته من قبل لا بد من أن يعوق الألفة بين الفريقين ، فانه رأى من الضروري أن يؤلف بين قلوبهما بإنشاء ديانة جديدة تكون رابطة وحيدة ووثام بين المصريين والاغريق عندما يشتركون جميعا في التعبد الى آلهتها ، وبذلك يدركون انهم يتعبدون الى نفس الآلهة وانما كل فريق منهم على النحو الذي كان يألفه . ولا بد من أن بطلميوس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة في أن تخلف ديانة المصريين والاغريق ، وهذا ينصر ذلك الاهتمام الكبير الذي وجهه هو وسلالته الى الديانة الجديدة .

ويحدثنا پلوتارك بأن بطلميوس الأول

كون لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق لتنفيذ فكرته . وقد استقر رأى اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثا يتألف من سيرابيس Serapis وزوجه ايزيس وابنهما هارپوكراتس Harpocrates ويتفق الجميع على أن ايزيس وهارپوكراتس كانا الهين مصريين . أما سيرابيس ، كبير آلهة الثالوث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله ، لكن الرأى السائد اليوم انه كان أصلا الاله المصري أوزيريس ايس ، اله العالم الآخر في منف الذي ترينا بردية ارتميسيا Artemisia ان الاغريق حتى قبل عهد بطلميوس الأول كانوا ينادونه باسم أوسيرابيس Oserapis . وعلى كل حال فان آلهة الثالوث قدمت للاغريق في شكل اغريقي وللمصريين في شكل مصرى يبدو التباين بينهما في أجلى صورته في حالة سيرابيس الذي قدم للاغريق في شكل رجل كهل يشبه عن قرب الاله زيوس وأغدقت عليه كثير من صفات الآلهة الاغريقية ، على حين عبده المصريون في شكل العجل ايس ، وكان يعرف بعد وفاته باسم أوزيريس ايس .

وإذا كان بطلميوس الأول هو الذي أنشأ عبادة سيرابيس واخفاء الصورة التي قدم فيها هذا الاله لرعاياه الاغريق : فان الأدلة الأثرية تثبت ان بطلميوس الثالث هو الذي شيد المعبد الكبير الذي أقيم لهذا الاله في حي راقوده بالاسكندرية على ذلك التل الذي



تمثال للعجل أبيس أهدهاء  
الامبراطور هادريان لسيرايوم الاسكندرية .



تمثال لسيرايس .

في عداد الآلهة التي ظلوا على ولائهم لها ، ولم تصبح يوما آلهة هذا الثالوث الآلهة الوحيدة التي يتعبد المصريون اليها . وكذلك اعتنق الاغريق ديانة هذا الثالوث فقد قدمت لهم آلهته في ثوب اغريقي بل على انها نظيرة لآلهتهم الاغريقية . ومع ذلك وبرغم ما أظهره الاغريق لآلهة الثالوث المقدس من رعاية واحترام فانهم لم ينصرفوا الى عبادتها دون غيرها ، بل ان هذه الآلهة لم تحتل المكان الأول في عبادتهم . وآية ذلك أنهم حينما كانوا ينزلون في كثرة ، سواء في مدن مصر الاغريقية أم في خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم الاغريقية . ويكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية للاغريق طسوا عصر البطالمة كانت الى حد عبادة آلهة المدن التي

لا يزال قائما حتى اليوم في حي كرموز . وقد ذاعت شهرة مباني هذا المعبد بما كانت تتضمنه من مكتبة وأروقة وأفنية تقوم فيها الأعمدة والتماثيل ويؤدي اليها سلم كبير يتألف من مائة درجة .

ولا جدال في أن الديانة الجديدة قد نجحت من حيث فوزها بعدد كبير من الاتباع فانها لم تنتشر في مصر فقط بل انتشرت أيضا في أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقا حتى الهند وغربا حتى بريطانيا . لكن النجاح الحقيقي لهذه الديانة يجب أن يقاس بمقدار ما أفلحت في تأدية الغرض المنشود من اقامتها . فهل حققت هذا الغرض ؟ حقا ان المصريين عبدوا آلهة الثالوث المقدس ، ولكن في ثوبها المصري وباعتبارها

تمتعت بمكانة كبيرة ، لكن لما كانت تلك  
المكانة نتيجة لايحاء الحكومة ، وكانت تلك  
الديانة ديانة مفتعلة ، وكان البطالمة قد أباحوا  
لسائر رعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة  
الحقيقية لكل من المصريين والاعريق هي  
الديانة التي كان يألفها كل من الفريقين ،  
فلا عجب ان الديانة الجديدة لم تحقق الغرض  
المنشود من اقامتها .

أتوا منها ، والى حد كبير عبادة المذاهب ذات  
الأسرار التي كانت معروفة في بلاد الاعريق  
وبين اعريق آسيا وانتشرت اذ ذاك في كل  
أنحاء العالم الاعريقي ، مثل مذهب ديتمر  
ومذهب ادونيس ومذهب ديونيسوس  
تزاغريوس Zagreus .

ولا شك في أن الديانة الجديدة قد

## الفصل الرابع

### السياسة الاقتصادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — النقود

من المصانع واستخدام كافة الوسائل الفنية المروفة وتنظيم الانتاج تنظيما دقيقا ، يستغل الى أقصى حد مجهودات الأهالي والنزلاء الأجانب تحت اشراف ادارة مالية يقظة ، وتداول النقد ، وتصدير المنتجات التي تفيض عن حاجة البلاد ، واستيراد المسواد التي تفتقر اليها ، وتأمين طرق الملاحة .

#### اولا - الزراعة

ولما كانت الزراعة في مصر تتوقف على ضبط مياه النيل وحسن تصرفها ، فقد عنى البطالة بشق القنوات واقامة الجسور وصيانة هذه المنشآت وقد عنوا أيضا بإيصال المياه الى الأراضي المرتفعة ، وابتكر الاغريق آلتين جديدتين لهذا الغرض وهما الساقية والطنبور ، وسارع المصريون الى الافادة من هاتين الآلتين الى جانب شادوفهم العريق . واستغل البطالة الأوائل مهارة الاغريق الهندسية ، ودراية المصريين بالزراعة في استصلاح مساحات واسعة من الأراضي في الفيوم ، وكذلك في مناطق أخرى مشابهة لها . وهكذا توفر لدى البطالة من الأراضي

أملت اعتبارات كثيرة على البطالة سياستهم الاقتصادية ، فقد كان تحقيق أهداف سياستهم الخارجية يتطلب أموالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الدول ورجال السياسة . وكانوا في حاجة الى المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية . ولما كانت قد استقرت في البلاد عناصر جديدة من السكان وكان أغلب هذه العناصر من الاغريق أو ممن لهم ميول اغريقية فانه كان يجب توفير سبل العيش لهذه العناصر وسد حاجاتها .

وقد رأى البطالة ان الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضى زيادة الانتاج المصرى ، ورفع مستوى المنتجات المصرية ، بحيث تسد مصر حاجة كل سكانها ، وتصدر مقادير كبيرة من منتجاتها تكسب بها الأسواق الخارجية ، فيفيض عليها الذهب والفضة وغير ذلك مما تفتقر اليه البلاد من المواد مثل الأخشاب والمعادن وازاء ذلك عمل البطالة على زيادة مساحة الأرض المنزرعة ، واستغلال الأرض المنزرعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، والاكثر

ما يمكنهم من اغراء الكثيرين من الاغريق بالاستقرار في البلاد . ولم يدخر البطلمة وسعا في استغلال الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، لكنهم لكيلا يضعفوا التربة وضعوا نظاما دقيقا للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتابة . وقد كان الحديد من بين المواد التي اهتم البطلمة باستيراد كميات وفيرة منها لسد حاجة البلاد ، وترتب على ذلك أن أغلب الأدوات الزراعية كالقأس والجاروف والمنجل والبلطة وعجل العربات أصبحت تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد .

ولم يدخر البطلمة جهدا في توفير الأسباب التي تكفل الاكثار من زراعة الحبوب وغرس الكروم والفاكهة ومختلف أنواع الأشجار ، وتحسين أصناف كل هذه المزروعات بأقلية أنواع جديدة منها ، وادخال أنواع عديدة من الحاصلات التي لم يكن لمصر بها عهد من قبل . فتحدث الوثائق عن زراعة القمح السورى والفارسى والحمص البيزنطى ، وعن استيراد أشجار التين من خيوس وليديا ، وأشجار رمان ليس لثمرها بذور ، وأشجار مشمش ثمر في العام مرتين ، وكروم تنتج أصنافا متعددة من العنب ، واستنبت ثوم ليكيا وكرب رودس وأنواع كثيرة من الأزهار .

ولما كانت الثروة الحيوانية تخدم مطالب الزراعة ومطالب الديانة ومطالب الحياة

اليومية من غذاء وكساء ، فإن البطلمة عنوا بتنمية هذه الثروة ، وساعدهم على ذلك وفرة المراعى في البلاد . ومن أجل تحسين الأصواف المصرية استقدم بطلميوس الثانى من الخارج نوعا من الأغنام كانت لأصوافها قيمة كبيرة جدا الى حد انها كانت تغطى ثجز . وقد أولى البطلمة عنايتهم كذلك الى تربية النحل ، فقد كان غسله يستخدم حيث نستخدم السكر اليوم ، والى تربية الدواجن ، وخاصة الحمام ، لأنه كان أرخص أنواع الترف في غذاء الأهالى ، فضلا عن ذلك كانت له أهمية خاصة بسبب غنى روثه ووفرتة .

وقد كللت جهود البطلمة الأوائل بالنجاح اذ كان أبرز نواحي الحياة الاقتصادية في مصر في خلال القرن الأول من حكم أولئك الملوك ازدياد مساحة الأراضى المنزرعة ، وازدياد الحاصلات الزراعية بوجه عام والحبوب بوجه خاص . لكنه كان من المحال وضد طبيعة الأشياء أن تدوم هذه النهضة الاقتصادية . ولا أدل على ذلك مما نلاحظه منذ آخر عهد بطلميوس الثالث من نقص مطرد في مساحة الأراضى المنزرعة وكذلك في الماشية وفي عدد سكان القرى . فقد كان طبيعيا أن تتدهور الزراعة في كنف ذلك النظام المالى الكريه الذى وضعه بطلميوس الثانى ، لأنه أبهظ كاهل الأهالى ، ولا سيما

الصناعات المصرية وأصبحت مركز الجاذبية الاقتصادية ، غير انه عقب وفاة الاسكندر الأكبر انتقل ذلك المركز الى الممالك الهيلينستية العظيمة التي قامت في مقدونيا وآسيا ومصر واسترعت أنظار الاغريق ، فهرعت أفواجهم اليها وشاركوا في انعاش صناعاتها وباقي نواحي حياتها الاقتصادية . وقد كان لمصر نصيب كبير من أولئك المهاجرين الذين نزحوا اليها من مختلف بلاد شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجة وآسيا الصغرى .

وقد كانت المشاكل التي واجهها البطالمة في ميدان الصناعة مماثلة لما واجهوه في ميدان الزراعة ، وهي توفير سبل العيش لكثير من المهاجرين ، ورفع مستوى الصناعة ، وسد حاجة السوق المحلية والسوق الخارجية . فقد استقرت في البلاد عناصر جديدة كثيرة أغلبها من الاغريق أو ممن لهم ميول وعادات اغريقية ، وازدادت القوة الشرائية لدى الدول الهيلينستية ، وكذلك اقبالها على المنتجات المصرية . ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب واستيراد ما تقتقر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجارى فى صالحها ، أنشأ البطالمة مصانع كثيرة ، واحتكروا انتاج بعض الصناعات ، وأشرفوا على انتاج ويسع البعض الآخر ، وعملوا أيضا على زيادة انتاج صناعات عديدة ، وتحسين أصنافها ومراعاة ذوق المستهلكين .

عندما قام على تنفيذ مؤظفون غير أمناء ما دفع الأهالى الى الفرار من مزارعهم أو تراخيهم فى أداء عملهم ، بل الى الثورة فى وجه الحكومة . وحين كانت نيران الثورات القومية تسرى فى كل أنحاء البلاد سريان النار فى الهشيم ، ووسط الاضطرابات العنيفة التى أثارها الانقسامات بين أفراد أسرة البطالمة ورجعت البلاد أصداءها ، أهملت وسائل الرى بل عمد الأهالى الى تخريبها . وزاد الطين بلة أعمال التخريب والتدمير والسلب والنهب التى نجمت عن غزوة أنطيوخوس الرابع . وقد بذلت الحكومة كثيرا من المجهودات لاصلاح الحالة لكن التوفيق لم يحالفها بوجه عام فى وقف تيار التدهور الذى جرف اقتصاديات البلاد .

#### ثانيا - الصناعة :

كفلت الطبيعة لمصر العوامل التى جعلتها مهد الحضارة ، فقد حبتها بوفرة فى موارد الثروة وفى عدد السكان الذين امتاز الكثيرون منهم بالمهارة اليدوية فلا عجب أن قامت فى مصر منذ أمد بعيد صناعات كثيرة ناجحة لم يكن لها منافس فى بعضها ومثل ذلك ورق البردى والمنسوجات الكتانية والزجاج والخزف اللامع وغير ذلك مما كانت مصر تصدره الى الكثير من بلاد العالم القديم .

لكن بلاد الاغريق ما كادت تتقدم فى شوط الحضارة حتى أخذت صناعاتها تنافس

الاغريق محبا اليهم . فامتلات أسواق العصر الهيلينستى بأدوات مصنوعة على أساس الأساليب المصرية فى الصناعة والزخرفة ، وان كان طراز المصنوعات اغريقية ، ونجد أمثلة طريفة لذلك فى الآنية الفخارية والزجاجية والمعدنية التى كشفت الحفريات عنها .

وإذا كان يبين ان أكثر الصناع المصريين بسبب طبعهم المحافظ واعتزازهم بتقاليدهم القديمة ورغبتهم فى سد حاجة عملائهم الذين بقيت غالبيتهم العظمى بعيدة عن كل مظاهر الحضارة الاغريقية ، لم تستهوههم بوجه عام فنون الصناعة الأجنبية ولذلك استمروا فى انتاج سلعهم التقليدية ، فانه يبين كذلك ان بعض الصناع المصريين كانوا ينتجون أيضا سلعا تقلد نظيراتها الاغريقية تقليدا كاملا أو فى بعض نواحيها فقط مثل الشكل أو عناصر الزخرفة أو أساليب الصنعة لكنها مصطبغة بالصبغة المصرية ، فاننا نجد بين الآنية الفخارية والحجرية التى صنعها المصريون فى عصر البطالمة أشكالا كانت مألوفة بين الاغريق . ولا يبعد أن ما حدث فى هذه الصناعة قد حدث كذلك فى صناعات أخرى .

وقد كان من بين نتائج ازدهار الصناعة فى المدن نزوح الكثيرين من الريف إليها ، وكانت الاسكندرية فى مقدمة المدن التى هرعت إليها أعداد كبيرة من العمال والصناع . ومما يجدر بالملاحظة ان أبواب

وبفضل مهارة المصريين ومواهب الاغريق استطاعت مصر أن تستجيب لكل مطالب الصناعة . وقد ساعد على ذلك أن تداول النقد وفر رموس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، وان الحركة العلمية فى معهد الاسكندرية غزت الصناعة بشرة تقدم العلوم وان البطالمة الثلاثة الأوائل اهتموا بتنشيط الصناعة اهتماما لم نعرف له مثيلا فى أى عهد من عهود تاريخها الطويل . وقد كانت من أهم الصناعات شأننا فى عهد البطالمة صناعة المنسوجات المختلفة وصناعة الزيت والنيذ والآنية الفخارية والمعدنية والأخشاب والورق والزجاج . ونستطيع أن تبين اهتمام البطالمة بسد حاجة الاغريق من انتعاش صناعة المنسوجات الصوفية وتحسين أنواع النيذ المصرى واتشار صنعه واستثناء زيت الزيتون من الزيوت التى كانت الحكومة تحتكر استخراجها وبهما .

وقد اقتبس الاغريق فى عهد البطالمة فنون للصناعة التى كان المصريون قد بلغوا بها فى عهد الفراعنة حدا يقرب من الكمال . وبطبيعة الحال كان شأن الاغريق فى مصر شأنهم فى أى مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، ومعنى ذلك انهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنى ، وتعلموا كل ما لم يعلموه منه قبلا ، وكذلك أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الاغريقية وجعلوه موافقا لذوق

### ثالثا - التجارة :

وقد كان طبيعيا أن يوجه البطالة عنايتهم الى تجارة مصر الخارجية ، اذ كان ذلك جزء من سياستهم الاقتصادية العامة التي كانت تستهدف زيادة الانتاج الزراعى والصناعى ورفع مستواه لسد حاجة السوق المحلية وكسب السوق الخارجية ، فتفيض عليهم الأموال وكذلك السلع التي تفتقر اليها مصر . ومن أجل تأمين تجارة مصر الخارجية ورواجها عملوا على السيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر ، كما عملوا على ألا تقتصر علاقات مصر التجارية على ممتلكاتها فقط بل أن تكون لمصر علاقات تجارية مع بلاد أجنبية أخرى في ثلاث نواح وهى : أولا بحر ايجة والبحر الأسود وثانيا الغرب والشمال الغربى وثالثا الجنوب والشرق .

ويجب أن نلاحظ انه له يكن في وسع ممتلكات مصر استيعاب كل صادراتها ، وانه اذا كان في وسع مصر بفضل مواردها الخاصة و وارداتها من ممتلكاتها أن تستغنى الى حد بعيد عن صادرات الدول الأجنبية لسد حاجاتها الحيوية ، فانها كانت لا تزال تفتقر الى بعض حاجاتها الهامة التي لم تتوافر في امبراطوريتها : كالذهب والفضة اللازمين لعملة البطالة وشراء حاجاتهم في مصر وفي خارجها ، وكذلك الصفيح والحديد اللازمين لسد حاجة الجيش والزراعة والصناعة . وقد كانت مصر في حاجة أيضا الى المطور والبخور

كل حرفة كانوا يتجمعون معا في أحياء معينة ويؤلفون قبايات تعاونية . وتدل الوثائق على انه قبل مجيء الاغريق الى مصر لم يسهم العبيد اطلاقا في حياتها الاقتصادية لكن الحال كان على عكس ذلك في بلاد الاغريق ، فهل أدت مساهمة الاغريق في حياة مصر الاقتصادية الى ادخال نشاط العبيد في الصناعة ؟ لا يبعد انه في مدن مصر الاغريقية ، وخاصة في الاسكندرية ، حيث يرجح انه كان يعيش ٢٠٠٠٠٠٠ عبد ، كانت توجد مصانع يعمل العبيد فيها . أما خارج المدن الاغريقية ، أو على الأقل خارج الاسكندرية ، فاننا لا نجد في نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل سواء في الزراعة أم الصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيهما . ومعنى هذا ان الاغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد بوجه عام .

وقد ترتب على كل العوامل التي سلفت الاشارة اليها ازدهار الصناعة في القرن الأول من حكم البطالمة ، ولما كانت أغلب الصناعات المصرية صناعات زراعية ، فان تدهور الزراعة منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث كان يستتبع حتما تدهور الصناعة . وفضلا عن ذلك فان الأسباب التي كان لها أبلغ الأثر في تدهور الزراعة قد تمخضت عن نتائج مماثلة في ميدان الصناعة ، حيث فشلت أيضا كل الجهود التي بذلتها الحكومة لوقف تدهورها والنهوض بها من جديد .

من كمية تلك الصادرات وجعلت الميزان التجاري في صالح مصر . ولا شك في أن البطالة كانوا يأخذون فضة ثقية لقاء الجانب الأكبر من صادرات مصر ، بمعنى أن تجارة مصر مع بحر ايجه كانت تمدها بجانب كبير مما تحتاج اليه من الفضة .

ومنذ أواخر القرن الثالث تأثرت تجارة مصر مع بحر ايجه بثلاثة عوامل رئيسية وهي : أولا ، ضياع سيادتها البحرية ، وثانيا ، الشلل الذي أصاب اقتصادها من جراء الاضطرابات الداخلية ، وثالثا ، ما أحرزته برجام وبيثينيا وبوتوس والقرم من التقدم الاقتصادي ، ولا سيما في الزراعة ، في خلال القرن الثاني قبل الميلاد . وليس معنى ذلك انه قضى على تجارة مصر مع بحر ايجه قضاء تاما ، اذ أن القرائن تشير الى أن مصر كانت لا تزال تصدر الى هذه الأرجاء بعض الحبوب فضلا عن بعض منتجاتها الأخرى مثل ورق البردى والمنسوجات الكتانية والمصنوعات الزجاجية . وتشير القرائن كذلك الى أن مصر أصبحت تستورد من بحر ايجه كميات كبيرة من الزيت ، لعله كان من زيت الزيتون .

وقد نجح البطالة الأوائل في انشاء علاقات تجارية وثيقة مع الأسواق الغربية ، وجنوا من وراء ذلك فوائد طائلة ، لأن هذه الأسواق كانت تستطيع استيعاب الكثير من المنتجات المصرية ، وكذلك سد الكثير من المطالب المصرية بمد مصر بالخيل من قرطجة

والبهار والأقمشة النادرة والأخشاب الثمينة ، مما كانت تتطلبه بكثرة الطقوس الدينية وحياة الرفاهية والترف لا في مصر وحدها بل كذلك في عالم البحر الأبيض المتوسط . فضلا عن كل ذلك كان البطالة يهتمون برواج تجارة مصر الخارجية للفوز بثراء عريض يقيمون عليه دعائم قوتهم ، وكذلك لنشر نفوذهم في أرجاء العالم المتمدن ، فالتجارة دائما تسبق العلم . وقد أسلفنا ان البطالة كانوا ينشدون ضمان تفوقهم الاقتصادي على منافسيهم ولعب الدور الأول في السياسة الدولية .

وقد حالف التوفيق البطالة الأوائل ، فتمتعوا حقبة من الزمن بسيادة سياسية وتجارية في بحر ايجه ، وأصبحت الاسكندرية من أهم المدن التجارية في العالم . وكانت أهم المواد التي تصدرها مصر الى أسواق بحر ايجه هي الحبوب الغذائية وورق البردى والمنسوجات الكتانية ، فقد كانت مصر أكبر مركز لانتاج الغلال في شرق البحر الأبيض المتوسط ، كما انها كانت تحتكر صناعة لفائف البردى وتصديرها الى كافة أنحاء العالم القديم ، وكذلك كانت تشتهر منذ عهد بعيد بمنسوجاتها الكتانية الدقيقة . وكانت بلاد الاغريق وآسيا الصغرى تصدر الى مصر الكثير من منتجاتها ، وكان من أهمها القطران والأخشاب والحديد والنييذ والفاكمة والأسماك المجففة وزيت الزيتون ، لكن المكوس الواقية التي فرضها البطالة حدت

والهند ( وكان العرب يحتكرون التجارة الشرقية القادمة بحرا ) على العطور والبحار والبخور والمسـر والقرفة والعاج والأرز والأصداف واللآلئ والأصبغ والقطن والحرير .

وكانت منتجات أعالي النيل تصل مصر اما عن طريق النيل أو طرق القوافل أو هضبة اكسوم والبحر الأحمر . أما التجارة الشرقية فانها كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية في سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط : وهى أولا ، طريق الشمال ، وكان يتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين والبحر الأسود والسنفور والدرديـل . وثانيا ، طريق الوسط ، وكان يأتي من الهند برا أو بحرا الى سلوكيا على الدجلة ثم يتجه الى دمشق وصور ، أو الى أنطاكية ومنها الى افسوس . وثالثا ، طريق الجنوب ، وكان طريقا بحريا من الهند الى الموانئ في جنوب بلاد العرب أو جنوبها الغربى ، وكانت أهمها فى عهد البطالمة اداانا وجزيرة سقطرى . وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها فى قبضة الاعراب ، فقد كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة الى حد انهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المنـدب .

ولما كانت منافذ هذه الطرق الثلاثة تقع فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وفينيقيا ، وكان ملوك مصر يحرصون على وضع التجارة الشرقية فى قبضتهم ، فان البطالمة وجهوا عنايتهم فى خلال القرن الثالث الى

وصقلية ، وبالسنفور من ايطاليا وصقلية ، وبالفضة من اسبانيا ، وبالقصدير من بريطانيا عن طريق قرطجـنة ومسـليا ، وبالحديد من ايطاليا ، والأدلة متعددة على أن علاقات مصر التجارية مع البلاد الغربية كانت نشيطة بوجه خاص فى القرن الثالث قبل الميلاد حتى نشبت الحرب البونية الثانية فشلت هذه العلاقات ، لكن يتبين من القرائن المتعددة انه بعد أن وضعت هذه الحروب أوزارها أخذت تنشـط ثانية تجارة مصر مع الأسواق الغربية ، التى احتلت منذ القرن الثانى مكان بحر ايجة وغدت أهم مجال لاستيعاب السلع الهيلينستية . ومما يجدر بالملاحظة أن ايطاليا لم تكن عندئذ فى حاجة الى حبوب مصر قدر حاجتها الى منتجات الصناعة المصرية ومواد الترف التى كانت مصر تستوردها من الصومال وبلاد العرب والهند . وقد ساعد على رواج تجارة مصر مع الغرب تدمير قرطجـنة تدميرا كاملا بعد الحرب البونية الثالثة .

وقد أظهر البطالمة اهتماما كبيرا بالتجارة مع الجنوب والشرق من أجل تصريف المنتجات المصرية مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال فضلا عن النيـد المستورد من البحر الأبيض المتوسط ؛ وكذلك من أجل الحصول من أعالي النيل على العاج وجلود التماسيح وعجول البحر والبيد وريش النعام ، ومن بلاد الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية

الاستيلاء على الأقاليم التي تقع فيها تلك المنافذ . وعندما تلاشى سلطان البطالمة من بحر ايجة وطرردوا من آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وفينيقيا في خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ، اتجه اهتمام البطالمة ولا سيما في عهد بطلميوس الثامن عند منتصف هذا القرن الى البحر الأحمر ذاته للسيطرة على تجارة طريق الجنوب قبل بلوغها منافذ ذلك الطريق . ولم يلبث أن امتد هذا الاهتمام الى المحيط الهندي أيضا .

وقد جنى بطلميوس الثامن أطيب الثمار من وراء الجهود التي بذلها لتنظيم الطريق الجنوبي وتأمينه اذ ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التي كانت تمر بمصر في عهده عما كانت عليه في عهد سلفه وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية عدة عوامل وهي :

- ( ١ ) الاقبال المتزايد على السلع الشرقية
- ( ٢ ) كشف طرق الاستفادة من الرياح الموسمية مما يسر الابحار مباشرة الى الهند دون الالتجاء الى الاعراب ، ( ٣ ) ضعف مملكة السيلوكيين باطراد ( ٤ ) انهيار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق . م .

وهكذا أحيى البطالمة الأواخر سيرة البطالمة الثلاثة الأوائل في تأمين وتنظيم الطريق البحري بين مصر وبوغاز باب المندب ، لكن بينما كان البطالمة الأوائل يستهدفون من وراء ذلك تيسير صيد الفيلة واستئناسها ونقلها من أجل استخدامها في جيوشهم ، وضمان

الاتصال بحرا ببلاد النوبة حيث توجد مناجم الذهب ، وبلاد الصومال حيث تتوافر مواد لم يكن لمصر عنها غناء منذ عهد الفراعنة ، كان البطالمة الأواخر يستهدفون تنشيط التجارة مع بلاد الصومال وبلاد العرب الجنوبية والهند . أما صيد الفيلة فقد أصبح غير ذي موضوع نتيجة لاستغناء البطالمة عن استخدام الفيلة في جيوشهم .

وجملة القول أنه في خلال القرن الأول من حكم البطالمة ، ازاء ازدهار الزراعة وتقدم الصناعة وتداول النقد ، واتساع ملك البطالمة وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية ، وانشاء العلاقات مع الدول الخارجية ، راجت تجارة مصر الخارجية فوصلت منتجاتها شرقا حتى الصين وغربا حتى اسبانيا وشمالا حتى بريطانيا وجنوبا حتى أواسط افريقيا .

وقد صاحب تدهور الزراعة والصناعة ، وانكماش ممتلكات البطالمة الخارجية ، وضعف نفوذهم في السياسة الدولية انكماش تجارة مصر مع بحر ايجة وكذلك مع الشرق . وازاء نقص موارد مصر نقصا خطيرا وزيادة الاقبال على السلع الشرقية وجه البطالمة الأواخر وخاصة بطلميوس الثامن اهتمامهم لتنشيط تجارة مصر مع الجنوب والشرق . وقد حالف التوفيق أولئك البطالمة فعدا لتلك التجارة شأن كبير كان له أثره في انعاش تجارة مصر مع الأسواق الغربية بعد أن كانت

الحرب البونية قد شلتها وألحقت بها ضررا خطيرا .

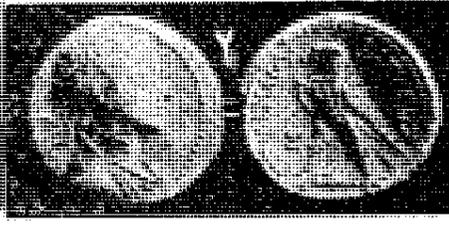
رابعا - النقود :

حين كانت المدن الاغريقية وبلاد الفرس تستخدم النقود منذ عدة قرون ، لم تكف مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ، الا أن هذا لا يعنى أنها كانت تجهل تماما استخدام النقود ، فقد كشفت الحفريات في قراطيس وسمنود وبني حسن في طبقة من الأرض سابقة على العهد المقدوني عن نقود اغريقية وفارسية ، بعضها أصيلة وبعضها تقليدات محلية . مما يدل على أن هاتين العملتين كانتا متداولتين في مصر وتسكان فيها قبل الفتح المقدوني ، وان كان تداولها محدودا ، ويبدو أنه كان مقصورا على الاغريق والفرس . فقد كان ملوك مصر في العصر الصاوي يستخدمون جنودا مرتزقة من الاغريق كانوا يأخذون أجرهم نقدا ، وفي عهد الفرس كانت توجد في مصر حامية فارسية وكانت مصر تدفع لحكامها الجدد جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية .

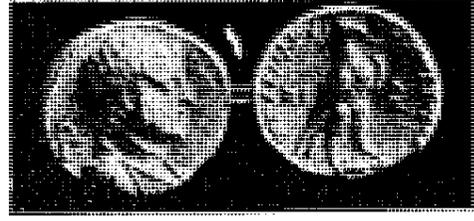
ويعزى الى الاسكندر الأكبر والبطلمية الفضل في سك عملة أخذ تداولها ينتشر في مصر رويدا رويدا وان لم يقض كلية على نظام التبادل . وتتألف العملة البطلمية من نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية . وما يجدر بالملاحظة ان النقود الذهبية والنقود الفضية نوعان : أحدهما عادي وكان

يسك في عهد الملك الذي تحمل صورته والآخر تذكاري لتخليد بعض الملوك السابقين وكثيرا ما تحمل العملة الفضية العادية على الوجه صورة بطلميوس الأول مؤسس الأسرة ، واسم بطلميوس الذي حمله كل ملوك هذه الأسرة . وبطبيعة الحال تحمل النقود الذهبية والنقود الفضية غير العادية صور مختلف ملوك وملكات البطلمة الذين سكت هذه النقود لتخليد ذكراهم . وتحمل النقود البرونزية على الوجه في حالات كثيرة صوراً مأخوذة من الأساطير ، كانت أغلبها رأس زيوس آمون ، وفي بعض الحالات رأس الاسكندر أو أحد ملوك أو ملكات البطلمة . وقد كان الطابع الذي يميز كل نقود البطلمة ، فيما عدا فئة محدودة أغلبها تذكاري ، يَصوِّر على الظهر ويتألف من سر واقف على صاعقة ، وأمامه أو فوق جناحه قرن واحد أو قرنان للرخاء . ونرى على ظهر النقود البرونزية التي سكت عندما كان ايولايوس ولنايوس يتوليان الوصاية على بطلميوس السادس نسرا واقفا على صاعقة وتحت جناحه الأيسر صولجان والى يساره زهرة اللوتس التي تعتبر أهم طابع لنقود بطلميوس السادس البرونزية . ويتميز ظهر النقود الفضية التي سكتها بطلميوس الثاني عشر وابنته كليوبترا السابعة بوجود فرع نخلة تحت الجناح الأيسر للنسر وتاج ايزيس أمامه .

## أمثلة لنقود البطالة :



٢



١



٥



٤



٣

- ١ - قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصفية لبطلميوس الرابع ، وعلى الظهر نسرا واقفا على الصاعقة .
- ٢ - قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة فضية لبطلميوس الخامس ، وعلى الظهر نسرا واقفا على الصاعقة .
- ٣ - قطعة فضية من عهد بطلميوس الأول تحمل على الوجه رأس الاسكندر ، وعلى الظهر اثينا پروماخوس .
- ٤ - قطعة ذهبية من عهد بطلميوس الأول تحمل على الوجه رأس بطلميوس الأول ، وعلى الظهر نسرا واقفا على صاعقة .
- ٥ - قطعة ذهبية سكنت تذكارا لأرسسبنوي الثانية ، وتحمل على الوجه رأس هسده الملكة ، وعلى الظهر قرني الرخاء .

كانت الفضة هي القاعدة الأساسية للعملة البطلمية . لكن عندما قلت الفضة التي كانت مصر تحصل عليها من تجارتها مع بلاد الاغريق وقرطجنة نتيجة لانكماش تجارتها الخارجية بسبب سوء حالتها الاقتصادية ، وضياع ممتلكاتها الخارجية ، وتقلص سيطرتها على الطرق التجارية ، ودخول الحرب البونية الثانية مرحلتها الحاسمة ، اضطرت مصر الى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية لتقدها . واذا كان هذا التغيير قد أفضى الى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية ، فانه لم يؤد الى القضاء كلية على قاعدة الفضة .

ولما كانت حال البلاد الاقتصادية قد أخذت تسير من سوء الى أسوأ ، ونقصت تبعاً لذلك موارد البطالمة بينما لم تنقص التزاماتهم ، فانهم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكان البلاد لجأوا الى زيادة القيمة الاسمية للعملة البرونزية ثلاث مرات منذ حوالي عام ١٨٢ ق . م . حتى سقوط دولتهم ففي آخر عهد بطليموس الخامس بلغت الأجور والأسعار ١٢٠ مرة كالأجور والأسعار المماثلة في عهد بطليموس الثاني والثالث . وعند منتصف القرن الثاني ارتفعت الأجور والأسعار الى ٢٤٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث . وفي خلال القرن الأخير من حكم البطالمة بلغت الأجور والأسعار ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث .

وقد كانت العملة الفضية أكثر عملات البطالمة شيوعاً على عهد البطالمة الثلاثة الأوائل . وحتى منتصف عهد بطليموس الثاني لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية ، لكن في النصف الثاني من عهد هذا الملك سكت كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن ليستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . وتشير الأدلة الأثرية والبردية التي ترجع الى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الى أن العملة البرونزية الجديدة قد صادفت نجاحاً كبيراً .

ومنذ الفتح المقدوني كانت العملة تسك في مصر على قاعدة النظام الأتيكي ، لكن بعد أن اتخذ بطليموس الأول لقب ملك ( عام ٣٠٥ ق . م . ) بسنين قليلة أصدر عملتين ، فضية وذهبية ، أقل وزناً من العملة القديمة لتنشيط التجارة الخارجية والتوفيق بين العملة وأسعار المعادن النفيسة التي كانت تزداد بإطراد في حالة الفضة وتتناقص في حالة الذهب . ولم تنفق قاعدة العملة الجديدة اتفاقاً تاماً مع قاعدة أى عملة معروفة عندئذ ، لكنها كانت تقرب جداً من قاعدة النظام الروماني . وبعد ذلك أنقص بطليموس وزن العملتين الفضية والذهبية ثانية باتخاذ قاعدة العملة الفينيقية . وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية أسرتهن بهذه القاعدة التي اتبعنها أيضاً امبراطوريتهم البحرية وكذلك كل البلاد التي خضعت لنفوذهم بأى طريقة كانت . وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد

## الفصل الخامس

### النظام المالي

الإدارة المالية -- نظام الأراضي -- نظام الصناعات والحرف -- نظام التجارة --  
ضرائب شتى -- نظام جباية الضرائب

#### أولا - الإدارة المالية

يجدر بنا أن نشير أولا إلى أن نظم البطالة المالية كانت شرقية في جوهرها ، فقد كانت تستند إلى أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما في باطنها ، وإلى أن الأهالي يطيعون هذا الملك الإله طاعة عمياء . ومع أن البطالة صبغوا هذه النظم بصبغة اغريقية قوية تتضح في دقة صياغتها واصطلاحاتها وطريقة تنظيم الضرائب وإشراف الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وخاصة في نظام المحاسبة والمراجعة الذي لم يكن لمصر عهد بمثله من قبل ، إلا أن هذه النظم أغفلت إلى حد كبير جوهر النظم الاغريقية ، وهو يتلخص في مبدئين أساسيين : الامتلاك الخاص وحرية النشاط الاقتصادي .

وقد كان يختص بحسابات الدخل والخرج خزانة مركزية أطلق عليها اسم « خزانة الملك » . وكان مدير هذه الخزانة يدعى ديويكيتس ، ويمكن تشبيهه بوزير المالية عندنا ، فقد كان مسئولاً عن كل الإدارة

المالية في مصر وفي كل ممتلكاتها الخارجية . وكانت اختصاصات هذا الوزير فضفاضة واسعة ، فهو الذي كان ينظم بأوامره كل شؤون الإدارة المالية دخلا وخرجا في مصر وفي ولاياتها ، ويعين موظفي الإدارة المالية ويراقبهم ويعاقب المقصرين منهم ، وتمتد سلطاته على كل الذين يشتغلون باستغلال موارد الدولة مثل الأراضي والاختكارات . ونستمد معلومات وفيرة عن وثائق زينون البردية عن ابولونيوس وزير مالية بطلميوس الثاني . ويبدو أن ابولونيوس عين في منصبه الكبير حوالي عام ٢٦٢ ق.م . وانه بقي فيه حتى وفاة بطلميوس الثاني ، وانه عٌزل وصودرت أملاكه قبل العام الخامس من عهد بطلميوس الثالث . ويتبين بوضوح من وثائق زينسون أن ابولونيوس لم يقصر نشاطه على مهام منصبه فقط ، فهو لم يكن وزيرا فحسب بل كان أيضا تاجرا وصاحب ضياع ومصانع ويمتلك أسطولا بحريا وآخر نهريا . ولعل

لضمان أداء الموظفين واجباتهم بأمانة ، مثل حلف اليمين ، وتعيين مختلف المراقبين ، لكن هذه الوسائل فشلت في تحقيق الغاية المنشودة . ومرد ذلك الى ثلاثة عوامل وهى :  
أولا المسؤولية الملقاة على عاتقهم عن دخل الملك ، وثانيا الرشاوى التى كانوا يقدمونها للمسؤولين من أجل الحصول على مناصبهم .  
وثالثا السلطة المطلقة التى كانوا يتمتعون بها على شعب أذله الحكم الأجيبى وأخضعته القسوة فلا عجب ازاء ذلك ان أساء الموظفون استغلال سلطتهم الى حد انهم أصبحوا فى الواقع أشد خطرا على البطالة من التاعسين الذين وقعت عليهم المظالم وهبوا تأثيرين لفرط شدتها فى وجه البطالة .

#### ثانيا - نظام الاراضى :

لقد عرفنا ان البطالة كانوا يعتبرون مصر ضيعة لهم بحق الفتح وحق الملوك الالهى . وقد ترتب على ذلك ان الملك كان من الناحية النظرية المالك الوحيد لهذه الضيعة ، ومن ثم يمكن تقسيم الأرض فى عهد البطالة قسامين رئيسيين وهما : أرض الملك ، وأرض العطاء .

#### ١ - أرض الملك :

وتشمل كل أرض مصر الصالحة للزراعة التى كان الملك يستثمرها مباشرة بتأجيرها بالمراد العلى لمزارعين كانوا يدعون « مزارعى الملك » . وكانت علاقات هؤلاء المزارعين بالملك تتركز على عقود كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد لمدد قصيرة الأجل ، لكنه

اپولونيوس كان فى طليعة أولئك الوزراء الذين لا يكتفون بالاضطلاع بأعباء مناصبهم من مكاتبهم ، اذ تحدثنا الوثائق عن طوافه بالمديريات من أجل الاشراف على أعمال مرهوسيه والبت فيما يعرض عليه من المشاكل . وكان يتغيب فى بعض الأحيان عن العاصمة بضعة أشهر ، وتصحبه فى هذه الرحلات حاشية كبيرة من الأعضاء والموظفين فقد كانت لوزير المالية حاشية تبدو كأنها صورة مصغرة لحاشية الملك .

وكان يوجد الى جانب وزير المالية وتحت اشرافه مراجع عام للحسابات والاحصاءات eklogistes كان له ممثلون محليون فى المديريات . وكان لوزير المالية مساعدون كثيرون hypodioiketai يبدو ان كل واحد منهم كان يختص بالاشراف على شئون منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . وكان للإدارة المالية المركزية ممثلون كثيرون ينتشرون فى المديريات والأقاليم والقرى ، ويختص كل منهم بمهام معينة تحت اشراف رقابة دقيقة . وكان هذا الجهاز المعقد يكفل للدولة بسط رقابتها على مختلف مرافق البلاد الاقتصادية ، وتطبيق النظم التى وضعت لتلك المرافق ، وجمع كافة البيانات الخاصة بالموارد التى تستمدتها الدولة من كافة أنحاء كل مديرية ، وضمان الحصول على كل ما تستحقه الدولة من تلك الموارد .

وقد لجأ البطالة الى وسائل مختلفة

كان من بين النتائج التى تربت على تدهور الحالة الزراعية وفرار المزارعين من أراضيهم اطالة مدة العقود .

ومع ان مزارعى الملك كانوا رجالا أحرارا ، الا أنه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التى استأجروها وعدم مبارحة قراهم طوال موسم الزراعة وحتى يسددوا للملك جميع التزاماتهم قبله . وفضلا عن ذلك فانه لم يكن فى وسع المستأجر أن يزرع الأرض التى استأجرها كما يشاء ، وانما وفقا للتعليمات التى كانت الحكومة تصدرها سنويا لتحديد بمقتضاها المساحة التى يجب زراعتها فى كل مديرية قمحا وشعيرا وأذرة وكتانا وحبوبا زيتية . ولكى تضمن الحكومة زراعة الأرض وجودة البذور ، كانت تفرض على المستأجر أن يقتصر منها البذور لقاء فائدة قدرها ٥٠٪ . وكان يتعين على المزارع أن يجمع المحصول وينقله الى الجرن الملكى ويدرسه تحت رقابة حراس مسئولين ، وآلا يمس منه شيئا قبل أن يأخذ الملك كل ما يستحقه . وكان ذلك عبارة عن الايجار السنوى مضافا اليه أجر استخدام مواشى الملك والفائدة عن قرض البذور وسلسلة من الضرائب ، فكان لا يتبقى للفلاح بعد ذلك الا أقل من نصف المحصول فى مقابل كل ما أنفقه من جهد . فلا عجب انه لم يكن سعيدا راضيا عن حاله . وعندما تدهورت الزراعة ازدادت حالة مزارعى الملك سوءا حتى ان الكثيرين منهم

لم يجدوا منفذا أمامهم الا ترك العمل والهرب . وعندما أعيت الحكومة شتى الحيل لضمان استغلال أرض الملك ، اضطرت الى الالتجاء الى الاكراه لتحقيق بغيتها ، لكنها بقدر ما أوغلت فى استخدام هذه الوسيلة استفحل داء هرب المزارعين حتى أصبح وباء متفشيا فى كل أنحاء مصر .

## ٢ - أرض العطاء :

ويبدو أنه لم يكن لعبارة « أرض العطاء » مدلول متفق عليه دواما حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد عندما أصبحت تشمل الأنواع التالية من الأرض :

### ١ - الأرض المقدسة :

كانت ثروة المعابد نوعين ، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة . وكانت أهم أملاك الآلهة عبارة عن الأرض التى كان الملوك يمنحونها منذ غابر الزمن لمختلف الآلهة ، حتى أصبحت لأولئك الآلهة ممتلكات واسعة كانت مصدر ثراء الكهنة وأحد أسباب قوتهم وقهوذهم . فقد كان كهنة كل معبد يتولون ادارة أرض معبودهم ، الى أن أسند البطالمة الأوائل ادارة أراضي المعابد المصرية الى الحكومة ليجعلوا العامل المادى سيفا مصلتنا على رقاب الكهنة يضمن خضوعهم لسלטانهم . ولا يبعد أن البطالمة كانوا يستفيدون أيضا ماديا من وراء قيام الحكومة بادارة أرض المعابد . وعلى كل حال يبدو ان الحكومة كانت ترد الجانب الأكبر من دخل أراضي

المعابد في شكل المرتبات التي كانت تدفعها للكهنة . ويبين أنه حوالى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، ازاء ضعف البطالة الأواخر وازدياء نفوذ الكهنة ، استرد رجال الدين ادارة الأرض المقدسة .

أما النوع الثانى من ثروة المعابد فكان الكهنة يملكون أو يتمتعون بدخله للقيام بشئون العبادة ، فقد كان يتصل ببعض مناصب الكهنة موارد مختلفة تدر على شاغلى تلك المناصب دخلا معينا . ويلوح انه قبل عصر البطالة كان الكهنة يستطيعون التصرف فى دخل هذه الموارد بالبيع أو التورث ، لكن البطالة جعلوا الحكومة هى التى تبيع مناصب الكهنة وما يتبعها من الموارد دون أن تعطى المشترين حق التصرف فى تلك الموارد . وقد حرص البطالة على هذا الحق حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد ، ومع ذلك تشير بعض الوثائق الى أن الكهنة درجوا فعلا على بيع مناصبهم ورهنها وتأجيرها وتقسيمها وتوريثها .

#### ب - الاقطاعات العسكرية :

لقد سلف القول ان البطالة ، ولا سيما أوائلهم ، اعتمدوا الى حد كبير على متطوعين من الأجانب فى بناء قوتهم العسكرية . وقد درج البطالة على منح أولئك المتطوعين اقطاعات كانت تعتبر بمثابة مرتباتهم فى وقت السلم . وكان البطالة يتوخون من وراء ذلك ؛ أولا ، ضمان سد حاجتهم الى الجند المدربين

كلما اقتضى الأمر ذلك ، دون تحمل نفقات الاحتفاظ بجيش قائم . وثانيا ، ادخال وسائل اقتصادية جديدة فى مصر . وثالثا نشر الحضارة الاغريقية فى أنحاء البلاد .

وكانت مساحة الاقطاع تختلف بحسب مرتبة الشخص ، وهل هو فى فرق المشاة ، أم فرق الفرسان ذات الأرقام ، أم فرق الفرسان القومية ، وهل هو فى الفرق النظامية ، أم فى فرق الجنود المرتزقة ، أم فى الفرق المصرية .

وفى أول الأمر كان الاقطاع ملكا للتاج ، فكان الملك يستطيع استرداده ولا سيما اذا أهمل رب الاقطاع فى أداء واجباته أو توفى . ولما كان من صالح الملك أن يخلف رب الاقطاع المتوفى جندى جديد فى الجيش وفى الاقطاع ، وكان من صالح أسرة رب الاقطاع أن تستمر فى استغلال الاقطاع ، فقد أدت على هذا النحو صوالح الملك وأرباب الاقطاعات الى جعل الاقطاع وراثيا .

وفى القرن الثالث كان الملك يمنح الاقطاعات عادة من الأرض التى استصلحتها الحكومة . لكن عندما تطورت ملكية كثير من الاقطاعات الى ملكية خاصة ، وأفضى تدهور الزراعة الى نقص مساحة الأرض المنزرعة ، لم يبق هناك مجال لاعطاء الجنود الجدد سوى تلك الأراضى التى أصبحت لسبب ما خلال سنين الاضطرابات العصبية فى القرن الثانى قبل الميلاد ضعيفة أو غير مشمسة . ولما لم يكن لكثير من أرباب

الأرض الصالحة للزراعة في الضياع الموهوبة كانت تعامل مثل أرض الملك ، أى انها كانت تدفع للتاج ايجارا وضرائب .

#### د - أرض الامتلاك الخاص :

تبين من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة في مصر مساحات كبيرة من الأرض يمتلكها الأفراد . وتشير الوثائق الى أنه في نهاية القرن الثانى قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين الفاكهة في الأرض التى هجرت بسبب جفافها أو طغيان المياه عليها تكسب الزراع حق امتلاك هذه الأرض امتلاكا تاما . ولا يبعد ان هذه القاعدة كانت متبعة منذ القرن الثالث أيضا . وكان الأفراد يمتلكون كذلك امتلاكا حرا أراضى البناء وما عليها من مبان . ويبدو أن البطالمة قد عملوا منذ بداية عهدهم على ازدياد مساحة أرض الامتلاك الخاص . فقد كان ذلك يساعد على اتساع مساحة الأرض المنزرعة ، وعلى نشر غرس الكروم وبساتين الفاكهة ، وعلى وجود طبقة من أصحاب الأملاك تمد البطالمة بأعداد وفيرة من الموظفين والملتزمين وضامنهم الذين يمكن الرجوع على ممتلكاتهم في حالة عدم الوفاء بالتزاماتهم .

وتبين من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة ، وخاصة في الوجه القبلى ، مساحات من الأرض تزرع حبسوبا ويمكن التصرف فيها بالبيع والشراء والرهن

الاقطاعات خبرة بالزراعة ، وكانوا كثيرا ما يدعون للخدمة العسكرية ، أو القيام بأعمال الحاميات في مصر أو في الخارج ، أو للقيام بالمناورات ، فانهم كانوا عادة يفضلون تأجيرها لمزارعين مصريين .

والى جانب الاقطاعات كان الجنود يمنحون مسكنا . وفي القرى الجديدة كان الملك أو أصحاب الضياع يشيدون لهم بيوتا ، أما في المدن والقرى الجديدة ، فان الجنود كانوا يمنحون مساكن في بيوت الأهالى . واذا كان المصريون ، باعتبارهم الغالبية العظمى من سكان البلاد ، قد تحملوا الجانب الأكبر من عبء ايواء الجنود ، فان الاغريق كانوا يشاركونهم تحمل هذا العبء منذ القرن الثالث قبل الميلاد .

#### ج - أرض الهبات :

وهذه الأرض نوعان ، كان أحدهما عبارة عن أرض يُعتبر دخلها بمثابة مرتب موظف الحكومة الذى منح هذه الأرض . أما النوع الآخر فكان عبارة عن الضياع الكبيرة التى أغدقها البطالمة على أصحاب الحظوة لديهم من كبار موظفيهم المدنيين والعسكريين ، الذين اتصفوا بوفرة النشاط وحسن التدبير .

وتشير الوثائق الى أن الهبات قد تشمل أرضا زراعية فقط ، أو أرضا زراعية وقرية واحدة ، أو عدة قرى فقط ، والى أن الهبة كانت منحة شخصية لا يجوز التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو التورث ، والى أن

## ١ - صناعة الزيت :

كانت لهذه الصناعة شأن كبير في مصر منذ عهد بعيد ، لكنها ازدادت شأنًا في عصر البطالة ، فقد صاحب استصلاح الأرض البور زراعة مساحات واسعة نباتات زيتية ، ووجه البطالة عناية كبيرة الى تنظيم هذه الصناعة تنظيمًا دقيقًا ، لزيادة الانتاج وتحسين الصنف . ومعلوماتنا عن هذه الصناعة أوفى منها عن أى صناعة أخرى .

ويتبين من اللوائح الخاصة بتنظيم هذه الصناعة ان البطالة كانوا يتوخون ثلاثة أهداف رئيسية وهى : أولاً ، قصر استخراج الزيت على الملتزمين الذين اشترتوا من الحكومة حق التزام صناعة الزيت من السمسم أو الخروع أو القرطم ، لكن الحكومة كانت تسمح للمعابد بأن تصنع من زيت السمسم فى خلال شهرين ما تحتاج اليه فى عام واحد . وثانياً ، ألا يستخرج أحد الزيت خفية والا قدم للمحاكمة وفرضت عليه عقوبات صارمة ، وثالثاً ، أن تتوفر المادة الخام والأيدى العاملة لدى ملتزمى هذه الصناعة . فقد كانت تحدد كل عام مساحة الأرض التى تزرع نباتات زيتية ، وتفرض على الأهالى بيع المحصول كله بسعر معين لملتزم صناعة الزيت فى المنطقة ، وتحظر على عمال صناعة الزيت مبارحة المديرية الى مديرية أخرى .

وكان الملتزم يشتري حق الالتزام فى

والتوريث . ومع ذلك لا نستطيع اعتبارها ملكاً حراً لأربابها لعدة أسباب ، أهمها ان أرباب هذا النوع من الأرض كانوا يدفعون عنها اجاراً للتاج ، وان الملك كان يستطيع استرداد هذه الأرض . وازاء ذلك لا يبعد ان أرباب هذه الأرض كانوا لا يملكون أرضهم ملكاً حراً وانما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف فى هذا الحق مما جعل هذا النوع من الأرض شديد الشبه بالأرض المملوكة امتلاكاً حراً .

## ثالثاً - نظام الصناعات والحرف

لقد كانت فى حوزة البطالة كميات وفيرة من المواد الخام ، كما كانت تحت امرتهم أعداد كبيرة من الصناع المهرة ، وهكذا توافر لديهم العاملان الأساسيان اللذان يكفلان اسدرار أرباح وفيرة من الصناعة . وقد ترتب على استغلال هذين العاملين استغلالاً منظماً دقيقاً الى ما يعرف باحتكارات البطالة أو بالاقتصاد الموجه فى ميدان الصناعة البطلمية . فقد كان البطالة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكاراً كلياً ، مثل استخراج الزيت والملح والجمعة واستغلال المناجم والمحاجر ودباغة الجلود والمصارف المالية ، ويشرفون على البعض الآخر ويحتكرونه احتكاراً جزئياً مثل صناعة النسيج والورق وتربية النحل والماشية والدواجن . وسنكتفى فى هذا المقام بالكلام عن صناعتى الزيت والنسيج وعن المصارف المالية .

للحكومة كمية معينة فقط من الأقمشة والملابس التي أنتجتها . ويبدو ان هذه الكمية كانت نسبة معينة من انتاج الأنوال العاملة . وفي حالة العجز عن السداد كان يتعين دفع ثمن المنسوجات بحسب ما حددته اللوائح . وكذلك في حالة هبوط المنسوجات عن المستوى المطلوب كانت تفرض غرامات من أجل المحافظة على مستوى الصناعة . فضلا عن ذلك كانت الحكومة تفرض على الناسجين دفع ضريبة لعلها كانت ضريبة الترخيص بمزاولة النسيج .

ولما كانت الحكومة لا تشتري كل محصول الكتان ولا تفرض على الناسجين أن يقدموا لها كل منتجاتهم فانه يتبين من ذلك انها كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا مثل صناعة الزيت ، وان كانت تشرف عليها وتسهم فيها . ولا بد من أن الكتان الذي كانت تفرض بيعه لها بسعر معين كان يصنع في مصانع ملكية غير مصانع الأهالي .

ويمكننا أن نتبين مما أوردناه ان دخل الحكومة من الصناعات التي كانت لا تحتكرها احتكارا كليا كان عبارة عن نسبة معينة من انتاج المشتغلين بها ، وضريبة لمزاولة هذه الصناعات .

### ٣ - المصارف المالية :

ويبدو ان عملية استبدال النقود وسائر الأعمال المصرفية قد وجدت في بلاد الاغريق

منطقة معينة لمدة عامين ، ويتعين عليه عدم استخراج الزيت من كل الجيوب الزيتية التي يشتريها ، بل اختزان كمية معينة منها بمثابة احتياطي للعام التالي .

ولكى يستفيد الملك من احتكار الزيت الى أقصى حد لم يتوان في حماية الانتاج الداخلى من المنافسة الخارجية الشديدة ، فقد كان سعر الزيت في العالم الاغريقي أقل بكثير منه في مصر . ولذلك تقرر ألا يسمح لأحد باستيراد الزيت من الخارج للمتاجرة فيه أو أكثر من استهلاكه الشخصى لمدة ثلاثة أيام ، وفي هذه الحالة كان عليه دفع ضريبة تعادل ٥٠٪ تقريبا من سعره ، لكن يبين انه في القرن الثاني قبل الميلاد رفعت الحكومة الحظر الذي كانت قد فرضته من قبل على استيراد الزيت الأجنبى . وتقدر الأرباح التي كان البطالمة يجنونها من وراء احتكار صناعة الزيت وبيعه بسبعين في المائة في حالة زيت السمسم و ٣٠٠٪ في حالة زيت الحنظل .

### ٢ - صناعة النسيج :

ويتبين من الوثائق المختلفة ان الحكومة كانت تحدد مساحة الأرض التي يجب زرعها كتانا ، وتختتم أن يباع لها بسعر معين مقدار معين فقط من محصول الكتان . وكانت الحكومة تبذل قصارى جهدها حتى يزاول النسيج في كل مديرية أكبر عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل مديرية أن تقدم

الملكية في القرى وفي المدن دفع ما تسلمه من الأموال العامة الى المصارف الملكية ، كل في منطقتة كل عشرة أيام . ومن ثم يتبين لنا ان بيع التزام أعمال المصارف كان يمثل الأرباح التي يجنيها الملك من صافي دخله .

وقد كان مديرو المصارف أو على الأصح ملتزمو ادارتها من الاغريق ، وكذلك كان أيضا عملاؤهم . ولعل اقتصر أعمال المصارف وحركة تعاملها على الاغريق يرجع الى فقر غالبية المصريين وقلة الفتهم باستخدام النقود . ولا يبعد أنه كان يرجع كذلك الى أن المصريين كانوا يفضلون أن يحذوا حذو آبائهم وأجدادهم ويضعوا أموالهم في حماية الآلهة . فقد كانت المعابد منشآت مالية هامة تقوم بالكثير من أوجه نشاط المصارف المالية .

#### رابعا - نظام التجارة

##### ١ - التجارة الداخلية

ويتبين من الوثائق ان تجارة الحبوب الغذائية في مصر كانت حرة فيما عدا الكميات التي كان الملك يحتم على بعض الزراع أن يبيعوها اياه بسعر معين ليسد بها فيما يبدو حاجة المديرية التي تفتقر الى ما يكفيها من الحبوب . ومعنى ذلك ان الاتجار في الحبوب الغذائية كانت تشوبه بعض القيود ، ومن ثم لا يمكن القول بأنه كان حرا حرية مطلقة .

أما الحبوب الزيتية فان الحكومة كانت تفرض بيع كل محصولها بسعر محدد للترمي صناعة الزيت . وكان حق بيع الزيت يباع

منذ أخذ تداول النقد ينتشر ويعم في تلك البلاد . أما مصر فانها لم تعرف المصارف المالية بأدق معانى الكلمة الا عندما أنشئت في كل أرجائها بعد الفتح المقدوني .

وكان وزير المالية يشرف على المصرف الملكي الرئيسي في الاسكندرية وفروعه في عواصم المديرية والأقاليم والقرى . وكانت توجد صلة وثيقة بين هذه المصارف الملكية وبين فروع الخزنة الملكية في أنحاء البلاد ، لكن يجب عدم الخلط بينهما لأنهما وان اتفقا في الاسم كان لكل منهما اختصاص معين . فقد كانت المصارف الملكية تقوم بالأعمال المصرفية العادية ، أما أعمال فروع الخزنة الملكية فانها كانت مقصورة على تسلم كافة الأموال الأميرية على اختلاف أنواع مصادرها سواء من الأهالي أم من الملتزمين أم من الموظفين المكلفين بجمعها . وعندما أنشئت في القرن الثاني قبل الميلاد ادارة حساب الملك الخاص أدى ذلك الى انشاء خزائن جديدة تدعى « خزائن الحساب الخاص » الى جانب الخزائن الملكية .

وكان الملك يبيع حق ادارة المصارف الملكية للترمي بمقتضى عقود كانت مدة سريانها أحيانا سنتين وأحيانا خمس سنوات وأحيانا أكثر من ذلك . وكان الملك يضمن للترمين احتكار بيع النقود وشراؤها واستبدالها ، ويقدم لهذه المصارف على الأقل جانبا من أموالها . فقد كان يتعين على الخزائن

للملتزمين بمقتضى مزاد علنى . ومما يجدر بالملاحظة ان المزايدة لم تكن على سعر الزيت لأن الملك كان يحدد سعر البيع بالتجزئة ، وانما على كمية الزيت التى تباع يوميا فى كل مكان .

وكانت الحكومة تحتم بيع مقدار معين لها من محصول الكتان بسعر معين . أما بقية المحصول فلم يكن خاضعا لأى قيد ، وكان يباع فى الأسواق بأسعار متفاوتة .

ويتبين من كل ما سلف صحة ما يذهب اليه البعض من أنه لم يكن للتجارة الحرة وجود فى مدن مصر وقراها ، اللهم الا اذا استثنينا الاسكندرية فيما يلوح .

ويبدو انه فى حالة السلع التى كانت الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تحتم اعطائها نصيبا معيناً منها كانت الحكومة تعتبر تجارة التجزئة بمثابة عملاءها الذين يساعدونها على بيع السلع للأهالى . والمرجح أن كل أصحاب الحوانيت كانوا يضطرون الى الحصول من الحكومة على تراخيص لمزاولة البيع ؛ والى اعطاء الحكومة فى مقابل ذلك جانبا كبيرا من أرباحهم .

ويتضح من احدى وثائق القرن الثالث قبل الميلاد ان وزير المالية كان يقسم السلع قسمين : أحدهما ، السلع التى حددت الحكومة أسعارها ؛ ويبدو أن هذه السلع كانت عبارة عن منتجات الصناعات التى كانت الحكومة تحتكرها كليا أو جزئيا ، مثل

الزيت والمنسوجات ، ومن المرجح أيضا الملح والمعادن والعمود . أما القسم الثانى فكان يشمل السلع التى لم تحدد الحكومة أسعارها وكان يبيعها الأشخاص الذين اشتروا من الحكومة حق انتاجها وبيعها . فقد كان كثير من الحرف والصناعات خاضعا لنظام قوامه أن يستأجر ملتزم من الحكومة حق انتاج سلعة وبيعها فى منطقة معينة مثل صناعة الجعة . لكن فى بعض الأحيان كان حق البيع وحده هو الذى يُستأجر مثل بيع اللحوم والعدس المطهى . ولا شك فى أن أغلب هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وفقا لحالة العرض والطلب ، لكنه لكيلا يغالى التجار فى أرباحهم ، رأى وزير المالية ألا يترك لهم الحبل على الغارب ، ولذلك طلب الى وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة ، ومعنى ذلك انه حتى فى حالة السلع التى كانت الحكومة لا تحدد أسعارها رسميا لم يكن الاتجار مطلقا ومحجرا من كل قيد ، لأن الأسعار كانت خاضعة لنوع من الاشراف . وليس معنى ذلك ان كافة السلع التى لم تكن لها أسعار محددة كانت خاضعة لاشراف الحكومة ، اذ تشير الوثائق الى أن أسعار الحبوب الغذائية كانت تتفاوت من وقت الى آخر ومن مكان الى مكان ، كما تشير الى أن الأثرياء كانوا يجنون منها أرباحا فاحشة ، ولعل مرد ذلك الى أن الملك كان أكبر تاجر للحبوب الغذائية .

التجار هم الذين يستوردون هذه السلع ويدفعون عنها مكوسا مرتفعة . ويتبين من الوثائق ان البضائع المستوردة من الخارج على الأقل في عهد بطليموس الثانى كانت أربع فئات بحسب المكوس الجمركية التى تجبى عنها ، وكان قدرها ٥٠٪ عن الفئة الأولى و ٣٣٪ عن الفئة الثانية و ٢٥٪ عن الفئة الثالثة و ٢٠٪ عن الفئة الرابعة . وكانت الفئة الأولى تشمل الزيت و عدة أنواع من النيذ الفاخر فيما يبدو ؛ والفئة الثانية نيذ خيوس وثاسوس وكذلك التين ، والفئة الثالثة العسل والجبن واللحوم والأسماك المجففة والكوامخ والاسفنج والجوز والرمان والآنية الفخارية ؛ والفئة الرابعة الصوف .

ومما يجدر ملاحظته انه اذا كانت هذه المكوس الجمركية تبدو مرتفعة جدا بالقياس الى المكوس التى كانت تجبى فى باقى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، فان هذه المكوس البطلمية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد ، فقد كانت ضريتا ٥٠٪ و ٣٣٪ اللتين يدفعهما مستورد النيذ الاغريقى تقابلان ضريتى النصف والثلث المفروضتين على زراعى الكروم ، وكذلك كانت ضريبة ٢٥٪ المفروضة على العسل الاجنبى تقابل ضريبة الربع المفروضة على النحالين فى مصر ، وضريبة ٢٥٪ المفروضة على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على صائدى الأسماك المحليين .

ويمكن أن نوجز موارد الحكومة من التجارة الداخلية فى :

( أ ) الأرباح التجارية التى تجبىها من المواد التى كانت تحتكر صنعها وبيعها أو استيرادها وبيعها .

( ب ) الأجر الذى تجبىه نظير السماح بالتزام صنع وبيع السلع أو بيعها فقط .

( ج ) الضرائب التى كانت تفرضها على تجار التجزئة .

( د ) الضرائب التى كانت تفرضها على الأهالى لقاء شراء مادة كانت الحكومة تحتكر صنعها أو استخراجها مثل الملح والجمعة .

( هـ ) المكوس والمعوائد التى كانت الحكومة تحصلها عند نقل السلع من منطقة الى أخرى .

## ٢ - التجارة الخارجية :

ويمكن تقسيم واردات مصر من ممتلكاتها ومن سائر بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشمالية الغربية قسامين : وأحدهما المواد التى كانت مصر تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن والخيول ، ونرجح ان اللازم منها لسد حاجة الجيش والأسطول وباقى مصالح الحكومة والمنشآت العامة كان استيراده ووفقا على الملك ، أما ما يلزم من هذه المواد لسد حاجة الأفراد فكان التجار هم الذين يستوردونه ويدفعون عنه مكوسا جمركية معقولة . وكان القسم الآخر يشمل سلعا تنتج مصر مثلها ، وكان

كانت تصدر الى الجنوب والشرق كثيرا من مصنوعات مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال ، وكذلك النيذ المستورد من البحر الأبيض المتوسط . ونحن نرى ان الملك كان يسهم في تجارة الصادرات لكنه لم يحتكرها ، وان كان يشرف عليها اشرفا دقيقا من أجل الحصول من التجار على ضرائب نظير مزاوتهم هذا العمل ، وكذلك من أجل الحصول على المكوس الجمركية ، وقبل كل شيء من أجل ضمان عدم استنزاف كل منتجات البلاد في التصدير ، خشية أن يقل المعروض في الأسواق المحلية فترتفع أسعار المعيشة تبعا لذلك مما يفضي حتما الى زيادة تكاليف الانتاج فتقل أرباحه !

#### خامسا - ضرائب شتى

وبالإضافة الى الضرائب المتعددة التي فرضها البطالة على مزارعي الملك ومختلف أرباب الأراضي والمشغلين بالحرف والصناعات والتجارة ، فرضوا على رعاياهم ضرائب شتى درت عليهم دخلا وفيرا . ولعل أهم هذه الضرائب المتنوعة كانت الضرائب التي فرضوها على : ( ١ ) المباني ( ٢ ) العبيد ( ٣ ) تسجيل العقود ( ٤ ) البيع والشراء ( ٥ ) المزادات ( ٦ ) انتقال ملكية الأملاك الثابتة ( ٧ ) الميراث ( ٨ ) استخدام الموانئ ( ٩ ) استخدام الطرق الخ .. وذلك فضلا عن السخرة وعدد من الضرائب الاضافية .

أما الزيت فقد كان استيراده محظورا في القرن الثالث قبل الميلاد الا للاستعمال الخاص ، وكان يفرض عليه مكوس قدرها ٥٠٪/ ويتعين بيعه في الحال للملك بسعر محدد . ويبين مما أسلفناه ان المكوس الجمركية المرتفعة لم يقصد بها حماية المنتجات المصرية لذاتها ، وانما قصد بها حماية موارد الحكومة من تلك المنتجات .

لما عن واردات مصر من الجنوب والشرق فانه يرجح ان الملك كان يحتكر شراء هذه السلع عندما كان التجار ينقلونها الى مصر أو ممتلكاتها . ولا يبعد ان الملك كان يحتم بيع هذه السلع له بسعر محدد بمجرد وصولها ، ولم تكن العطور والبخور والمر تستهلك عادة في شكلها الخام بل تعول الى روائح ومساحيق وأدوية ، لكننا لم نجد بعد في الوثائق شيئا عن النظام الذي كانت تقوم عليه صناعتها ، وان كنا لا نستبعد ان البطالة كانوا يحتكرون هذه الصناعة . ولا يستبعد أيضا ان البطالة كانوا يحتكرون تصدير هذه السلع في شكلها الخام وكذلك بعد صنعها .

ويحتدم اليوم جدل عنيف بين العلماء حول من كان يقوم بتصدير السلع الأخرى من مصر ، فقد سبق أن عرفنا ان صادرات مصر الى العالم الغربي لم تقتصر على سلع الجنوب والشرق فحسب بل كانت تشمل أيضا منتجات مصرية كانت أهمها الحبوب والورق والمنسوجات الكتانية ، وان مصر

## سادسا - نظام جباية الضرائب

وكذلك ملتزم الضريبة . ولما كانت مصالح هؤلاء جميعا واحدة ، بسبب ما فرضه عليهم القانون من العقوبات اذا أخفقوا في أداء مهامهم ، فقد كان طبيعيا أن يتعاونوا جميعا على دافعي الضرائب . وهكذا كان هؤلاء اتعاضون تحت رحمة أشخاص كل همهم هو الخلاص من المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، دون نظر الى صالح دافعي الضرائب الذين ساءت حالهم على مضى الزمن بسبب ما أُرهبوا به .

وكان ما يجمعه المحصلون يودع لحساب الملتزم في الخزائن الملكية ان كان تقدا ، وفي المخازن الملكية ان كان عينا . واذا تبين بعد الحساب الختامي آخر العام وجود زيادة في ايراد حصيلة الضريبة ، فانها كانت تؤول الى الملتزم . أما اذا وجد عجز فانه كان يُطلب الى الملتزم وضامنيه المساهمة في سداذه . وكان ذلك يستتبع الاستيلاء على أملاك الملتزم والضامين حتى يُسدّد العجز .

ويبدو ان مهنة التزام الضرائب كانت مصدر ربح غير قليل في بداية عهد البطلمة ، بدليل التنافس في المزايدة وكثرة عدد الملتزمين . لكن يبدو ان الحال قد تبدلت في الشطر الثاني من عصر البطلمة ، والا لما نصت لوائح بطلميوس الخامس على اعطاء الملتزم مرتبا في حالة وفائه بما التزم به وعدم حصوله على مكسب من عمله .

وقد لجأ البطلمة الى نظام الالتزام في جباية الضرائب نوعية كانت أم نقدية . وكان الملتزمون لا يقومون بجباية الضرائب ، لكنهم كانوا يسهمون في الاشراف على جبايتها ، لأنهم بمقتضى تعاقدهم مع الملك كانوا يضمنون له الحصول مما التزموه من الضرائب على قدر معين من المواد أو المال .

وكان يُشهر سنويا في المزايدة دخل كل ضريبة على حدة في منطقة معينة لم تزد اطلاقا في أى حالة على مديرية واحدة ، وكان يتعين الاعلان عن المزايدة وكل ما ينطوي عليه مدة كافية تسمح للراغبين في المزايدة بتعرف دقائق ما سيُشهر في المزايدة . وكان المزايدة يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة ممكنة من ضريبة بعينها . وتشير الوثائق الى أنه كان يمكن السماح بفتح باب المزايدة من جديد بعد انتهائها ، بشرط ألا تقل الزيادة المعروضة عن ١٠٪ مما كان المزايدة قد رسا عليه . وكان يتعين على الملتزمين الذين يرسو المزايدة عليهم أن يقدموا أشخاصا يضمنون الوفاء بما تم التعاقد عليه . وكان يتعين على الضامين أن يقدموا ممتلكاتهم رهنا للوفاء بالالتزام المتعاقد عليه ، بشرط أن تكون هذه الممتلكات خالية من أى التزامات أخرى .

وكان يقوم بجباية الضرائب موظفون حكوميون تحت اشراف مراقبين مختلفين

## الفصل السادس

### القضاء

القانون المدني — القانون الجنائي — الهيئات القضائية

من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم ينتموا الى تلك المدن والجمعيات كان البطالة يصدرن أوامر ملكية مختلفة الأنواع .

وإذا كان البطالة قد سمحوا للمصريين والاغريق بتنظيم معاملاتهم وفقا لأحكام القوانين المدنية التي كان يألفها كل منهما ، فانهم أصدروا للقريقين قانونا جنائيا موحدًا وفرضوا عليهما اتباع قواعد موحدة للإجراءات القضائية .

اولا - القانون المدني

١ - الاحوال الشخصية :

لقد كان طبيعيا أن توجد فوارق عديدة بين التشريعين المصرى والاغريقى ، ونرى مثلا واضحا لهذه الفوارق في نظرة كل منهما الى المرأة ، فقد كانت المرأة تتمتع في كنف القانون المصرى بمكانة اجتماعية وقدر من الاستقلال لم تعترف بهما الشرائع الاغريقية . وآية ذلك ان المرأة المصرية كانت لا تتزوج الا بمحض ارادتها وبشروط كانت عادة ثقيلة على الزوج الى حد انها كانت تجعل تعدد الزوجات أمرا متعذرا في الواقع وان كان مباحا من حيث

لما كان المصريون أهالى البلاد ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها ، ولهم عادات وتقاليد راسخة وقوانين ونظم جللها الزمن بالمهابة والوقار ، وكان الاغريق أكثر العناصر الأجنبية عددا وأجلهم شأنًا وأوفرهم حظا من الحضارة ، فقد أدخل البطالة كل هذه الاعتبارات في حسابهم عند وضع نظامهم القضائي . وبيان ذلك انهم احتفظوا للمصريين بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم ونظمهم الموروثة ، فكانت تطبق عليهم قوانينهم المدنية التقليدية التي أطلق الاغريق عليها اسم « قوانين البلاد » .

أما اغريق مصر فانهم كانوا ثلاث فئات وهى فئة مواطنى المدن الاغريقية ، وفئة أعضاء الجمعيات القومية وفئة الاغريق الذين لم يكونوا مواطنين في المدن الاغريقية ولا أعضاء في جمعيات قومية . ولما كان لكل مدينة وجمعية مجموعة من القوانين الاغريقية الخاصة بها وتعرف « بقوانين المواطنين » وكانت قوانين كل مجموعة تختلف عن الأخرى فانه من أجل التيسير بين القوانين وكذلك

المبدأ . وكانت أيضا تستطيع الانفصال عن زوجها متى شاءت ، ومطالبته بالصداق الذى نص عليه فى عقد الزواج ، والتصرف فى نفسها وفيما تملك دون أى قيد أو شرط . على حين ان المرأة كانت فى نظر القانون الاغريقى قاصرا ، ومن ثم فى حاجة الى وصى شرعى عليها فى كل تصرفاتها . لكن البطالمة ساووا بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية ، لا برفع الثانية الى المكانة الاولى ، وانما بالهبوط بالاولى الى مستوى الثانية حتى لا تضيق المرأة الاغريقية بحالتها . ونلمس الأثر الاغريقى أيضا فى بعض الشئون الخاصة بالميراث مثل استخدام الوصايا ، وحق أحد الزوجين فى أن يرث الآخر ، وحق الشخص فى قبول الميراث أو رفضه . ومن ناحية أخرى أثار القانون المصرى فى القانون الاغريقى الخاص بالأحوال الشخصية ، فقد أخذ الاغريق عن المصريين عقود الزواج الخاصة بإثبات كل المسائل المالية ، والقواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما ، وبعض أحكام الميراث مثل حق البنت فى الارث بالتساوى مع الولد وانما بشرط عدم وجود وصية تنافى ذلك .

يتضمن الوعد بأن يحبى الطرفان معا حياة زوجية وكذلك شروطا خاصة بالصداق وغير ذلك من العلاقات المادية بين الطرفين ولا سيما حقوق الأولاد . أما النوع الثانى من الزواج فيفسر بأنه زواج لفترة محددة قد يتحول بعدها الى زواج كامل أو قد ينتهى فى آخر تلك الفترة ، دون أن تترتب عليه التزامات دائمة بين الطرفين . ويتفق العلماء اليوم على أن الزواج بين المصريين كان يقوم على اتفاق شفوى بين الطرفين ، أما العقد الذى يصحبه فإنه كان لا يتم الزواج وانما يثبت وجوده وينظم العلاقات المادية بين الطرفين ويحفظ حقوق الأولاد .

أما عن الزواج بين الاغريق ، فانهم فى الاسكندرية وبطوليميس كانوا يحرون عقدين أحدهما مدنى والآخر دينى . وكان الاغريق الذين يعيشون خارج هاتين المدينتين يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » . وقد كان هذان النوعان من العقود يمثلان نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية والمادية بين الطرفين وإثبات حقوق الأولاد .

ووفقا للقانونين المصرى والاغريقى كان لكل من الطرفين حق الطلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت فيهما انه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر .

ويعتقد كثير من العلماء ان القانون المصرى كان يعترف بنوعين من الزواج يدعو العلماء أحدهما « الزواج الكامل » والآخر « زواج المتعة أو التجربة » . ويتفسر النوع الأول بأنه زواج يثبت وجوده عقد رسمى

فقد احترف هذه المهنة أفراد من سائر الناس . وقد كانت العقود تحرر اما وقفا لأحكام القانون المصرى أو أحكام القانون الاغريقى . والى جانب العقود المكتوبة كان العرف المصرى يعرف الاتفاقات الشفوية ، وكان على المدين الذى ينكر أنه تعاقد شفويا على دين أن يقسم على صحة ما يقول .

ولضمان تنفيذ العقود بأمانة كان المصريون والاغريق يضعون فيها شروطا جزائية كانت مألوفة فى القانون الاغريقى ، مما يدل على ان قانون الدين الاغريقى قد طبق فى مصر على المصريين والاغريق سواء بسواء منذ بداية عصر البطلمة . ولا بد من أنه قد سبق ذلك الغناء قانون الملك المصرى بوكخوريس الذى كان لا يسمح بحبس المدين أو استعباده .

ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون المصرى يعترف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنص فيها على شروط جزائية ، فانه منذ القدم كان الدائنون يحتاطون بوسائل متعددة ضد سوء نية المدينين أو عسرهم المالى . واحدى هذه الوسائل تشبه ما نسميه اليوم « برهن الحيازة » ، ومعنى ذلك أنه عند عمل القرض يقدم المدين للدائن بمثابة ضمان عينا تعادل قيمتها على وجه التقريب المبلغ الذى استدانه على أن يتعهد الدائن برد العين عندما يستوفى دينه . أما الوسيلة الثانية فتشبه

ويفرق القانونان المصرى والاغريقى تقريبا واضحا بين الأحرار والعبيد . وكان العبيد ثلاث فئات وهى : عبيد الملك ، وعبيد الأفراد ، وعبيد المعابد .

وقد كان من حق المصريين والاغريق على السواء عمل وصيات . ولكى تكون الوصية صحيحة كان يتعين أن يحررها موثق العقود ، لكنه كان فى وسع الموصى أن يقوم بذلك ثم يقدمها الى موثق العقود ، وفى الحالتين كان يجب اتمام ذلك بشهادة الشهود . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون المصرى يرتب الورثة طبقات تأتى فى مقدمتها طبقة الأولاد ، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذى كانت أخته تساوى معه فى مقدار النصيب . وكان من حق الأحماد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفى قبل جدهم . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقى يعطى الأبناء الأسبقية فى وراثة آباءهم ، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات المشاركة فى الارث اذا لم يكن قد اخذن مهورهن .

## ٢ - الاحوال العينية :

ويعتبر تحرير العقود وتسجيلها أيسر السبل لاثبات حقوق الملكية فى جماعة متحضرة . وقد كان تحرير العقود فى مصر الفرعونية وقفا على كتبة ينتمون الى الجماعات المقدسة ، أما فى عصر البطلمة فان تحرير العقود لم يعد مقصورا على أولئك الكتبة ،

ما نعرفه « بالرهن الضماني » وهو في معناه القانوني حق الدائن على عين تبقى في قبضة المدين غير ان قيمتها تضمن سداد الدين . أما الوسيلة الثالثة فانها تماثل ما نعرفه « بالبيع الوفاي » وتتلخص في أن يبيع المدين للدائن العين المقدمة ضمانا للدين مع احتفاظ الأول بحق استرجاع عقاره عند سداد الدين .

ووفقا لأحكام القانون المصري كان التزام المدين قبل الدائن لا ينتهي بسداد الدين بل استرداد العقد الذي منح الدين بمقتضاه . أما وفقا لأحكام القانون الاغريقي فان التزام المدين كان في الأصل ينتهي بسداد الدين لكن لم يلبث أن ساد بين الاغريق المبدأ المصري القائل ببقاء الالتزام قائما طالما بقي العقد سليما . ولذلك كانت تتخذ عدة وسائل لمواجهة ذلك ، كان من بينها حصول المدين على اتصال يثبت فيه انه لم يعد للدائن حقوق قبله ، أو رد العقد مصحوبا بعقد جديد يتضمن النص فيه على زوال كل التزامات الدائن لدى المدين .

ويتصل اتصالا وثيقا بالقروض الفوائد التي تجبى عنها . وتدل الوثائق البردية الحديثة على أن أقصى سعر مسموح به رسميا للفائدة على القروض كان ٢٪ شهريا أى ٢٤٪ سنويا . وبرغم ارتفاع هذا السعر فإنه لم يكن كافيا لسد جشع المرايين ، ولذلك فانهم لكيلا يقعوا تحت طائلة القانون كانوا

يلجأون الى الحيلة بادماج الفائدة في المبلغ اواجب سداه دون النص في العقد على سعر الفائدة . وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يفرض على المدين غرامة معينة ينص عليها في العقد . وكان القانون الاغريقي يسمح بأن تصل هذه الغرامة الى مثل الدين الأصلي ، أما القانون المصري فكان يكتفى بنصف ذلك ، وهو ما كان يحدث عادة حتى في حالة العقود الاغريقية .

وكان القانونان المصري والايغريقي يعترفان بحق الأفراد في مباشرة أعمالهم عن طريق الوكلاء ، وبالالتجاء الى التحكيم في حالة حدوث خلاف على تفسير أحكام العقود ، وبتأليف شركات تجارية أو صناعية لمباشرة أعمال عامة أو خاصة . وكانت الأعمال العامة التي تتكون الشركات من أجل مباشرتها تشمل التزام الضرائب واحتكارات الحكومة ، وكان الشركاء مسؤولين أمام الدولة عن العجز الناجم عن عدم الوفاء بالتزاماتهم . وسواء أتألفت الشركة لمباشرة أعمال عامة أم خاصة كان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته .

وكان القانونان المصري والايغريقي يتضمنان أحكاما مسهبة تبين حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أراض أو مبان أو عبيد أو ماشية أو عمال . وكان يستطيع مستأجر أى نوع من أنواع الأرض أن يؤجر الأرض من الباطن الا اذا نص في عقد الايجار الأصلي على خلاف ذلك .

## ثانيا - القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي البطلمي يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهي :

١ - الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الإشارة أو الفعل أو التهديد بالاعتداء واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين والسرقة والحاق الضرر بممتلكات الغير والغش والتزوير والتدليس .

ومما يسترعى الانتباه انه في كل هذه الجرائم كانت اقامة الدعوى من شأن المعتدى عليه الى حد أنه اذا لم يمثل أمام المحكمة ليتولى مهمة الاتهام برئت ساحة المتهم .

٢ - الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية . وكانت هذه الجرائم فئتين رئيسيتين: احدهما الجرائم التي تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر في دخل الدولة من الضرائب ، وكان يمكن أن يرتكبها دافعوا الضرائب أو عمال المالية أو الملتزمون أو غيرهم ممن يسهمون في التزام الضرائب .

وكانت الفئة الأخرى تشمل الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية لمساسها بصالح أرض الملك والاحتكارات .

ومما يجدر بالملاحظة انه في حالة اختصام فرد مع الخزانة الملكية حظر على المحامين الدفاع عنه ضد مصالح الخزانة والا تعرضوا لعقوبة صارمة .

ولكل صفقة من صفقات البيع المصرية كان يتحرر عقدان ، يطلق على أحدهما « عقد المال » وعلى الآخر « عقد التنازل » . وكان ينص في الأول على تسلم البائع ثمن العين المبيعة وعلى أن « قلبه راض » للدلالة على اتمام الاتفاق بين الطرفين عن طيب خاطر . وكان ينص في العقد الثاني على تنازل البائع للمشتري عن كل ماله من حقوق على العين المبيعة .

وكما كان لتفاعل كل من التشريعين المصرى والاغريقى مع بعضهما بعضا نتائج واضحة في قوانين الأحوال الشخصية ، كذلك كان لهذا التفاعل نتائجه في قوانين الأحوال العينية . وتبدو مظاهر الأثر الاغريقى فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام وحماية الملكية الفردية . أما الاغريق فانهم أخذوا عن المصريين بعض أحكام القانون المصرى الخاصة بالالتزامات و « الرهن الضمانى » و « البيع الوفايى » وأهم نصوص عقدى المال والتنازل التي أدمجوها في عقد واحد شاع استخدامه في البيوع .

وتبين من الوثائق انه في عصر البطالمة كان الحكم الذى تصدره محكمة مصرية لا يعتبر قاطعا ونهائيا الا اذا صحبه عقد تنازل عن الدعوى . ويبدو ان العرف الاغريقى قد تأثر بهذا المبدأ المصرى في بعض الحالات .

فلا يبعد انها كانت من اختصاص محكمة خاصة لعلها كانت ما تدعوها المصادر القديمة « محكمة الملك » .

ويمكن تقسيم الهيئات القضائية في عهد البطلمة الى اربعة أنواع وهى : ( ١ ) محاكم المصريين ؛ ( ٢ ) محاكم الاغريق ؛ ( ٣ ) المحاكم المختلطة ؛ ( ٤ ) محاكم القضاء الخاص .

#### ١ - محاكم المصريين

وتبين من وثائق القرن الثانى قبل الميلاد ان محاكم المصريين كانت تتألف من ثلاثة قضاة من الكهنة المصريين ، فضلا عن عضو آخر لم يكن قاضيا ولكنه كان يقوم بدور هام جدا ، وهو تلخيص القضايا وتحضيرها وتلاوة الوثائق أمام المحكمة عند انعقادها وتنفيذ ما تصدره من الأحكام . ويدل اسم هذا العضو واسم منصبه على أنه كان اغريقيا . ولعل البطلمة قد استحدثوا مهمته تيسيرا لتصرف العدالة فى المحاكم الوطنية ، ولا سيما بعد أن وضعوا قانونا جنائيا موحدا للمصريين والاغريق . وكانت هذه المحاكم تختص بالفصل فى قضايا المصريين وكذلك القضايا المدنية التى يكون موضوع النزاع فيها عقدا مصريا حتى ولو كان أحد طرفى الخصومة اغريقيا .

#### ٢ - محاكم الاغريق

وكانت توجد فى مصر عدة أنواع من المحاكم الاغريقية ، وأكثر المعلومات التى

٣ - جرائم الخيانة العظمى ، وقد كان القانون البطلمى لا يفرق بين الدولة والتاج ، ومن ثم يعتبر الجرائم التى ترتكب ضد الدولة جرائم ضد التاج . وقد ترتب على فكرة حق الملوك الالهى انه أضيفت على هذه الجرائم صبغة دينية وكان يفصل فيها على هذا النحو . وكانت هذه الجرائم تشمل عدم تقديم الاحترام الواجب للملك وأسرته ، والثورة ضد الملك ، والحث بالقسم الملكى .

٤ - اساءة استخدام الحقوق العامة ، كأن يغير الشخص بدون وجه حق لقبه الجسدى والسياسى .

٥ - الجرائم الدينية ، وتتحدث الوثائق البردية البطلمية عن انتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، وعن اساءة استخدام حق الالتجاء الى المعابد .

#### ثالثا - الهيئات القضائية :

وكان الملك يعتبر كبير القضاة فى البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل فى المنازعات بين رعاياه . ونحن نعتقد انه لم توجد عندئذ تفرقة بين القضاء المدنى والقضاء الجنائى ، وان كنا نعتقد انه كانت توجد تفرقة بين الجرائم الخطيرة أو العامة مثل الخيانة العظمى والقتل ، وبين الجرائم العادية أو الخاصة مثل مختلف أنواع الاعتداء على الأشخاص أو أموالهم . ونحن نرجح ان سائر المحاكم كانت تنظر فى القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية ، أما الجرائم الخطيرة

مدينة اغريقية . فضلا عن ذلك فان محكمة القضاة الاغريق المتنقلة كانت تنعقد فيها مثل ما كانت تنعقد في الاسكندرية للفصل في قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون هناك . أما المدينة الاغريقية الثالثة في مصر ، وهي قرايطس ، فاننا لا نعرف شيئا على الاطلاق عن القضاء فيها .

### ٣ - المحكمة المختلطة

وقد كان طبيعيا أن يؤدي التعامل بين المصريين والاغريق الى نشوب قضايا يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين . وتحدثنا وثائق القرن الثالث قبل الميلاد عن محكمة مختلطة لا نعرف كيفية تكوينها ولا مدى اختصاصاتها ، لكننا نرجح أنها كانت تختص بالفصل في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية بين المصريين والاغريق . ولا يبعد أن هذه المحكمة قد فقدت كثيرا من أهميتها عندما تقصت اختصاصاتها نتيجة لأحكام القرار الذي أصدره بطلميوس الثامن ايوارجيس الثاني في عام ١١٨ ق . م . بأنه اذا نشب خلاف بين مصرى واغريقى نتيجة لعقد محرر بينهما فان لغة هذا العقد هي التى كانت تقرر نوع القانون الذى يطبق وتبعاً لذلك نوع المحكمة التى يعرض الخلاف عليها . فاذا كان العقد مصرىا فان القانون المصرى هو الذى كان يطبق ومحكمة القضاة المصريين هى التى كانت مختصة بالفصل فى الموضوع . أما اذا

لدينا تخص « محاكم القضاة الاغريق » ، وكانت محاكم متنقلة للفصل فى قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون فى مختلف أرجاء مصر ولم يكونوا مواطنين فى احدى مدن مصر الاغريقية . ويبدو ان مهمة هؤلاء القضاة الاغريق لم تكن مستديمة وانما لمدة معينة لا نعرف مداها على وجه التحديد ، وان كل هيئة من هذه الهيئات القضائيه الاغريقية كانت تتألف من ثلاثة قضاة وعضو يلخص القضايا ويحضرها وكاتب ومحضر . وكانت كل هيئة تختص بالفصل فى قضايا منطقة معينة تشمل عددا من المديرىات . ويرجح ان المحكمة كانت لا تنعقد الا فى عواصم المديرىات المختلفة والمدن الكبيرة .

وتذكر وثيقة بردية مشهورة نوعين جديدين من المحاكم الاغريقية فى الاسكندرية كان أحدهما يتألف من عشرة محلفين ومثلخص القضايا ومحضرها ، وكان الآخر يتألف من مُحكَمين يعملون تحت اشراف حارس القوانين . ولعل النوع الأول هو الذى كان يفصل فى قضايا هيئة المواطنين عندما يفشل النوع الثانى فى فض الخلاف وديا بين المتخاصمين . واذا كنا نسلم بوجود محكمة القصر أو محكمة الملك فى عهد البطلمة ، فاننا لا نعرف كيفية تكوينها ولا نستطيع الجزم باختصاصاتها .

وكانت لبطوليميس أيضا محاكمها الخاصة بالفصل فى قضايا مواطنيها باعتبارها

موظفى الادارة وعمال المالية وثانيا القضايا التى يمس موضوعها موارد الملك وثالثا القضايا التى تخص الأشخاص الذين يخدمون موارد الخزانة حتى اذا كان موضوع هذه القضايا لا يمس تلك الموارد . وقد كان يفصل فى كل هذه المشاكل الملك وكبار موظفيه أو هيئات قضائية يرأسها هؤلاء الموظفون . ولما كان لأكثر هذه القضايا صبغة مالية ، فقد كان يقوم بدور كبير فى القضاء الخاص وزير المالية ومساعدوه .

ويبدو ان البطالة قد أشتأوا أيضا محاكم خاصة لرجال الجيش ، فقد وصلت اليها من الفيوم وثائق تحدثنا عن نظر قضايا بين رجال من الجيش أمام محكمة مثل محكمة العشرة التى مر بنا ذكرها عند الكلام عن القضاء فى الاسكندرية .

كان العقد اغريقيا فان القانون الاغريقى هو الذى كان يطبق ومحكمة القضاة الاغريق هى التى كانت صاحبة الاختصاص فى الفصل فى الدعوى . أما اذا نشب خلاف بين طرفين مصريين فانه كان يتعين عرض الأمر على محكمة القضاة المصريين . ويبدو ان القرار لم يشر الى القضايا التى تنشأ بين طرفين اغريقيين لأنه لم يكن هناك أى لبس فى أن ذلك كان من اختصاص محاكم القضاة الاغريق . ولما كان هذا القرار خاصا بالقضايا المدنية فلا بد من أن القضايا الجنائية بين طرفين بنتميان الى جنسيتين مختلفتين قد بقيت من اختصاص المحكمة المختلطة .

#### ٤ - محاكم القضاء الخاص

وقد كان يدخل فى نطاق « القضاء الخاص » أولا الشكاوى الموجهة ضد

## الفصل السابع

### الحياة الاجتماعية

الاغريق - المصريون - الثورات القومية المصرية

اولا - الاغريق

١ - حالهم على عهد البطالة الاوائل

ولذلك كان يجب أن يكون مظهر مصر اغريقيا وأن تبرز مصر في ذلك العالم باعتبارها دولة اغريقية لا دولة شرقية .

وازاء الظروف الخارجية التي أحاطت ببطلميوس الأول حين كان يرسي قواعد دولته في مصر ، كان يتعين عليه أن يعمل على اجتذاب الاغريق الى مصر والاستقرار فيها يشتى الوسائل ، دون أن يهمل في الوقت نفسه مشاعر المصريين . ولعله لم يتخذ منف عاصمة له في بادئ الأمر ارضاء للمصريين فحسب ، بل أيضا أو قبل كل شيء لأنه كان أكثر أمنا فيها من الاعتداءات الخارجية ، إذ أنه ما كاد يستشعر مقدرة جيشه وأسطوله على تأمين مركزه في الاسكندرية حتى نقل مقره الى هذه المدينة الاغريقية . واذا كان قد استخدم بعض المصريين في المناصب الادارية الهامة أو سمح لهم بالاستمرار فيها ، فانه يبدو محتملا أنه اتخذ أغلب مساعديه الاداريين من رجال على شاكلته في التدريب والتفكير . وقد ضمن لهؤلاء الاغريق والمقدونيين مثل ما ضمن لاخوانهم في شتى نواحي الحياة المصرية أجرا طيبا ومركزا ممتازا .

عرفنا ان البطالة الثلاثة الاوائل كانوا في حاجة ملحة الى الاغريق لتكوين جيوش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم وكذلك لاعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا . وازاء كل ذلك كان يتعين على البطالة ألا يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريبها للأجانب ، بل أن يجزلوا لهم العطاء ويمنحوهم مركزا ممتازا في وطنهم الجديد ، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام . وينبغي أن نتذكر انه في ذلك الوقت كان العمالم الاغريقى هو كل شيء ، وان الحضارة الاغريقية كانت أسمى الحضارات وأرفعها شأنًا ، وان حضارة الناس كانت تقاس بمقدار حظهم من تلك الحضارة ، وان البطالة كانوا لا يستطيعون أن يبنوا لأنفسهم مجدا شامخا في نظر العالم الاغريقى باعتبارهم فراعنة مصر مهما أنفقوا في بلاد الاغريق من الأموال .

وخاصة في الفيوم . واذا كنا نجد بين هؤلاء الاغريق عددا من مواطنى مصر الاغريقية ، فان أكثرهم كانوا أصلا مواطنى مدن أخرى في العالم الاغريقى . وعند استقرار هؤلاء الاغريق في وطنهم الجديد حتم البطالة عليهم الاحتفاظ بلقبهم السياسى القديم عند ذكر أسمائهم في الوثائق الرسمية . وقد كان سكان مصر من غير أهلها الوطنيين ينقسمون طبقات متفاوتة في المرتبة تميزها ألقاب سياسية وجنسية ، وكان محظورا الانتقال من احدى طبقات السكان الى طبقة أخرى دون الحصول على اذن بذلك من الملك .

وقد كان الاغريق يؤلفون جماعات كانت أهمها شأننا تلك الجماعات القومية التى كان أغلبها يتصل اتصالا وثيقا بالجيش ، ويتألف كل منها ممن ينتمون الى قومية بعينها . وقد كان لكل جماعة من هذه الجماعات مجموعة قوانينها الخاصة ويظهر فيها بوضوح أثر المدن الايونية والدورية والايولية التى وفد منها أعضاؤها فى الأصل . واذا كان البطالة قد اعترفوا بقوانين هذه الجمعيات فانهم مع ذلك عملوا على التنسيق بينها بما كانوا يصدرونه من مختلف أنواع الأوامر الملكية . وقد كانت هذه الجماعات منظمة على نمط المدن الاغريقية ، وتتمتع بقدر من الحكم الذاتى ، ولكل منها حكماها وكهنتها ومقرها فى مكان معين .

وكانت تلى هذه الجمعيات فى الأهمية

ولا جدال فى أن السياسة العامة التى اتبعها بطلميوس الثانى كانت تستهدف ممالة الاغريق على حساب المصريين ونشر الحضارة الاغريقية فى أرجاء البلاد . وتشير كل الدلائل الى أن بطلميوس الثالث قد سار على نهج سياسة أبيه . ويبين ان البطالة الأوائل قد أقاموا حكمهم فى مصر باعتبارهم غزاة فاتحين فلم ينسوا أو يتناسوا اطلاقا أصلهم الأجنبى ولم يعتمدوا فى تأييد سلطانهم الا على الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم الفخار بأصلهم والاعتزاز بحضارتهم .

وقد كان أول مظاهر عطف البطالة الأوائل على الاغريق تهيئة البيئة المناسبة لمعيشتهم ، ولذلك عنوا ببناء الاسكندرية ومنحها مظاهر الحياة الخليفة بالمدن الاغريقية حتى غدت أعظم هذه المدن فى البحر الأبيض المتوسط . وأنشأ بطلميوس الأول مدينة بطوليميس ووفر لها كل أسباب الحياة الاغريقية . فضلا عن ذلك فان نقراطيس ، تلك المدينة الاغريقية القديمة ، استمرت تنعم بما ألقته من نظم الحياة الاغريقية وأساليبها . وقد كان هدف البطالة من وراء كل ذلك أن يحتفظ الاغريق الذين ينزلون فى هذه المدن بحضارتهم الاغريقية فى طول مصر وعرضها .

أما الاغريق الذين ضاقت بهم مدن مصر الاغريقية ، فانهم تفرقوا بين جنبات الوادى واستقروا فى المدن والقرى المصرية القديمة أو فى القرى الجديدة التى أنشأها لهم البطالة

ويعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويعيشون في أوساط خاصة بهم ، ويحيون حياتهم التي اعتادوا أن يحيوها في بلادهم ، كان المصريون يؤلفون الطبقة السفلى ، ويشعرون بأنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم ، ومع ذلك استمروا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويذكرون مجدهم التالذ . وازاء كل ذلك نستطيع أن نوقن تماما بأن الزواج بين المصريين والاغريق في الشطر الأول من حكم البطالمة كان أمرا بعيد الاحتمال . ومع ذلك لا يجوز الجزم بأنه لم يحدث عندئذ أى تزواج على الاطلاق .

### ٣ - حالهم على عهد البطالمة الاواخر

وهكذا كان قوام سياسة البطالمة الأوائل أن يشركوا الاغريق في حكم البلاد والسيطرة على المصريين ، وان يوفروا لأولئك المحظوظين أسباب الرزق المتسع وأساليب الحياة التي توافق مزاجهم الرقيق ، ففاز الاغريق بكل الغنم وتحمل المصريون كل الغرم . أما منذ عهد بطلميوس الرابع فقد أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين تنطوى على افساح بعض المجال لهم الى جانب الاغريق أملا في كسب ودهم وولائهم ، لكن البطالمة لم يذهبوا الى حد مساواة المصريين الاغريق . ولا أدل على ذلك من أنه ما زال أغلب رجال الجيش وقوادهم وكبار الحكام من الاغريق ، وما زالت الضياع تمنح للاغريق ، وما زالت

أو لعلها كانت تتصل بها جمعيات رجال الجيمنازيوم فقد كان الاغريق ، حيثما نزلوا سواء في المدن الاغريقية أم في المدن والقرى المصرية ، يتمتعون بهذه المعاهد الجليلة الشأن التي كانت قوام الحياة الاجتماعية والفكرية في بلاد الاغريق منذ أقدم العصور .

وكانت تأتي بعد ذلك في الأهمية جمعيات اغريقية كان لها طابع دينى أو اجتماعى . ويعزى انتشار هذه الجمعيات بين اغريق مصر الى ميل هؤلاء الاغريق الى لون من الحياة الاجتماعية يعيضمهم الى حد عن جانب من حياة « المدينة » كان عزيزا عليهم قريبا الى قلوبهم ولكنهم حرموه في مصر ، اذ لم يكن أغلب اغريق مصر مواطنين في مدن يشتركون في مجالسها وانتخاباتها ، فلا عجب أن شغفوا بتلك الجمعيات لتوفر لهم الاجتماع والمناقشة والانتخاب .

### ٢ - علاقاتهم بالمصريين

ولا جدال في أن أولئك الأجانب ، الذين وفدوا على مصر أفواجا تلو أفواج في خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، كانوا يكونون طبقة منفصلة من سكان البلاد تفصلهم فوارق شاسعة عن أهلها . فقد كان مركز هؤلاء الأجانب الاجتماعى والسياسى والاقتصادى مختلفا عن مركز المصريين وأكثر منه امتيازاً . وحين كان الاغريق في القرن الثالث يؤلفون الطبقة العليا في البلاد ، ويقبضون على أرفع المناصب ، ويستمتعون بخيرات مصر ،

أكبر الاقطاعات تمنح للاغريق ، ولم يعتبر في عداد الطبقة العليا الممتازة من سكان البلاد الا الاغريق والمصريون القلائل الذين اصطبغوا بصبغة اغريقية .

وإذا كان بعض المصريين قد تأغرقوا ، نتيجة لاقبالهم على التعليم الاغريقي حتى أصبحوا يكتبون الاغريقية ويقرأونها بسهولة ولاتخاذهم ملابس اغريقية وأسماء اغريقية فأكسبتهم هذه المسحة الاغريقية مكانة ممتازة هي مكانة الاغريق ، فان بعض الاغريق أيضا قد تأقلموا اذ أنهم تعلموا اللغة المصرية وعبدوا آلهة مصرية واتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية .

#### ٤ - علاقاتهم بالمصريين

ويبدو أنه في الشطر الثاني من حكم البطالمة عندما انقطع وفود أفواج جديدة من الاغريق ، وتأغرق بعض المصريين وتأقلم بعض الاغريق حدث شيء من التقارب بين العنصرين المصرى والاغريقي ، ونشأ عن ذلك في اعتقاد كثير من المحدثين أسر مختلطة اغريقية - مصرية . ويستدل على هذه الظاهرة بأن الوثائق تتحدث عن كثيرين ممن يحملون أسماء مصرية واغريقية ، ولذلك لم يعد الاسم منذ القرن الثاني قبل الميلاد دلالة على الجنسية . ونحن لا نرى ان الجمع بين الأسماء المصرية والاغريقية يدل حتما في كل حالة على تزواج بين المصريين والاغريق ، فلم يصل الينا بعد وثيقة زواج أو طلاق

واحدة بين طرفين أحدهما مصرى والآخسر اغريقي . وقد يكون الجمع بين الأسماء المصرية والاغريقية نتيجة لاصطباغ بعض المصريين بالصبغة الاغريقية أو أقلية بعض الاغريق ، مما حدا بالفريق الأول الى اضافة أسماء اغريقية الى أسمائهم المصرية ، وبالفريق الثاني الى اضافة أسماء مصرية الى أسمائهم الاغريقية . ولسنا في حاجة الى الذهاب بعيدا للتدليل على صحة ما نراه ، فلا يزال بين ظهرانينا كثير من المصريين ممن لم يكونوا ثمرة تزواج مختلط وانما ثمرة أبوين مصريين كانت ثقافتها انجليزية أو فرنسية فأعطا أبناءهما أسماء انجليزية أو فرنسية . ومع ذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث في الشطر الثاني من عصر البطالمة تزواج بين المصريين المتأغرقين والاغريق المتمصرين . لكننا نستبعد أن يكون ذلك التزواج قد حدث بالكثرة التي يتوهمها البعض ، اذ أن تلك الفئة من المصريين والاغريق لم تكن الا أقلية بالنسبة للغالبية العظمى من الاغريق والمصريين الصميين ، وانه اذا كان الشطر الثاني من عهد البطالمة قد شهد تقاربا بين المصريين والاغريق ، فقد شهد أيضا ثورات المصريين القومية على البطالمة والاغريق ، ولا بد من أن تلك الثورات قد حدثت من أثر ذلك التقارب . ولو صح أن التزواج بين العنصرين المصرى والاغريقي قد شاع في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، لما بقى سكان البلاد منقسمين طبقتين مختلفتين في المرتبة ،

احدهما عليا وتتألف من الاغريق وأشباههم  
والأخسرى سفلى وتتكون من المصريين  
الصميمين .

#### ٥ - فئات الاغريق

وقد كان الاغريق ومن على شاكلتهم من  
الأجانب المقيمين في مصر يتألفون من الفئات  
التالية :

أولا - فئة الموظفين ، وكانت تشمل  
الموظفين المدنيين والعسكريين .

ثانيا - فئة أرباب المهن الفنية ، وكانت  
تشمل العلماء ورجال الأدب والأطباء والمحامين  
والمعلمين والمعماريين والمصورين والمثاليين  
والفنانين ومحترفي الألعاب الرياضية .

ثالثا - فئة رجال الأعمال ، وكانت فئة  
كبيرة من الأثرياء متوسطى الحال الذين  
يتملكون أراضى وعقارات ويشغلون بالتزام  
بعض الحرف أو الصناعات أو جباية  
الضرائب .

رابعا - فئة أرباب الحرف اليدوية ،  
وكانت فئة كبيرة تتألف ممن كانوا يتكسبون  
قوتهم من الأعمال المصنعية في الزراعة والصناعة  
والتجارة كعمال وصناع وما أشبه ذلك .

#### ٦ - حضارة اغريق مصر

ولما كان الاغريق قد أحضروا معهم من  
بلادهم دياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا  
يخضعون لقوانين اغريقية ويحاكمون أمام  
محاكم اغريقية ، ويعيشون عادة في أوساط  
اغريقية ينشئون فيها مدارسهم ومنتدياتهم

وجمعياتهم ، وكانت أفواج الاغريق تفد على  
مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل  
الميلاد فتطمعهم بدماء جديدة ، وكانت لا توجد  
قرينة على تزواجهم مع المصريين حتى نهاية  
القرن الثالث ، وكانوا يعتزون بحضارتهم  
الاغريقية ، ولا سيما انها كانت مصدر  
ما يتمتعون به من الخير العميم في مصر ،  
فلا شك في أنه وسط هذه الظروف قد حافظ  
اغريق مصر على ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم  
فبقوا اغريقا خالصين حتى نهاية القرن الثالث  
قبل الميلاد .

ولا جدال في أن اغريق مصر كانوا  
يعيشون في أوساط اغريقية بوجه عام ، لكن  
يجب ألا ننسى ان هذه الأوساط ، حتى في  
المدن الاغريقية ، كانت تقوم في بيئة غريبة عن  
الحياة الاغريقية الى أقصى حد ، ولذلك فان  
المحافظة على قوة الروح الاغريقي بين اغريق  
مصر كانت لا تتوقف على استمسكهم  
بثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فحسب ، بل  
كذلك على تغذية هؤلاء الاغريق على الدوام  
بدماء اغريقية جديدة من بلاد الاغريق تكون  
بعيدة عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح  
الاغريقي . لكن منذ أواخر القرن الثالث  
قبل الميلاد انقطع وفود أفواج جديدة من  
الاغريق بسبب نقص عددهم في بلادهم ،  
فكان طبيعيا أن يضعف الروح الاغريقي  
تدريجيا بين اغريق مصر . ومع ذلك فانه مهما  
ضعف هذا الروح قد بقى اغريق مدن مصر

الاغريقية اغريقيا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين في هذه المدن ، ونتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الاغريقية في متابعة نشاطها ، ولا سيما ان الاسكندرية كانت لا تزال منارة الحضارة الاغريقية وتتمتع بشهرة عظيمة في العلوم والفلسفة والآداب .

ان العامل الذي أدى الى ضعف الروح الاغريقي في مدن مصر الاغريقية كان له أثر أقوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن ، ولا سيما انه منذ أواخر القرن الثالث أصبحت اقطاعات الاغريق وراثية ، وبذلك أصبحت لأرباب هذه الاقطاعات مصالح دائمة في البلاد . وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد والا يشمخوا بأنوفهم عليهم . وفي الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين ، فانهم منذ عهد بطلميوس الرابع أخذوا يفسحون المجال أمام المصريين ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شقة الفارق بينهم وبين الاغريق وساعد على التقرب بين العنصرين ، حتى لا يبعد أن يكون قد تكون عدد من الأسر المختلطة المصرية — الاغريقية .

وقد أسهمت هذه العوامل المختلفة في اضعاف الروح الاغريقي بين اغريق الأقاليم ، غير انه لما كانت الصبغة الاغريقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا مهما كانت جنسيته ، فهل تشك في أن غالبية الاغريق استمسكوا

بحضارتهم الاغريقية ؟ يبدو لنا انه مهما ضعف روح اغريق الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كبيرا عن الاغريق القدماء ، وانه اذا كان بعض الاغريق قد عبدوا آلهة مصرية وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصريات واتخذوا أسماء وعادات مصرية ، فإن أغلبهم بقوا اغريقيا خالصين ، وذلك بفضل أثر مدن مصر الاغريقية ، وأثر معاهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التي كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ، وكذلك بفضل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة في البلاد .

ثانيا - المصريون :

#### ١ - البطالمة والطبقات المصرية المختلفة

ولا ريب في أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية تعد بالآلاف بالنسبة الى المصريين الذين كانوا يعدون بالملايين . وكانت تأتي في مقدمة المصريين الطبقة الأرستقراطية بشقيها الدنيوى والدينى . ويبدو أن بطلميوس الأول سح للأرستقراطية المصرية الدنيوية بالاحتفاظ بامتلاكاتها وبشيء من السلطان فى الإدارة . لكننا لا نسمع شيئا على الاطلاق عن هذه الأرستقراطية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يبعث على الاعتقاد بأن البطالمة عملوا منذ أواخر عهد بطلميوس الأول على حرمان هذه الأرستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصبها الإدارية . ولعله لم يبق من هذه الأرستقراطية الا نفر كان قليل العدد محدود الثروة يتولى مناصب فى الفرق المصرية فى الجيش .

المصريين حتى موقعة رفح الا في أعمال الجيش الثانوية ، وقصر منح البطالة الأوائل على جنودهم المقدونيين والاغريق . فلا عجب ان شعر الجنود المصريون ، كغيرهم من سائر طبقات المصريين بذل الاحتلال الأجنبي وذاقوا مرارة الاهانة والحرمان ، فأسهموا في الثورات القومية حتى بعد الامتيازات التي منحوها عقب موقعة رفح . ولا شك في أن حال هذه الطبقة قد تحسنت في الشطر الثاني من عهد البطالة لكنه كان تحسينا نسبيا بالقياس الى ما كانت عليه قبل ذلك ، فقد كان الجنود الأجانب لا يزالون يكوّنون الجانب الأكبر من القوات البطلمية ، ويتمتعون بأرفع المناصب وأكبر الاقطاعات .

وكانت طبقة الموظفين تلي هذه الطبقة قبل عصر البطالة . وكانت هذه الطبقة تتألف من كتبة متفاوتى الدرجات . ويبدو أن فئتهم العليا اختفت تدريجا ولم يبق في خدمة الحكومة من الموظفين المصريين الا فئة صغار الكتبة الذين اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية ونظم العمل الجديدة والخضوع لرؤسائهم الجدد . ولم تكن المناصب الحكومية المتواضعة التي يستطيع المصريون توليها في خلال القرن الثالث قبل الميلاد مصدر خير عميم لشاغلها ، فقد كانت مسؤولياتها أكثر من تفعا . أما في الشطر الثاني من عصر البطالة فقد سُمح للمصريين بتولى بعض المناصب الرئيسية في الادارة المحلية .

وتشير الأدلة الأثرية الى أن الأرستقراطية المصرية الدينية كانت تتمتع في بداية عصر البطالة بممتلكات واسعة . وحين أدرك البطالة ما كانت تتمتع به هذه الأرستقراطية من نفوذ كبير وثروة عريضة عملوا على تقليص أظافها واذلالها . ومع ذلك كان الكهنة المصريون ، حتى في الشطر الأول من حكم البطالة ، يكونون فئة ممتازة بين الأهالي ، فقد كانوا عادة يتعفون من الأعمال الجبرية ويؤدون مهام عملهم دون تدخل الحكومة في شؤونهم . وبعد موقعة رفح واشتعال لهيب الثورات القومية ، اضطرت البطالة الى النزول عن صلفهم وجبروتهم واتباع سياسة جديدة في معاملة رجال الدين ردت اليهم أغلب امتيازاتهم .

ولا ريب في انه ازاء انقراض الأرستقراطية الدنيوية تقريبا ، وازاء المنح التي اضطرت البطالة الأواخر الى اجزائها للكهنة المصريين ، وازاء مكانة هؤلاء الكهنة ونفوذهم بين الأهالي في طول البلاد وعرضها أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية .

وقبل عصر البطالة كانت تلي الأرستقراطية بشقيها الدينى والدنيوى ، طبقة المحاريرين المصريين . وقد رأينا كيف فقدت هذه الطبقة مكانتها الممتازة في حياة البلاد على عهد البطالة الأوائل ، بسبب اعتماد أولئك البطالة في تكوين قواتهم البرية والبحرية على العناصر الأجنبية ، وعدم استخدام الجنود

وكان يأتي في مؤخرة الطبقات الاجتماعية ملايين المصريين ، وكان يشتغل أكثرهم بالزراعة وبعضهم بالصناعة والتجارة ، وكانوا كالعادة عماد حياة البلاد الاقتصادية ، ولذلك كانوا أكثر تأثرا من غيرهم بذلك النظام الاقتصادي الكريه الذى وضعه البطالمة للبلاد . ولما كان الهدف الرئيسى لهذا النظام جعل الدولة أو بعبارة أخرى الملك غنيا ، فقد كان يتعين توجيه كل جهود الأهالى نحو تحقيق هذا الهدف .

وفى كنف هذا النظام الصارم ، اذا كانت الفرص التى أمام الطبقات المختلفة لاثراء نفسها قليلة فانها كانت منعدمة بالنسبة لغالبية المصريين الذين ألقى عليهم أثقل الأعباء ، فقد كان ينبغى على هذه الغالبية أن تخدم موارد الحكومة بطريقة من الطرق ، أما بمثابة زراع الملك ، أو عمال فى مصانعه أو فى مصانع تعمل لحسابه أو فى مصانع تؤدي له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من ائتمانهما ، أو تجار تجزئة ، أو رعاة ، أو صيادين ، أو يشتغلون بالنقل البرى أو المائى ، ويدفعون جميعا ضرائب معينة نظير مزاولتهم أعمالهم . والى جانب كل هذه الأعمال العادية التى كانت الحكومة تستد منها دخلا كبيرا ، كان يفرض على الأهالى أداء كثير من الخدمات الاجبارية . وبرغم كل الأعباء التى أمثقل بها كاهل غالبية الزراع والصناع والعمال المصريين ، وكانت أشد

وطأة مما ابتلوا به فى أى وقت مضى ، فان حالهم لم تتحسن ، لأن الملك لكى يفوز بأكثر قدر من الربح عمل على اتقاص تكاليف الانتاج الى أدنى حد ممكن ، وتبعاً لذلك على عدم رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة .

ونتيجة للثببات الثقيلة التى كان المصريون يرزحون تحتها بين انه لم يكن على شئ من اليسر من ملايينهم المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة الا تفر قليل ، كان بعضهم زراعا ناجحين وشاءت ارادة الله أن تمنحهم الحكومة اذنا باستصلاح بعض الأراضى وزرعها كروما أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا فى عداد أرباب أراضى الامتلاك الخاص . أما البعض الآخر فانهم كانوا صناعا ناجحين يزاولون صناعات لم تحتكرها الحكومة احتكارا كليا ، وبذلك لم تغلق دونهم باب الكسب اغلاقا كاملا .

وهكذا نرى انه لم تنجح من بطش البطالمة فئة واحدة من فئات المصريين ، وذلك حين كان أولئك الملوك يوفرون للاغريق وأشباههم أسباب الحياة الرغدة الكريمة . واذا كانت حال الكهنة والجنود وموظفى الحكومة ونفر قليل من الزراع والصناع فى الشطر الثانى من عصر البطالمة أفضل من حال الغالبية العظمى من المصريين ، فان حال هؤلاء القلائل من المصريين ، الذين كانوا أسعد حظا من سائر مواطنيهم ، كانت أسوأ كثيرا من حال العناصر الأجنبية . ومن

ثم نستطيع أن نتصور الفارق الهائل بين حال الأجناب وحال المصريين بوجه عام .

## ٢ - حضارة المصريين

وتشير جميع القرائن الى أن المصريين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، يعبدون آلهتهم ، ويخضعون الى حد كبير لقوانينهم الفرعونية . وكان المصريون يلتقون اما في أندية جمعياتهم ، أو في بيوت الأعيان كما هي الحال اليوم في الريف ، أو في المعابد ليستمعوا الى قاداتهم الروحانيين ويعبروا لهم عن مظالمهم .

ولما كانت الأمية فاشية بين المصريين ، وكانت أعرق المدارس المصرية وأوسعها انتشارا وأبعدها أثرا في الناس هي المدارس الملحقة بالمعابد ، وكانت هذه المدارس هي المعامل الحصينة للثقافة المصرية ، وكان رجال الدين الحراس الأوفياء على تراث الماضي ، فانتنا نستطيع أن نوقن أن غالبية المصريين كانوا بعيدين حتى عن مظاهر الحضارة الاغريقية ، وان مدارس المعابد قد أغلقت أبوابها دون الثقافة الاغريقية . ومع ذلك لا شك في ان المصريين الذين شغلوا مناصب في الحكومة قد اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية ، ولا شك أيضا في أن أكثر أولئك الموظفين الذين تعلموا الاغريقية لم يكن حظهم من الحضارة الاغريقية الا يسيرا . ولعل الطبقة

العليا من المصريين رأيت في تعلم الاغريقية والاتهام من موارد الثقافة الجديدة استكمالا لمؤهلات أفرادها ، فاستخدمت مدرسين خصوصيين أو أدخلت أبناءها في المدارس الاغريقية المنتشرة في مختلف أرجاء البلاد . ولعل ذلك كان أيضا شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صنبغ أنفسهم بصبغة اغريقية طمعا في الفوز بمركز يعادل مركز الاغريق . لكن لما كانت الطبقة العليا وكذلك فئة الوصوليين قليلتي العدد ، وكان حظ أكثر موظفي الحكومة المصريين من الثقافة الاغريقية تافها ، وكانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، فلا بد اذن من أن تغفل الثقافة الاغريقية بين المصريين كان محدودا .

وقد أسلفنا انه لم يحدث تزواج بين المصريين والاعريق في القرن الثالث قبل الميلاد وانه في الشطر الثاني من عصر البطالمة تمصر بعض الاغريق وتأغرق بعض المصريين ، مما جعل من الميسور حدوث تزواج بين المصريين المتأغرقين والاعريق المتمصرين ، وانتشار الأسماء المختلطة بين هذين الفريقين . ولا بد من أنه قد صحب ذلك أن استبدل أولئك المتأغرقون بشبابهم المصرية ثيابا اغريقية . لكن اذا كان من المسلم به ان أغلب المصريين لم يعرفوا شيئا من اللغة الاغريقية وآدابها ، وانهم بطبيعة الحال لم يتزاجوا مع الاغريق ، على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الاغريق ،

فلا بد أيضا من أنهم لم يتخذوا أسماء اغريقية ولا ثيابا اغريقية .

وجملة القول ان المصريين بوجه عام ، وقد كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس حضارة وديانة ترجعان الى أقدم العصور بقوا مصريين خالصين في مجموعهم ، على حين أن ثغرا منهم اصططفوا في تعليمهم وملبسهم وأسمائهم بصيغة اغريقية تدل القرائن على انها لم تنسهم قوميتهم ولم تكن أكثر من طلاء خارجي لم يمس جوهرهم .

### ثالثا - الثورات القومية

#### ١ - الأسباب

وليس من العسير أن تتصور شقاء المصريين بعد أن عرفنا كيف سلبهم البطالة استقلالهم ، وكيف أثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة والتكاليف المرهقة ، وكيف وضعوا أيديهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل ، وكيف قضوا على الأرستقراطية المصرية الدنيوية ، وكيف أذلوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين المصريين ، وكيف وفروا للاغريق أسباب الحياة التي يألونها في بلادهم ومنحوهم أرفع المناصب وأخصب الضياع وأوسع الاقطاعات . ولم يتحمل المصريون كل ما لقوه من عنت وعسف في سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتنقون نفس المعتقدات الدينية ، ويتكلمون نفس اللغة ، ويحيون نفس الحياة ، وانما في سبيل ملك أجنبي وجنس أجنبي بأسره اصطفاه ذلك

الملك لمشاركته في حكم البلاد، وارغام أبناءها على بذل أقصى الجهد في استغلال مرافق البلاد الاقتصادية . فلا عجب إذن أن نبضت قلوب المصريين بكرهية الأجانب ، وان انفجر مرجل غضبهم في وجه مغتصبى بلادهم ، فقد تضافرت في اشعال لهيب الثورات المصرية ثلاثة عوامل لها أبعاد الأثر في حياة الناس في كل زمان ومكان ، وهي العامل الديني والعامل القومي والعامل الاقتصادي .

ووسط هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع لهيب الثورة لأي سبب ، فقد امتلات النفوس غضبا وحقدا ، وتوفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين كانوا يضيقون أشد الضيق بالنظام الاقتصادي الصارم الذي استحدثه أو أحكم ضوابطه بطلميوس الثاني . ولم يفتقر الثوار الى قادة وزعماء ، فان النبلاء المصريين ، وقد عصف البطالة بمكائهم و ثروتهم وامتيازاتهم ، وكذلك رجال الدين ، وقد كسر البطالة ولا سيما أوائلهم شوكتهم ، كانوا جميعا يخزون الى استعادة ما كانوا ينعمون به في الماضي من الكرامة والعزة والثراء .

#### ٢ - الثورات

ونستخلص من الوثائق ان المصريين قد أظهروا تقيمتهم على ذلك النظام الاقتصادي البغيض منذ عهد بطلميوس الثاني ، اذ تحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات عندئذ بين المزارعين ، كانت تنتهي باضرابهم عن

العمل وفرارهم الى المعابد للاحتماء بالآلهة . وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد عنفا على مضي الزمن ، ف وقعت في عهد بطلميوس الثالث أول ثورة شعبية . لكن أشد ثورات المصريين عنفا وأطولها بقاء لم تقع الا بعد انتصارهم في موقعة رفح ، فقد كان ينقص المصريين الحافز الذي يعيد اليهم ثقنتهم بأنفسهم ويزكى روح الوطنية الكامن في صدورهم فيخلصوا بلادهم من نير الأجنى مثل ما تخلص أجدادهم من الهكسوس بعد حكم دام مدة قرن تقريبا .

لقد صبر المصريون على بلائهم كارهين الى أن تبين لهم من انتصارهم في موقعة رفح ان تفوق الاغريق عليهم لم يكن الا وهما ، وانهم على الأقل ند لأولئك السادة الذين أوسعهم بطشا واستغلالا . فلا عجب انه ما كاد الجيش يعود من رفح حتى تأججت نار الثورة بين المصريين . وقد بدأت الثورة في الدلتا في عام ٢١٦ ق . م . ولم يأت عام ٢٠٦ حتى كانت قد اشتدت وامتد لهيها الى مصر الوسطى ومصر العليا . وقد بقيت نار الثورة مستعرة في البلاد حتى عام ١٨٤ / ١٨٣ ق . م . عندما وقعت سايس في قبضة بطلميوس الخامس الذي مثل بالزعماء المصريين أفضع تمثيل بعد أن أمتهم على حياتهم ليشجعهم على التسليم .

ولم يكد بطلميوس السادس ينجو من شبح أنطيوخوس الرابع المخيف حتى واجه

في عام ١٦٥/١٦٤ ق . م . الثورة التي قام بها زعيم مصرى متأغرق يدعى ديونيسيوس بتوسيرايس كان يتولى منصبا كبيرا في القصر الملكي ، ويتمتع بنفسوذ كبير بين المصريين ، وقام بدور ممتاز في الحرب ضد أنطيوخوس . ويبدو أن ديونيسيوس كان يريد استغلال الشقاق الأسرى بين بطلميوس السادس وأخيه الصغير للتخلص من الأخ الأكبر باستثارة خواطر الاسكندريين ضده ، حتى اذا ما تم له ذلك استنفر وطنية المصريين ضد الأخ الأصغر ، وبذلك ينقذ البلاد من مغتصبها . لكن التوفيق بين الأخوين أفسد على ديونيسيوس خطته ومكن بطلميوس السادس من هزيمته . غير ان ديونيسيوس تمكن من الفرار واشعال لهيب الثورة في البلاد ، فاضطر بطلميوس السادس الى القيام بحملة حتى النوبة لاختاد هذه الثورة .

ويرى بعض المؤرخين ان مصر رجعت اصداء الخلاف بين بطلميوس الثامن وأخته كليوبتره الثانية وانقسمت فريقين ، وانه كان يؤيد كليوبتره الثانية الاسكندرية أو على الأقل جانب من الاغريق وكذلك اليهود وجانب من الجيش ، على حين كان يؤيد بطلميوس الثامن بقية الجيش وكثير من المصريين أو من المحتمل غالبيتهم بزعامه الكهنة وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجا من النزاع الأسرى والثورة القومية . ونحن نعتقد ان هذه الحرب كانت فعلا مزيجا من

تشير الدلائل الى حدوث اضطرابات في عام  
٧٨/٧٩ وفي عام ٦٣/٦٤ وكذلك في عام  
٥٨ ق . م .

وقد خرج المصريون من كفاهم الطويل  
يجرون أذيال الخيبة بسبب افتقارهم الى  
ما امتازت به عليهم قوات البطالة من النظام  
والأسلحة والعتاد والأموال ، وبسبب عدم  
اتحادهم ، فان فريقا مهما من المصريين بدلا من  
أن يشتركوا في مناهضة الحكم الأجنبي  
الجائر اشتركوا في مناهضة مواطنهم ، أو علي  
الأقل وقفوا منهم موقفا سلبيا ، وذلك اشباعا  
للأحقاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم  
المادية ، فكانوا بذلك مطية للأجنبي وجزءا  
من أداة تنفيذ سياسته الاستعمارية .

وإذا كان المصريون قد فشلوا في التخلص  
من طغاتهم الأجانب ، فانهم على الأقل  
أرغموهم على النزول عن صلفهم وجبروتهم ،  
والنظر اليهم بعين جديدة في الشطر الثاني من  
حكمهم . فضلا عن ذلك فان الثورات القومية  
كانت من أهم الأسباب التي أضعفت دولة  
البطالة وعجلت بالقضاء عليها .

النزاع الأمري والثورة القومية ، وإن تفسير  
ما حدث هو انه كان لكليوبترا الثانية حزب  
يضم الجانب الأكبر من اغريق مصر والمتأغرقين  
وخصوم كهنة آمون ، ولذلك كان الموقف  
الطبيعي لغالية المصريين هو مناهضة ذلك  
الحزب اشفاء لتليل حقدهم على الاغريق ومن  
هادنهم من المصريين ، فبدوا كما لو كانوا  
يناصرون بطلميوس الثامن ، أو بعبارة أخرى  
لم يكن تأييد غالبية المصريين لبطلميوس  
الثامن حبا فيه وإنما كراهية لأنصار خصمه .

وقد تجددت الثورة في عهد بطلميوس  
التاسع وكانت مثل سابقتها وليدة عوامل  
دينية وقومية واقتصادية . وقد تفاقمت الحال  
في منطقة طيبة الى حد ان بطلميوس التاسع  
رأى أن الطريقة المثلى لقطع دابر الثورة هي  
القضاء على طيبة لأنها كانت دائما مهد  
الثورات وممقل التائرين ، ولذلك فانه بعد  
حرب دامت ثلاث سنوات استولى على طيبة  
وخربها تخريبا شديدا ( عام ٨٥ ق . م . ) .

ويبين ان تخريب طيبة قد قسم ظهر  
الثورة لكنه لم يقض عليها قضاء مبرما ، إذ

## الفصل الثامن

### الآداب — العلوم — الفنون

الآلهات . وقد شيد بطليموس لهذه الدار مبنى في الحى الملكى ، أعد بحيث يكون مركزا للبحث العلمى وفى الوقت نفسه مسكنا للعلماء ، حيث كان الملك يستضيفهم على نفقته فضلا عما كان يجريه عليهم من المرتبات ، لكيلا تشغلهم مطالب الحياة عن الانصراف كلية الى البحث والدرس . ولم يكن الهدف الأول لهذا المعهد التعليم وانما البحث العلمى ، ومع ذلك كان العلماء يلقون المحاضرات فى القاعات العامة وما أشبه ذلك فى المدينة . ويبدو من الدور الذى قامت به الاسكندرية فى الحركة العلمية أن كل فروع البحث العلمى كانت ممثلة فى جامعتها .

ولكى يتيسر للعلماء الاضطلاع بمهنتهم أنشئت المكتبة الكبرى . واذا كان بطليموس الأول هو الذى وضع نواة هذه المكتبة بجوار دار العلم فان بطليموس الثانى هو الذى تعهد المكتبة برعايته حتى غدت أعظم المكتبات فى العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة الصغرى التى كانت تكون جزءا من معبد السيرايوم . ونحن نميل الى الأخذ بما تذكره بعض المراجع القديمة من أنه عندما أحرق يوليوس قيصر

سكنصر الكلام فى هذا الفصل على الآداب والعلوم الاغريقية ، لأن مصادرنا تغفل اغفالا تاما الآداب والعلوم المصرية فى خلال هذا العصر .

أولا — الآداب :

#### ١ - دار العلم والمكتبة

يرجح ان بطليموس الأول هو الذى خطا حوالى عام ٢٩٠ ق . م . الخطوة الأولى فى سبيل انشاء دار العلم والمكتبة ، فقد فطن ذلك العاهل الأديب الى أنه اذا كانت القوة ضرورية للذود عن حياض مملكته وتوسيع رقعتها ، فان رعاية العلم والفن كانت أنجع وسيلة تكسبه وسلالته المجد والخلود . ومن ثم أخذ يدعو الى الاسكندرية الكثير من فحول شعراء الاغريق وأدبائهم وعلماهم وفلاسفتهم وفنانيهم . وقد كان فى طليعة ضيوفه ويمتريوس الفليرى الذى أوحى اليه بانشاء دار العلم ( الجامعة ) والمكتبة .

وقد أنشئت دار العلم على نمط مدارس أثينا الفلسفية ، اذ يبدو أن بطليموس الأول اقتضى أثر المدارس الفيثاغورثية فجعل دار العلم فى الاسكندرية تلتف حول عبادة آلهات العلم والفن ، ولذلك سميت مؤئل هذه

الأسطول المصرى فى خلال « حرب الاسكندرية » ، وامتد اللهب الى رصيف الميناء وأحرق المباني المجاورة له ، ذهبت المكتبة الكبرى طعما للنيران ، بدليل ان أنطونيوس عوض كليوباترة عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠ر٠٠٠ مجلد من مكتبة برجام .

وقد أدى علماء الاسكندرية خدمات جليلة للأدب الاغريقى ، عندما ابتدعوا فن نقد النصوص القديمة بمقارنة المخطوطات المختلفة ، وحققوا أصول كثير من المؤلفات القديمة . ولعل أهم ما يدين به المحدثون لعلماء الاسكندرية ما بذلوه من الجهد فى تحقيق الأشعار الغنائية والمسرحيات ، وكان فن النقد الاسكندري يرتكز على قواعد ثابتة قوية تخالف تماما قواعد فن النقد التخيلى الذى ابتدعه الرواقيون فيما بعد فى برجام .

## ٢ - الشعر

وتعتبر الاسكندرية بحق عاصمة الأدب الاغريقى فى العصر الهلينستى ، حتى انه ينذر أن نسمع أن أحدا من فحول شعراء ذلك العصر لم يزر الاسكندرية أو يعيش فيها لينعم برعاية ملوكها وينهل من موارد علمها . فلا عجب أن كافة أنواع الشعر الاغريقى ، فيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت فى خلال هذا العصر بالشعر الاسكندري .

وكانت أحب ألوان الشعر الى قلوب

الاسكندريين الشعر القصصى والمرثيات والشعر الغنائى والمقطوعات القصيرة . وقد كان هذا الشعر اغريقيا خالصا ، واستمد بعضه من الفنون القديمة ، والبعض الآخر من عواطف المعاصرين وخيالاتهم . ولذلك فانه بينما يعتبر بعض الشعر الاسكندري تجديدا لبعض فنون الشعر القديمة ، يعتبر البعض الآخر مبتكرات جديدة فى شكلها وفكرتها . وعلى كل حال فان جميع ألوان الشعر الاسكندري لا تمت بصلة الى مصر أو شعبها ، حتى ان ثيوكريثوس عندما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف جمال الطبيعة فى مصر وانما فى جزيرة كوس أو مدينة سيراكوز . وكان الشعراء الاغريق لا يعرفون عن مصر ، حتى بعد ما عاشوا فيها ، الا ما قرأوه فى القصص الاغريقية أو ما كتبه هيروdotوس وأفلاطون ؛ وكانوا لا يوجهون عنايتهم الى شىء من المميزات المحلية الا ما لا يستطيعون استخدامه فى اطراء الملك الذى يرعاهم .

ولعل أهم مميزات الشعر الاسكندري انه كان خاليا من العواطف السياسية والشعور بالتقوى نحو الآلهة القديمة ، فى حين انه كان كلفا بأفاق العلم المتسعة ، وتصوير المشاعر الانسانية ، وامتداح الحياة البسيطة التى تخالف حياة الناس اليومية المعقدة وتصوير الواقع تصويرا دقيقا .

ويعتبر كاليماخوس أبرز شعراء

الذين تأثروا بالمشائين ، وكلايتارخوس أبرز  
مثل لمؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا  
بمدرسة اسقراط .

ومن حسن الحظ انه في الوقت الذي  
خضع فيه التاريخ لتلك المؤثرات التي  
أفسدته ، وجد أشخاص يميلون الى الحقيقة  
وشاركوا فعلا في الأحداث التي كتبوا عنها ،  
مثل بطلميوس الاول الذي استمد معلوماته  
فيما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية  
ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان  
كتابه فريدا في بابه يومئذ ، لكنه مع الأسف  
لم يصل الينا الا بعض منه عن طريق  
اريانوس .

وفي عهد بطلميوس الأول كتب هكاتايوس  
من أبدرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر  
الاغريق . والتاريخ المصري الذي يمكن أن  
يوثق به من ذلك العصر هو ما كتبه ماتتو  
كبير كهنة هليوبوليس ، واعتمد فيه على  
الوثائق الهيروغليفية وأهداه لبطلميوس  
الثاني ، وكان كتابا ضخما يقع في ثلاثة أجزاء .

وإذا كان التاريخ يحتل مكان الصدارة  
في نثر العصر الهيلينستي ، فقد كان للجغرافيا  
مكان هام فيه ، الى حد أن ما كتبه فيها العالم  
الجغرافي اراتوشينس يعتبر أعظم مثل للنثر  
الاسكندري . وقد كانت سعة اطلاع هذا  
العالم وتبحره في مختلف العلوم والفسون  
مضرب الأمثال ، فانه كتب في الشعر والفلسفة  
وقواعد اللغة وفقه اللغة والتاريخ والجغرافيا ،

الاسكندرية في النصف الأول من القرن  
الثالث قبل الميلاد ، وكان لا يزال يقرض  
الشعر في الشطر الأخير من حياته في عهد  
بطلميوس الثالث . ولم يولد في مصر شاعر  
هيلينستي من الطراز الأول الا ابولونيوس  
الذي أطلق عليه لقب الرودسي ، لأنه استقر  
في رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد طرده  
من منصب أمين المكتبة الكبرى .

وكان من أشهر شعراء القرن الثالث  
نيوكريتوس السيراكوزي ، الذي عاش فترة  
في الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطلميوس  
الثاني . وإذا كان العصر الذهبي للشعر  
الاسكندري لم يعمر أكثر من نصف قرن يمتد  
من حوالي عام ٢٩٠ الى عام ٢٤٠ ق . م . ،  
فان الشعر الذي يصور حياة الريف بقي  
منتعشا حتى القرن الأول قبل الميلاد .

### ٣ - النثر

ولم يكن للاسكندرية في النثر الهيلينستي  
من الأثر مثل ما كان لها في الشعر . وقد تأثر  
النثر في هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ  
الأثر فيه . أما العامل الأول فهو أثر المشائين ،  
اذ أن غرامهم بجمع الحقائق كما هي أفضى  
الى الخلط بين الحقائق والقصص دون أى  
تمييز بينها . أما العامل الثاني فهو أثر  
اسقراط وتلاميذه وكانوا يختلقون الوقائع  
ليكون أثر الحوادث في النفس عميقا ، أو  
يحورون الحقائق ليكون لها مغزى ظاهر .  
ويعتبر ساتيروس أشهر مؤرخي الاسكندرية

لكن مؤلفاته في العلمين الأخيرين فاقت سائر ما كتبه . وأهم مؤلفاته في الجغرافيا كتابان كان أحدهما بحثا « في قياس أبعاد الكرة الأرضية » قدر فيه محيط الكرة الأرضية تقديرا يثير الإعجاب .

ثانيا - العلوم :

#### ١ - الطب والجراحة :

وقد بلغت العلوم الاغريقية شأوا بعيدا في العصر الهلينستي بعد الخطوات الموقفة التي خطتها قبل ذلك العصر . وقد تقدم الطب بوجه خاص تقدما كبيرا ، وكان أبرز علماء الطب في الاسكندرية هروفيلوس العالم في التشريح ، وارايسيراتوس العالم في وظائف الأعضاء . وقد كانت أبحاث هروفيلوس التشريحية تدور حول المخ والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل ووجه هذا العالم عناية كبيرة الى دراسة المخ والأعصاب والقلب وضربات النبض . وتدل الأبحاث على انه كان يستخدم أداة بديعة لتقدير سرعة النبض . وقد كان طبيعيا أن يؤدي تقدم التشريح الى تقدم الجراحة . ومن أسباب مجد طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة ، واستخدام هذه الآلات بمهارة فائقة .

وكان ارايسيراتوس أكثر توفيقا من هروفيلوس في أبحاثه عن القلب والمخ ، وذهب الى مدى أبعد منه في التفرقة بين الأعصاب الحساسة والأعصاب المحركة .

وحوالي عام ٢٨٠ ق . م . أسس فيلينوس مدرسة طب جديدة في الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية . وقد كان فيلينوس أحد تلاميذ هروفيلوس ، لكن مدرسته تفاضت عن التشريح والفسولوجيا ، لأنها كانت ترى ان الطب ليس مختصا الا بعلاج الأمراض دون الوقوف على أسبابها . ولذلك فان واجب الطبيب هو أن يعطى العلاج الذي يشفى أعراض الداء التي يراها ، على أن يهتدى الى ذلك بملاحظاته الشخصية والتعليم والحالات المتشابهة . ولا يبعد أن المدرسة التجريبية قد أدت للطب خدمة كبيرة بمناهضة الميول النظرية التي كانت على الدوام أحد مواطن الضعف في الطب الاغريقي .

#### ٢ - علما الحيوان والنبات

وقد كان على رأس المشتغلين بدراسة علمي الحيوان والنبات في العصر الهلينستي عالمان بارزان ، كان أحدهما تلميذا نابها لأرسطو يدعى ثيوفراسطوس ، وقد فنسل بطلميوس الأول في استمالاته ، والآخر يدعى استراتون وكان معلم بطلميوس الثاني . وأهم ما أصابته دراسة الحيوان في هذا العصر ان العالم الاغريقي أصبح يألف عددا كبيرا من الحيوانات . ولا شك في أنه قد ساعد على ذلك حذيقة الحيوان التي أنشأها بطلميوس الثاني ، وكانت تضم عددا كبيرا من مختلف أنواع الحيوان والطيور والزواحف .

أما علم النبات فقد كان أكثر توفيقا بفضل

يستخدمونه منذ العصر الهيلينستي حتى عهد قريب جدا . وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب ما اختاره فيه اقليدس من المعلومات المسلم بها كالتعاريف والفروض والبيدييات ، ولا سيما النظريات التي تستحق أن تسمى « عناصر » ، لأنها أساسية وتفوق غيرها في الأهمية وفي التطبيق . وقد وضع اقليدس كتبا أخرى لم تكن مقصورة على الهندسة ، بل شملت فروع الرياضيات كما كانت معروفة عندئذ .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا ، ويدين اغريق العصر الهيلينستي بقدر من الفضل غير قليل لعلماء بابل ، الذين جمعوا منذ عهد بعيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام السماوية . وقد كان من أبرز علماء الفلك أريستارخوس من ساموس ، الذي عاش في القرن الثالث وكان أول من نادى بأن الأرض لا تدور حول نفسها فقط وإنما تدور أيضا مثل الكواكب حول الشمس . أما أعظم علماء الفلك في الاسكندرية وفي العالم القديم قاطبة فقد كان يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد ويدعى هيبارخوس ، وقد كان أعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وتقدير متوسط طول الشهر القمري تقديرا يبعث على الدهشة ، لأنه لا يقل الا بثانية واحدة عن التقدير المقبول اليوم .

وكان أرخميدس السيراكوزي أعظم عبقرية مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق .

أبحاث ثيوفراستوس التي رفعت دراسة النبات الى مستوى العلم البحت ، وتمخضت عن معلومات تثير الدهشة في كثير من الأحيان لأن الميكروسكوب لم يكن معروفا عندئذ ، ولأن علم الكيمياء كان لا يزال في المهد . ومهما كان من أمر كشوف هذا العالم فانها لا يمكن أن تقارن بفضله في وضع أساس علم النبات وفي تمهيد السبيل لمن أتى بعده من الباحثين المتأخرين .

### ٣ - العلوم الرياضية

وتحتل الهندسة مكانة سامية بين رياضيات العصر الهيلينستي ، التي فاقت في تقدمها سائر فروع العلم الأخرى . فإن الهندسة كانت أساس كل الرياضيات عند الاغريق لعدم درايتهم بالأرقام . ولعل ما بلغته الهندسة من الاتقان كان سببا في عدم تفكير الاغريق في اختراع الأرقام ، ولا سيما أن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يعتبر اليوم من علم الجبر . ولا يمكن المبالغة في تقدير الخدمات التي أسداها اقليدس الى الرياضيات . ويبدو أن هذا العالم كان يعاصر بطلميوس الأول ، وعلى كل حال فانه أسس في الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثير من الرياضيين المبرزين . ويتقرن اسم اقليدس بأشهر مؤلفاته وهو كتاب في الهندسة يعرف باسم « العناصر » . ولم يعمر كتاب في العالم ، باستثناء الكتب السماوية ، مثل ما عمر هذا الكتاب ، الذي استمر تلاميذ الهندسة في مختلف أنحاء العالم

المصريين ، وسنين اذا كان الفن المصري  
والفن الاغريقي قد تأثر أحدهما بالآخر أم بقي  
كل منهما خالصا تقيا .

### ١ - المقابر

وتدل نتائج الحفريات على أن اغريق  
مصر قد استخدموا مقابر من ثلاثة أنواع :  
كان أولها عبارة عن حفر تنحت في الصخر  
أو تحفر في الأرض ، ونجد أمثال هذه المقابر  
البيطة في مختلف أنحاء العالم الاغريقي .  
وأهم مظاهر النوع الثاني الدفن في فجوات  
مستطيلة الشكل تبنى أو تنحت في  
جوانب دهليز أو غرفة . وإذا كان هذا النوع  
فينيقي الأصل ، فقد خلع الاغريق عليه طابعا  
اغريقيا . والنوع الثالث مقدوني الأصل ،  
لكنه اغريقي في تخطيطه وعمارته وزخرفته  
ويسمى مقابر الأرائك .

وتمتاز مقابر الأرائك التي ترجع الى  
القرن الثالث والنصف الأول من القرن الثاني  
قبل الميلاد بأنها تتألف من سلم وفناء مكشوف  
وغرفة أمامية وغرفة خلفية تقع جميعها على  
محور واحد . أما مقابر الفترة التي تمتد من  
منتصف القرن الثاني حتى نهاية عصر البطالمة  
فقد كانت أبرز عناصرها هي فناء أوسط  
تحيط به الغرف . وقد تطورت هذه المقابر  
من مقابر ذات أريكة مثل مقبرة سوق  
الوردبان حيث كان الدفن يتم في تابوت على  
شكل الأريكة يوضع في الغرفة الخلفية ، الى  
مقابر ذات أريكة وفجوات مثل مقبرة الشاطبي

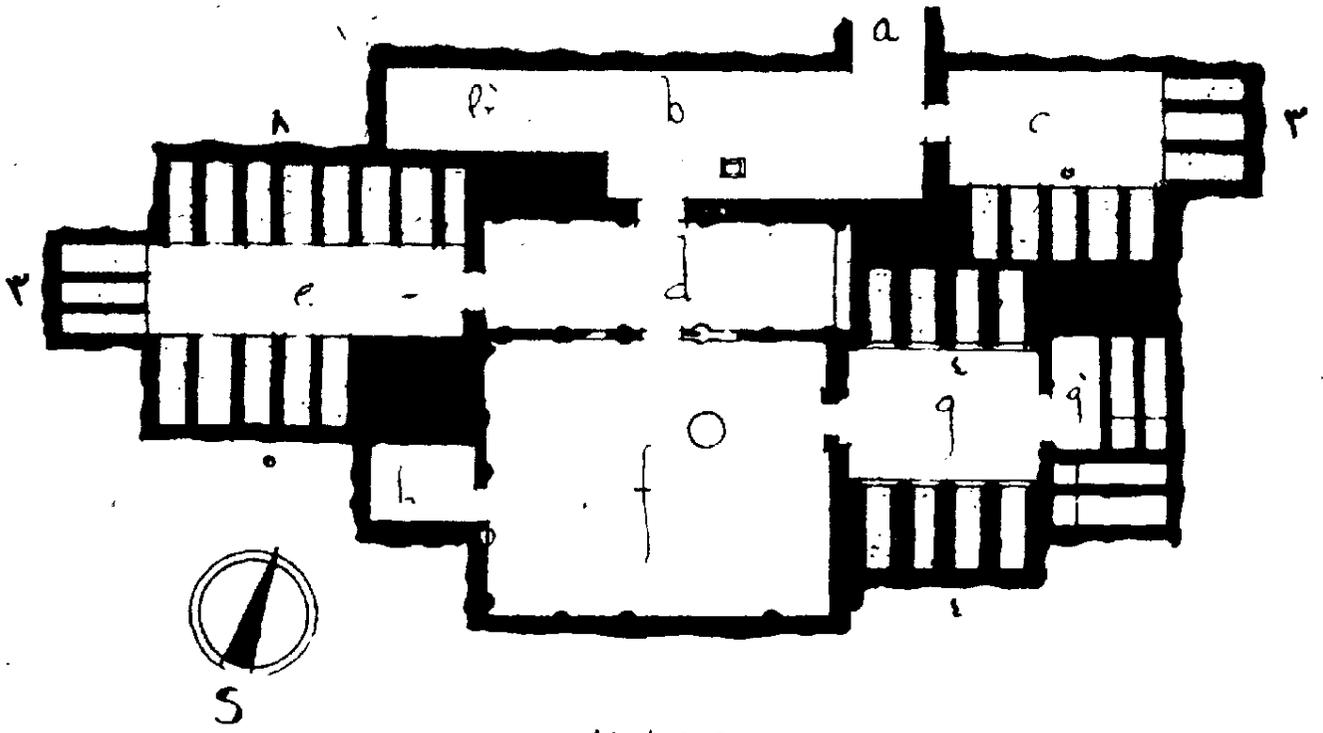
وقد اخترع أرخميدس لولبه المشهور  
( الطنبور ) لرفع الماء عندما كان يقيم في مصر ،  
لكنه كان لا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه  
الأشياء التي كان يعتبرها مجرد تسلية ، فقد  
كان يتفق مع أفلاطون في الرأي القائل بأن  
الفيلسوف يجب ألا يستخدم علمه في الأشياء  
العملية . وحسبنا أن نذكر أنه وضع أساس  
علم التفاضل والتكامل في اللانهاية وعلم  
دراسة الموائع والمبادئ الأولية في الميكانيكا .  
وقد نشطت كذلك في عهد البطالمة الأوائل  
دراسة الميكانيكا وكان أبرز علماءها  
كتسيبيوس الأكبر ، الذي يحتمل انه عاش  
في عصر بطلميوس الثاني أو الثالث . وقد  
ابتكر هذا العالم آلات تعمل بالقوة الهوائية  
وأخرى بالقوة المائية . ويأتي بعد هذا العالم  
بحوالي ربع قرن فيلون البيزنطي الذي وضع  
كتابا في تسعة أجزاء على الأقل يدعى مجموعة  
الميكانيكا .

### ثالثا - الفنون

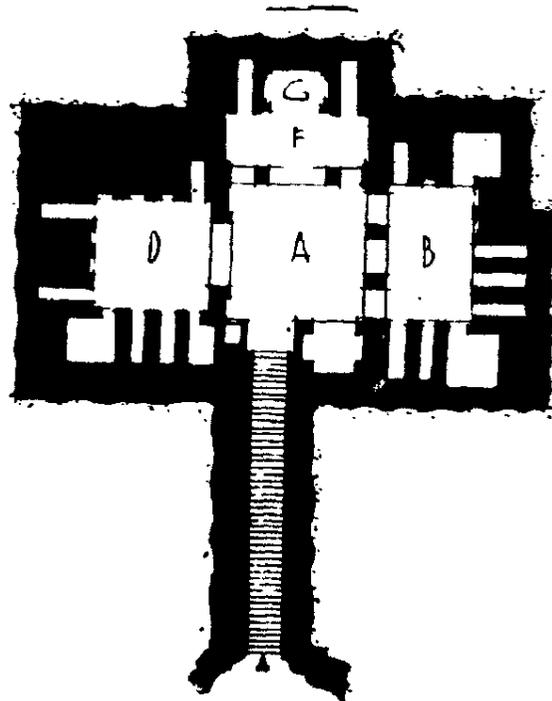
وسنقصر الكلام هنا على فني المعمار  
والنحت ، لأننا لا نعرف عن موسيقى العصر  
الهيلينستي أكثر من أنها كانت تلعب دورا  
هاما في حياة العامة والخاصة ؛ ولأنه لم يبق  
من التصوير الا القليل النادر الذي نراه على  
جدران المقابر .

### ١ - المعمار

سنتناول في ايجاز أقسام هذا الفن وهي :  
المقابر والمنازل والمعابد عند الاغريق وعند



مقبرة الشاطبي



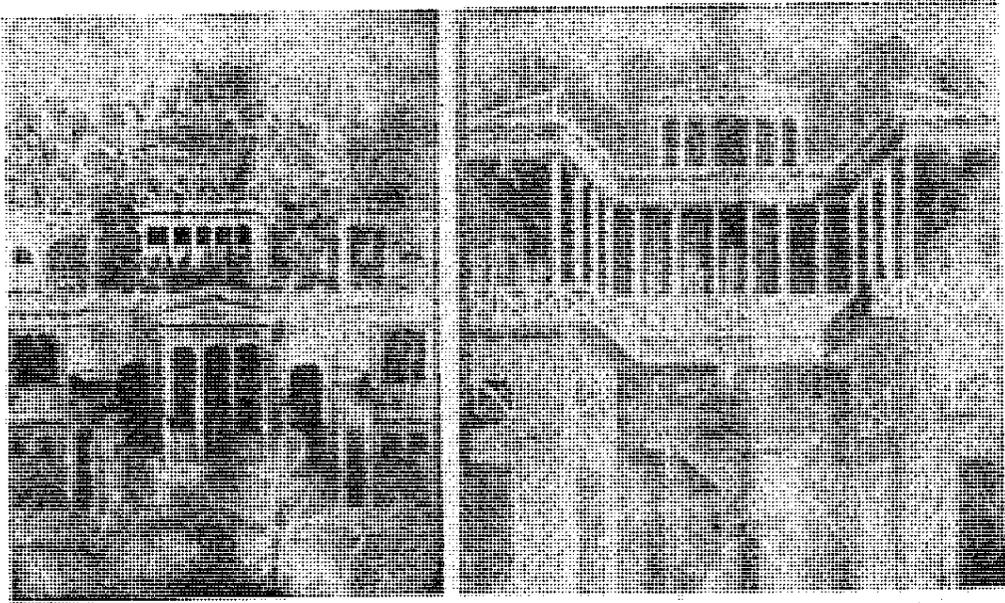
مقبرة حديقة انطونياس

نوعين . وأحد هذين النوعين بسيط يتألف من بئر تنشأ في قاعها فجوة يدفن فيها الميت . وكان هذا النوع المتواضع من المقابر شائعا جدا في عصر البطلمية . وكانت مقابر النوع الثاني تتألف من هيكل جنازى صغير تنزل من أرضيته بئر كان الميت يدفن في قاعها . ولما كانت مقابر هذا النوع أغنى من مقابر النوع الأول ، فان هذا يفسر قلة عدد مقابره في عصر يمتاز بفقر أهالى البلاد بوجه عام فقرا مدقعا .

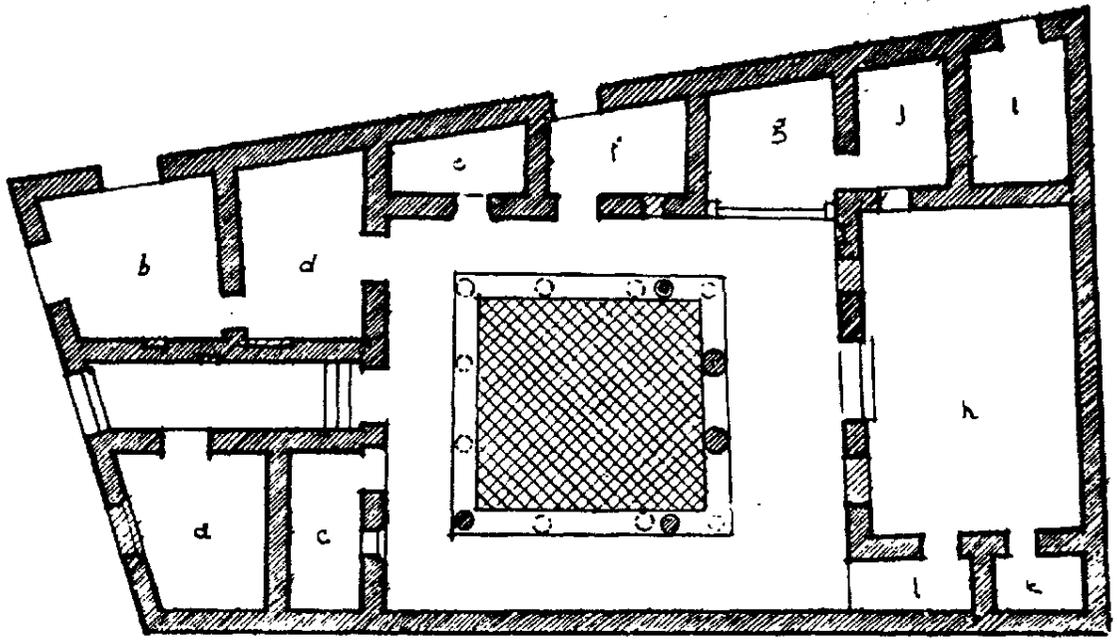
وباستثناء مقبرة يتوزيريس التى اختلط في زخرفة بعض أجزائها الطراز المصرى مع الطراز الاغريقى كانت المقابر المصرية البطلمية مصرية خالصة فى عمارتها وزخرفتها ونصبها الجنائزية .

ومن ثم يمكن القول بأن المصريين والاغريق قد احتفظوا بوجه عام بطراز عمارتهم الجنائزية

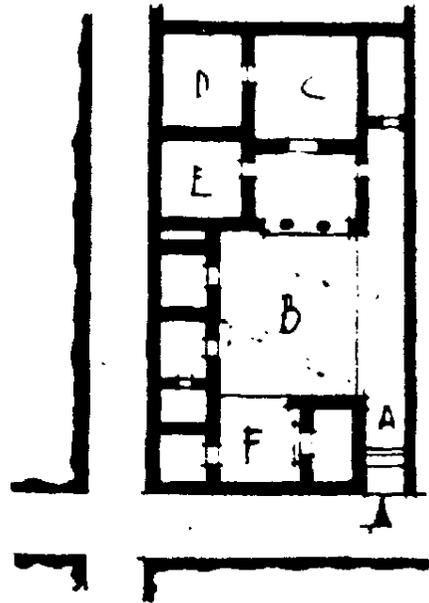
محيث استعملت الأريكة والفجوات فى الدفن الى مقابر ذات فجوات وأريكة مثل مقبرة سيدى جابر ومقبرة حديقة أنطونيادس حيث استخدمت الفجوات فقط فى الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة بارزة ، وأخيرا الى مقابر ذات فجوات ومحاريب حيث اختفت الأريكة تماما وكان الموتى يدفنون فى الفجوات وفى توابيت كالصناديق كانت توضع فى المحاريب . وما يجدر بالملاحظة انه اذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها اغريقيا ، فانها لم تخل أحيانا قليلة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك كانت أيضا حال النصب الجنائزية . أما المصريون فانهم ، سواء أكانوا يعيشون فى الاسكندرية أم فى المدن والقرى المصرية ، قد احتفظوا بأساليب دفنهم التقليدية . فكانوا يدفنون موتاهم اما فى مقابر قديمة أعادوا استخدامها ، أو فى مقابر حديثة كانت على



صورتان كانتا تزينا جدران منزل فى يومبى ، لكن يبدو من خصائص عمارة المباني التى فى الصورتين أن هذه المباني كانت هيلينستية وتمائل ما أقيم منها فى مصر أو آسيا الصغرى وسوريا .

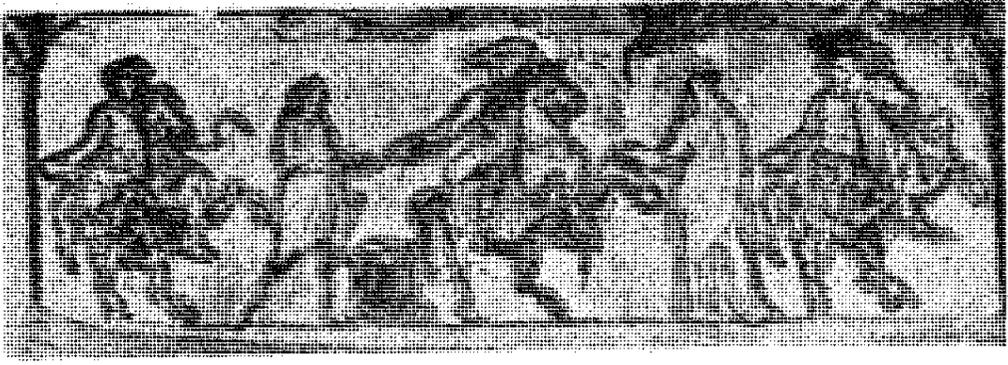


منزل في دبلوس

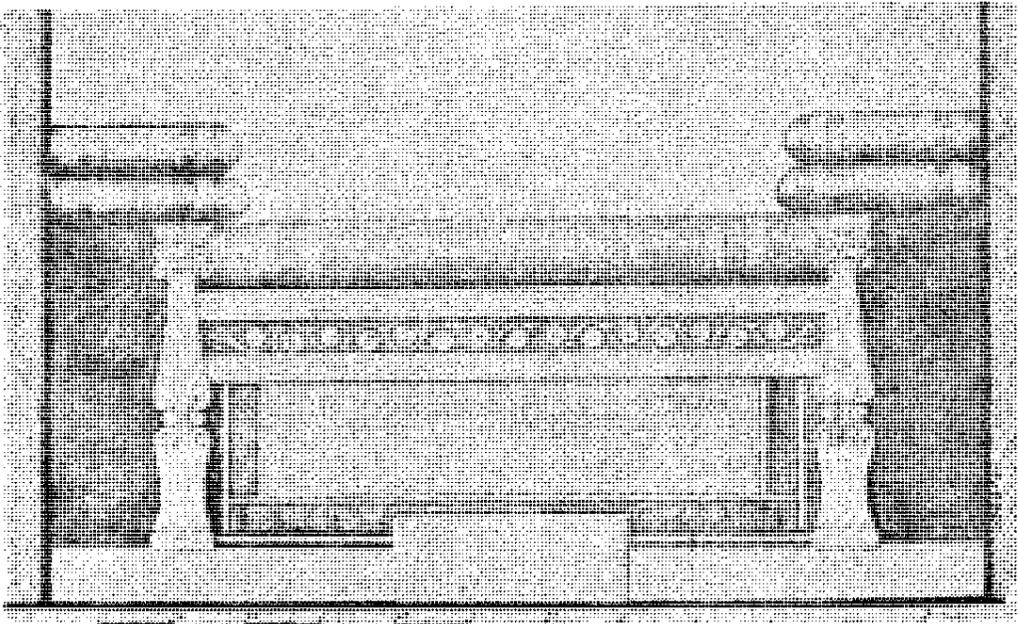


MTS

منزل في براييني



لوحة تزخرف فناء المقبرة رقم ١ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية ، وتصور اللوحة ثلاثة فرسان بينهم سيدتان . ويبدو أنهم كانوا جميعا أفراد أسرة مقدونية نبيلة دفنت في هذه المقبرة.



نابوت في شكل أريكة في المقبرة رقم ٣ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية . وهذه الأريكة الجنازوية ، وقد صنعت من الحجر وطلبت بالجبص والألوان ، تعطينا صورة رائعة عن المستوى الرفيع الذي بلغته صناعة الأرائك، التي كانت تستخدم في الحياة الدنيا ، وتصنع من الخشب وترصع بالعاج والمعادن والخشب النفيس ، وتفرش بالطنافس والوسائد .

خاليا من التأثيرات الأجنبية ، فيما عدا بعض العناصر الطفيفة التي تسلت في بعض الحالات من أحد الطرازين الى الآخر ، وتنهض بذلك دليلا على المدى المحدود الذي بلغته محاولة مزج طرازي العمارة المصرية والاعريقية .

### ب - المنازل

ومع أنه لم يعثر في مصر كلها الا على عدد قليل من المنازل الاعريقية في الفيوم ، فانه بفضل معلوماتنا عن المنازل الاعريقية في باقى أنحاء العالم الاعريقي ، والأدلة المستمدة من الوثائق البردية ومقابر الاسكندرية وسفينة بطلميوس الرابع التي كانت تعتبر قصرا عائما ، نستطيع أن نستخلص أن اغريق الاسكندرية قد استخدموا ، مثل معاصريهم في سائر أنحاء العالم الاعريقي ، نوعين من المنازل يشبه أحدهما النوع الذي كان شائعا في براينى بالأناضول في القرن الثالث قبل الميلاد ، بدليل ان مقابر سوق الوردبان والشاطبي والأفوشي وسيدى جابر تتألف من العناصر الرئيسية التي كانت توجد في ذلك النوع من المنازل . أما النوع الثاني فيشبه ذلك النوع من المنازل الذي اشتهرت به جزيرة ديلوس في القرن الثاني قبل الميلاد ، ووجدت عناصره الرئيسية في مقبرتي حديقة أنطونيادس والمكس .

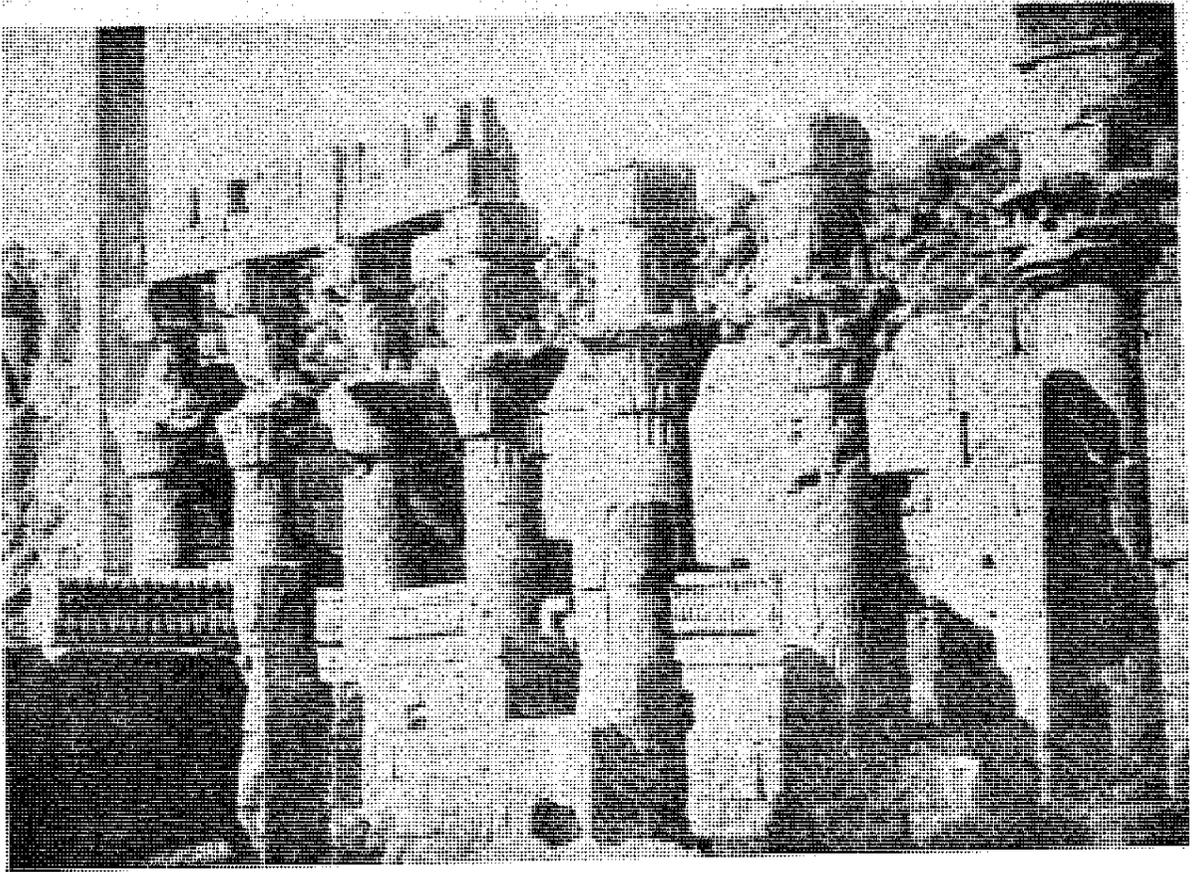
وتشير القرائن الى أنه كانت توجد منازل اعريقية في بطوليميس وبعض مدن الفيوم ، ومن المحتمل أيضا في قراطيس . أما فيما عدا ذلك فيبين ان الاعريق وكذلك المصريين كانوا

ينزلون في منازل مصرية لم تكن الا استمرارا لأنواع المنازل التي كشفت عنها الحفائر في تل العمارة ، فهي مثلها تتألف من مدخل وصالة وسطى وغرف للنوم ومطبخ ومخازن ، ويجب أن نبين أن اتخاذ الاعريق في الريف منازل من الطراز المصرى لا يرجع الى تأثيرات حضارية وانما الى الظروف وحدها التي أملت ذلك ، فقد كان أغلب هؤلاء الاعريق جنودا وبعضهم تجارا ، وكان الجنود يمنحون مساكن في بيوت مصرية . ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود والتجار لم يعيشوا من قبل في منازل تختلف كثيرا عما وجدوه من المنازل المصرية . ولذلك يبدو طبيعيا أن اغريق الأقاليم بوجه عام استعملوا المساكن المصرية التي وجدوها فيما نزلوا به من المدن والقرى المصرية . ولعله بمضى الزمن وتناسب هذه المنازل مع البيئة ألف الاعريق سكانها .

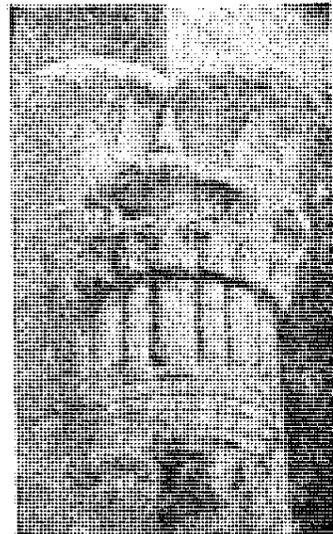
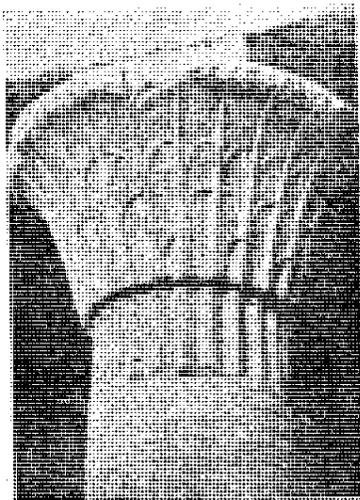
أما عن طابع عمارة المنازل البطلمية وزخرفتها فان القرائن توحى بأنه قد بقى بوجه عام مصرية خالصا أو اعريقيا خالصا .

### ج - المعابد

وتحدثنا المصادر القديمة بأن الاسكندر الأكبر والبطالمة قد شيّدوا معابد للالهة الاعريقية مثل ما شيّدوا للالهة المصرية ، لكن لسوء الحظ لم تكشف الحفائر عن بقايا أى معبد اعريقى كبير ، وان كانت قد كشفت عن بقايا معبد دورى صغير يبدو أن طرازه الاعريقى لا تشوبه أى تأثيرات مصرية ، كما



• معبد نكتانبو بجزيرة فيلة •



• نوعان من رؤوس الأعمدة المركبة •

كشفت أيضا عن بقايا كل طرز الأعمدة الاغريقية . واذا كانت هذه البقايا تمتاز بطابعها المحلي ، وهو طابع الاسكندرية ، فان أغلبها اغريقي بحت . ومع ذلك فقد عثر على بعض تيجان للأعمدة تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية ، لكن يستبعد انها كانت مستخدمة في معابد اغريقية أو مصرية لأن مثل هذه العماير الدينية تتصف دائما بالمحافظة والاستمساك بالتقاليد . واذا كان الأفراد من سائر الاغريق قد حرصوا بوجه عام على أن يكون طابع مساكنهم في الدنيا وفي الآخرة اغريقيا ، فاننا لا نشك في أن معابد الآلهة الاغريقية كانت أكثر استمساكا بتقاليد العمارة الاغريقية .

وقد كشف عن عدد كبير من المعابد التي أقيمت في هذا العصر للآلهة المصرية ، وهي مصرية صنيعة في تخطيطها وعمارتها وزخرفتها ، ولا أدل على ذلك من أن الأثريين لم يستطيعوا تأريخها تأريخا صحيحا قبل حل طلاسم اللغة المصرية القديمة . وتمتاز هذه المعابد بظاهرتين وهما : أولا ، كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التي يطلق على رءوسها الرءوس المركبة ، ونعتقد أن المصريين ابتكروها في أثناء نهضة العصر الصاوي . وثانيا ، كثرة ما استخدم في صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة تبلغ نصف ارتفاع الأعمدة تقريبا . وليست هذه الجدران القصيرة غريبة على العمارة المصرية ، إذ نجد أمثلة لها في معابد الدولة الحديثة .

وجملة القول ان العمارة الدينية في عصر البطالمة ، سواء آكانت مصرية أم اغريقية ، لم يتطرق اليها أى تأثيرات أجنبية .

## ٢ - النحت :

وتشير الدلائل الى أنه كانت للاسكندرية مدرسة للنحت الاغريقي ذات مميزات خاصة تختلف عن مميزات سائر مدارس النحت الهلينستية ، والى أنه اذا كانت هذه المدرسة ، مثل المدارس الأخرى المعاصرة ، قد استمدت طرازها من تراث أساطين الفن الاغريقي في القرن الرابع ، فانها لم تلبث أن انفردت بطابع معين كان أخص مميزات عدم ابراز عظام الوجه والجسم ، وعدم معالجة تفاصيل الشعر ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ، وصقل السطح صقلا شديدا . لكن الاسكندرية لم تستخدم هذا الطراز المثالي فحسب ، لأنها يوم ابتكرت فرعا جديدا من فن النحت تمخضت عنه الأبحاث التي سارت قدما في جامعتها ، وكان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم ، ابتكرت طرازا واقعيا يوائم هذا الفرع من الفن .

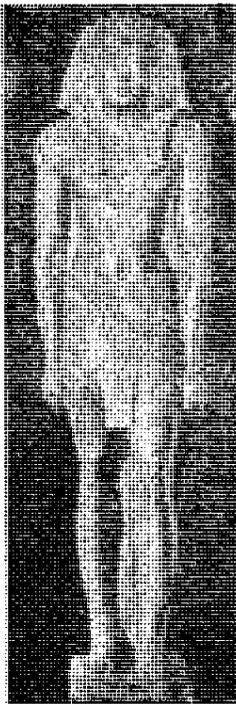
وتدل المخلفات التي كشفت عنها الحفريات على أن الفنان الاغريقي لم يحتكر فن النحت في مصر على عهد البطالمة . فقد استمر الفنان المصري يزاول نشاطه لا على جدران المعابد ونصب الموتى فحسب ، بل في شتى الميادين التي كان أسلافه يألّفونها منذ غابر الزمن .

الأكبر بطراز اغريقي ، لكن القطعة مصنوعة من الجرانيت أو البازلت وهما مادتان غريبتان عن الفن الاغريقي . ومثل تمثال يصور ملكا أو ملكة من أسرة البطالمة بطراز مصرى . ولما كان المقياس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز ، لأنه أبرز صورة لأفكار الفنان وأفصح مظهر لطابع حضارته ، فان اختلاط العناصر أو الصنعة لا يمكن أن ينهض دليلا على امتزاج الطرازين المصرى والاغريقى وتبعاً لذلك على امتزاج تينك الحضارتين وتفاعلها . لقد كان اختلاط العناصر نتيجة طبيعية لاجتماع الاغريق والمصريين فى بيئة واحدة ، وكذلك لقدرة الفنان على أن يكيف

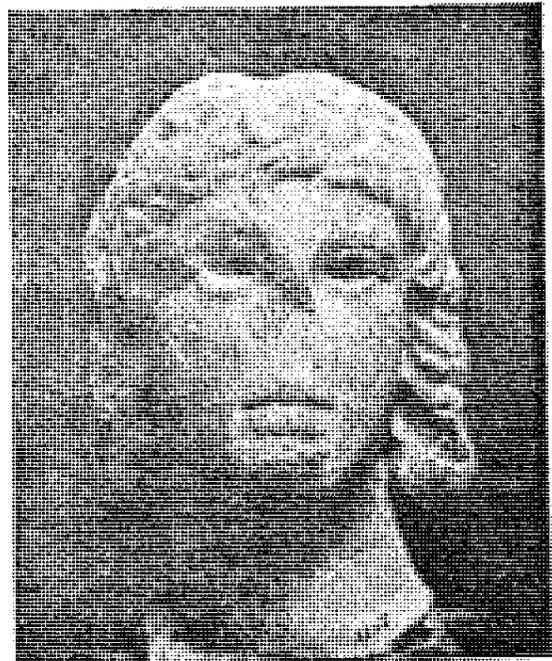
وتتكشف دراسة فن النحت فى عصر البطالمة عن : أولا ، ان أكثر النقود التى سكها البطالمة وأغلب قطع النحت التى ابتكرتها مدرسة الاسكندرية اغريقية فى طرازها وعناصرها وصفتها ، وان أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحتة فى صفتها ومظهرها وجوهرها .

وثانيا ، ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز ، مثل تصوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرنين على نقود بعض البطالمة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فان طراز تلك النقود اغريقي . ومثل قطعة تصور رأس الاسكندر

#### مثالان لقطع النحت التى تختلط فيها العناصر دون الطرز



تمثال لبطلميوس الزمار مصنوع من الجرانيت وطرازه مصرى .



رأس للاسكندر الاكبر مصنوع من الجرانيت لكن طرازها اغريقي .

لا يزالون يذكرون مجدهم التالد ويمتزون بتقاليدهم ولا سيما ان الفن عندهم كان وثيق الصلة بالديانة وانهم كانوا شديدي الاستمسك بدياتهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن القيمة الفنية لقطع النحت الاغريقية أخذت تقل بعد بداية القرن الثاني قبل الميلاد . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف الروح الاغريقي بين اغريق مصر في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، لكن كما بقى الاغريق محتفظين بطابعهم خالصا تقيا برغم ما اعتور روحهم من الضعف ، فان فنهم قد بقى كذلك محتفظا ببقاء طرازه برغم ما طرأ عليه من تدهور .

وقد كان طبيعيا أيضا انه حين انتعش الروح القومي بين المصريين عقب موقعة رفح أن ينتعش فنهم كذلك ، لكنه لم يكن انتعاشا طويل الأمد بسبب الفشل الذي انتهت اليه ثورات المصريين .

ولما كانت النقود ترينا انها قد بقيت اغريقية خالصة في طرازها حتى نهاية عصر البطالمة ، وكانت النصب الجنائزية ولوحات المعابد قد بقيت كذلك مصرية خالصة في طرازها حتى آخر هذا العصر ، فاننا لا نعدو الحقيقة حين نقرر ان كلا من الفنين المصرى والاغريقي قد احتفظ بوجه عام ابان ازدهاره وابان تدهوره بطابعه خالصا تقيا من أثر الفن الآخر ، طالما بقى هذان الفنان منتعشين في مصر البطلمية ، اذ يبدو أن الناس كانوا

نفسه حسب الظروف التي يعيش في كنفها ، وليس نتيجة لتفاعل الحضارتين المصرية والاغريقية ، لأن هذه العناصر ظواهر سطحية على حين ان الجوهر نفسه وهو الطراز قد بقى مصرية أو اغريقيا خالصا .

وثالثا ، ان في عدد قليل من قطع النحت محاولات ظاهرة لمزج الطرازين المصرى والاغريقي ، لكن قلة عدد هذه القطع يدل على أن المصريين والاغريق قد أدركوا بذوقهم الفنى الرفيع عبث مثل هذه المحاولات لبعث الشقة بين الطرازين . وتدل مقارنة هذه القطع بالقطع الأخرى التي كان طرازها مصرية بحتا أو اغريقيا بحتا على أن الأخيرة لا تفوق الأولى في العدد فحسب بل كذلك في القيمة الفنية . ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا في عصر البطالمة مزج الطرازين المصرى والاغريقي في فن النحت يشبهون الموسيقيين المصريين الذين يحاولون اليوم عبثا مزج الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية .

انه لم توجد الا طريقة واحدة ناجحة لمزج مثل هذين الفنين اللذين كانا يختلفان عن بعضهما اختلافاً بعيد المدى . أما هذه الطريقة فهي أن يفنى أحدهما في الآخر بأن يتغلب أحدهما على الآخر بحيث يقضى عليه قضاء مبرما . لكن ذلك كان عزيزا على الاغريق باعتبارهم سادة البلاد وأصحاب حضارة كانوا يعتبرونها أسمى الحضارات جميعا ، كما كان عزيزا أيضا على المصريين ، فقد كانوا

أحدهما عن الآخر إلا بعض المظاهر الشكلية فقط .

ونرى كذلك محاولات قليلة غير ناجحة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى . وهذا يشير الى أن محاولة مزج الجنسيتين كانت كذلك محدودة وغير موفقة .

وبما انه يبدو جليا واضحا ان تدهور الفن الاغريقى قد حدث فى أعقاب اقطاع وفود الاغريق على مصر ، فانه يمكن القول ان ضعف الروح الاغريقى فى مصر لم يبدأ قبل القرن الثانى قبل الميلاد ولم يكن نتيجة لاختلاط الاغريق بالمصريين .

وكما بقى الفن الاغريقى اغريقيا حتى نهاية عصر البطالمة مهما انحط مستواه ، فلا بد من أن الروح الاغريقى قد بقى كذلك اغريقيا مهما اعتوره من الضعف .

ويبدو اذن من كل ما مر بنا ان نتائج الأدلة المستمدة من الآثار ، تؤيد النتائج التى استخلصناها من مختلف المصادر الأدبية .

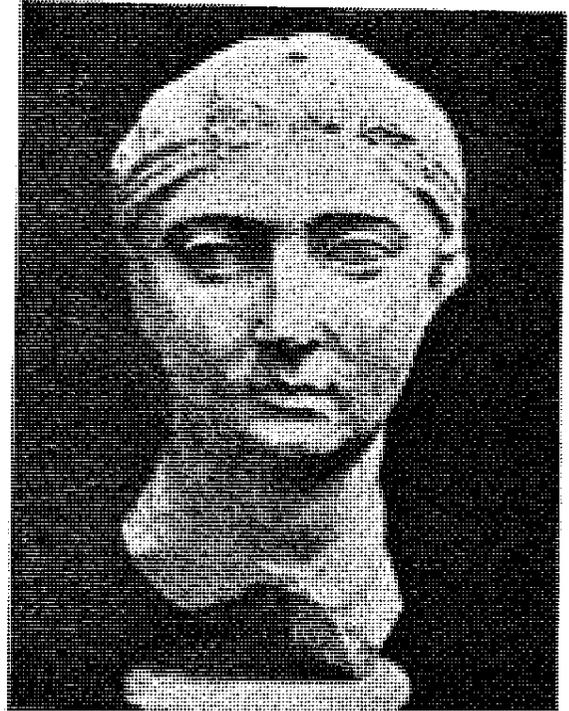
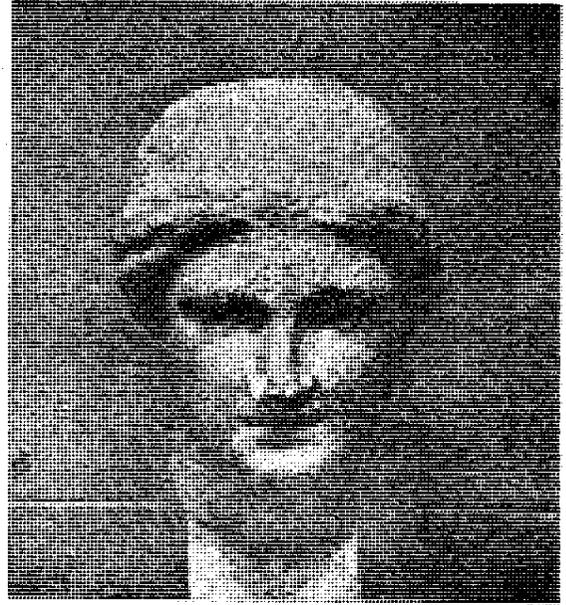
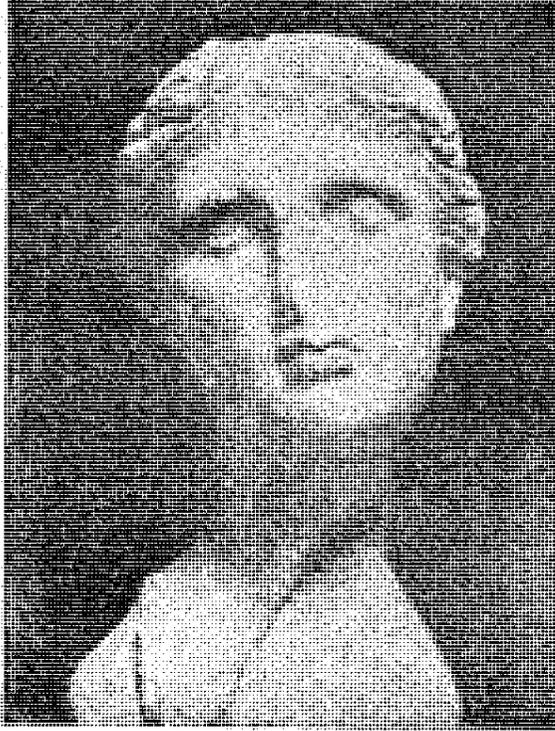
يدركون ادراكا صحيحا انه تفصل بين الفنين فوارق لا يمكن تخطيها ، وان قطع الفن التى نختلط فيها العناصر دون الطرز تعكس أثر البيئة لا أثر الحضارة التى يعبر عنها الطراز . أما تلك المحاولات التى كانت تستهدف مزج الطرازين فانها قليلة فى عددها محدودة فى جهودها ضئيلة فى قيمتها الفنية بحيث يمكن اعتبارها انعكاسا لنزوات فردية أو ذوق فى ينقصه التهذيب .

\*\*\*

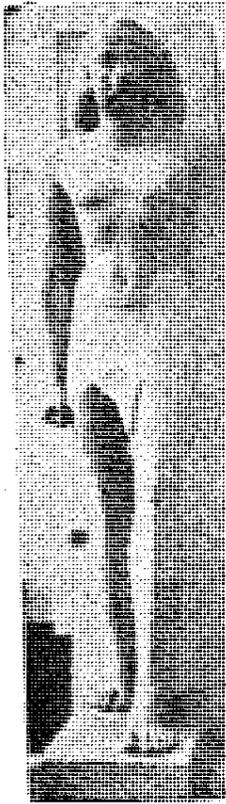
ولارىب فى أن الفن البطلمى يعطينا صورة صحيحة عن الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر البطالمة . لقد شهدنا أن غالبية الفن الاغريقى وغالبية الفن المصرى كانت اغريقية خالصة أو مصرية خالصة . ولذلك لا بد من أن أغلب الاغريق وأغلب المصريين قد بقوا خالصين فى جوهرهم .

وترينا بعض الآثار عناصر خليطة لم يكن لها أثر فى طابعها الجوهري . وهذا يدل على أن الجنسيتين قد التقتا واختلطا ، لكن لم ينقل

أمثلة لمراحل تطور فن النحت الإغريقي في عصر البطالة .



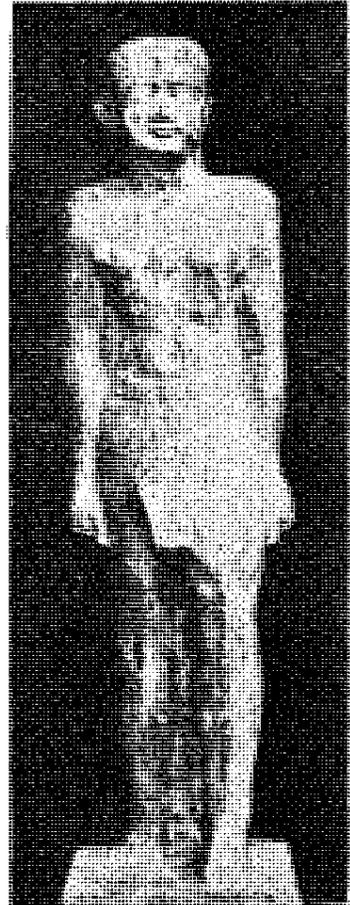
أمثلة لمرحلة تطور فن النحت المصري في عصر البطالة





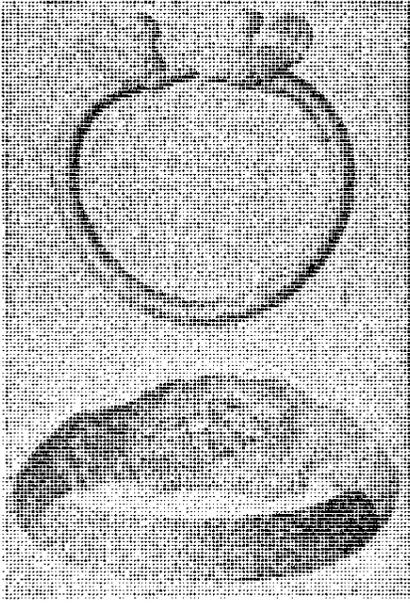


تمثالان صغيران من البرونز لقزمين ، رجل  
وامرأة ، يؤديان رقصة ، عثر عليهما مع أشياء  
أخرى في قاع البحر عند المهديّة بالقرب من  
صفاقس في تونس .  
ولما كان استخدام الأقزام وتصويرهم  
شائعين في مصر على عهد الفراعنة وكذلك البطالمة  
فانه لا يبعد أن هذين التمثالين كانا من صنع  
الاسكندرية .

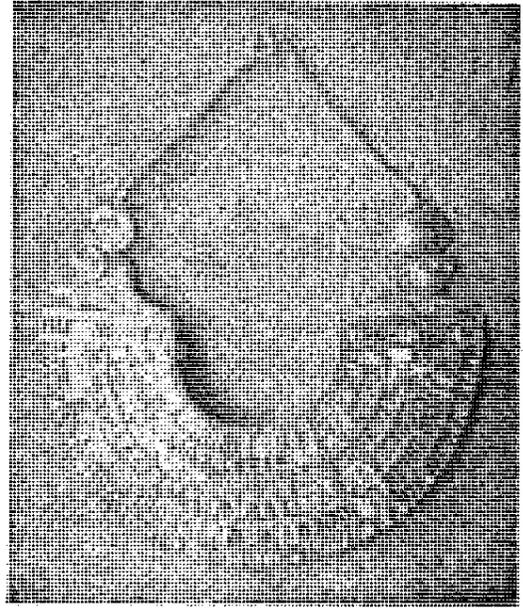


تمثال كاهن وهو مصري في ثيابه وشكله وطرازه

## أمثلة من الحل في مصر البطلمية

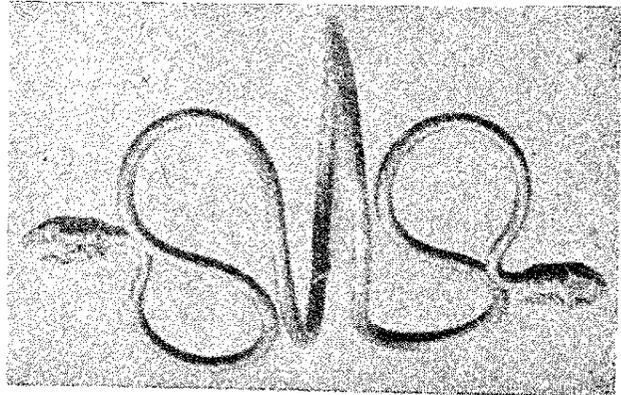
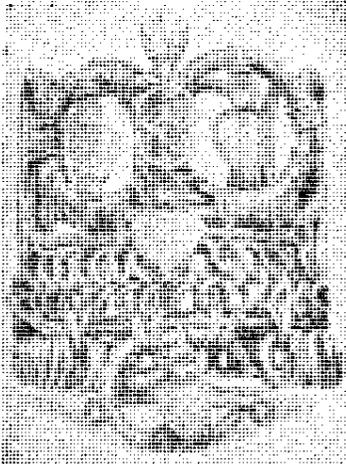


٢



١

- ١ - عقد صغير من الذهب مرصع بالأحجار الثمينة ، وهو مصري في الشكل والصناعة والطرز .  
 ٢ - سواران من الذهب ينتهي أحدهما بجزء أبي هول مجنح وهو مصري في نوعه لكنه اغريقي في تصفيف شعره . أما السوار الآخر فينتهي بمشبك في شكل عقدة يوجد في تجويفها أبروس محلق .



سواران من الفضة عشر عليهما في البلامون بمديرية الدقهلية . والسوار الأول على شكل ثعبان طوى جسمه حلقات ، والسوار الثاني يتألف من أسلاك تلتف وتتشابك مع بعضها ثم تنتهي برؤوس ثعابين وهلال . والأساور التي تحاكي الثعابين في شكلها شائعة في الفن الاغريقي . وقد وجدت في مصر وفي بلاد ما بين النهرين أمثلة تحاكي السوار الثاني في شكله وزخرفته .

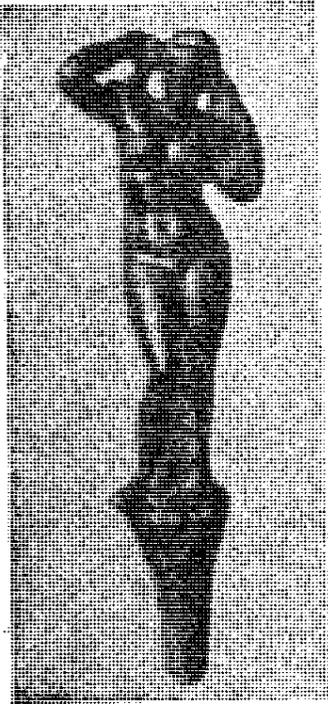
أمثلة تصور صناعة البرونز الإغريقية في مصر



٢



١



٤



٣

- ١ - لوحة برونزية مزينة بصورة نصفية لهرقل وعلى كتفه الأيسر جلد الأسد وفي يده اليسرى مضربه المشهور .
- ٢ - نموذج من الجص للوحة برونزية مزينة بصورة نصفية لبطلميوس الأول .
- ٣ - تمثال صغير يصور أتيس على ظهر أسد .
- ٤ - رأس مشبك شعر في شكل أفروديتي وهي تحزم شعرها .

## أمثلة من الأواني في مصر البطلمية



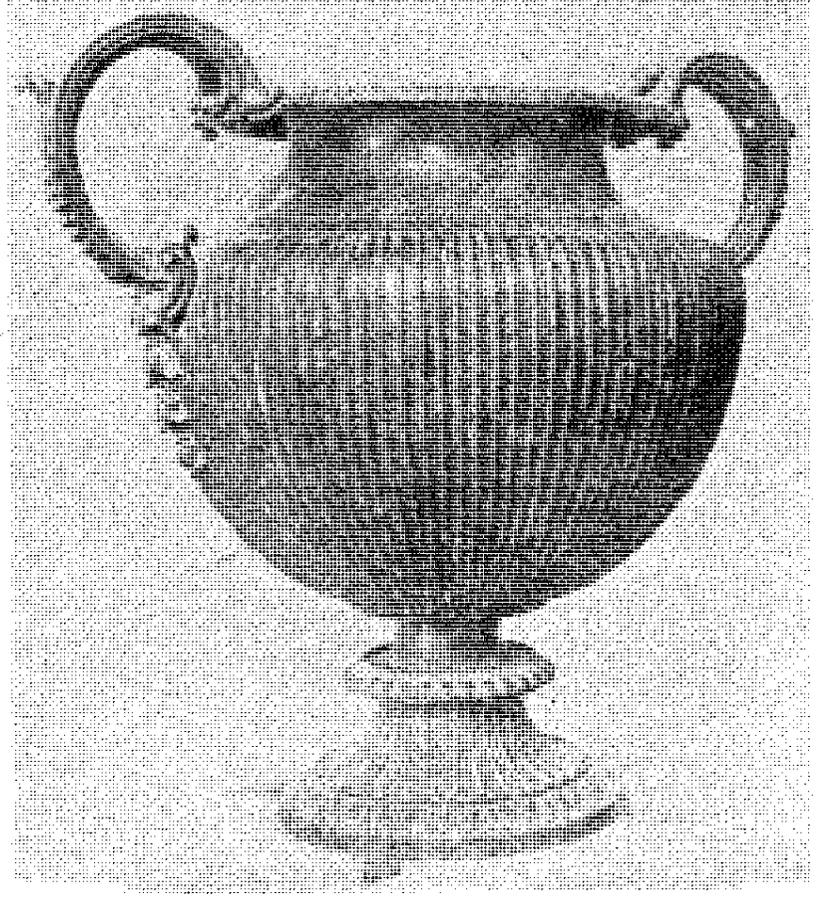
نوعان من الأنية الفخارية الجنائزية التي كانت شائعة في القرن الثالث قبل الميلاد في الاسكندرية .



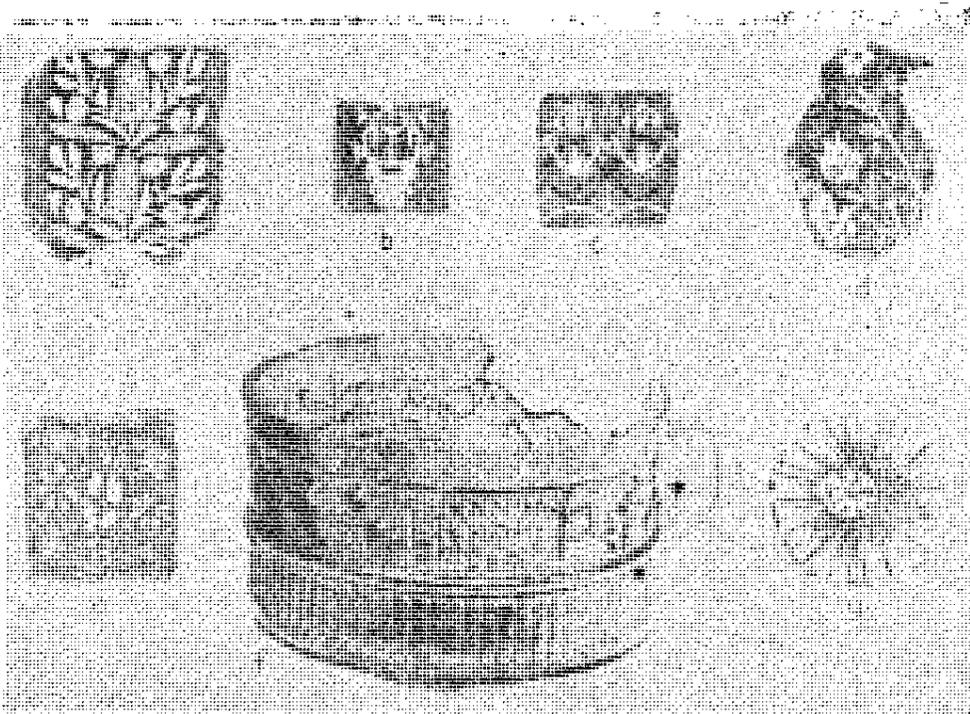
اناء من الخزف اللامع كان يستخدم في القرن الثالث قبل الميلاد في تقديم القرابين في المعابد والهيكل المخصصة لعبادة البطلة المؤلهين .



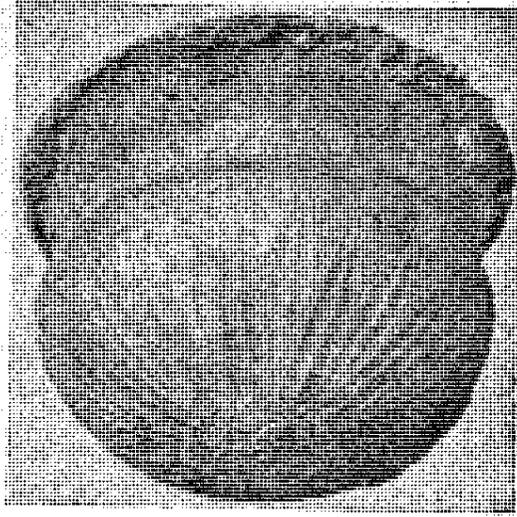
اناء زجاجي من العصر الهلينستي المتأخر



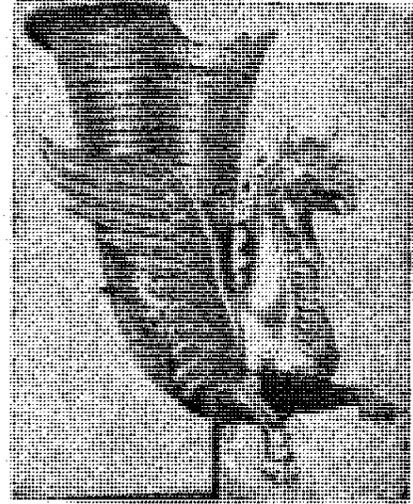
اناء من البرونز من العصر الهلينستي المتأخر



نرى في وسط هذه الصورة كأساً من الزجاج ذات يدين ، وحولها لوحات زجاجية صغيرة كانت تستخدم للزخرفة .



(٢)



(١)

- ١ - كأس من الفضة في شكل قرن ينتهي بجزء حيوان خرافي مجنح • صناعة اغريقية •  
 ٢ - وعاء من الفضة اغريقي في شكله ، فهو يشبه الأنية المجارية لكنه مصرى في صناعته  
 وطرازه •



- تضم هذه اللوحة تماثلا صغيرا من الصلصال المحروق مصنوعا محلياً لكن طرازه اغريقي •  
 وتضم كذلك عددا من الأنية الفخارية بعضها اتيكي وبعضها اغريقي مصنوعة محليا وبعضها  
 مستورد من ايطاليا • وتصور هذه اللوحة ازدهار الفن الاغريقي في مصر البطلمية ، وكذلك  
 قيام علاقات تجارية نشيطة بين مصر وأثينا وكذلك فيما يبدو بين مصر وجنوب ايطاليا •



لوحة من الفسيفساء تصور في جزئها انعلوى مناظر وحيوانات سودانية وفي جزئها  
الاسفل منظرا عاما لمصر وقت الفيضان .



## الفصل الأول

مصر في عصر الرومان ( ٣٠ ق م — ٢٨٤ م )

للدكتور إبراهيم نصفي

### مصر تصبح ولاية رومانية

١ - الفتح الروماني :

لغزو مصر . الا أن قيصر دخل الاسكندرية ، وبعد حرب قصيرة عنيفة تعرف « بحرب الاسكندرية » وطد مركز كليوبترة على العرش بينما وطدت كليوبترة سيطرتها على قيصر فأصبح طوع أمرها . ويبدو انهما اتفقا على أن تعلن كليوبترة زواجهما في مصر بينما يرجىء قيصر اعلان هذا الزواج في روما حتى يفيم نفسه ملكا هناك ، فعندما أنجبت كليوبترة طفلا من قيصر سجلت على جدران معبد أرمنت انها أنجبت طفلا من قيصر الذي خالطها في صورة آمون - رع . ومعنى ذلك انها في نظرها ونظر رعاياها المصريين كانت زوجة قيصر الشرعية . وسرعان ما خفت كليوبترة الى روما وأقامت الى جانب قيصر انتظارا لليوم الموعود الذي يقيم فيه نفسه ملكا ويعلن رسيا زواجه منها وترتقى معه عرش الامبراطورية الرومانية . لكن هذه الآمال العراض لم تلبث أن انهارت عندما استشارت مطامع قيصر غضب الجمهوريين الرومان ففضوا عليه في مارس عام ٤٤ ق . م .

أخذه نفوذ روما يزداد تدريجيا في مصر منذ أيام بطلميوس الخامس ، بل أصبح مصير مصر متعلقا بمصير الصراع الحزبي في روما منذ وفاة بطلميوس التاسع في عام ٨٠ ق . م . لكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالمة يحتفظون على الأقل باستقلالهم الاسمي . وعندما ارتقت كليوبترة السابعة عرش مصر في عام ٥١ ق . م . واندلع لهيب الحروب الأهلية في روما لعبت كليوبترة دورا كادت أن تجنى من ورائه امبراطورية واسعة على حساب الرومان مما أفضى الى صراع روما مع كليوبترة وهو الصراع الذي تمخض عنه القضاء على دولة البطالمة .

وبيان ذلك ان كليوبترة مدت يد المساعدة الى يومبي الأكبر في صراعه مع قيصر ، لكن لم يكن نصيب يومبي سوى الهزيمة ففر الى الاسكندرية حيث قتله رجال البلاط ليبرهنوا لقيصر الذي تبعه الى هناك ان مصر قد قطعت علاقاتها مع أعدائه وبذلك لم يبق ثمة داع

وقد بادرت كليوبترة بالهرب الى مملكتها وأخذت ترقب في قلق الصراع الذي نشب في العالم الروماني بين قتلة قيصر وأعدائه دون أن تناصر فريقا على آخر ، حتى اذا ما انتصر أصدقاء قيصر وكان على رأسهم أنطونيوس وأوكثافيوس ( أغسطس ) في خريف عام ٤٢ ق . م . ذهب أنطونيوس ليتولى أمر الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية وأرسل هذا القائد المغوار الى كليوبترة يستدعيها الى كيليكيا لتجيب عن تجنبها معاونة أنصار قيصر . وما كادت كليوبترة تصل الى طارسوس حتى أحرزت نصرا حاسما على قلب أنطونيوس . وعندما عادت الى الاسكندرية سارع الى اللحاق بها وقضى في صحبتها شتاء عام ٤١/٤٠ ق . م . مستمتعا بتلك « الحياة الفريدة » التي خلد الكتاب والشعراء ذكراها في النفوس وفي الآداب ، والتي منذ تلك اللحظة شدت على الدوام وثاق قلبه وعقله الى الاسكندرية . لكن الأحداث الخطيرة التي وقعت في العالم الروماني في ربيع عام ٤٠ ق . م . انتزعتها كارها من جانب كليوبترة واضطرته الى العودة الى روما حيث أصلح ما بينه وبين أغسطس وتزوج من أخته أوكثافيا وحصل على الاعتراف بسلطانه على الولايات الشرقية . وقد ظل أنطونيوس بعيثا عن كليوبترة حتى عام ٣٧ ق . م . عندما ذهب الى سوريا ليتولى الاشراف على حملته ضد پارثيا . ولما كان شوقه الى كليوبترة قد استبد

به فانه استدعاها الى جانبه وأعلن زواجه منها واعترافه بالتوأمين اللذين أنجبتهما منه . وبعد انتهاء حملته الفاشلة عاد الى مصر في أوائل عام ٣٥ .

وفي العام التالي وجه حملته الى أرمينيا وعاد منها مظفرا الى الاسكندرية حيث أقام مهرجانا انتصاره ، وكان القواد الرومان المنتصرون يقيمون مهرجاناتهم عادة في روما . وقد أثار ذلك غضب الرومان لأنهم رأوا فيه دليلا على ان أنطونيوس كان يريد جعل الاسكندرية عاصمة للامبراطورية واشتد غضب الرومان عندما أتاهم نبأ حفل آخر أقيم بعد ذلك بأيام قليلة في الاسكندرية واشترك فيه أنطونيوس ونودي فيه بكليوبترة ملكة الملكات ووزعت على أبنائهما الولايات الرومانية في الشرق . وهكذا رأت كليوبترة للمرة الثانية انها كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح امبراطورة العالم ، فقد كانت تسيطر عندئذ على النصف الشرقي من العالم الروماني وكذلك على أعظم قائد في هذا العالم ولم يبق الا أن ينتصر أنطونيوس على أغسطس في الصراع المقبل المحتوم بينهما لكي تحقق كليوبترة حلمها الذي بدده أول مرة مقتل قيصر . ولذلك لم تدخر كليوبترة وسعا في تحريض أنطونيوس على اتخاذ العدة لمنازلة أغسطس . وقد أجاب أغسطس على ذلك بإثارة الرأي الروماني ضد غريمه واطلاق الحرب على ملكة مصر لا على أنطونيوس ، لكيلا يتهمه أحد باشعال نار حرب أهلية .

روما واجهت الموقف بشجاعتها المعتادة وأنقذت نفسها من ذلك العار والهوان بالقضاء على حياتها ( ١٠ أغسطس ) . وسرعان ما تخلص أغسطس من أبناء كليوبترا ليطوى صفحة الماضي ويبدأ فصلا جديدا في تاريخ مصر التي أصبحت منذ ذلك الوقت ولاية رومانية . وقد قرر السناتو الروماني اعتبار أول أغسطس عام ٣٠ ق . م . - وهو يوم سقوط الاسكندرية في قبضة الرومان - عيداً وطنياً في روما وبداية للتقويم المحلي في مصر .

ولا أدل على مقدار كراهية الرومان لكليوبترا وخوفهم منها من روح الشماتة والسخافة التي تتكشف فيما كتبه فحول شعراء عصر أغسطس للاشادة بانتصار هذا الامبراطور وهزيمة كليوبترا . ولما كانت روما تسيطر عندئذ ولعدة قرون بعد ذلك على كل العالم المتمدن وكان الكتاب والشعراء المعاصرون قد تباروا في كسب ود الامبراطور المنتصر بتلطيخ سمعة كليوبترا ورميها بكل نقيصة يمكن أن يصورها الخيال المفرض دون أن يجروا أحد من أنصار كليوبترا على الدفاع عنها فان كتابات خصومها قد ظلت حتى اليوم المصدر الوحيد الذي يستقى منه تاريخها وتبعاً لذلك كان لهذه الكتابات أبلغ الأثر في كل ما كتب عنها منذ العصور القديمة حتى اليوم ولا سيما ان الصورة التي صورت فيها استهوت الشعراء

وبعد أن حشد أنطونيوس قوات كبيرة في بلاد اليونان أضاع فرصته باتخاذ موقف الدفاع فساءت حال قواته مادياً ومعنوياً . وعندما التحم الفرقيان في سبتمبر عام ٣١ ق . م . عند اكتيوم انتصر أغسطس وفرت كليوبترا وأنطونيوس الى الاسكندرية . وقد استبد اليأس بأنطونيوس من جراء خيانة رجاله الذين انضم كثيرون منهم الى جانب أغسطس فلم يقيم بأى اجراء للدفاع عن مصر عندما زحف عليها أغسطس . واذا رأت كليوبترا عبث المقاومة عرضت على أغسطس أن تنزل عن عرشها والتمست منه اقامة أحد أبنائها مكانها فأجابها بعبارات ملتوية لكي لا يكشف النقاب عن حقيقة نواياه نحوها . وفي اليوم الأول من شهر أغسطس عام ٣٠ ق . م . قبل أن يدخل أغسطس الاسكندرية قضى أنطونيوس على حياته بينما كانت كليوبترا قد اختبأت في مقبرتها حيث أودعت كنوزها وهددت بأن تشعل النار في المقبرة فتقضى على نفسها وكنوزها وكذلك على آمال أغسطس اذا لم يقيم أحد أبنائها على العرش . ولما كان أغسطس يريد أن يعرض كليوبترا في مهرجان انتصاره ويستشعر حاجة ملحة الى كنوزها فانه ما كاد يدخل الاسكندرية حتى لجأ الى الحيلة واستولى على الملكة وكنوزها . وعندما لم يعد لدى كليوبترا أدنى شك في أن أغسطس ينوى أن يقودها أسيرة الى

جوهريا عن نظام الحكم في الولايات الأخرى ، ولأن اسم مصر لم يرد في السجلات الرسمية المعاصرة مقرونا بكلمة ولاية ولاسيما انه في « اثر أهرة » المشهور - الذى اقتطفنا منه العبارة التى أوردناها في صدر هذه الفقرة - لا يصف أغسطس مصر بأنها ولاية مع انه يتحدث في الفقرة التالية لذلك عن احتمال تحويل أرمينيا الكبرى الى ولاية . ويعتقد البعض الآخر من الباحثين ان مصر كانت ولاية يتولى الامبراطور ادارتها باسم الشعب الرومانى على هدى تقاليدها ومقتضيات ظروفها .

والواقع ان مصر لم تكن ملكا خاصا للامبراطور كما أنها لم تكن ولاية عادية كسائر الولايات الرومانية ، فقد أدخل أغسطس في تقديره عدة اعتبارات : أولا ، ان مصر بلاد غنة آهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجى من اليسير الدفاع عنه ، وثانيا ان موارد هذه البلاد طائلة وتستطيع أن تسد حاجة الشعب الرومانى الى الحبوب وأن تملأ خزائن روما بالأموال بمعد أن استنزفتها تكاليف الحروب الأهلية . وثالثا ، ان هذه البلاد فى حاجة الى حكومة قوية لنشر الأمن فى أرجائها والنهوض بمرافقها الاقتصادية بعد تدهورها من جراء ضعف البطالمة الأواخر وما عاتته من أثار الثورات القومية والغزوات الأجنبية والانقسامات بين أفراد أسرة البطالمة . وربما انه يجب اتخاذ الحيطة دون

وكتاب القصة . لكن عندما أخذ بعض الباحثين المحدثين فى تمحيص أقوال القدماء ومقارنة بعضها ببعض تبين لهم ان هذه الصورة مزيفة وان كليوبتره كانت ملكة طموحة أبية وأما روما وفيه وانها لم تكن أكثر من غيرها من نساء الاسكندرية أو روما تبذلا واستهتارا بل لعلها كانت أكثر من غيرها من سيدات الطبقة الراقية وقارا واحتشاما .

## ٢ - سياسة اباطرة الرومان فى مصر :

عندما فتح أغسطس مصر أثبت فى السجلات الرسمية العبارة التالية : « ضمت مصر الى سلطان الشعب الرومانى » . ويرى كثير من الباحثين ان معنى ذلك واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو ان أغسطس ضم مصر الى الامبراطورية الرومانية وأصبحت احدى ولاياتها ؛ تستغل روما مواردها مثل موارد غيرها من الولايات الرومانية لصالح الشعب الرومانى . ولا أدل على وضوح هذا المعنى فى ذهن القدماء من أن المؤرخين سويتونيوس وتاكيوس وديون كاسيوس وغيرهم وكذلك الجغرافى استرابون وصفوا مصر بأنها ولاية رومانية . ومع ذلك ما زال بعض الباحثين يعتقدون ان مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف وانما كانت ملكا خاصا للامبراطور وترتبط بشخصه . وذلك لأنها كانت تخضع مباشرة لسلطانه ولأن نظام حكمها كان يختلف اختلافا

وقوع هذه البلاد في قبضة شخصية تستطيع الاستقلال بها وحرمان روما مواردها بل تهديد كيان روما ذاتها على نحو ما حدث في عهد كليوباترة .

وازاء هذه الاعتبارات كان لولاية مصر الرومانية مركز فريد في الامبراطورية الرومانية فقد وضع فيها أغسطس من الفرق الرومانية والقوات المساعدة ما يؤمن سلامتها . فضلا عن ذلك وضعها أغسطس

تحت اشرافه المباشر ، وفي عام ٢٧ ق . م . عندما قسمت الولايات الرومانية الى ولايات خاضعة للسناو وولايات خاضعة للامبراطور كانت مصر في عداد الولايات الأخيرة .

ولم يقيم أغسطس على مصر حاكما عاما من طبقة السناو وانما من طبقة الفرسان ولم يحمل هذا الحاكم كغيره من حكام انولايات الرومانية لقب نائب أغسطس

أو قائمقام قنصل (proconsul)

أو قائمقام پرايتور (propraetor)

وانما لقب پرايفكتوس (praefectus)

أى وال أو حاكم عام ، وكان لقبه الرسمى « حاكم عام الاسكندرية ومصر » فقد اقتنى الرومان أثر الاغريق في اعتبار الاسكندرية وحدة منفصلة عن مصر ومجاورة لها (ad aegyptum) .

والى جانب كل ذلك وضع أغسطس قاعدة تقرر بمقتضاها ألا يزور مصر أحد من رجال السناو ولا أى رجل ذائع الصيت

من طبقة الفرسان يمتلك نصاب أعضاء السناو الا باذن خاص من الامبراطور . وقد احترم خلفاء أغسطس هذه القاعدة الى حد أنه عندما أقنذ الامبراطور تيبيريوس ولى عهده جرمانيكوس الى الشرق لتنظيم بعض ولاياته وانتزح هذه الفرصة لزيارة مصر ومشاهدة آثارها ، آخذ الامبراطور مؤاخذه شديدة لأنه دخل مصر دون استئذانه متخطيا بذلك القاعدة التى وضعها أغسطس .

وقد ظل الأباطرة يحرصون على مراعاة القواعد التى وضعها أغسطس الى أن قلت ثروة مصر ولم تعد المصدر الرئيسى لقمح روما فلم يعد الأباطرة يرون حتى فى تعيين أحد من رجال السناو فى مصر خطرا يتهدهم . وكان الامبراطور ماكرينوس (٢١٧ - ٢١٨) أول من خرج على القواعد التى وضعها أغسطس بأن عين الى جانب حاكم مصر مساعدا له من رجال السناو . ولا أدل على نقص أهمية مصر فى القرن الثالث مما فعله الامبراطور سقروس اسكندر (٢٢٢ - ٢٣٥) اذ انه عندما ثار عليه بعض الجنود عين زعيمهم حاكما على مصر لا ارضاء له وانما لاقصائه الى مكان لا يستطيع فيه أن يهدد مركزه .

وقد اعتمد الرومان فى توطيد سلطانهم فى مصر على القوة قبل كل شىء فأقاموا حاميات عسكرية فى الأماكن الرئيسية التى تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ولذلك

ووضعوا حامية رومانية في نيقوبوليس (Nikopolis) على بعد أربعة أميال شرقي الاسكندرية ( ما بين مصطفى كامل وجليم برملا الاسكندرية ) ، لتلقى الرعب في سكان العاصمة التي أثبتت الحوادث انها كانت أشد معاقل التائرين خطرا في الدلتا في أيام البطالة الأواخر . وأقام الرومان حاميات أخرى في بايلون باعتبارها مفتاح الوجه البحري ، وفي منطقة طيبة التي كانت مركز الثورات الوطنية ضد البطالة ، وفي أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية الى البحر الأحمر ، وكذلك على شواطئ هذا البحر لضمان سلامة التجارة الشرقية التي استرعت انتباه حصى الرأى من الأباطرة ما حدا بهم منذ عهد أغسطس الى العمل على بسط النفوذ الرومانى على الشواطئ الآسيوية والافريقية للبحر الأحمر لتحويل التجارة في هذا البحر الى موانئه المصرية على نحو ما فعل البطالة من قبل .

ولم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم في مصر بل لجئوا أيضا الى الأساليب السياسية . فقد كان أهم عناصر السكان بعد فئة الرومان المصريين والاغريق واليهود ، وكان يقطن في الاسكندرية أكبر مجموعة من الاغريق واليهود ، ورأى الأباطرة في اخضاع الاسكندرية أكبر ضمان لاخضاع مصر . ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا مبداهم المعروف ،

مبدأ « فرق تسد » . فعلى حين رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثانى أن يعيدوا الى اغريق الاسكندرية « مجلس الشورى » الذى عرفته مدينتهم منذ تأسيسها الى أن ألغاه أحد البطالة الأواخر منحوا اليهود كافة الحقوق والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عصر البطالة . وقد والى الأباطرة هذه المنح على اليهود على الرغم من أن الاغريق التسوا من سادتهم حرمانهم اياها فاستمر اليهود ينتظمون في جالية مستقلة لها رئيس ومجلس من شيوخهم ودار لسجلاتهم وبيع لممارسة شعائرهم الدينية . فتملك الغضب قلوب الاغريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالة وخضوعهم لأمة لم ترتفع الى مستوى حضارتهم ومحابة الرومان لليهود . وقد زاد في قمة الاغريق على اليهود ان هؤلاء بادروا الى الترحيب بالرومان والالتفاف حولهم فحققت الاغريق على الرومان واليهود وأخذت عداوة الاغريق لليهود كرههم الدفين للرومان .

لكن اذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التمتع بامتيازاتهم وحقوقهم القديمة فانهم أبوا عليهم التمتع بالحقوق المدنية التي كان الاغريق يتمتعون بها ، فحققت اليهود أيضا على الاغريق ولا سيما ان الأباطرة بوجه عام لم يخفوا عطفهم على الحضارة الاغريقية فقد شملوا برعايتهم معاهد الاغريق ومنتدياتهم وأبقوا اللغة الاغريقية لغة البلاد الرسمية

كورنيليوس جالوس وأخضعها بعدد قليل  
من الجنود .

وعندما رأى أغسطس ان نشوة النصر قد  
أسكرت كورنيليوس جالوس عزله وولى  
مكانه ايليوس جالوس وعهد اليه في الاتفاق  
مع القبائل التي كانت تنزل على شواطئ  
البحر الأحمر في بلاد العرب والصومال  
والحبشة اذا لم يتمكن من اخضاعها ، وذلك  
لتأمين سلامة تجارة مصر مع أواسط أفريقيا  
والهند . ولما لم يوفق ايليوس في حملته كان  
نصيبه العزل ولا سيما ان تغييه عن مصر مع  
جانب كبير من حاميتها شجع النوبيين على  
نقض اتفاقهم مع كورنيليوس جالوس وعلى  
الاغارة على أسوان وفيلة والفتن ونهبها  
وأسر بعض الأهالي والاستيلاء على تماثيل  
أغسطس .

وقد سارع الحاكم الجديد پترونيوس  
الى كبح جماح النوبيين وردهم على أعقابهم  
والاستيلاء على عاصمتهم نياتا . وعندما  
استرد الأسرى والتماثيل قفل راجعا صوب  
الشمال حيث حصن قصر ابريم وترك فيها  
حامية ثم عاد الى الاسكندرية . لكن بعد ذلك  
بعامين استرد النوبيون قصر ابريم فانبرى  
لهم پترونيوس وانتزعها منهم وعزز  
تحصيناتها . ولم يلبث النوبيون أن طلبوا  
الصلح فاستجاب أغسطس الى مطلبهم وكان  
الصلح ينص على اعفاء النوبيين من دفع  
الجزية وعلى احتلال الرومان المنطقة الممتدة

ولم تستعمل اللغة اللاتينية الا في الجيش  
واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى . ومن ثم  
لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بين  
الاغريق واليهود . وسرى ان الشقاق بين  
اليهود والاغريق كان كالحمى الخبيثة المتقطعة  
التي تخف وطاقاتها وتهدأ حيناً ثم تعود الى  
الظهور وتشتد حيناً آخر ، وان سياسة « فرق  
تسد » كانت سياسة خرقاء لم يكتبو بنارها  
الاغريق واليهود فحسب بل الرومان أيضا .

ولم يكد يمض عام على الفتح الرومانى  
حتى شبت في طيبة نار ثورة يبدو أنها كانت  
خطيرة مما حدا بأول حاكم عام رومانى  
نصر - كورنيليوس جالتوس - الى أن  
يقود بنفسه القوات الرومانية لقمعها .  
ويحدثنا استرابون بأن الحاكم العام أحمد  
في وقت قصير نيران الثورة التي اشتعلت في  
طيبة بسبب الضرائب . وقد سجل  
كورنيليوس على النصب الذي أقامه في  
جزيرة فيلة انه واصل زحفه جنوبا حتى  
جزيرة فيلة حيث استقبل سفراء ملك النوبة  
وان هذا الملك قبل الحماية الرومانية وعينه  
حاكماً على الاقليم الممتد من الشلال الأول  
حتى الشلال الثانى وكان يعرف باسم  
ترياكوتتا سخوينوس .

ويبدو أن الثورة لم تشب في مصر العليا  
فحسب بل في أنحاء أخرى من مصر اذ يقول  
استرابون انه عندما ثارت هيرودنپوليس  
( تل المسخوطة في شرق الدلتا ) هاجمها

استتباب الأمن سهر تييريوس على حماية سكان البلاد من جور الحكام وملتزمى الضرائب اذ أنه شدد الرقابة على الحكام واستبدل في حالات كثيرة بنظام التزام الضرائب تعيين موظفين لجباية الضرائب فأخذت ثروة البلاد في الاتعاش .

وفي عهد كاليجولا ( ٣٧ - ٤١ ) آتت سياسة « فرق تسد » أكلها فقد استعرت عندئذ نار العداة بين الاغريق واليهود ، اذ أن الاغريق سخروا من الأمير اليهودى اجرييا Agrippa عند مروره بالاسكندرية ( أوائل أغسطس عام ٣٨ ) في طريقه الى ارتقاء عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد اليهود في فلسطين . ولما كان الاسكندريون قد عرفوا اجريا منذ بضع سنين رجلا مفلسا متلافا يتهرب من سداد ديونه ، فانه هالهم أن يصبح ذلك اليهودى المتلاف ملكا بين عشية وضحاها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك العتاة ، ولذلك استقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للنيل من اجريا ومن اليهود في شخصه . فنظموا موكبا هزليا قدامه رجل معتوه عصبوا رأسه باكليل من لحاء البردى ووضعوا في يده صولجانا من ساق البردى وطافوا به في شوارع المدينة وهم يرددون كلمة سريانية معناها الملك . لكن ما أن أفاق الاسكندريون من نشوتهم حتى خشوا عاقبة سخريتهم من اجريا فقد كان صديق الامبراطور وصاحب حظوة

بين أسوان والمحرقه حيث أقام الرومان بعض مراكز عسكرية ودام السلام فترة طويلة في الجزء الشمالى من النوبة . وينهض كل هذا دليلا على السياسة التى وضع أغسطس أساسها واتبعها خلفاؤه من بعده وتتلخص فى العناية بطرق التجارة مع الشرق والجنوب وتأمين الحدود الجنوبية دون الاهتمام بتوسيع نطاق الامبراطورية فى تلك الأصقاع .

ولم يكد پترونيوس يفرغ من النوبيين حتى شغل باخماد ثورة فى الاسكندرية . وعندما عادت السكينة الى البلاد وجه عنايته الى الأعمال الداخلية وخاصة تطهير الترع القديمة وشق ترع جديدة واصلاح الآبار التى تقع على الطرق الصحراوية التى تربط النيل بالبحر الأحمر مما أدى الى اتعاش حالة البلاد الاقتصادية . ويلوح ان أغسطس شعر بضرورة اضعاف رجال الدين المصريين الذين ازدادت قوتهم وممتلكاتهم فى أواخر عصر البطالمة ، فقد أمر پترونيوس بالاستيلاء على جانب من أراضي المعابد واسناد ادارة جانب آخر منها الى الحكومة مع السماح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضي لسد حاجة المعابد .

وقد ساد السلام فى مصر فى خلال أواخر حكم أغسطس ومعظم حكم خليفته تييريوس ( ١٤ - ٣٧ ) مما أدى الى انقاص عدد الحامية الرومانية فى مصر . وقد ساعد على

لديه ، فأوا انه لن ينقذهم من ورطتهم الا أن يوقعوا بين اليهود والامبراطور . ولما كان الامبراطور قد أمر باقامة تماثيله في جميع المعابد وكان اليهود لم ينفذوا أمر الامبراطور لأن اقامة تماثيل البشر في معابدهم كان يندسها ، فان الاسكندرانيين ادعوا بأنهم لم يتظاهروا ضد اجريا الا لعدم امتثال اليهود لأمر الامبراطور . واتخذوا من ذلك ذريعة ليدخلوا المعابد اليهودية وقيموا فيها تماثيل الامبراطور . وعندما قاومهم اليهود اتهمهم بعدم الولاء للامبراطور وبذلك أفلحوا في حمل الحاكم الروماني فلاكوس على حرمان اليهود امتيازاتهم . واتهم الاسكندرانيون فرصة وقوف الحاكم الروماني الى جانبهم للتكيد باليهود ونهب حوائثهم وتخريب دورهم وبيعهم . وبطبيعة الحال لم يقف اليهود بلا حراك وانما هبوا للدفاع عن أنفسهم وذويهم وبيعهم وممتلكاتهم ، فاشتبك الفريقان في صراع عنيف دون أن يتدخل الحاكم الروماني فلاكوس لوضع الأمور في نصابها اذ أننا لا نعرف انه فعل شيئا سوى تجاوزه حدود الحكمة بالقضاء القبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء مجلس شيوخ اليهود والأمر بجلدهم في الحادي والثلاثين من أغسطس بالرغم من انهم كانوا معفين من هذه العقوبة . وعندما تمكن اجريا من اقناع الامبراطور بعزل فلاكوس أرسل كل من الفريقين المتنازعين وفدا لعرض قضيته

أمام الامبراطور لكنهما لم يظفرا منه بطائل . وعقب ارتقاء كلاوديوس ( ٤١ - ٥٤ ) العرش أصدر منشورين اعترف في أحدهما ليهود الاسكندرية بالحقوق التي كانوا يتمتعون بها قبل عهد كاليجولا ، ومنح بمقتضى المنشور الآخر الحقوق ذاتها لكل الجاليات اليهودية في كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية . وعندما علم اليهود بذلك ظنوا ان الفرصة مواتية للتأربن الأغرريق ، فاستمر القتال بين الفريقين لكن الامبراطور أمر الحاكم باخماده بكل وسيلة ممكنة . وما أن هدأت الحال حتى بادر كل من الاغرريق واليهود بارسال وفد الى روما . ويستخلص من « رسالة كلاوديوس الى الاسكندرانيين » ان الوفد الاغرريقي قدم فروض الطاعة والولاء للامبراطور وسرد مظاهر الحفاوة التي كان اغريق الاسكندرية يريدون اغداقها عليه وطلب اعادة امتيازاتهم القديمة كما عرض قضيتهم ضد اليهود . ويبدو أن الاغرريق أرادوا أن يستخدموا مع كلاوديوس الوسيلة نفسها التي استخدموها مع كاليجولا بتقليده لكنه اقتفى أثر سياسة تيبريوس فرفض أن يؤله ولم يقبل مما عرضه عليه ما يرفعه فوق مستوى البشر وأيد ما كانوا يتمتعون به من حقوق وامتيازات لكنه تهرب من منح الاسكندرية مجلسا للشورى . فقد جاء في هذه الرسالة « أما أن المجلس كان مجمعا مألوفيا بين ظهرانيتكم على عهد ملوككم القداماء فهذا ما لا علم لي به لكنكم تعلمون جيدا انه

وتجاوب أصداء هذا النزاع في تلك البرديات التي يدعوها الباحثون المحدثون « أعمال الاسكندريين » أو « أعمال الشهداء الوثنيين » بسبب ما بينها وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » من تشابه مرده في الحالين الى صياغة الوثائق في قالب مضابط لمحاكمات يلقي فيها المتهمون خطبا طويلة وينددون بمثالب الحكم الروماني ويتبادلون مع الامبراطور عبارات قارصة عنيفة . و « أعمال الاسكندريين » تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان ولذلك صادفت رواجها كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل أنحاء مصر وتعتبر نموذجا للأدب الاغريقي الشعبي الذي كان يرمى الى الاشادة بطولة زعماء الاسكندرية واثارة البغضاء ضد الحكم الروماني . ولا يبعد أن تكون هذه الوثائق قد نقلت على نحو ما من مذكرات الامبراطور وترجمت الى الاغريقية وأضيفت اليها بعض العناصر الخيالية التي استمدت من التمثيلات الفكاهية المعاصرة والقصة الاغريقية الطويلة وذلك لجعلها أكثر مواءمة للدعاية السياسية . وتشير القرائن الى أن « رجال الجينازيوم » — وكانوا أوسع الاسكندريين ثقافة وأعرقهم أصلا وأرفعهم مكانة وكذلك أعظمهم كرها للحكم الروماني — هم الذين كانوا الرأس المفكرة واليد العاملة وراء صدور « أعمال الاسكندريين » .

لم يكن لكم مجلس في عهد الإباطرة الذين سبقوني . ومن الواضح ان هذا المطلب الجديد الذي تقدمون به لأول مرة قد يكون مفيدا للمدينة ولحكومتى ولذلك فاني كتبت الى ايميلوس ركتوس لبحث الموضوع وموافاتي بما اذا كان يجب انشاء هذا المجلس وطريقة تكوينه اذا كان ثمة داع لذلك » . ومن اليسير أن تتبين من هذا الرد ان الاسكندريين استندوا في طلبهم الى أنهم كانوا يتمتعون بمجلس في عهد ملوكهم القدماء . ولعل امبراطورا مؤرخا مثل كلاوديوس لم يجهل نظم الاسكندرية في عهد ملوكها القدماء لكنه تظاهر بالجهل لأنه لم يشأ اتخاذ تقاليد الملوك القدماء سابقة تلزمه بما يجب اتباعه . ومع ذلك فانه لكي لا يبدو متعسفا وعد بالفصل في مطلب الاسكندرية على ضوء المصلحة العامة وعهد في بحث الأمر الى الحاكم العام . ومن ثم يعتبر رد كلاوديوس قرينة على تمتع الاسكندرية بمجلس في عهد البطالمة .

وقد أيد كلاوديوس كذلك ما كان اليهود يتمتعون به من حقوق وامتيازات لكنه رفض منحهم الحقوق المدنية ونصح الاغريق واليهود بالتسامح وحذرهما تحذيرا شديدا من العودة الى تطاحنهما الدموي . وإذا كانت الحال قد هدأت بعد ذلك بضع سنين فان النزاع لم يلبث أن تجدد ثانية .

ولما كانت هذه الوثائق تختلف عن بعضها بعضا اختلافا كبيرا فى الأسلوب والانشاء فانه لا يمكن قبول الرأى القائل بأنها من تأليف كاتب واحد ولا سيما ان بعضها يرجع الى القرن الأول أو مطلع القرن الثانى وان كان أكثرها يرجع الى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث عندما اشتد عداة الاسكندريين للرومان وخاصة الامبراطور كركلا .

ومهما كان من أمر «أعمال الاسكندريين» فانه ما ان هدأت الحال بين الفريقين حتى حج الرسل من جديد الى روما ، لكن النصر كان حليف اليهود هذه المرة اذ أن الامبراطور أمر بإعدام زعيمى الاغريق . وقد أثبتت هذه الأحداث انه بينما كانت الاسكندرية فى حاجة الى حامية عسكرية كبرى لاستتباب الأمن فيها كان يكفى بقية البلاد عدد يسير من الجنود ، ولذلك فانه منذ ذلك الوقت نقلت الى معسكر نيقوبوليس الحامية التى يرجح انها كانت تنزل عند قفط أو طيبة .

ويبدو أنه فى عهد كلاوديوس نشطت تجارة الاسكندرية مع الهند نشاطا كبيرا نتيجة للعناية التى أولاها الرومان لتأمين الملاحة فى البحر الأحمر بقطع دابر القراصنة ونشر نفوذهم فى تلك الأصقاع . ويقال انه حوالى هذا الوقت استولى الرومان على عدن ، وان ذلك كان احدى الخطوات التى اقتضاها تأمين التجارة مع الهند ازاء ازدياد

قوة مملكة اكسوم منذ منتصف القرن الأول الميلادى لأنها من ناحية أخذت تتوغل فى أعالى وادى النيل على حساب مملكة مرو وتبعا لذلك هددت الطريق البرى بين مصر وأواسط أفريقيا . ومن ناحية أخرى كانت تحاول الحصول على قاعدة لها فى جنوب بلاد العرب وكان ذلك يمكنها من قطع الطريق البحرى مع الشرق ، لكن الرومان قضوا على هذه المحاولة بسط حمايتهم على مملكة الحميريين والاستيلاء على عدن وجزيرة سقطرى . ولدرء الخطر الذى كان يتهدد أعالى وادى النيل يقال ان نيرون ( ٥٤ - ٦٨ ) أرسل فى عام ٦١ بعثة عسكرية لاستكشاف بلاد النوبة الجنوبية تمهيدا لارسال حملة كبيرة الى تلك البلاد وانه بينما كان الجنود يحشدون فى الاسكندرية لهذا الغرض اندلع لهيب الثورة فى چودايا مما استدعى استخدام أولئك الجنود فى اخمادها وان حامية الاسكندرية شغلت بالمحافظة على الأمن فيها لأن النزاع القديم بين الاغريق واليهود تجدد مرة أخرى اذ ذلك ولم ينته قبل القضاء على عدد كبير من اليهود يزعم المؤرخ اليهودى يوسف انهم كانوا يبلغون خمسين ألفا . واذا كانت هناك قرائن كثيرة تؤيد ما قيل عن اتساع مملكة اكسوم ونشاط الرومان لوقفه ، فان ثمة قرائن أخرى تشير الشك حول ذلك ، وفى ضوء معلوماتنا الراهنة يتعذر ترجيح كفة على أخرى .

وقد نعت مصر بالسكينة والهدوء خلال حكم نرقا ( Nerva ) ( ٩٦ - ٩٨ ) ولم يقع فيها شيء ذو بال في الشطر الأول من حكم تراچان ( ٩٨ - ١١٧ ) الا محاكمة جايوس فيبيوس ماكسيموس ( C. Vibius Maximus ) - وكان الحاكم العام من ١٠٣ الى ١٠٧ - لاتهامه بالربا وابتزاز الأموال واستغلال النفوذ وفساد خلق غلام ثرى يدعى ثيون . وتكشف الوثائق التى تتناول هذه المحاكمة عن مثالب الحكم الروماني في مصر ومدى السلطة الواسعة التى كان يتمتع بها حاكمها العام وكانت لا تقل عن سلطة الملوك فلا عجب ان أساء استغلالها كثيرون ممن أسندت اليهم ويبدو انه كان نصيب هذا الحاكم الفاسد العزل من منصبه والاعدام فقد وُجد اسمه مطموسا في بعض النقوش وكان ذلك هو الاجراء الذى يتبع عادة في حالة الذين كانوا يدانون لارتكابهم جريمة ضد الدولة كالخيانة العظمى ويحكم عليهم بالاعدام .

ولم تنقض بعد ذلك بضع سنين حتى تجدد النزاع بين اليهود والاغريق في عام ١١٠ أو ١١٣ واحتكم الفريقان الى تراچان فأخذ الاغريق على مسلكهم وهدأت الحال حتى العام التالى عندما ثار اليهود الا أن الحكومة تمكنت من القضاء على تلك الفتنة بسهولة . لكن اليهود كانوا يشعرون بقلق شديد لأن الرومان كالوا لهم ضربات شديدة منذ ثورتهم في فلسطين في عام ٦٦ ، فقد دمروا

وعندما احتدم الصراع على العرش في روما عقب وفاة نيرون قامت مصر لأول مرة منذ أصبحت ولاية بدور سياسى هام في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ أنها شقت عصا الطاعة على فيتليوس ( Vitellius ) وشاركت في اقامة فسپاسيانوس ( Vespasianus ) ، حاكم چودايا وقائد الحملة ضد اليهود ، امبراطورا ( ٦٩ - ٧٩ ) . وقد زار فسپاسيانوس الاسكندرية في طريقه الى ارتقاء العرش فكان أول امبراطور شهدته العاصمة القديمة بعد أغسطس منذ قرن تقريبا . وقد استقبله الاسكندريون استقبالا حافلا لم يلبثوا أن ندموا عليه عندما فرض عليهم ضرائب جديدة وأحيا ضرائب كانت قد ألغيت .

وقد عنى تيتوس ( ٧٩ - ٨١ ) باظهار اجلاله واحترامه للآلهة المصرية اذ أنه زار منف واشترك في حفل تنصيب عجل ايبس جديد وارتنى التاج التقليدى على نحو ما جرى عليه الفراعنة في مثل هذه المناسبات . فكان ذلك بدء سياسة جديدة تتميز باظهار العطف نحو الآلهة المصرية . لكن تيتوس لم يعمر طويلا ليتعهد السياسة التى وضع أساسها ونلمس أثرها في الرعاية التى أسبغها دوميتيانوس ( ٨١ - ٩٦ ) على عبادة ايزيس في ايطاليا ذاتها ، وكذلك في ظهور الآلهة المحلية على تقود الاسكندرية منذ ذلك الوقت .

معبدهم الأكبر في اورشليم وأرغموهم على دفع ضريبة الدينسارين لمعبد جوبيتر كاييتولينوس في روما بدلا من معبد اورشليم وأغلقوا معبد ليوتوبوليس في مصر وصادروا جميع ممتلكاته ، وأخذوا يعتبرونهم جماعة مشاغبة يجب أخذها بالحزم . ازاء كل ذلك أضر اليهود حقدا دينا للرومان وأخذوا يتطلعون الى الفرصة التي تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود ان فرصتهم قد سحقت عندما تخرج مركز الامبراطور في أثناء الحملة التي قام بها في الشرق ، ففي عام ١١٥ اندلعت نيران ثورة اليهود في قبرص وفي مصر وفي قوريناثة ( برقة ) ، وفي عام ١١٦ انقلبت الثورة الى حرب ضروس راح ضحيتها اعداد كبيرة من الاغريق والرومان في قبرص وقوريناثة . لكننا لا نعريف ما حدث في الاسكندرية في بداية الأمر وان كنا نعرف أن اليهود أعملوا القتل بين الاغريق المقيمين في ريف مصر مما حدا بهم الى الالتجاء الى الاسكندرية حيث شاركوا الاسكندريين في القضاء على كل من وصلت اليه أيديهم من اليهود . وفي شتاء ١١٦ زحف يهود قوريناثة على مصر لكنهم بدلا من أن يطولوا اقتحام الاسكندرية اتجهوا نحو الأقاليم وانضوا انى اليهود المقيمين هناك وسيطروا على بعض الجهات فسلبوا ونهبوا وحرقوا وخربوا كما سولت لهم نفوسهم . وقد تفاقت الحال الى حد أن الحكومة اضطرت الى تجنيد فرق من

المزارعين المصريين لكن القتال بقى مستعرا حتى منتصف أغسطس عام ١١٧ عندما أنهكت حرب جودايا الثانية قوى اليهود بعد وفاة ترچان وارتقاء هادريان العرش .

وقد أدخلت في عهد ترچان عدة تغييرات على نظم مصر الحربية كان أهمها بنساء قلعة جديدة على شاطئ النيل عند بايلون قوت قبضة الرومان على الدلتا وحتت بداية القناة التي أمر ترچان بحفرها لربط النيل بالبحر الأحمر ، وكانت تخرج من النيل عند بايلون وتر بهليوبوليس وتلتقى ببحرى القناة القديمة التي حفرها بطلميوس الثاني قبل دخولها وادى الطمبات .

وعندما انتهت ثورة اليهود وجه هادريان ( ١١٧ - ١٣٨ ) عنايته الى اصلاح ما أتلفته الثورة فأقام عددا من المباني العامة في الاسكندرية وأمر باعادة النظر في الضرائب مما أدى الى انقاص جانب كبير منها في حالات عديدة . وفي عام ١٣٠ زار هادريان مصر وكان أهم آثار تلك الزيارة الرعاية التي أولاها الامبراطور لعلماء الاسكندرية وفنانيها وكذلك تأسيس مدينة أنطينوؤپوليس ( الشيخ عبادة ) حيث غرق في النيل خليله أنطينوؤس ( Antinoos ) . ولا شك في أن هادريان قد أراد بتأسيس هذه المدينة أن يخلد ذكرى خليله الوفي ، وكذلك اقامة مركز جديد للحضارة الاغريقية في قسم من البلاد كان يفتقر اليه اذ أنه على حين كانت

كانت الأمور قد عادت الى سابق عهدها .  
وعند أواخر أيام هادريان شهدت مصر  
آخر ثورات اليهود لكن يبدو انها لم تكن  
ذات بال . وقد سادت السكينة في عصر  
أنطونينوس پيوس (Antoninus Pius)  
( ١٣٨ - ١٦١ ) اللهم الا اذا استثنينا فتنة  
وقعت في الاسكندرية وقتل في أثناءها الحاكم  
العام ( ١٥٣ ) مما أثار نقمة الامبراطور على  
المدينة الا أنه يقال انه زارها بعد ذلك وشيد  
فيها مضمار سباق الخيل (Hippodrome)  
وبوابتي « الشمس » و « القمر » عند طرفي  
الشارع الرئيسي الذي كان يجتاز  
الاسكندرية من الجنوب الى الشمال .

واذا كان المصابون قد أخذوا الى  
السكينة منذ الثورات التي قاموا بها في أوائل  
حكم الرومان فانه في عهد ماركوس أورليوس  
( ١٦١ - ١٨٠ ) نشبت بينهم في الدلتا ثورة  
عنيفة عرفت « بحرب الرعاة » وهزمت في  
خلالها الفرق الرومانية وكادت الاسكندرية  
أن تقع في قبضة الثائرين الا أن النجدة التي  
قدمت من سوريا بقيادة اقيديوس كاسيوس  
قضت على تلك الثورة ( ١٧٥ ) ونادت  
باقيديوس كاسيوس امبراطورا لكنه لم يلبث  
أن قضى عليه بعد ذلك بقليل . وبرغم ان  
الاسكندرية لم تدخر وسعا في تأييد كاسيوس  
فان الامبراطور عفا عنها ، بل ان الذين قاموا  
بأدوار رئيسية في هذه الحركة مثل أسرة  
كاسيوس وحاكم مصر العام عندئذ جايوس

توجد في مصر السفلى مدينتان اغريقيتان  
وهما الاسكندرية وقراطيس ، كما كانت  
توجد في مصر العليا مدينة اغريقية وهي  
بطوليميس ( المشاة بالقرب من أخميم )  
لم توجد مدينة اغريقية واحدة في مصر  
الوسطى ، وتحقيقا لهذا الغرض استخدمت  
المدينة الجديدة عددا غير قليل من مواطنيها  
من بطوليميس التي كانت معقلا قديما  
للحضارة الاغريقية في مصر العليا . وقد  
أنشئت المدينة الجديدة على نمط اغريقي  
ومنحت مجلدا للشورى ودستورا اغريقيا  
وقسم مواطنوها ، مثل مواطني المدن  
الاغريقية الأخرى الى قبائل وأحياء . لكن  
بالرغم من الصبغة الاغريقية العامة التي  
اتسمت بها هذه المدينة فانها لم تخل من عناصر  
مصرية وتأثيرات مصرية اذ أن أنطينوؤس ،  
الذي نصب فيها الها محليا ، كان يعبد تحت  
اسم أوزير أنطينوؤس (Osirantinoos) ،  
وشبه بالمعبود المصري بيس (Bes) . هذا  
الى أنه أبيع لسكان المدينة الجديدة حق  
التزاوج مع المصريين وهو ما كان محظورا  
في المدن الاغريقية الأخرى . وتشجعا لتجارة  
أنطينوؤبوليس أمر الامبراطور بإنشاء طريق  
جديد بين النيل والبحر الأحمر ليصل بين  
الشهر المشهور برينقي وبين المدينة الجديدة .  
وقد أفلح الطريق الجديد في اجتذاب جانب  
من التجارة التي كانت تمر بالطريق القديم بين  
برينقي وقفت لكنه لم يمض وقت طويل حتى

انه في عام ٢٠٢ منح الاسكندرية وكل عواصم المديرية مجالس للشورى . ولعل ذلك كان جزءا من سياسة تستهدف من ناحية دعم لتنفيذ الروماني باعطائه في المدن صبغة اغريقية ، ومن ناحية أخرى تحسين أداة جمع الضرائب . فضلا عن ذلك فانه أدخل تعديلات كثيرة على القوانين التي كان معمولا بها في مصر .

وعندما ارتقى كركلا ( ٢١١ - ٢١٧ ) العرش ومنح في عام ٢١٢ حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى قانونه المشهور (Constitutio antoninio) لسكان الامبراطورية الرومانية بما في ذلك المصريين لم يؤد ذلك الى تغيير وضعهم فقد ظلوا أدنى الطبقات الاجتماعية شأنًا في مصر . وعندما زار كركلا الاسكندرية في عام ٢١٥ وسخر منه أهلها لظهوره بمظهر أبطال عظام مثل الاسكندر وقتله أخيه « جيتا » صب عليهم جام غضبه فأعدم زعماءهم وأطلق جنوده على المدينة فخربوها وأعملوا القتل بين سكانها ، كما أنه ألغى الحفلات العامة وأقام حاميات في المدينة ذاتها وأوقف الاتفاق على الجامعة .

وأهم ما يمتاز به عهد ماكرينوس ( ٢١٧ - ٢١٨ ) هو ما سلفت الاشارة اليه من أنه كان أول من خرج على القاعدة التي وضعها أغسطس وتقرر بمقتضاها ألا يتقلد أحد من رجال السناتو مناصب ادارية في مصر ، إذ أن ماكرينوس عين لحاكم مصر مساعدا من رجال السناتو مما يدل على نقص أهمية مصر عما كانت عليه في بداية العهد الروماني . وأبلغ من ذلك في الدلالة على نقص أهمية

كالفيسيوس ستاتيانوس (C. Calvisius Statianus) لم يلقوا اذ ذلك الا عقابا طفيفا بالقياس الى تهمتهم الخطيرة . لكن عندما ارتقى كومودوس (Commodus) ( ١٨٠ - ١٩٢ ) العرش أعدم كل أفراد أسرة كاسيوس وكذلك قادة الاسكندريين الذين أسهموا في هذه الحركة .

وقد خلف كومودوس على العرش لمدة ثلاثة شهور ( يناير - مارس ١٩٣ ) الامبراطور پرتيناكس (Pertinax) ولوثائق هذا العهد القصير أهمية خاصة فهي ترينا كيف أن نبأ هاما مثل ارتقاء امبراطور جديد العرش كان يستغرق وقتا طويلا للانتقال من روما الى مصر ، وذلك انه نودي بالامبراطور الجديد في روما في اليوم الأول من شهر يناير سنة ١٩٣ على حين ان حاكم مصر العام لم يصدر أوامره للاحتفال بهذه المناسبة لمدة خمسة عشر يوما الا في السادس من شهر مارس . ونعرف ان پرتيناكس قتل في روما في الثامن والعشرين من شهر مارس ومع ذلك فان اسم هذا الامبراطور يظهر في تاريخ وثيقة من الفيوم في التاسع عشر من شهر مايو .

وعندما قتل پرتيناكس نادت مصر بحاكم سوريا يسكنيوس نيجر (Pescennius. Niger) امبراطورا لكن ما كاد الأمر يستتب في روما لسقروس ( ١٩٣ - ٢١١ ) حتى قضى على نيجر . وعندما زار سقروس مصر اقتفى أثر هادريان فيما أقامه من الأبنية انعاما في الاسكندرية وفي سك النقود تخليدا لزيارته وفي زيارة آثار مصر . وأهم من ذلك

مصر في القرن الثالث انه عندما وقعت فتنة في الحرس الامبراطوري على عهد سفروس اسكندر ( ٢٢٢ - ٢٣٥ ) عين الامبراطور زعيم الثوار حاكما عاما لمصر لا ارضاء له وانما لاقصائه الى مكان لا يستطيع فيه أن يهدد مركزه .

وكانت نتيجة نقص أهمية مصر انها لم تلعب أى دور في سلسلة المنازعات التي وقعت في أواخر النصف الأول من القرن الثالث من أجل ارتقاء عرش الامبراطورية وقبلت عن طيب خاطر ارتقاء امبراطور بعد آخر وغلب على أحداث مصر سبات عميق استغرقت فيه حتى كان عهد دكيوس (Decius) ( ٢٤٩ - ٢٥١ ) الذي نشطت فيه حركة المسيحية في مصر مما حدا بالحكومة الى توجيه اهتمامها اليها واتخاذ العدة لمنع انتشارها . وفي هذا العهد أيضا أغارت قبائل البلبيس على الحدود الجنوبية لأول مرة بعد اغارتها السابقة في عهد أغسطس . ولعل هذه الاغارة تتصل باتساع مملكة اكسوم التي دعمت مركزها في وادي النيل على حساب مملكة مرو وكانت تضغط على القبائل النوبية من الجنوب فتدفعها نحو الحدود المصرية . وبعد ذلك استأنفت مصر سباتها عندما دبت المنازعات في الامبراطورية من جديد خلال المدة التي دامت من عام ٢٥١ الى عام ٢٦٨ وتعاقب فيها الأباطرة بسرعة غريبة . وقد كان أهم ما حدث بعد ذلك هو أن

زنوبيا ملكة بالميرا ( تدمر ) زحفت على مصر واستولت عليها ( ٢٦٩ - ٢٧٠ ) وبرغم أنها بعد عدة محاولات أفلحت في دحر الجيوش الرومانية فانها لم تشأ أن تستقل بمصر بل اعترفت بسلطان روما ، لكن لم يكف ينقض على ذلك عامان حتى أفلح أورليانوس ( ٢٧٠ - ٢٧٥ ) في القضاء على تفوذ بالميرا في مصر واستولى على بالميرا ذاتها ، لكن عقب عودة أورليانوس الى روما ثارت بالميرا وبعد ذلك الاسكندرية لارتباط البلدين بصلات تجارية وثيقة فعاد الامبراطور الى الشرق وقضى على الفتنة في بالميرا ثم في الاسكندرية وبعد ذلك ترك مصر تحت امرة پروبوس وعهد اليه برد قبائل البلبيس على أعقابها وكانت قد انتهزت فرصة تلك الأحداث للزحف على مصر العليا حتى ققط . وقبل انتهاء پروبوس من طرد البلبيس وتهدة الوجه القبلي نودي به امبراطورا ( ٢٧٦ - ٢٨٢ ) عقب وفاة أورليانوس ( ٢٧٥ ) وحكم تاكيتوس القصير ( ٢٧٥ - ٢٧٦ ) . ولم يضع انتصار پروبوس على البلبيس الا حدا مؤقتا لمناوشاتهم فقد أخذوا يجددون اغاراتهم كل عام مما اضطر الامبراطور وقلديانوس ( ٢٨٤ - ٣٠٥ ) الى جعل حدود مصر الجنوبية عند أسوان بدلا من هيراسيكامينوس ( المحرقة ) ودعوة بعض قبائل الصحراء التي كانت تعرف باسم النوباداي للسكن في وادي النيل لحماية حدود مصر الجنوبية .

## الفصل الثاني

### أداة الحكم

الأهالى ، خطر يهدد كيان الامبراطور ، فقد حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر خاضعة لاشرفهم مباشرة وعلى ألا يتولى رجال السناتو أو من في مرتبتهم مناصب ادارية في مصر أو يدخلوها دون استئذانهم ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطيا ، وعلى أن يتولى المناصب الرئيسية في السلطة المركزية رومان يوفدهم الأباطرة من قبلهم ويستبقونهم في مناصبهم أو يعزلونهم كما يتراءى لهم .

وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام (praefectus) كان يتمتع بمعظم السلطة التي كانت من نصيب الملك في عهد البطالمة ، فانه كان يهيمن على ادارة البلاد العامة وشئونها المالية والقضائية والحربية تحت اشراف الامبراطور مباشرة . وكان يتحتم عليه عدم مغادرة مصر في خلال مدة حكمه ، كما كان يجب عليه عند انتهائها انتظار وصول خليفته . وفي حالة خلو منصبه فجأة بسبب الوفاة أو لأى سبب آخر كان ينوب عنه عادة مساعده في الشئون القضائية

لم يترتب على دخول مصر حظيرة الامبراطورية الرومانية تغييرات هامة في ادارة البلاد لأن سياسة روما بوجه عام في خلال فتوحاتها في الشرق كانت تقضى بتجنب التدخل ما أمكن في نظم البلاد التي كانت تتمتع بادارة منظمة ، ولذلك اتبع الرومان في حكم البلاد النظام نفسه الذى وضعه البطالمة اللهم الا اذا استثنينا بعض التعديلات التي اقتضت الظروف ادخالها ، فكأن قدوم الرومان لم يكن أكثر من انتقال الحكم من أسرة الى أخرى انتقالا لم يكن مصحوبا باقتلابات أو اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة على عهد الفراعنة عندما كانت أسرة حاكمة جديدة تخلف أسرة أخرى .

#### ١ - السلطة المركزية :

ولما كانت روما في حاجة ملحة الى الالتفاف بموارد مصر الطائلة في تخفيف عبء ماليتها وفي امداد شعبها بمقادير وفيرة من القمح ، وكان في وقوع مصر في يد قوية مناوئة للامبراطور أو في قيام اضطرابات بين

## ٢ - السلطة المحلية في القرنين الأول والثاني :

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة ينقسم الى مديريات ، على رأس كل منها قائد (strategos) كان يلى حاكم القسم فى المرتبة ويتلقى منه جميع الأوامر فيما عدا ما يتصل منها بالشئون المالية اذ كان يرجع فى ذلك الى الادارة المالية المركزية فى الاسكندرية . ولم يكن للقائد أى اختصاص حربى ، لكن تهوده كان يمتد الى جميع نواحي الادارة المدنية ، اذ كان رئيس الشرطة وكثيرا ما كان ينوب عن الحاكم العام فى الفصل فى القضايا . وكان للقائد دائما الحق فى القاء القبض على مخالفى القانون وفى النظر فى الشكاوى واجراء تحقيق ابتدائى فى القضايا ومحاولة فض النزاع وديا أما اذا تعذر ذلك فانه كان يحيل المتخاصمين الى المحاكمة وقد كان القائد مسئولا كذلك عن تقدير وجمع الضرائب فى مديريته وعن استغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها .

وكان النومارخ لا يزال معروفا فى عهد الرومان الا أنه ازاء سلطة القائد المدنية كان أهم ما تبقى له من اختصاصات هو الاشراف على تقدير وجمع الضرائب المختلفة . وقد أدى نقص أهمية مركزه الى ازدياد عدد النومارخى اذ كان يعين لكل مديرية اثنان أو أكثر .

وكان يلى القائد فى المرتبة « الكاتب

وكان يدعى بالاغريقيّة ديكايودوتس (Dikaiodotes) ، وباللاتينية يورديكوس (Juridicus) ، فقد كان يساعد الحاكم العام على الاضطلاع بمهام منصبه فئة صغيرة من كبار الموظفين الرومان من الجلى أن هذا المساعد أو المستشار القضائى كان أخطرهم شأنًا وأرفعهم مقاما . وكان للحاكم العام مساعدان فى الشئون المالية وهما الديويكيتس (dioiketes) والايديولوجوس (idiologos) ومن أجل تسهيل الادارة العامة قسمت البلاد منذ أوائل أيام الامبراطورية ثلاثة أقسام وهى مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا ، وأسندت ادارة كل قسم الى ابيستراتيجوس (epistrategos) رومانى ، وكان الامبراطور هو الذى يعين حكام هذه الأقسام الا أنهم كانوا يخضعون للحاكم العام مباشرة ويستمدون منه معظم سلطتهم ، وكان اختصاصهم اداريا بحتا ، غير ان الحاكم العام كان ينيبهم عنه فى الفصل فى القضايا وكان لهم حق مطلق فى دراسة الشكاوى والتحكيم فى المنازعات . ولم يكن لهم أى اختصاص فى الادارة المالية أكثر من سماع الشكاوى بسبب اجحاف فى تقدير الضريبة أو ما شابه ذلك . وكان لهم شأن كبير فى تعيين موظفى المديريات ، ويرجع ان قراراتهم كانت نهائية فيما يختص بتعيين الصغار من هؤلاء الموظفين لكن يبدو ان موافقة الحاكم العام كانت ضرورية فيما يختص بتعيين كبارهم .

كبارهم ، يتألفون من رجال لا يتولون مناصبهم الا لفترة قصيرة وقسرا عنهم .

وكان مقر ادارة كل مديرية في عاصمتها ، ولم تتمتع تلك العواصم باستقلال محلي في القرنين الأولين من حكم الرومان اذ كانت ضرائبها ورجال شرطتها تحت اشراف القائد لكن يبدو أن أغسطس أنشأ في كل منها عددا من المناصب البلدية التي استعيرت أسماءها واختصاصاتها من نظم المدن الاغريقية . وفي بداية الأمر كان يتولى كل منصب سنويا متطوع ثرى كان ينفق من ماله الخاص على كل ما يتطلبه النهوض بأعباء منصبه وكان تولى هذه المناصب يعتبر شرفا يعتز به الناس ويتطلعون الى الحصول عليه ، فكان الأهالي عندئذ ينتخبون أفضل المرشحين لتولى هذه المناصب . لكن بمضى الزمن لم تعد هناك حاجة الى الانتخاب ، فقد ازدادت على مر الأيام صعوبة الحصول حتى على مرشح واحد لكل منصب بسبب ما كانت هذه المناصب تفرضه على شاغليها من أعباء مالية كانت تتزايد باستمرار في الوقت الذي سارت فيه حالة البلاد الاقتصادية من سوء الى أسوأ . فمن أجل التغلب على صعوبة شغل هذه المناصب لجأت الحكومة الى الارغام والحث على اقباص نفقات هذه المناصب كما لجأت الى اشارك أكثر من شخص واحد في تحمل أعباء كل منصب . ففي القرن الثاني جرت العادة بأن يتولى أعباء

الملكى « وكان ينوب عن القائد في أثناء تغييه أو خلو مركزه . وكانت أهم اختصاصاته تتعلق بالشئون المالية في الادارة المحلية مما حمل البعض على الاعتقاد بأنه كان بمثابة مراقب على تصرفات القائد في الشئون المالية . وكان يجرى بعد الكاتب الملكى رؤساء دار السجلات الرسمية : فقد أنشأ الرومان الى جانب دار السجلات المركزية بالاسكندرية دورا مماثلة في عواصم المديریات . وعلى مر الزمن أصبحت كل من هذه الدور تنقسم قسمين ، يختص أحدهما بحفظ جميع المكاتبات الرسمية وكشوف الضرائب وقوائم التعداد وسجلات الأراضى ، ويختص القسم الآخر بتسجيل الأراضى والمنازل والعييد . وكان يشرف عادة على كل من هذين القسمين رئيسان .

ومما يجدر بالملاحظة ان مناصب الادارة المحلية ، ابتداء من القائد ، كان يشغلها اغريق فيما عدا المناصب الدنيا منها فقد كان يتولاها مصريون . واذا كان يبدو من ذلك ان الموظفين كانوا يختارون بوجه عام من الطبقات ذاتها التى كانوا يختارون منها في عصر البطالمة فانه مع ذلك قد طرأ تغيير هام على طابع الخدمة الحكومية ، ففي عهد البطالمة كان موظفو الحكومة يتألفون من موظفين دائمين اختاروا خدمة الحكومة مهنة لهم يتكسبون منها قوتهم ، أما في عهد الرومان فانه لم يأت القرن الثانى حتى كان موظفو الحكومة ، باستثناء

منصب مدير الجيمنازيوم شخصان كانا يتناوبان كل شهر مباشرة مهام هذا المنصب . ونعرف أنه في أوكسيريخوس بلغ عدد مراقبي السوق العامة في خلال القرن الأول خمسة ، وكان عدد مراقبي التموين عند نهاية القرن الثاني أربعة . وكان التطور الطبيعي لهذه الخطوة انشاء لجنة لكل منصب عند أواخر القرن الثاني .

وكان هؤلاء الحكام هم مدير الجيمنازيوم (gymnasiarch) ، وكان يتولى رعاية شئون الجيمنازيوم الذى كان مركز الحياة الاجتماعية ومعهدا للتربية البدنية والعقلية ، وثانيا (exegetes) ، وكان يشرف على الحاق الشبان بمنظمة تدريبهم (ephebeia) وتعيين الأوصياء للسيدات والمربين للقاصرين ويبحث الشروط الواجب توافرها فيمن يضمنون الى طبقة المتمتعين بالامتيازات ، وثالثا مراقب التعليم (kosmetes) ، ورابعا الكاهن الأكبر (archiereus) ، وخامسا مراقب التموين (eutheniarch) ، وسادسا مراقب السوق العامة (agoranomos) ، وكان يتولى أيضا توثيق العقود . وكان يوجد الى جانب هؤلاء نفر من الحكام يرجح المؤرخون انهم كانوا يعينون فقط عندما كانت الظروف تستدعى ذلك مثل (epimeletai) وكان يعهد اليهم فى الاشراف على الأشغال العامة . وكان يوجد فى كل عاصمة من هذه العواصم ما يشبه الجمعية العامة للمواطنين .

وكان يمثل السلطة المركزية فى ادارة تلك العواصم قائد المديرية وكان يهيمن على نظامها المالى ويشرف على حفظ الأمن فيها ، وكذلك الكاتب الملكى . وكان مسئولوا عن امداد السلطة المركزية بكافة المعلومات التى تحتاج اليها لفرض الضرائب ، كما كان مسئولوا عن اعداد أسماء الأشخاص اللائق اختيارهم للوظائف المحلية التى كانت وظيفته من بينها . وكان يوجد عادة فى كل مدينة كاتبان يتوليان العمل فيها لمدة ثلاث سنوات .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد من القرى يدير الشئون المحلية فى كل منها جماعة من شيوخها يبدو أن عددهم كان يتفاوت تبعا لعدد سكان كل قرية . وكان شيوخ القرية بمثابة حلقة الاتصال بين الأهالى والحكومة فى دفع الضرائب . وكان عليهم أيضا أن يراقبوا فلاحه أراضي القرية وأن يمدوا الحكومة بما تطلبه من العمال أو الجنود لخدمتها وقت الحاجة . وكانوا كذلك مسئولين أمام القائد عن حالة الأمن فى قراهم . ونحن لا نعرف كيف كانوا يختارون لكن يرجح أن خدمتهم كانت فرضا اجباريا على ثروة كل قرية لمدة سنة دون أى مقابل . ولعل منشأ هذا النظام يرجع الى رغبة الحكومة الرومانية فى ايجاد وسيلة محلية تزيد من اضمئانها الى الحصول على ضرائب القرى فقد كان أولئك الشيوخ مسئولين شخصا عن سداد ضرائب قراهم .

واقية بأسماء جميع سكان البلاد تبين بدقة الطبقة التي ينتمى إليها كل منهم وكذلك حالته من حيث الاعفاء من الضرائب جميعها أو بعضها أو الالتزام بدفع الضرائب كاملة . وفي الفترة الواقعة بين تعدادين كانت شهادات الوفاة والميلاد تستخدم سنويا لتصحيح البيانات الواردة في هذه السجلات وجعلها مطابقة للواقع .

ولما كانت الحكومة ترقب بحرص شديد الالتئام الى الطبقات المتأخرة بسبب ما كان يترتب على ذلك من التمتع بامتيازات لها أهميتها لا من حيث أداء الضرائب فحسب بل أيضا من حيث دخول منظمة تدريب الشباب (ephebein) والجيمنازيوم ، فانها كانت لا تسمح بتسجيل أى شخص في طبقة من هذه الطبقات الا بعد فحص (epikresis) الطلب المدعم بالمستندات الذى كان والد الشخص أو الوصى عليه يتقدم به عادة في الثالثة عشرة من عمره أى قبل تسجيل اسمه في منظمة تدريب الشباب وفي قوائم دافعي الضرائب ، ففي سن الرابعة عشرة كان الشبان يدمجون في منظماتهم ويتعين دفع ضريبة الرأس وبعض الضرائب الأخرى . وقد كان الالتئام الى طبقة من الطبقات المتأخرة يقتضى اثبات اتئام والدى الشخص الى تلك الطبقة . وكان في استطاعة العبيد الالتئام الى تلك الطبقات اذ كان القانون يسمح لهم بالتمتع بوضع سادتهم القانونى بعد فحص حالتهم .

وكان يمثل السلطة المركزية في كل قرية رئيس الشرطة (archepodos) وكان يهيمن على حفظ الأمن فيها ، وكاتب القرية وكان مسئولاً عن موافاة السلطة المركزية بكل ما يلزمها من بيانات لأغراض الضرائب فهو الذى كان يعد قوائم سكان القرية ومقدار ما يملكه كل منهم وموارده . وكان أيضا مسئولاً عن اعداد بيان بالأشخاص الصالحين لاختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينها . وكان القائد يختاره بالقرعة من قائمة الأشخاص التي أعدها سلفه ، وكان يتولى وظيفته لمدة ثلاث سنوات ، وكان لكل قرية عادة كاتبها لكن في بعض الحالات كان يعهد في شئون قريتين أو ثلاث قرى الى كاتب واحد . وكان يخصص دخل بعض الضرائب لمواجهة ما يتطلبه منصبه من تكاليف .

واذا كان البطالة قد حرصوا على أن يدرجوا في قوائم أسماء سكان البلاد وجنسية كل منهم والطبقة التي ينتمى إليها ، فان الرومان أدخلوا نظام التعداد وكان يجرى كل أربعة عشر عاما ويعرف بأسم « التسجيل المنزلى » ، فقد كان يتعين على مالك كل منزل أو مستأجره أن يقدم الى الموظفين المختصين اقرارا بجميع سكان منزله ويقسم على صحة السانات التي قدمها . وكان أولئك الموظفون يقومون بفحص (epikpisis) هذه البيانات والتأكد من صحتها لأنه بناء عليها كانت السلطات المختصة تعد سجلات

المواطنين وكانوا لا يسجلون في الأحياء ولا يتمتعون بكل امتيازات المواطنين الكاملين . وكان للاسكندرية جماعة من الحكام يتألفون من مثل حكام عواصم المديرية فضلا عن مثلى السلطة المركزية . ولسنا نعرف كيفية اختيار حكام الاسكندرية، لكن لما كانوا يقومون بدور بارز في ثورات هذه المدينة ضد الحكومة ، وكانت « أعمال الشهداء الوثنيين » تصورهم في شكل زعماء المدينة ، فان كل ذلك يوحي بأنه لم يكن للحكومة يد في تعيينهم . وقد كان الامبراطور هو الذى يمنح حقوق المواطنة ، وكان الحاكم العام هو الذى يحاكم من يدمج في هيئة المواطنين أشخاصا لم تتوافر لديهم شروط التمتع بحقوق المواطنة وكذلك الذين يمارسون هذه الحقوق دون وجه حق . ويبدو انه لم يعد لحاكم المدينة وجود فقد أصبح الفصل فى القضايا من اختصاص الحاكم العام والذين كان ينيهم عنه على نحو ما سنرى عند الكلام عن النظام القضائى . وبطبيعة الحال كان شأن المدن الاغريقية الأخرى شأن الاسكندرية من حيث انه لم يعد لها محاكم قضائية خاصة . وكان يحفظ الأمن فى المدينة قائدها ورئيس شرطتها . والواقع ان الحكومة الرومانية هى التى كانت تشرف على كافة نواحي الادارة فى المدينة ، أما النواحي الثقافية والدينية وتدريب الشباب واقامة الحفلات وتنظيم الألساب فان حكام المدينة (archontes) هم الذين كانوا يتولون أمرها .

وقد كانت الاسكندرية وقراطيس وبطوليميس وأنطينوؤبوليس هى المدن الوحيدة التى تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتى فى حكمها المحلى . وبرغم ان معلوماتنا عن دستور كل منها طفيفة الا أنها تكفى لترينا انها كانت تتمتع بمزايا خاصة تختلف فى كل منها عن الأخرى . باختلاف أصلها وتاريخها . أما الاسكندرية فيجمع الباحثون على أن الأباطرة منذ أغسطس حتى سبتيوس سفروس لم يسمحوا لها بمجلس للشورى لكى لا يتيحوا لأهلها المفرمين بالثورات معقلا لثوراتهم ولكى يجعلوهم تحت سلطان الحاكم العام مباشرة . واذا كانت بعض القرائن تشير الى أنه منذ أوائل العصر الرومانى كان لمواطنى الاسكندرية مجلس يتألف من ١٧٣ عضو ، والى أن هذا المجلس كان حلقة الاتصال بين روما ومواطنى الاسكندرية فان الدلائل لا تدع مجالاً للشك فى أنه لم يكن مجلسا له صفة رسمية أو سلطة تشريعية فهو لم يكن أكثر من هيئة اجتماعية . ومثل ما كانت عليه الحال فى عهد البطلمة كانت نخبة اغريق الاسكندرية تنقسم الى قبائل وأحياء وتكون هيئة المواطنين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، وكان أهمها ان التمتع بهذه الحقوق كان شرطا أساسيا للحصول على حقوق المواطنة الرومانية وللإعفاء من ضريبة الرأى ومن تولى المناصب العامة قسرا خارج الاسكندرية . وفى العصر الرومانى أيضا كانت توجد كذلك فئة انصاف

#### ٤ - التعديلات التي ادخلت في القرن الثالث :

شهد القرنان الأول والثاني من حكم الرومان زيادة مطردة في الزام الأشخاص القادرين بتولى المناصب الحكومية والبلدية . ومن حيث المبدأ كان النظام يقضى بالألا يرغم شخص على تولى وظيفة قبل اقضاء ثلاث سنوات على توليه وظيفة مماثلة مرة سابقة . وكان يتغى من الارغام على تولى الوظائف المواطنون الرومان وقدماء المحاربين ومواطنو الاسكندرية وأنطينوؤپوليس المقيمون خارج هاتين المدينتين ، وكذلك الأطباء العموميون وأساتذة دار العلم في الاسكندرية والفائزون في المباريات العامة والمعزة وعدد معين من كهنة كل معبد . لكن عندما قل عدد الأشخاص اللائقين لتولى هذه الوظائف ازداد تدريجيا تفاضى الحكومة عن هذه الاعفاءات .

وعندما زار الامبراطور سيطيموس شروس مصر في عام ٢٠٠/١٩٩ ورأى ان الاضحلال قد أخذ يدب الى موارد البلاد وان الادارة المحلية على وشك التداعى ، أدخل بعض التعديلات على نظام الادارة المحلية ، مؤملا أن يصلح بذلك ما أفسده الدهر . وقد كان أهم هذه التعديلات منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس للشورى . واذا كانت الاسكندرية قد حققت على هذا النحو أمنية قديمة عزيزة عليها فانه انتقص من قدر هذه المنحة اسباغها على العاصمة المجيدة القديمة وعلى عواصم المديريات سواء بسواء . ولم يترتب على فوز

أما قراطيس فيظهر أنها ظلت تتمتع بدستورها القديم بدليل ما تحدثنا به المصادر القديمة من أن هادريان أعطى أنطينوؤپوليس دستورا على نمط دستور قراطيس . وكانت أبرز عناصر هذا الدستور وجود هيئة مواطنين وعدد من الحكام ومجلس للشورى .

ويبدو أن بطوليميس أيضا احتفظت بدستورها الاغريقي القديم أى أنه كان لها مجلس للشورى وجمعية شعبية وهيئة حكام تنتخبهم هيئة مواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وأحياء . وفي عصر هادريان وثانية في عصر أنطونينوس بيوس قامت باهداءات وصفت نفسها فيها بأنها مدينة اغريقية (polis) . وبالرغم من أن بطوليميس كانت عاصمة مديرية طينة (Thinis) ، أى مقر حكومة تلك المديرية ، الا أنه يرجح أن تلك الحكومة لم تتداخل في شئون المدينة .

وقد مر بنا أن أنطينوؤپوليس أنشئت على نمط اغريقي ومنحت مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا وقسم مواطنوها ، مثل مواطنى المدن الاغريقية الأخرى ، الى قبائل وأحياء . وبطبيعة الحال كان يدير شئونها جماعة من الحكام يختارون من مواطنيها . وما يجدر بالملاحظة أن دستور هذه المدينة سمح بالتزاوج بين مواطنيها والمصريين على حين أن هذا التزاوج كان غير مشروع في المدن الاغريقية الأخرى .

ويرجع بعض المؤرخين أنه عندما أنشئت مجالس الشورى عين أعضاء فيها أولئك الذين لم يسبق ترشيحهم لتولى مناصب الحكم المحلى فى عواصم المديرىات فى حين انه يتبين من برديّة من منتصف القرن الثالث الميلادى انه لم يكن هناك أى فارق من حيث النصاب المالى بين أصحاب مناصب الحكم المحلى وأعضاء مجلس الشورى العاديين . لكن هذا لا يستتبع حتماً أنه عند انشاء مجالس الشورى لم يعين أعضاء فيها أولئك الذين لم يرشحوا من قبل لمناصب الحكم المحلى . وعلى كل حال اذا كانت هناك أى فوارق بين الفريقين فى بداية الأمر فانه ما وافق نهاية القرن الثالث حتى كانت هذه الفوارق قد زالت تماماً الى حد أن كلمة حاكم محلى (arehon) أصبحت ترادف كلمة عضو مجلس الشورى (bouleutes) .

وقد أدى انشاء مجالس الشورى الى انشاء مناصب ادارية جديدة كان أهمها منصب رئيس المجلس (prytanis) ، وكان يرأس المجلس وينفذ قراراته ؛ ومنصب أمين المدينة (hypomnematosgraphos) ؛ ومنصب syndikos ، وكان مستشار المجلس فيما يتعلق بالشئون الدستورية ؛ ومنصب tamias ، وكان يختص بشئون المدينة المالية ؛ ومنصب رئيس الشرطة فى المدينة (nuktostrategos) .

وقد تضمنت التعديلات الادارية الجديدة تقسيم المديرية الى أقاليم ، وتبع ذلك احياء

عواصم المديرىات بهذه المنحة تمتعها بالحكم الذاتى تمتعا كاملاً فقد ظل القائد صاحب السلطة العليا فى المديرية فضلاً عن أنه كان يسيطر على مجلس الشورى وعاصمة المديرية حيث كان مقره الرسمى . واذا كان النظام الجديد قد بدا فى صورة ميزة جاد بها الامبراطور فانه فى الواقع كان عبئاً جديداً ألقى على عاتق الموسرين الذين كان أعضاء مجالس الشورى يختارون من بينهم وكان عددهم يبلغ المائة فى كل عاصمة مديريةية . وقد انتقلت الى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشئون المالية فى المديرية بأجمعها وتعيين وضمان حكام العاصمة ومدير المصرف الرئيسى فى المديرية وجباة الضرائب فى كل أنحاء المديرية ومراقبى دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضى (dekaprotoi) ، وما يجدر بالملاحظة ان المسئولية غدت مسئولية جماعية فقد كان كل حاكم من حكام العاصمة وكل عضو فى مجلس الشورى مسئولاً عن تقصيره الشخصى وتقصير زملائه سواء بسواء . وقد كان مجلس الشورى يتولى الاشراف العام على الادارة فى عاصمة المديرية فى حين ان حكام العاصمة كانوا يقومون بتنفيذ ما يدخل فى دائرة اختصاص كل منهم . وقد أصبحت القاعدة انه لا يمكن التحلل من تولى منصب من مناصب الحكم المحلى أو عضوية مجلس الشورى الا بتنازل المرشح عن ثلثى ما يملكه للشخص الذى رشحه ليحل مكانه .

وظيفة حاكم الاقليم (toparch) ، وكان يعين لكل اقليم مراقبان على دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi) ، وعدد من جباة الضرائب (praktores) .

وكان أهم التعديلات التي أدخلت على إدارة القرى احياء وظيفة حاكم القرية (komarch) ، والقضاء تدريجيا على اختصاص الشيوخ وكاتب القرية ، فقد أسندت شئون الادارة الى حكام القرى وكانوا عادة اثنين في كل قرية ، يبدو انهما كانا يتوليان هذا المنصب لمدة عام واحد . وكان حكام القرية يرشحون خلفاءهم ومن تحتاج اليهم الادارة من موظفين ، لكنهم كانوا لا يتولون مهامهم قبل موافقة قائد المديرية وحاكم القسم على اختيارهم .

ولا شك في أن التعديلات التي أدخلها سبتيموس سفروس على نظام الادارة اعتراف صريح باخفاق النظام القديم ، ولا شك أيضا في أنه لم ينبغ من وراء منح الأهالي قدرا من الاستقلال المحلي الا انعاش حالة البلاد الاقتصادية ويجاد وسيلة تعطي الامبراطور ضمانا أكبر للحصول على الضرائب ، لكن لا هذه التعديلات ولا الحقوق الرومانية التي منحها كركلا لسكان البلاد أفلحت في انعاش الحالة الاقتصادية ، بل أخذت تسير من سيء الى أسوأ مما حفز الامبراطور دقلديانوس الى اعادة تنظيم الادارة من أسفلها الى أعلاها .

ولا مرأ أن السبب الأساسي فيما أصاب البلاد من فقر وتدهور يرجع الى أن الرومان لم يستهدفوا من وراء كافة النظم التي وضعوها لحكم مصر وكافة التعديلات التي أدخلوها على تلك النظم الا استغلال البلاد الى أقصى حد وضمان الحصول على ما فرضوه عليها من مختلف الالتزامات دون نظر الى صوالح الشعب ورفاهيته . وليس مرد ذلك الى أن الرومان كانوا يريدون التنكيل بمصر وانما مرده الى أن تقانيهم في أن تفيض مصر بالخيرات على روما أعماهم عن مراعاة صوالح مصر . ولو انهم كانوا بعيدى النظر لقدروا ان افقار مصر سيؤثر عاجلا أو آجلا فيما تجنيه روما من مصر لكن ازاء تبعة المسؤولية الملقاة على عاتق الحكام وقصر مدة حكمهم لم يفكر كل منهم الا في يومه وكأنه اتخذ شعارا له « ومن بعدى الطوفان » .

#### ٥ - الشرطة :

اقتضى الرومان أثر البطلمة أول الأمر في حفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد بحراس (phylakitai) مسلحين ومنظمين على أسس حربية . وتشير القرائن الى أن هذا النظام بقى متبعا في الدلتا حتى القرن الثاني . لكن يبدو أن الرومان لم يلبثوا أن استبدلوا بهذا النظام نظاما مزدوجا أقيمت بمقتضاه تبعة حفظ الأمن والنظام على شرطة مدنيين كانوا يعينون من أهالي كل منطقة وكذلك على الجيش

رجال الشرطة في كل قرية تحت امره الموظف الذي مر بنا ذكره (archepodos) . وليس هناك دليل على أن رئيس شرطة عاصمة المديرية كان يعين من قبل مجلس الشورى أو يخضع لتوجيهاته . وأغلب الظن ان الحكومة الرومانية كانت تهيمن دائما على رجال الشرطة في كافة أنحاء البلاد بما في ذلك الاسكندرية وغيرها من المدن الاغريقية .

وكان الجيش الروماني يخصص لحفظ الأمن والنظام فئة قليلة من الجنود يبدو انها كانت أفضل أثرا من الشرطة المدنيين . وفي أغلب الأحوال كانت كل فئة من هؤلاء الجنود تحت قيادة صف ضابط (centurion) كانت تقدم اليه الشكاوى كما كانت تصدر منه الأوامر لالقاء القبض على المتهمين . وتشير القرائن الى أنه في بعض الأحيان كان يصدر الى شرطة القرية ما يترأى له من التعليمات .

#### ٦ - الجيش الروماني :

عندما فتح أغسطس مصر كانت حامية مصر الرومانية تتألف من ثلاث فرق رومانية (legiones) ، وتسع كتائب مساعدة من المشاة (cohortes) ، وثلاث فصائل من الفرسان (abae) وزعت على المراكز الاستراتيجية في البلاد لنشر السكينة والنظام في أرجائها ولضمان حمايتها من الاعتداءات الخارجية . فوضعت في نيقوبوليس إحدى الفرق الرومانية وثلاث كتائب مساعدة لالقاء الرعب

الروماني . وكان رجال الشرطة المدنيون يدعون بوجه عام حراسا أو خفرا أو حفظة الأمن (phylakes) ، لكن كثيرا ما كانت تطلق الألقاب خاصة على الذين يناط اليهم عمل معين مثل حفظ الأمن في ساحات الألباب أو السجون أو الطرق الصحراوية ، غير انهم كانوا جميعا يختارون للخدمة في الأقاليم التي يعيشون فيها ويرجع ان مدة خدمتهم كانت عاما واحدا . وكان يتعين عليهم أن يؤدوا يمينا للخدمة بأمانة ونزاهة وأن يقدموا للحكومة ضامين لحسن أدائهم مهمتهم . وكانوا ينقسمون وحدات أساسها المدينة أو القرية . وكانوا في المدينة تحت رياسة القائد مباشرة ، أما في القرية فانهم كانوا تحت رياسة موظف خاص يدعى (archepodos) ولم يكن لهذا الموظف اختصاص قضائي برغم أنه كان يتداخل بين المتخاصمين لمصالحتهم وان المتخاصمين كانوا يلجأون اليه لنفض منازعاتهم . وكان يكلف بالقاء القبض على المجرمين بناء على أوامر يتلقاها من السلطات المختصة ، كما كان يكلف بتنفيذ أوامر الحكومة .

وقد صحب انشاء مجالس الشورى في عواصم المديرية تنظيم قوة للشرطة في عاصمة كل مديرية كانت مستقلة عن قوة الشرطة في المديرية فقد ظهر في القرن الثالث على رأس رجال الشرطة في عاصمة كل مديرية موظف يدعى (nuktostrategos) بينما استمر

عدة تغييرات على نظم مصر الحربية كان أهمها بناء قلعة جديدة على شاطئ النيل عند بايلون واطافة فرقة جديدة ( فرقة تراجان الثانية ) يرجح أنها حشدت للخدمة فى الشرق وأنزلت مؤقتا فى مصر لكنها لم تفادرها حتى سحبت الاشتراك فى حرب الدانوب .

ولم يأت عهد أنطونينوس بيوس ( ١٣٦ - ١٦١ ) حتى كان عدد الفرق الرومانية فى مصر قد أقتص الى فرقة واحدة لكن يبدو من ناحية أخرى ان عدد الكتائب المساعدة والفصائل قد زيد . ويتبين من الوثائق انه على مر الأيام اتجه الرومان باطراد الى التجنيد محليا لملء الأماكن التى تخلو فى صفوف الحامية الرومانية فى مصر . وليس معنى ذلك انهم اعتمدوا على المصريين فى ذلك وانما الأرجح على مواطنى المدن الاغريقية وعواصم المديرىات .

وكان يحرس شاطئ الدلتا أسطول (classis Augusta Alexandrina) يرجح أن أغسطس هو الذى أنشأه وان كان لا يرد له ذكر فى مصادرها قبل عصر نيرون . وكانت المهمة الأولى لهذا الأسطول الدفاع عن البلاد وحراسة القمح المنقول من الاسكندرية الى ايطاليا ، لكننا نسمع منذ عصر هادريان انه كان يقوم كذلك بحراسة النقل المائى فى داخل البلاد .

فى قلوب الاسكندريين الذين اشتهروا بميلهم الى الشعب والثورة ، ووضعت فرقة رومانية أخرى فى بايلون للسيطرة على الوجه البحرى ويرجح ان الفرقة الثالثة وضعت فى منطقة طيبة التى كانت مهد الثورات الوطنية ضد البطلمة ، ووضعت ثلاث كتائب مساعدة عند أسوان للدفاع عن الحدود الجنوبية ووزعت الثلاث الكتائب المساعدة الباقية والثلاث الفصائل فى مختلف أنحاء البلاد لحماية الحدود الشرقية وتأمين الطرق الصحراوية وحراسة المناجم . لكن سرعان ما تبين ان هذه القوات كانت تزيد على الحاجة ولا سيما بعد اطمئنان الرومان الى سلامة الحدود الجنوبية فأمر تيريوس بسحب احدى الفرق الرومانية الثلاث . وعندما أثبتت الأحداث ان الاسكندرية كانت أخطر على الرومان من منطقة طيبة أمر كلاوديوس بنقل الحامية الرومانية التى كانت تنزل عند ققط أو طيبة الى معسكر نيقوپوليس .

وفى عهد نيرون حشدت مؤقتا فى الاسكندرية فرق رومانية أخرى للقيام فى رأى الباحثين بالحملة التى كان هذا الامبراطور يعتزم توجيهها ضد مملكة اكسوم لكن حال دون القيام بها اندلاع الثورة فى جودايا مما استدعى استخدام تلك الفرق فى اخمادها . وفى عهد تراجان أدخلت

## الفصل الثالث

### السياسة الدينية

الادارة يشدون أزرهم ، اذ كان القرار يقضى باغلاق كل المعابد التي كانت القرابين تقدم فيها ، لكن الرهبان استمدوا من ذلك القرار السلطة ليهدموا المعابد . اما في الوجه القبلى فان سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى اذا شاء رجال الادارة تنفيذ هذه ، وكان أغلبهم في الواقع مسيحيين غير متحمسين أو اداريين متبصرين لم يروا من الحكمة فرض دين معين على الشعب دون رغبته . ومع ذلك مازلنا نرى حتى اليوم على جدران المعابد آثار المحاولات التي بذلت لمحو صور الآلهة القديمة . ولا جدال في ان كل ذلك ينهض دليلا على ان جانبا كبيرا من المصريين استسكوا أمدا طويلا في العصر الرومانى بعبادتهم القديمة . ويجب الا يغيب عن البال ان أهل الريف وهم يؤلفون دائما جانبا كبيرا من السكان في مصر أكثر محافظة من أهل المدن وكذلك أكثر منهم تمسكا بأهداب الدين .

وقد احتفظ كثير من اغريق مصر أيضا بعبادتهم القديمة . ويجب ألا يتبادر الى

لما كان الرومان قد دأبوا في الظروف العادية على اتباع سياسة التسامح الدينى مع رعاياهم ما دام ذلك لم يتعارض والاحتفاظ بسيطرتهم عليهم ، فانهم تمشيا مع هذه السياسة لم يتدخلوا في المعتقدات الدينية لرعاياهم في مصر سواء أكانوا من المصريين أم الاغريق أم اليهود . فلا عجب اذن ان استمر كل عنصر من هذه العناصر في اقلمة شعائر دياناته القديمة . ولا أدل على أن أغلب المصريين بقوا على ولائهم لآلهتهم القديمة من ان الأقطاب الأوائل للمسيحية وجهوا حملات لاذعة ضد عبادة الحيوان ، بل انه بعد انتشار المسيحية في مصر واعتراف الدولة بها رسميا في القرن الرابع للميلاد بذل المسيحيون جهودا كبيرة للقضاء على الوثنية في مصر وساعدهم على ذلك انه عندما ارتقى الامبراطور ثيودوسيوس ( ٣٧٩ — ٣٩٥ ) العرش فرض المسيحية قسرا في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية . وقد نفذ قرار الامبراطور دون هوادة في الاسكندرية والوجه البحرى حيث ذهب الرهبان في تنفيذ هذه الى أبعد مدى ومن ورائهم رجال

المصريين منهم الى الاغريق ولم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم على مر العصور . ومن ثم نقص عدد أتباع الديانة الاغريقية تبعا لعدد الذين تمصروا وبطبيعة الحال أيضا تبعا لعدد الذين اعتنقوا المسيحية .

ولما كان اليهود يقفون في الشئون الدينية بمعزل عن كافة سكان مصر سواء أكانوا من المصريين أم من الاغريق أم من الرومان، فانهم استمروا يتابعون عبادتهم دون أن تتأثر طقوسهم أو معتقداتهم بأى تأثيرات أجنبية . وقد انتشرت بينهم في أغلب مدن مصر الكبرى واستمر معبدهم الكبير في ليوتتوبوليس يباشر نشاطه الى أن أمر قسپاسيانوس في عام ٧٣ بإغلاقه بعد تدمير أورشليم ومعبدها في أعقاب ثورة اليهود على روما، وذلك لكي لا ينتقل نفوذ المعبد الكبير في فلسطين بعد زواله الى معبد ليوتتوبوليس . وقد شهدت مصر التطور الوحيد الذي طرأ على الأفكار اليهودية وكان يمثل في تكوين طائفة من النساك أنشأت لنفسها بيعة بالقرب من بحيرة مريوط حيث أخذت تمارس حياة من التقشف والزهد منصرفة عن أمور الدنيا الى الدرس والتأمل . وكان يسمح للرجال والنساء على السواء بالاندماج في هذه الطائفة ، وكان يخصص لكل عضو من أعضاء الطائفة صومعة صغيرة ينزوي فيها وحيدا لمدة ستة

الذهن ان ذلك كان مقصورا على مدنهم الاغريقية فحسب بل يبدو ان ذلك كان شأنهم أيضا حيثما وجدت لهم مراكز حضارية خارج تلك المدن . فالقرائن تشير الى انهم كانوا يقيمون شعائر عبادتهم القديمة لا في الاسكندرية وقرطيس وبتوليميس وانطينوؤبوليس فحسب بل أيضا في الفيوم وهرموپوليس (الأشمونين) وأوكسيرينخوس ( البهنسة ) . لكن لا جدال في ان عدد اغريق مصر الذين بقوا على ولائهم لآلهتهم القديمة قد تناقص على مر الزمن . فقد مر بنا ان الاغريق منذ عهد هيرودوتوس وطوال عصر البطلمة كانوا يشبهون الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية وانهم كثيرا ما عبدوا الآلهة المصرية الى جانب آلهتهم الاغريقية باعتبارهم نزلاء البلاد التي كانت تتمتع بحماية تلك الآلهة . ونستطيع أن نتصور انه كلما أصبح الاغريق أكثر ألفة بالآلهة المصرية نتيجة لطول استقرارهم في البلاد والاختلاط بأهلها أو التزاوج معهم كثر تهربهم الى هذه الآلهة وتبع ذلك تهرب بعض الأفكار الاغريقية الى بعض المذاهب المصرية التي كان يمارسها الاغريق والمصريون المتأغرقون . واذا كان من الجائز بوجه عام ان اغريق المدن الاغريقية وعواصم المديریات لم يصدفهم التعب الى الآلهة المصرية عن التعب الى آلهتهم الاغريقية فما لا شك فيه ان عامة الاغريق المنتشرين في أرجاء البلاد أصبحوا بالتدرج أقرب الى

البعض أهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية  
للمسيحية الأوربية .

وازاء استمساك المصريين بمعتقداتهم  
الدينية نرى ان الأباطرة الرومان لكي  
يصبغوا مركزهم بصفة شرعية في نظر  
المصريين حذوا حذو البطالمة من قبل فاتخذوا  
صفة الفراعنة . بل ان حاكم مصر الروماني  
أيضا كان يتشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل  
وقت الفيضان ، ويقدم القرابين عند بلوغ  
النيل أقصى ارتفاعه ويمثل دور فرعون في  
غير ذلك من شتى المظاهر . وشيد الأباطرة  
المعابد للالهة المصرية أو أضافوا الى مباني  
المعابد القائمة أو أكملوا مبانيها أو زخرفتها  
وصوروا على جدرانها وعلى النصب الرسمية  
في زى الفراعنة وأوضاعهم .

وقد كان الرومان في بادىء الأمر ينظرون  
الى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتقار  
وازدراء لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون  
الى تعرف أسرارها فاستهوتهم تلك الأسرار  
وما يقترن بها من أساطير . وما عثم الغزاة  
الفاثحون أن خضعوا لسلطان تلك الآلهة  
وشاركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم في  
عبادتها وتقديم القرابين اليها بل أقاموا  
التماثيل والمعابد لبعضها حتى في روما  
العظيمة ذاتها . ولعل أبلغ ما يدل على التغير  
الفكرى الذى طرأ على الرومان من حيث  
تقديرهم للالهة المصرية البحث أن أغسطس  
أبى واستكبر أن يرى العجل المقدس ايمس ،

أيام ولا يخرج منها للالتقاء مع اخوانه في  
اليعة الا في يوم السبت من كل أسبوع  
وكذلك في يوم الحفل الذى كان يقام كل  
خمسین يوما . ولم يكن هذا اللون من حياة  
التنسك غير معروف في مصر من قبل . وآية  
ذلك أولئك النساك الذين تحدثنا الوثائق  
بأنهم كانوا ينقطعون للعبادة في سيراييوم  
منف في عهد البطالمة . ويعتقد بعض الباحثين  
ان المبشرين البوذيين هم الذين نقلوا من  
الهند الى مصر فكرة التنسك . لكن البعض  
الآخر من الباحثين وان كانوا يسلمون بأن  
مثل أولئك المبشرين كانوا يقدون على مصر  
في عهد البطالمة وبأن مذهب سيراييس كان  
يتألف من مزيج عجيب من الأفكار ، الا انهم  
يجدون من العسير أن يتصوروا أن يكون  
اليهود مع شدة تعصبهم لديانتهم قد  
اقتبسوا أى عادات من ديانة أجنبية ،  
ويرجحون أن تكون طبيعة مصر هى التى  
أوحت لليهود بعبادة التنسك ، فالصحراء في  
مصر شديدة القرب من أى شخص يريد  
اعتزال العالم ، وللصحراء جاذبية خاصة  
الاحساس بها أسهل كثيرا من وصفها ، ومن  
اليسير أن تستهوى أفئدة الذين شغلوا  
بالتعمق في أمور الدين . ومهما يكن من أمر  
فان التطور نفسه قد حدث بعد ذلك بقليل  
بين المسيحيين في مصر فانتشرت بينهم عادة  
التنسك في الأديرة ، وهى العادة التى انتقلت  
من مصر الى كل أنحاء أوربا ويعتبرها

لكن تيتوس شهد الاحتفال بتكريسه ولم يدخر وسعا في اظهار احترامه لآلهة المصريين، فوضع بذلك أساس سياسة جديدة نلمس أثرها في بدء تصوير الآلهة المحلية في المديریات على تقود الاسكندرية منذ عصر دوميتيانوس (٦١ — ٩٦) وكذلك في تشييه زوجة تراجان بالآلهة حاتحور .

وإذا كان الرومان منذ وطأت أقدامهم مصر لم يتعرضوا لمعتقدات المصريين الدينية فانهم في الوقت نفسه حرصوا ، كما فعل البطلمة الأوائل ، على ألا يتركوا الحبل على الغارب لرجال الدين المصريين لكي لا يصبحوا اداة لنشر روح الثورة في البلاد ، كما حدث في عهد البطلمة الأواخر . ولذلك قضى أغسطس بحرمان المعابد جانبا من أراضيها واسناد ادارة جانب آخر الى الحكومة لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضي لتوفير حاجات المعابد . فضلا عن ذلك وضعت ادارة المعابد تحت اشراف الحكومة ويرجع ان الحاكم العام الروماني هو الذي كان يتولى هذا الاشراف حتى عصر هادريان عندما أصبح ذلك من اختصاص موظف روماني كبير كان يدعى ايدولوجوس (idiologos) ، ويحمل لقب « كبير كهنة الاسكندرية ومصر بأجمعها » . وترينا الوثائق كيف كان هذا الموظف يشرف اشرافا دقيقا على كل ما يجري في المعابد فقد كان يخضع لتعليماته ترتيب الوظائف

الكهنوتية وتوليها ومباشرة الكهنة مهامهم بل الملابس التي يرتدونها . وكان يبعث بمفتشيه الى المعابد ليبحثوا شئون ادارتها ويأمر بالقبض على الذين يعصون أوامره وبارسالهم الى الاسكندرية . وكان يتولى الادارة الفعلية في المعابد جماعة من الشيوخ يختارون سنويا من بين الكهنة وعندما أنشئت مجالس الشورى في مستهل القرن الثالث آل الاشراف على شئون المعابد المالية الى موظفين كانت المجالس تعينهم وتراقب أعمالهم .

ومما يجدر بالملاحظة ان ما عرفناه من أمر الرومان حيال الآلهة المصرية لا يعنى انهم انصرفوا عن عبادة آلهتهم الاصلية ، فقد ادخلوا عبادة هذه الآلهة في مصر كما أدخل الاغريق من قبل عبادة آلهتهم الاغريقية . وقد أخذ الرومان أيضا عن الاغريق تأليه الملوك فقرنوا الأباطرة بالآلهة — مثل أغسطس بزيوس اليوثريوس (Eleutherius) ونيرون باجثادايون (Agathadadaemon) — وشيدوا المعابد للأباطرة لكننا نفتقر الى أدلة قاطعة على عبادة الأباطرة وانشاء المعابد لهم في أثناء حياتهم . وعلى كل حال فان الرومان لم يفرضوا على المصريين هذه العبادات خشية الاصطدام بالشعور القومي وهو ما كان الرومان يبذلون جهودهم لاتقائه . وقد أخذ الرومان كذلك عن الاغريق عبادة ثالوث الاسكندرية المقدس — سيرايس وايزيس وحاربوقراط

— وعبادة الآلهة المصرية التي أسبغت عليها أسماء اغريقية .

لقد عرفنا ان الرومان أقاموا سياستهم الدينية على أساس التسامح الدينى وانهم أباحوا للمصريين والاغريق واليهود حرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة . فما كان موقفهم من المسيحية عندما أخذت تنتشر في مصر ؟ ان معلوماتنا طفيفة عن بدء انتشار الدين الجديد في مصر لكن الباحثين لا يميلون الى قبول القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذى أسس كنيسة الاسكندرية وان كانوا يعتقدون ان قرب مصر من فلسطين جعلها في طليعة البلاد التى تسرب اليها الدين الجديد في خلال القرن الأول وأخذ ينتشر خفية هناك ولا سيما في الاسكندرية والوجه البحرى ، وأصبح عدد المسيحيين كافيا لتنصيب أساقفة للاسكندرية . وقد ازداد أعوان المسيحية في القرن الثانى وخاصة عندما نصب ديمتريوس في آخر عهد كومودوس ( ١٨٠ — ١٩٢ ) أسقفا للاسكندرية وعلى يده تمت رسامة قس كثيرين تبعا لانتشار المسيحية . ومع ذلك فان المسيحية لم تترك أى أثر فيما عثر عليه حتى الآن من برديات القرن الأول . ولا نستمد من برديات القرن الثانى الا معلومات طفيفة عن مدى تأثير المسيحية وان كنا نتبين منها ان المسيحية توغلت في مصر الوسطى ومصر العليا .

وقد أدى انتشار المسيحية الى اثاره مخاوف الرومان ومن ثم عملوا على اضهاد دعائها وأنصارها باعتبارهم عنصرا خطرا يهدد سلامة الدولة لعدم مشاركتهم في اقامة شعائر الديانة الرسمية ، فقد كانوا لا يقدسون تماثيل الأباطرة ولا يعبدون « الروح الحارس » للإمبراطور ولا « روما المؤلمة » . وقد كان بدء اضهاد المسيحيين في مصر اضهادا منتظما في خلال حكم سبتيوس سفروس ( ١٩٣ — ٢١١ ) وبلغ أشده في أواخر عصر دقلديانوس ( ٢٨٤ — ٣٠٥ ) . وتركت هذه الاضطهادات أثرا عميقا في النفوس الى حد ان الكنيسة المصرية استمرت بضعة قرون تستعمل لتأريخها « عصر الشهداء » ابتداء من حكم دقلديانوس . لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تقف في سبيل انتشار الدين الجديد حتى تمت له الغلبة في عصر قسطنطين الأول ( ٣٢٣ — ٣٣٧ ) عندما اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية .

ومما يجدر بالذكر انه في القرنين الثانى والثالث قامت الاسكندرية بدور كبير في التقريب بين أسمى الأفكار في الوثنية والأفكار التى انبثقت من المسيحية . فالى جانب « الجامعة » القديمة التى استمرت تتابع دراساتها الوثنية نشطت المدرسة المسيحية الكبرى التى أسسها پتائينوس ( Paataenus ) ، وكانت أصول الايمان تعلم فيها عن طريق السؤال والجواب .

## الفصل الرابع

### السياسة الاقتصادية

#### ١ - الزراعة والصناعة والتجارة :

محصول وافر جدا وفضلا عن ذلك فان البلاد كانت لا تشكو من أى ضائقة حتى عندما كان منسوب المياه لا يبلغ أكثر من ثمانى أذرع .

وكانت مصر تنتج عددا كبيرا من المحاصيل الزراعية كان القمح أهمها ثم يأتى بعد ذلك الشعير والكتان والخضروات والنباتات الزيتية والبردى والكروم والبلح والزيتون . ويقال ان مصر كانت تزرع أيضا القطن لتستخدم تيلته فى صناعة ملابس الكهنة .

وقد عنى الأباطرة المصلحون بالنهوض بالصناعة لسد حاجات السوق المحلية من ناحية وتصدير كميات كبيرة من ناحية أخرى فتموض مصر على هذا النحو جانبا من الجزية التى كانت تدفعها لروما سنويا . ويبدو ان حكام مصر من الرومان حيثما وجدوا الاحتكار الحكومى باهظ النفقات قليل الأرباح نزلوا عنه للأهالى فكانت الحكومة تحتكر بعض الصناعات مثل استخراج الملح والمعادن وقطع الأحجار وتترك صناعات أخرى لنشاط الأفراد .

لما كان الرومان فى حاجة ملححة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة وكان مقدار ما يجنونه منها يتوقف على مقدار ثروة مصر وكانت أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت فى عهد البطالة الأواخر من جراء ضعفهم وتخاذلهم وما عاتته البلاد من آثار الثورات القومية والانقسامات الأسرية والغزوات الأجنبية ، فقد وجه الرومان عنايتهم الى اقامة حكومة قوية زهية والى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية .

ففى الزراعة عنى أغسطس وحصيفو الرأى من خلفائه بضبط مياه النيل وحسن تصرفها وما يتطلبه ذلك من كرى الترع القديمة وانشاء ترع جديدة والمحافظة على الجسور فلا عجب ان استرابون يحدثنا بأنه قبل الفتح الرومانى كان يعمين ارتفاع منسوب مياه النيل الى ١٤ ذراعا لاتتاج محصول وافر فى حين ان بلوغ منسوب المياه ثمانى أذرع كان يؤدي الى حدوث مجاعة . اما بعد الفتح الرومانى فقد أصبح ارتفاع منسوب المياه الى اثنى عشر ذراعا كافيا لاتتاج

وقد اهتم الرومان كذلك بتجارة مصر الخارجية فراجت رواجاً كبيراً ولا سيما بعد تطهير البحر الأبيض المتوسط من القراصنة ونشر نفوذ الرومان على شواطئ البحر الأحمر واصلاح الآبار الواقعة على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر وشق طرق جديدة لهذا الغرض واقامة الحاميات على جوانب هذه الطرق لاستتباب الأمن في تلك الجهات .

## ٢ - النقود :

لما كان أغسطس وخلفاؤه قد حرصوا على ابقاء مصر وحدة سياسية واقتصادية منعزلة عن باقى الامبراطورية الرومانية فانهم أصدروا لمصر عملة خاصة بها لم يكن لها أية قيمة خارجها ولم يسمحوا بتداول العملة الرومانية البرونزية والفضية فيها وان كانوا فيما يبدو قد سمحوا بتداول العملة الرومانية الذهبية لكن لما كانت الأدلة على التعامل في مصر بهذه العملة طفيفة فانه يبدو ان تداولها هناك كان محدوداً جداً ، وهكذا انفردت مصر بوضع لم يكن له مثيل في أى ولاية رومانية أخرى . ففي الولايات الغربية غدت العملة الرومانية سريماً الوسيلة الوحيدة للتعامل وفي الولايات الشرقية برغم انه كانت تسك محلياً عملة برونزية ( وفي قيصرية وانطاكية بعض فئات العملة الفضية ) فان الناس كانوا دائماً يتداولون فئات العملة

لكن من العسير في ضوء معلوماتنا الحالية اعطاء صورة كاملة صحيحة عن مدى حرية النشاط الاقتصادي في الصناعة . وتشير القرائن الى ان الاسكندرية غدت مركزاً صناعياً كبيراً لكنها لم تنفرد بالنشاط الصناعي فكانت توجد مراكز صناعية في مختلف أنحاء البلاد مثل ارسينوى ( الفيوم ) وأوكسيرينخوس ( البهنسة ) وپانوپوليس ( اخميم ) وطيبة . ومن المرجح ان قرايطيس احتفظت على الأقل ببعض ما كان لها من الأهمية الصناعية القديمة . وتحدثنا البرديات عما كان هناك نشاط صناعي في قرية تبتونيس بالفيوم ويرجح انها لم تنفرد دون غيرها من قرى مصر بمثل هذا النشاط . فتذكر البرديات ان أهل تبتونيس كانوا يشتغلون بنسج الأقمشة وصبغتها وصنع الزيت والجمعة والحلى والأدوات المعدنية .

وكانت صناعة الزجاج من أرقى الصناعات المصرية حتى انه يعزى الى مصر ابتكار فن تشكيل الزجاج بالنفخ حوالى بداية العصر المسيحي ، ويحتمل ان مصر كانت تحتكر صناعة المكعبات الزجاجية الصغيرة اللازمة للفسيفساء . وكانت مصر تحتكر كذلك صناعة الورق وتنتج منه أصنافاً عديدة راقية . واشتهرت مصر أيضاً بنسوجاتها الكتانية الدقيقة وبصناعة العطور والمساحيق والأدوية والصحاف والكؤوس المصنوعة من الفضة أو الذهب .

الرومانية الفضية والبرونزية . ولما لم تكن للعملة التي تسك في مصر قيمة خارجها وكانت روما تحصل على جانب من الجزية المصرية تقسدا فلا بد من ان روما كانت تحصل على هذه الجزية النقدية من أرصدة صادرات مصر الخارجية ومن ثم كانت الجزية النوعية والجزية النقدية تلقيان عبئا كبيرا على موارد مصر .

وقد كان الرومان يسكون العملة المصرية في الاسكندرية وتشير الأدلة الى انه لم تصدر عن دار السكة في هذه المدينة أى عملة فضية أو ذهبية في العصر الروماني . ففى عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية ومع ذلك كان يطلق على العملة ذات الأربع دراخمت عملة فضية من باب التأديب فقط .

وفى عام ٢٠/١٩ ميلادية قرر تيريوس أن تسك الاسكندرية عملة ذات أربع دراخمت من مزيج يتألف من البرونز والفضة بنسبة ٣ : ١ وان تستمر الاسكندرية فى سك الفئات الصغرى من العملة البرونزية . وقد بقى معمولا بالنظام الذى وضعه تيريوس حتى عام ٢٩٦ مع تعديلات طفيفة فى نسبة مزيج القطع ذات الأربع دراخمت وكذلك فى شكل العملة فقد كان على نمط طرز العملة البطلمية حتى عصر فسپاسيانوس عندما أخذت تسك على نمط العملة الرومانية . ومنذ أواخر القرن الثانى

أخذت قيمة العملة ذات الأربع دراخمت فى الهبوط باستمرار ، وأسرت خطى هذا الهبوط فى النصف الثانى من القرن الثالث الى حد ان وزن هذه العملة أصبح لا يزيد الا قليلا على نصف وزن مثيلاتها فى عهد تيريوس فضلا عن انه لم يعد فيها من الفضة الا قدر طفيف جدا ينقص كثيرا عما كان عليه فى الماضى . وقد سحب هبوط قيمة هذه العملة تقص العملة البرونزية سريعا وسك عملات من الرصاص باسم المديرية المختلفة حلت محل العملة البرونزية . وتشير الوثائق البردية الى أنه قد سحب هبوط العملة كذلك ارتفاع الأسعار والأجور أيضا لكن الأجور لم ترتفع بالمعدل ذاته مما كان له دون شك أثر فى ضيق الناس بحالهم .

### ٣ - المصارف المالية :

كان يوجد مصرف رئيسى عام فى الاسكندرية ومصرف مركزى عام فى عاصمة كل مديرية . وكانت هذه المصارف العامة تؤدي مهمتى استلام أموال الدولة وصرفها ، وكان يقوم على ادارة كل مصرف مواطن من أثرياء عاصمة المديرية كانت تفرض عليه مهمة ادارة المصرف مدة معينة . وتحدثنا الوثائق عن ثلاثة أنواع أخرى من المصارف فتطلق على أولها اسم مصارف التسجيل (chrematistike trapaza) ، ويبدو انها كانت تباشر مهمتى مكاتب التسجيل والمصارف المالية . وتطلق الوثائق على النوع

الثانى اسم مصارف استبدال النقود (Kollybistike trapaza) ويبدو ان مهمتها الاولى كانت استبدال النقود المصرية بأى عملة أجنبية ترد من الخارج . اما النوع الثالث فيسمى المصارف الخاصة (idiotike trapaza) ، ويبين انها كانت تستمد رءوس أموالها من الأفراد وتؤدى مختلف أنواع الأعمال المصرفية ، ولم يقتصر نطاقها على عمليات الأفراد فحسب بل كان يشمل أيضا عمليات حكومية .

ويعتقد بعض الباحثين ان الحكومة كانت تحتكر كافة الأعمال المصرفية وتؤجر ادارة المصارف الخاصة لمن يتقدم بأكبر عطاء لقاء ذلك لكن المعلومات التى لدينا حتى الآن لا تسمح بتأييد هذا الرأى أو تفنيده وان كان يبدو معقولا ومحتملا .

ومما يجدر بالملاحظة ان المعابد لم تنقطع عما درجت عليه منذ أقدم العصر من مباشرة أعمال شبيهة بالأعمال المصرفية مثل اقراض النقود واستلام الودائع . وفي مجتمع زراعى مثل مصر الرومانية كان أمناء مخازن الحبوب (sitologi) ، كذلك يؤدون مهمة المصارف الخاصة .

#### ٤ - حالة البلاد الاقتصادية :

لقد كانت النتيجة الطبيعية لقيام حكومة قوية قديرة لا تنقصها النزاهة مكان حكومة عاجزة فاسدة ازدياد الرخاء على الفور لكن

استناد الحكومة القوية القادرة الى نظرية فاسدة كان لا بد من أن يجعلها على مر الأيام أشد خطرا على البلاد وأكثر ضرا من حكومة أقل منها قوة ومقدرة . فقد كان الرومان لا يبغون من وراء سياستهم الاقتصادية فى مصر الا غرضا واحدا وهو استغلالها لمنفعتهم الخاصة . واذا كانت آراء بعض الأباطرة قد تفاوتت عن آراء البعض الآخر فان ذلك التفاوت لم يكن فى المبدأ نفسه وانما فى مقدار ذلك الاستغلال ، اذ بينما كانت الحكمة تلمى على بعضهم تجنب تكليف البلاد ما يزيد على طاقتها لا شفقة بالبلاد أو أهلها بل شفقة بأنفسهم كيلا يجف معين البلاد نرى أن البعض الآخر قد ضرب بتلك الحكمة عرض الحائط وراح يبتز كل ما تملك البلاد . وحسبنا انه حتى فى عهد أغسطس كانت الجزية النوعية أربعة أمثال ما كان البطالمة الأوائل يجبونه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هناك فارق آخر هام بين البطالمة والرومان وهو ان معظم ما كان البطالمة يبتزونه من مصر كان يبقى فيها اما معظم ما كان الرومان يستنزفونه من مصر ، عينا كان أم تقدا ، فانه كان ينقل الى روما وتخسر مصر كلية .

ويبدو لأول وهلة ان القرن الأول من حكم الرومان ( من أغسطس الى آخر حكم نيرون أى من ٣٠ ق . م . - ٦٨ م ) حمل فى طياته رخاء عميما . لكن اذا دققنا النظر

وجدنا ان ذلك الرخاء كان من نصيب روما قبل كل شيء ومن نصيب الاسكندرية الى حد . اما مصر ذاتها فقد كانت البقرة الحلوب التي درت تلك الخيرات حتى أخذت تظهر بوادر اضمحلالها ، اذ ان كل نظام الحكومة كان موجها الى غاية واحدة هي تمكين الدولة من استعباد الفلاح في خدمتها وابتزاز أموال دافعي الضرائب . وترينا القواعد المالية التي كان الايديولوجوس يسهر على تنفيذها (Gnomon Idiou Logou) والقوانين الخاصة بتأجير الأراضي أو جباية الضرائب شدة حرص الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى الايجارات دون أن يعنىها في قليل أو كثير ان كان لم يتبق لهم بعد ذلك الا أقل القليل لقاء كل جهدهم المضى الشاق . ولا غرو فقد كان شعار كل رجال الحكومة مراعاة صوالح الخزنة العامة دون أى اعتبار آخر . وتنبئنا الوثائق بأنه في عصر تيبيريوس (١٤ — ٣٧م) كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس والسخرة ويحتمون في الأدغال والمستنقعات حتى ان بعض القرى هجرت بأكملها تقريبا . وتحدثنا بردية من عهد نيرون (٥٤ — ٦٨م) بأن سكان ست قرى من قرى الفيوم قد نقص عددهم تقصا شديدا . وترينا بردية من هذا العهد أيضا بأن العبء لم يبهظ كاهل دافعي الضرائب فقط بل جامعها أيضا مما حدا بالجباة الى أن يجأروا بالشكوى من سوء الحال والا اضطروا تحت ضغط عجزهم

المالى الى عدم القيام بتحصيل الضرائب . وتتجاوب أصداء هذه الحال فيما كتبه الفيلسوف اليهودى فيلون الذى عاصر الامبراطورين كاليجولا (٣٧ — ٤١) وكلاوديوس (٤١—٥٤) فهو يحدثنا عن قرى بأكملها بل بلاد اقترنت من سكانها بسبب شدة وطأة الضرائب ، وعن الزج في السجن بالزوجات والأطفال والتكليف بهم للإرشاد عن الأماكن التي آوى اليها الهاربون من تسديد الضرائب ، ويروى كيف ان جباة الضرائب كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جث الموتى الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب لارغام ذويهم على سداد المتأخرات . وتحدثنا وثيقة من حوالى عام ٦٩ م عن ارغام الناس على التعهد بالتزام جباية الضرائب وعلى استئجار الأراضي العنامة وعن « العيون » الذين وجدوا مرتعا خصبا في التبليغ عن المتهربين من الوفاء بالتزاماتهم للايديولوجوس وعن مزارعين في مختلف أنحاء البلاد أرهقتهم ضرائب جديدة غير مشروعة . وقد ناء الأهالى أيضا بعبء امداد الحاميات الرومانية بما كانت تحتاج اليه وامداد رجال الادارة بحاجاتهم في أثناء تنقلاتهم من مكان الى آخر وذلك فضلا عن سلسلة من الضرائب الثقيلة المرهقة .

وفي خلال القرن الثانى من حكم الرومان ( من جلبا الى آخر حكم ماركوس أورليوس أى من ٦٨ — ١٨٠ ) غنى الأباطرة

بالتزام الضرائب لا يتقدمون بعطاءات مرتفعة كالتى كانوا يتقدمون بها في أيام الرخاء كانت الحكومة اما ترغمهم على التعاقد معها بالشروط القديمة أو تجبى الضرائب مباشرة عن طريق جباة تعينهم في مناصبهم قسرا . ويبدو ان الأمر لم يستدع الالتزام في حالة الوظائف الكبرى مثل وظيفتى القائد والكتاب الملكى لكن الحال كانت مختلفة في كل الوظائف الحكومية الصغرى فقد كان يشترط فيمن يتولى كل وظيفة من هذه الوظائف نصاب مالى معين وكلما خلت وظيفة في احدى القرى أو عواصم المديرات كان على كاتب القرية أو كاتب العاصمة أن يرسل الى القائد قائمة بأسماء الأشخاص اللائقين لتولى الوظيفة الشاغرة ، أو بعبارة أخرى أسماء الأشخاص الذين تتوافر فيهم شروط تولى الوظيفة ولا يحق اغفائهم من توليها . وبعد أن يبحث القائد قائمة الأسماء كان يرسلها الى حاكم القسم (epistrategos) الذى تقع المديرية في نطاقه ويختار الحاكم بالقرعة الشخص الذى يتولى الوظيفة الشاغرة . وكان على هذا الشخص أن يشغل المنصب الذى اختير له مدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام . ويرجح أن أولئك الموظفين كانوا يتقاضون أجرا الا انه لم يكن كافيا لمواجهة ما تتطلبه وظائفهم من نفقات . فضلا عن ذلك فانهم كانوا مسئولين بأملكهم بل بأشخاصهم عن كل

المستنيرون بعدم ايهاظ كاهل مصر فاتعشت حالها الاقتصادية بعض الوقت لكن بما انهم لم يعملوا على استئصال شأفة الداء بإصلاح نظام الحكم اصلاحا جوهريا فان الحال لم تلبث أن عادت الى سيرتها الأولى . ومنذ منتصف هذه الفترة بدأت تظهر البوادر التى تدل على أن ثروة البلاد كانت آخذة في التدهور . ولا أدل على ذلك التدهور من التوسع في تطبيق مبدأ الالتزام (Leitourgia) . وقد كان البطالة عادة يمهدون في جباية الضرائب الى ملتزمين يتقدمون طواعية للاشتراك في مزادات تعقد لكل ضريبة على حدة ، وكان المزارعون يقبلون عن طيب خاطر على استئجار أراضي الملك ، اما في أوقات الأزمات فان البطالة لم يحجموا عن ارغام الأشخاص اللائقين على تولى الوظائف أو التزام الضرائب أو استئجار أراضي الملك . غير ان التجاء البطالة الى وسيلة الارغام لم يكن القاعدة السائدة ولم يحدث الا في ظروف استثنائية . واذا كان الرومان قد اقتنوا أثر النظام البطلمى أول الأمر فانهم لم يلبثوا ان طرحوه جانبا وأخذوا يتبعون بالتدريج في خلال القرن الأول مبدأ « الالتزام » وتوسعوا في اتباع هذا المبدأ توسعا كبيرا في خلال القرن الثانى .

وترينا الوثائق البردية انه عندما تدهورت حال البلاد الاقتصادية وكان المشتغلون

ما يحدث من تقصير أو عجز أو خسارة مالية للحكومة . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك القضاء على طبقة الفلاحين الموسرين .

ولكى تتبين لماذا ناء الموسرون بعبء مناصب حكام عواصم المديریات وأخذوا يتهربون من توليها كلما استحكمت حلقات الأزمة الاقتصادية يجب أن نذكر بعض هذه الأعباء . ففي حالة مدير الجينازيوم مثلا كان عليه أن يتحمل ثمن ما يحتاج اليه الجينازيوم من الزيت لتدليك الذين يمارسون الرياضة هناك وكذلك ثمن الوقود اللازم للاستحمام وقد كلف البند الأخير وحده أحد مديري الجينازيوم في خلال العام الذي تولى فيه منصبه ٢٠٠٠ دراخمة. وكان على مراقب التموين أن يتحمل نفقات صيانة طواحين الحبوب والمخازن فضلا عن أى عجز في امداد عاصمته بحاجتها من الحبوب .

وتحدثنا احدي البرديات عن ان مراقبا سابقا للتموين ترك دينا قدره ٢٠٨٠ دراخمة « ثمننا للقمح » الذى اشتراه عندما كان يتولى منصبه . فضلا عن ذلك كان ينتظر من حكام العواصم أو على الأقل كبارهم مواجهة أى نفقات تتطلبها احتياجات مدنهم حتى ولو لم تتصل مباشرة بمهام أعمالهم اذ نعرف مثلا ان كبار حكام ارسينوى كانوا يسهمون شهريا في دفع نفقات المياه التى تحتاجها المدينة . ولا أدل

على ثقل أعباء هذه المناصب مما تحدثنا به الوثائق عن المحاولات التى بذلها شخص يدعى اخيليوس (Achilleus) لكى لا يتولى في عام ١٩٢ منصب مراقب التعليم في هرموبوليس لأن حالته المالية كانت لا تساعده على مواجهة تكاليفها . ويبدو ان تكاليف هذا المنصب كانت باهظة جدا لأن اخيليوس طلب اعفائه من تولى هذا المنصب مع استعداده لتولى منصب exagetes ، على ألا ينفق أكثر من ١٢٠٠٠ دراخمة على أعباء هذا المنصب لكن محاولات اخيليوس ذهبت أدراج الرياح و « توج » في منصبه . وتدل الوثائق على ان أعباء وظيفة مدير الجينازيوم كانت أثقل من أعباء وظيفة مراقب التعليم فقد كانت تبلغ في هرموبوليس بعد الاقتصاد الشديد في النفقات ٢٤٠٠٠ دراخمة . فلا عجب ان ازدادت باطراد صعوبة الحصول على مرشحين لتولى هذه المناصب طواعية مما أفضى تبعا لذلك الى الالتجاء الى الارغام لشغل هذه المناصب وان كانت الحكومة قد حرصت باستمرار على الاحتفاظ بمظاهر التطوع للخدمة وعلى اسدال ستار كثيف حول مناوراتها لارغام ذوى اليسار على شغل هذه المناصب . واذا كانت أعباء المناصب الادارية الصغرى قد قضت على طبقة الفلاحين الموسرين فان أعباء مناصب حكام عواصم المديریات قد قضت كذلك

ذلك انه عندما توسعت الحكومة في الاتجاه الى الارغام لتأجير أراضيها أصبح يتعذر على الأفراد الحصول على مستأجرين لأراضيهم فاضطروا الى اقصاء ايجارها تبعاً لنقص الاقبال على استئجارها .

وليس تاريخ مصر الاقتصادي في خلال القرن الثالث من حكم الرومان ( من كومودوس الى أول حكم دقلديانوس أي من ١٨٠ — ٢٨٤ ) سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر يسير من سيء الى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والتوسع في تطبيق مبدأ الالزام في مختلف النواحي ، مع اهمال نظام الري فازداد حال الزراعة سوءاً وأصبح عملهم غير مثمر حتى ان كثيرين منهم لم يجدوا مناصاً من أن يفعلوا ما فعله غيرهم من قبل أي القرار من مواطنهم مفضلين اما العمل في المدن أجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت مساحات واسعة من الأراضي دون زرع . ما حدا بالامبراطور كركلا الى أن يصدر في عام ٢١٥ . قراراً يقضى بطلب الزراع من الاسكندرية ليعودوا الى الأرض التي هجروها . واذا كان هذا القرار قد نجح في تحقيق الهدف الذي أصدره من أجله فلا بد من أن يكون قد ترتب عليه ارتفاع أجور العمال وتكاليف الانتاج في الاسكندرية . وعلى كل حال نستبعد أن يكون قد نجح طويلاً في وقف تيار الهجرة الى الاسكندرية،

على طبقة الموسرين في تلك العواصم . ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منهم كانوا يؤثرون الفرار من مواطنهم لأنه وان كان فرارهم سيؤدي الى مصادرة أملاكهم فقد كان سيترتب على بقائهم وتولى مناصبهم تحمل متاعب هذه المناصب فضلاً عن تكاليفها التي كانت تستنفذ تلك الأملاك .

وقد امتد الارغام الى تأجير الأراضي كذلك لأنه بقدر ما ساءت حال الزراعة وناه الأهل بالثقل الأعباء المفروضة عليهم حتى فر الكثيرون منهم من قراهم ، ازدادت تبعاً لذلك مساحة أراضي الدولة التي لم يتقدم أحد لاستئجارها وزراعتها . ومع ذلك استبقت الحكومة الضرائب والايجارات بالمعدل القديم ذاته وأخذت تلجأ الى وسيلتين ، واحدها ارغام احدى القرى على زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع ايجارها . اما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضي الدولة بالأراضي الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتأدية ايجارها . وفي هذه الحالة كانت المسئولية أول الأمر مسئولية فردية لكنها غدت مع الزمن مسئولية جماعية . وترينا الوثائق ان ايجار أراضي الأفراد هبط هبوطاً كبيراً في النصف الثاني من القرن الثاني . ولعل تفسير

لتحضير ذلك ، فرفض القرويون الاستجابة الى ما أمروا به ورفعوا شكواهم الى الحاكم العام فنظر القضية في النصف الأول من عام ٢٥٠ . وعندما حاول محامى ارسينوى الدفاع عن تصرفها بقوله : ان القانون الذى يتدرع القرويون بحمايته قد صدر عندما كانت المدن لا تزال تنعم بالرخاء رد عليه الحاكم العام « ان حجة الرخاء ، أو على الأصح تدهوره ، قائمة بالنسبة للقرى والمدن سواء بسواء » ، مما يدل على أن الأزمة الاقتصادية كانت عامة شاملة . ولا أدل على تدهور مرافق البلاد الاقتصادية بوجه عام من تدهور قيمة العملة سريعا في خلال هذا القرن ، فكانت لذلك أيضا آثار بعيدة المدى في الصناعة والتجارة الخارجية فقد صحبه غلاء المعيشة واستبدال نظام الاقتصاد الطبيعى تدريجيا بالنقود . واذا كانت قد بذلت بعض المحاولات في أواخر القرن الثالث على عهد الامبراطور پروبوس ( ٢٧٦ — ٢٨٢ ) لاصلاح وسائل الرى مما أدى الى انتعاش كثير من القرى فان هذا الانتعاش كان محدودا قصير الأمد ولم يفلح في وقف تيار التدهور بدليل انه قد جاء في خطاب رسمى من حوالى عام ٢٨٩ ان منصب « مراقب التموين » فى أوكسيريونخوس بقى شاغرا فترة طويلة قبيل ذلك التاريخ . فلا عجب اذن أن نضب معين البلاد بسبب السياسة الخرقاء التى اتبعها الرومان فى

فقد كان يساعد على هذه الهجرة عاملان رئيسيان وأحدهما حاجة المراكز الصناعية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص الى اليد العاملة ، والعامل الآخر شظف المعيشة وثقل الأعباء وسوء الحال فى المناطق الريفية حيث كان يزيد الحال سوءا على سوء ان الحكومة كانت لا تنقص قيمة الضرائب المطلوبة من مختلف نواحي البلاد حتى بعد فرار الأهالى . وكانت نتيجة ذلك أن أخذت قيمة الضرائب تزداد على من بقوا فى بلادهم بنسبة الذين كانوا يفرون منها وان أمعنت الحكومة فى الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضى المهجورة . ولعل أكبر العيب كان يقع على التاسعين الذين كانوا يرغمون على الاشراف على جباية الضرائب فى قراهم ، اذ أن الحكومة كانت تستولى على ممتلكاتهم حتى تسدد الضرائب جميعها ، وليس أبلغ فى الدلالة على تصوير سوء الحالة الاقتصادية فى خلال القرن الثالث من القرائن المتعددة على اقفار الريف من سكانه ، وما تحدثنا به الوثائق عن فرار المكلفين بتولى المناصب الحكومية المحلية أو تهديدهم بالفرار وعن الصعوبة المتزايدة فى شغل المناصب البلدية ائى حد ان السلطات فى ارسينوى عندما عجزت عن ايجاد المرشحين اللازمين من مواطنيها لشغل المناصب البلدية هناك لجأت الى اجبار القرويين على ذلك برغم القانون الذى كان سيطميوس سفروس قد أصدره

خلال الثلاثة القرون الأولى من حكمهم مما حدا بالامبراطور دقلديانوس الى ادخال تعديلات جديدة على نظام الحكم في مصر . واستكمالا للصورة التي حاولنا اعطاءها لحالة مصر الاقتصادية في خلال العصر الروماني يجب أن نذكر شيئا عن العبيد . وتشير القرائن الى أن نشاط العبيد في الزراعة كان قليلا نسبيا ويكاد أن يكون مقصورا على الضياع الكبيرة وحتى في هذه الضياع لم يستخدم العبيد على نطاق واسع . وكيف يمكن تفسير ذلك في ضوء ما تحدثنا به الوثائق عن فرار الأهالي من الأرض وترك مساحات واسعة غير منزرعة ؟ أو بمعنى آخر لماذا لم يلجأ الناس أو الحكومة الى العبيد لاستثمار الأرض التي هجرها المزارعون الأحرار ؟ لعل خير تفسير لذلك ان الناس كانوا يخشون اضافة تبعات جديدة الى تبعاتهم دون الحصول على ما يعوضهم عن ذلك ، وان الحكومة كانت تفضل الالتجاء الى سلاح الارغام لاستثمار تلك الأراضي فمن ناحية كانت هذه الوسيلة أقل كلفة وأكثر ربحا وأضمن عاقبة من استخدام العبيد ، ومن ناحية أخرى لعل الحكومة كان يراودها الأمل في أن يؤدي اشفاق الهاربين من ازدياد التبعات على ذويهم الذين بقوا في قراهم الى وقف فرار المزارعين .

ويبدو ان مساهمة العبيد في النشاط الصناعي كان مقصورا على المدن الاغريقية وخاصة الاسكندرية ، لكن ليس معنى ذلك أن الصناعة في تلك المدن لم تهم الا على اكتاف العبيد وانما معناه ان العبيد أسهموا مع الأحرار في الصناعة هناك . اما في المراكز الصناعية الأخرى فيبدو بوجه عام انه لم يوجد للعبيد مجال فيها بسبب وفرة اليد العاملة وقلة أجرها ودرايتها المتوارثة بفنون الصناعة . ويبين ان عددا كبيرا من العبيد كانوا يشتغلون خدما في المنازل وكسبة ومحاسبين في المصانع والمتاجر وراقصين وموسيقيين في الفرق التي كانت تجوب البلاد للترفيه عن الناس في الأعياد والحفلات العامة .

وكان العبد يعامل معاملة صاحبه من حيث الضرائب وأعمال السخرة في تطهير القنوات وصيانة الجسور . ولا توجد لدينا أدلة كثيرة عن تجارة العبيد في مصر وان كانت الوثائق تشير الى وجود تجارة نشيطة فيهم والى أن الحكومة كانت تشرف اشرافا دقيقا على تصديرهم وتفرض غرامات معينة على الذين يخالفون تعليماتها . وكانت قيمة العبد تتفاوت تفاوتا كبيرا تبعا لعمره وصفاته ومهارته وكذلك تبعا لنوعه ذكرا كان أم أنثى .

## الفصل الخامس

### النظام المالى

اولا - الادارة المالية :

الذى اقتضاه تغير الظروف . ففي عصر البطالة كان الديويكيتس على رأس الادارة المالية وكان الايديولوجوس مرءوسه المختص بجانب معين من الشئون المالية . أما فى عهد الرومان فقد اتقلت سلطة الديويكيتس الى الحاكم العام وانحط مركزه الى المرتبة الثانية ويرجح أنه أصبح مساويا للايديولوجوس فى مرتبته وان كان يتعذر تحديد الصلة بينهما ومعرفة مدى اختصاص كل منهما لكن يبدو ان الديويكيتس كان الرئيس الفعلى للادارة المالية وان الايديولوجوس كان يختص بالفصل فى قضايا الخزانة العامة ، وبادارة الأراضى التى آلت الى الخزانة العامة وكذلك بالاشراف على أراضى المعابد ودخلها ، ولكى يتاح له الاضطلاع بهذه المهمة الأخيرة كان يحمل لقب كبير كهنة مصر . وعلى كل حال ليس من الاسراف فى رأى اعتبار الديويكيتس والايديولوجوس مستشارى الحاكم الفنين فى الشئون المالية ولا يبعد أنهما كانا يرقبان تصرفاته مراعاة لصالح الامبراطور . وكان هذان الموظفان يشرفان على عدد كبير من المرءوسين الذين كانوا ينتشرون فى مختلف

كان الحاكم العام يرأس الادارة المالية فى مصر مثل ما كان يرأس كافة فروع الادارة الأخرى ولم يكن من اختصاصه تحديد مقدار الجزية التى تدفعها مصر فقد كان من اختصاص الامبراطور الذى كان يقرر سنويا مقدار الدخل ويصدر أوامر مفصلة عن كيفية جمعه وكانت هذه الأوامر توجه الى الحاكم العام فيبلغها الى قواد المديرىات وسائر المختصين فى المدن والقرى ، ويسهر على تنفيذها . لكن لما كان الحاكم العام مسئولاً آخر الأمر عن جمع الضرائب وموافاة روما بنصيبها وكانت تطراً عوامل فوق طاقة البشر تؤثر فى المحصول وتستتبع اقص الضرائب فانه أوكل الى الحاكم ربط الضرائب فى كل منطقة وتعديلها تبعاً لمقتضيات الأحوال على ضوء التقارير التى كانت ترفع اليه من المختصين . وكان للحاكم العام مساعداً رئيسيان فى الشئون المالية وهما الديويكيتس والايديولوجوس اللذان يبدو جليا أنهما ورثا لقبهما من عصر البطالة وان كان قد طرأ على اختصاصاتهما بعض التغير

وكانوا يختصون بالبيانات المتعلقة بساحة الأراضى وحدودها وانتقال ملكيتها أو تغيير غلتها من أجل تقدير الضرائب على الأراضى . وتحدثنا الوثائق عن اشتراك الموظفين الأخيرين في لجان يبدو انها كانت تولى سنويا من السكان المحليين لبحث حالة الأراضى بعد الفيضان وتقدر الضريبة المستحقة عليها .

وقد ذكرنا آفا انه بعد انشاء مجالس الثورى في عواصم المديرىات انتقل الى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشؤون المالية فى المديرية بأجمعها .

### ثانيا - هدف النظام المالى :

وتختلف القواعد التى أقام عليها الرومان نظامهم المالى فى مصر اختلافا جوهريا عن القواعد التى اتبعها البطالمة وذلك لمدة أسباب أهمها أولا ان البطالمة كانوا يستهدفون بناء دولة قوية غنية فى مصر تكفى نفسها بنفسها وتستطيع الذود عن حياض استقلالها السياسى والاقتصادى فكانوا يريدون ملء خزائهم لتحقيق أهداف سياستهم وسد تكاليف حكومتهم وثققات قصورهم وتبعا لذلك كانوا ينفقون فى مصر أكثر ما يجمعونه منها . اما على عهد الرومان فان مصر غدت جزءا من امبراطورية تحكم من روما وكان الأباطرة يستهدفون تقوية مركزهم وتقوية الامبراطورية وملء خزائن

أنحاء البلاد لكنهم يقفون على اتصال مباشر بالادارة المالية المركزية فى الاسكندرية ، واذا كان من الممكن تبين مهام بعض هؤلاء المرءوسين مثل پروكوراتور (procurator) نياپوليس وكان يشرف على نقل القمح من داخل البلاد الى المخزن العام على مقربة من الاسكندرية توطئة لشحنه الى روما ، ومثل پروكوراتور أو سياكوس (procurator usiacus) ، وكان المساعد الأول للإيدولوجوس فى الاضطلاع بمهام منصبه ؛ فانه يتمتع معرفة اختصاص البعض الآخر من هؤلاء المرءوسين .

وقد سبقت الاشارة الى أن قائد كل مديرية كان مسئولا عن تقدير الضرائب وجمعها واستغلال أراضى الحكومة واحتكاراتها فى مديريته والى انه كان لكل مديريةية نورمارخيان كانا يشرفان على تقدير وجمع مختلف الضرائب فى المديرية . وكانت الادارة المالية المركزية فى الاسكندرية هى التى تقدر فئات الضرائب المختلفة التى تجبى من كل مكان وشخص فى مصر على ضوء البيانات التى يقدمها كاتب القرية والكاتب الملكى فى المديرية ويراجعها النورمارخيان والقائد بعد أن يحصها عدد من عمال المالية المحليين مثل ال epikretes وال taographos وكانا يختصان ببحث حالة الأشخاص الذين تفرض عليهم ضريبة الرأس وال geometres وال horiodeiketes وال episkeptes .

وكل ما يمكننا استنتاجه من أكداس الوثائق عن هذا النظام يتلخص في تقسيم الأراضي على النحو التالي في ضوء معلوماتنا الحالية :

١ - أراضي الدولة ، وكانت تتألف من فئتين من الأراضي احدهما « الأراضي الملكية » التي كانت فيما سبق ملكا للبطالة وأصبحت منذ الفتح الروماني أرضا أميرية تملكها الدولة . وكانت الفئة الأخرى عبارة عن الأراضي التي انتزع الأباطرة ملكيتها من المعابد ومن بعض أرباب الاقطاعات العسكرية ومن بعض الرومان أصدقاء انطونيوس . وقد كان يباع جانب من هذه الفئة من الأرض ويفرض عليه من الضرائب ما كان يفرضه على أراضي أرباب الاقطاعات وغيرها من أراضي الامتلاك الخاص لكنه كان يحتفظ بالجانب الأكبر من هذه الفئة من الأرض ويطلق عليه اسم « الأراضي العامة » (ager publicus) . وكان الديويكيتس يشرف على ادارة « الأراضي الملكية » والايديولوجوس على ادارة « الأراضي العامة » وكان هذان الموظفان يؤجران هذه الأراضي الى مستأجرين اما يقومون بأنفسهم على استغلالها أو يؤجرونها من الباطن . وترينا كثير من عقود الايجار انها كانت لمدة خمس سنوات . وكان مزارعو « الأراضي الملكية » يدعون « المزارعين الملكيين » ومزارعو « الأراضي العامة » يدعون « المزارعين العموميين » الا انه بمرور

روما بعد أن نضب معينها من جراء الحروب الأهلية وتدهور حالة ايطاليا الاقتصادية بوجه عام والزراعة بصفة خاصة فعللوا على استغلال مصر الى أقصى حد ونقل جانب كبير من ثروتها الى روما لتحقيق تلك الأهداف . والسبب الثاني ان البطالة كانوا يستمدون جانبا كبيرا من دخلهم من الحرف والصناعات الكثيرة التي احتكروها وكذلك من المكوس والعوائد الجمركية التي فرضوها على الواردات . اما الرومان فكانوا يريدون ارضاء الطبقات الاجتماعية الجديدة في ايطاليا من أصحاب رءوس الأموال الذين كانوا يستغلون ثروتهم في الصناعة والتجارة ويتطلعون الى استغلال السوق المصرية . فلا عجب ان النظام المالي الذي وضعه الرومان لمصر لم يكن الا اداة لاعتصار ثروة البلاد بطريقة أو أخرى ، وانه لم يكن من شأن التعديلات التي أدخلت على تطبيق هذا النظام الا جعله أشد فتكا وضراوة كلما ازدادت البلاد فقرا .

### ثالثا - نظام الأراضي :

ولكى تتبين موارد الدولة من الزراعة يجب أن نأتى أولا على نظام الأراضي . ولا يقل نظام الأراضي في عهد الرومان تعقيدا عنه في عهد البطالة . وان كان قد احتفظ ببعض مظاهر النظام القديم فانه قضى على بعضها الآخر وأدخلت عليه مظاهر جديدة .

الزمن زالت الفوارق بين الفريقين وأصبح اللقب الثاني يطلق على جميع مزارعى هذه الأراضى كافة . وقد كان يحق للدولة طرد المستأجر فى أى وقت تشاء ولأى سبب تراه . وإذا لم يتقدم أحد لاستئجار بعض هذه الأراضى كانت الحكومة تلجأ الى وسيلة من اثنتين واحدهما ارغام احدى القرى على زراعة الأراضى غير المستأجرة الموجودة فى قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضى ودفع ايجارها وضرائبها . أما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضى الدولة بالأراضى الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضى على زراعة تلك القطع وتأدية ايجارها وضرائبها .

٢ — أملاك الأباطرة الخاصة ،

(oustiake gé) ، وكانت تتكون من الأراضى التى كان البطلمة قد أعقدوها على أصحاب الحظوة لديهم وانتزعتها بأباطرة القرن الأول منهم ، ويرجح انهم احتفظوا ببعضها ومنحوا البعض الآخر لنفر من كبار الرومان . وقد كان بعض من تمتعوا بهذه المنح أفراد من أسرة الامبراطور مثل دروسوس وزوجته ، وأصدقاء الامبراطور مثل ميكناس ، وأفراد من الأسرة المالكة فى جودايا ، وكذلك بعض أعيان الاسكندرية . وقد كانت هذه الأراضى المنوحة فى أغلب الأحيان مغفأة من الضرائب .

ومنذ النصف الثانى من القرن الأول الميلادى أخذ الأباطرة يستردون أغلب تلك المنح لأنهم رأوا ان فى منح نبلاء الرومان هبات واسعة ما يساعد على تقوية شوكتهم ويجعلهم فى مركز يهدد سلطان الامبراطور بل قد يصل بهم الى حد التطلع الى العرش ، كما رأوا بوجه عام ان منح الأراضى لأشخاص يقيمون بعيدا عنها يؤدي الى اهمال الأرض وتقص غلتها فلم يأت عهد تيتوس حتى كان أغلب هذه الأراضى — ان لم يكن كلها — قد عاد الى حوزة الامبراطور . وقد اتبع الأباطرة سياسة جديدة بمنح طائفة من المزارعين حق استغلال تلك الأراضى لمدة طويلة . وكانوا يرمون من وراء ذلك الى تحقيق غرضين : وأحدهما ، ايجاد طبقة من المزارعين الموسرين تسند اليهم المناصب ؛ والآخر ، الاطمئنان الى حسن استغلال الأراضى وما يتبع ذلك من ازدياد دخل الحكومة .

٣ — أراضى الامتلاك الخاص (iudotike ge' ouscai) وكانت تتكون من عدة فئات:

أ — الاقطاعات العسكرية التى لم تنتزع ملكيتها ولا يعرف بعد الأساس الذى اتبع فى نزع أو تثبيت ملكية أراضى أرباب الاقطاعات . وكل ما نعرفه هو ان جانباً من هذه الأراضى بقى فى قبضة أشخاص مختلفين كان امتلاك تلك الأراضى يعطيهم حق الاعفاء من الخدمة فى الجيش الرومانى ومن ضريبة

في عهد اغسطس ، انتزع ملكية جميع أراضي المعابد وأصبحت جزءا من «الأراضي العامة» وإذا كان لا شك في ان ملكية جانب كبير من أراضي المعابد قد انتزع ، فان الأرجح أن أغلب ما انتزع ملكيته كان من الأراضي التي منحها البطلمة الأواخر للمعابد وكان الكهنة أنفسهم يقومون بإدارتها ، أما الأراضي المقدسة القديمة فقد بقيت ملكا للمعابد إلا أن الحكومة هي التي كانت تتولى ادارتها على نحو ما كانت عليه الحال في الشطر الأول من عصر البطلمة ، لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من الأراضي المقدسة لسد حاجات المعابد ، وكانت الحكومة تجبي ضرائب محددة عن هذا النوع من الأرض في حين ان ذلك الجزء من أراضي المعابد الذي انتزع ملكيته كان يؤجر مثل غيره من أراضي الدولة ولم تحصل الحكومة منه الا على الأيجار .

٥ — أراضي الدخل *prosodou ge* ويمكن ارجاع نشأة هذه الفئة من الأراضي الى منتصف القرن الأول على الأقل لكن ماهيتها مازالت مثار الجدل بين الباحثين . ومع ذلك يبدو محتملا انها كانت أراضي آلت الى التاج ملكيتها أما مؤقتا أو دائما لسبب أو لآخر وكانت تؤجر مثل أراضي الدولة وانما لقاء ايجار مرتفع جدا .

٦ — أراضي المدن ، ويرجح أن هذه الأراضي كانت تتكون من الأراضي التي كان يملكها مواطنو تلك المدن وآلت الى مدنها

الرأس ومن الارغام على استغلال الأراضي الملكية أو العامة المجاورة لهم اذا لم يتقدم أحد لاستئجارها . وكان عليهم عند انتقال ملكية ما بيدهم من أراض ان يدفعوا ضريبة خاصة (*katolochismos*) ، وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون الضرائب التي فرضت عليها منذ عهد البطلمة .

ب — الاقطاعات التي منحت لقدماء المحاربين الرومان .

ج — الضياع التي كان الأباطرة في بعض الأحيان يقتطعونها من أراضي الدولة وينحونها لبعض الأفراد مع احتفاظ الدولة بحق اسمى للملكيتها . ويصعب تحديد كيفية معاملة هذه الضياع من حيث الضرائب لكن يرجح أنها لم تدفع جميعا الضرائب بمعدل واحد وان هذا المعدل كان يتوقف على شروط المنحة في كل حالة .

د — جانب من الأراضي التي انتزعت الدولة ملكيتها وباعتها .

ويبدو ان نطاق أراضي الامتلاك الخاص قد اتسع تدريجيا ولا سيما في القرنين الثاني والثالث . ولعل توسع الحكومة في الزام الأهالي بتولى المناصب قد شجع هذا الاتجاه اذ كان يتعين على الذين يتولون المناصب ان تكون لديهم أملاك خاصة اذا أريد تحميلهم تبعة عدم النهوض بالتزامات مناصبهم .

٤ — أراضي المعابد ، يرى بعض المؤرخين ان بطرونيوس ، ثالث حكام مصر

بسبب اقراض نسل أصحابها أو تركهم إياها هبة لتلك المدن والقرى ، ففي القرن الثاني كانت مدينة الإسكندرية تملك أرضا قرب قرية يوهمريا في الفيوم ، وفي القرن الثالث كانت كل من مدينتي ارسينوى وهرموپوليس ماجنا تملك أرضا . وكانت هذه المدن تؤجر أراضيها وتعتبر مسئولة عن الضرائب المستحقة عليها أمام حكومة المديرية التي توجد فيها الأراضي شأنها في ذلك شأن الأفراد الذين يملكون أراضي ويؤجرونها .

وقد كان دخل الدولة من الأراضي يتألف من ايجار أراضيها ومن الضرائب التي كانت تفرضها على أنواع الأراضي الأخرى وبعض الضرائب التي كانت تفرضها على أراضيها . وكانت الضرائب التي تفرضها الدولة على الأراضي تتوقف على نوع المزروعات ومقدار جودة الأرض وحالة فيضان النيل . ولذلك كانت الأراضي تقسم قسمين رئيسيين واحدهما أراضي البساتين والآخر الأراضي الزراعية . وكان القسم الأخير ينقسم أيضا قسمين أحدهما الأراضي التي تغمرها المياه والآخر الأراضي التي لا تغمرها المياه . ولا جدال في أن الأراضي التي تغمرها المياه كانت عبارة عن الأراضي التي تقع في الحياض وتغليها مياه الفيضان . اما القسم الآخر فأغلب الظن انه كان عبارة عن أراضي تقع في الحياض ولكنها مرتفعة فلا تصلها المياه اذا كان منسوب الفيضان واطسا ، لكن بعض

الباحثين يرى انه من الجائز أن هذه الأراضي أو بعضها كانت تقع خارج الحياض وتروى ريا دائما

ومن أجل ذلك كله كان كاتب القرية مكلفا باعداد سجل بكافة أنواع الأراضي التي في زمام قرينته وبموقع كل نوع منها ومساحته وأربابه ومقدار استحقاق الحكومة من ايجارات أو ضرائب عن كل قطعة أرض في منطقته وكذلك باعداد تقرير سنوي عن محاصيل تلك الأراضي وعما كان يطرأ على حالها من تغيير . وكان السجل يراجع سنويا لجعله مطابقا للواقع . وتوجد أمثلة كثيرة لالتماسات قدمها أصحاب الأراضي أو مستأجروها يصفون فيها حالة أراضيهم ويطلبون تخفيض ايجار أو الضرائب بسببها . وفي الظروف غير العادية مثل تأخر الفيضان عن مواعده أو هبوطه دون منسوبه العادي كان الحاكم العام يصدر تعليمات لتقديم مثل هذه الالتماسات وكانت توجه للقائد أو الكاتب الملكي أو كاتب القرية . وكان كاتب القرية أو شيوخها يقومون ببحث أولى يقدم على أثره كاتب القرية تقريرا عن حالة أراضي قرينته والضرائب أو ايجارات المستحقة من كل جزء منها . وكان هذا التقرير يتخذ أساسا للفحص الذي تقوم به لجنة تشكل لهذا الغرض وتقدم لكاتب القرية تقريرا بنتائج عملها فيقوم بتعديل سجله وفقا لهذا التقرير ويبلغ النتيجة للقائد

والكاتب الملكى لتصحيح قوائم الضرائب والايجات .

ويبين من القرائن المختلفة ان كاتب القرية كان يعتمد على جهوده الشخصية لجعل سجلاته مطابقة للواقع من حيث التغييرات فى ملكية الأراضى أو استئجارها أو مستأجريها .

وكانت أهم ضرائب الأراضى هى ضريبة الحبوب وكانت تجبى نوعا من كل ما يزرع حبوبا من أراضى الامتلاك الخاص وأراضى المدن والأراضى المقدسة التى كان الكهنة يقومون على استقلالها ، وكان دخل هذه الضريبة يكون جانبا من جزية القمح التى كانت مصر تدفعها لروما . وكان دخل الدونة من ايجار أراضيهما يدفع أيضا نوعا ويكون الجزء الباقى من الجزية . وكان معدل هذه الضريبة يتراوح بين ثلاثة أرباع الأردب وأردبين عن كل أرورة تبعا لحالة الأرض والنوع الذى تنتمى اليه . وكان على الزراع أن ينقلوا كل محصولهم الى جرن القرية حيث يدرس تحت اشراف موظفى الحكومة وشيوخ القرية وبعد حصول الدولة على استحقاقها من ضرائب أو ايجارات كان يطلق سراح باقى المحصول لكن المزارعين كانوا مسئولين عن نقل استحقاقات الدولة الى المخزن المحلى للقمح تمهيدا لنقله الى الاسكندرية ولا تنتهى مسئوليتهم الا بعد حصولهم من أمين المخزن (Sitologos)

على اىصال باستلام المستحق عليهم . وكان نقل القمح يتطلب جمالا وحميرا لنقله من المزارع الى المخزن المحلى ثم من المخزن الى أقرب مجرى مائى حيث كانت تحمله سفن صغيرة الى النيل فتقوم بنقله سفن كبيرة الى الاسكندرية . وكانت الدونة تملك بعض دواب الحمل لكن يبدو انها لم تكف لسد الحاجة فى وقت المحصول ولذلك كانت السلطات المحلية تفرض على أصحاب الجمال والحمير والسفن الصغيرة أن تضع تحت تصرفها ما يكفيها من هذه الوسائل لنقل القمح الى النيل حيث كانت تتولى أمر شحنه ونقله منظمات الملاحين تحت اشراف الحكومة التى كانت تلزمهم بذلك ويبدو ان اليهود والاسكندريين كانوا يسهمون فى هذه العملية . ولكى تتبين ضخامة هذه العملية حسنا أن نذكر انه فى عام ٤٢ نقل من أحد أقسام مديرية الفيوم ربع مليون أردب من القمح ، وانه فى عهد أغسطس كان مقدار الجزية النوعية التى تدفعها مصر سنويا يبلغ عشرين مليون (modii) ، أى ستة ملايين أردب . وفى كل ربيع كانت نقابات أرباب السفن فى الاسكندرية تتولى نقل هذه الجزية النوعية من الاسكندرية الى روما . وليس من اليسير أن تتبين على وجه الدقة من الذى كان يتحمل نفقات نقل الايجارات والضرائب النوعية من المزارع حتى تصل الى روما لكن يبدو أن مستأجري

أراضي الدولة وأرباب الأراضي كانوا يتحملون ثقلات النقل حتى النيل على حين كانت الحكومة تتحمل ثقلات النقل من الموانئ النيلية حتى المخزن الرئيسي عند الاسكندرية ومن هناك الى روما .

وكان الذين يفلحون أرضهم بساتين أو كروما أو تينا أو بلحا أو زيتونا يخضعون لسلسلة من الضرائب تدفع تقدا . وكانت إحدى هذه الضرائب (geometria) تدفع في الفيوم بمعدل ٥٠ دراخمة عن كل أرورة من أراضي الكروم و ٢٥ دراخمة عن كل أرورة من باقى أنواع أراضي البساتين . لكن هذا المعدل لم يكن واحدا في كل مكان ولا على كل نوع من أنواع الأراضي التي تدفع هذه الضريبة . وكانت أراضي البساتين تدفع ضريبة أخرى (apomoira) لا نعرف شيئا عن معدلها في مصر العليا لكننا نعرف انه كان في الفيوم ٣٠٠٠ دراخمة بروونزية عن كل أرورة من أراضي الكروم و ١٥٠٠ دراخمة عن كل أرورة من باقى أنواع أراضي البساتين . وعندما كانت هذه الضريبة تجبى بالعملة الفضية كان هذان المبلغان يعادلان على التوالي عشر دراخمات وخمس دراخمات فضية . وكانت تجبى عن كافة أراضي البساتين سواء آكانت ملكا للدولة أم للأفراد ضريبة ثالثة (eparourion) بمعدل واحد قدره ٢٠٠٠ دراخمة بروونزية ( أى ٦ دراخمة فضية ) عن كل أرورة من هذه

الأراضي باستثناء الأراضي المغروسة بأشجار الزيتون فانها كانت تدفع ألف دراخمة عن كل أرورة .

وكانت تفرض على كافة أنواع الأراضي، ما عدا الأراضي المقدسة فيما يبدو ، ضريبة (naubion) كان مقدارها لا يحدد تبعا لنوع غلة الأرض وانما تبعا لنوع ملكيتها . وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون هذه الضريبة لقاء اعفائهم من العمل شخصيا في السخرة على الجسور والقنوات . وترينا الوثائق انه في مديرية الفيوم كان أرباب الاقطاعات يدفعون ١٠٠ دراخمة بروونزية عن كل أرورة وباقى أرباب أراضي الامتلاك الخاص يدفعون ١٥٠ دراخمة بروونزية عن كل أرورة لكن إحدى وثائق أوكسيرينخوس من عام ١٠٧/١٠٨ ترينا ان معدل هذه الضريبة كان ٢٠٠ دراخمة عن كل أرورة . ويستوقف النظر ان مزارعى الأراضي الملكية كانوا يدفعون أيضا ١٥٠ دراخمة عن كل أرورة مما يوحي بأن هذه الفئة من المزارعين كانت تعفى من السخرة لقاء دفع هذه الضريبة التي لم تكلف بها الحكومة الرومانية من أجل انشاء وصيانة الجسور والقنوات . فقد كانت تفرض لهذا الغرض أيضا ضريبة (chomatika) بمعدل ثابت قدره ٦ دراخمات و ٤ أوبول على كل شخص غير معفى من الضرائب .

وازاء الصلة الوثيقة بين الزراعة

الا تحقيق هذا الهدف . ومن أجل ذلك كانوا يتبعون ثلاث وسائل فقد كانوا اما يختكرون بعض الصناعات والحرف اختكارا كاملا أو يبيعون لأحد الأفراد حق اختكار مزاولة صناعة أو حرفة ما في منطقة بعينها ، أو يسمحون لمن يشاء مزاولة صناعة أو حرفة بذاتها ويفرضون عليهم أداء ضريبة عن مزاولة عملهم ودفن نسبة من أرباحهم . وفي الحالة الأخيرة كان لا يحدد عدد المشتغلين في كل صناعة أو حرفة الا عاملان كان أحدهما مقدرة كل منطقة على استيعاب انتاج أرباب الحرف والصناعات هناك . وكان العامل الآخر تقابلات أرباب الحرف والصناعات فقد درجت تقابلات أرباب كل حرفة أو صناعة على تحديد عدد المشتغلين بهذه الحرفة أو الصناعة .

وما زال تنظيم الحرف والصناعات في مصر أيام الرومان مثار جدل وخلاف بين العلماء بسبب قلة الأدلة وغموضها بحيث يتعذر الوصول الى نتائج قاطعة في ضوء معلوماتنا الحالية . واذا كان يمكن القول بوجه عام بأنه في العصر الروماني اتبعت الحكومة في تنظيم واستغلال الحرف والصناعات الوسائل ذاتها التي كانت متبعة من قبل في عصر البطلمة فلا جدال في أنه قد طرأت بعض التغييرات على تلك الوسائل ، ولا في أن الحكومة نزلت عن عدد كبير من اختكاراتها الكاملة في عصر البطلمة ، فقد أورد هايشلهام قائمتين بالاختكارات الكاملة

والحيوان لعل هنا أنسب مكان للكلام عن موارد الحكومة من الحيوان في العصر الروماني . وقد مر بنا ان الدولة كانت تملك دوابا للحمل وليس في الوثائق ما يدل على ان الحكومة كانت تؤجر هذه الدواب للأفراد . وكانت الدولة تملك أيضا عددا كبيرا من الأغنام والماعز تشير الأدلة الى أن الحكومة كانت تؤجرها لمستأجري أراضيها لقاء أجر معين سنويا . وكذلك في القرن الثالث عندما أخذت الضياع الكبيرة تمتص الملكيات الصغيرة وتلك الأجزاء من أراضي الدولة التي أصبح يتعذر استغلالها استغلالا مشرا كان أصحاب هذه الضياع يؤجرون أغنامهم ومعيزهم لمستأجري أراضيهم. ويتبين من الوثائق ان عامة الأهالي كذلك كانوا يملكون الكثير من الحيوانات المستأنسة وانه كان يتعين عليهم أن يقدموا سنويا للإدارة المالية في المديرية التي يعيشون فيها تقريرا عما يملكونه منها وان الحكومة كانت تجبي ضرائب على الأغنام والماعز والخننازير والجمال والمعجول والحمير والخيول بمعدل معين في كل مديرية عن كل رأس من كل نوع .

#### رابعا - الحرف والصناعات :

لما كان هدف البطلمة هو أن يستمدوا من الصناعات والحرف أكبر قدر ممكن من الدخل فانه لم يبل سياستهم في تنظيمها

أو المعابد وإلى أن المنتجين بوجه عام كانوا يقومون بدور تجار التجزئة . ويرى بعض الباحثين أن سيطرة الحكومة على هذه الصناعة في الفيوم كانت لا تتعدى التزام المنتج الذي يريد بيع زيتة أن يحصل على ترخيص بذلك من النوماخ . والواقع أننا نعرف أن صاحب معصرة زيت في قرية هرقليا بالفيوم دفع لقاء حق البيع في عام واحد ٨٠ دراهمة فضية و ٨٠ أوبول إلى جانب بعض الرسوم الإضافية . لكن الوثائق ترينا أيضا أنه كانت تجبى أكثر من ضريبة واحدة على صناعة الزيت في الفيوم وغيرها من أنحاء البلاد . وإذا كنا نعرف أن إحدى هذه الضرائب كانت تجبى عن الأدوات المستخدمة في استخراج الزيت فإنه يتعذر معرفة ماهية البعض الآخر . ولا يبعد أن الحكومة كانت تبيع الاشتغال بصناعة الزيت لمن يشاء على أن يدفع على الأقل ضربتين كانت أحدهما ضريبة مزاوله هذه الصناعة وكانت الأخرى ضريبة على الإنتاج وتقدر على أساس الأدوات المستخدمة في ذلك ، هذا إلى جانب ضريبة عن الترخيص ببيع الإنتاج .

وتشير الأدلة إلى أنه في بداية العصر الروماني كانت بعض مستنقعات الدلتا في حوزة الأفراد وإلى أنه في الفيوم كانت بعض المستنقعات على الأقل تكون جزءا من ضيعة الامبراطورة يوليا أغسطا وورثة جرمانيكوس ويتبين من الوثائق أن الامبراطورة كانت

في هذين العصرين ويشين من هاتين القائمتين أن عدد هذه الاحتكارات كان تسعة عشر في عصر البطالمة وأحد عشر في العصر الروماني . وعلى كل حال فإن قلة الأدلة عن نظم الاحتكارات في العصر الروماني يوحى بتناقص أهميتها في هذا العصر .

وليس في الأدلة ما يشير الشك في أن الحكومة الرومانية اقتفت أثر البطالمة في احتكار استغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والصبودا (nitron) والشبهه (alus) ، ولدينا أدلة محدودة على أن الرومان كانوا كالبطالمة يفرضون ضريبة على المستهلكين لقاء حق شراء الملح . ويبدو أنه حينما كانت تجبى ضريبة لقاء استهلاك سلعة من السلع كانت الحكومة تحتكر صنع هذه السلعة أو استخراجها في تلك المنطقة . ويبدو أن صناعة الجعة في عصر البطالمة اتخذت بالتدريج شكل نظام يقوم على بيع حق إنتاجها للأفراد أو المعابد وفرض ضريبة على المستهلكين ، وأن هذا النظام ظل قائما في العصر الروماني وأن كانت الدولة لم تعد تمد صناع الجعة بما كانوا يحتاجون إليه من الشعير على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة .

وتوحى الأدلة بأنه في العصر الروماني لم تمد الحكومة تحتكر صناعة الزيت احتكارا كاملا على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة ، فكل ما لدينا من الأدلة يشير إلى أن معاصر الزيت كانت ملكا للأفراد

ترخيص لمزاولة المهنة لكنهم لا يتفقون على الأساس الذي كانت هذه الضريبة تربط بمقتضاه ولا على تفسير ما يبدو في الوثائق من تفاوت في قيمة هذه الضريبة من مديرية الى أخرى . ولما كانت أقمشة الفيوم تلعب دورا هاما في الصادرات الى البلاد الشرقية على حين انه لم يرد ذكر أقمشة الوجه القبلي في التجارة الخارجية فان أحد الباحثين لا يستبعد أن الانتاج من أجل التصدير فقط كان يخضع لرقابة المشرف على الأنوال وقد كنا نقبل هذا الرأي لو أن المشرف على الأنوال لم يوجد الا في الفيوم وحدها لكننا وجدناه في الوجه القبلي كما مر بنا ذكره . ومن ناحية أخرى تبين من وثائق لم يعثر عليها في الفيوم فحسب بل أيضا في أوكسيرينخوس وهرموبوليس ان الحكومة كانت تفرض على المشتغلين بالنسيج في كل منطقة امدادها بقدر معين مما تحتاج اليه من ملابس لرجال الجيش والشرطة وغيرهم لقاء أجر معين ، مما يوحي بأن هذه التبعة لم يتحملها الناسجون في مديرية بعينها فقط وانما في كل أنحاء البلاد . واذا كان ما لدينا من أدلة لا يدع مجالاً للشك في اشراف الحكومة على صناعة النسيج واستغلالها استغلالا كبيرا فان غموض الأدلة لا يدع مجالاً لتبين أمر تنظيمها الذي يبدو انه كان أكثر تعقيدا من صناعة الدباغة التي كانت تتصل بها اتصالا وثيقا ويبدو ان الحكومة كانت تبيع لشخص

تبيع منتجات هذه المستنقعات عن طريق ملتزم كان يشتري منها حق بيع هذه المنتجات وكان هذا الملتزم يبيع حقه لآخرين ، وان هذا النظام ظل متبعا بعد أن آلت ضيعة الامبراطورة الى التاج . ويتبين من الوثائق أيضا ان الحكومة كانت تجبي ضريبة على الورق في الفيوم وفي الاسكندرية . ولا يبعد أنه مثل ما كانت عليه الحال في الشطر الثاني من عصر البطلمة كانت توجد في العصر الروماني مصانع حكومية وكذلك مصانع أهلية للورق وان هذه المصانع الأخيرة كانت تبتاع من الحكومة حق مزاولتها هذه الصناعة .

وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار في مصر لكن أمر تنظيمها يكتنفه غموض شديد وان كنا نعرف انه في الوجه القبلي كان المشرف على الأنوال (hisonarch) يعطى للناسجين تراخيص باقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وان شخصا يدعى هرون قدم طلبا الى « اسيون والتسعة المشرفين الآخرين » على تأجير احتكار الدباغة للحصول على حق الاشراف لمدة عام واحد على الأنوال في قرية ارخلائس (Archelais) بالفيوم لقاء أجر قدره ٣٠٠ دراخمة فضية تدفع على أقساط شهرية متساوية الى جانب بعض الرسوم الاضافية . ونعرف كذلك ان الناسجين سواء في الفيوم أم في مصر العليا كانوا يدفعون على أقساط شهرية ضريبة يميل أغلب المؤرخين الى اعتبارها ضريبة

كانت تباع حق مزاولة الصيد في كل منطقة وكذلك كان الذين يشتغلون بالملاحة في النيل يتناعون من الحكومة حق مزاولة عملهم في منطقة معينة .

ولا يتسع المقام هنا لتناول مختلف الصناعات والحرف ويبدو أن كل ما يمكن استخلاصه من الأدلة هو أنه إذا كانت الحكومة الرومانية قد نزلت عن كثير من الاحتكارات التي كانت قائمة في عهد البطالمة فإنها قد احتفظت ببعض هذه الاحتكارات وظلت على كل حال قابضة على ناصية مزاولة الحرف والصناعات المختلفة إلى حد أنه كان لا يتيسر لأحد مزاوله أى حرفة أو صناعة إلا بترخيص من الحكومة أما لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء أجر ثابت ، وفي بعض الحالات لقاء الاثنيين معا . وكانت الحكومة أما تعطى الترخيص مباشرة للذين يزاولون بأنفسهم أى حرفة أو صناعة أو تؤجر حق مزاوله صناعة أو حرفة ما أى بمباراة أخرى حق احتكار تلك الصناعة أو الحرفة في مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة من الأشخاص لقاء ما كانت تحصل عليه لو أنها منحت التراخيص لأفراد مختلفين في ذلك المكان . وكان هؤلاء المستأجرون أما يباشرون بأنفسهم حق مزاوله الحرفة أو الصناعة أو يؤجرون ذلك الحق من الباطن . وجملة القول ان كل من كان يزاول أى حرفة أو صناعة كان يدفع عنها للحكومة

واحد أو أكثر حق الاشتغال بها في منطقة بعينها . ويلوح ان ذلك كان الحال أيضا في صناعات الآجر والحلى الذهبية والعطشور والمساحيق . فالوثائق تحدثنا عن تعهد شخص بأن يدفع للحكومة ثمانين دراخمة فضية إلى جانب بعض الرسوم الاضافية نظير حق صنع وبيع الآجر لمدة سنة في كركتويرس (kerkethoeisr) بالفيوم مع السماح له باعطاء هذا الحق لآخرين ، وعن رجلين كانا يدفعان للحكومة ٢٦٤ دراخمة فضية سنويا نظير صناعة الحلى الذهبية في يوهيميريا (Euhemeria) بالفيوم لمدة أربع سنوات ؛ وعن رجل يدعى كاستور كان قد اشترى من الحكومة نصف الحصص في حق بيع العطور وصنع المساحيق في اقليم ثيمستس بالفيوم فتقدم إليه رجل يدعى سارايون ليشتري منه ربع هذا الحق باستثناء حق البيع في أيام السوق والأعياد .

وكانت الحمامات العامة في الوجه البحرى ملكا للأهالى أو البلديات أما في الوجه القبلى فكانت تملكها الحكومة أو تسيطر عليها المعابد . وفي الوجه البحرى كان أصحاب الحمامات يدفعون للحكومة ضريبة قدرها ثلث الأرباح أو ثلث الدخل أما في الوجه القبلى فكان الأهالى يدفعون ضريبة ثابتة لمواجهة نفقات الحمامات العامة وصيانتها .

والأدلة الخاصة بصيد الأسماك مقصورة على منطقة الفيوم ويتبين منها أن الحكومة

الغرب ، لكننا نميل الى الاعتقاد ان الحال استمرت طوال العصر الروماني على ما كانت عليه أيام استرابون . وذلك لأن مصر بفضل غنى مواردها الطبيعية لم تفتقر الا الى الأخشاب الجيدة والمعادن وتبعاً لذلك اقتصرت وارداتها من الغرب بوجه عام على هذه المواد فضلاً عن بعض أدوات الترف . أما صادرات مصر الى بلاد البحر الأبيض المتوسط فانها كانت تشمل الى جانب السلع الشرقية مقادير مختلفة من منتجاتها الصناعية مثل الورق والزجاج والمنسوجات والعقاقير ، ومن منتجاتها الزراعية مثل الزهور والبلح فضلاً عن الحمام والمواشى من أجل تقديم اقرباين وكذلك التماسيح وعجول البحر وغيرها من الحيوانات المائية من أجل الاستعراضات . ويحتمل أن مصر كانت تصدر كذلك جانباً من حبوبها علاوة على الجزية السنوية التي كانت روما تقتضيها منها .

ويجب ألا يفوتنا أن الجزية النوعية والمالية كانت تلقى على موارد البلاد عبثاً ثقيلاً كان لا بد من أن يؤدي سريعاً الى فضوب معين البلاد لو لم يعوض الى حد بعيد وسائل كان في مقدمتها زيادة الصادرات على الواردات والمكوس الجمركية وأرباح تجار الاسكندرية من التجارة الشرقية وثققات السياح الذين كانوا يفدون بكثرة لمشاهدة معالم البلاد والاستمتاع بطقسها وكذلك ثققات الطلاب

ضريبة واحدة أو أكثر وحتى الذين كانوا يتعلمون الحرف والصناعات كانوا يدفعون هذه الضريبة بمجرد بلوغهم سن الرشد . وكان كل الذين يزاولون صناعة أو حرفة من الصناعات والحرف الرئيسية يؤلفون نقابة سواء أكانوا رجالاً أم نساء وكانت النساء تؤدي الضرائب المفروضة على أعضاء النقابة أسوة بالرجال .

#### خامساً - التجارة

##### ( ١ ) التجارة الخارجية :

تشير الدلائل الى أن الاسكندرية غدت في العصر الروماني أهم مركز تجارى في شرق البحر الأبيض المتوسط . ولما كان الرومان قد ألغوا المكوس الجمركية عندهم وكانوا يريدون تشجيع التجارة بين مصر والامبراطورية الرومانية بوجه عام وروما بوجه خاص فلا يبعد أن يكونوا على الأقل خففوا المكوس الجمركية الفادحة التي كان البطالمة يفرضونها على الواردات الأجنبية من بلاد البحر الأبيض المتوسط . ويحدثنا استرابون بأن السفن كانت تبحر من مصر الى روما مكتظة بالبضائع وتعبود اليها خالية الوفاض أو بشحنات قليلة . واذا كنا لا نشك في صحة رواية استرابون عن الوقت الذي كتب فيه أى فى بداية العصر الروماني فانه ازاء قلة الأدلة يتعذر علينا أن نقرر على وجه اليقين اذا كانت الحال قد استمرت على هذا المنوال بعد ذلك ولم تزد الواردات من

الذين كانوا يأتون لتسليح العلم في الاسكندرية ، فضلا عن تفقات جيش الاحتلال والأداة الحكومية واقامة المنشآت العامة . وبفضل قلة تكاليف المعيشة وبالتالي قلة تكاليف الاتاج استطاعت منتجات مصر الصناعية والزراعية أن تنافس منتجات عالم البحر الأبيض المتوسط . واذا تركنا الجزية جانبا يبدو أن الميزان التجارى كان في صالح مصر .

ويروى استرابون أيضا ان الاسكندرية كانت تحتكر التجارة مع الهند وبلاد الصومال . ومن المرجح أن جانبا كبيرا من التجارة بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية كان يمر بمصر . ويحدثنا پلينيوس بأن التجارة مع الصين والهند وبلاد العرب كانت تستنزف سنويا من الامبراطورية الرومانية قدرا غير قليل من ذهبها وفضتها ، ومن الجائز ان المبلغ الذى ذكره پلينيوس لا يمثل ثمن كل الواردات الشرقية لأنه وفقا لهذا الكاتب نفسه كانت مصر تصدر منسوجاتها الكتانية لقاء وارداتها الشرقية . ويتبين من مصادر أخرى ان مقادير الصادرات الى الشرق كانت كبيرة . ويحدثنا استرابون بأنه كانت تجبى مكوس جمركية على السلع الواردة الى مصر من الشرق والصادرة اليه وبأن ائمن الشحنات القادمة من الهند والحبشة وأعلى السلع ثمنا كانت تدفع أكثر المكوس الجمركية ارتفاعا مما يوحى بأن فئات

المكوس الجمركية كانت تتفاوت تبعا لقيمة السلع المستوردة . لكن من الجائز أن يكون هذا النظام قد تغير بعد عهد أغسطس الذى كتب فيه استرابون فأحد مصادرنا القديمة الذى يرجع قطعا الى تاريخ متأخر عن منتصف القرن الأول الميلادى يحدثنا بأن الحامية الرومانية فى ليوكى كومي (Leuke Kome) كانت تجبى على الواردات مكوسا جمركية ثابتة قدرها ٢٥٪ من قيمتها . وقد أثير جدل كبير حول هذه المكوس التى كانت تجبى فى ليوكى كومي لكنه لم يثر من الاعتراضات الجدية ما يدعو الى التشكك فى جباية هذه المكوس المرتفعة هناك . ومع أنه لا توجد أدلة مباشرة عن المكوس الجمركية التى كانت تجبى فى الموانئ المصرية الواقعة على شاطئ البحر الأحمر ، إلا أنه فى ضوء الرسوم الجمركية التى فرضها الرومان فى ليوكى كومي لا يبعد أن يكون الرومان قد استبدلوا بالنظام البطلمى الذى كان يفرض مكوسا جمركية متفاوتة على السلع المختلفة وكان لا يزال قائما فيما يبدو أيام استرابون ، نظاما قوامه فرض مكوس جمركية ثابتة قدرها ٢٥٪ على مختلف السلع الشرقية الواردة الى الموانئ المصرية . وعلى كل حال لا جدال فى أن الرومان كانوا يجيئون فى الموانئ المصرية مكوسا جمركية على التجارة الشرقية ، فالوثائق تحدثنا بأنه فى عهد الامبراطور كلاوديوس كان حق التزام هذه

تتبن أساس تقدير هذا المبلغ لأنه كان يتفاوت في المكان الواحد تبعا لنوع السلعة كما كان يتفاوت كذلك من مكان الى آخر عن السلعة الواحدة . ومثل ذلك انه كان يتعين على كل من يبيع الزيت في أرسينوى أن يدفع للحكومة ثمانى دراخمت شهريا على حين نرى انه في أوكسيريخوس كان السيراييوم لا يدفع الا ست دراخمت في العام لقاء حق بيع الزيت . وقد سلفت الاشارة الى الرجل الذى تعهد بدفع ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبول في العام لقاء حق بيع الزيت بالتجزئة في قرية هرقليا بالقيوم . وهكذا نرى انه اذا كانت الحكومة أحيانا تسمح لمن يشاء الاتجار في الزيت بأن يفعل ذلك ما دام يدفع لها ضريبة الترخيص بذلك كانت أحيانا أخرى تسمح لشخص واحد باحتكار البيع في منطقة معينة . وكانت الحكومة تمنح حق بيع الملح في كل منطقة لمن يتقدم لها بأكبر عطاء لقاء الحصول على هذا الحق .

وكان بائعو الخضروات في معبد قرية سوكنوپايونيسوس (Soknopaiou Nesus) بالقيوم يدفعون ١٢ دراخمة على حين يبدو ان بائعى الخضروات في قرية تبتونيس بالقيوم أيضا كانوا يدفعون ثمانى دراخمت وثمانية أوبولات . ونلاحظ أن تجار المساحيق في ارسينوى كانوا يدفعون الضريبة أحيانا بمعدل ٣٦ دراخمة شهريا وأحيانا أخرى بمعدل ٦٠ دراخمة بل انه في الشهر الذى

المكوس يباع لجماعات من الملتزمين الرومان . واذا كان من العسير معرفة قيمة هذه المكوس الجمركية فانه من الجائز ان المكوس الجمركية على الواردات الشرقية كانت أعلى منها على الصادرات الى الشرق تشجيعا لهذه الصادرات لكى ينقص تبعا لذلك العجز في الميزان التجارى بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية . ويحدثنا پلينيوس بأن السلع الشرقية كانت لا تصل الى روما الا بعد أن يتضاعف ثمنها مائة مرة مما يوحى بارتفاع المكوس الجمركية في مصر — طريقها الرئيسى الى روما — وضخامة أرباح تجار الاسكندرية الذين كانوا يقومون بدور رئيسى في هذه التجارة .

ومن العسير أن تتبين في ضوء معلوماتنا الحالية النظام الذى كان متبعا في صادرات مصر و وارداتها في العصر الرومانى أو الى أى مدى كانت الحكومة تشرف على تجارة مصر الخارجية لكن من المرجح ان كل من كان يشتغل في هذه التجارة كان يدفع للحكومة ضريبة أو اجرا لقاء الترخيص له بذلك أسوة بما كان متبعا في التجارة الداخلية .

#### (ب) التجارة الداخلية :

ويتبين من الوثائق انه كان يتعين على كل من يبيع أى سلعة أن يحصل من الحكومة على ترخيص بذلك وأن يدفع للحكومة مبلغا معيناً كل شهر أو كل سنة . ومن العسير أن

وأسوان كانت تجبى رسوم لصيانة الميناء .  
 أما في قفط فانه كانت تحصل رسوم على  
 جوازات السفر من هذه المدينة وموانئ البحر  
 الأحمر . وكانت هذه رسوم تتفاوت تبعاً  
 لحالة كل مسافر ، فقد كلن قائد الدفة يدفع  
 ١٠ دراخمتا والبحار العادى ٥ دراخمتا  
 وبناء السفن ٥ دراخمتا والصانع ٨ دراخمتا  
 والعاهرة ١٠٨ دراخمة وزوجة الجندى ٣٠  
 دراخمة الخ .. فقد كان يتعين الحصول على  
 ترخيص لمغادرة البلاد وتفرض غرامات على  
 الذين لا يحترمون هذه القاعدة .

#### سادسا - ضرائب شتى

والى جانب ما ذكرناه من الضرائب على  
 الأراضى والحرف والصناعات والتجارة كانت  
 الحكومة تجبى كذلك سلسلة من الضرائب  
 المختلفة اذ يبدو أن الرومان لم يتركوا بابا  
 دون أن يطرقوه لزيادة دخل الحكومة .  
 ويمكن أن نوجز بعض هذه الضرائب  
 فيما يلى :

١ - ضريبة الرأس (laographia) وكانت  
 أهم الضرائب التى تدفع نقدا ولعلها لم تكن  
 ضريبة استحدثها أغسطس وانما ترجع الى  
 عصر البطالمة عندما كانت تعرف باسم آخر  
 (Syntaxis) . ومن الجائز أن يكون أغسطس  
 قد زاد معدلها وفرضها على أشخاص كانوا  
 معفين منها حتى عهده ، فأول وثيقة ورد فيها  
 ذكر أداء هذه الضريبة فى العصر الرومانى  
 ترجع الى عام ٢٢/٢١ ق . م . وقد كانت  
 هذه الضريبة لا تدفع بمعدل واحد حتى فى

كانوا يدفعون فيه ٣٦ دراخمة كان شخص  
 آخر يدفع ثمانى دراخمتا فقط على حين كان  
 المعدل فى أوكسيريخوس ٤٠ دراخمة . ونجد  
 انه بينما كان بائعو الجمعة يدفعون ١٦ دراخمة  
 شهريا كان أحد أولئك البائعين يدفع ثمانى  
 دراخمتا فقط . وفى بعض الحالات كان  
 ترخيص الحكومة باتتاج سلعة ما يشمل  
 أيضا بيعها مثل الآجر والحلى الذهبية على  
 نحو ما رأينا عند الكلام عن الصناعات  
 والحرف .

ويتبين من المصادر القديمة أنه كان يوجد  
 مركز عند سخديا لجباية العوائد على التجارة  
 المتبادلة بين الاسكندرية وداخلية البلاد ،  
 ومركز فى منف لجباية العوائد على التجارة  
 بين مصر الوسطى والدلتا ، ومركز فى  
 هرموبوليس لجباية العوائد على التجارة بين  
 مصر العليا ومصر الوسطى . ومعنى ذلك أن  
 الرومان كانوا يجبون عوائد على التجارة  
 المتبادلة بين الثلاثة الأقسام الرئيسية التى  
 كانت البلاد تنقسم اليها وكذلك بين هذه  
 الأقسام والاسكندرية باعتبارها وحدة منفصلة  
 عن هذه الأقسام .

ويتبين أيضا من مصادرنا أنه كانت تجبى  
 كذلك عوائد عن تبادل السلع بين مديرية  
 وأخرى . والى جانب ذلك كانت تحصل  
 رسوم اضافية فى بعض أنحاء البلاد لتحقيق  
 أغراض مختلفة ، ففى الفيوم مثلا كانت تجبى  
 رسوم لحراسة الطرق الصحراوية وفى منف

الدينية وكذلك بعض موظفي الادارة المحلية مثل الكاتب الملكى وكاتب الاقليم وكاتب القرية .

٢ - ضريبة التاج ، وتشير القرائن الى زوال هذه الضريبة بعد منح حقوق المواطنة الرومانية لكل سكان البلاد فى عهد كركلا . وترجع هذه الضريبة الى عهد البطالمة وتستمد نشأتها من تقديم هدية للملك نوعا أو نقدا بمناسبة ارتقائه العرش أو بمناسبة أخرى . ويحتمل أنه فى أوائل عهد الرومان كانت هذه الضريبة لا تجبى الا فى مناسبات خاصة لكننا تتبين من الوثائق أنه منذ أواخر القرن الثانى أصبحت هذه الضريبة تجبى سنويا بانتظام حتى النصف الثانى من القرن الثالث عندما أصبحت تجبى كل خمس سنوات . وقد شهدت هذه الضريبة تطورا آخر وهو أنها على مر الزمن أصبحت تجبى من جميع أرباب الأراضى بدلا من جبايتها من فريق معين منهم . وقد وعد الامبراطور سثروس اسكندر بوقف جباية هذه الضريبة لكن يبدو أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لأن الوثائق ترينا أنها جبيت على الأقل مرتين فى عهده بعد صدور هذا الوعد .

٣ - ضريبة خاصة لاقامة تماثيل للاباطرة ، فمن حين لآخر كانت تجبى أيضا ضريبة لاقامة تماثيل للامبراطور الحاكم فى مختلف المدن . وتتبين من سلسلة من الوثائق عشر عليها فى أسوان أن هذه الضريبة جبيت

المديرية الواحدة ولا فى المدينة الواحدة فقد اختلف هذا المعدل من حى الى آخر فى مدينة طيبة . وفى الفيوم كان المصريون يدفعون ٤٠ دراخمة أما أفراد الفئات الممتازة من مواطنى عواصم المديرية وسلالة أرباب الاقطاعات فكانوا يدفعون ٢٠ دراخمة . على حين يبدو أنه فى مديرية أوكسيريخوس كان المصريون يدفعون ١٦ دراخمة والفئات الممتازة ١٢ دراخمة ، وانه فى مديرتى منف وهرموبوليس كانت هذه الفئات تدفع ٨ دراخمات . وهكذا يتبين أولا ، ان هذه الضريبة لم تفرض بمعدل واحد فى كل أنحاء البلاد سواء على المصريين أم على الفئات الممتازة . وثانيا ، ان هذه الفئات لم تدفع دائما نصف ما كان المصريون يدفعونه . وثالثا ، انه فى بعض المديريات كانت الفئات الممتازة تدفع أكثر مما يدفعه المصريون . أما المواطنون الرومان وعدد معين من كهنة كل معبد ومواطنو الاسكندرية وفيما يبدو أيضا مواطنو المدن الاغريقية الأخرى فانهم كانوا يدفعون من تلك الضريبة التى كان لا يدفعها الا الذكور الذين كان عمرهم يتراوح بين الرابعة عشرة وسن الاعفاء . ويرجح أن هذه السن كانت فى ارسينوى الستين لكن يبدو أنها زيدت الى الخامسة والستين ثم السبعين فيما يلوح . ويبدو أنه كان يعفى أيضا من ضريبة الرأس أساتذة جامعة الاسكندرية والرياضيون والفائزون فى مباريات الحفلات

مصر حتى اواخر القرن الثاني من أجل توفير المؤونة اللازمة للحامية الرومانية لكن القرائن توحى بأن الحاكم العام كان يحدد سنويا كمية الحبوب التي يحتاج إليها كل معسكر ويفرض على بعض الزراع في كل مديرية تقديم تلك الكمية بسعر منخفض يحدده الحاكم العام . ولا بد من أن يكون الأهالي قد ضجوا بالشكوى من هذا النظام لأننا نجد أنه في عام ١٨٥ قد استبدلت به ضريبة صغيرة (annona militaris) على أرباب الأراضى التي تزرع حبوبا . وكان الأهالي يكلفون أيضا بايواء الجنود الذين كانوا ينزلون بينهم في أثناء انتقالهم من مكان الى آخر . ويبدو أن الجنود كانوا يسيئون استغلال هذا الحق فقد وصل الينا عدد من الأوامر التي اضطرت الحكام الى اصدارها لتحذير الجنود من اقتضاء أموال أو خدمات من الأهالي دون الحصول على اذن خاص بذلك ولييان أن حقهم كان مقصورا على ايوائهم فقط .

وكان يفرض على الأهالي أيضا توفير الحاجيات اللازمة للحاكم العام وصحبه عند طوافهم بأنحاء البلاد ، وكذلك للإمبراطور وحاشيته عند زيارته مصر وتنقله في أرجائها . وقد كان ذلك عبئا ليس هينا اذ تحدثنا احدى الوثائق بأنه بمناسبة زيارة الحاكم العام لهرموبوليس أدرجت أسماء ٥٢ شخصا لاعداد الاحتياجات اللازمة وكانت تتضمن خبزا ولحما وسمكا ودواجن وبقالة ووقودا

هناك في عامى ١٠٤ و ١١٤ لاقامة تماثيلين لتراجان ، وفي عام ١٢٨ لاقامة تمثال فيما يبدو لهادريان وفي ١٤١ لاقامة تمثال لانطونينوس بيوس ، وفي عام ١٦٢ لاقامة تمثال لكل من أورليوس وقيروس وذلك عدا جبايتها في الأعوام ١٣١ و ١٣٩ و ١٤٤ لطلاء بعض تماثيل الأباطرة بالذهب . وقد كان مقدار هذه الضريبة قليلا اذ أن أكثرها ارتفاعا كان أربع دراخمت في عام ١٤١ وعشر دراخمت في عام ١٦٢ لكن مهما كان مقدارها قليلا فلا شك في أن تكرار جبايتها كان يلقي عبئا ثقيل على كاهل الأهالي الذى أبهظته كثرة الضرائب . وتشير القرائن الى أنه كانت تجبى ضريبة مماثلة من أجل اقامة معابد للأباطرة .

٤ — وكان الرومان يفرضون ضريبة قدرها ٢٪ على كل ما يباع في الأسواق وكذلك ضريبة على بيع الممتلكات الثابتة يبدو أن مقدارها طوال القرنين الأول والثاني كان ١٠٪ من ثمن الشراء ثم زيدت في القرن الثالث . وكان الرومان يفرضون على الرهونات ضريبة قدرها ٢٪ . أما ضريبة ٥٪ التي كانت تجبى عن تحرير الأرقاء والتركات فانها كان لا يدفعها الا المواطنين الرومان ولم تأثر بها مصر الا عندما منح كركلا حقوق المواطنة الرومانية لكل السكان في مصر مع باقى سكان الامبراطورية .

٥ — مؤنة الجنود الرومان ، ان معلوماتنا طفيفه عن الوسائل التي اتبعها الرومان في

فضلا عن علف دواب الحاشية والحير اللازمة  
للاتقالات المحلية . وإذا كان ذلك الشأن في  
حالة زيارة الحاكم العام فانه يمكننا أن نتصور  
ما كان الأهالي يكلفون بتقديمه في حالة زيارة  
الامبراطور .

٦ - ويمكن اعتبار تسخير الأهالي للعمل  
في تطهير الترغ وصيانة الجسور ضريبة ثقيلة  
يبدو أنه لم يعف من أدائها الا الموظفون  
والاسكندريون والفئات التي كانت تدفع تقدا  
ضريبة السخرة (naubion) . وكان نظام  
السخرة يختلف من مكان الى آخر اذ بينما  
كان يفرض على الفلاح في طيبة أن يشتغل في  
تطهير أو صيانة مساحة معينة تسمى naubion  
كان يطلب منه في الفيوم أن يشتغل عددا معينا  
من الأيام كان عادة خمسة أيام كل عام في الفترة  
الواقعة بين بداية يونية ومنتصف أغسطس .  
وكانت هناك ضرائب محلية للخفر أو  
الشرطة ومواجهة نفقات المنشآت العامة مثل  
الحمامات والأسواق والمعابد وغير ذلك . هذا  
الى أنه من حين لآخر كانت تجبى ضرائب  
اضافية لسد العجز في حصيلة بعض الضرائب  
التي كانت تجبى بانتظام . وفضلا عن ذلك  
كانت تفرض ضرائب على فئات معينة من  
سكان البلاد لا تدفعها فئات أخرى مثل  
ضريبة اليهود وضريبة أرباب الاقطاعات  
وضريبة الشرطة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه في بداية العصر  
الروماني كان معدل الضرائب معتدلا لكن على

مر الزمن زيد معدل الضرائب وعددها . ولما لم  
يكن في وسع موارد مصر ولا نفقات روما على  
شئون الادارة والمنشآت العامة سد كل العجز  
الناجم عن الجزية النوعية والنقدية التي كانت  
روما تستولى عليها فقد استتبع ذلك حتما  
خراب البلاد الاقتصادي .

### سابعا - نظام جباية الضرائب

يتسم نظام الرومان الضريبي في مصر  
بظاهرتين واحدهما انه باستثناء بعض  
الضرائب لم يفرض على كل أنحاء البلاد دفع  
الضرائب ذاتها ولا بمعيار واحد فكانت أنواع  
الضرائب وكذلك معاييرها تختلف من مديرية  
الى أخرى .

والظاهرة الأخرى أنه لم يتبع نظام واحد  
في جباية الضرائب . فقد اتبع الرومان جباية  
الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر تييريوس  
عندما نسمع للمرة الأولى عن جباة موظفين  
(praktores) الا أن هذا النظام الجديد لم  
يقض على سابقه بأكمله فقد ظلت بعض  
الضرائب مثل العوائد والمكوس الجمركية  
وضريبة ٢٪ على المبيعات تجبى حتى أواخر  
القرن الثاني وفقا للنظام القديم .

وحتى نهاية القرن الثاني كان كاتب كل  
قرية يعد كشفا بأسماء أهلها الذين لديهم  
نصاب معين ويختار القائد من بينهم جباة كانوا  
يؤدون عملهم لمدة ثلاث سنوات بعد أن يوافق  
حاكم القسم (epistrategos) على اختيارهم .  
وكان أولئك الجباة يعتبرون مسئولين عن أى  
عجز في حصيلة الضرائب المقررة على منطقة

كل منهم ولذلك كانوا يوغلون في جمع  
الضرائب تفاديا لحدوث هذا العجز . ويحدثنا  
فيلون بأن قرى بأكلها هجرت بسبب  
ما أنزله جياة الضرائب من ارهاق بأهلها .  
وكان هؤلاء الجياة لا يتولون أمر ضريبة  
الحبوب اذ أنه حتى نهاية القرن الثاني كان  
أمناء المخازن (sitologi) هم الذين يتسلمون  
هذه الحبوب ، على حين يبدو أن مهمة جياة  
الحبوب (praktores sitikon) كانت مقصورة

على جمع متأخرات هذه الضريبة .  
أما في القرن الثالث فان الموظفين الذين كانوا  
يدعون (dekaproti) هم الذين كانوا مسئولين  
عن جمع هذه الضريبة ويتعذر علينا أن تبين  
علاقتهم بأمناء المخازن وجياة الحبوب .  
وللتفرقة بين جياة الحبوب والجياة الذين  
كانوا يجبون الضرائب النقدية أطلق على  
الفريق الأخير منذ عهد تراجان اسم جياة  
المال (praktores argyrikon) .

## الفصل السادس

### النظام القضائي

والآخر اغريقي أصدر بطليموس الثامن يورجيس الثاني في عام ١١٨ ق . م . قرارا يقضى بأن لغة العقد موضوع الخلاف هي التي يجب أن يتقرر بموجبها نوع القانون الذى يطبق للفصل فى هذا الخلاف . ولما نعرف الى أى حد طبقت هذه القاعدة فى العصر الرومانى وان كنا نعرف أن قاعدة مماثلة كانت تطبق على الأقل فى قضايا الزواج وذلك أنه فى حالة عقد زواج مصرى بين طرفين أحدهما مصرى والآخر اغريقي كانت أحكام القانون المصرى هي التي تطبق أما فى حالة عقود الزواج الاغريقي فان أحكام القانون الاغريقي هي التي كانت تطبق .

وبطبيعة الحال ازاء ظهور عنصر جديد من السكان فى العصر الرومانى وهو عنصر المواطنين الرومان دخل القانون الرومانى مصر لتطبيقه على أولئك المواطنين وصدرت بعض القوانين لتنظيم العلاقات القانونية بين المواطنين الرومان وسكان مصر الذين كانوا أكثرهم فى نظر الرومان أجنب (peregrini) ، وكذلك لبيان الاختصاصات القانونية التي أعطيت للحاكم العام واعادة تنظيم الهيئات

لقد مر بنا أن البطالمة احتفظوا للمصريين ، بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم التقليدية التي أطلق الاغريق عليها اسم « قوانين البلاد » . وتشير القرائن الى أن الرومان قد أبقوا على هذه القوانين بوجه عام ، اذ أنهم عدلوا بعضها مثل ما عدل البطالمة أيضا بعضا آخر .

وقد عرفنا كذلك أن اغريق كل مدينة اغريقية وجمعية قومية كانوا يخضعون لمجموعة معينة من القوانين تعرف « بقوانين المواطنين » وانه من أجل التنسيق بين هذه المجموعات من القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم يتموا الى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرن أوامر ملكية مختلفة الأنواع . وقد أبقى الرومان على بعض هذه الأوامر الملكية كما أبقوا على قوانين الاسكندرية وبتوليميس وكذلك على قوانين قراطيس التي طبقوها فى انطينوؤبوليس ، لكنهم أدخلوا بعض التعديلات على القوانين المعمول بها .

وسبق القول بأنه تنظيما للفصل فى القضايا التي تشب بين طرفين أحدهما مصرى

القضائية التي كان من حقها الفصل في القضايا .

ومما يجدر بالملاحظة أن القوانين المحلية قد تأثرت بالقانون الروماني عن طريق تشريعات الأباطرة وقرارات الحكام وأحكام المحاكم .

اولا - القانون المدني :

١ - الأحوال الشخصية :

ولما كان الرومان مثل الاغريق يعتبرون المرأة قاصرا ومن ثم في حاجة الى وصي شرعى عليها في كل تصرفاتها فان المرأة المصرية لم تسترد في العصر الروماني مكاتها القديمة بل بقيت على حالها منذ ساوى البطلمة بينها وبين المرأة الاغريقية . ولا سبيل الى الشك في أن المصريين كانوا يعرفون في العصر الروماني « الزواج الكامل » و « زواج المتعة أو التجربة » وهما نوعا الزواج اللذان سبق الكلام عنهما في سياق الحديث عن الزواج عند المصريين في عصر البطلمة .

وكما كانت عليه الحال في عصر البطلمة كان اغريق الاسكندرية وبطوليميس في العصر الروماني يحرون عقدين أحدهما مدنى والآخر دينى ، وكان باقى الاغريق يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » وكانا نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج . لكن كثيرا ما كان يكتفى بتحرير « عقد الاتفاق » وحده دون تحرير « عقد المعاشرة أيضا » .

وكان يثبت قيام الزوجية عند الرومان المعاشرة الزوجية وعقد الزواج الذى كان يسجل في سجلات خاصة تعرف بسجلات الزواج .

ووفقا لأحكام القانون عند المصريين والاغريق والرومان سواء بسواء كان لكل من الطرفين حق الطلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت فيها أنه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر وبذلك كان يحق لكل منهما أن يعقد زواجا جديدا .

وإذا كان مسموحا قبل العصر الروماني اتخاذ أكثر من زوجة واحدة فانه لم يعد عندئذ مسموحا بذلك لأى عنصر من عناصر السكان في مصر ، لكنه كان مسموحا لغير الرومان بتزواج الاخوة من أخواتهم الى أن اختفت هذه العادة الذميمة بعد القرن الثالث الميلادى .

وتشير القرائن الى أن الزواج بين الاغريق والمصريين كان غير معترف به في الاسكندرية وتقرطيس وبطوليميس بدليل أن هادريان أصدر قانونا لباحته في انطينوؤ پوليس وان لوائح الايديولوجوس كانت تعتبر الزواج بين « المواطنين » (astoi) والمصريين زواجا غير متكافئ . وتدل كثرة الزيجات المختلطة في الريف على أن القانون لم يحظرها هناك .

وأكثر حالات الزواج بين الرومان كانت بين طرفين رومانين وتعتبر مشروعة (iusta matrimonia) ومع ذلك كثيرا ما تزوج مواطنون رومان من أجانب لكن هذه الزيجات كانت تعتبر غير مشروعة (iniusta matrimonia) وكان الأبناء ثمرة هذه الزيجات يعتبرون أجانب ويحملون أسماء أجنبية .

ويفرق القانون عند المصريين والاغريق والرومان تفرقا واضحا بين الأحرار والعبيد .

للأبناء الأسبقية وأنصبة متساوية في وراثة آباءهم .

## ٢ - الأحوال العينية :

وكان المصريون والاغريق والرومان يتعاملون اما بمقتضى عقود مكتوبة أو اتفاقات شفوية . وفي حالة انكار دين عتقد بمقتضى اتفاق شفوي كانت تتبع القاعدة المعروفة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

وقد مر بنا أنه من أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون في عصر البطلمة يعترف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنص فيها على شروط جزائية . وقد بقيت هذه الوسائل جميعا معمولاً بها في العصر الروماني بل ان ما لم يكن مألوفاً منها بين الرومان مثل « البيع الوفاي » وما كانت اللوائح تحظر على المواطنين الرومان أتباعه مثل تسليم عقود ملكية العين المرهونة الى الدائن شاع استخدامه بين الرومان أنفسهم .

وإذا كان البطلمة جعلوا سعر الفائدة  $\frac{2}{3}$  شهرياً أو  $\frac{24}{100}$  سنوياً فإن الرومان جعلوا هذا السعر  $\frac{1}{100}$  شهرياً أو  $\frac{12}{100}$  سنوياً . وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يتفرض على المدين غرامة ينص عليها في العقد كانت عادة نصف قيمة الدين الأصلي .

وكان القانون عند المصريين والاغريق والرومان يعترف بتأليف شركات تجارية أو

وكان العبيد في العصر الروماني ثلاث فئات وهي عبيد الامبراطور وعبيد الأفراد وعبيد المعابد الذين خلفهم فيما بعد عبيد الكنيسة .

وقد كان من حق المصريين والاغريق والرومان عمل وصيات . وكانت وصايا الرومان تحرر باللاتينية ثم تترجم الى الاغريقية الى أن أصدر اسكندر سفروس قراره بتحرير وصايا الرومان باللغة الاغريقية على نحو ما كان يفعل المصريون والاغريق . وكانت وصايا الجنود الرومان وقدماء المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يرتب الورثة طبقات تأتي في مقدمتها طبقة الأولاد ، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيباً يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذي كانت أخته تتساوى معه في مقدار النصيب . وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفى قبل جدهم . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقي يعطى الأبناء الأسبقية في وراثة آباءهم ، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات المشاركة في الارث اذا لم يكن قد أخذن مهورهن . وفي حالة زواج مواطنة من أجنبي كان قانون الاسكندرية لا يسمح لأبناء هذا الزواج بأن يرثوا أمهم . وفي حالة عدم وجود أبناء وأحفاد كان حق الارث يؤول الى الزوج أو الزوجة ثم يأتي بعد ذلك في المرتبة والد المتوفى . وكذلك أعطى القانون الروماني

والغش والتدليس . وكانت اقامة الدعوى في كل هذه الجرائم من شأن المعتدى عليه وأسرته . أما في حالات معينة مثل قتل الموظفين فان الدولة هي التي كانت تقيم الدعوى .

٢ - الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة العامة وكانت تشمل التزوير في الحسابات واختلاس الأموال العامة والسرقه من ممتلكات الدولة أو ضياع الأباطرة . ولم يعد محظورا في العصر الروماني استخدام المحامين في القضايا التي يختصم فيها الأفراد مع الخزانة العامة .

٣ - الجرائم التي ترتكب ضد الدولة وكانت تشمل جرائم الخيانة العظمى واساءة استخدام الحقوق العامة والجرائم الدينية التي كانت معروفة في عصر البطالمة ، وكذلك حيازة الأسلحة دون ترخيص بذلك واعتداءات العصابات المسلحة التي كانت تهيم على وجهها في أنحاء البلاد .

#### لثا - الهيئات القضائية :

ان معلوماتنا عن النظام القضائي في مصر في عهد الرومان طفيفة جدا حتى أننا كثيرا ما نجابه مشاكل متعلقة به دون أن نستطيع ابداء رأى فيها ، لكننا نعرف على كل حال أن الحاكم العام كان على رأس هذا النظام وصاحب الكلمة العليا في كل أنحاء البلاد في القضايا المدنية والجنائية (jurisdictio) وكذلك (imperium mixtum) فكان

صناعية أو غير ذلك لمباشرة أعمال عامة ، وخاصة . وكان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته . وقد حدد هذا القانون حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أرض أو مبان أو عبيد أو ماشية أو سفن أو عمال ، وأباح لمستأجر الأرض أن يؤجرها من الباطن الا اذا نص في عقد الايجار الأصلي على خلاف ذلك .

وقد استمر المصريون في العصر الروماني يحررون عقدي المال والتنازل لكل صفقة من صفقات البيع . أما الأغرقي فكانوا يكتفون عادة بعقد واحد يتضمن النص على استلام البائع ثمن العين المبيعة وتنازله عن كل حق له عليها . وكانت العقود لا تضمن للمشتريين حقوق ملكيتهم كاملة الا اذا حررها الموظفون المختصون وأثبت انتقال الملكية في السجلات الخاصة بذلك وأديت الضريبة المقررة .

#### ثانيا - القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي في العصر الروماني يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهي :

١ - الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الفعل أو الاشارة أو التهديد بالاعتداء ، واستخدام القوة لتحقيق مآرب معين ، والسرقه ، والحاق الضرر بممتلكات الغير

مارس وابريل للفصل في قضايا باقى المديرىات  
الا أنه كان أحيانا يرى داعيا لعقد مجلسه  
القضائى فى أماكن أخرى سواء فى الدلتا أم  
فى مصر الوسطى أم فى مصر العليا .

ولم يتأثر الحاكم العام بالفصل فى  
القضايا إذ يرى بعض الباحثين أن محاكم  
القضاة الاغريق (chrematistai) التى كانت  
موجودة فى عصر البطالمة ظلت قائمة وأن  
الحاكم العام كان يعهد إليها فى الفصل فى  
قضايا المستندات ، وأن الأرخيديكاستس  
أىضا كان يقوم بمثل هذه المهمة اما بمفرده  
أو بالاشتراك مع محكمة القضاة الاغريق ،  
وأن الايديولوجوس كان يفصل فى قضايا  
الخزاة العامة .

وكان رؤساء الأقسام الادارية الرئيسية  
(epistrategoi) ينوبون عن الحاكم العام فى  
الفصل فى القضايا فضلا عن انهم كانوا  
يقومون بالتحكيم فى المنازعات . وكان حكام  
المديرىات (strategoi) أىضا يفصلون فى  
القضايا ، وإذا كانوا على مر الأيام فقدوا  
هذا الاختصاص فانهم استمروا يؤدون  
ما كانوا يقومون به منذ عصر البطالمة من  
التحكيم فى المنازعات ، وتقديم القضايا  
والتمهين للمحكمة بعد الفشل فى محاولة  
فض النزاع وديا والقيام بتحقيق مبدئى فى  
القضايا ، والقاء القبض على مخالفى القانون.  
وكثيرا ما كان الفلاحون يلجأون الى  
شيوخهم ورجال الشرطة لفض منازعاتهم بدلا  
من اتخاذ الاجراءات القضائية المعتادة .

يتمتع بحق مصادرة الأملاك والحكم  
بالاشغال الشاقة فى المناجم والمحاجر وكذلك  
الحكم بالاعدام ، ولم يكن هناك سبيل الى  
الاستئناف من أحكامه سوى أمام الامبراطور .  
وكان المجلس القضائى للحاكم العام  
يتكون منه بوصفه رئيسا ومن مساعدين له  
نعرف أنهم كانوا يختارون فى الولايات  
الأخرى من جنسية المتخاصمين لكن ليس فى  
استطاعة أحد أن يجزم بشئ فيما يتعلق بمصر  
وإن كنا نعرف أن المساعد الأول للحاكم العام  
فى الشئون القضائية فى مصر كان  
الديكايودوتس Dikaiodotes . ولسنا نعرف  
إذا كان لهذا الموظف اختصاص قضائى  
مستقل أو إذا كان يستمد سلطته القضائية  
من الحاكم العام لكن بما أنه لم يشترط فى  
اختيار الحكام معرفة القانون وكانوا تبعاً  
لذلك فى حاجة الى خبراء فنيين يعاونونهم فى  
أداء مهمتهم القضائية فاننا نرجح أن  
الديكايودوتس كان المستشار القانونى  
للحاكم العام ويقوم بدور Legati iuridici  
فى الولايات الرومانية الأخرى . وتتحدث  
الوثائق أىضا عن موظف قضائى آخر كان له  
شأن كبير فى الشئون القضائية فى عصر  
البطالمة وهو الارخيديكاستس .

وكان الحاكم العام يعقد مجلسه القضائى  
فى الاسكندرية فى شهرى يونية ويولية  
للفصل فى قضايا مديرىات غرب الدلتا ، وفى  
پلوزيون فى شهر يناير للفصل فى قضايا  
مديرىات شرق الدلتا ، وفى منف فى شهرى

## الفصل السابع

### الحياة الاجتماعية

اولا - عدد السكان وحالهم :

كان ينزل فيها عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يعيشون فيها بصفة دائمة تقريبا . وبينما كان أهل الاسكندرية يعيشون عيشة راضية هائلة لفرط نشاطهم الصناعى والتجارى مع قلة الأعباء الملقاة عليهم كانت حال أهل باقى البلاد ولا سيما المزارعين تسير من سيىء الى أسوأ بسبب تزايد التزاماتهم باطراد فترينا وثائق القرن الثانى ازديادا مستمرا فى عدد الذين كانوا يهربون من قراهم ، وعددا غير قليل من الأوامر التى كان الحكام يصدرونها لحث المزارعين على العودة الى مواطنهم ، وأمثلة كثيرة على الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضى المهجورة وملء المناصب المحلية والبلدية . وتدل القرائن على أنه فى القرن الثالث هجرت قرى بأكملها تقريبا فى الفيوم ، وتفاقت صعوبة شغل المناصب المحلية والبلدية ، وازداد عدد الذين كانوا يهربون من مواطنهم ويتكسبون قوتهم من أعمال السطو والنهب . ولا أدل على هبوط مستوى المعيشة وقر الأهالى فى القرى من أن البيان الذى قدمه لموظفى التعداد رجل يملك عشر منزل يرنا أنه كان

فى عهد نيرون كان عدد سكان مصر عدا الاسكندرية يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة وليست لدينا أى معلومات عن عدد سكان الاسكندرية فى العصر الرومانى وان كنا نعرف أن الاسكندرية غدت فى هذا العصر أكبر مركز تجارى فى شرق البحر الأبيض المتوسط وأكبر مركز صناعى فى مصر وثانى مدن الامبراطورية الرومانية ولذلك يحتمل أن عدد سكانها لم يقل كثيرا عن عدد سكان روما . ويبدو انه ازاء نشاط الاسكندرية الصناعى وراثتها ومباهج الحياة فيها وشظف الحياة وبؤسها فى الريف المصرى أخذ كثيرون من أهل الريف يهاجرون اليها منذ القرن الثانى مما حدا بالامبراطور كركلا الى اصدار قرار فى عام ٢١٥ بإبعاد القرويين عن الاسكندرية . لكن لا بد من أن هذه المدينة قد عانت كثيرا من المذابح وأعمال التدمير التى حلت بها من جراء العداء بين الاسكندريين واليهود وغضب كركلا على المدينة وثورتها ضد اورليانوس . ويبدو أيضا انه ازاء نشاط الاسكندرية التجارى

« المواطنين الرومان » الذين تتحدث الوثائق عنهم في القرن الثالث كانوا من الاغريق والشرقيين والمصريين الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية .

٢ - الاغريق :

( ١ ) وضعهم وفتاتهم :

كان الاغريق يتألفون من فريقين رئيسيين يعيش أحدهما في المدن الاغريقية ويعيش الآخر في المدن والقرى المصرية . وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين، فالفريق الأول كان يتألف من فئة مواطني المدن الاغريقية وفئة عامة الاغريق في هذه المدن . وكان الفريق الثاني يتألف من فئة عامة الاغريق وكانوا يعيشون كيفما اتفق دون الاندماج في جماعات منظمة . أما الفئة الثانية فكانت أوفر حظا من الثراء والثقافة . وحيشا كان يعيش عدد كاف من أفراد هذه الفئة كانوا منذ عصر البطالمة يكوّنون جاليات منظمة تنظيما دقيقا عملوا على أن يوفروا فيها من أسباب الحياة ما يعيضمهم عن الحياة في المدن الاغريقية . ولما كان الجيمينازيوم من أبرز مظاهر الحياة الاغريقية لأنه كان بمثابة المنتدى فضلا عن كونه مركزا للتربية البدنية والعقلية ، فانه حيشا أنشأ الاغريق مدينة . أو جالية أنشأوا كذلك جيمينازيوم . وكان هذا المركز الاجتماعي والثقافي والرياضي يتصل اتصالا وثيقا بمنظمة

يسكن في هذا الحيز الصغير ستة وعشرون شخصا . ولا شك في أن هذا المنزل لم يكن بناء ضخما وانما مثل غيره من عشرات المنازل القروية التي كشفت الحفريات عنها في قرية كرائيس ( كوم أو شيم ) وهي مبنية من اللبن وتتألف من عدد من الغرف الصغيرة على النحو المألوف .

ثانيا - طبقات السكان :

درج الرومان منذ عهد أغسطس على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة في المرتبة على النحو التالي :

١ - الرومان وكانوا الطبقة العليا في البلاد وقليل العدد اذ كانوا يتألفون من كبار الحكام وبعض رجال الأعمال وكذلك من قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسريحهم ورغبوا في الاستقرار في مصر . وقبل ادماجهم في هذه الطبقة كان يتعين فحص ( epikrisis ) حالة كل منهم لكي يتمتعوا هم وأولادهم بالحقوق والامتيازات التي كان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بها ، وكانت هذه الحقوق والامتيازات تشبه ما كان المقدونيون يتمتعون به في عهد البطالمة ، ولم يكونوا خاضعين لسلطة القواد في المديرية التي كانوا يعيشون فيها وانما لسلطة حكام الأقسام ( epistrategoi ) والحاكم العام لمصر . ومما يجدر بالملاحظة أن غالبية

تدريب الشباب ، وكان التحاق الفتى الاغريقي بهذه المنظمة في الرابعة عشرة من عمره شرطا أساسيا لادراج اسمه في قائمة مواطني المدينة أو الجالية وللسماع له بدخول الجيمنازيوم .

ومما يجدر بالملاحظة أن الجاليات الاغريقية كانت لا تتألف أصلا الا من الاغريق لكن القرائن تشير الى أنه في أواخر عصر البطالمة كان من الممكن أن يندمج فيها عدد من الأعراب ممن توافرت فيهم شروط معينة لعل الثقافة الاغريقية كانت في مقدمتها. ونعتقد أنه للتمييز بين الفريقين كان الاغريق من أعضاء الجالية يدعون «أهل الجيمنازيوم» (hoi apo gymnasiou) وغيرهم من أعضائها المتأخرين يدعون «الشركاء في عضوية الجالية» (sympoliteuomenoi) ولما كان أعضاء الجاليات الاغريقية قد أصبحوا في العهد الروماني يؤلفون طبقة تتمتع بامتيازات معينة وكان التسجيل في أي طبقة من الطبقات الممتازة يقتضى فحص حالة الراغبين في ذلك وإثبات انتماء الأبوين الى تلك الطبقة فانه يبين من ذلك أنه لم يعد ميسورا اندماج غرباء متأخرين في عداد الجاليات الاغريقية .

ويبدو أنه من أجل المحافظة على الحضارة الاغريقية في المديرية ، وتوفير لون من الحياة يوائم الاغريق ويمائل ما كانوا يستمتعون به في المدن الاغريقية في مصر

وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى وسوريا ، وكذلك من أجل رفع مستوى عواصم المديرية ، عمل الرومان على لم شعث الجاليات الاغريقية وتركيزها في عواصم المديرية . ولضمان تحقيق ذلك ألغوا ما كان يوجد من الجيمنازيا في القرى وأضفوا صفة رسمية على جيمنازيا عواصم المديرية وأنشأوا في تلك العواصم حمامات عامة وأضواء وشوارعها ليلا . واعتبر الرومان أعضاء الجاليات الاغريقية — سواء آكانوا يعيشون من الأصل في تلك العواصم أم انتقلوا للمعيشة فيها — مواطني تلك العواصم ، كما اعتبروا «أهل الجيمنازيوم» أرفع أولئك المواطنين قدرا فكانت المناصب البلدية لا تسند الا اليهم . ومما يجدر بالملاحظة : أولا — أن مواطني عاصمة أي مديرية لم يشملوا كل سكان تلك العاصمة وحتى وان كانوا من الاغريق . وثانيا — أن أولئك المواطنين كانوا يطالبون الرومان باعفائهم اعفاء كاملا من دفع ضريبة الرأس على أساس أنهم من سلالة أرباب الاقطاعات. ولتفسير هذا المطلب يجب أن نذكر شيئين : وأحدهما أن أغلب أعضاء الجاليات أن لم يكن كلهم كانوا أصلا من رجال الجيش وتبعوا لذلك كانوا من سلالة أرباب الاقطاعات . والثاني الآخر انه اذا كان الرومان قد نزعوا ملكية أراضي بعض أرباب الاقطاعات فانهم ثبتوا ملكية أراضي البعض الآخر ومنحهم

امتيازات معينة كان من بينها فيما يبدو الاعفاء من ضريبة الرأس اعفاء كاملا .

ويرى فريق من الباحثين أن الحكومة الرومانية كانت تفرق تفرقة واضحة بين الاغريق الذين كانوا يعيشون في مدن مصر الاغريقية ، وكذلك الاغريق والمتأخرين الذين كانوا ينزلون في عواصم المديریات من ناحية، وبين المصريين من ناحية أخرى باعتبارهم *dediticii* ، أى الأهالى الذين خضعوا للرومان بعد الفتح بلا قيد ولا شرط فوضعهم في أسفل درك وفرضوا عليهم كافة الالتزامات وخاصة ضريبة الرأس وكانت تعتبر رمزا مميزا لخضوعهم واستسلامهم . وقد اتخذ فريق آخر من الباحثين من المعلومات المستمدة من الوثائق البردية عن ضريبة الرأس أساسا للمناداة برأى آخر نجده وفحواه أن الحكومة الرومانية كانت تعتبر جميع سكان مصر « مصريين » أو بعبارة أخرى أجانب (*peregrini*) باستثناء المواطنين الرومان ومواطنى الاسكندرية وفيما يرجح مواطنى تقراطيس وبطوليميس وانطينوؤ پوليس وسلالة أرباب الاقطاعات فى الفيوم وكذلك عددا معينا من كهنة كل معبد ، وأن هؤلاء جميعا أعفوا من دفع ضريبة الرأس التى كان باقى سكان البلاد يدفعونها ، غير أن أولئك الباقيين لم يدفعوا هذه الضريبة بمعدل واحد إذ أن مواطنى عواصم المديریات كانوا يدفعونها مخفضة أما باقى سكان هذه

العواصم وكذلك سكان القرى فكانوا يدفعونها كاملة . ومعنى ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تقسم الاغريق ثلاث فئات ، كانت احداها تشمل مواطنى المدن الاغريقية وفيما يبدو أيضا سلالة أرباب الاقطاعات فى الفيوم ، وكانت الحكومة الرومانية تضعهم فى مصاف المواطنين الرومان وتعفيهم من ضريبة الرأس اعفاء كاملا ، أما الفئة الثانية فكانت عبارة عن مواطنى عواصم المديریات وكانت الحكومة تعتبرهم أقل مكانة من الفئة السابقة وتفرض عليهم دفع ضريبة الرأس مخفضة . أما الفئة الثالثة فكانت تشمل عامة الاغريق من سكان القرى وعواصم المديریات والمدن الاغريقية على حد سواء وكانت الحكومة تفرض عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة .

وينهض هذا دليلا على مدى اجلال الرومان للحضارة الاغريقية ورغبتهم فى التمييز بين أكثر الاغريق تحضرا من ناحية وبين عامة الاغريق وجموع المصريين من ناحية أخرى . فلا عجب أن استبقى الرومان اللغة الاغريقية لغة رسمية للبلاد فلم تستعمل اللاتينية الا فى الجيش أو فى اللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى . فضلا عن ذلك احتفظ الرومان للاغريق بالمناصب الكبرى التى تلى المناصب الرئيسية التى احتفظوا بها لأنفسهم . وقد كانت لدى الطبقات المتأزاة من الاغريق فرص واسعة للثراء لكن التبعات الثقيلة التى أقيت عليهم أبهتت كاهلهم

وأوفى في المدن الاغريقية الأخرى التي كانت معاقل قديمة للحضارة الاغريقية وذات تقاليد راسخة وتضم أعدادا أكبر من الاغريق ويتيسر فيها المزج بين الاغريق والمصريين على نطاق أوسع . لعل السبب اذن في اباحة التزاوج في أنطينوؤ بوليس هو انه لم يتيسر اجتذاب عدد كاف من الاغريق الى هذه المدينة مما اقتضى الاعتماد في تكوين هيئة مواطنيها على كثير من المصريين الذين لا بد من أنهم كانوا من المتأغربين تيسيرا للتآلف بينهم وبين رفاقهم من الاغريق . ومن أجل ضمان وحدة المدينة ونموها نص في دستورها على امكان التزاوج بين العنصرين . ونعتقد أن لهذا النص دلالة ذات مغزى ، فهذا النص ينطوى ضمنا على أن التزاوج كان غير مشروع على الأقل في المدن الاغريقية الأخرى والا لما نص على تحليله في انطينوؤ بوليس . بقى أن نتساءل عما اذا كان التزاوج محظورا خارج المدن الاغريقية الثلاث الأخرى ( الاسكندرية وقرطيس وبطوليميس ) ؟

يتبين مما أسلفنا ، أولا أنه في العصر الروماني كان يعيش خارج هذه المدن الاغريقية الثلاث فرسان من الاغريق كان أحدهما عبارة عن مواطني عواصم المديرية الذين كانوا يؤلفون طبقة ممتازة وكان الفريق الآخر عبارة عن الاغريق الذين لم يكونوا أصلا أعضاء في جاليات اغريقية أو كانوا أعضاء في جاليات وآثروا البقاء في قراهم على

واستنزفت مواردهم على مر الزمن . ولعل أسعد الاغريق حظا كانوا مواطني المدن الاغريقية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص . ومع ذلك فان أولئك المواطنين لم ينظروا بعين الرضى الى حكم الرومان فقد سبقت الاشارة الى أن عداة الاسكندريين لليهود كان يخفى في طياته عداةم للرومان ، وذلك لأن معاداة اليهود كانت أسلم عاقبة من مناصبة الرومان عداة سافرا . وسبقت الاشارة كذلك الى أن «أعمال الاسكندريين» التي صادفت رواجا كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل أنحاء البلاد كانت تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان . وهذا أبلغ دليل على أن الاغريق بوجه عام كانوا يكرهون الحكم الروماني كرها شديدا ويتمنون زواله .

وتحدثنا وثيقة من القرن الثاني للميلاد بأن التزاوج بين الاغريق والمصريين كان يعتبر غير مشروع في قرطيس ، ومن المرجح أن ذلك كان الحال أيضا في الاسكندرية وبطوليميس بسبب الرغبة في المحافظة على العنصر الاغريقي . فلماذا اذن أبيح التزاوج في انطينوؤ بوليس ؟ يرجع البعض أن يكون السبب في ذلك هو رغبة الامبراطور هادريان، مؤسس هذه المدينة ، في صبغ المصريين بصبغة اغريقية عن طريق مزجهم مع الاغريق في بيئة تسودها التأثيرات الاغريقية لكن لو صح أن هذا كان الهدف الحقيقي لكان تحقيقه أتم

ولا جدال أيضا في أن الأدب والفنون كانت  
أسمى مظاهر هذه الحضارة التي ظلت  
الاسكندرية أهم مراكزها في العصر الروماني  
وبفضلها بقيت الحضارة الأخرقية منتعشة في  
مصر طوال هذا العصر . فقد شهدت  
الاسكندرية عندئذ نشأة فلاسفة وكتاب  
وجغرافيين مثل فيلون واخيلس تاتيوس  
وبطلميوس ، وكان للأقاليم أيضا نصيبها في  
هذه الحركة الأدبية فقد ولد العالمان اثينا يوس  
وبولوكس في نقرطيس والفيلسوف فلوطين  
في أسسيوط ( ليكوبوليس ) . والبرديات  
الوفيرة التي كشف عنها في أوكسيرانخوس  
( البهنسة ) — وكانت عاصمة إحدى  
مديريات مصر الوسطى — خير شاهد على  
شغف المثقفين في هذه العاصمة الريفية بقراءة  
مختلف ألوان الأدب الاغريقي الى حد يثير  
الدهشة . فالبرديات لا تقتصر على عيون  
الأدب الاغريقي القديم مثل أشعار هوميروس  
وقصائد هيسود بل تتضمن كذلك أغاني  
سافو وروايات مناندر وقصائد كاليماخوس  
فضلا عن كثير من المؤلفات التي كان بعض  
الباحثين المحدثين يظنون أنها لم تكن متداولة  
عندئذ مثل أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين  
كأناشيد الشكر وغيرها من منظومات پندار  
والشعراء المعاصرين وكذلك روايات  
ايسخيلوس المفقودة وروايات سوفوكليس  
ويوريبيديس واريستوفانيس . ولما لم تكن  
لاوكسيرانخوس أي ميزة خاصة على أي

الانتقال الى عواصم المديريات وتيسيرا  
للكلام عن أفراد هذا الفريق فلنطلق عليهم  
عامة الاغريق . وثانيا أن التسجيل في طبقة  
من الطبقات الممتازة كان يقتضى بحث حالة  
الراغبين في ذلك للتأكد من انتماء الأبوين في  
كل حالة الى تلك الطبقة . واذا جاز أن  
القانون كان لا يحظر التزاوج بين مواطني  
عواصم المديريات وبين المصريين فانه كانت  
تحظره مراعاة صوالح أبناء أولئك المواطنين،  
أي ضمان انتمائهم الى الطبقة الممتازة. والواقع  
أن لوائح الايديولوجوس لا تدع مجالا  
للسك في أن التزاوج كان محظورا بين الذين  
ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة . وبما  
أن عامة الاغريق لم ينتموا الى طبقة اجتماعية  
ممتازة . فانه لم يحظر تزاوجهم مع المصريين  
قانون ولا مراعاة صوالح . ولعلمهم نتيجة  
لطول استقرارهم في البلاد وعدم ممارستهم  
أساليب الحياة الاغريقية مع اختلاطهم بأهالي  
البلاد وتعبدهم الى الالهة المصرية أصبحوا  
شديدي الشبه بالمصريين وتزاوجوا معهم ولم  
ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة  
المصرية فيمن استوعبتهم .

#### (ب) حضارة الاغريق :

ولا جدال في أن المدارس والمعاهد  
الاجريقية كانت أهم دعامة للحضارة الاغريقية  
فهي التي كانت تفتح للناس آفاق الفكر  
الاغريقي وتغذي عقولهم ونفوسهم بشماره

التعليم فقد كان التلاميذ يكلفون بنقل بعض الأبيات للتمرين على كتابتها أو شرحها والتعليق عليها أو لتكون مادة لدرس في الأخلاق . وكان يعنى بهذه الناحية عناية كبيرة فقد كان المدرسون يختارون كثيرا من الحكم والأمثال لتمرين التلاميذ على المطالعة .

ويبدو أن المرحلة الثانية كانت مقصورة على أبناء الصفوة الممتازة في عاصمة كل مديرية وهى التى كان يطلق عليها « أهل الجيمينازيوم » فقد كانت تلك الطبقة تتألف ممن التحقوا في صباهم بمنظمة تدريب الشباب وتعلموا في الجيمينازيوم اذ كان الالتحاق بهذه المنظمة يخول حق الالتحاق بالجيمينازيوم ويقتضى اثبات اتماء الأدب الى هذه المنظمة وانحدار الابن من أبوين حرين . وكان التلاميذ يدرسون في هذه المرحلة النحو والبلاغة والأدب والفلسفة والرياضيات . ويبدو أن الذين كان يعز عليهم دخول الجيمينازيوم لكن مواردهم كانت تسمح لهم بمتابعة الدراسة كانوا يلجأون الى مدرسين خصوصيين لهذا الغرض . وكان ذلك أيضا حال الذين يريدون تعلم مواد خاصة مثل الموسيقى أو الاختزال . وتحدثنا بردية بأن أحد مواطنى أوكسيرينخوس أرسل عبده لتعلم الاختزال على يدى معلم مختص حدد مدة الدراسة بعامين على أن يقتضى أجره على ثلاث دفعات ، كانت أولها في البداية والثانية والثالثة عند بلوغ العبد مرحلتين معينتين من التقدم .

عاصمة أخرى من عواصم المديريات فلا بد من أن الحال كان مماثلا فيها جميعا وهذا يدل على أمرين وأحدهما وجود جمهور كبير من الشعراء وتبعاً لذلك وجود تجارة رائجة في الكتب ، والأمر الآخر أنه كان في متناول المثقفين في طول البلاد وعرضها مجموعة كبيرة من المؤلفات الاغريقية التى لم يصلنا منها الا قدر طفيف .

وبقدر ما كانت الأمية فاشية بين عامة الاغريق كان أثرياًؤهم وأهل الطبقة الوسطى منهم يقبلون على التعليم . وكان التعليم الاغريقى يعنى بتربية الجسم والعقل معا ، وكانت التربية البدنية تشمل الألعاب الرياضية وكذلك التدريبات شبه العسكرية الخاصة بالشباب . أما التربية العقلية فكانت على ثلاث مراحل يباشر أولها المدارس الأولية ويرجح أنها كانت من الطراز الاغريقى المؤلف ونستطيع أن نتبين مما عثر عليه من الأدوات التى كان التلاميذ يستخدمونها بكثرة ( كسر الفخار والألواح الخشبية المكسوة بالشمع والأوراق البردية ) انهم في المرحلة الأولية كانوا يتعلمون القراءة والكتابة تدريجياً بادئين بالحروف الأبجدية فتكوين المقاطع فالكلمات فالجمل ثم نقل فقرات من كتب معينة والتمرين على الاملاء والانشاء . وكان التلاميذ يدرسون الأدب والنحو والحساب . وكانت أشعار هوميروس تستخدم على نطاق واسع في كل مراحل

وفضلا عن ذلك فانه في الأعياد الدينية وأعياد جلوس الأباطرة على العرش وأعياد ميلادهم كانت تقام حفلات عامة تتخللها الاستعراضات والمهرجانات . والى جانب ذلك كانت تقام من حين لآخر حفلات رياضية يتبارى الناس فيها في مختلف الألعاب الرياضية من جرى وملاكمة ومصارعة وما الى ذلك . وكانت توجد حتى في عواصم المديرية مسارح أو قاعات للموسيقى كانت تمثل فيها عادة الكوميديات الشعبية والتمثيلات الهزلية ومن حين لآخر روايات من التراجيديا الكلاسيكية ومن « الكوميديا الجديدة » . وكانت أيضا تجوب البلاد فرق للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية .

### ٣ - اليهود :

لقد مر بنا عند الكلام عن عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد لكن أكثرهم كانوا يعيشون في الاسكندرية وأن البطالمة منحوا الجالية اليهودية في الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم يمنحوه لأى جالية أخرى في أى مدينة اغريقية لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين . وفي كنف الرعاية التى استظل اليهود بها في عهد أكثر ملوك البطالمة ازدهرت حالهم وزاد عددهم حتى بلغوا في أوائل عهد الرومان مليون نسمة كان خمسهم تقريبا يعيش في الاسكندرية . وقد عرفنا أن الرومان

أما المرحلة الثالثة أو مرحلة التعليم العالى فيبدو أنها كانت مركزة في الاسكندرية وان كانت الوثائق تشير الى وجود أساتذة جامعة الاسكندرية في أنحاء مختلفة في البلاد . وقد كانت جامعة الاسكندرية أساسا معهدا للبحث أكثر منه للتدريس ويحتمل أنه كان متروكا لأساتذتها مطلق الحرية في أن ينصرفوا الى البحث كلية أو في القاء المحاضرات الى جانب القيام بأبحاثهم . لكن في القرن الثالث عندما أوقفت الحكومة الاتفاق على الجامعة لم يجد الأساتذة أمامهم مفر من التدريس أو أداء أى عمل آخر لتكسب قوتهم . فنجد مثلا أحد أساتذة الجامعة يتولى منصب قائد مديرية الفيوم ولا جدال في أنه كان يتعذر القيام بمهمة التدريس بانتظام في الاسكندرية في خلال الأعوام الثلاثة التى تولى فيها منصبه الادارى في الفيوم . ومنذ أسس پنتاينوس (Pantaenus) المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية في القرن الثانى لم تعد الجامعة المركز العلمى الوحيد هناك ، فقد قامت المدرسة على أكتاف أساتذة عظام نافسوا أساتذة الجامعة الوثنيين وكان لنشاطهم العلمى آثار ملموسة ونتائج باقية على الزمن . ويتبين من الوثائق البردية أن الاغريق بوجه عام كانوا يميلون الى اشاعة البهجة في نفوسهم باقامة مختلف الولائم للغذاء أو العشاء واقامة الحفلات الخاصة بأعياد الميلاد أو المناسبات الاجتماعية الخاصة الأخرى .

أقروا الامتيازات التي اكتسبتها الجالية اليهودية في الاسكندرية منذ عهد البطلمة لكنهم فرضوا على يهود هذه الجالية ويهود مصر جميعا أداء ضريبة الرأس كاملة .

ويحدثنا فيلون بأن يهود الاسكندرية كانوا يتكونون من الفئات التالية :  
١ - أصحاب رءوس الأموال ٢-المشتغلون في النقل البحري ٣ - تجار التجزئة ٤ - الصناع وأصحاب الحرف ٥ - المشتغلون بالزراعة في الأراضى المحيطة بالاسكندرية . وتشير الدلائل الى أنه منذ عصر البطلمة كان يهود الاسكندرية يميلون الى اتخاذ أسماء اغريقية وارتداء ملابس اغريقية ويقبلون على تعلم الاغريقية والتزود من الثقافة الاغريقية . واذا كان بعضهم قد انحرفوا عن اليهودية أو صبأوا فإن أغلبهم استمسكوا بديانتهم وحرصوا على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم . واذا أضفنا الى ذلك ممالأتهم للرومان أدركنا لماذا كان اليهود في نظر الاغريق عنصرا غريبا عنهم كرها اليهم لا يقبلونه في مجتمعهم ويرون الخير كل الخير في قطع دابره مما أفضى الى تلك المنازعات الدامية التي سبق الكلام عنها .

وكان المجتمع اليهودى خارج الاسكندرية يتكون من الفئات التالية :  
١ - أصحاب الأراضى ٢ - أصحاب المهن الحرة من المشتغلين بالتجارة وأعمال النقل في النيل ومن موانى البحر الأحمر واليها

٣ - أرباب المهن الوضيعة والعييد المحررين . واذا كان أكثر يهود الريف ثراء حاولوا التشبه بالاغريق فانه لم يسمح لهم بالاندماج في المجتمع الاغريقى . أما جموع يهود الريف وكانوا يشاركون المصريين بيئتهم ويمارسون المهن والحرف ذاتها فان القرائن تدل على أنهم تشبهوا بالمصريين فشاعت الأسماء المصرية بينهم بل عثر في مصر الوسطى على تابوت خشبى يحمل نقوشا عبرية ويحتوى على مومياء محنطة كما عثر أيضا في الفيوم على مومياء تحمل صور أصحابها وأسماء يهودية، ومع ذلك ازاء قلة الأدلة التي لدينا يصعب الجزم بأن كل يهود الريف قد تأثروا بالبيئة المصرية الى حد أنهم كانوا جميعا يحنطون جثث موتاهم . فقد توافرت لهم في الريف أسباب الاحتفاظ بدينهم ومتابعة حياتهم الخاصة اذ أن القرائن تشير الى أنهم في الوجهين البحرى والقبلى كانوا ينظمون في جاليات لكل منها بيعتها والى انهم في بعض المدن مثل ارسينوى وأوكسيرينخوس وادفو كانوا يقيمون في أحياء خاصة بهم . وتشير القرائن أيضا الى أن ثورة ١١٥ - ١١٧ لم تفض الى القضاء على المجتمع اليهودى في الريف المصرى ، وكل ما فى الأمر أن هذا المجتمع قد أصابه عندئذ من الكوارث ما تطلب وقتا طويلا ليعيد بناء كيانه ويستأنف نشاطه من جديد .

واذا كان الرومان قد أظهروا عطفهم على

معبد من دفع ضريبة الرأس فانها عملت بعد ذلك على اقصاء هذا العدد . ولا جدال في أن الغالية العظمى من رجال الدين المصريين احتفظوا بثقافتهم القديمة الخاصة التي كانوا يتوارثونها ويتعاونون على المحافظة عليها ويعملون على بث تعاليمها في نفوس مواطنيهم . ومع ذلك يصعب أن تتصور أن النابهين منهم على الأقل لم يأخذوا بقسط من الثقافة الأخرى .

وكانت تلى هذه الفئة في الأهمية فئة أصحاب الأراضي وكان أفرادها على شيء من اليسر ودأب كثير منهم على التشبه بالأغريق فتعلموا الأخرى واتخذوا أسماء أجنبية وملابس أجنبية وتزوجوا مع عامة الأخرى المنتشرين حولهم في أرجاء البلاد . ومع ذلك لم تكن صنعتهم الأخرى الا طلاء بخارجيا فقد كان من العسير فصح صلتهم بالماضي وتغير طابع عقليتهم أو دخائل نفوسهم بسبب استمساكهم بديانتهم التقليدية . وعلى كل حال من الراجح أن صبغتهم الأخرى لم تكسبهم أى ميزة من ناحية وضعهم القانوني بمعنى أن الحكومة الرومانية لم تساوهم بمواطني المدن الأخرى ولا حتى بمواطني عواصم المديرية ، ولم تعتبرهم الا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تبعات . بل لعلمهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حالا من غيرهم من المصريين إذ أن الأمر في حالهم لم يقف عند حد أداء الضرائب المفروضة عليهم

اليهود بالاعتراف لهم بامتيازاتهم القديمة فان اليهود لم يرضوا عن الرومان لأنهم رفضوا ادماج يهود الاسكندرية في عداد مواطني تلك المدينة ولم يحموهم من عداة الاسكندريين لهم وفرضوا على يهود مصر ضريبة الرأس كاملة ، وكالوا لهم ضربات شديدة منذ ثورة فلسطين في عام ٦٦ مما أفضى الى ثورتهم الخطيرة في عهد تراجان التي كانت محاولة يائسة جريئة للتخلص من نير الحكم الروماني . ولا يدل استسلام اليهود بعد ذلك ومسالمتهم للرومان على رضائهم عن الحكم الروماني بقدر ما يدل على رضائهم بحكم الظروف التي كانت أقوى منهم .

٤ - المصريون :

( ١ ) فئاتهم :

كان المصريون في العصر الروماني يتألفون من عدة فئات ، كانت فئة الكهنة أعظمها شأنًا وأرفعها مقاما وأوسعها نفوذا مما حدا بالرومان الى اقتفاء أثر البطلمة الأوائل في اضعاف قوة رجال الدين المصريين . فانتزعوا ملكية جانب من أراضي المعابد وأسندوا الى الحكومة ادارة جانب آخر من هذه الأراضي ووضعوا رجال الدين تحت سيطرتهم وأقصوا عدد المعابد التي تتمتع بحق حماية اللاجئيين اليها . واذا كانت الحكومة الرومانية قد أعفت أول الأمر عددا معينا من كهنة كل

المصريين وكانت غالبيتهم العظمى تشتغل بالزراعة وكثيرون منهم يمارسون مختلف الحرف والصناعات . وقد فرض الرومان عليهم جميعا كافة الالتزامات وأداء ضريبة الرأس كاملة وحرموا عليهم استعمال اللغة الديموتيقية حتى في عقود معاملاتهم الخاصة.

#### (ب) حضارة المصريين :

وإذا كانت الأمية فاشية بين عامة الأغرقي فلا جدال في أنها كانت فاشية كذلك بين جموع المصريين الذين استمروا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، متمسكين بدياتهم الى أن اعتنقوا المسيحية طوعا أو كرها .

وهكذا يبدو أن الغالبية العظمى من المصريين كانت تعيش بمعزل عن الحضارة الاغريقية فلم يظفر بحظ منها الا قلة قليلة . وإذا كانت المعابد الكبرى قد احتفظت بالمدارس الملحقه بها فقد انقضى ذلك العهد الزاهر الذي بلغت فيه بعض هذه المدارس شأوا بعيدا ونزلت مدارس المعابد عن تلك لمكانة السامية لجامعة الاسكندرية مدرستها المسيحية الكبرى . وازاء اقبال الموسرين من المصريين على التعليم الاغريقي وتفشى الأمية بين جموع المصريين وتحظير استعمال الديموتيقية حتى في العقود الخاصة لا يبعد أن تكون سوق المدارس الأهلية القديمة قد كسدت الى حد اضطرت معه الى

بل كان يتعدى ذلك الى الاسهام في زراعة الأرض المهجورة وأداء الضرائب المفروضة عليها . فضلا عن ذلك كانت الحكومة تختار منهم صغار موظفيها المحليين لمامهم بالاغريقية ولما لديهم من أملاك كانت تستطيع أن تستوفى منها استحقاقاتها في حالة قصورهم عن النهوض بالتزامات وظائفهم على نحو يحقق لها أغراضها كاملة . ولعله كان يكون جانبا من هذه الفئة فئة المحاربين المصريين التي ارتفع شأنها في الشطر الثاني من عصر البطالة ومنح أفرادها اقطاعات لا بأس بها . وعلى كل حال فانه لم يعد لفئة المحاربين المصريين القديمة كيان مستقل في العصر الروماني فقد منع المصريون من الانخراط في سلك الفرق الرومانية حتى في القرن الثاني عندما اضطر الرومان الى التجنيد محليا فالرومان لم ينسوا ما حدث في عصر البطالة عندما أدى الاعتماد على المصريين في موقعة رفح ( عام ٢١٧ ق.م ) الى انعاش الروح القومية في البلاد واندلاع لهيب الثورات الوطنية ضد البطالة . ولذلك كان التجنيد المحلى في العصر الروماني — على الأقل حتى منح المصريون حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى دستور كركلا — مقصورا على الاغريق والشرقيين المقيمين في مصر . ومع ذلك كان يسمح للمصريين بالعمل في أسطول مسينوم فقط .

وكان يأتي في مؤخرة المؤخرة عامة

عندما ثارت هيرودونبوليس ( تل المسخوطة في شرق الدلتا ) زحف عليها كورنيليوس جالوس وأخضعها .

ولا تذكر المصادر القديمة نشوب ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك الا الثورة المعروفة « بحرب الرعاة » التي وقعت في عام ١٧٢ في منطقة الدلتا الساحلية شرقى الاسكندرية . وقد تزعم هذه الثورة كاهن مصرى يدعى اسيدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من المزارعين تمكنوا من القضاء على الحامية الرومانية في منطقتهم وكذلك من هزيمة الكتائب الرومانية التي تصدت لهم ، حتى خيف من وقوع الاسكندرية في قبضتهم مما اقتضى استدعاء نجدة من سوريا خف على رأسها افيديوس كاسيوس حاكم تلك الولاية ( عام ١٧٥ ) . وقد لجأ افيديوس الى حيلة المفاوضات حتى نجح في بث الفرقة بين صفوف الثوار ثم قاتلهم متفرقين واتصر عليهم فنادت به الفرق السورية امبراطورا لكنه لم يلبث أن لقي حتفه بعد ذلك بقليل . وليس أبلغ في الدلالة على سوء الحكم الذى أقامه الرومان في مصر من أنه لم يصادف رضا من أى فريق ممن كانوا يعيشون في مصر عندئذ سواء أكانوا من الاغريق أم اليهود أم المصريين .

اغلاق أبوابها . ولعل أهم ما صحب انتشار المسيحية في مصر الى جانب انشاء المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية كان قيام بعض المدارس لاعداد القساوسة واستبدال الانجيل بهوميروس في المدارس التي كانت منتشرة في عواصم المديرية وسبق الكلام عنها في معرض الحديث عن التعليم الاغريقى .

### (ج) ثورات المصريين

وبرغم الفشل المرير الذى انتهى اليه كفاح المصريين ضد البطالة ، وبرغم القوة الكبيرة التي وضعها الرومان في مصر فانه لم تكدمضى شهور قليلة على الفتح الرومانى حتى هب المصريون ثائرين على الغزاة الجدد . وقد رفع لواء الثورة ضد الرومان منطقة طيبة التي مر بنا أنها أقضت مضاجع البطالة بتزعمها الحركات الثورية ضدهم مما حدا ببطلميوس التاسع الى شن حرب ضروس على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتخريبها تخريبا . ويبدو أن الثورة الجديدة بلغت من الخطورة حدا اضطر معه أول حاكم رومانى لمصر ( كورنيليوس جالوس ) الى تجريد حملة قوية لقمعها . ويبدو كذلك أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل أسهمت فيها الدلتا أيضا اذ أن استرابون يحدثنا بأنه

## الفصل الثامن

### الآداب والعلوم والفنون

انطونيوس پولون ، أو ليعرضوا مواهبهم في سوقها العملية مثل ديون وايليسوس - اريستيدس . وذلك فضلا عن الكثيرين من الطلاب الأجانب الذين ظلوا يقضون الاسكندرية لتلقى العلم فيها وخاصة الطب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل .

#### أولا - الآداب

##### ١ - دار العلم ( الجامعة ) والمكتبة :

وقد استمرت الجامعة مدة طويلة مركزا للبحث العلمي ومقرا للعلماء تستضيفهم فيه الدولة على نفقتها وتجرى عليهم المرتبات . وإذا كان الأصل في التعيين في الجامعة أن يتوقف على مكانة الشخص العلمية أو الأدبية فإن القرائن توحى بأن المعايير لم تلبث أن تغيرت فمثلا عين هادريان رجلا يدعى بانكراتس كل ما يعرف عنه أنه سبج بجمد الامبراطور وخليه انطينوؤس في قصيدة وصل الينا جزء منها . وتحدثنا وثائق القرن الثاني بأنه كان بين رجال الجامعة عندئذ بعض كبار رجال الدين والموظفين المدنيين والضباط الرومان بل أحد الرياضيين . وقد أضاف

عرفنا أنه في العصر الروماني كانت الاسكندرية لا تزال مدينة عظيمة وتعتبر ثاني مدينة في الامبراطورية الرومانية بعد روما مباشرة وان الرومان كانوا يعطفون على الحضارة الاغريقية ويجلونها ويكلاون جامعة ( دار العلم ) الاسكندرية برعايتهم . لكن الاسكندرية لم تعد عاصمة دولة خطيرة ومقر بلاط فخور كان يضع نصب عينيه جعلها عاصمة الحضارة الاغريقية ويعنى بأن يجتذب اليها أبرز رجال الفكر والفن وبأن يوفر لهم من الرعاية ما يحفز همهم ويشجذ قرائحهم . ومع ذلك فإن الاسكندرية تابعت نشاطها وكان لها نصيب الأسد في حياة مصر العقلية وان كانت لم تحتكر انجاب البارزين من رجال الفكر والقلم فقد ولد في تراقطيس العالمان ائينايوس وپولوكس ، وفي ليكوپوليس ( أسيوط ) الفيلسوف فلوطين . ولا أدل على احتفاظ الاسكندرية بمكانتها العالمية مما تشير اليه المصادر القديمة من شغف النابيين من الغرباء بالوفود عليها حتى أواخر القرن الثاني الميلادي اما لينهلوا من مواردها مثل پلوتارخ ولوكيانوس وماركوس

بمعد قيصر . وقد ظلت هذه المكتبات تمد الباحثين بما يحتاجون اليه من المصادر والمراجع الى أن ذهب بعضها ضحية لأعمال التخريب التي قام بها جنود زنوبيا والبعض الآخر ضحية للصراع بين المسيحية والوثنية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة .

وقد تابع علماء جامعة الاسكندرية في العصر الروماني ما ابتدعه أسلافهم في عصر البطالمة من تحقيق النصوص الأدبية ونقدها والتعليق عليها . وقد كان من أبرز هؤلاء الباحثين فيلوكسينوس الذي ذاعت شهرته في عهد تيريوس الى حد انه دعى للتدريس في روما . وقام معاصره پامفيلوس بجمع عدد هائل من التعبيرات النادرة التي استخدمت في الآداب الكلاسيكية . وكلف اريستونيكوس بالدراسات الهومرية فشرح هومش اريستارخوس ونقدها وأكملها . وحوالى الوقت ذاته أخرج ثيون معجما للتراجيديا والكوميديا ووضع تعليقات لأعمال شعراء الدراما واپولونيوس الرودى . وذاعت أيضا عندئذ شهرة ابيون الذى نال تقدير تيريوس وان كان الامبراطور ضاق ذرعا بثرثرته والاشادة بنفسه . وقد ألف ابيون معجما للشعار الهومرية سطا عليه يوستائس . وقد كان أبرز فقهاء القرن الثانى ابولونيوس « المتزمت » ونيكانور واپليوس ثيون .

الامبراطور كلاوديوس الى مبنى الجامعة ملحقا حمل اسمه وكانت تتلى فيه يوميا مؤلفات هذا الامبراطور المؤرخ . ولا ريب فى أنه عندما أوقف كركلا فى صدر القرن الثالث الانفاق على الجامعة كان لذلك أثر بعيد المدى فى نشاط البحث العلمى اذ أنه لم يعد فى وسع الأساتذة الانصراف الى بحوثهم مع القاء بعض المحاضرات من حين لآخر بل أصبح يتعين عليهم التدريس أو أداء أى عمل آخر لقاء أجر يتعيشون منه . وقد نزلت بالجامعة نكبة أخرى فى عام ٢٦٩ / ٢٧٠ عندما انقض جنود زنوبيا على حى بروخيون وأوسعوه نهبا وتخريرا ولم تنج مباني الجامعة من هذا التدمير الذى لم يفض على كل حال الى القضاء على الحياة العلمية والأدبية فى الاسكندرية اذ نجد تنويها عنها واشادة بها فيما كتبه المؤرخ اميانوس ماركلينوس حوالى نهاية القرن الرابع الميلادى .

وقد مر بنا أنه عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصرى فى خلال « حرب الاسكندرية » فى عام ٤٧ ق.م. وامتد اللهب الى رصيف الميناء وأحرق المباني المجاورة له ، ذهبت المكتبة الكبرى طعما للنيران بدليل أن انطونيوس عوض كليوبتره عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠٠٠٠٠ مجلد من مكتبة برجامون . وقد كانت توجد فى الاسكندرية مكتبتان أخريان ، كانت احدهما ملحقه بمعد السيرايوم وكانت الأخرى ملحقه

يحتل شعر الاسكندرية مكانا متواضعا بين آدابها في العصر الروماني ، فالاسكندرية لم تعرف في هذا العصر شاعرا بارزا واحدا يمكن مقارنته بكاليماخوس أو اپولونيوس أو ثيوكريتوس ، وان عرفت جمهرة من الشعراء المتواضعين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الاسكندري من حيث خلوه من العواطف السياسية والشعور بالتقوى نحو الالهة القديمة وكذلك من حيث كلفه بأفاق العلم المختلفة وتصوير المشاعر الانسانية والاشادة بالحياة البسيطة لكنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين وانما يصطنعون الشعر اصطناعا . ولعل أبرز أولئك الشعراء المتواضعين اثنان كان أحدهما دئيس الاسكندري الذي عاصر هادريان وألف قصيدة جغرافية وصف فيها ليبيا والجناب الأكبر من آسيا وأوربا معتمدا في ذلك على خريطة العالم البطلمي اراتو سثينيس . وقد قدر لهذه القصيدة أن تعمّر طويلا فانها ترجمت الى اللاتينية واستخدمت في تدريس الجغرافيا في المدارس . أما الشاعر الآخر فانه كان من أبناء واحة سيوة ويدعى سوتريوخوس وألف قصيدة في وصف مسقط رأسه وأخرى في مدح الامبراطور دقلديانوس وعددا آخر من القصائد عن ديونيسوس والاسكندر الأكبر وغير ذلك من شتى الموضوعات .

وقد تأثر نثر الاسكندرية في العصر الروماني باتجاهات مدارسها الفلسفية التي تمتعت بمكانة كبيرة ولا سيما ان الفلاسفة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم كانوا يعتبرون في ذلك العصر أطباء النفوس . واذا كانت مختلف المدارس الفلسفية القديمة قد تابعت نشاطها فان الفيثاغورثية الجديدة احتلت مكان الصدارة بينها الى أن اندمجت في خلال القرن الثالث في الأفلاطونية الجديدة . وكانت الفيثاغورثية الجديدة تتألف من عناصر استمدت من الفيثاغورثية القديمة ومن فلسفات أفلاطون والمشائين والرواقين ومزجت سويا على نحو يوائم الاتجاهات الدينية المعاصرة فقد وجهت عناية خاصة الى التأملات الدينية والمذاهب الخلقية . وقد كان للفيثاغورثية الجديدة أثر كبير أولا في الأفكار اليهودية عن طريق الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندري وثانيا في الأفكار المسيحية عن طريق كليمنس (Clemens) واوريجينس (Origenes) وثالثا في الأفلاطونية الجديدة . ويعتبر فيلون أعظم المفكرين اليهود الذين يمثلون التقاء اليهودية والوثنية كما تعتبر مؤلفاته نموذجا لاتساج يهود الاسكندرية الأدبي في العصر الروماني . ويتبين مدى تأثر فيلون بالفيثاغورثية الجديدة من أنه استعار منها الكثير من أفكاره ومنهجه في وضع فلسفته التي كانت تستهدف الخروج

ومداها فان الشك لم يرق اطلاقا الى قيمتها الكبيرة .

وقد كانت الافلاطونية الجديدة مزيجا من فلسفة أفلاطون وارسطو والرواقين والفيثاغورثية الجديدة . وقد أصبحت الافلاطونية الجديدة الفلسفة الرئيسية عند الوثنيين من حوالى منتصف القرن الثالث حتى قضى چوستينانوس باغلاق المدارس الوثنية فى عام ٥٢٩ . وكان أبرز مفكرى هذه الفلسفة امونيوس ساكاس (Amonios Saccas) الاسكندرى وفلوطين الأسيوطى وتلاميذ فلوطين .

وكان من أوسع كتاب الاسكندرية فى أواخر القرن الثانى علما وثقافة اثيناىوس (Athenaeus) النقراطيسى الذى أكسبه شهرة كبيرة كتابه الضخم «مأدبة الفلاسفة» . وقد حاول أن ينحو فى كتابه نحو بعض الفلاسفة القدامى فى عرض آرائهم فى شكل أحاديث المآدب لكنه لم يرق الى مستواهم . وقد دامت «مأدبة» اثيناىوس بضعة أيام دار فيها الحديث فى الفلسفة والآداب والقانون والطب وغير ذلك من الموضوعات التى مثلها عدد من الضيوف أجرى المؤلف على لسانهم مقتطفات استمدتها من عدد كبير من الكتاب وقد تمتع اخيلس تاتيوس (Achilles Tattius) ، مؤلف قصة ليوكيبى وكليتوفون (Leukippe and Klitophon) بمكانة كبيرة فى العصور المتأخرة وأفاض نقاد العصر

بالفلسفة اليهودية من أفقها الضيق الى أفق أوسع بعد تجريدتها من كل مظاهرها العنصرية . وعندما قام فيلون بشرح التوراة والتعليق عليها عالج ذلك بالطريقة الرمزية على نهج الفيثاغورثية الجديدة فتحولت الشخصيات الدينية فى التوراة الى مجرد رموز للأفكار المجردة واكنسبت التعاليم الموسوية مظهرا جديدا جعلها رمزا لأفكار اغريقية عميقة .

وقد كان كليمنس ومن بعده اوريجينيس أبرز أساتذة المدرسة المسيحية الكبرى فى الاسكندرية . ويمثل هذان الأستاذان اتجاها جديدا للمكرين المسيحيين استبدل بمناصبه الوثنية عدااء شديدا يكشف عن ضعفها ويرد الاعتداء عن المسيحية — استبدل الاتجاه الجديد بذلك الدعوة الى الامام بثقافة العصر واستخدام أساليب الفلسفة فى نشر العقيدة المسيحية وتفسيرها . وقد جمع كليمنس الى قوة ايمانه بالمسيحية الامام الواسع بالأدب الاغريقى وبذل جهدا كبيرا للتوفيق بين الثقافة الاغريقية والديانة المسيحية . أما اوريجينيس فانه كان أقل من كليمنيس الاما بالآداب الاغريقية لكنه كان أعمق منه تفكيرا وأدق فهما للمذاهب الفلسفية وأكثر دراية بمناهج البحث العلمى وأوسع قدرة على الابتكار . وقد أسهمت المدرسة المسيحية فى تحقيق نص للانجيل موثوق به ، ومهما اختلف الباحثون فى تقدير طبيعة هذه المساهمة

شمولا ولذلك بقى مرجعا لكل دارسى  
الجغرافيا حتى بداية العصور الحديثة .

ثانيا - العلوم :

١ - الطب والجراحة :

وقد تابع أساتذة الطب والجراحة نشاطهم  
فى الاسكندرية وظلت هذه العاصمة القديمة  
تحتفظ بشهرتها فى هذا الميدان على الأقل  
حتى أواخر القرن الرابع عندما كتب اميانوس  
ماركليسوس يقول انه كان يكفى الطبيب  
للتدليل على مهارته قوله انه تعلم فى  
الاسكندرية . وينهض دليلا على مكانة  
الاسكندرية فى عالم الطب كثرة عدد الذين  
كانوا يقصدونها من مختلف أنحاء الدنيا  
لدراسة الطب على أساتذتها الذين تابعوا  
اهتمامهم بالتشريح وكان كثيرون منهم  
يعتزون بأنهم من أتباع المدرسة التجريبية التى  
ترجع الى عهد البطالمة . وقد درس فى  
الاسكندرية أشهر أطباء هذا العصر وأعظمهم  
جميعا « كلاوديوس جالينوس » الذى ولد  
فى برجامون فى عام ١٢٩ وزاول مهنته بعض  
الوقت فى وطنه ثم فى روما الى أن توفى هناك  
فى السبعين من عمره .

ويعطينا كلسوس (Celsus) صورة  
شاملة عن الطب والجراحة فى الاسكندرية فى  
صدر العصر الرومانى . ويستهل كلسوس  
كتابه عن الطب (de re medica) —  
وهو ينقسم الى ثمانية أجزاء — بتاريخ

البيزنطى فى الثناء عليه . وأبرز ما يتصف به  
اخيلس تفضيله الواقعية على المثالية وميله  
الى اثاره مشاعر القارئ بمهارته الفائقة فى  
الوصف وأسلوبه الذى يتدفق حيوية .

وتتسم كتابة التاريخ فى هذا العصر  
بعنايتها بالتأثير فى النفس أكثر من عنايتها  
بتحرى الحقيقة ، وببطلميوس خمنوس  
(Chemnus) خير من يمثل هذه الظاهرة التى  
تتضح فى مؤلفه « تاريخ جديد للاستزادة فى  
نواح كثيرة » . ويبدو أن هذا التاريخ  
مجموعة من القصص التى قرأها المؤلف أو  
سمعها . ولعل ايبانوس (Appianus) كان  
أبرز مؤرخى الاسكندرية فى هذا العصر لكن  
مؤلفه الضخم فى التاريخ الرومانى أكثر تأثرا  
بالطابع اللاتينى منه بالطابع الاسكندرى ،  
اذ أن ايبانوس بعد أن حصل على الجنسية  
الرومانية رحل الى روما وعاش هناك حيث  
يرجع أنه وضع مؤلفه فى عصر أنطونينوس  
بيوس . وقد شارك فى كتابة التاريخ أيضا  
العالم الفذ كلاوديوس بطلميوس لكن شهرته  
كجغرافى ورياضى تبرز شهرته كمؤرخ . فكتابه  
فى الجغرافيا يتألف من ثمانية أجزاء وأطلس  
وكان يستهدف على حد قوله استخدام أحدث  
المعلومات فى تصحيح خريطة العالم التى  
وضعها جغرافى عاش قبله وكان يدعى  
مارينوس الصورى . وبرغم ما يتضمنه كتاب  
بطلميوس من أخطاء فانه يعتبر بوجه عام  
أدق المؤلفات الجغرافية القديمة وأكثرها

## ٢ - العلوم الرياضية :

وإذا كانت فروع العلم الأخرى قد أهملت في العصر الروماني ، فإنه كان للعلوم الرياضية شأن آخر . وليس هناك مجال لأن نعزو أى فضل فى ذلك الى رعاية الرومان ، فقد كانوا يحققون العلوم البحتة فيما عدا ما كان يمكن افادته من تطبيقاتها .

وقد عرفت الاسكندرية رياضيين عظاما مثل منلاوس (Menelaus) وسرينوس (Serenus) وپاپوس (Pappus) الذين عنوا بدراسة الهندسة ولهم فيها مؤلفات قيمة لكن مؤلفات سرينوس لم ترق الى مستوى مؤلفات العالمين الآخرين التى ترجمها العرب وبفضلهم وصلت الى العالم الحديث . وقد كان من الاسكندرية أيضا العالم ديوفانتوس (Diophantus) الذى ابتدع نظاما خطا بالحساب خطوة واسعة نحو الجبر . أما هرون (Herun) فله مؤلفات كثيرة فى الهندسة والميكانيكا لم يصل اليها بعضا الا بالعربية والبعض الآخر باللاتينية فقط والبعض الثالث بالاغريقية والعربية واللاتينية ، واستخدمت كتبة فى المدارس عدة قرون . وتعتبر جهود هرون قبل كل شىء استمرارا لجهود ارخميدس واقليدس وكنسيبيوس ، فقد كان شديد الاهتمام بتطبيقات العلم فابتدع وسائل لمسح الأرض ورفع الأثقال واستخدام البخار وطلبة لاطفاء الحريق وجهازا شبيها بعداد السيارات .

طريف للطب يتضمن مقارنة بين اتباع المدرسة النظرية واتباع المدرسة التجريبية ويخصص الجزئين الأول والثانى للتغذية وعلم الأمراض والقواعد العامة للعلاج . ويناقش فى الجزئين الثالث والرابع الأمراض الداخلية وفى الجزئين الخامس والسادس الأمراض الخارجية . ويعتبر الجزآن السابع والثامن ، وهما يتناولان الكلام عن الجراحة ، أهم أجزاء هذا الكتاب . ويتبين من هذين الجزئين أن جراحى الاسكندرية لم يباشروا مختلف أنواع الجراحات المألوفة فحسب بل أيضا جراحة تجميل الوجه وكذلك جراحة الأسنان . وتحدثنا الوثائق البردية بأن بعض أطباء الاسكندرية ابتدعوا عددا من الأربطة والأجهزة التى عرفت بأسمائهم وكانت تستخدم فى حالة حدوث كسر فى العظام أو فتق فى الأغشية الداخلية .

لكن فى القرن الثالث لم تعد الظروف مواتية للأبحاث والملاحظات العلمية فقد انقضى عهد الكشوف وأصبح هم العلماء مقصورا على اكتناز المعلومات للموائمة بين ما سبق الوصول اليه وبين حاجات العصر . فلا عجب أن أخذ الطب ينحدر رويدا رويدا، وأخذ عامة الناس يلجأون الى التعاويذ والسحر والتنجيم من أجل الشفاء من المرض، بينما أخذ المثقفون ينشدون شفاء الجسم فى سعادة الروح .

ويتصل الفلك بالرياضة اتصالا وثيقا .  
وقد كان أطول الفلكيين الاسكندرانيين باعا  
وأعظمهم شأنًا كلاوديوس بطليموس المؤرخ  
والجغرافي الذي سلفت الإشارة إليه . ولهذا  
الفلكي عدة مؤلفات ترجم العرب أكثرها ،  
وأهم هذه المؤلفات كتابه « المجموعة  
الكبرى » الذى يتضمن ما وصل إليه الفكر  
الاجريقى فى الفلك وفقا لنظريات هيبارخوس  
مع ما أضافه بطليموس الى هذا العلم .

ثالثا - الفنون :

١ - فن العمارة :

سنتناول الكلام هنا فى ايجاز شديد عن  
المقابر والمنازل والمنشآت العامة والمعابد ونبين  
الى أى مدى تأثرت العمارة المصرية  
والاجريقية ببعضها بعضا ، والى أى مدى  
كذلك أثبتت العمارة الرومانية وجودها  
واحتفظت بطابعها فى مصر .

( ١ ) المقابر :

عرفنا ان الاجريقى كانوا يستخدمون فى  
عصر البطلمة ثلاثة أنواع من المقابر وهى :  
( ١ ) الحفر ، ( ٢ ) الفجوات المستطيلة  
(loculi) التى كانت تبنى أو تنحت فى جوانب  
دهاليز أو غرف ، ( ٣ ) مقابر الأرائك  
التي تحولت فى آخر عصر البطلمة الى مقابر  
ذات فجوات ومحاريب ، حيث اختفى الأرائك  
تماما وكان الموتى يدفنون فى توابيت  
كالصناديق كانت توضع فى المحاريب .

وقد أثبتت الحفائر التى أجريت فى  
الاسكندرية ان بعض مقابر الأرائك قد أعيد  
استخدامها فى العصر الرومانى وانه فضلا  
عن ذلك كانت تستخدم فى هذا العصر ثلاثة  
أنواع أخرى . وكان النوع الأول مماثلا  
لنوع الأول الذى كان مستعملا فى عصر  
البطلمة . ولا غرابة فى ذلك فقد كان  
هذا النوع شائعا بين عامة الناس  
عند الاجريق وعند الرومان على  
السواء . أما النوع الثانى فكان فى أبسط  
مظاهره يتألف من سلم وبنز ( لانزال الموتى )  
وغرفة ذات فجوات وغرفة ذات توابيت .  
وكان نظام هذه الغرف وعددها وتوزيعها  
يختلف اختلافا بينا ، ومع ذلك فان الصلة  
واضحة بين هذه المقابر ومقابر عصر البطلمة .  
أما النوع الثالث فيشبه عن قرب المقابر  
الكبرى فى روما من حيث وجود غرفة  
مستديرة تؤدي الى غرفة الدفن الرئيسية على  
نحو ما نجد فى المقبرة الكبرى فى كوم  
الشقاقة حيث استخدم للدفن التوابيت  
والفجوات على غرار ما كان يتبع فى مقابر  
النوع الثانى .

وإذا كان طراز العمارة فى هذه المقابر  
أما اجريقى أو رومانى فان الزخرفة فيها  
تستوقف النظر بكثرة ما فيها من عناصر  
مصرية . ونجد هذه الظاهرة نفسها فى النصب  
الجنائزية أيضا .

## (ب) المنازل :

وتوحى القرائن بأن اغريق المدن الاغريقية وبعض مدن الفيوم استمروا يستخدمون أنواع المنازل التي ألفوها من قبل في عصر البطلمة ، وانه فيما يبدو أنشئت أيضا منازل فسيحة شبيهة « بالقيسات » الرومانية . أما فيما عدا ذلك فانه يتبين من المنازل الكثيرة التي كشفت الحفريات عنها في بعض مدن الفيوم وقراها ان الاغريق كانوا كالمصريين يعيشون في منازل مصرية تعتبر استمرارا لطراز المنازل التي عرفتها مصر منذ أمد طويل لكن يبدو أن الاغريق والمصريين المتأخرين كانوا يستخدمون في تزيين منازلهم زخارف اغريقية .

## (ج) المنشآت العامة :

أنشأ الرومان في جهات متعددة في مصر عمارات مدنية متعددة الأنواع : كالبوابات والأقواس والمسارح والجيمازيا والحمامات العامة . ويتبين من بقايا المنشآت التي كشف عنها انها كانت وفقا للطراز الروماني في تخطيطها وعمارته وزخرفتها وان الطراز الروماني في مصر كان كشأنه في روما وباقي أنحاء العالم الروماني يميل الى استخدام الأعمدة الكورنثية . وعلى حين كانت المنازل تبنى عادة من اللبن كانت المنشآت العامة تبنى من الأحجار وكثيرا ما استخدم فيها ، ولا سيما في الاسكندرية ، الرخام المستورد من الخارج

وتدل الحفريات على أن الغالبية العظمى من المصريين قد احتفظوا بعمارتهم الجنائزية وطرق الدفن التي ألفوها منذ عهد بعيد . فقد كانوا يدفنون موتاهم اما في مقابر قديمة أعادوا استخدامها أو في مقابر حديثة كان بعضها عبارة عن كهوف طبيعة أو فجوات نحتت في جانب التلال أو آبار حفرت في باطن الأرض ، وكان لها بئر ينتهي بفرقة واحدة أو غرفتين للدفن .

ويتبين من الكشوف الأثرية في تونة الجبل ، بالقرب من الأشمونين ، ان المصريين المتأخرين كانوا يقيمون معابد وبيوتا جنائزية تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية اختلاطا واضحا سواء في العمارة أم في الزخرفة أم في طرق الدفن .

ومما يجدر بالملاحظة ان تحنيط الموتى ظل شائعا بين المصريين وحتى بين المسيحيين منهم فانهم حتى أواخر القرن الرابع لم يعتبروه مخالفا لتعاليم دياتهم الجديدة .

وهكذا يتبين لنا أنه جنبا الى جنب العمارة الجنائزية الاغريقية والعمارة الجنائزية المصرية قد ظهرت أيضا العمارة الجنائزية الرومانية . ويستوقف النظر انه على حين نجد الأثر المصرى واضحا جليا في زخرفة العمارتين الجنائزيتين الاغريقية والرومانية ، نجد الأثر الاغريقي واضحا جليا كذلك في زخرفة بعض أمثلة العمارة الجنائزية المصرية .

وقد مر بنا انه كانت للاسكندرية في عصر البطالمة مدرسة للنحت الاغريقي ذات مميزات خاصة وطرزين أحدهما مشالي والآخر واقعي ، وان الاسكندرية ابتكرت فرعاً جديداً من فن النحت كان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطبائعهم وحرهم .

واذ ساد العالم الروماني اتجاه قوى نحو صنع تماثيل تحاكي أشكال أصحابها محاكاة دقيقة كأنها من صنع آلة تصوير أو ريشة رسام وجد فنائو الاسكندرية في هذا الاتجاه مجالاً واسعاً لابرار مواهبهم واتسمت منتجاتهم بتراز مدرستهم وبطابعها الاغريقي البحت . ويتصل بهذه الصور المصنوعة من الرخام أو المرمر أو مختلف أنواع الصخور مجموعة رائعة من الصور كشف عنها في القيوم وكانت تصنع بالألوان على لوحات مكسوة بالشمع وتعلق على جدران المنازل في أثناء حياة أصحابها ثم تغطي بها وجوههم بعد مماتهم . وقد بدأ إنتاج هذه اللوحات في القرن الأول بعد الميلاد وبلغ ذروته من حيث المهارة والابداع في القرن الثاني .

وقد تابع الفنان المصري نشاطه في التماثيل وعلى جدران المعابد ونصب الموتى ومختلف النواحي التي كان أسلافه يألّفونها منذ القدم .

ويتبين من دراسة فن النحت في العصر الروماني :

ولم يبق من معابد الاسكندرية التي أنشئت في العصر الروماني الا صور رمزية مصغرة لبعضها على النقود . وإذا اتخذنا هذه الصور مقياساً للحكم على طراز هذه المعابد فانه يمكن القول بأن طراز أغلب هذه المعابد كان اغريقياً أو رومانياً على حين كان طراز البعض الآخر مصرياً بحت وطرز البعض الثالث يغلب عليه الطابع المصري لكنه لا يخلو من بعض العناصر الرومانية .

أما معابد الآلهة المصرية التي أكملها الرومان أو زخرفوها أو أنشأوها في مختلف القرن والمدن المصرية فانها اقتفت بدقة تقاليد الفن المصري القديم ولا تظهر فيها أى تأثيرات أجنبية. ويتمثل ذلك بوضوح في معابد مدينة هابو والقلمة بالقرب من ققط وندرة واسنا وكوم اومبو وفيلة وتالميس وندور ودكة والمحرقه . وقد صور الأباطرة على جدران هذه المعابد في شكل الفراغنة وزبيهم وأوضاعهم وهم يقدمون القرابين لمختلف آلهة البلاد .

ويتبين لنا من كل ما أسلفناه انه اذا كان يمكن القول بوجه عام ان كلا من العمارة الاغريقية والرومانية ولا سيما المصرية قد احتفظت بطابعها الخاص فانه مع ذلك قد ظهرت حتى في العمارة الدينية دلائل على امتزاج الأفكار والعناصر .

١ - ان أكثر النقود التى سكها الرومان وكثيرا من قطع النحت التى ابتدعها الفنانون الاغريق اغريقية بحت فى طرازها وعناصرها وصيغتها ، وان كثيرا من قطع النحت المصرية وكل لوحات المعابد مصرية بحت فى طرازها وعناصرها وصيغتها .

٢ - ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز مثل تصوير اله مصرى أو بوابة معبد مصرى أو تاج مصرى على تلك السلسلة من النقود التى تعرف بنقود المديرىات ، فهذه عناصر مصرية الا أن طراز النقود اغريقى . ومثل صنع تماثيل لآلهة مصرية بطراز اغريقى أو صنع تماثيل لاغريق أو رومان من السيماقى أو الجرانيت أو غير ذلك من المواد الغريبة عن الفن الاغريقى . ومثل تصوير الأباطرة الرومان بطراز وملابس مصرية . وقد سلف القول ان المقياس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز باعتباره مظهر تفكير الفنان وطابع حضارته . ولذلك فان اختلاط العناصر

ان دل على شىء فانما يدل على أثر البيئة لا على أثر الحضارة .

٣ - ان فى الكثير من قطع النحت محاولات واضحة وان كانت غير فاضحة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى . وهذه القطع أدنى قدرا فى قيمتها الفنية من القطع التى طرازها اغريقى بحت أو مصرى بحت ، ومع ذلك فان عددها ازداد على مر الأيام . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لازدياد الاختلاط بين الاغريق والمصريين وازدياد اندماج الاغريق فى المصريين . وكان هذا الفن المزيج مرحلة الانتقال التى مهدت لقيام الفن القبطى .

٤ - ان الفنين الاغريقى والمصرى أخذوا ينحدران رويدا رويدا ولم يحل دون انهيارهما السريع الا تقاليدهما القديمة ومهارة الفنانين المتوارثة . ولما كان الفن المصرى القديم يقوم على الديانة ، شأنه فى ذلك شأن باقى مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، فان اعتراف الدولة رسميا بالمسيحية أفضى الى القضاء عليه قضاء مبرما .

# من ديوقلديانوس إلى دخول العرب

للدكتور مراد كامل

## مقدمة

في هذا العصر ، وذلك بسبب فساد اداة الحكم واستغلال الحكام ، مما دعا الشعب الذي كان يعيش في هذا الجو الفاسد أن يبغض حكامه ويخترهم وأن يتطلع الى الاستقلال والحرية و حياة أفضل .

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تقييرا شاملا في السياسة وفي الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بشعوب الشرق ، بعد أن كانت صلاتها الحضارية مقصورة على الغرب أو بعبارة أدق على الحضارة الاغريقية .

\*\*\*

من ديوقلديانوس الى هرقل (٢٨٤ - ٦٤١)

ديوقلديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥ .

تولى ديوقلديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجموعة من اللوائح والقوانين والنظم — التي تسير عليها سياسة الامبراطورية — لا تتشى وحاجة عصره . فحاول أن يعالج الموقف بادخال تغييرات أساسية في سياسة الدولة ، وذلك ليتفادى الاضمحلال المتوقع للامبراطورية وليمنع الاضطرابات التي كانت تسود الدولة عند موت الامبراطور وتولى خليفة له .

في الشطر الثاني من حكم الرومان ، أي من ديوقلديانوس الى دخول العرب، تأثر تاريخ مصر بعاملين رئيسيين وهما : المسيحية والسياسة البيزنطية .

وستقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الأباطرة العامة ، من ديوقلديانوس الى هرقل، ثم تتبعها بنظام الادارة في مصر والنظام المالي والجيش والحالة الاقتصادية .

وسنعرض في الفصول الخمسة التي تلي المقدمة الألوان المختلفة لحياة الشعب المصري من سياسية ولغوية وفكرية وفنية واجتماعية في هذا العصر ، وسيوضح لنا من هذا العرض كفاح الشعب المصري للاحتفاظ بشخصيته وكيانه ضد الحاكم المقتصب .

وقد كان للاسكندرية الزعامة الدينية في الشرق المسيحي ، وفي مصر نشأت الرهبة التي أخذها عنها العالم المسيحي ، وفي مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحي . وكانت مصر منذ فجر تاريخها المعن في القدم أرضا خصبة ، بفضل نيلها وطبيعة أهلها الذين اتسموا بالثابرة على العمل والسماحة والمسألة . ولم يمنع هذا أن يعم البؤس البلاد

نظام متبع ، وكانت المطامع في ارتقاء العرش من المشاكل التي تواجهها الامبراطورية عند موت الامبراطور . وفي سنة ٢٩٣ قرر ديوقلديانوس أن يتولى الحكم امبراطوران في نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب ، ويحمل كل منهما لقب «أوغسطس» على أن يستعين كل منهما بشريك يكون وريثه في العرش ويحمل لقب « قيصر » .

من قسطنطين الى يوستينيانوس  
( ٣٢٣ - ٥١٨ ) .

اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية في عهد قسطنطين الذي هو فاتحة التاريخ البيزنطي . وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بخطى سريعة .

وأضفى قسطنطين على اصلاحات ديوقلديانوس الصبغة النهائية ، حتى أصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الادارية والحكومة في البلاط الامبراطوري ، وكان مركز الدولة ، وأصبح الناس يخدمون الامبراطور بعد أن كانوا يخدمون الدولة .

واعتلى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين امبراطورا ، أهم ما يعنينا من أمرهم مناصرة كثير منهم للهراطقة ومناصبهم الكنيسة المصرية عداً شديداً بسبب وقوفها في وجه أولئك الهراطقة .

أدخل ديوقلديانوس اصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدسة تؤدي لها فروض العبادة بمقتضى طقوس دقيقة مرسومة استمدتها من تقاليد الشرق .

كما ركز في الامبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح يقبض على كل السلطة الادارية . وشل سلطة السناتو وألغى وظيفته المستشار وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم تعد هناك ولايات خاضعة للسناتو ، كما ألغى الامتيازات الممنوحة للولايات التي كانت من الأصل تخضع للامبراطور ، ثم أدمج الولايات في وحدات ادارية وركز كل ادارات الامبراطورية في أيدي موظفين وادارات تابعة مباشرة للامبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية .

وحاول ديوقلديانوس أن يحل المسألتين اللتين كانت تتوقف عليهما سلامة الامبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثته العرش .

وكان ديوقلديانوس يعتقد أن الدفاع عن حدود امبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن يتولى أمره امبراطور واحد . وقد حمّله ذلك على أن يشرك ماكسيميان معه في الحكم وذلك في سنة ٢٨٦ وأسند الى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق . أما وراثته العرش فلم يكن لها

وكانت هذه الفترة مليئة بالقلق والاضطرابات لا استقرار فيها . فتارة يصير الأمر فيها لامبراطور واحد وتارة توزع السلطة بين امبراطورين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب . ويرجع عدم الاستقرار الى أمور مختلفة أهمها : أن القوى الحية للامبراطورية كانت كلهما في الشرق . وأن المسيحية تطورت في الشرق بطريقة تختلف عنها في الغرب . وان هجمات البربر على الغرب كانت أشد أثرا منها على الشرق .

اسرة يوستينيانوس ( ٥١٨ - ٦١٠ )

كان حكم يوستينيانوس تطورا طبيعيا وضروريا في تاريخ الامبراطورية . فقد ضحى أباطرة القرن الرابع بسلطانهم على الغرب في سبيل سلامة الشرق . ولكن يوستينيانوس أخذ يتطلع الى الغرب منذ بداية حكمه ، وساقته مطامعه الى محاولة استعادة الماضي . واستنفد جهدا كبيرا ليبحث من جديد هذا الجزء الميت من الامبراطورية مما أدى الى انهك قوى الجزء الحي .

وكان من جراء فكرته في استعادة مجد الامبراطورية الرومانية ، حروبه العديدة فأمكنه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحرا رومانيا ولكن سرعان ما اضطرت حروبه في الشرق الى أن يكف عن الحروب ، وأن يقوم بإنشاء سلسلة من التحصينات جعلت من الامبراطورية ميدانا مجزأ .

وقد ظن يوستينيانوس أنه سيعيد تأسيس الامبراطورية على أساس سليم ، فعمد الى وضع نظام من شأنه أن يجعل الرخاء يسود كما كان في روما أيام مجدها . وسلك في ذلك طرقا تتلخص في أعماله التشريعية وفي اصلاحاته الداخلية .

اعماله التشريعية :

كانت روما في مقدمة البلاد التي عنيت بالتشريع بل تعتبر مؤسسة علم القانون . وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذي بنى على سلطة الامبراطور المطلقة .

وقد أدرك يوستينيانوس عظم الفائدة التي يمكن أن تعود على الامبراطورية اذا جمع مصادر القانون الروماني الذي كان معمولاً به عندئذ ونشرها على نحو يمكن تداوله والرجوع اليه . وقد نهض بهذا العبء عدد من أبرز فقهاء الرومان . ومنذ ذلك الوقت غدت هذه المجموعة من القوانين المرجع الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون في الامبراطورية ، بل أصبحت المصدر الذي استمد منه القانون المدني الحديث .

وقد أطلق على هذه المجموعة من مجموعة قوانين يوستينيانوس « . وهي تنقسم الى أربعة أجزاء :

١ - مدونة يوستينيانوس وقد نشرت أولا في عام ٥٢٩ ثم روجعت ونشرت ثانية

في عام ٥٣٤ وكانت عبارة عن مجموعة تشريعات الأباطرة التي كانت لا تزال نافذة المفعول .

٢ — البندكت أو المجل وقد نشر في عام ٥٣٣ وكان يتضمن مقتطفات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الروماني ، ورتبت هذه المقتطفات بحيث تستكمل ما لم يرد في المدونة من أحكام القانون المدني .

٣ — القوانين وكانت كتابا موجزا وضع خصيصا ليستخدمه طلبة القانون .

٤ — المراسيم الجديدة التي أصدرها يوستينيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعددها ١٦٨ مرسوما .

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية وأما الجزء الأخير فكتب باليونانية .

#### اصلاحاته الداخلية :

التفت يوستينيانوس لتحسين الحياة الداخلية في الامبراطورية ، فاتخذ عدة وسائل للإصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الامبراطور مما أدى الى قيام ثورة في القسطنطينية نفسها سنة ٥٣٢ . فأصدر تشريعات لأجل اصلاح الوظائف الحكومية كان منها الغاء الوظائف الزائدة على الحاجة ، ورفع مرتبات الموظفين واعادة الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، واتخذ خطوات ايجابية من

شأنها أن تجعل للموظفين بعض الاستقلال في الادارة مع ربط الادارات بالسلطة المركزية . وحد من امتيازات كبار الملاك الذين كانوا خطرا داهما على الطبقة الوسطى ، وعاقبا فعالا في تقدم الدولة ورفاهيتها .

ولكن كل هذه المحاولات الاصلاحية باءت بالفشل ، والسبب في ذلك هو الامبراطور نفسه لأنه كان في حاجة ملحة الى المال لمواجهة النفقات الباهظة التي كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومنشأته المختلفة ، فألح على وكلائه في جمع المال على أية صورة وفرضت ضرائب جديدة ، ثم غير العملة وجعل الموظفين مسئولين شخصيا عن جمع الضرائب ، فاتخذوا من جانبهم اجراءات تصفية لجمع المال من الشعب ارضاء للامبراطور ، فكان هو العامل الأول في هدم اصلاحاته .

أما سياسته الدينية فقد أصدر يوستينيانوس مراسيم سنتي ٥٢٧ و٥٢٨ ضد الهرطقة وأصحاب البدع ثم أمر باغلاق مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفة . وعاش الهرطقة بالرغم من الاضطهادات بل كان رؤساؤهم يسكنون القسطنطينية نفسها . وفشلت سياسته الدينية وكان سبب فشلها على الأكثر سياسة الغرب ، هذه السياسة التي أنهكت قوى الامبراطورية فلم تعد تحتل هجمات العدو

في شرقها ، وهي التي استنفدت مالية الدولة وأحبطت الاصلاح الادارى ، وهي التي أضاعت الفرصة على الدولة في النهاية لتوحيد المسيحية في الشرق وهي في أشد الحاجة الى ذلك .

#### الحالة الاقتصادية في عهد يوستينيانوس :

كانت حياة النساك والرهبان الذين يعيشون في صحارى مصر وفلسطين داعية لتشجيع الامبراطور يوستينيانوس والامبراطورة تيودورا للرهبنة عامة ، فأخذت في الانتشار والتطور ، وكان لهذا أثره في الحياة الاجتماعية . كان هؤلاء الرهبان يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون بالتدريج في الحياة السياسية وفي حياة البلاط . وأخذ عددهم يزداد ، وانهالت عليهم الوقفيات والهبات والتبرعات وكانت معفاة من الضرائب في أغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع لها امتيازات ولها أثرها في الحياة الاقتصادية .

وهناك خاصية أخرى كان لها أثرها في الحياة الاقتصادية في عهد يوستينيانوس فقد قام بأعمال انشائية عديدة مثل تعبيد الطرق وانشاء القناطر وتشبيد التحصينات والقلاع ومد أنابيب المياه وبناء الكنائس والأديرة . وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة في حالة رخاء ، ولكن سرعان ما اضطرت المحنة المالية — لما استنزفته هذه الأعمال من أموال باهظة — الى وقفها بعد

أن أثقلت الضرائب كاهل الشعب من جديد . أما تجارة الدولة فقد شجع يوستينيانوس بعض المراكز التجارية الأساسية ومنحها بعض الامتيازات فزاد من نشاطها . وكانت مشكلة الامبراطورية هي صلتها بالشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين . وكانت التجارة الشرقية تصل الى الامبراطورية اما برا عبر الطريق الشمالى الذى كان يمر بوسط آسيا فبحر قزوين فالبحر الاسود ، واما بحرا عن طريق الخليج الفارسى أو عن طريق البحر الأحمر . ولما كان الفرس ينقلون جانبا كبيرا من التجارة الشرقية فقد حاول يوستينيانوس أن يحول التجارة الشرقية اما الى الطريق الشمالى أو الى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحية ليتفادى وساطة الفرس ومغالاتهم في فرض الضرائب ، ومن ناحية أخرى ليزيد نصيب الامبراطورية من التجارة الشرقية . ولكن يوستينيانوس فشل في ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية .

#### خلفاء يوستينيانوس ( ٥٦٥ - ٦١٠ )

مات يوستينيانوس والدولة في حالة افلاس وقد عم البؤس أفراد الشعب . وارتاح الجميع لموته ، ولكن خلفاءه لم يجدوا حلا للمشكلة المالية التي ترتبط بها الادارة الداخلية برباط وثيق . وقامت معارضة قوية ضد سلطة الامبراطور المطلقة . كما نشأ خلاف شديد بين البابا جريجوريوس

وبين بطريك القسطنطينية . كل هذا والعدو لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود الامبراطورية .

هرقل ( ٦١٠ - ٦٤١ )

. كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطي حلقة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة وضح فيها أن كيان الامبراطورية أصبح في مهب الريح .

تطرق الركود الى الحضارة البيزنطية في القرن السابع فلم يظهر في هذا القرن كتاب أو مؤرخون أو قام أحد بعمل انشائي ذي بال . وعم الخوف الناس في هذا القرن وانتشرت فيه الخرافات .

ولم يكن هذا كله ليدل على سقوط الدولة النهائي بل أظهر أن الأزمة متأصلة وأن

على الامبراطورية أن تتعادها بمحاولة تغيير اتجاهاتها . وكان السبب الأول في هذه الأزمة هو محاولة يوستينيانوس الفاشلة في إعادة الروح الرومانية الى الامبراطورية وتوحيد الشرق والغرب .

ولم يبق أمام الدولة الا أن تخضع للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية والدينية والادارية ، فتغير اتجاهها تغيرا واضحا وأصبحت امبراطورية يونانية شرقية بعد أن كانت امبراطورية رومانية ، وقد مكنها هذا الوضع من أن تحافظ على ما تبقى لها بعد استيلاء العرب على أهم أقاليمها واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان ، وكتب للامبراطورية البيزنطية البقاء حتى القرن الخامس عشر .

# النظام الإدارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية

## فى مصر فى العصر البيزنطى

### النظام الإدارى :

والتقضاء وأسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم العام مباشرة . اما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم فى مقاطعة ويخضع للحاكم العام الذى كان بدوره يخضع « لحاكم أو دوق الشرق » . وعندما ضمت ليبيا الى مصر منح الحاكم العام لقباً ممتازاً وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص .

وقد تبع تقسيم البلاد الى مقاطعات إعادة تنظيم الإدارة المحلية فى أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملى للمديريات فانها قسمت الى أقاليم أصبحت هى الوحدات الفعلية فى الإدارة المحلية ، وترتب على ذلك بطبيعة الحال الغاء منصب المدير أو القائد وكذلك الغاء منصب الكاتب الملكى . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جمع الضرائب (Exactor) واليه وانتقلت اختصاصات القائد فى الشؤون المالية . اما اختصاصات القائد المدنية فانها انتقلت الى حاكم آخر (Logistes) كان فى الأصل ممثل السلطة المركزية لكنه أصبح حاكماً محلياً دائماً يتمتع بنفوذ فى الأقاليم والمدن على السواء وآلت

عندما اعتلى ديوقلديانوس العرش كان أول ما اتجه اليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الإدارى فى كل أنحاء الامبراطورية . ولذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها الى ثلاث مقاطعات هى مصر الجوبيترية ومصر الهرقلية وطيبة . ويحتمل ان هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التى كانت موجودة فى الشطر الأول من العصر الرومانى . وفى عهد قسطنطين الثانى تكونت فى عام ٣٤١ مقاطعة رابعة « الأوغسطينية » من الأقاليم الشرقية فى المقاطعتين الأولى والثانية . وفى عهد ثيودوسيوس الأول أضيفت ليبيا الى مصر فأصبحت المقاطعات خمساً . وحوالى أواخر القرن الخامس غير اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأصبحتا على التعاقب مصر واركانيا .

ولما كان ديوقلديانوس وخلفاؤه حتى يوستينيانوس يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية فى كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يهيمن على شؤون الإدارة والمالية

الضرائب ، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاما . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغيت القنصلية في عصر يوستينيانوس واعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور . .

لم يكند يوستينيانوس يعتلى العرش حتى ادخل تعديلين على نظام الادارة في مصر قضى احدهما على اعتبار مصر وحدة ادارية واحدة، اذ أن هذا الامبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الاولى وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الاخرى وجعلهم جميعا خاضعين لدوق الشرق . اما التعديل الآخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية واسنادهما معا الى حكام المقاطعات فأصبح كل منهم في مقاطعته رئيس الادارة والشرطة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الاولى هو الذى كان يجمع فى الاسكندرية كل ضرائب مصر نوعا وهذا ثم يرسلها الى بيزنطة .

وكانت سلطة حكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجأون الى القسطنطينية لتمدهم بالجنود فى حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام فى أول أمرهم أجانب ، ولكن رأى الأباطرة فيما بعد أن يختاروهم من بين اليونان المقيمين فى مصر وأقر هذا التصرف يوستين الثانى سنة ٥٦٩ . وكان الامبراطور يقر تعيين الحاكم الذى يرشحه الاساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد.

اليه اختصاصات حكام المدينة القدماء فزالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم (Logistes) حاكم آخر (Defensor) ، وقد ظلت مجالس الشورى قائمة وألقيت عليها المسؤولية كاملة عن الادارة العامة والادارة المالية ، وغدت عواصم المديرية بلديات على النمط الرومانى تتمتع بحكم ذاتى ويدخل فى نطاق كل منها منطقة ريفية .

وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لعادات وقوانين الولايات الأخرى فى الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة فى التوحيد والتبسيط أن اعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار أثر فعال فى مصر ، فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والادارات الحكومية . وكانت القرارات العامة تصدر بها . وربما كان الأثر الوحيد لهذا القرار أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر فى اطار لاتينى أى أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحاكم ملاحظاته باللاتينية ، أما اقوال الطرفين والشهود واحكام القضاة فظلت تكتب باليونانية . .

وكذلك غيرت طريقة تأريخ الوثائق القانونية فاستبدلت بسنوات حكم الامبراطور سنوات القناصل مع ذكر موقع العام من دورة تقدير

## الجيش :

والواقع أن لجيش في مصر في العصر البيزنطى كان جيشا هزيبا يقوده رؤساء غير أكفاء ، ويتكون من جنود مرتزقة لا يتصفون بأية صفة عسكرية . وكان واجبه هو قمع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أى أن عملهم كان قاصرا على عمل رجال الشرطة . وقد أصبح للجندى حتى الزواج واتخاذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته في الجيش .

### النظام المالى :

لما كانت بيزنطة — مثل روما — تستهدف ابتزاز ثروة مصر ، فان الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطى عما كانت عليه من قبل بل ازدادت باطراد فساءت حال الناس وأصبح جمع الضرائب مهمة شاقة . ولم يتورع الموظفون عن استخدام مختلف ضروب القسوة لجمع الضرائب . ولذلك أخذ الناس فى الالتجاء الى الصحراء هربا من المعاملة القاسية التى كان يعامل بها كل من تأخر فى دفع الضريبة ، فقد كانت توقع عليه الغرامات والضرائب الاضافية ثم تصادر أملاكه ويزج به فى السجن وويل لمن حاول المقاومة .

وكانت أكثر الالتزامات تقع على عاتق صغار الملاك الذين ازداد عددهم فى العصر الرومانى الى أن اضطرهم جور الحكومة الى النزول عن أراضيهم لبعض جيرانهم الأثرياء ذوى النفوذ ، فأخذت طبقة صغار الملاك تختفى تدريجيا خلال القرن الخامس حتى

منذ قرر ديوقليانوس فصل السلطتين المدنية والعسكرية لم يعد الجيش خاضعا لحاكم مصر العام فقد أسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وعندما ضمت ليبيا الى مصر وبذلك أصبح عدد المقاطعات خمسا قسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص . وعندما عدل يوستينيانوس عن فكرة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك الى توحيد قيادة الجيش فى مصر وانما الى تقسيمه خمس وحدات بعدد المقاطعات وخضوع كل وحدة منها لامرة حاكم المقاطعة ، وكان حكام المقاطعات يخضعون لقائد الشرق الذى كان مقره القسطنطينية .

وسرعان ما تعاقمت الأحوال لأن واجبات الحاكم المدنية أبعدهت عن حياة الجيش وتبعاً لذلك عن متابعة تطور الفنون الحربية . ولم يزد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندى وزعوا على المراكز الحربية المختلفة على الحدود وفى الداخل ثم فى المدن الكبرى . وكان الوجه البحرى محصنا تحصينا قويا فى الزوايا الثلاث للدلتا ، فى الفرما شرقا والاسكندرية غربا وفى بايلون « مصر القديمة » حيث كانت بها حامية كبيرة منذ الفتح الرومانى .

وفى الوجه القبلى أنشئت على طول الوادى مراكز حربية فى المواقع الهامة مثل قنط ، وأسوان .

الأسعار وتحصيل الضرائب . وكانت هناك أسواق كبيرة سنوية ، وأسواق أسبوعية في القرى لبيع المحصولات والمنتجات .

وكانت مصر من الناحية التجارية هي الطريق الذي يتوسط الشرق الأقصى والغرب ، وكانت السفن تأتي من الصين والهند مارّة بباب المنذب محملة بالأفاويه والأخشاب والحرائر والأواني الخزفية ، فتخترق البحر الأحمر ثم ترسو في الموانئ البيزنطية التي ورثتها بيزنطة عن البطالمة . وكانت أكثر البضائع تفرغ في منطقة القصير ، ومن ثم تحملها القوافل الى ققط ، ومنها تشحن في مراكب تقطع المسافة بين ققط والاسكندرية في اثني عشر يوما . وكانت البضائع الأفريقية تسير في هذا الطريق قادمة من عدول - ميناء مملكة أكسوم الاثيوبية - وتتضمن الزمرد من بلاد البليمين ، والعاج من اثيوبيا ، والأبنوس من أواسط افريقيا ، والذهب من المنطقة التي أطلق عليها الرحالة كوزماس اسم ساسو . ومنذ القرن السادس الميلادي اضطر التجار أن يسلكوا طريقا آخر ، لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات البليمين . فكانت البضائع تحمل في البحر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم تتجه غربا في القناة التي كانت تصل السويس ببابلون ( تقابل الآن ترعة الاسماعيلية ) . وكانت البضائع تحمل من بابلون الى موانئ البحر الأبيض المتوسط

لم يعد لها وجود في بداية القرن السادس . ولم ينافس هؤلاء السادة الا الأديرة التي أخذت تضيف باستمرار أملاكها جديدة الى ممتلكاتها ، وأصبحت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديرة التي تمتعت باعفاء أملاكها من الضرائب ، وازدادت تدريجيا الضياع الواسعة ، فأصبح معظم أراضي الامتلاك الخاص وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي .

#### الحالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر حاصلاتها الزراعية وأهمها الحبوب والكروم والزيتون والنخيل والمواشي ، وكان الجزء الأكبر من هذه الحاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض عن الحاجة الى خارج البلاد .

وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الخزفية والعاجية والزجاجية وبخاصة المنسوجات .

كما عرفت مصر بصناعة أوراق البردي التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي ، وذخرت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها . ولم يلتفت الحكام البيزنطيون الى استغلال المناجم في مصر ولكنهم اكتفوا باستخراج المرمر والبازلت والجرانيت لتصديره .

وكان لأصحاب كل حرفة في مصر نقابة ، تخضع لموظف مسئول عليه مراقبة

عن طريق النيل . وفي القرن السابع أصبحت قناة بايلون غير صالحة للملاحة .

وكانت حاصلات بلاد ما بين النهرين وفلسطين تحملها القوافل في طريق يصل الى غزة فانقرما ، وهذا هو الطريق الذى أسماه الفراعنة « طريق حورس » وكانت القوافل تمر بمنطقة قريبة من القنطرة الحالية لتصل الى بليس فأون ( هليوبوليس ) ومنها الى الاسكندرية . وكانت البضائع تنقل اما على المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من جمال وحمير ، ولم تستخدم الخيل لأنها كانت مخصصة للجيش منذ العصر الرومانى .

كانت التجارة في العصر الرومانى مزدهرة في مصر ، ولكنها أخذت تتعثر في العصر البيزنطى ، فموانى البحر الأحمر ما فتئت أهميتها تنضال ، حتى لم يبق على البحر الا ميناء القلزم ، وذلك بسبب منافسة الفرس الشديدة التى أفضت الى تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية الى الخليج الفارسى . وقد حدا ذلك بالامبراطور يوستنيانوس الى العمل على التخلص من وساطة الفرس في التجارة الشرقية واعادة النشاط التجارى في البحر الأحمر الى سابق عهده ، لكنه لم يصب في ذلك نجاحا مذكورا .

وفي عصر يوستنيانوس قام كوزماس التاجر الاسكندرى برحلة في البحر الأحمر والخليج الفارسى ، وزار اثيوبيا والساحل الشرقى لافريقيا حتى وصل زنجبار ، ثم عاد المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من

عكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته القيمة في كتابه المسمى «الطوبوغرافية المسيحية» . وكانت مصر محط أنظار رجال الفكر في العالم فتوافدوا اليها لزيارة آثارها ، ولمشاهدة الحياة الديرية المصرية ، ولتلقى العلم في مدارسها الشهيرة في ذلك العصر . نذكر منهم اسبوس القرطبى ، وجريجوريوس النيزانزى ، وصديقه باسليوس ، وأوسبيوس ، والقديس هيرونيموس (جيروم) ، وبولس الأوروسى ، وبطرس الايبيرى ، وبلاديوس ، وروفينوس ، وكاسيانوس .

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما نراها اليوم — بحقولها الخضرة في الدلتا تخترقها القنوات وفروع النيل ، كما شاهدوا الوجه القبلى وقد حدت الصحراء من منطقته المزروعة . وكانت القرى — كما كانت عليه في العصر الفرعونى — لم تتطرق اليها الحضارة الاغريقية . وكانت مصر تعج بالأديرة التى تضم بين جدرانها مئات من الرهبان .

وقد تدهوت الحال في مصر وحاول الأباطرة عبثا انعاشها بشتى الطرق الادارية فكان الحكام على جانب كبير من الضعف ولا هم لهم الا جمع الضرائب ، وارضاء الموظفين . وعم البؤس الفلاحين فاضطروا منذ القرن السادس أن يلتجئوا الى كبار الملاك لحمايتهم فأضاعوا أملاكهم وحریتهم ، وكان في ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التى هى كيان

اقتصاد الدولة المنظمة وقوام حياتها الاجتماعية . وازداد عدد كبار الملاك ، بالرغم من محاولات الأباطرة المتعددة في منع هذا الازدياد والحد من تفاقم سلطانهم ، وتكونت الاقطاعات مما كان له أكبر الأثر في تدهور أحوال البلاد .

\*\*\*

كان انهاك الشعب بالضرائب مصدرا من مصادر شقائه ، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المستمرة في ارهاقه ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه . وكانت مصر في نظر الأباطرة حقلًا كبيرًا ينتج الجيوب فاستغلوها كما لو كانت مواردها لا تنتهى ، واستغلوا أهلها كما لو كانوا منجمًا من ذهب لا ينضب معينه . ولم يهمهم أمر رخاء وادى النيل كما لم يهمهم أمر الأمن في الأرياف ولا الفاقة والقحط والجوع الذى كان يجتاحهم بين وقت وآخر .

وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم وبتصرف موظفيهم .

وكان يوستينيانوس أول من أصدر مرسومًا ( المرسوم الثالث عشر ) يشكو فيه من الوسائل التى يتخذها الموظفون ومن اهمالهم في ترميم المنشآت العامة . وحاول أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من القمح لفقراء الاسكندرية ، وكان لم يصرف لهم أى شىء منذ أيام ديوقلديانوس .

ولم نسمع طوال الحكم البيزنطى أن أحد

أبناء الشعب النابهن ظهر لينقذ البلاد من براثن الاستعمار الأجنبى ، أو أن يحد من نشاطهم الهدام ، أو يطالب بأحقية في الحكم . وكان البطريرك — وقد سلمه الشعب قيادته — يمنعه مركزه الدينى وكرامته ووطنيته من الخضوع لارادة الأباطرة ولكنه كان مضطرا لمسالمتهم .

وكان من أهم أسباب انهيار الامبراطورية مقاومة الشعب المستمرة في تأدية الضرائب المطلوبة ، فكان يتهرب من دفعهما ، ويترك أراضيه ، وصناعته ، ويفضل أن يجلب على نفسه الخراب على أن يدفع الضرائب . وكانت المعاملة القظة التى يلاقيها من جامعى الضرائب تضطره الى دخول الدير أو الانضواء تحت حماية كبار الملاك .

وشل هذا حركة الدولة المالية ، وزاد الطين بلة أن رجال الدين والرهبان أقتلوا كاهل الميزانية فضلا عن أنهم كانوا لا يدفعون شيئا للدولة .

وكان لسخط الشعب وثوراته وعدم استتباب الأمن في الأقاليم ، والاضطرابات في العاصمة ، والاضطهادات ضد الوثنيين واليهود ، أثرها الفعال في القضاء على التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة الشعب في حب العمل .

كانت هذه الأحوال كلها باعثًا للمصريين على الترحيب بالعرب ، يحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة .

## الفصل الأول

### الحياة السياسية

مرقس الرسول بعد أن جروه بالحبال في شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان النزاع في أولى صورته نزاعا بين دينين : المسيحية والوثنية . ولكن ما أن نمت المسيحية في مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصرى كله تقريبا ، وظل الحكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان في نفس الوقت صراعا بين شعب وحاكميه ، أو بين أبناء وطن ومستعمره . وهكذا تركز الشعور القومى وتوحد . وأخذ أقباط مصر يتمسكون بقوميتهم كراهة في كل ما هو أجنبى عنهم ، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التى قادها الأنبا شنودة لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة ، ورفض أديبات اليونان وثقافتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادى ولم ينته الا بدخول العرب . وصار أباطرة الرومان أعداء سياسيين للشعب المصرى ، كما كانوا له في نفس الوقت أعداء دينيين

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول الميلادى ، في وقت كانت فيه أفكار الناس حائرة مضطربة بين عشرات المعبودات التى قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالإضافة الى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى . واستطاعت المسيحية أن تتغلغل في روح المصرى بقدر ما كان مستعدا لقبولها بما ورثه من مميزات لذلك في ديارته المصرية القديمة .

وقد انتشرت المسيحية في مصر انتشارا سريعا ، واستمرت في النمو حتى قضت نهائيا على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يتبق من اليهود سوى طائفة ضئيلة لا أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وإنما تم بعد صراع جبار كان له ميدانان : أولهما الميدان الفكرى وقد قام بالدور الهام فيه مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وعلماء المسيحيين وفلاسفتهم . أما الميدان الآخر فكان ساحة الاستشهاد ، وقد بدأ عمليا بهجوم الوثنيين سنة ٦٨ م على كنيسة الأقباط شرقى الاسكندرية وقتلهم القديس

طوال العصر الروماني . واستحكم العداء حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون الى المذهب المخالف لمذهب مسيحي مصر ، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهادا عنيفا ، كذلك اضطهدت بنفس العنف من أباطرة الرومان المسيحيين . ولا يستثنى من ذلك الا عدد ضئيل جدا من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهي لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الروماني من جديد .

ولكن تتضح لنا حلقات هذا النزاع يمكن أن نقسمه الى ثلاث فترات مميزة وهي :

أ — فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين الى سنة ٣١٣ م

ب — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للإمبراطورية من سنة ٣١٣ الى سنة ٤٥١ م

ج — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومه من سنة ٤٥١ م — سنة ٦٤١ م

#### ١ - الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون الى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم ، فاضطهدوهم أينما وجدوا . ولكن الاضطهادات التي حلت بمسيحي مصر كانت أشد قسوة وأكثر عددا لما اتصف به الأقباط من الصلابة والثبات على ايمانهم . وقد شعر

الأباطرة وولاتهم أنهم أمام شعب شجاع متمسك بدينه ، لا تتنيه الاغراءات وطرق الاستمالة المتنوعة ، فاستخدموا معه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونشر ورجم وتقطيع أعضاء وتهشيم أسنان وضرب بالسيف والقاء الى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة .

ومع ذلك لم تجد كل هذه الوسائل في اضعافهم ، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم الى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم ، حتى أن الأبا أنطونيوس الراهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى الى الاسكندرية وهو شيخ في حوالى السبعين من عمره لينال شرف الاستشهاد . وتطور الأمر بالولاة والأباطرة ، فبعد أن كانوا يعمدون الى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدننا بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الآلاف .

وأشهر الاضطهادات التي مرت بالمسيحية في مصر اضطهادات تراجان سنة ٩٨ م ، وسبتيوس سيفروس سنة ١٩٣ م ، ودكيوس Decius سنة ٢٤٩ م ، وفاليريان سنة ٢٥٤ م . ولكن أعنفها جميعا كانت المذابح التي أنزلها ديوقلديانوس بالمصريين وكأنه قد جعل هدفه أن يفنيهم افساء . ولذلك فان الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها سنة ٢٨٤ م وهي السنة التي تولى فيها هذا الامبراطور حكم الامبراطورية الرومانية . ويسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء .

وقد قتل في حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها ، وتعطلت مدرسة الديداسكاليه اللاهوتية في الاسكندرية مدة من الزمن . وأحرقت الكنائس والكتب المقدسة ، وفاضت الطرقات بالدماء . ومع ذلك صمد المصريون صمودا عنيذا عجيبا ولم يرضخوا للأباطرة الرومانيين ، بل كان عدد المؤمنين ينمو باطراد ، وكثيرون كانوا ينضمون الى المسيحية متأثرين بشجاعة المسيحيين واستهاتهم بالموت في سبيل عقيدتهم .

ولما وجد الأباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة ، وأن المسيحيين قد سرت فيهم موجة طاغية من « شهوة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثبيتهم ولعن أصنامهم لكي ينالوا اكليل الشهادة على أيديهم ، تقول لما لمس الأباطرة ذلك يشوا أخيرا واضطروا الى وقف هذه المذابح البشرية لعدم جدواها ، ولأنها خلقت عوامل خراب في أجزاء الامبراطورية وأدت الى تعطيل مصادر الايراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة .

والكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول ، وكان السابع عشر في عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي ، وانما لأن قتله كان

خاتما لحركات المذابح العامة التي استشهد فيها آلاف المسيحيين ، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية . ولما قبض على هذا البطريرك وطرح في السجن التف الشعب القبطي حول السجن ليمنع الجنود من اخراجه ليقتل . ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيه الجنود سيوفهم من أجل حماية شخصه فهلم نفسه سرا للجنود بأن طلب من القائل أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون فتم ذلك وسلم رأسه للجنود فقطعوه ، وكان ذلك سنة ٣١١ م . ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك الا بعد انصراف الجنود .

في كل ذلك ضرب الشعب المصري وبطاركته أروع المثل في الاستشهاد . وكان البطاركة وأساتذة المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثا للناس على الاستشهاد وتثيتا لهم في دينهم . وكان أفراد الشعب يشجعون بعضهم بعضا في ساحات الاستشهاد ، ويزورون المقبوض عليهم في السجن ، ويقفون الى جوارهم أثناء المحاكمات ، ويحملون أجسادهم ليدفنوها ، كل ذلك في غير خوف أو تردد . وكان الشهداء أنفسهم يقابلون الموت في فرح . وكان الكثيرون منهم يترنمون في بهجة خلال اقامتهم في السجن أو أثناء سيرهم في الطريق الى ساحة الاستشهاد .

وأخيرا أوقف الأباطرة هذه المذابح ، ولم يلبثوا أن اعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حق ممارسة عباداتهم دون التعرض لهم . وقد قرر ذلك الامبراطور قسطنطين وهو الذى اعتنق المسيحية ، وفتح بابها أمام باقى الأباطرة . وهكذا انتهى على يديه عصر اضطهاد الوثنية للمسيحية . ولم تبق من الوثنية فى مصر سوى قلة ضئيلة ذابت بمرور الزمن .

ب - الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة  
هذه الفترة من تاريخ مصر هى فترة آلام ومجد . وجه فيها المصريون دفة الفكر المسيحى وقادوا مسيحيى العالم فى المعرفة اللاهوتية . وليس أدل على ذلك من أن قانون الايمان المسيحى الذى تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أناسيوس الاسكندرى .

وفى خلال هذه الفترة وقف بطاركة الاسكندرية حفاظا على الايمان القويم ، فقاوموا الهرطقات وهى الخرافات الدخيلة على الايمان أو البدع الخارجة على الدين ، وحرموا الهراطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالم فساد معتقداتهم .

واشتهر اسم الاسكندرية فى العالم كله ، واعترفت بها المجامع العالمية ( المسكونية ) كنيسة من الكنائس الأربع الكبرى وهى كنائس رومه والاسكندرية والقسطنطينية وأورشليم . واذا كانت لرومه أهميتها

السياسية كعاصمة للامبراطورية الغربية فان الاسكندرية كانت أولى كنائس العالم فى التعليم المسيحى وفهم الدين وشرح قواعده . وليس أدل على قوة الاسكندرية من أن بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة المدينة العظمى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الشرقية بعد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون فى الدين وهراطقة . وهؤلاء البطاركة الذين حرموا هم : مقدونيوس الذى حرمه تيموثاوس ، ونسطور الذى حرمه كيرلس ، وفلايانوس الذى حرمه ديستقورس . ووافقت المجامع على هذه الحروم ، وصدق عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس فى مجمع نيقية . وكان لهم فى المجامع المسكونية مركزهم البارز فكانوا اما رؤساءها واما العنصر القوى الموجه لها .

وقد اشتهر بطاركة الاسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الايمان . فبينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأقوياء حين ناصرها الأباطرة بقوتهم ، وبينما رضح لها بعض الأساقفة تحت ضغط التعذيب عن ضعف لا عن اقتناع ، نرى أن أساقفة الاسكندرية لم يميلوا قيد أنملة عن الايمان المستقيم متحملين النفى والعزل وألوانا شتى من الاضطهاد ووقفوا فى وجه الأباطرة وقفات مجيدة مشرفة . ولولاهم لصار العالم كله أريوسيا فاسد العقيدة .

وهذه المقاومة التى ناوت بها مصر

السيف لتحقيق أغراضه وأن البطارقة الدخلاء لا يختلفون في شيء عن الجنود الرومان المغيرين المحتلين لبلادهم . لذلك كانوا يرفضون أن ياملوهم كبطارقة ، وقد أقدموا فعلا في احدى الثورات على قتل أحدهم وهو جورجوس الكبادوكى .  
هرطقة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس في عهد الأنبا بطرس خاتم الشهداء ، أى في زمن ديوقليانوس الوثنى المضطهد . وقد حرم أريوس من الأنبا بطرس ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه . ولكن هذه الهرطقة لم تتل قوة ولا انتشارا في أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة . فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثنى التفتت الى هذه الهرطقة وعملت على دحضها . فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريرك التاسع عشر من بطارقة الاسكندرية . ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته . وانضم اليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى الى عقد مجمع نيقية المسكونى في سنة ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس وارساء قواعد الايمان .  
وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحى ، كان من أبرزهم الأنبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشمامه اثناسيوس الذى لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره .

الاباطرة والولاية الرومان ، لم تكن مجرد حركات فردية من البطارقة ، وانما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطارقة بدور الزعامة ، كما كانت أحيانا حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطارقة أو قيادتهم . كان الشعب المصرى حريصا أشد الحرص على ايمانه ، يرفض تدخل الرومان في معتقداته . من أجل هذا استطاع أن يرغم الاباطرة أحيانا على الازعان له ، كما استطاع أن يحتمل اضطهاداتهم في صبر ورجولة . وليس أدل على ذلك من أنه في حالة تقي البطيريك أو عزله أو سجنه ، كان الشعب بأسره — بدون بطيريك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت في كثير من الأحيان أن ترغم الاباطرة على سحب أوامرهم والاذعان لقوة الشعب .

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة أن الاباطرة كانوا كثيرا ما يعزلون البطيريك المصرى ، ويمينون بطيريك آخر في مكانه ( كبادوكيا مثلا ) ايمانه مخالف لايمان الشعب المصرى ، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل الاسكندرية عنوة ، وأن يصلح في الكنائس آمنا من أن يطرده منها الشعب ، ثم يبدأ هذا البطيريك الدخيل في اضطهاد المصريين وقتل الكثيرين منهم ليتبوأ منصب البطيريك المنفى . كل ذلك كان ولا شك يدفع بالمصريين الى الشعور بقوميتهم المصرية وبأن الرومان عنصر أجنبى مستعمر يستخدم

## أثناسيوس وجهاده :

حياة الأناثاسيوس سلسلة من الجهاد والآلام في سبيل الدفاع عن الإيمان المسيحي . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضم إليه بعضاً من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة وأقنع الامبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأناثاسيوس أن يقبل أريوس ، ولكنه رفض طلب الامبراطور . وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين .

وقد احتل اثناسيوس في سبيل ذلك النفي عن كرسيه خمس مرات في عهد كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانيوس وفالنس . ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين . ولو لم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسياً . فلم يكن اثناسيوس زعيماً شعبياً في مصر فحسب يطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له بل كان فوق ذلك ممثلاً للإيمان السليم في العالم المسيحي كله ، تنظر إليه كل الكنائس كعلمها الأول .

وفي هذا الصراع الذي اجتازه اثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصري كله يؤيده . وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملاً فردياً من جانب البطريرك وإنما كان عملاً جماعياً صادراً من الأمة كلها . فلما رفض البطريرك قبول أريوس أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه ، وأدى ذلك إلى

ولد اثناسيوس في الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من أبوين وثنيين . وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى ، والثقافة المسيحية بحكم دراسته في مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأضاف إليها ثقافة نسكية روحية ، إذ أنه تتلمذ ثلاث سنوات في البرية على القديس الأنا أنطونيوس وقد اختاره الأنا الكسندروس البطريرك تلميذاً له ورسمه شماساً واصطحبه في سنة ٣٢٥ م إلى مجمع نيقية .

وفي مجمع نيقية بدأت شهرة اثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلماً للإيمان وسط ٣١٨ أسقفاً يمثلون جميع كنائس العالم . وتمكن من تنفيذ آراء أريوس في براعة وإقناع وتولى بنفسه صياغة قانون الإيمان مدققاً في اختيار عباراته كلمة كلمة . وأخذ مجمع نيقية بأقوال اثناسيوس ، وحرّم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة ، وأقر الامبراطور هذا الحكم . وانفض المجمع بعد أن نظر في أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانوناً كنسياً .

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن اثناسيوس في العالم المسيحي ، وأهلته لأن يخلف الأنا الكسندروس ويصير بطريركاً للاسكندرية سنة ٣٢٦ م ، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الامبراطور ، مما جعل

قيام ثورة شعبية في مصر بقيادة فيلومينوس  
واتهم اثناسيوس بأنه كان السبب فيها .

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس  
في حكم الشرق ، وكان أريوسيا . فعين  
بطريركا أريوسيا على الكرسي الاسكندري  
بدلا من اثناسيوس واسمه جريجورى . ولما  
لم يسمح له الشعب بدخول الاسكندرية ،  
زوده الامبراطور بقوة عسكرية استطاع بها  
دخول المدينة واستمرت هذه القوة معه  
لحمايته خوفا عليه من حركات الشعب .  
فعدت كنيسة الاسكندرية مجمعا ضده من

الأساقفة المصريين ، فتدخل سيريانوس قائد  
الحامية — وكان أريوسيا — وعمل على  
فض المجمع متوعدا بتدمير المدينة كلها .  
حينئذ انسحب اثناسيوس وهرب الى رومه ،  
فارتجت المدينة لهذا البطل المصرى ذى المظهر  
البيسط الفقير . وانعقد مجمع فى رومه أقر  
براءة اثناسيوس ووجوب رجوعه الى  
كرسيه . كما انعقد مجمع آخر فى سرديكيا  
سنة ٣٤٣ م من مائتى أسقف حكم بشرعية  
رئاسة اثناسيوس لكرسي الاسكندرية .

وكتب قسطنطين امبراطور الغرب الى أخيه  
قسطنطيوس ، امبراطور الشرق ، ليطلب منه  
ارجاع اثناسيوس . وقد كان هدف  
اثناسيوس هو توحيد العالم المسيحى ضد  
الأريوسية بعد أن عاضدها الامبراطور ،  
واستطاع بقوته وتأثيره أن ينال تأييد العالم  
المسيحى . أما فى مصر فكان الشعب فى

اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم ،  
حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين  
اعتنقوا المذهب الأريوسى وحطموا كنيسة  
الاسكندرية التى كان الأريوسيون قد  
استولوا عليها . وخاف الامبراطور من  
اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب الى  
اثناسيوس سنة ٣٤٦ ثلاث رسائل متتالية  
يطلب اليه فى احترام ولباقة أن يرجع الى  
كرسيه . فرجع الأنبا اثناسيوس الى مصر  
واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ  
بمثله الأباطرة .

ولما كان الامبراطور لم يرجع اثناسيوس  
الا بدافع الخوف ، فانه ما كاد يتوفى أخوه  
قسطنس حتى عاد الى اضطهاد اثناسيوس  
وأمر بطرده من مصر . وعطل أثناسيوس  
هذا الأمر عاما كاملا دون أن ينفذه حتى تقدم  
القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر  
الامبراطور واقتحم الكنيسة التى كان يصلى  
فيها أثناسيوس . وعندما التف الشعب  
المصرى حول زعيمه وراعيه أعمل الجند  
سيوفهم فى الشعب . أما الأنبا أثناسيوس فقد  
حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة،  
وفتح الشعب أبواب بيوته لاختفائه . وأرسل  
الامبراطور رسله الى مصر يحملون الأوامر  
بضرورة احضار اثناسيوس حيا أو ميتا ،  
لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه .

وعقد الامبراطور مجمعا فى ميلان سنة  
٣٥٥ م ضد الأنبا اثناسيوس ، وكانت غالبية

مرة أخرى . فرفض الشعب القبطى تنفيذ الأمر ولو أدى الى استشهادهم جميعا . وقامت ثورة عنيفة فى مصر واضطر الامبراطور الى الازعان لرغبات الشعب .

وقضى اثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته فى سلام حتى توفى سنة ٣٧٣ م بعد أن احتل الكثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للاربوسية ، دون أن يخضع أو يلين فى سبيل المحافظة على الايمان المسيحى فى العالم كله وصونه من الانحراف . وفى خلال هذه الاضطهادات التى نزلت به اختبأ فى مغارات الرهبان فى الجبال وفى أديرتهم فى الصحراء وفى بيوت المؤمنين فى الاسكندرية ومرة فى قبر أبيه ومرة أخرى فى بئر جافة . وكان خلال فترات اختفائه يعمل باستمرار فقد كتب كثيرا من المقالات اللاهوتية للرد على الهراطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية ، كما كتب رسائل تشجيع للمؤمنين وللرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة .

واستمر الامبراطور فالنس فى اضطهاده للمصريين بعد وفاة الأنبا اثناسيوس ، فنفى خليفته الأنبا بطرس الثانى (٣٧٣ - ٣٨٠) وعين بدلا منه لوكيوس الأربوسى وأيده بقوات الامبراطورية . وأصدر فالنس قانونا جديدا عمل على تنفيذه بالقوة ، وكان يقضى بالغاء امتياز الاعفاء من الخدمة العسكرية الذى كان ممنوحا فيما مضى للرهبان وكذلك

أعضاء هذا المجمع من الأربوسيين ، وتنفيذا لرغبة الامبراطور قرر المجمع عزل اثناسيوس ، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب . وتلا ذلك تعيين جورجىوس الكبادوكى بطريركا على الاسكندرية بوساطة الاربوسيين ذوى الحظوة لدى الامبراطور ، ثم اتخاذ اجراءات تصفية ضد الأقباط أتباع اثناسيوس . فقد استخدم جورجىوس القوة العسكرية لارغام الشعب على قبول المذهب الأربوسى ، فلما رفض أعمال فيه القتل ، وشرد الكثيرين من الأساقفة المصريين وزج باثنى عشر منهم فى السجون ، واقترح على الامبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل فى الاسكندرية .

وفى عهد الامبراطور يوليانوس ( ٣٦١ - ٣٦٣ ) الذى ارتد عن المسيحية الى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت الى قتل جورجىوس البطريرك الدخيل ، وعاد اثناسيوس الى كرسيه . ولكن هذا الامبراطور أيضا أمر بطرده من الاسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منفيا وأنه عاد بدون اذن ، وكتب الى والى الاسكندرية مهددا اياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه اذا ظهر اثناسيوس فى أرض مصر كلها . ولكن اثناسيوس اختبأ فى قبر أبيه ستة أشهر ولم يغادر المدينة .

ولما تولى الامبراطور فالنس ( ٣٦٤ - ٣٧٨ ) وكان أربوسيا ، أمر بنفى اثناسيوس

( سنة ٣٨٥ — سنة ٤١٢ ) ، وكان عهده عهد سلام وعمران ، سواء في عهد الامبراطور ثيودوسيوس أو خليفته اركاديوس ( سنة ٣٩٥ — سنة ٤٠٨ م ) .

الأنبا كيرلس وبدعة نسطور :

ثم خلف هذين الامبراطورين ثيودوسيوس الصغير ( الثاني ) ، وكان مؤمنا صالحا تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ — سنة ٤٥٠ . وكان محبا للكنيسة ولرهبان الأقباط ، يرسل اليهم ليتبرك بهم ويستشيرهم في كثير من أموره الخاصة . وقد تمتع في عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة في التصرف ، حتى قيل ان بطاركة الاسكندرية في تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون في تاريخ مصر ، بل أطلق البعض على هذا البطريك « فرعون مصر » .

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس اثناسيوس في المعرفة اللاهوتية وقيادة الفكر المسيحي . اعتلى كرسى البطريكية سنة ٤١٢ م في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع في عهده بشبه استقلال في مصر ، ودافع عن الايمان المسيحي . فبدأ بكتابة خطاب الى الامبراطور ومنحه فيه البركة ، وشرح له الايمان السليم ، ورد على الكتب التي كان قد وضعها قبلا الامبراطور يوليانوس ضد المسيحية .

ولما لاحظ الأنبا كيرلس أن نسطور

لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للأديرة مثل الفيوم ، وارغام كل هؤلاء على الانخراط في الخدمة العسكرية بالقوة . وقد فضل كثير من هؤلاء المصريين أن يلقوا حتفهم وهم يقاومون الامبراطور على أن يدخلوا في خدمة قوات الامبراطور .

فترة هدوء :

ومضت الاضطهادات العنيفة التي أنزلها الأباطرة الرومان ببصر وتحملها المصريون في شجاعة وصبر ابان عهدي البطريكين الأنبا اثناسيوس والأنبا بطرس الثاني . ثم آن لمصر أن تتمتع بفترة هدوء عندما مات الامبراطور فالنس الأريوسى وتولى العرش الامبراطور ثيودوسيوس الكبير ( من ٣٧٨ — ٣٩٥ م ) وهو الذى اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة . وساعد هذا القرار على اضعاف الوثنية ، فأمكن تحويل الكثير من معابدها الى كنائس . وقد أرجع هذا الامبراطور الأنبا بطرس الثاني من منفاه ، ولما توفي هذا البطريك سنة ٣٨٠ م اختار الشعب بعده الأنبا تيموثاوس بطريكا . وفي عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية في هرطقة حول الروح القدس ، فاجتمع سنة ٣٨٠ م مجمع في القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفا وقرر حرمة وحرم هرطقته . وقد حضر الأنبا تيموثاوس هذا المجمع ، وقام فيه بدور رئيسي .

ثم خلفه في البطريكية الأنبا ثيوفيلوس

بطريرك القسطنطينية قد وقع في هرطقة لاهوتية أرسل اليه يتفاهم معه . لكن نسطور تمسك برأيه ورفض الاذعان لتعليم كيرلس ، واستمال الى جانبه يوحنا أسقف أنطاكية ، واعتمد على ما لقيه من عطف الامبراطور الصغير ثم تحدى كيرلس علانية واتهمه بأنه عنيد وبأنه يقوم في مصر بدور فرعون .

ولم يجد القديس كيرلس مناصبا من أن يستخدم سلطته كمعلم أول في الكنيسة ، فكتب الى أساقفة العالم يشرح هرطقة نسطور ، كما كتب الى الامبراطور ثيودوسيوس وأمه واخوته ، وبعث برسالة الى نسطور نفسه يشرح له فيها قواعد الايمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء .

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكوني في افسوس حضره مائتان من أساقفة العالم . وكان مندوب الامبراطور في المجمع نسطوريا وهو كاننديديانوس . وقد عمل نسطور على تهديد الآباء المجتبعين في افسوس بأن دخل المدينة محاطا بفرقة مدججة بالسلاح ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة . وازاء ذلك اضطر المجمع الى الاجتماع بدونه . وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس حكم المجمع بخلع نسطور عن كرسيه وتجريده من رتبته الكهنوتية . وقد وافق الامبراطور على خلع نسطور بمجرد وصول القرارات اليه .

وعندما أقام الآباء أسقفا جديدا على القسطنطينية أرسل الى القديس كيرلس خطابا يقول له « ان رغباتك في اعلان الحق قد تحققت يا خادم الله ... » وكذلك أرسل أسقف رومه الى القديس كيرلس يهنئه بقوله « هنيئا لك ، فأنت الرجل الجريء المستهين بكل خطر » .

ويقول المؤرخ ستانلي في كتابه « محاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية » ما نصه « لقد أصبح البطريرك السكندري بعد مجمع افسوس قاضي العالم ، تطاع أحكامه في جميع أنحاء العالم المسيحي » . وقد خلف كيرلس أيضا كتبا كثيرة قيمة في اللاهوت وفي تفسير الكتاب المقدس .

ج - الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومة  
وعندما ارتقى مرقيانوس ( سنة ٤٥٠ — سنة ٤٥٧ ) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل في أعنف وأقسى صورها ، فاجتازت مصر طوال الفترة الباقية من حكم الرومان محتملة اضطهادا مرا عنيقا لم يتخله سوى هدنة قصيرة في عهد الملكين زينون وانسطاسيوس ( ٤٧٤ — ٥١٨ )

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيسة رومه والاسكندرية أدى الى اقسام استمر من سنة ٤٥١ حتى يومنا هذا . وعرف أتباع كنيسة رومة باسم « الكاثوليك » بينما عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن سار

على نهجهم باسم « الأرثوذكس » ويتبعهم أيضا السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم « اليعاقبة » .

ولما رفض الأنبا ديسقورس بطريرك الاسكندرية الموافقة على مسائل ايمانية أوردها لاون أسقف روما حول طبيعة المسيح ، استخدم لاون نفوذ الامبراطور في نفى ديسقورس عن كرسيه وفي محاولة ارغام المصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حول طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من أجل الثبات على ايمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استشهاد جديدة كالحركة التي خاضوها في عهد أباطرة الرومان الوثنيين ، بل ان عدد الذين استشهدوا منهم على أيدي المسيحيين من أتباع مذهب الطبيعيين المخالف لمذهبهم قد يزيد بكثير على عدد الذين استشهدوا على أيدي الوثنيين .

وكان الملك كلما اختار الشعب المصرى بطريركا قبطيا ، أمر بعزله عن منصبه ، فينفى من مصر أو يهرب مختفيا في أرجائها ، ويعين بدلا منه بطريرك ملكى من أتباع مذهب الطبيعيين ، وينصب هذا البطريرك الدخيل بالقوة أملا في ارغام الأقباط على قبول مذهب غير مذهبهم ، فاذا رفضوا هذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الامبراطور فيهم القتل والسجن وكافة أنواع الاضطهاد .

ولكى يزداد الاضطهاد بشاعة لجأ الأباطرة منذ عهد يوستينيانوس الى جعل البطريرك الملكى يجمع أيضا الى وظيفته الكهنوتية منصب الوالى المدنى لتجتمع لديه السلطان معا ، ولما كانت جميع كنائس الاسكندرية فى أيدي هؤلاء الدخلاء فانهم استطاعوا أن يطردها منها جميع البطارقة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنهم حتى من دخول مدينة الاسكندرية ، ولما كانت فى أيديهم القوة العسكرية أيضا فانهم استخدموها فى اضطهاد الأقباط كما يشاءون . وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب مصر فكان البطريرك القبطى الأنبا بنيامين هاربا من الرومان مختفيا فى البلاد والأديرة المصرية بينما كان القوقس يجمع بين وظيفتى الوالى الرومانى والبطريرك الملكى ويضطهد المصريين .

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التى اختلط فيها الاستعمار السياسى بالاستعمار الدينى وقف الشعب المصرى صامدا لا يلين ، يرفض كل بطريرك متحملا فى سبيل ذلك صنوف العذاب ، ويرفض كل معتقد يخالف ايمان كنيسته القبطية ، ويؤيد بطريركه القبطى ويطيعه وهو غائب عن كرسيه مشردا فى أرجاء القطر أو متكررا فى مكان ما . وكذلك أظهر البطارقة شجاعة عجيبة وصبرا واحتمالا ، كلما اضطهدوا اتقلوا من مكان الى مكان يثبتون الأقباط فى ايمانهم

ويشجعونهم على الصمود أمام عنف العدو المستعمر .

فعل الأقباط هذا بينما خارت قوى غالبية أسقفيات العالم المسيحي واضطرت الى الخضوع لسيطرة أباطرة الرومان وبابوات رومه . ولم تقف الى جوار الاسكندرية غير أسقفية أنطاكية التي لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحمل أساقفتها العزل والنفي ، وتحمل شعبها القتل والاضطهاد في سبيل الايمان الواحد الذي دافع عنه ديسقورس الاسكندري .

بده انقسام الكنيسة :

لما قامت هرطقة أوطاخي ، انعقد بسببها في افسوس سنة ٤٤٩ م مجمع سمي مجمع افسوس الثاني وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الاسكندرية . ولما مثل أوطاخي أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن ايمانه ، أنكر هرطقته انكارا باتا ، وقدم ايمانه مكتوبا يوافق ما أمر به الآباء ، ولما نوقش شفاها أجاب بنفس الكلام أيضا ، فعرض الأنبا ديسقورس أمر أوطاخي على آباء المجمع ، فقرروا براءته مما نسب اليه ، وقبوله في الكنيسة هو ورهبان ديريه الذين ناب أحدهم عنهم في اثبات صحة ايمانهم . كما قرر هذا المجمع أيضا حرم فلايانوس أسقف القسطنطينية لثبوت تهمة قدمته ضده . ثم حدث أن دعا لاون أسقف رومة سنة ٤٥١ م الى عقد مجمع مسكوني ودعا اليه

ديسقورس ، وكان ديسقورس يرى ألا داعي لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام من جهة الايمان . ولكن الظاهر أن لاون أسقف رومة ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الاسكندرية ودفعه ذلك الى أن اتهمهم بأنهم لا هم لهم سوى عقد المجمع والترأس عليها ، فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيده للتخلص من ديسقورس .

ولما وصل ديسقورس الى القسطنطينية حيث كان المجمع مزعما أن ينعقد دهش من وجود بعض من أساقفة النساطرة المحرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم ، ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا رومه فلما سمعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه في هرطقة الطبيعتين بينما قررت أقوال الآباء صحة مذهب الطبيعة الواحدة . ووقف وسط الأساقفة يشرح هذه المسألة في قوة واقتناع حتى صاح الجميع « نحن على ايمان ديسقورس » . ولما رأى الامبراطور ماركيانوس ذلك - وكان حاضرا الاجتماع - أوعز الى أتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع الى اجتماع آخر .

وفي خلال ذلك دعى ديسقورس الى اجتماع خاص في قصر الامبراطور ، ولما أصر على ايمانه ، وعلى حرمة للأسقف لاون المنادى بمذهب الطبيعتين ، اعتدى عليه وسجن وانعقد المجمع في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وتحت تهديد القوة

عينوا مكانه بطريركا من مذهبهم اسمه بروتوريوس ، فرفضه الشعب المصرى وطرده من البطريركية ، حتى اضطر الى الاستعانة بالقوة المسلحة للتمكن من دخول الكنيسة . واذ أعرض الشعب عنه وبدأ يترك الكنيسة له ولمن يناصره من جنود الرومان ، أمر الجنود فأعملت فيهم السيوف فقتل في ذلك اليوم عدد وفير ، كما قتل كثير من الرهبان . وأحاط الحراس بهذا البطريرك الدخيل ، واتخذت بعض اجراءات مدنية كإيقاف الألعاب الرياضية وغلق الحمامات العامة وتهديد الشعب بسحب امدادات القمح .

ولكن الشعب المصرى ظل متمسكا ببطريركه المنفى الى أن توفى في منفاه سنة ٤٥٧ م . ولم تدم بطريركية بروتوريوس المكروهة أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندرى انتهاز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية الى مصر العليا في عهد الامبراطور ليون الأول ( سنة ٤٥٧ — سنة ٤٧٤ ) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيها من بروتوريوس واختاروا راهبا قبطيا أقاموه بطريركا باسم تيموثاوس الثانى . ولكن الامبراطور تحدى الأقباط وعزل الأنبا تيموثاوس الذى اختاره الشعب ونفاه كسلفه ديسقورس ، الى جزيرة غاغرا ، وعين مكانه بطريركا من مذهب الطبيعيين اسمه سالوفاسيولس . وكان السبب فى ذلك هو أن الأنبا تيموثاوس الثانى جمع سينودا من أساقفته فى الكرسي

بدأ الضغط على الأساقفة حتى قرروا : عقيدة الطبيعيين ، وعزل ديسقورس ، واتهامه بالأوطاخية لتبرئته أوطاخى ، الذى كان قد رجع مرة أخرى الى هرطقته ، وأثبت بذلك أن توبته الأولى أمام ديسقورس فى مجمع افسس الثانى توبة زائفة ، كما حكم المجمع أيضا بتبرئة لاون أسقف رومه . ولما عرضت قرارات المجمع على ديسقورس ، حرم أعضاء مجمع خلقدونية كلهم ، بسبب انحراف الايمان الذى وافقوا عليه . فنفى ديسقورس الى جزيرة غاغرا . وأرسل المجمع الخلقدونى الى أساقفة الكرسي السكندرى يدعوهم للايمان بمذهب الطبيعيين فرفضوا وقرروا عدم الاعتراف بمجمع خلقدونية ، فبدأ الامبراطور باستخدام القوة لارغام رجال الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية ، فلما رفضوا الأمرين قامت مذابح فى الاسكندرية وفى الأديرة قتل بسببها شعب كثير ، وانقسمت المسيحية الى مذهبين . ومع أن ديسقورس وقف وحده وخاف الأساقفة من الانضمام اليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وبشعبه ، الا أن ثورات شعبية أخرى قامت فى اورشليم وبلاد أنطاكية احتجاجا على قرارات مجمع خلقدونية فاستخدمت القوة ضدهم أيضا واستشهد منهم عدد كبير .

وظل ديسقورس فى منفاه حتى توفى سنة ٤٥٧ م . وكان أصحاب مذهب الطبيعيين قد

السكندرية سنة ٤٥٨ وأصدر قرارا بحرم مجمع خلقدونية . فاضطر ليون الأول أن ينفيه واستمر سبع سنوات في منفاه الى أن مات هذا الامبراطور فرجع البطريرك الاسكندري الى كرسيه .

#### فترة هدوء :

ثم تمتعت الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون ( سنة ٤٧٤ — سنة ٤٩١ ) . واستطاع البطريرك القبطي الأنبا تيموثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجعما في القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدونى ورسالة لاون أسقف رومه . كما وزع منشورا بذلك ورفض عقيدة أوطاخي ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة . ولذلك فان المؤرخ الكاثوليكي فلاديمير يقول في كتابه عن التاريخ الكنسى أن « تيموثاوس الذى وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا » .

ولما توفى الأنبا تيموثاوس الثانى خلفه الأنبا بطرس الثالث (سنة ٤٨٠ — سنة ٤٨٨)، تمتعت الكنيسة بسلام فى عهده أيضا ، وبذلت محاولات للتقريب بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية ، وعقد من أجل ذلك مجمع فى القسطنطينية سنة ٤٨١ م انتصرت فيه الآراء القويمة التى تمسكت بها الكنيسة المصرية . وأصدر المجتمعون مرسوما أسماه « كتاب الاتحاد » صدق

عليه الملك زينون . ولكن الاسكندرية اشترطت على أساقفة القسطنطينية رفض قرارات مجمع خلقدونية صراحة . وتبدلت رسائل بين أكايوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الاسكندري رفض فيها أكايوس مجمع خلقدونية وسماه « مجمع المخالفين » ، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور . فقبله بطرس الثالث ، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسي الاسكندري واحتجوا على بطريركهم قائلين له « كيف قبلت أكايوس الذى حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه ؟ » فرد عليهم بقوله « انما قبلته لرجوعه عن ذلك الرأى » . ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انضماما وقتيا الى مذهب الطبيعة الواحدة فى عهد ملك ارثوذكسى مثل زينون ، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية الى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية . وفى الواقع ان كنيسة الاسكندرية كانت صامدة فى موقفها ثابتة على الايمان لا تزحزحها عنه الاضطهادات ، ولم تثبت معها فى ذلك سوى كنيسة أنطاكية .

وقد استمرت فترات الهدوء أيضا خلال حكم انطاسيوس (سنة ٤٩١ — سنة ٥١٨)، وفى هذا العهد توطلدت أواصر التعاون بين كنيستى الاسكندرية وأنطاكية لاتفاقهما فى الايمان الواحد .

## عودة الاضطهادات :

والولاية » ويكون جميع أساقفة افريقيا تحت طاعته . فرفض ذلك وقال لرسول الامبراطور « ليس للملك سلطان الا على جسدى ... فمهما أردتم فافعلوه وأما أنا فأتبع ايمان آبائي » ، وترك كرسيه حسب أوامر الامبراطور في حالة الرفض وذهب الى الصعيد ، فحاول الامبراطور ملاطفته واغراه فلم يلن البطريك فنفاه وأرسل بدلا منه بولس التنيسى ليكون بطريركا على الاسكندرية وقام برسامته مينا بطريرك القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريك الدخيل الى الاسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه « يهوذا الخائن » ، ولم يقبل أحد أن يصلى معه . فأرسل الى الامبراطور يخبره بذلك فأمره بخلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصرى مكانا للصلاة فبنوا كنيستين سرا في المكان المعروف باسم السوارى غربى الاسكندرية . ولم تبق للبطريك القبطى المنفى سوى هاتين الكنيستين لأن الامبراطور أمر بالآ يدخل كنائس الاسكندرية الا أتباع البطريك الدخيل وأقام الأنبا ثينودوسيوس باقى حياته في المنفى .

وقد خطا يوستينيانوس خطوة أوسع في اضطهاد المصريين وارغامهم على قبول مذهب الطبيعتين ، فبعد وفاة بولس التنيسى عين من قبله أبوليناروس بطريركا على الاسكندرية وحاكما لها في نفس الوقت . وقصد من ذلك

ولما تولى الحكم الامبراطور يوستينوس الاول ( سنة ٥١٨ — سنة ٥٢٧ ) وكان على كرسي الاسكندرية البطريك تيموثاوس الثالث ( سنة ٥١٧ — سنة ٥٣٥ ) ، حاول هذا الامبراطور ارغام كنيستى الاسكندرية وأنطاكية على قبول معتقد منجم خلقدونية . فلما رفض ساويرس بطريك أنطاكية تفاه عن كرسيه فجاء الى مصر ، وظل فيها هاربا يتنقل من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير محاطا بحبة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم فى الكنيسة وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم فى الايمان . كما أخذ هذا الامبراطور يضطهد الأنبا تيموثاوس بطريك الاسكندرية وأمر بنفيه وجرت بسبب ذلك مذبحه هائلة قتل فيها نحو مائتى ألف نفس من الأقباط أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه وتم نفيه ، وبقي فى منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها الى مركزه واستمر مدافعا عن الايمان بالاشتراك مع ساويرس بطريك أنطاكية حتى توفى سنة ٥٣٥ م فى عهد الامبراطور يوستينيانوس الاول .

وخلفه على كرسي الاسكندرية الأنبا ثينودوسيوس الأوس ( سنة ٥٣٥ — سنة ٥٦٧ ) . وقد عرض عليه الامبراطور أن يقبل رسالة لاون ويساعده على نشرها فى مقابل أن تكون له الرئاسة « البطريكية

أن يجعل في يد الرئيس الدينى القوة العسكرية التى تمكنه من تنفيذ أوامره . وقد بدأ هذا البطريك الدخيل عهده بمذبحة كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب الذين رفضوا اتباع عقيدته ، وحاولوا رجعه فى الكنيسة حين وقف ليخطبهم . وبهذه المذبحة تمكن من التخلص من أعنف العناصر المعارضة . وهذا العمل لم يجعل من هذا البطريك الدخيل سوى حاكم مدنى ، لأنه لم يتمكن من ممارسة شئ من السلطة الدينية التى ظلت فى يد البطريك الشرعى الذى اختاره الشعب . ولكن أساقفة الأقباط لم يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهروا فى الاسكندرية .

ولذلك فعندما رسم البطريك القبطى الأنبا بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه ثينودوسيوس ، أقام فى كنيسة تبعده عن الاسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى فى دير تابور بالقرب من الاسكندرية متنكرا فى درجة أسقف لا بطريك ، ودبر أمور الشعب من هناك . ولما سمع بذلك أهالى انطاكية قلدوا كنيسة الاسكندرية ، فرسموا لهم بطريكا بعد وفاة القديس ساويرس أسموه ثيوفانوس أقام مختفيا فى دير امونيوس لأن أصحاب الطبيعتين هناك منعوا الأساقفة الأرثوذكس من دخول مدينة أنطاكية متبعين معهم نفس السياسة التى قامت فى الاسكندرية .

ثم قام البطريك الأنبا داميانوس الاسكندرى وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩م وأقام مدة رئاسته التى بلغت ستا وثلاثين سنة مختفيا فى دير تابور أيضا فى درجة أسقف .

ثم تولى البطريك انسطاسيوس سنة ٦٠٥ م وزاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى أن الرومان حرموا الأقباط الكنيستين اللتين بنوهما سرا غربى الاسكندرية .

ثم تولى البطريك الأنبا اندرونيقوس سنة ٦١٦ م واستطاع أن يقيم فى الاسكندرية معتمدا على قوة أسرته التى كانت غنية جدا ومتولية بعض المناصب الادارية الكبيرة فى المدينة . ولم تستطع قوة الرومان أن تخرجه منها . ولعل السبب فى ذلك هو أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك فى حالة يرثى لها ، اذ اجتاحت جيوش الفرس كثيرا من أراضيها . ولما ازداد ضغط الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية للإمبراطورية هاجر كثير من أهالى سوريا وفلسطين لاجئين الى مصر، وعجز يوحنا البطريك الملكانى عن اعانتهم وحمايتهم فهرب من المدينة وترك البلاد للفرس . وقد قتل الفرس آلافا من الرهبان الأقباط وخرّبوا كثيرا من الأديرة .

وفى سنة ٦٢٢ م تولى بطريكية الاسكندرية الأنبا بنيامين الذى عاصر الفتح العربى لمصر . وبعد تسع سنوات من بطركته عين هرقل سنة ٦٣١ م بطريكا ملكانيا

يتنقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع في أيدي الرومان .

واستغل هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة من المكنانيين في بلاد مصر كلها من الاسكندرية الى أنصنا ، فنكلوا بالأقباط تنكيلا شديدا .

ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلا اذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه العريية الى مصر ، وفتحها سنة ٦٤١ م ولما استتبت له الأمور أعطى أمانا للأبنا بنيامين فرجع الى كرسية في الاسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة وبدأ يعيد الى الكنيسة أولئك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل في قبول قرارات مجمع خلقدونية وصرح عمرو له بفتح الكنائس واقامة العبادة فيها .

( ملكيا ) اسمه كيرس Cyrus وهو الذي اشتهر باسم المقوقس ، وجمع لهذا البطريرك بين وظيفته الكهنوتية وبين وظيفة الوالى ليكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم الى مذهب القائلين بالطبيعتين . ويبدو أن هرقل لم يكن موقفا في اختيار هذا الرجل الذى كان ضيق الصدر ، فانه لما عسرت عليه استمالة المصريين الى مذهبه المخالف اضطهدهم اضطهادا رهيبا مما قرهم منه في وقت كانت الامبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج الى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفهما في حربها مع الفرس .

أما البطريرك القبطى الأنبا بنيامين فاخفى هو وسائر أساقفة مصر جميعا وظل

## الفصل الثاني

### الحياة اللغوية

ب - اللغة المصرية المتوسطة : هي لغة

الآداب من الأسرة التاسعة الى الأسرة الثامنة عشرة ، منذ حوالي سنة ٢٤٠٠ ق . م الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . وصارت لغة الأهلين نحو ثلثي هذه الحقبة .

ج - اللغة المصرية الحديثة : وهي لغة

الأهلين من الأسرة الثامنة عشرة الى الرابعة والعشرين أى منذ حوالي سنة ١٥٨٠ الى سنة ٧١٠ قبل الميلاد . ووجد مدونا بها وثائق خاصة بالمعاملات والرسائل ، وبعض الحكايات والقصص الأدبية ، ودونت بها نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ، على أننا لم نعر منها الا على القليل . وقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة .

د - الديهوطيقية : وهي المستخدمة في

الكتب والوثائق التي كتبت منذ الأسرة الخامسة والعشرين الى آخر عصر الرومان من سنة ٧٠٠ الى سنة ٤٧ قبل الميلاد .

هـ - القبطية : هي اللغة المصرية القديمة

في صورتها الأخيرة من مراحل تطورها .

ظلت اللغة المصرية القديمة في مراحلها

المختلفة لغة الكتابة والتخاطب في مصر حتى

اللغة هي الأداة التي يعبر بها الانسان

عن أفكاره ومشاعره . ولا يحدث أن يرتقى شعب ، وتتنوع الأعمال فيه ، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف نواحي الحياة . ولما كانت مصر القديمة قد وصلت الى درجة كبرى من الرقي ، فقد تطورت لغتها حتى سايرت أسباب الحضارة فيها بألفاظها المتنوعة وقواعدها التي تضبط التركيب ، وتعبيراتها ومصطلحاتها في شتى العلوم . كما كان أدبها الواسع في الميدان الديني والعلمي والشعبي ، وغير ذلك من الميادين داعيا الى نشاط اللغة وحيويتها . واللغة كائن يولد ويكبر ويتطور .

مراحل تطور اللغة المصرية :

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل :

١ - اللغة المصرية القديمة : وهي لغة

الأسر من الأولى الى الثامنة منذ حوالي سنة ٣٤٠٠ ق.م الى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر ، ومنها نصوص الأهرام ، وسير لبعض الأشخاص .

ولهذه اللغة خصائص ميزتها في بعض

تعبيراتها واملائها .

سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة . ( وما يستحق الملاحظة أن كلمة فينيس *finis* في اللاتينية بمعنى حد ، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضا ) .

وسمى القبط مصر باسم كيمي « السواد » أي الأرض السوداء . وأسماها الآشوريون في نقوشهم الآسفينية « هيكوبتاه » وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه « بيت روح بتاح » وكان اطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من سبيل اطلاق العاصمة على القطر كما تعودنا ذلك في المديرات الآن .

وسمى اليونان هذا الاسم فأخذه عنهم منذ عصور قديمة وأسماها « ايجبتوس » وورد اسمها هذا عدة مرات في شعر هوميروس . فاذا حذفنا علامة الرفع ( و س ) ثم الحركة الأولى التي ظنها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم قبط .

أما المراحل التي اجتازتها كتابة هذه اللغة فهي :

١ - الخط الهيروغليفي : الذي اكتسب صفة القدسية ، ولذا أعطى هذا الاسم « هيروغليفي » المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما « هيروس » = مقدس ، و« غليفوس » = نقش .

قيام دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية . وبمضى الزمن أخذ كثير من المصريين يتعلمونها ويستخدمونها في وثائقهم وخطاباتهم حتى ولو كانوا يجهلونها . ولا جدال في أن اللغة المصرية كانت لا تزال تستخدم في الكتابة الدينية والتخاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل . ولا يفوتنا أن نذكر ان غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أى لغة وبطبيعة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية .

وقد صحب ازدياد استخدام اللغة اليونانية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية . وتبع وضع الأبجدية القبطية تنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة لرفعها الى مصاف اللغات الأدبية ، وأدى ذلك الى أن ظهرت اللغة القبطية بأدائها منذ أواسط القرن الثالث الميلادي .  
اسمها : سميت بالقبطية لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يسمون أقباطا ، وقبطن معناه مصرى .

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمى مصر قديما باسم « مصر » . هكذا تسمى في الآشورية وسميت في الآرامية « مصرين » وفي العبرية « مصرايم » وعرفها العرب باسم « مصر » . والمصر في اللغات السامية بمعنى الحد وقد أطلقت الشعوب السبامية من آشوريين وآراميين وعبريين وعرب ، على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسماها

اللهجات القبطية : المعروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى، وهذا ما نراه واضحا بين سكان مصر الآن . وهذا طبيعي في اللغات اذا انتشرت في منطقة واسعة وتوالت عليها العصور . ولا ريب أن بعض الاختلافات التي كانت قائمة في المصرية القديمة كانت أساسا لما وجد منها في اللهجات القبطية المتعددة .

قسم العلماء اللهجات القبطية الى قسمين :

#### ١ - لهجات مصر السفلى :

ويعرف منها الآن البحرية نسبة الى البحر أى لغة الأراضى المجاورة للبحر أو ربما كانت منسوبة لمديرية البحيرة . وهى اللهجة الأولى التى وصلت الى درجة اللغة الأدبية . وكان ذلك في مدينة الاسكندرية .

#### ب - لهجات مصر العليا :

١ - الصعيدية نسبة الى صعيد مصر وهى لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلى ، وكانت تسمى بالطيبية .

٢ - الفيومية ، انتشرت في الفيوم .

٣ - الأخميمية ، تكلم بها أهل مدينة اخميم ثم أفسحت المجال للصعيدية .

هذه اللهجات الأربع هى اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات :

١ - المنفية ، سادت في منطقة منف وحلت محل البحرية .

ب - الخط الهيراطيقى : وهو أيسر من الهيروغلىفى بعض الشيء . واستعمله الكهنة في كتاباتهم . والتسمية مأخوذة أيضا من اللغة اليونانية ، ومعناها « خاص بالكهنة » .

ج - الخط الديموطيقى : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالشعب » . فالخط الديموطيقى هو الصورة المبسطة التى أخذ الشعب المصرى يستخدمها في كتاباته في العصور المتأخرة .

د - الخط القبطى : قامت محاولات فردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية وكان ذلك في العصور الوثنية ، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثنى لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية ، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحفى باريس ولندن .

وكافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أى شأن بالمسيحية . واتهى الأمر بأن استطاع شخص أو جملة أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطى وكتبوا لغتهم بحروف يونانية وأضافوا الى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقى ، تعبر عن أصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهى الأحرف السبعة : شاي ( ش ) وفاي ( ف ) وخاي ( خ ) وهورى ( ه ) وچنجا ( چ ) وتشيسا ( تش ) وتى ( ت ) .

٢ — الاخيمية الفرعية او الأسيوطية ،  
انتشرت فيما بين البنسا وأسيوط وقد  
اشتقت من الاخيمية .

١ — البشورية ، اشتقت من البحرية  
وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت  
ويرجح أنها كانت لهجة قبطية تكلم بها  
اليونان في شرقى الدلتا وكتب بحروف  
يونانية عادية .

٤ — واشتق من الفيومية لهجة أخرى  
عثر على نص منها في البجوات بالوحدات  
الخارجة ويرجح أنها كانت خاصة بالوحدات .

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من  
عدة لهجات اندمجت بعضها في بعض كما  
نلاحظ هذا أيضا في البحرية . ودليلنا على  
ذلك وجود صيغ مختلفة لكلمة واحدة .  
ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية  
القديمة ما يأتي :

١ — أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن  
كانت تكتب بحروف معظمها ديوطيقية .

٢ — دخلت عليها مفردات وتعبيرات  
يونانية وبخاصة في العصر المسيحي .

٣ — أبدلت بعض الحروف في الكلمات  
وبخاصة الحروف السائلة ل م ن ر ، كأن  
يقال « لس » بدلا من « نس » أى لسان ،  
كما دخل القلب على بعض الكلمات مثل  
« اتبى » بدلا من « بت » أى سماء .

٤ — كتبت القبطية بالحروف الصامتة

والمتحركة ولم يعرف الخط القديم الا  
الحروف الصامتة .

٥ — حملت لنا القبطية كلمات لم نعثر  
عليها في المصرية القديمة .

٦ — وأهملت القبطية كلمات مصرية  
قديمة .

#### احتضار اللغة القبطية :

أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية  
ابتداء من القرن التاسع الميلادى . وطبيعى  
أن حلول العربية محل القبطية في الكتابة  
سبقه انتشار العربية كلغة للتخاطب بين أفراد  
الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ،  
ثم صارت لغة التعليم ، وقد جاء القرن الثالث  
عشر والعلماء القبط يؤلفون في اللاهوت  
باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم  
السائدة . وكان يفهمها أغلب سكان مصر ،  
ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحرى .  
وظلت القبطية لغة التخاطب في الوجه القبلى  
حتى القرن السابع عشر .

ويقول المقرئى فى القرن الخامس عشر  
عند كلامه عن دير موشه « والأغلب على  
نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى  
وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة  
القبطية البحرية . ونساء نصارى الصعيد  
وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا بالقبطية  
الصعيدية » . ويقول ماسيرو « ولكن من  
المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون

ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر .

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها بقيت لغة الكنيسة تستخدم في الصلوات وقراءات الكتب المقدسة . ويعرفها بعض الأفراد من الأقباط ، في الأديرة أو المدن ، عن طريق اتصالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها . هذا طبعا غير العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين بدراساتها .

#### اثر اللغة القبطية خارج مصر :

بالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية ، الا أننا نرى لها آثارا عالية ، فهذه بعض ألفاظ قبطية انتشرت في اللغات الأوروبية مثل الواحة ( وازيس ) ، وكومي أي الصمغ ( في الايطالية جوما ، وفي الفرنسية جوم وفي الانجليزية جم ) ، والسوسن ، والأبيس وشبهات ، وهي منطقة وادي النطرون ( اسقيط ) ، ومنها اسم الناسك في اللغات الأوربية ) ، والأبنوس ، ولعل كلمة طوبة أي ( الآجر ) مثل من الألفاظ التي نعرف تاريخ انتشارها في الخارج ، فقد أخذها العرب عند فتحهم لمصر عن القبطية وحملوها معهم الى الأندلس فدخلت الاسبانية . ثم فتح الاسبان جنوب أمريكا فانتشرت هناك لفظة ( أدوبي ) ثم اتصل الأمريكيون الشماليون بأمريكا الجنوبية

فدخلت الكلمة في اللغة الانجليزية بشكلها الاسباني .

ومن اثر القبطية أيضا أن القديسين كيرلس المسمى بالفيلسوف وأخاه ميتودوس عندما وضعوا الأبجدية الروسية في القرن التاسع الميلادي أدخلوا بعض الحروف القبطية المأخوذة عن الديموطيقية في الأبجدية الروسية .

#### اللغة القبطية واثرها على العربية :

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام العربية الا أن ذلك لم يحل دون أن تضى شخصيتها المصرية على اللغة العربية وأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية في مصر تظهر بمظهر خاص يختلف عنه في الأقطار العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن في مصر . فمن الكلمات القبطية التي دخلت العربية أسماء لمسميات مثل برسيم ، أردب ، يم ، أم قويق ، حلق ، تليس ، بقوطى ، كعك ، قلة ، كحة ، لقمة ، لبشة ، ماجور ، تمساح ، نبوت ، نوس ، نونو ، ناف ، بصارة ، رفاق ، سلة ، سمان ، طورية ، ذهبية ، تددة ، سنط ، شونة ، شوب ، شوطة ، شوربة ، حلوم ، رمان ، شوثة ، شبورة ، بلح . ومن أنواع السمك : البورى ، والبنى ، واللييس ، والراى ، والشال ، والشلبه . ومنها أفعال مثل شأشأ ، فرفر ، هلوس ، هوش ، لكلك ، نكت ، نط ، فتفت ، ودمس ( دفن ) ،

منذ تسعة قرون وهي مدة سيادة اللغة  
اليونانية ورغما من فرض أسماء يونانية على  
المدن المصرية مثل : أبولوتوبوليس لقوص ،  
وأكسيرانخوص للبهنسة ، وليتوبوليس  
لأوشيم ، وبانوبوليس لآخميم، وهرموبوليس  
للأشمونين ، وهيراكليوبوليس لأهناس فإن  
الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت  
ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك لمحافظة  
اللغة القبطية على هذه الأسماء القديمة .

شكلى ، شن ، بشبش . وكذلك تعبيرات  
مثل : الورور للفجل الصغير ، ولقلاق  
ووجبة ( الساعة أو الوقت ) والكاس بمعنى  
الألم ، وتوت للحاوى بمعنى اجتمع ، وليلى  
بمعنى افرح ، ونحن ما زلنا نرددتها في  
« ليلى يا عينى » ، وبع بمعنى انتهى ، وكانى  
مانى ... ومنها استعمال أداة الاستفهام فى  
آخر الجملة . ولعل من أهم مظاهر القومية  
المصرية ما نلاحظه فى أسماء المدن المصرية ،  
فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة

# الفصل الثالث

## الحياة الفكرية

### ١ - الإنتاج العقلي والفلسفة

وقد التقى كل أولئك في شوارع المدينة وأسواقها . وقامت مناقشات دينية وعقلية حامية كانت تؤدي الحماسة لها أحيانا إلى معارك ومنازعات . كما تقابل علماء كثيرون في المكتبة وتناقشوا في خصومة حيناً وفي تفاهم حيناً آخر ، وكانوا يأخذون من الحكام مساعدات مالية ، وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية المشهورة وأخذت الاسكندرية مكان أثينا كمركز أدبي للعالم اليوناني .

ومن ذلك كله حدث لون من الامتزاج الفكري تولدت عنه أفكار وفلسفات ومذاهب جديدة . بل حدثت محاولات للتوفيق بين الأديان المتعددة في حركة عرفت باسم « التوفيق » Syncretism :

واليهود الذين كانوا منعزلين عن الأمم ، بقيت جماعة منهم محتفظة بتقاليدها بينما اختلط الباقون بغيرهم من الشعوب ، وعملوا على التقريب بين ديانتهم والفلسفات القائمة فمزجوا بين الاثنتين . حتى أنه في القرن الثاني قبل المسيح كتب أرسطوبولس تفسيراً للتوراة حاول فيه التوفيق بين تعاليمها

الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية :

كانت الاسكندرية قد وصلت الى درجة عظيمة من الأهمية ، حتى أصبحت تعتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم الهليني النابض . وكانت مكتبتها تزخر بمن يفد إليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان فحسب وإنما من كل جهات العالم ، يجلبون معهم علوم بلادهم وثقافتها . وازدهمت المدينة بأناس من شتى الأجناس والأديان والثقافات ، حتى لكأنها كانت معهداً ثقافياً .

كان فيها المصريون الوطنيون بديانتهم المعروفة ومعابدهم وآلهتهم المصرية ، وإلى جانبهم عاش اليونان بلغتهم العالمية وفلسفاتهم وآلهتهم الاغريقية والتمصرة ، والرومان بأنظمتهم وقوانينهم وثقافتهم وعباداتهم ، وكان هناك اليهود يمثلون عنصراً هاماً في المدينة ولهم فيها حى خاص ومعهم ديانتهم الالهية وكتابهم الموحى به وتقاليدهم الموروثة ، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية في المدينة لها أيضاً عباداتها وثقافتها .

والفلسفات المعاصرة ، بل قال ان فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو تأثروا بكتابات موسى النبي واعتمدوا عليها في كتاباتهم .  
وفيلون الفيلسوف اليهودي الاسكندري الذى عاش فى القرن الأول الميلادى حاول هو أيضا التوفيق بين العقل والوحى ، وتأثر بالأفلاطونية ، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد .

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب اصبحت الى الأفكار المتضاربة أفكارا جديدة، ولم تستطع أن تصل بالناس الى الحق الواحد ، بل ظل العقل البشرى حائرا يتساءل أين توجد الحقيقة . واحتدم النزاع بين فلسفات وفلسفات ، وبين أديان وأديان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والايان.

**الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية :**

وسط كل ذلك ظهرت المسيحية فى الاسكندرية حوالى سنة ٦٥ م وانتشرت فى فترة وجيزة فى مصر كلها . وكان عليها لى تبقى أن تصمد أمام اضطهادات الحكام ، وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية .

وهكذا حدثت مفارقة عجيبة فى الاسكندرية ، فاتخذ كل من الفريقين أسلحة الآخر ليحاربه بها . فدرس المسيحيون الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون الكتاب المقدس لمهاجمة المسيحيين . وهكذا نرى « كلسوس » و « بورفيروس »

وغيرهما يهاجمون المسيحية فى تعاليمها التى درسوها فى الأناجيل محاولين أن يخطئوها تاريخيا وفلسفيا . ومن ناحية أخرى نرى ديديموس الضرير يكتب كتابه عن « الثالث » مستشهدا فيه بكثير من آراء الفلاسفة والعلماء والشعراء الوثنيين .

واتهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام باتهامات كثيرة فى تعاليمهم وعبادتهم وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع الى ظهور فئة من العلماء يدافعون عن المسيحية تذكر من بينهم أئيناغورس أحد أساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، فقد كتب دفاعه الى مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٦ م .

كذلك حاول أعداء المسيحية أن يؤلفوا كتبا على نسق الأناجيل لها أبطال سيرتهم تشبه سيرة السيد المسيح حتى يخلطوا المسيحية بتلك الأساطير الخرافية . ومن ضمن كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التى ألفها بورفيروس وهى لا تختلف كثيرا عن حياة أبولونيوس التى كتبها فيلوستراتوس . ورد المسيحيون على كل ذلك معتمدين على التاريخ والمعلوم والفلسفة واللاهوت فى ردودهم .

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، أعنى بين العقل والايان الذى يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل ، كان من نتائج ظهور فلسفة الفنونسية ، وفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

زاعمين الانتصار على الحس بالانهماك فيه .  
وكان الغنوسيون في مصر من النوع الأول  
الناسك .

ليس معنى هذا أن الغنوسيين كانوا  
جميعهم وثنيين ، وانما كان منهم مسيحيون  
أيضا . ولكن هؤلاء نظروا الى نزعتهم التي  
اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصا روحيين  
على حين اعتبروا باقي المسيحيين نفسانيين  
فقط غير قادرين على النهوض من الايمان  
الأعمى الى المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقي  
الناس عاديين أو جسدانيين . ورأوا أن نظرية  
الفداء في المسيحية هدفها تخلص الانسان  
من المادة والجسد ، وقالوا ان هذا كان هو  
عمل المسيح الفدائي . ولكن لأن الغنوسية  
قد اشتملت على عقائد كثيرة تخالف الايمان  
المسيحي فقد طردتها الكنيسة من صفوفها ،  
وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت  
الغنوسية بذلك الوضع هرطقة وحاربتها .

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوسية الى  
أيام تلاميذ السيد المسيح ، ويرون أن  
سيمون الساحر الذي حرمه بطرس الرسول  
كان أحد مؤسسيها الأول . على ان  
الغنوسية لم تظهر في قوتها الا منذ القرن  
الثاني حين انتشرت في مصر .

وقد تكونت مدارس كثيرة للغنوسية في  
سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفي رومة  
أيضا وفي بلاد الغال وقرطاجنة ، وانتشرت  
هذه المدارس على الأخص في البلاد التي

الغنوسية وتاريخها ومدارسها : الغنوسية  
معناها « المعرفة » واسمها مأخوذ من الكلمة  
اليونانية « جنوسس » ، وقد ميز  
« الغنوسيون » أنفسهم بهذا الاسم عن  
« المؤمنين » ، وغالوا في رفع قيمة المعرفة  
والحط من قيمة الايمان . هم وضعوا العقل  
فوق الايمان ، والفلسفة فوق الدين ،  
وجعلوا الفكر الخالص رقيبا على الوحي ،  
يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات وينكر  
المعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة .  
واعتقدوا أن الانسان يتكون من ثلاثة  
عناصر : روح ونفس وجسد . وقسموا الناس  
حسب العنصر السائد فيهم الى ثلاث طبقات:  
أ — الروحيين وهم الغنوسيون الذين  
رفعتهم المعرفة الى مستوى عال فوق المادة  
والحس ويسودهم العنصر الالهي .  
ب — الجسدانيين وهم العوام الخاضعون  
لتأثير المادة والحس .

ج — النفسانيين وهم متوسطون بين  
الاثنيين ، يمكن أن ترفعهم المعرفة الى درجة  
الغنوسيين الروحيين ، ويمكن أن تنحدر بهم  
المادة الى درجة الجسدانيين .

وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم  
أرستقراطية عقلية قريبة من الله ، وحطوا من  
قيمة المادة جدا واعتبروها شرا . فلك  
بعضهم طريقة تصوفية تحاول السمو عن المادة  
والحس ، كما انحدر بعضهم الى الدعارة

كانت فيها المسيحية على اتصال قريب باليهودية والوثنية . وتفرعت منها فروع تميز كل منها بطابع خاص مثل النيقولاويين والماركونيين والمانيين . ولكن أقوى وضع ظهرت فيه الغنوسية كان على يد فيلسوفها الكبير فالنتينوس الاسكندري الذى يقول عنه « شاف » انه « أسس أكبر مدرسة للغنوسية ، وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضع انتشرت فيه الغنوسية » .

**فالنتينوس :** هو مؤسس أعمق وأمتع الأنظمة الغنوسية وأكثرها تأثيرا ورواجا . كان مصرى الجنسية واسكندري الثقافة درس الغنوسية ونشرها فى طابع جديد شاعرى له جمال فنى . وبعد أن قضى فترة فى الاسكندرية ذهب الى رومة حيث قوبل بترحاب كبير . وأسس هناك مدرسة غنوسية ، واجتمع حوله عدد كبير من تابعيه ، وكان من أوائل الغنوسيين الذين علموا فى رومة . وقضى بها حوالى سبع عشرة سنة أو أكثر من ذلك ، على رأى بعض المؤرخين . ثم تركها وذهب الى قبرص حيث أسس مدرسة أخرى للغنوسية لاقت رواجاً كبيراً حتى قال عنه القديس ايفانوس انه « كاد يقضى على الايمان هناك » واستمر هناك حتى مات حوالى سنة ١٦٠ م . وكان له تلاميذ كثيرون سواء فى ايطاليا أو فى بلاد الشرق ، ومن أشهرهم يريصان وبطلميوس وهراكليون

وثيودوتس ، وقد نشروا تعاليمه فى صور متنوعة . وقد هاجم تعاليمه كثير من كبار رجال المسيحية فى العالم ، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس فى افريقيا ، وايريناوس فى بلاد الغال ، وايفانوس فى قبرص وغيرهم .

**الوثائق القبطية :** عثر الباحثون على وثيقة قبطية هامة عن الفلسفة الغنوسية تدعى « حكمة الايمان » يرجع تاريخها الى وقت ازدهار فلسفة فالنتينوس فى أواخر القرن الثانى الميلادى أو أوائل الثالث . وتسجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس . وموضوعها مقابلة خيالية بين السيد المسيح وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية ، وأسلوبها شاعرى مؤثر .

كما عثر سنة ١٩٤٦ فى نجع حمادى على حوالى ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردى بها ٤٧ رسالة فى الغنوسية . وهى محفوظة الآن فى المتحف القبطى بمصر القديمة . وقد أبدى العلماء اهتماما شديدا بها لأنهم يتوقعون أن تلقى ضوءا على هذه الفلسفة .

**الغنوسيون الارثوذكس :** اذا كان قد انضم الى الغنوسية كثير من الوثنيين واليهود أو من المسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة ، فانه قد انضم اليها أيضا جماعة من المسيحيين من كسار معلى الكنيسة . ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات الغنوسية التى حاربتها المسيحية ، وانما كان

ولكن جميع هؤلاء — على عكس  
فلاسفة الغنوسية الآخرين — قد وضعوا  
اللاهوت فوق الفلسفة ، والوحى فوق العقل ،  
ونادوا بعدم تناقض الاثنين .

الأفلاطونية الحديثة :

وهي فلسفة جديدة ولدت في الاسكندرية  
على يد « أمونيوس سقاص » . وقد قدمت  
لل بشرية فكرة امكان الاتصال المباشر  
باللاهوت ، وانتشرت انتشارا عظيما حتى  
وصلت الى جميع العقول من عقل الامبراطور  
الى عقل العبد . وانتشرت بسرعة  
وسط العامة الذين استطاعوا أن يفهموها ،  
وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها  
وأعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس  
أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على  
كثير من قادة المسيحية .

امونيوس سقاص : ولد من أبوين مسيحيين  
في الاسكندرية ، وكان من أسرة فقيرة .  
ولكنه بعد فترة من الدراسة والتأمل أنشأ  
مدرسة فلسفية في الاسكندرية نشر فيها  
تعاليمه التي أخذها من دراسة نقدية  
لأفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين  
آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكنا أن  
نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التي اشتملت  
عليها فلسفة سقاص ولكننا نقول ان الفلسفة  
أخذت على يديه اتجاها يختلف كلية عن  
اتجاهات سابقه . لأن الأفلاطونية الحديثة  
لم تكن مجرد فلسفة وانما كانت أيضا نظاما  
دينيا ، أو كما يقول البعض انها « حولت

لهم رأيهم الخاص في الغنوسية بمعناها السليم  
الذي لا يتعارض مع الدين . وعلى رأس  
هؤلاء القديس اكليمنضس الاسكندري  
أحد مشاهير من تولوا ادارة المدرسة  
اللاهوتية بالاسكندرية . وقد وضع كتابا  
مقسما الى ثمانية كتب وسماه « المتنوعات »  
وعارض فيه الغنوسية الوثنية . وقال ان  
الغنوسية الحقيقية يجب أن تبنى على  
أسس من الايمان والمعرفة العليا التي هي  
الحكمة الالهية . ولم يهاجم الفلسفة كما  
هاجمها غيره من المسيحيين الذين اعتبروها  
خطرة على المسيحية ، بل انه أعلن ان  
« الفلسفة خادمة للاهوت » ، وأن الله أعطى  
الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتعدهم  
للايمان المسيحي كما كانت الشريعة بالنسبة  
 لليهود . وهكذا اعتبر الفلاسفة « أنبياء  
الوثنية » . ودعا المسيحيين الى دراسة  
الفلسفة وأخذ ما فيها من حقائق . ورأى أن  
الغنوسى الحقيقى يجب أن يتزود بكافة  
أنواع المعارف لتساعده على الايمان وثبته  
فيه . واعتبر أن جميع المسيحيين الحكماء  
المتعمقين في فهم الحق هم الغنوسيون  
الحقيقيون أو الغنوسيون الأرثوذكس .

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التعليم  
في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وسار  
عليه مشاهير مديريها من أمثال : أوريجانوس  
وديديموس الضرير وغيرهما ، ونشروه بين  
الجموع التي لا تحصى من تلاميذهم .

ولا شك أن اتصاف قادة الفكر المسيحي على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان دليلا على ماوصل اليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق في الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هي ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها الثقافي مثلا في الأفلاطونية الحديثة التي أصبحت فلسفة العصر واتشرت في مدارس الامبراطورية الرومانية .

فأنشأ تلاميذ بورفيرىوس مدرسة في سوريا ، وذهب الى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة ليحملوها الى مدارس آسيا الصغرى واليونان والى الاسكندرية ذاتها . واستمر ذلك الى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب افلوطين تتداول في أيدي المثقفين أكثر من محاورات أفلاطون ، ومثل هذا يقال أيضا عن مؤلفات بورفيرىوس .

الهيلينية الى لاهوت» . وقد توفي امونيوس سقاص حوالي سنة ٢٤٣ م دون أن يخلف لنا كتبا . وانما استطعنا أن نفهم فلسفته من كتابات تلميذه بلوتينوس ( افلوطين ) وبورفيرىوس خليفة افلوطين .

ولد افلوطين في أسبوط سنة ٢٠٤ م ودرس الفلسفة في الاسكندرية لمدة احدى عشرة سنة على يد أمونيوس سقاص ، ثم ذهب الى بلاد الفرس ليدرس ديانتهم ، واستقر سنة ٢٤٥ م في رومه حيث أنشأ مدرسة للأفلاطونية الحديثة على غرار المدرسة الغنوسية التي أسسها هناك فالنتينوس الاسكندري . واستمر يدرس في رومه حتى وفاته سنة ٢٧٠ م .

وخلفه تلميذه بورفيرىوس الذى وضع ٥٤ مؤلفا شرح فيها تعاليمه ، غير أن بورفيرىوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة . وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيرا من تعاليمها .

## ٢ - مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي

وكذلك لتتيف المؤمنين أنفسهم بمبادئ دينهم وتعاليمه وتزويد الراغبين منهم بما يريدونه من الدراسات العليا والتعمق في فهم الفلسفة واللاهوت . وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحي . ولم تكن هذه الأسباب الايجابية فقط

الحاجة الى انشاء هذه المؤسسة :

انتشرت المسيحية انتشارا سرعا وازداد عدد المنضمين اليها ، وكان من الضروري أن يوضع التعليم المسيحي على أسس منهجية منظمة ، لاعطاء هؤلاء المتحولين الى المسيحية ما يؤهلهم للمعمودية والانضمام الى الكنيسة،

هى الداعية لانشائها ، انما كان هناك سبب آخر لا يقل عنها خطورة . ذلك أن العالم الوثنى كان يقف للمسيحية بالمرصاد يحاول بكل قواه وبكافة الطرق العلمية والعقلية والنقدية أن يقضى على هذه الديانة الجديدة. وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها . وكان لا بد أن توجد مدرسة عليا تزود الكنيسة بقيادة للفكر ، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التى تمكنهم من الرد على خصومهم سواء كان ذلك فى مجادلات فردية أو جماعية . وكان غرض المسيحية من هذه المدرسة اللاهوتية هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم ، وحماية المؤمنين مما يثرونه فيهم من شكوك ، وتبشير أولئك جميعا بالمسيحية وتعريفهم طريق الحق .

وهكذا تركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية فى المدرسة اللاهوتية . وتطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تعدل فى مناهجها وتضيف اليها مواد جديدة لتفى بحاجة العصر . وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة لطبيعة الاحتياجات التى واجهتها ، والتى تطورت بها حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعارف الدنيوية والكنسية .

#### تاريخ المدرسة وشهرتها :

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يوسايبوس القيصرى والقديس جيروم الى زمن القديس

مرقص الرسول ويقول انه هو الذى أسسها فى النصف الأخير من القرن الأول الميلادى ، وعهد بادارتها الى تيطس الذى صار فيما بعد أسقفا للاسكندرية . على أن شهرتها ظهرت بوضوح منذ القرن الثانى وأوائل القرن الثالث على أيدي مديريها الفلاسفة المشهورين مثل بنتينوس واكليمنضس وأوريجانوس وديونسيوس . ثم توقف نشاطها قليلا أو تعطل بعض الشئ فى أواخر القرن الثالث ، اذ شتت الاضطهاد أساتذتها وطلابها ، الا أنها ما لبثت أن رجعت فى القرن الرابع الى سالف مجدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرير . واستمرت الى أوائل القرن الخامس ، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبة فى الأديرة .

فى الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هى المدرسة اللاهوتية الوحيدة فى العالم المسيحى ، وانما كانت هناك مدارس مسيحية فى بلاد أخرى . ولكن لم تستطع واحدة منها الوصول الى مثل سيطرة مدرسة الاسكندرية وتفوقها ، فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها فى المسيحية ، يأتى المسيحيون اليها من شتى الأقطار للدراسة على أساتذتها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية الهامة . وكان مدير المدرسة يعتبر الثانى بعد البطريرك فى الاسكندرية .

وكثيرا ما اختير بطاركة الاسكندرية من بين مديري هذه المدرسة اللاهوتية . وقد أعطى هذا لبطاركة الاسكندرية مركز الزعامة الفكرية والعلمية في العالم المسيحي كله ، اذ كان كثير من أساقفة العالم المشهورين تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدي تلاميذهم في مدرسة الاسكندرية ، وظلوا بعد رسامتهم أساقفة ، على صلة بأساتذتهم الاسكندريين يستشيرونهم في مشاكلهم . ولذلك لقب بطريك الاسكندرية بلقب «قاضي المسيحية في العالم» . وكانوا يعتبرون في الجامع السكونية حجة ومصدرا للتعليم الصحيح .

#### مشاهير اساتذتها

قدم إلينا القرن الثاني للميلاد ثلاثة مديرين للمدرسة كانوا فلاسفة وثنين ، تعمقوا في الفلسفة اليونانية ثم درسوا المسيحية ليتفهموها أو ليفندوها ، غير أنهم ما لبثوا أن آمنوا بها ودافعوا عنها ، وتطوروا حتى صاروا مديرين لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وهم أيثاغوراس (سنة ١٧٦ م) ، وبنتينوس (سنة ١٨١ م) ، واكليمنضس (سنة ١٩٠ م) . وقد ظل أيثاغوراس يرتدي زي الفلاسفة وهو مدير للمدرسة المسيحية .

وخلفه تلميذه بنتينوس الذي نجح نجاحا كبيرا في ادارة المدرسة ، فبدأ الراغبون في العلم والدين يقصدونها من كافة أنحاء العالم . وكان

من استمعوا اليه تجار من الهند فأعجبوا به جدا واعتنقوا المسيحية بحماسة عظيمة ولم يكتبوا بذلك بل حركتهم غيرتهم الدينية على خلاص مواطنيهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم الى بلادهم — وفدا الى البابا الاسكندري ديمتريوس يلتمسون منه أن يسمح بارسال القديس بنتينوس الى بلادهم لتبشيرها بالمسيحية فأوفده في بعثة الى هناك سنة ١٩٠ م فترك المدرسة في يدي تلميذه اكليمنضس وذهب في رحلته الموفقة الى هناك . وفي رجوعه من الهند عرج في زيارة تبشيرية على الحبشة وبلاد العرب .

ويرجع اليه الفضل في تقديم أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه اكليمنضس الذي عاونه في ادارة المدرسة وخلفه فيها .

اكليمنضس الاسكندري : وهو واضح السياسة التعليمية الجريئة التي سارت عليها مدرسة الاسكندرية المسيحية في كافة عصورها . وكان قبل تحوله الى المسيحية فيلسوفا وثنيا ، درس فلسفة اليونان ثم جال يطلب العلم في بلاد اليونان وايطاليا وفلسطين ومصر وبلاد الشرق الأدنى ، غير أنه لم يجد معلما خيرا من أستاذه بنتينوس . وهو مثل معلمه نبغ في كافة العلوم الدينية والكنسية . وتظهر معارفه الواسعة في مؤلفاته وفي الطابع الجديد الذي اتخذته على يديه مدرسة الاسكندرية وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما

فتح الباب امام تلاميذه لجميع انواع المعرفة . وقد وضع كتبا كثيرة لها اهميتها الدينية والعقلية . ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب « المتنوعات » ألفه ليعارض به الفنوسية المنحرفة ، ووضع فيه الأسس التي ينبغي أن يسير عليها الفنوسى الحقيقى أو الفيلسوف المسيحى . ولما ثار اضطهاد الامبراطور سبتيموس ساويرس هجر الاسكندرية سنة ٢٠٢ م تاركا المدرسة فى يدى تلميذه العظيم العلامة أوريجانوس الذى فاقه شهرة وعلما . نابغا مثل أوريجانوس . فهو أشهر عقلية أوريجانوس: لم تعرف المسيحية فيلسوفا مسيحية فى مصر وفى العالم المسيحى كله طوال عصوره المتتابعة . وقد سار فى قيادة مدرسة الاسكندرية على سياسة أستاذه اكليمينضس .

ولد حوالى سنة ١٨٥ م وكان له ذكاء خارق للعادة وقدرة عجيبة على الاستذكار وصبر على الدرس والاطلاع . واستطاع فى سن مبكرة أن يستوعب قدرا ضخما من المعلومات فآلم بالفلسفة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والبلاغة ، وجمع بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية ، فدرس على القديس اكليمينضس الاسكندرى كما درس على أمونيوس السقاى مؤسس الأفلاطونية الحديثة . وفى سنة ٢٠٢ وهو فى السابعة عشرة من عمره سيق والده الى الاستشهاد فى أيام الاضطهاد الذى أثاره

سبتيموس ساويرس . فبينما جزعته والدته أرسل هو الى والده يشجعه ويقول له « لا تراجع ولا تضعف بسببنا » .

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القديس اكليمينضس الى ترك الاسكندرية فعهد البطريرك ديمتريوس بادارة المدرسة اللاهوتية الى أوريجانوس وهو بعد فى الثامنة عشرة . وكان هذا اعترافا بما وصل اليه هذا الشاب النابغ من عبقرية فذة . وقد نجح نجاحا كبيرا جدا فى عمله فى التدريس بل صار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية . وتوافد عليه طلاب العلم من كافة الأقطار ، وتخرج على يديه أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب كما درس عليه فلاسفة وثيون وهراطقة واستطاع أن يجذب كثيرين منهم الى الايمان . وكان قدوة فى الفضيلة والنسك حتى انه لم يذق الخمر ولا اللحم فى حياته ، ولم يكن له غير ثوب واحد . وقال عنه يوسايبوس « انه كان مثالا فى الأعمال للفيلسوف الحقيقى : كما يتكلم ، هكذا أعماله ، وكما هى أعماله ، هكذا يتكلم » . ولم يثن عن التعليم مع عنف الاضطهاد ، وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم صعبا فحسب بل كان يجعله خطرا أيضا . ولم يكن للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يقطنون حول مسكن أوريجانوس أو يأتون اليه لتلقى العلم . وقد اشتد الاضطهاد على أوريجانوس لدرجة أنه لم يوجد فى المدينة كلها أى مكان

له وانما انتقل من منزل الى آخر وكان يطرد من كل مكان يعلم فيه نتيجة للأعداد الوفيرة التي كانت تؤمن على يديه .

وكان في أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه في السجن ويصطحبهم الى حيث المحاكمة ويتبعهم الى مكان الاستشهاد ، لا يبالي أن يكون معهم تحت سماع وبصر جلادهم ، يقبلهم ويشجعهم الى أن يسلموا الروح ، بل انه وضع كتابا في الحوض على الاستشهاد .

أما عن انتاجه العلمي فهو أضخم انتاج لمؤلف حتى قيل انه كتب ستة آلاف مؤلف، وأقل تقدير يجعل مؤلفاته حوالى الألف . وكان يملى على عدد كبير من النساخ ، وقد قال عنه جيروم انه كان يقرأ أو يملى حتى وهو يأكل . ومن أشهر الأعمال التي قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة ومقابلتها ومراجعتها وتصحيح ما احتاج الى تصحيح . وقد استمر في هذا المجهود الجبار ٢٨ عاما ، فوضع « الهكسبلا » أى ذات الأعمدة الستة لأنه قارن بين ست ترجمات للكتاب المقدس جمعها في أسفاره الكثيرة . كما وضع كتاب « المبادئ » و كتاب « الرد على كلسوس » وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى وصفه الكسندر أسقف أورشليم بأنه « أستاذ الأساقفة وأمير مفسرى الكتاب » ورقاه الى رتبة الكهنوت أثناء مروره بفلسطين في أحد أسفاره .

وقد استاء من هذا العمل البطريك ديمتريوس وجمع مجمعا حرم فيه أوريجانوس ، فترك الاسكندرية وأسس مدرسة في قيسارية فلسطين على نهج مدرسة الاسكندرية ، وازدحم عليه طلاب العلم هناك . وموضوع حرم أوريجانوس ما يزال حتى يومنا هذا مثار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه . على أن البطريكين اللذين خلفا ديمتريوس في كرسى الاسكندرية كانا من تلاميذ أوريجانوس ويقال ان أولهما أعفاه من ذلك الحرم .

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل امتد الى التبشير ، فسافر الى رومه والى بلاد العرب للقضاء على بعض البدع فيها كما سافر مرتين الى أثينا كما ذكر « هارناك » .

ولما تولى ديسيوس عرش الامبراطورية الرومانية أثار اضطهاداشديدا على المسيحيين. ولم ينج أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل قبض عليه سنة ٢٥٠ م وسجن وعذب عذابا أليما . ويقول يوسايبوس « يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس وما احتمله في صبر وارتياح من العذابات المرة والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد » . ولكنه لم يلق فأخلى سبيله بعد أن تدهورت صحته وكاد يشرف على الموت . ولم يعيش بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثا حتى انتقل من هذا العالم بعد أن ترك فيه شهرة لا تمحى .

## ديديموس الضير

وقد كان مهذبا في نضاله ضد الأريوسيين  
والوثنيين ، اذ كان كل جهده مركزا في أن  
يقنعهم ويحولهم الى الحق لا أن يهزمهم .  
وهكذا تحاشى السباب . وجاءت كل كتاباته  
موسومة بروح الاعتدال . ومن أجل ذلك  
جاء اليه كثير من الهراطقة يلتصقون العلم على  
يديه — كما حدث لأوريجانوس — واهتدى  
على يديه كثير من أمثال أوريجانوس الى  
الايان .

وقد ذاع صيت ديديموس وامتدحه  
القديس أنطونيوس بقوله « لا يحزنك فقد  
بصرك اذ نزعت منك أعين جسدية كالتى  
يملكها الفئران والذباب . وأحرى بك أن  
تبتهج لأن لك أعينا كالملائكة ترى بها  
اللاهوت وتدرك نوره » كما امتدحه كثير من  
قديسى الغرب وكتابه . وكان القديس جيروم  
يفتخر بأنه تلميذ لديديموس وأنه اتخذ  
قدوة له في دراسة الكتاب المقدس كما ترجم  
له أحد كتبه . وممن تتلمذ على يده روفينوس  
أيضا : تتلمذ عليه ثمانى سنوات .

وهكذا استطاع ديديموس أن يعيد  
لمدرسة الاسكندرية المجد الذى كان لها أيام  
اكليمنضس وأوريجانوس . واستمر في عمله  
كمعلم حتى نهاية حياته سنة ٣٩٨ . وخلف  
حوالى ٤٨ مؤلفا قيما في اللاهوت والتفسير .  
وكان سندا لاثناسيوس وحصنا فكريا  
للكنيسة حطم قوة الأريوسية ، وفند كل  
مغالطاتها العقلية .

أما ديديموس الضير فقد ولد في  
الاسكندرية سنة ٣١٣ م في السنة التى وقف  
فيها اضطهاد الوثنية للكنيسة . وفي حوالى  
الرابعة من عمره فقد بصره لمرض أصابه في  
عينيه . فبدأ يدرّب ذاكرته تدريبا دقيقا حتى  
أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه .  
ولما كبر بدأ يعلم نفسه القراءة بحفر الحروف  
على قطع خشبية يتحسسها بأصابعه كما شهد  
المؤرخ سوزمين بذلك . وهكذا استطاع  
ديديموس الضير أن يسبق طريقة برايل  
بخمسة عشر قرنا . وتمكن من اتقان علوم  
كثيرة ، فألم بالشعر والبلاغة والفلك  
والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على  
تنوعها . كما برع في العلوم اللاهوتية  
ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن  
يعينه القديس اثناسيوس مدرسا للمدرسة  
اللاهوتية بالاسكندرية .

وفي ذلك الوقت كانت الحركة  
الأريوسية على أشدها ، وكان التعليم  
محفوفا بالمتاعب بسبب تدخل الحكام المدنيين  
بآراء ضد الايمان السليم مما عرض الأساقفة  
والمعلمين للنفي والاضطهاد . ولكن ديديموس  
لم تثنه اضطهادات أباطرة الرومان لبطيرركه  
اثناسيوس الذى نفى عن كرسيه خمس مرات  
بل وقف يجاهد معه بكل قوته في سبيل  
الايان ضد الأريوسية التى يناصرها  
الأباطرة ، كما حارب بقايا الوثنية المثلة في  
الأفلاطونية الحديثة وسائر الفلسفات .

## باقى الأساتذة :

يكتب يوساييوس القيصرى فى منتصف القرن الرابع فيقول « ان المدرسة استمرت الى أيامنا وسمعنا أنه أدارها رجال أقوياء فى علومهم ، وغيورون على الأمور اللاهوتية » . ويكفى أن الإلثين اللذين خلفا أوريجانوس صارا بطيركين للاسكندرية ، أحدهما القديس ديونليوس صاحب الصيت الذائع فى المعرفة اللاهوتية ، وثانيهما بيوريوس الذى كان نابغة فى الفلسفة والعلوم اللاهوتية ويقول عنه القديس جيروم انه « درّس تلاميذه كل أنواع المعرفة بمهارة وكتب مقالات فى شتى العلوم حتى لقب بأوريجانوس الصغير » .

## العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية :

كانت المدرسة الوثنية قد بلغت ذروتها فى العلوم والفلسفة فى القرون الأولى للمسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة فى العالم القديم تعادلها كمركز للدراسات الطبيعية والعلمية فى الطب والتشريح والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى فى النقد الأدبى . واذا كانت أثينا قد تميزت بدراسة الفلسفة ووجدت فيها فلسفات كثيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى فان مدرسة الاسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه الفلسفات معا ، تدارسها علماء يمثلون كل فلسفة اجتمعوا معا فى المكتبة والسرايوم . بل ان الاسكندرية أنجبت « الأفلاطونية

الحديثة » وتزعمت « الغنوسية » ونشرت هاتين الفلسفتين فى أرجاء العالم المثقف . لهذا كله كانت هذه المدرسة الوثنية القوية منافسا خطيرا للمدرسة المسيحية الناشئة التى كانت تمثل أعلى مجهود للمسيحيين فى نزاعهم الفكرى مع الوثنية .

ومع ذلك عاشت المدرستان جنبا الى جنب ، كل منهما كان لها طابعها الجامعى ، وكاتنا كمرآة تعكس الحالة الثقافية فى الاسكندرية وقتذاك . وقد أثرت كل منهما فى الأخرى . مثال ذلك ان أمونيوس سقاص كان فى المكتبة يحمل التعليم الذى تلقاه سابقا عندما كان مسيحيا ، بل ربما كان اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير المسيحية . ومن ناحية أخرى ، تأثر أوريجانوس بمحاضرات أمونيوس فى المكتبة ، واستمر كأثيناغوراس يلبس زى الفلاسفة حتى بعد أن صار أستاذا فى المدرسة اللاهوتية .

ولكن هدف التعليم فى المدرستين كان مختلفا ، فتاريخ التدريس فى المدارس الوثنية يدلنا على أن الطلبة كانوا يعدون ويتمنون ليتبوأوا مناصب الدولة ، بينما لم يكن هذا من أهداف المدرسة المسيحية وان كان خريجوها يصلحون لذلك عن طريق غير مباشر . وبينما كان المهم فى المدرسة الوثنية هو التقدم الثقافى وكان المستوى الأخلاقى للأساتذة منحظا ، فان الحياة الفاضلة

والأخلاق كانت من أبرز خواص المدرسة المسيحية سواء في المدرسين أو في الطلبة . ولعل أهم اختلاف وأوضحه هو أن الفلسفة والعلوم كانت تدرس في المدرسة الوثنية لمجرد الثقافة بينما كانت تدرس في المدرسة المسيحية لغرض ديني .

فارق آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة الوثنية كانوا من مستوى ثقافي واجتماعي معين وكانوا ذكورا ، بينما كان التعليم عاما في المدرسة المسيحية يتلقاه السيد والعبد ، الكبير والصغير ، الذكر والأنثى ، بغض النظر عن الدين والجنس والثقافة . وهكذا حظمت المدرسة المسيحية كل الفوارق الاجتماعية ، وفتحت بابها أيضا للفلاسفة الوثنيين والهرطقة ، وازداد عدد طلبتها ازديادا كبيرا .

على أن المنافسة الجبارة بين المدرستين كان لها أثرها الفعال القوي في نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت في تلك القرون الأولى للمسيحية ، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل في برامجها كل المواد التي تدرس في منافستها الوثنية ، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمتاز به المدرسة الوثنية ، وحتى يستطيعوا الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنيين .

وهكذا أدخلت الفلسفة الوثنية بثنتي فروعها في منهج المدرسة المسيحية على يد القديس اكليمنضس الاسكندري الذي نادى

بأن الفلسفة خادمة للاهوت ، وأن الغنوصي الحقيقي من المسيحيين يجب أن يزود نفسه بكل أنواع المعارف البشرية « آخذا من كل فرع من فروع الدراسة ما فيه من الحق » . وارتقت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى أن كثيرا من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجأون الى أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الدنيوية واللاهوت .

وأدخل اكليمنضس دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية ، وأدخل الى جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضيات والفلك والجغرافيا . كل ذلك وجد له موطئا في منهج اكليمنضس ووجدت له علاقة بدراسة اللاهوت . وسار خلفاء اكليمنضس على نفس هذا النهج . وهكذا قال أوريجانوس « ان أولئك الفلاسفة يتكلمون عن الهندسة والموسيقى والأدب والبلاغة والفلك كمعاونة للفلسفة ، ونحن بنفس الأسلوب نتكلم عن الفلسفة كمعاونة للمسيحية » .

ولم يكتف أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب ، وانما ساعدوا طلبتهم أيضا على القراءة — تحت ارشادهم — في كتابات كافة المؤلفين دون أن يمنعهم عن شيء . فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعارف ويفحصونها ، ولم يرفض الأساتذة في محاضراتهم مناقشة أي موضوع يسألون فيه .

ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة في المدرسة المسيحية غير محدودة فالقديس أغريغوريوس صانع العجائب ( بعد أن أكمل دراساته في الفلسفة واللغة والبلاغة في أثينا وبيروت ) تتلمذ ست سنوات على أوريجانوس وكان يشتهي لو أتيح له أن يقضى بقية حياته في المدرسة .

نجحت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، وانما كان أساتذتها يلقون دروسهم في منازلهم أو في قاعات يستأجرونها لهذا الغرض . وكان الطلبة والأساتذة يذهبون الى مكتبة الاسكندرية العامة للقراءة والاطلاع .

وأضافوا الى كل ذلك دراسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريبا عمليا . وكان المدرسون قدوة صالحة لطلبتهم في الحياة الفاضلة المثالية ، وما حثوهم على فضيلة الا كانوا قد مارسوها هم أنفسهم قبلا وتقدها .

وهكذا كان من نتائج المنافسة بين المدرستين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة النطاق لا نظير لها في أى بلد آخر من بلاد العالم المثقف . وأصبحت الاسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو للوثنيين ، وصارت مقصد كل راغب في الدراسات العليا في شتى العلوم الدنيوية والدينية .

### ٣ - الإنتاج العلمى والأدبى والثقافة الشعبية

الأقباط أساتذة تخرج عليهم كثير من علماء العالم القديم .  
١ وظهر فيهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح ، وإيريستراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء ، وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة . كما ظهر العالم الماهر كرنيليوس كلوسوس الذى وضع تذكرته الطبية الشهيرة لمنع تلف الأسنان ، وسرايون الاسكندرى الذى تعمق في دراسة عقاقير قدماء المصريين ، ولا سيما الكريهة الطعم منها ، وهو الذى قدمها للعصور المتتابعة فظلت مستعملة الى القرن الثامن عشر .

#### الإنتاج العلمى :

ورث الأقباط عن أجدادهم الفراعنة براعة في الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة ، والهندسة والفلك . واستمروا على نبوغهم في هذه العلوم طوال العصرين اليونانى والرومانى ، حتى أصبحت مدرسة الاسكندرية الوثنية القديمة هى أقوى مدارس العالم في هذه الدراسات . ثم تأسست المدرسة القبطية المسيحية واضطرت أن تدرس هذه المواد أيضا . وتتج عن كل ذلك نهضة علمية لا مثيل لها ، ونبع من

بعض أمراض النساء والأطفال . وقد وصفت كثيرا من العلاجات لأمراض العيون وبعض القطرات والمساحيق ، منها قطرة قابضة لمنع النزيف . ولا تقل بردية «زينون» أهمية عن هذه البردية أيضا . وهذه البرديات ترينا مدى ما وصل اليه صيادلة الأقباط من معرفة بأصول فن صناعة الدواء وتحضير اللصقات، كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيميائية المختلفة وبالأخص التي تتم على النار .

ويقول « نيتولتسكى » في كتابه الطب الشعبى المقارن ، ان كثيرا من العلاجات والمستحضرات العلاجية المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى تحمل الطابع المصرى القديم ، كما أن الكثير من هذه الوصفات لا زال مستعملا في مصر وفي كثير من بلدان الشرق .

ولم يقتصر نبوغ الأقباط العلمى على الطب والصيدلة والكيمياء وانما برعوا في الحساب والرياضة أيضا . وليس أدل على ذلك من أنهم تولوا الأعمال الحسائية والمالية والادارية طوال العصر الاسلامى . بل ظلوا الى عهد قريب يشغلون غالبية وظائف الدولة في هذا الميدان .

ولم يقل نبوغهم في الهندسة وأعمال البناء عن نبوغهم في الطب والحساب . وتشهد على ذلك الكنائس الفخمة التي بنوها والأديرة ذات الأسوار والحصون الضخمة .

ووضع القبط في الاسكندرية غالبية المصطلحات الطبية ، ومنها مثلا كلمة medicina عقاقير و medicamentus دواء أو سم و apotheca مخزن الدواء . وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال مستعملة .

وهذه الشهرة التي نالتها مصر المسيحية في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت اليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أساتذتها . ومن أمثلة ذلك جالينوس العالم المشهور الذى ظهر في القرن الثانى للميلاد والذي تنسب اليه مجموعة العقاقير الجالينوسية المستعملة في هذه العصور الحديثة ، هذا العالم تتلمذ في الاسكندرية وأخذ من جامعتها فلسفته وطبه وصيدلته .

وقد نشط العالم لدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية ولمس ما فيها من فائدة . وقد ظهر بحث للأستاذ « بل » في العقاقير الطبية القبطية يتبين منه مدى تقدم الأقباط في الصيدلة والكيمياء والطب . كما وضع الأستاذ « دوسن » سنة ١٩٢٤ م كتابا عن تاريخ الطب عند الأقباط في القرون الأولى للمسيحية وشرح بالاضافة الى العقاقير أدوات الجراحة التي كانوا يستخدمونها .

ومن أهم ما وصلنا من المخطوطات الطبية القبطية بردية « شاسيناه » التي تمتاز بعلاج أمراض العيون ومداواة الخراجات وعلاج

« كريزويل » الأثر القبطى على فن العمارة الاسلامى المتقدم فى مقال له نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٩ .  
ومن آثارهم فى الفلك حساب الأبطى الذى وضعه فى القرن الثانى للميلاد الأنبا ديمتريوس بطريرك الاسكندرية . وصار الأقباط هم الذين يعهد اليهم بتحديد الأعياد والأصوام للعالم المسيحى كله . ومثال ذلك ان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م فوض لبطريرك الاسكندرية تحديد التاريخ المضبوط لعيد القيامة بعد أن تضاربت أقوال علماء المسيحية فى ذلك .

#### صناعة الورق

وجدنا من مخلفات العصر القبطى الكثير من البرديات التى تثبت أنهم أجادوا صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل المصرى هذا الورق أحسن استغلال فى تدوين علومه وآدابه منذ أقدم عصور حضارته .  
فالمصرى فى كل عصوره — اذا ما تناول الفن أو العلم — أظهر ثباتا على مصرته ومحافظة على تراثه . وذكر الأستاذ «چوجيه» فى معرض كلامه عن مدرسة الاسكندرية فى مقال له عن عصر الانتقال فى مصر من ايووانية الى القبطية ما ترجمته « لقد سعى الاسكندر الأكبر سعيه ليصبح الروح المصرية بالصبغة الهلينية ، واقتفى البطالمة أثره فى ذلك ، وحاولوا جهدهم أن يستميلوا المصريين ويضفوا على الفكر المصرى مسحة يونانية

وليس أدل على ذلك من آثار « أيامنا » بمربوط ، والديرين الأبيض والأحمر فى منطقة سوهاج ، وغير ذلك من الآثار المعمارية الكثيرة الدينية وغير الدينية . بل ان هذا النبوغ استمر معهم فقد ذكر « الأزرقى » فى كتاب أخبار مكة أن الكعبة طغى عليها قبيل ظهور الاسلام سيل عظيم صدع جدرانها ، فأعدت قريش بناءها مستعينة فى ذلك بنجار قبطى كان يسكن مكة . وأثبتت الأوراق البردية التى عثر عليها فى مصر أن الوليد استعان بالقبط فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى ، وقصر أمير المؤمنين هناك . ويذكر « البلاذرى » فى فتوح البلدان أن الوليد استعان بالقبط فى إعادة بناء مسجد المدينة .

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوى فى المدينة عهد بذلك الى معماريين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف فى الاسلام ، وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة . وأثبت العلماء أن قصر المشتى فى شرق الأردن الذى يرجع بناؤه الى منتصف القرن الثامن الميلادى قد تأثر فى زخارفه بالزخارف القبطية وفى تخطيطه بتخطيط الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج . وتتجلى البراعة الفائقة فى بناء مهندس قبطى هو سعيد ابن كاتب الفرغانى لجامع ابن طولون مستخدما فى ذلك عمودين فقط بعد أن قال المهندسون لابن طولون ان ذلك العمل يحتاج الى ما لا يقل عن ٣٠٠ عمود . وبين

البلاد الأخرى أحيانا المعبودات المصرية لعبادتها .

فلما دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها ، غدا للكنيسة المصرية نفس المركز الدينى الرفيع بين كنائس العالم . وساعد على ذلك ما عرف عن علماء مصر من تعمق فى معارفهم وعلومهم . ولما أخذ الجدل الدينى يشتد ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادى ، عقدت المجامع العالمية ( المسكونية ) بدعوة من أباطرة الدولة البيزنطية ، وكانت رئاسة تلك المجامع — التى حضرها أساقفة مندوبون عن كنائس العالم المسيحى كله — تسند فى أغلب الأحيان الى بطاركة الكنيسة المصرية .

هكذا كان لبطاركة الكنيسة المصرية مركز سام فى العالم أجمع ، وكان الأباطرة المسيحيون يجلبونهم ويلتمسون بركنهم ويقيمون لهم وزنا . لأنهم كانوا زعماء يمثلون قوة شعبية جبارة ، طالما أقضت مضاجع أولئك الأباطرة .

ومن ثم كان التأريخ لهؤلاء البطاركة — الزعماء الشعبيين — أمرا هاما للغاية . فقد اشتركوا فى الحوادث السياسية التى دارت والتى كان لها طابع دينى على الأغلب ، فقد يحدث أحيانا أن يعتنق الامبراطور الرومانى مذهباً دينياً معيناً فى نطاق المسيحية ، ويريد أن يرغم رعيته فى أنحاء امبراطوريته على اعتناق مذهب حتى يضمن بذلك التجانس بين

بحة . وقد ثابروا فى هذا السبيل مدة ستة قرون يحاولون فيها الوصول الى غرضهم . وخيل اليهم أنهم نجحوا فى الوصول الى هدفهم لما رأوا المصرى وقد شغف بمختلف أنواع الثقافات ، يأخذ منها أينما وجدها ، ويستمتع بالفن حيثما يلقاه . ولكن المصرى له قدرة عجيبة على تكييف الفنون وفق مزاجه ، ويستسيغ العلوم بحسب ذوقه ، وهو — بعد هذا كله — مصرى تأصلت جذوره فى هذه التربة التى ازدهرت فوقها حضارته العريقة . فالمصرى — مع كل ما يهضمه من علوم وفنون غريبة — فخور بماضيه ، شغوف ببلاده ، فهذا الفخر وهذا الشغف متأصلان فيه الى حد بعيد الغور ، فهو ثابت فى مصريته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه أو تحويله عنها مهما تنوعت المؤثرات » .

نضيف الى كل هذا أن أقباط مصر وبطاركتها ظلوا عمد التشريع الكنسى طوال القرون الأولى للمسيحية وكانوا يعتبرون حجة فى تنظيم قانون الكنيسة للعالم المسيحى .

### التاريخ الكنسى

#### ١ - تاريخ بطاركة الاسكندرية

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول العالم فى نواحي الحياة كلها مجتمعة ابان عهود الفراعنة . وكانت المعبودات المصرية فى دلالتها تنم عن فكر سام رفيع ، اذا قيست بمعبودات الشعوب الأخرى . بل استعارت

البطاركة» ويعتبر تاريخه أهم مرجع بين هذه التواريخ جميعها . وذلك نظرا لما امتاز به هذا الأسقف من العلم الغزير وتمكنه من اللغات القبطية واليونانية والعربية . بل لعله أول كاتب صنف مؤلفاته باللغة العربية من بين الأقباط . وقد جمع تاريخه من عدة مصادر قديمة عشر عليها في الأديرة أو عن مصادر نقلت عنها . وقد أرخ ساويرس للبطاركة من مرقس الرسول الى البطريك يوساب الأول ( ٨٣٠ - ٨٤٩ م ) . وقد ذكر ساويرس أنه ترجم هذه السير الى العربية من مخطوطات قبطية ويونانية ترجع الى عصر المؤرخ له أو بعده بقليل . ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأصول قد خرج من مصر ، وهي موجودة الآن في المكتبات الكبرى في العالم ، ويقوم العلماء بنشرها تدريجيا .

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة تاريخية عن خصائص العصر الذي عاش فيه البطاركة أصحاب الترجمات . وقد نقل المقرئ عن هذا الكتاب جانبا كبيرا مما سجله في كتابه « الخطط » كما أخذ عنه أيضا القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » . وقد ترجمه « ايفتس » ونشره بالعربية مع ترجمة الى الانجليزية في مجموعة الآباء الشرقيين .

#### ج - الأنبا ميخائيل أسقف تيس :

عاصر الأنبا ساويرس بعض الوقت وزامله في جمع تواريخ البطاركة من الأديرة . وأرخ

شعوب الامبراطورية تبعا لوحدة المعتقد ، فيسبب هذا بين الشعب والحاكم الصدام والحروب والثورات . وكان البطاركة بحق زعماء شعبيين في تلك الأوقات العصيبة ، قادوا الشعب ولم يعبأوا بالحديد والنار . واضطروا أولئك الأباطرة أن يحنوا الرؤوس لهم اجلالا واحتراما ، فأرخ الناس لهم ولعصرهم ، حتى لتستطيع أن تلم بالكثير من التقاليد والعادات المصرية بل وبنواحي الحياة المختلفة من مجموع هذه التراجم التي تظهر لنا روح العصر الذي عاش فيه هؤلاء البطاركة .

#### المصادر التاريخية لسير البطاركة :

عرض مؤرخون كثيرون لسير بطاركة الكنيسة المصرية ولعل من أشهرهم :

#### أ - يوحنا النقيوسي :

في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي ، كتب تاريخا يبدأ بخلق العالم الى ما بعد الفتح العربي لمصر بزمان يسير . ويحوى تاريخه أخبارا متصلة عن الآباء البطاركة من مرقس الرسول الذي بشر بالمسيحية في مصر في القرن الأول الى البابا بنيامين البطريك الذي عاصر الفتح العربي .

#### ب - ساويرس بن المقفع :

أسقف الأشمونين ( مركز ملوى ) عاش في النصف الأخير من القرن العاشر وأوائل الحادي عشر وعاصر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله . وضع كتابا أسماه « تاريخ

للبطاركة من خائيل الثالث ( ١٨٠ - ٩٠٧ م ) الى سانوثيوس ( ١٠٣٢ - ١٠٤٦ ) .

د - الانبا يوساب اسقف فوه :

من رجال القرن الثالث عشر الميلادى .  
وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير معاصريه .

وقد اكمل تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء كثيرين من مصر وغيرها . وتعتبر تواريخ البطاركة حلقة هامة فى تاريخ مصر العام .

٢ - السنكسار :

وهو الكتاب الذى يضم سير الآباء القديسين . ويحوى قصصا دينيا يصور لنا النواحي الاجتماعية فى العصر الذى عاش فيه الآباء أصحاب التراجم . فهو بذلك يكمل التاريخ ويساعد على فهمه . وقد نشره « باسيه » بالعربية مع ترجمة الى الفرنسية . ثم نشره « أوليرى » مرتبا بحسب الحروف الهجائية .

وثمة كتب أخرى تكمل السنكسار وتفسره . وأشهر من دونوا سير الآباء « بلاديوس » الذى كتب سير الرهبان المصريين ، واثناسيوس الرسول ببطريك الاسكندرية فى القرن الرابع ، الذى كتب سيرة القديس انطونيوس ، والقديس « جيروم » . وجيروم هو الذى دون بدوره سير القديسين والشهداء المصريين . وقد

نشرها فى مجلدين العلامة « بدج » ، كما وضع القديس يوحنا كسيان ( القرن الرابع ) عدة كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين نشرها « لوشانوان » بعد ترجمتها الى الفرنسية ، كما نشرت ترجمة الى الانجليزية فى المجلد الحادى عشر من موسوعة « آباء نيقية وما بعد نيقية » .

٣ - تاريخ المجامع

أرخ الأقباط — بطابعم القبطى الخاص — للمجامع المحلية والعالمية ، مما كان له أكبر الأثر فى المحافظة على هذا التاريخ .

(أ) المجامع المحلية :

وكانت تعقد فى مدينة الاسكندرية برئاسة البطريك للنظر فيما يهم الكنيسة بوجه عام وحل المسائل المختلفة التى كانت تظراً .

(ب) المجامع العالمية ( المسكونية ) :

وكانت تعقد فى القسطنطينية أو فى مدينة تتوسط أنحاء الامبراطورية . وكان الامبراطور البيزنطى هو الذى يدعو لانعقادها للنظر فى البدع الدينية التى تظهر فى اقليم من أقاليم الدولة . وكان أعضاؤها مندوبين يمثلون جميع الكنائس فى العالم المسيحى . وعلى المجمع أن يتخذ القرارات التى تدحض تلك البدع من جهة وتقوى الايمان من جهة أخرى . وقد شغلت الخلافات المذهبية حيزا كبيرا فى تاريخ الدولة البيزنطية أنهكت قوتها ومزقت أوصالها .

ولذلك تؤلف تلك المجامع فصولا رئيسية في تاريخ الدولة البيزنطية .

وفي التاريخ العام كان للأقباط اتناهم الكبير الملحوظ فيما وضعوه من مؤلفات عديدة ليس بالنسبة الى التاريخ الكنسى فحسب ، بل في التاريخ المدنى أيضا . ومن أشهر الكتب التى ألفت في هذا المضمار الكتاب الذى أرخ فيه يوحنا النقيوسى للعالم من بدء الخليقة الى الفتح الاسلامى . ويعتبر الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر .

#### يوحنا النقيوسى :

كان معاصرا لفتح العرب لمصر . كان في بدء حياته راهبا عرف بالتقوى وكثرة العلم وحسن السيرة ، فرسم أسقفا على نقيوس (ومكانها الآن قرية بشادى بمديرية المنوفية)، ثم رقى رئيسا لأساقفة الوجه البحرى ، ثم عين في شيخوخته سنة ٦٩٤ م مديرا لأديرة وادى التطرون . وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة فقد حكم الأساقفة بوقفه عن مباشرة عمله الكهنوتى بسبب عنفه الشديد فى تأديب راهب على خطيئة ارتكبها . وقد خلف لنا كتابا هاما أرخ فيه من بدء الخليقة الى ما بعد دخول العرب مصر بقليل . وكتابه مقسم الى ٢٢ بابا . الأحد عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربى حيث تكلم عنه بتفصيل واسهاب . ويعتبر الكتاب هو

المرجع الأول والأصيل فى هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه عيانا بنفسه .

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم الى العريسة والحبشية وربما الى اليونانية أيضا . ولكن لم يصل اليها غير الترجمة الحبشية .

ويدل الكتاب على ما وصل اليه يوحنا النقيوسى من علم غزير وتعمق فى البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة ، كما تظهر فيه الحرية التى توخاها الكاتب فى سرد التاريخ .

وليس صحيحا ما ذكره زوتبرج الذى نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبيته باليونانية على حين وضعت الأخبار المحلية بالقبطية .

١ — لأنه من المستبعد على كاتب قبطى متمسك بقوميته أن يكتب لمواطنيه تاريخ العالم بلغة مضطهديهم الروم .

٢ — كانت اللغة اليونانية قد أخذت فى الانقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الأنبا شنوده .

٣ — صيغة أسماء الأعلام فى النص الحبشى تدل على أنها أخذت عن أصل قبطى .

وقد ظل الأقباط يحملون لواء العلوم الى ما بعد دخول العرب مصر بقرنين . وظهر فيهم كيرلس وكولوتس ويوانس . وعرف فى القرن السادس يوحنا فيليبونوس النحوى

من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية . وتبعه في هذا المضمار كثير من خلفاء وولاة المسلمين . وكان استقرار الخلافة في بغداد وازدهار العلوم فيها باعثا على انتقال العلماء من مصر الى الشرق ، ويقول « المسعودى » في مروج الذهب ان مجلس التعليم ( الجامعة ) نقل من الاسكندرية في أيام عمر بن عبد العزيز الى أنطاكية ثم نقله المتوكل الى حران .

الذى ألف في الأدب والطب والرياضة . ومن المعروف أنه منذ القرن السادس كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، ونذكر من بينهم سرجيوس وهارون القس .

وقد ورثت الدولة الاسلامية فيما بعد كثيرا من هذا التراث العلمى فى حركة الترجمة التى قامت بها . فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل الى العربية كثير

### الإنتاج الأدبي والثقافة الشعبية

على الفضيلة وتنقية النفس . ومن أمثلتها الرسائل العشرون التى أرسلها القديس أنطونيوس الى تلاميذه ، والأنظمة التى وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرهبان ، وما خلقه القديس يوحنا التبائسى من ميامر ( مواعظ ) عميقة فى الحياة الروحية ، وكذلك تشمل المواعظ والخطب الدينية التى كانت تلقى فى أيام الآحاد أو الأعياد أو بعض المناسبات الأخرى ، ومن أشهرها خطب الأنبا شنودة فى أثناء كفاحه ضد الوثنية وفى نشره لتعاليم المسيحية . ومع أن الآباء كانوا قلما يكتبون اكفاء بتحقيق الهدف العملى وهو التسامى فى ممارسة الفضيلة، إلا أن ما وصلنا منهم كثير فى قدره وفى قيمته .

٣٠ - سير القديسين :

وهى كثيرة جدا تزخر بوصف حياة وجهاد الشهداء والرهبان والمتوحدين والنساك

المخلفات الأدبية المؤلفة بالنشر : وتشمل فروعاً كثيرة أهمها :

١ - ترجمة الكتاب المقدس :

وهى فى الدرجة الأولى من أدبيات اللغة القبطية . وقد أخذت هذه الترجمة عن اليونانية منذ القرن الثانى ، وتعتبر من أدق الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا ملهمين المأماً تاماً باللغتين . وقد كانت الحماسة الدينية باللغة حتى انه لم يحل القرن الرابع أو الخامس الا وكان الكتاب كله مترجماً الى اللهجتين البحرية والصعيدية وبعض أجزاء منه الى اللهجتين الاخيمية والفيومية.

٢ - أقوال الآباء :

وهذه اشتملت على فروع كثيرة منها الأقوال النسكية التى كتبها آباء الرهبنة أو سمعت عنهم فسجلت . وكلها تحض على انسك والتجرد من العاليات وعلى الترويض

## النظم

لم يصل الينا شعر كتبه الأقباط في الأغراض الدنيوية المختلفة اذ كان النسخ السائد في تلك العصور الأولى للمسيحية يحول دون ذلك . فقد اتجهوا في المدح الى الملائكة والعذراء مريم والأنبياء والقديسين والشهداء في نظم يعرف باسم الذكولوجيات وهي كلمة معناها «تمجيد»، وقد جمع الكثير منها أوليرى سنة ١٩٢٤ في كتابه المسمى Coptic Hymns ، أما مدح العذراء مريم فلكثرته اختص به تقريبا باب اسمه الثيودوكيات . وقد نشر « أوليرى » سنة ١٩٢٣ كتابه المسمى The Coptic Theotokia جمع فيه كثيرا من المقطوعات الشعرية القبطية التي وجدها في دير القديس مقاريوس والمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطاني . وقد قال ان هذا النوع من النظم كان مستحبا لدى الشعراء الأقباط استغلوا فيه مواهبهم . كما ذكر « مالون » أن هذه الثيودوكيات لها مكانة عظمى في الآداب القبطية .

وقد كان القصص من بين الأغراض التي طرقتها الشعراء الأقباط أيضا . ومن أشهر القصص الشعرية قصة ارشيليديس الراهب الذي رفض مقابلة أمه وفاءً لنذر قطعه على نفسه ألا يرى امرأة . وهي قصيدة طويلة جدا . على شكل حوار تظهر فيه براعة التمثيل وقوة التأثير ، والقصيدة تمس ناحية حساسة من المشاعر الانسانية .

وبعض الآباء البطارقة والأساقفة . ولم تكن هذه السير مجرد تاريخ جاف ، وانما كانت موضوعة في أسلوب أدبي عميق بالغ الأثر حتى كان من نتائجهما اقبال كثيرين على الرهبنة وعلى البير في الحياة الفضلى . وهي في الواقع تجسيم لفضائل معينة يمثلها هؤلاء القديسون الذين كتبت سيرهم مع لون من الايحاء في الكتابة .

### ٤ - القصص :

وبعضه ديني فيه خيال وتصور مثل قصة ملكة سبأ ومقابلتها لسليمان الحكيم أو قصة الملك يوحنا ورئيس الدير . والبعض وطني نفس به الأقباط عن شعورهم القومي الذي ظل مكبوتا فترات طويلة تحت نير المستعمر . ومن أمثلتها رواية الاسكندر الأكبر وقد وجدت ترجمتها الصعيدية في الدير الأبيض ، ورواية قمييز وغزوه لمصر ، وكلتاها لا صلة لهما بالدين ولا بالجدل اللاهوتي . وكذلك قصة ثيودوسيوس وديونيسيوس .

### ٥ - الاصلاح الاجتماعي :

تظهر روح الاصلاح في خطب الأنبا شنودة التي حارب بها البدع الموجودة في عصره كالدجل الطبى والسحر وفوضى الموالد وبناء الهياكل على أجساد الشهداء وما الى ذلك .

### ٦ - اغراض اخرى :

مثل الآداب الكنسية وطقوس العبادة ونصوص أخرى تتعلق بالتاريخ والقوانين والسحر .

شعره كان أصيلا وليس نتيجة لاعتناق  
المسيحية .

### لغة الأدب

ينقسم الأدب القبطى الى قسمين :

( أ ) أدب قبطى متأثر بتأثيرات يونانية .  
وقد ظهر أكثره فى الاسكندرية التى انتشرت  
فيها الثقافة الهلينية ، حتى اضطر كثير من  
الآباء الى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة فى  
العالم وقتذاك ، وترجمت كتاباتهم فى مصر الى  
القبطية لينتفع بها الأقباط أنفسهم .

( ب ) أدب قبطى صميم كالذى ظهر فى  
كتابات الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس  
الذين لم يعرفا غير القبطية ، وخطب ومواعظ  
الأنبا شنوده الذى لم يشأ أن يكتب بغير  
القبطية ، كما كان زعيما شعبيا يكلم الأقباط  
المضطهدين على يد حكامهم بلغتهم القبطية  
لا باللغة اليونانية لغة الحكام .

وهذا الأدب القبطى الصميم كان له  
مركزان : هما وادى النطرون للهجة البحرية ،  
والدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد  
لهجة الصعيدية . وهكذا نرى أن أديرة  
الرهبان كانت معاقل للأدب القبطى الصميم  
بلهجتيه . وفى بعض المخطوطات القبطية  
تسمى اللغة القبطية لغة أهل الجبال . ولعل  
المقصود بذلك الصعيد لارتفاعه وأديرة  
الرهبان لوجودها فى الجبال . وقد تولى  
الأنبا شنوده رئاسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣م

ثم هناك الأشعار الكنسية وهى صلوات  
أو تأملات مأخوذة من المزامير أو الانجيل  
وتسمى ابصاليات ( وهى مأخوذة من الكلمة  
القبطية بصالموسى بمعنى مزموور ) والبعض  
الآخر تسمى الهوسات ( وهى مأخوذة من  
الكلمة القبطية هوس بمعنى تسييح ) . وقد  
اختصوا كل يوم بتسيحة خاصة منظومة  
وملحنة بلحن خاص ، وتوجد غالبية هذه  
القطع الشعرية فى كتابين هما الابصلمودية  
السنية والابصلمودية الكيهكية .

### الندب

عرف الشعب المصرى منذ أقدم عصوره  
ندب الميت ، وقد وصلنا من العصر القبطى  
الكثير من الندب فى نظم نقش أحيانا على  
الرخام كشواهد للقبور .

وتظهر لنا عادة الندب من قصيدة  
ارشيليديس وأمه سنكليتكى التى تدعو فيها  
النساء للندب « أيتها النساء ، يا كافة من  
أنجبين أبناء ، تجمعن ، وابكين معى » وقد  
نشرت « ماريا كرامر » كتابا فيه الكثير من  
منظومات الندب القبطية .

وكانت موضوعات الشعر تنطوى على  
كثير من المعانى الأدبية والحكم التى يمكن  
ارجاعها الى التأثير بنظائرها فى الأمثال المصرية  
القديمة وفى أمثال سليمان الحكيم وباقى أدب  
الحكمة فى العهد القديم . ويرى « وول » أن  
القبطى كان يفضل هذا اللون من الأدب منذ  
العصور الفرعونية وأن تضمين الحكمة فى

استخدام اللغة القبطية كلغة أدبية وبازدياد الأقباط شعورا بكيانهم وقوميتهم . وعندما فتح العرب مصر كانت اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطى عامة . وكل نهوض بعد ذلك للهجة البحرية كان على أساس ترجمة الآداب الصعيدية التى انتشرت فى القرون الستة الأولى للمسيحية .

الذى أضفى مركزا للأدب الصعيدى . وفيه أصبحت اللهجة الصعيدية هى اللغة الأدبية للكنيسة القبطية فى أزهى عصورها . وأمام هذه النهضة الأدبية التى تزعمها الأنبا شنودة أخذت اليونانية تتفهم وتراجع بمقدار النمو المطرد الذى انتشرت به المسيحية بين الريفيين وبعُدول الناس الى

#### ٤ - أنوال الآباء : آثارها وشهرتها

باقى مشاهير اللاهوتيين أفكارهم حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين فى تلك العصور هو « اذا وجدت عبارة من أقوال اثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها ، فاكتبها على قميصك فى الحال » ، ونعرف أن القديس « ايلارى » — أسقف بواتيه بفرنسا — لما ذاع صيته ، لقبوه « اثناسيوس الغرب » .

كتب آباء الكنيسة القبطية فى نواح كثيرة أهمها فرعان رئيسيان هما : اللاهوت والنسكيات وقد حظيت كل تلك المؤلفات بشهرة عالمية منذ كتابتها .

#### كتابات الآباء اللاهوتية

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضا الى القديس كيرلس الاسكندرى حتى لقب بعامود الدين . وكان كافيا أن يقول الشخص «أنا على ايمان اثناسيوس وكيرلس» لكى يصبح هذا اعترافا منه بالايمان السليم . وقد نالت كتابات ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية فى عهد اثناسيوس شهرة واسعة ، حتى أن الأنبا داماسوس أسقف رومه لما طلب من القديس جيروم ، الذى كانت شهرته العلمية معروفة فى الكنيسة كلها ، أن يكتب له مؤلفا عن «الروح

كان أساتذة الاسكندرية وبطاركتها هم عمد اللاهوت فى العالم المسيحى كله . لذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة . كان موقف الزعامة الفكرية الذى وقفه القديس اثناسيوس فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، باعثا على ذبوع كتاباته فى اللاهوت وتوضيحاته للايمان المسيحى ، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحى ، حتى اعتبر اثناسيوس أبا لعلم اللاهوت فى المسيحية . ومؤلفاته التى وضعها عن « تجسد الكلمة » و « الرد على الأريوسيين » و « الروح القدس » انتشرت هى أيضا انتشارا واسعا ، وعليها بنى

القدس» ، وجد هذا أن أفضل ما يعمله هو أن يترجم الى اللاتينية ما كتبه ديديموس الضيرير في هذا الموضوع .

هذه الشهرة التي نالتها كتابات آباء مصر في القرنين الرابع والخامس سبقتها شهرة واسعة في القرنين الثاني والثالث لأساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . ولعل أكبر مثال لها هو كتابات أوريجانوس التي تلقفها علماء الشرق والغرب فراعهم ما فيها من قوة وعمق . ومن أجل ذلك قام بترجمة الكثير منها الى اللاتينية روفينوس وايلارى أسقف بواتيه والقديس جيروم . بل ان غالبية معلمى الكنيسة اللاتينية وأعظم اللاهوتيين فيها حرصوا على أن ينقلوا عن أوريجانوس كما يظهر ذلك من شرح لامبروسوس أسقف ميلان معلم أوغسطينوس . وقد شهد أوسابيوس أسقف فرسيل في ايطاليا أنه لم ير فلسفة حقيقية غير مؤلفات هذا العالم القبطى . وكان القديسان باسيليوس الكبير واغريغوريوس الناطق بالالهيات يعتبرانه معلمنا لهما ، وقد جمعا مقتطفات من مؤلفاته في كتاب أسماء فيلو كاليا .

#### اقوال الآباء فى النسك

تلك الشهرة التى حظى بها آباء الأقباط فى اللاهوت تقابلها شهرة لا تقل عنها فى آداب الرهبة . ولعل أبرز أمثلتها قوانين القديس باخوميوس وما نالته من شهرة ، حتى لقد نقلها الى رومه القديس اثناسيوس

ابان نفيه عن كرسية . كما ترجم القديس جيروم حياة باخوميوس وقوانينه الى اللاتينية سنة ٤٠٤ لفائدة رهبان ايطاليا . ووصلت الى بلاد الغال فى أوائل القرن الخامس عن طريق القديس يوحنا كاسيان الذى عمل على تطبيقها عمليا فى الدير الذى أسسه فى مارسيليا . ووضع القديس أوغسطينوس نظامه الرهبانى مترشدا بقوانين باخوميوس ، وكذلك فعل القديس باسيليوس الكبير مؤسس الرهبة اليونانية ، والقديس باتريك مؤسس كنيسة ايرلنده فى القرن الخامس بعد أن تتلمذ فى لوران فى دير على النظام الباخومى . وربما يكون من أهم وأبقى آثار الأنظمة الباخومية ما تركته من أثر فى الأديرة البندكتية . فان بندكت فى القرن السادس أخذ عن قوانين باخوميوس حتى أنه فى بعض المواضع يكاد ينقل بالحرف الواحد . ودير مونت كاسينو فى ايطاليا لا يكاد يختلف عن أى دير باخومى فى قنا . وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس فى أرجاء العالم كله ، وعلى أساسها قامت الحركات الديرية فى العالم المسيحى . وما تزال هذه القوانين باقية حتى الآن باليونانية واللاتينية .

وآباء الرهبة الذين لم يكتبوا وانما اهتموا بممارسة الفضائل عمليا وبما يلقونه على تلاميذهم من تعاليم ، هؤلاء كانوا هم أنفسهم موضوعا للكتابة ، فصنفت عنهم المؤلفات العديدة ، واليهم كان يأتى كبار

كتاب المسيحية في العالم ليشقظوا أخبارهم  
ويجمعوا كلماتهم القليلة لتكون نورا للناس .  
وهكذا في سنة ٣٨٨ م جاء الى مصر بلاديوس  
أسقف هيلينوبوليس ومكث سنة بين رهبان  
الصعيد ، ثم رجع اليها سنة ٤٠٦ وقضى  
حوالي سبع سنوات مع رهبان وادي النطرون  
وكتب كتابه الذي اصطلح على تسميته  
فيما بعد بـ « بستان الرهبان » . وكذلك جاء  
القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادي النطرون  
ما بين سنة ٣٩٠ - سنة ٤٠٠ م وضمن كتابه  
« المعاهد » و « المقابلات » أخبارا كثيرة عن  
الرهبان المصريين ومقتطفات من أقوالهم . كما  
زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٦ القديس  
« جيروم » ومعه تلميذته « باولا » ، ووضع  
كتابا عن القديس المصري الأنبا « بولا »  
المتوحد ، وآخر عن الرهبان المصريين ضمنه  
أقوالهم وأخبارهم ، ورجع فأسس - على  
ضوء ما سمعه وراه - ديرين في بيت لحم  
بفلسطين أحدهما للرهبان والآخر للراهبات .  
ولعل أشهر كتاب كان له أثر بالغ في هذا  
المضمار هو كتاب « حياة أنطونيوس » الذي  
وضعه الأنبا اثناسيوس بطريرك الاسكندرية  
بناء على الحاح أهل رومه . وقد أشعل هذا  
الكتاب روح الرهبة والنسك في بلاد  
الغرب ، ويكفي أن قراءته كانت نقطة  
التحول في حياة القديس أوغسطينوس الذي  
تأثر به جدا - كما يذكر في اعترافاته -  
حتى ترك حياته القديمة ، ولم يصبح

مسيحيا فحسب بل أحد مشاهير رجال  
المسيحية .

ولم تقتصر شهرة أقوال الآباء على  
عصورهم ، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها في  
الأدب المسيحي حتى يومنا هذا . وقد تحمس  
أهل الغرب لترجمتها الى لغاتهم ونشرها ،  
وهي تشغل جانبا هاما من مجموعتي منى  
Migne اللتين جمع فيهما في أواخر القرن  
الماضي أقوال الآباء باليونانية Patrologia  
Graeca وباللاتينية Patrologia Latina كما  
تشغل جانبا هاما أيضا في مجموعة أقوال  
الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis التي  
تصدر تباعا في باريس . وقد صدرت عن  
أقوال الآباء بحوث ومؤلفات عديدة ،  
وترجمت كتبهم الى اللغات الأوروبية الحديثة  
مع مقدمات وافية لحياة مؤلفيها وأسلوبهم  
وشهرتهم . أما آباء الصحراء فقد انتشرت  
أقوالهم في ترجمة كتابات بلاديوس وكاسيان  
وجيروم . وفي سنة ١٩٢٣ أصدر عنهم  
« بوسيه » كتابه الخاص بأقوال الآباء  
Apophtegmata Patrum

### اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية  
كما قلنا ، وإنما كتب جزء وافر منها  
باليونانية . ولهذا كان للأقباط فضل على  
الأدب اليوناني إذ ضموا اليه ذخيرة جديدة  
قبطية روحا وإن كانت تلبس ملابس يونانية .  
غير أن الأقباط - وبخاصة الرهبان -

عادوا فترجموا الى القبطية كتابات آباءهم التي كتبت باليونانية . وبهذا أصبحت هذه الذخيرة الثقافية والأدبية من التراث القبطي موجودة باليونانية والقبطية معا .

واهتم العالم اهتماما كبيرا بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلا بالقبطية أو المترجمة اليها . وظهر هذا جليا بعد حركة النهضة الأوروبية . فأخذ الرحالة والمبعوثون العلميون يجمعون المخطوطات القبطية من الأديرة والكنائس القديمة . وهكذا ذكر الرحالة « ليرسك » أحد هواة الكتب بباريس بعد زيارته لمصر سنة ١٦٣٣ م أنه وجد كتبا نادرة في كثير من الأديرة منها مجموعة من حوالي ٨٠٠٠ مخطوطة ترجع الى العصر الأنطوني وجدها في أحد أديرة وادي النطرون . وفي أوائل القرن الثامن عشر أرسل الفاتيكان بعثتين حصلتا على مجموعة طيبة من المخطوطات القبطية من دير أبا مقار . وفي سنة ١٨٣٩ حصل « هنرى تتام » على مجموعته النفيسة التي كانت من نصيب مكتبة راينلندز بمنشستر . وتوالت الزيارات على مصر لهذا الغرض . فعثر على مخطوطات بالدير الأبيض استولت على غاليتها المكتبة الأهلية بباريس ونال المتحف البريطاني بعضا منها . ثم اكتشفت مجموعة مورجان سنة ١٩١٠ م في دير الحامولى بالقيوم ونسبت الى مشتريها « بيربونت مورجان » أحد أثرياء الأمريكيين .

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بعدد كبير من الشقافة المكتوبة بالقبطية تشمل على رسائل وايصالات وصكوك وعقود وغير ذلك حتى لقد بلغ عدد الشقافات القبطية Ostraca في فينا بالنمسا حوالى عشرة آلاف شقافة .

وعثر في مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات القبطية تشمل على تعاليم مانى وهى محفوظة الآن في متحف برلين .

كما عثر في سنة ١٩٤٦ على برديات قبطية تبلغ ألف صفحة تشمل على رسائل غنوسية وقد استولى عليها المتحف القبطى فى القاهرة . وبهذا كله امتلأت المتاحف والمكتبات العامة فى أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات . وما بقى منها محفوظ فى مكتبة الدار البطريركية والمتحف القبطى بالقاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة .

وقامت هيئات علمية بطبع فهارس لهذه المخطوطات القبطية ونشر بعض المخطوطات وترجمة البعض منها مع دراستها والتعليق عليها . وقام علماء كثيرون فى جهات متفرقة من العالم لدراسة هذه المخطوطات نذكر من بينهم كرم ، وأميلينو ، وايفلين هوايت ، وتشيندورف ، وورل ، وتل ، ولوفور ، وبدج ، وايفتس وكاله وبوليج وكراوسه وغيرهم . وأصبحت للدراسات القبطية فى جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يتفرغ لها أساتذة وعلماء .

## الفصل الرابع

### الحياة الفنية

#### الفنون القبطية

فيستجيبون . وهكذا نجد الفن المصري القديم يتمتع ابان عهد الملوك الذين أولوه رعايتهم ، ويضعف في عصر الضعفاء منهم أو الذين أهملوه .

أما الفن القبطى فهو الأول فى الشرق القديم الذى كانت له صفة الشعبية . فان الأباطرة لم يعودوا يقطنون مصر كما كان الحال أيام الفراعنة ، أو أيام البطلمة . بل كانت مصر فى عهدهم ولاية رومانية تابعة لروما أو بيزنطة ، وصار الأباطرة اذا أرادوا اقامة أعمال فنية تخلدهم يقيمونها فى عواصمهم لا فى مصر . وبذا فقد الفن القبطى التوجيه السياسى واتجه نحو الشعبية البحتة ، فحين اذا نظرنا الى الكنيسة الكبيرة فى الدير الأبيض قرب سوهاج وهى من بناء القديس شنودة ، أو اذا زرنا كنائس مصر القديمة ، أو دير القديس سمعان فى الضفة الغربية بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو اذا شاهدنا الآثار القبطية فى المتحف القبطى أو مختلف متاحف العالم نجد أعمالا فنية قام بها الشعب المصرى ووضع فيها الفنان القبطى عصارة روحه ومهارته .

تعانى الفنون فى حياتها فترات من الخمول أو الضعف ، فاذا وائتها ظروف جديدة للالتعاش عادت حاملة معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وطابعها . ولقد حدث فى العصر المسيحى فى مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالا للفنون ، أن نمت الفنون وتزعرعت حاملة فى طياتها مختلف الصفات الموروثة من عصور سابقة . وفى هذا تقول « زالوشر » اننا نؤمن الآن أن الفن لا يتقدم فى خط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تمحى وتختفى ، لتعود الى الظهور بقوة ووضوح .

وان ظاهرة العودة الى الظهور هذه نجدها ملموسة فى الفن القبطى .

#### الصفات العامة للفن القبطى :

##### أولا - فن شعبى :

لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعايتهم . وكان هؤلاء السادة يختارون الفنانين ويأمرونهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية

## ثانيا - فن دينى ومدنى

خيل للبعض أن الفن القبطى فن دينى يتصل بالكنيسة والعبادة فحسب ، وما من شك أن هذا الرأى خاطئ ، فهو فن الشعب المصرى بأكمله ، يظهر فى الأمور الدينية كما يظهر فى النواحي المدنية بوضوح . وان كنا نجد أن أغلب العماىر الباقية من ذلك العصر عماىر دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك الى اهتمام الشعب عادة بدور عبادته ومحافظةه عليها .

ولا شك أن أهم العماىر التى وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر الاسلامية هى أيضا عماىر تتصل بالنواحي الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أعمدة وزخارف من بيوت أفراد الشعب الى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس . وكما وصلتنا أقمشة كان يلبسها الكهنة فى الخدمة الدينية وصلتنا أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس فى حياتهم أو يكفونون بها موتاهم . ولدينا الآن أدوات كانت تستخدم فى الكنائس وأدوات استخدمت فى المنازل أو الحقل ، أو الصناعة .

## ثالثا - فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها

نرى فى صور الوجوه القبطية ملامح المصرى بعينه الواسعتين المستديرتين وأنفه ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التى تملأ البيوت والحقول مثل القط والكلب والبقرة والجمل والحمل .

ونرى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وأفرعها وثمارها كالعنب والنخيل والرمان والقمح والاكاتس . كما نرى صور السفينة الشراعية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه ، ونجد الأساطير القديمة المتداولة بين المصرين سواء بنصها القديم أو بعد أن اتخذت معانى جديدة وصورا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التى اعتنقها المصريون .

## رابعا - ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فنية

اننا نجد فى الفن القبطى أثر الفن المصرى القديم والفن الاغريقى والفن الرومانى ، وان كنا فى الواقع نجد الروح المصرية الخالصة كلما اتجهنا فى البلاد جنوبا .

وكذلك تأثر الفن القبطى بالفن السورى وفنون البلاد المجاورة . اذ أن المسيحية قد نشأت فى بلاد فلسطين وانتشرت فى الشام وبلاد البحر المتوسط وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال وصار المصريون يهتمون بفنونها وبخاصة فن الشام .

## خامسا - فن جمال لا ضخامة

لم يبلغ الفن القبطى حد الروعة كما بلغ الفن المصرى القديم ، كما أنه فقد اتساج الأشياء الضخمة ، التى تميز بها الفن المصرى القديم . فمن مصر القديمة وصلتنا الأهرام ، والمعابد الهائلة كالكرنك والتماثيل الضخمة كتماثيل رمسيس ، والأعمدة الشامخة والمسلات . ولكن الفن القبطى كان فن جمال يهتم بإبراز المعانى فى دقة .

## سادسا - فن للزينة

أن نبه الى أن هذه الخاصة ، وخاصة التزيين التي سبقتها ، كانتا كثيرا ما تجنحان نحو أمور رمزية ، وقد دفعت هاتان الخاصيتان بالفن القبطى بعيدا عن الواقع وتصوير طبيعة الانسان الأمر الذى قد يجر الى مظاهر خليعة لا يوافق عليها رجال الدين . وحين دخل العرب والاسلام مصر وجدا تربة خصيبة للتعبيرات الفنية ، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التى تناسب العرب والدين الاسلامى ، مما نراه واضحا فى الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعد عن تصوير الأشخاص . وهكذا نجد صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره الى الفن المصرى الاسلامى .

وصلنا كثير من أفاريز المباني وروعوس الأعمدة ، وكثير مما تزين به الجدران والأسقف والأعمدة ، وما تزين به التوابيت والمصنوعات المعروفة بالفسيفساء . كما أظهر لنا الفن القبطى ما تزينت به النساء من حلى وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان الزاهية منها ، وامتدت الزينة الى كتابات الأقباط فزينوا الكتب وزخرفوا صحائفها بزخارف بالغة حد الروعة .

## سابعا - فن يستخدم الأشكال الهندسية والرمزية :

نجد فى هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة ، مستخدمة فى كل شئ ، ولا ننسى

## صور من الفنون القبطية

المصرية القديمة كان لهما صدى روحى بالغ الأثر فى تكييف الفن المعمارى فى جميع أنحاء العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة أن فيها كانت تنبثق من بين خطوطه اشعاعات قوية استطاع على ضوءها اليونان والرومان معرفة السبيل الى التكوين والانشاء ، اذ عرفوا منها كيف يضعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح . والعمارة القبطية هى هى العمارة الفرعونية ، وهى العمارة اليونانية الرومانية

## العمارة :

العمارة كأى لون من ألوان الفنون الجميلة انعكاس للبيئة بكل ما تحتويه من معان روحية ومادية . والعمارة المصرية القديمة يتمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح مجسم . فهى فى جميع مراحلها تعبر لنا تعبيراً واضحاً عن التيارات المختلفة التى تنازعت المجتمع المصرى فى مختلف العصور . ولعلنا لا نكون مبالغين اذا ذهبنا الى أن التفوق والتسامى اللذين امتازت بهما العمارة

في مصر وهى العمارة الاسلامية في مصر .  
وأما الفوارق التى تفصل بين كل منها : فهى  
فوارق اقليمية اقتضتها السلطات الزمنية فى  
عهد ما ، ثم بعض اعتبارات دينية ، ولكنها فى  
الحقيقة تلتقى عند الأصول والأسس التى  
قامت عليها العمارة الفرعونية . ومهما يكن  
فإن ما دخل عليها فى كل عصر من تحوير أو  
تكييف بما يلائم ظروف البيئة ، لم يمنعها من  
أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية.  
والعمارة القبطية قفزت بروح الفن  
الفرعونى وبعناصره ، وكل ما طرأ عليها من  
تحوير فإنه لم يمس الا مظهرها الشكلى فقط.  
فهى حلقة أخيرة أكملت حلقات الفن المتصلة  
منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة  
اليونانية الرومانية بمصر .

ولما كان الفن المصرى يرتبط بفنون الدين  
ويلازمها ، فقد احتفظ فى العهد المسيحى  
بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة  
ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلا  
بالرموزيات والتقاليد فى الحياة اليومية  
والجنائزية والأعياد وغيرها . أما مركز  
المسيحية فى الغرب وهى روما التى تشرف  
على الحضارة الأوروبية الغربية ، ثم  
القسطنطينية وهى مركز الحضارة الشرقية ،  
فقد حاولت كل منهما ايجاد طراز جديد لعمارة  
تتنق مع الدين الجديد الا أنها كانتا دائما  
مقيدين بالحضارات القديمة التى سبقت  
العهد المسيحى ، ووجدتا نفسيهما مضطرتين

لنقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن  
مصر التى سبقتها فى المعرفة والعلم ، ونقلتا  
عنها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نقلتا  
كثيرا من فنون مصر واتخذتا منها منبعا  
للوحدات الزخرفية التى قرب فيها المصرى بين  
نماذجه القديمة وبين دينه الجديد ، ولذلك  
ترى أن مراكز المسيحية تبنيت من هذه  
الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل  
منها أن تفسره بطريقة تتفق مع دينها الجديد.  
لو تخيلنا مدينة مصرية قائمة من العصر  
القبطى ، لوجدناها تشبه فى تخطيطها المدن  
المصرية القديمة . ففى الصعيد حيث يندر  
المطر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة  
هابو غربى الأقصر ، وفى الوجه البحرى كانت  
البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر  
الجيرى كما عرفناها من مدينة أبا مينا  
( القديس مينا ) بالصحراء الغربية قرب  
الاسكندرية .

( صورة رقم ١٥ )

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما  
نراه فى الريف المصرى الآن . ولها مزلاج من  
الخشب معروف الى اليوم ، وكانت للبيوت  
أسقف مرتفعة ، ولها واجهات منمقة بحجارة  
منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت  
بها كنائس كالتى عثر على بقاياها فى مدن  
أبا مينا ومصر القديمة وبويط والبهنسا واسنا  
وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات  
الخارجة ، وتتكون من قاعات فسيحة بها  
صفوف من أعمدة رخامية مستديرة أو مضلعة

وواقع الأمر أن الفراعنة قد عرفوها قبل  
الزومان بألاف السنين . وكانت أدوات  
النجارة وأدوات الحقل تشبه تلك التي  
نشاهدها الآن عند النجارين الذين يصنعون  
السواقي الخشبية . ونجد صوامع للجلال ،  
ومصانع للهدايا التذكارية تشبه الى حد كبير  
المصانع التي نجدها الآن في خان الخليلي أو  
في أسيوط .

### التصوير :

كان التصوير السائد في العصر القبطي  
يسير على الطريقة التي تواترت منذ أقدم  
العصور في مصر وهي طريقة التصوير بألوان  
الأكاسيد ( الفرسك ) على الحوائط المغطاة  
بطبقة من الجبس . وقد استمر الرسم بهذه  
الطريقة المصرية القديمة الى العصر الروماني .  
واتخذت هذه الطريقة في الرسم شكلا مسيحيا  
في العصر القبطي ، ومنها انتشر بين مسيحي  
الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر  
النهضة .

أما في مصر فقد حافظ التصوير على  
الطريقة القديمة حتى القرن الحادى عشر  
الميلادى ، ثم أخذ القبط الى جانب هذا  
اللون بطرق أخرى في التصوير . ولم يأخذ  
التصوير القبطى أشكاله من الطبيعة المنظورة،  
ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات  
من الكتاب المقدس وكان رائده في ذلك المثل  
العليا التي تظهر فيها صور الأشخاص على  
درجة من الاستقرار والوقار حتى أنهم رسوا

ذات رهوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان  
الثابتة الزاهية . ويكون هيكلها مفصولا عن  
القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المنقوش  
أو المعشق ، على أشكال هندسية مختلفة  
ومحلى بصور القديسين وأشكال مختلفة  
للمصليب . وبعض رقائقه من العاج ، كما نجد  
ذلك في كنيسة أبى سرجة في مصر القديمة .  
وفي الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أى  
تجويف في الحائط .

والكنيسة تكون أحيانا مستطيلة  
كالشكل المعروف بالطراز البازليكي ويذهب  
البعض الى أن تصميمه دخيل على الأقباط ،  
وواقع الأمر أنه مصرى صميم نجده أول الأمر  
في قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك التي  
شيدها تحتمس الثالث حوالى سنة ١٤٠٠  
ق.م. وتكون الكنائس أحيانا أخرى ذات  
قباب بحيطان مطلية من الداخل بطبقة من  
الجبس مرسوم عليها صور للسيد المسيح  
والقديسين أو مزخرفة بزخارف مثبتة من  
الجبس أو الحجر في بواطن عقودها وفوق  
أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور  
القديسين .

وإذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل  
مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة أو  
أحد الأديرة الصحراوية حفروا لها الآبار  
والسواقي أو خزنوا مياه الأمطار في مخازن  
تشبه كثيرا هذه الآبار التي نجدها في الصحراء  
الآن والتي يسميها البعض آبارا رومانية ،

المسيح طفلا بوجه كبير ، لا سذاجة فيه ، وتحاشوا أن يرسموا ظلالات على الوجوه وراعوا بساطة اللباس وهدوء الألوان . ( صورة رقم ١ و ٢ و ٣ ) .

### النقش على الحجر والخشب

نشاهد الآن في المتحف القبطى فى مصر القديمة وفى متاحف العالم المختلفة تيجانا لأعمدة من الحجر نشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفنى ، فمنها المجدول على شكل السلال تجديلا أيقن النحات صنعه ، حتى بدا شديد الشبه بالسلال المصنوعة من القصب التى لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان منحوتة بشكل زخرفى لأوراق النبات أو الفروع النباتية ، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الأكاتس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس ، ومنها تيجان مزينة تجاوبها بزخارف محارية الشكل وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون الطبيعى للنبات ، وهناك بعض زخارف عثر عليها تعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيراً حياً يكاد نسمعنا حفيفها .

وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان ، أو بالحفر ، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيراً صادقاً ، فنجد فى المتحف القبطى على سبيل المثال واجهة باب من بويط ( وهى بلدة قرب منفلوط تتبع مركز ديروط بأسبوط ) من الحجر الجيرى على شكل نصف دائرة وقد

حلى برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان . وهذا يدل على ارتباط المصرى قديماً وحديثاً وفى مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية بل والأقاليم المصرية . ولا يزال الرمان ينسب الى منفلوط .

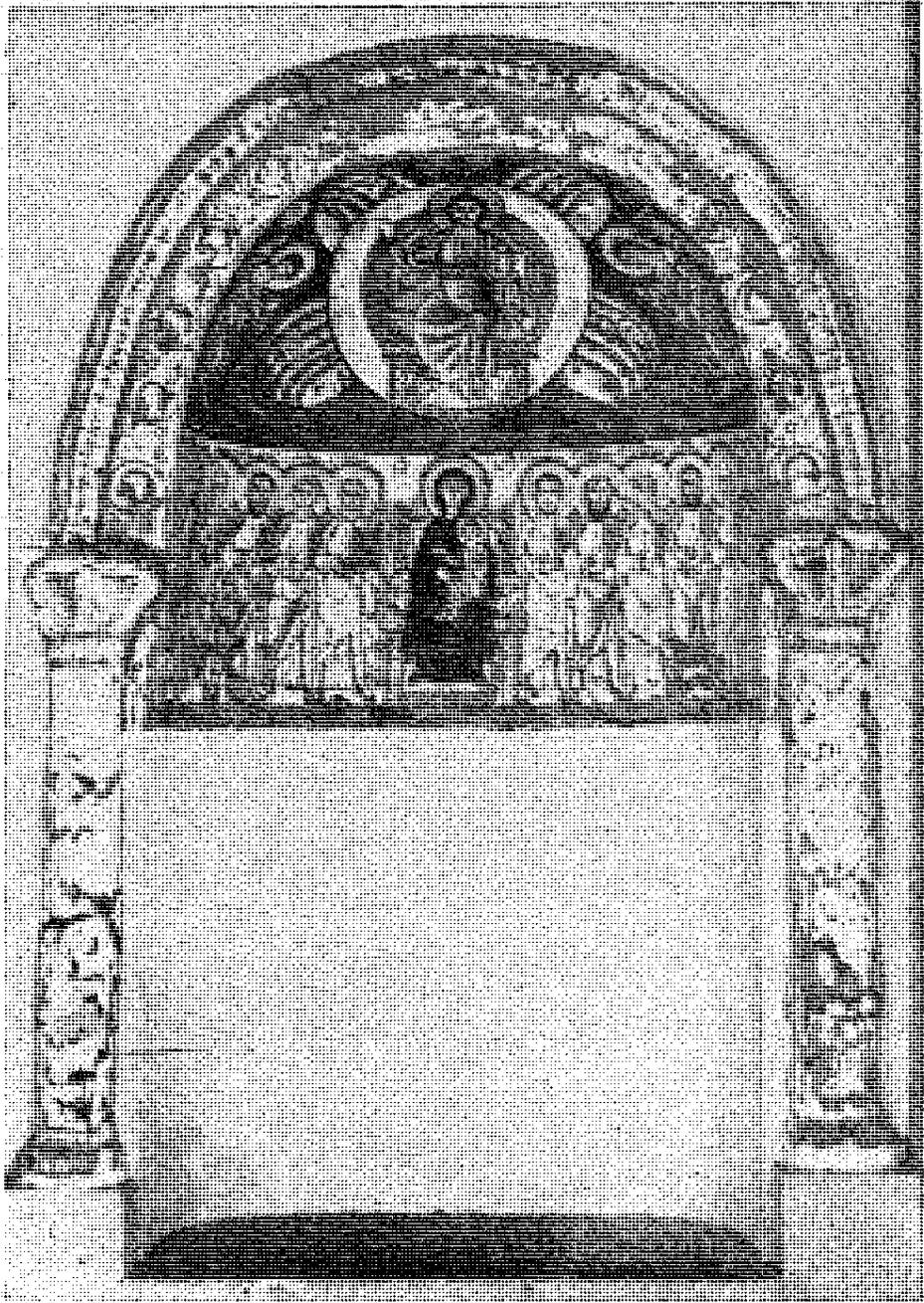
كذلك زخرف القبط الجوائظ والأفاريز بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن زخارف الفن القبطى صوراً لصيادى الطيور والأسماك والوحوش المقترسة كالأسود فضلاً عن الحيوانات المصرية الأليفة كالآرانب والغزلان . وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع الى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصرى فى عصوره المختلفة . كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة للحداد القبطى تحيط به أدواته بشكلها المعروف فى مصر اليوم .

ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطى ، فإنا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل وفد الفيوان يتقدم الى القط طبقاً للقصة المشهورة ، وقد رفع الفيوان علماً هو الذى يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والأمان . كما نجد منظرًا للملاح مخفورا فى الخشب والملاح يداعب تمساحاً بيده .

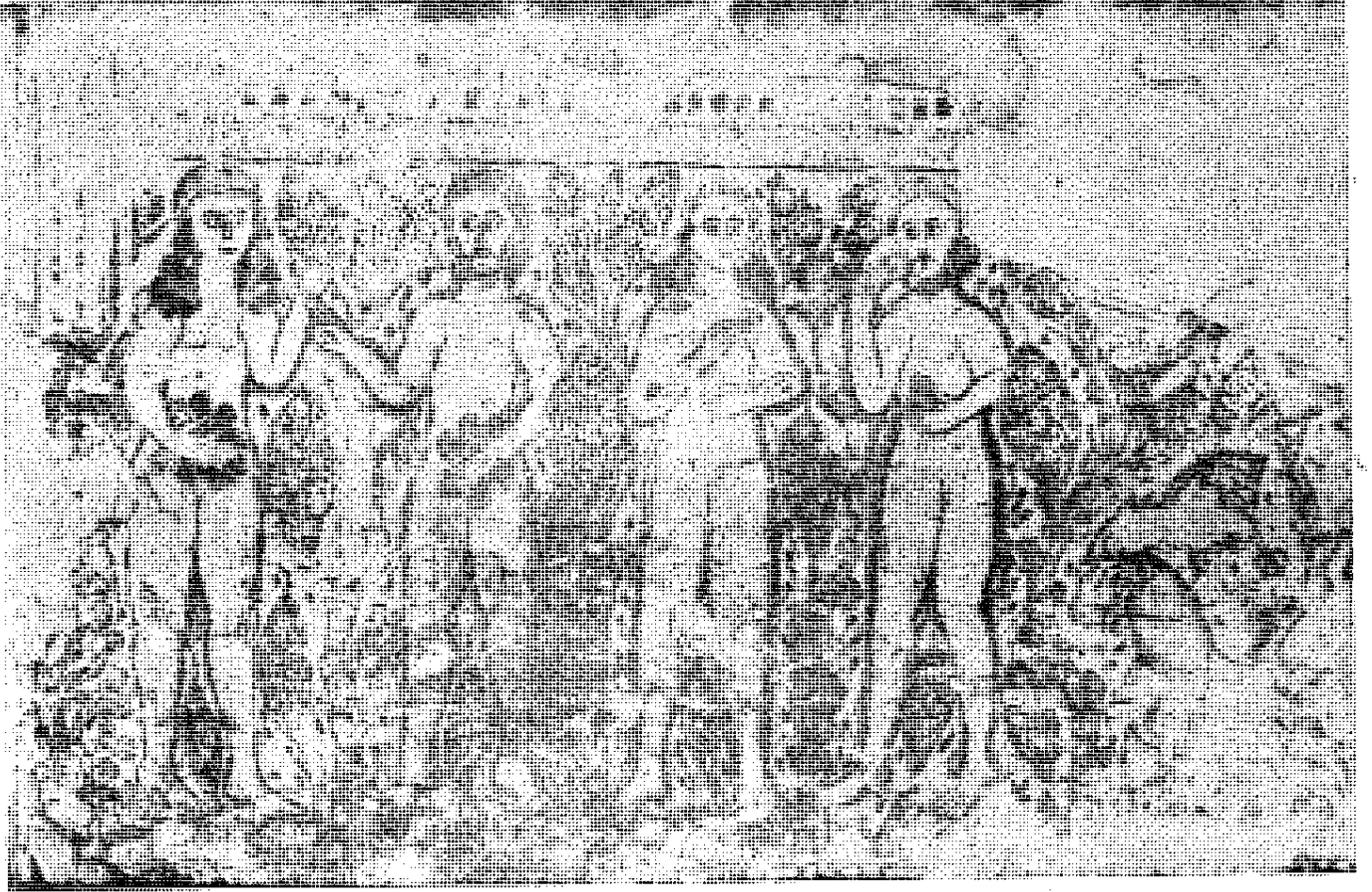
( صورة رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ١٤ ) .

### النسوجات :

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة بصناعة النسوجات وكانت تصدر منتجات



- ١ - شرقية ( حنية ) من كنيسة بباويط ( بالقرب من ديروط ) وهي من الطمي المنقوشة بطبقة من الجص مرسومة بالألوان الفريسك .  
في الجزء الأعلى صعود المسيح وتحتة ترى صورة السيدة العذراء والحواريين الأثنى عشر  
واثنين من القديسين المصريين .  
وطريقة رسمها لا تختلف عن طريقة الرسم في الفن المصري القديم .  
من أواخر القرن الخامس الميلادى



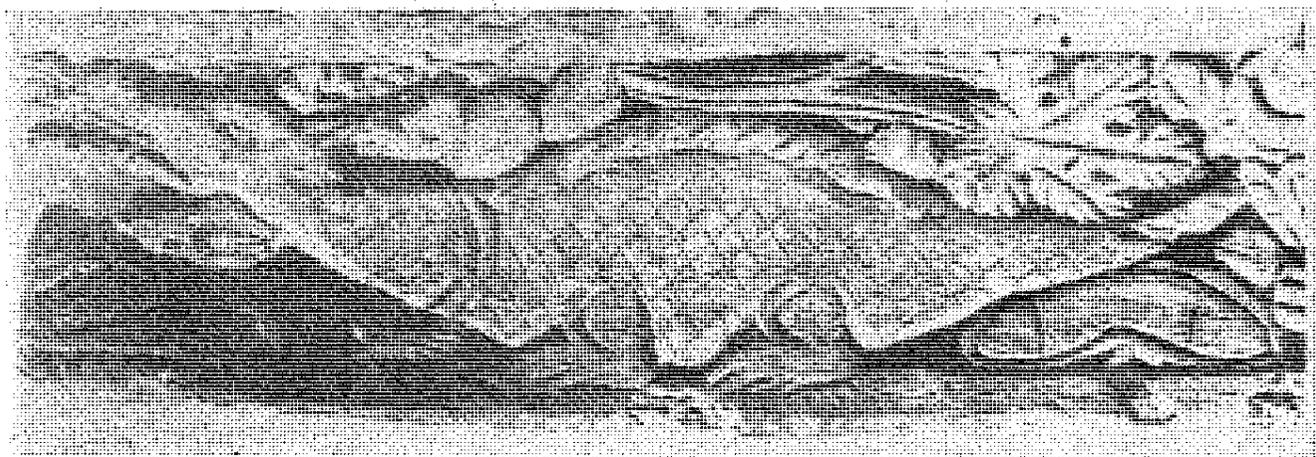
٢ - صورة جصية بالفريسك عشر عليها في الفيسوم في أم الجعاب ، وهي تمثل آدم وحواء في الجنة ، قبل الخطيئة - أي حين لم يكن لهما جنس - وبعد الخطيئة .  
وقد عبر الفنان في هذه الصورة البسيطة عن قصة ( آدم وحواء ) ووفق في التعبير عن المشاعر المختلفة ودون ملاحظات دقيقة مما جعل من هذه الصورة قطعة فنية فريدة في نوعها .  
من القرن العاشر الميلادي



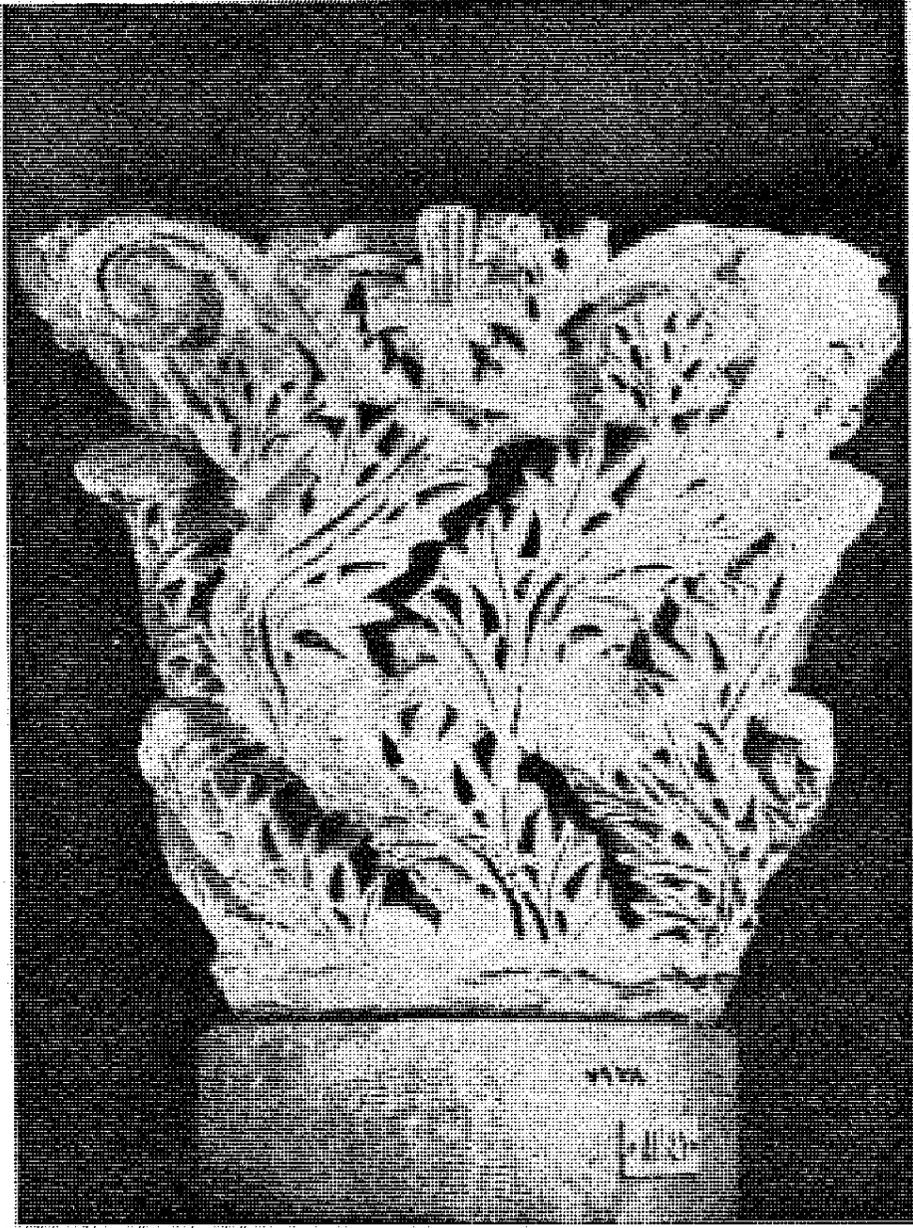
٣ - أيقونة بالالوان الزيتية وعليها كتابة بالقبطية والعربية وهي للقديسين بولا وأنطونيوس ترمز الى قصة الغراب يحمل اليهما رغيفا من الخبز في كل يوم .  
من القرن الثامن عشر ( سنة ١٤٩٣ للشهداء )



٤ - لوحة خشبية محفورة من كنيسة المعلقة بمصر القديمة وهي الآن معروضة في المتحف القبطي ، تمثل دخول المسيح اورشليم يوم أحد السعف ، وعليها كتابة باللغة القبطية . من القرن الخامس الميلادي



٥ - جزء من أفريز طويل من الخشب المحفور يمثل نهر النيل وفيه تمساح . من القرن الرابع الميلادي



٦ - تاج لعمود من الحجر من حفاثر دير الأنبا أرميا بسنقارة ، وهو يمثل حركة تماوج  
أغصان الأكانتس بفعل الريح ، وفي أعلاه علامة الصليب .  
من القرن السادس الميلادي



٧ - منبر من الحجر ذو سبع درجات من حفائر دير الأنبا أرميا بسقارة ، وهو أقدم  
منبر عشر عليه في مصر حتى الآن .  
من القرن السادس الميلادى



٨ - شاهد قبر ، عليه علامة الصليب فى أعلى وتحتها رمز للمسيح الألفا والأوميغا  
( الألف والياء ) أى البداية والنهاية ، وفى أسفل الشاهد شارتان لرمز الحياة عنخ المعروفة  
فى الفن المصرى القديم واستخدمها الفن القبطى منذ ظهوره لأنها جمعت بين معنى الحياة وبين  
علامة الصليب •

من القرن السادس الميلادى

تستعمل الكحل للرموش ، واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وكانت تضع القرط الدائرى الواسع فى أذنيها أو أقراطا على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهى برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروما ينتهى برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان بعض حلبيها الذهبية مرصعا بالجواهر الكريمة . وكانت تضع عقدا أشبه باللبه المعروفة الآن فى مصر . وكانت تلبس الخخال الذى يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد تصنعه المرأة الثرية من الذهب .  
( صورة رقم ١٠ ) .

وقد وصلتنا من العصر القبطى مكاحل وأمشاط من العاج ، وعلى سبيل المثال نجد مشطا رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطى نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع هذا المشط الى القرن الرابع الميلادى ، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية . وعرفوا أيضا المشط المسمى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية .

والرسوم المختلفة التى وصلتنا من هذا العصر تبين لنا صوراً حية من الحياة المصرية التى نحيها والتى كان المصرى القديم يحيها ، والتى حفظتها لنا آثار العصر المصرى المسيحى ، ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة فى متحف بريشيا لامرأة قبطية جالسة مع ابنتها وابنها

نسيجها الى جميع بلدان العالم . وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليونانى ثم الرومانى ثم يتغير النسيج وظل محتفظا بطابعه المصرى فى صورته القبطية .

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم الى روما وبيزنطة . وقد وصلت نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل فى بقائها الى جفاف التربة المصرية والى عادة الأقباط فى تكفين موتاهم بأجلل لباسهم ودفنهم فى مقابر رملية فى الصحراء بعيدا عن وادى نهر النيل خوفا من مياه الفيضان .

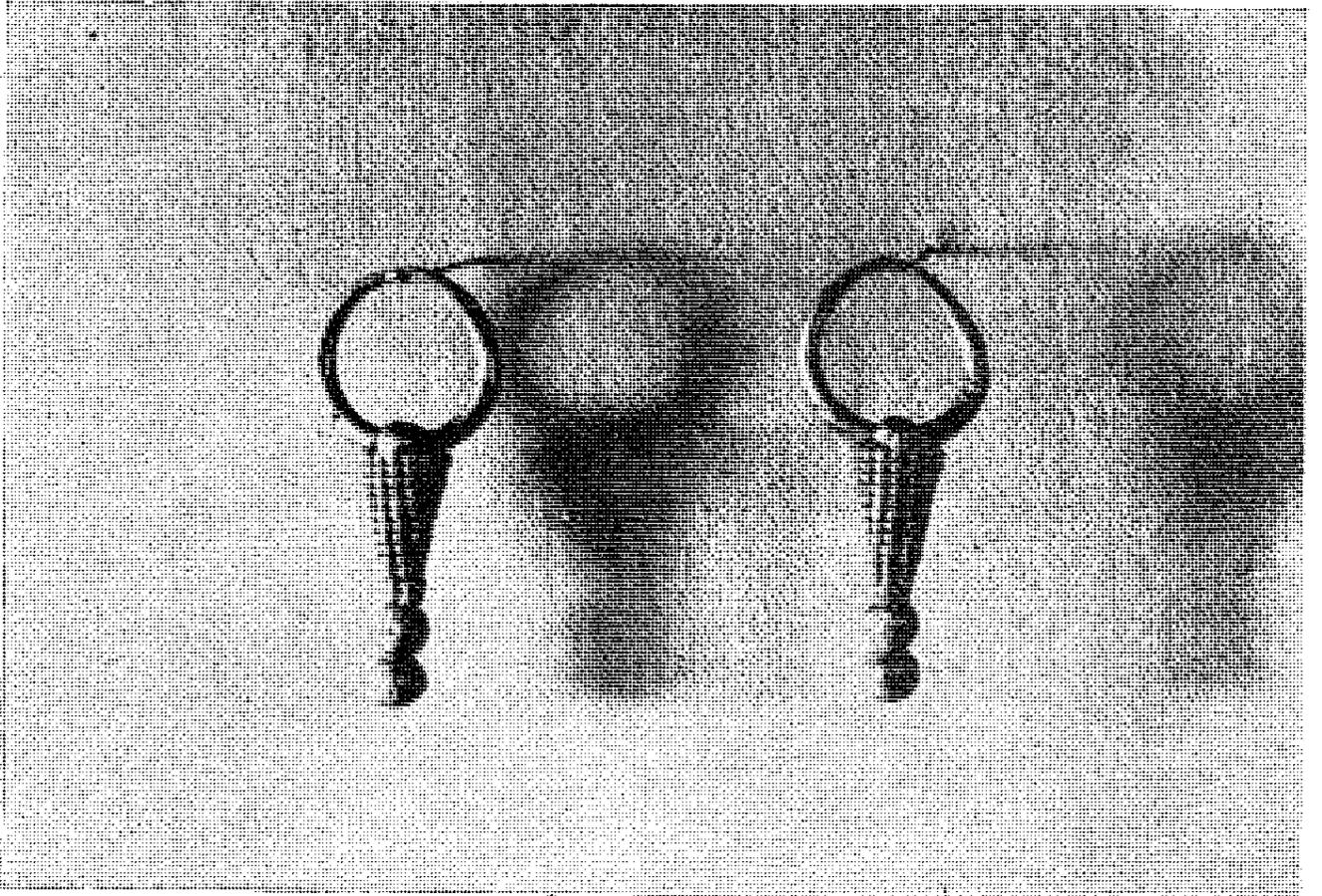
كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن ، وأشهر المدن فى هذه الصناعة كانت تانيس والاسكندرية وشطا ودمياط وديق والفرما فى الدلتا ، وفى الوجه القبلى البهنسا وأخميم وانطينوى (المعروفة الآن باسم الشيخ عبادة) والفيوم . وكان الصانع القبطى يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه .  
( صورة رقم ٩ ) .

### الفنون الصغرى :

منها الفنون الخاصة بالتزين عند المرأة ، وصناعة المعادن ، ثم الخط والتجليد .  
أما عن التزين عند المرأة فقد كانت المرأة



٩ - ستار من النسيج المعروف بالقبطى وهو من الكتان المنسوج بخيوط من الصوف الملون ، يظهر فيه على اليمين لاعب الزمار وعلى اليسار مناظر مختلفة لرقص من رجال ونساء كما تظهر فى الدوائر مناظر رقص الخيل .  
من القرن الثالث الميلادى



١٠ - قرطان من الذهب على شكل عنقود العنب ، عثر عليهما في حفائر مصلحة الآثار  
بالواحات البحرية في مقابر الأقباط القديمة .

من القرن الرابع الميلادي

كافة أنحاء العالم . وها نحن نجد الأقباط يكتبون على البردى وعلى الرق . ثم يتقدم بهم الفن فيزينون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة ، هذه الصحائف التي بلغت دقة كتابتها دقة الحروف المطبوعة باتقان ، والتي يبهر جمال زخرفتها كل من يراها .

( صورة رقم ١١ و ١٢ )

### خاتمة

كانت هذه الفنون في أيدي صناع مدنيين، وكان الرهبان في الأديرة أيضا يتقنونها ، فانهم رسموا الرسوم ، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة، وأتقنوا النجارة والبناء ومختلف الصناعات . ولما دخل الاسلام مصر ، اهتم العالم الاسلامي بصناعات الأقباط فوجد الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية الى الكعبة لما لمسوه من اتقان المصريين لصناعة النسيج ، ويختارون من اتاج هؤلاء الصناع ما يخلعونه على أتباعهم من الأردية ويسمونها « القباطى » نسبة الى صناعها الأقباط ، واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط في انشاء المساجد والعمائر ، وعن الفن القبطى أخذ الفن الاسلامى المحراب والمنذرة والقباب .

وكان العصر الفاطمى بمصر فاتحة لاطهار الفن الاسلامى فى شخصيته المصرية الاسلامية المتميزة ، وعندئذ أخذ الفن القبطى ينحصر

وبجانها صندوق حليها العاجى ، وتلتحف الابنة بشال من القماش المصرى يشبه ما نعرفه اليوم من المنسوجات ، عليه نقوش من الأساطير القديمة ، ومنها صور النساء الثلاث التي وجدت فى اتينوى وقد أطلق على اثنتين منهن تاييس وليكيونا وعلى الثالثة السيدة البيزنطية ، نجد تاييس لابسة ثلاثة قمصان وجلبابين فوق بعضهما كما نرى ذلك شائعا بين بعض السيدات فى الريف والوجه القبلى وفى وسط الجلباب منطقة لها أكام طويلة ، والجلباب محلى بحافة حمراء فى أسفله ، وله خطان رأسيان فى الأمام من الحرير الأصفر ، كما نجد ليكيونا مرتدية جلبابا من الكتان الأبيض محلى أيضا عند أسفله وعند الأكام والياقة بخط أزرق غامق ، ونلاحظ أنها قد لفت شعرها بشال جمع الى أعلى فى شبه تاج . والنسوة الثلاث تعطينا صورة حية لأنواع الملابس وطرزها ، والأنواع العديدة لتصفيف الشعر مما يجعلنا نتخيل ما كان عليه النساء عامة فى العصر القبطى من أناقة وذوق سليم فى ملبسهن وزينتهن .

أما عن فن الصناعات المعدنية ، فانا نجد المصنوعات المختلفة التي استخدمتها المرأة لزينتها ، ونجد مصاييح فى أشكال مختلفة وقواعد للشموع وأواني منزلية متعددة الأشكال .

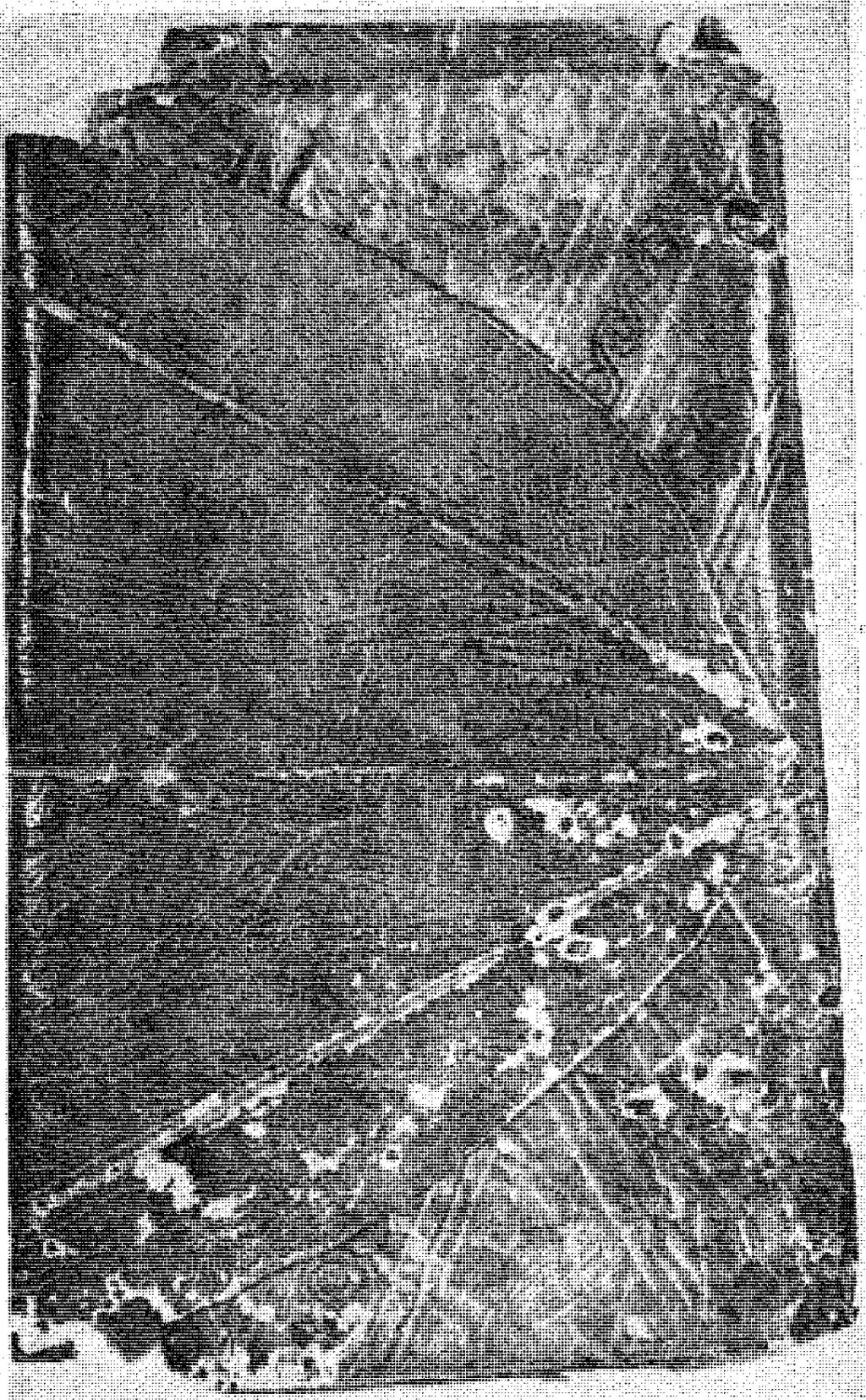
( صورة رقم ١٣ )

### الخط والتجليد

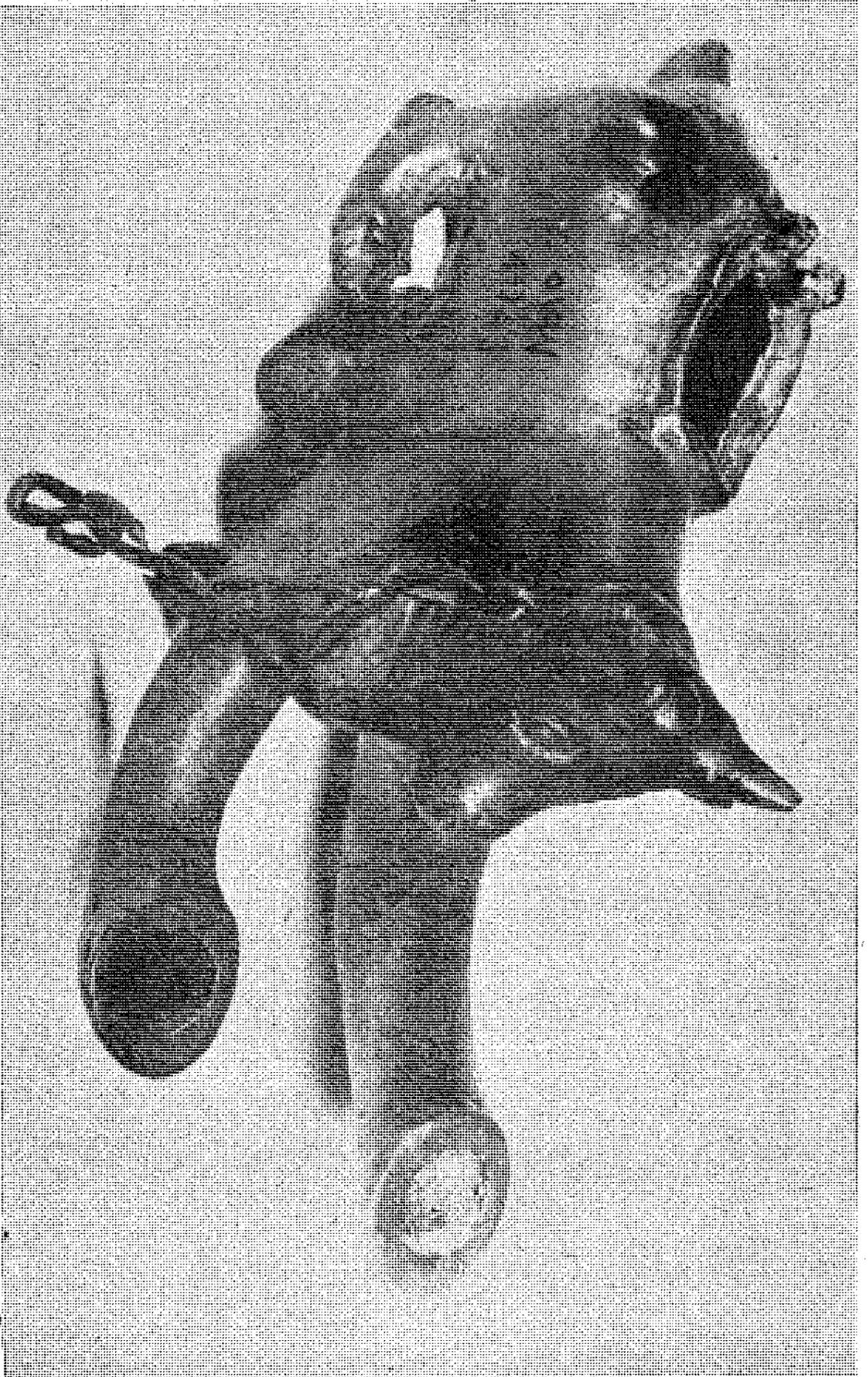
كان المصريون منذ أقدم عصورهم يصنعون الورق من البردى ويصدرونه الى



١١ - غلاف من الفضة لحفظ الكتاب المقدس، مصنوع على نمط قبلي قديم وتمتد فيه  
الزخرفة على الكرمة .  
من القرن الرابع عشر الميلادي



١٢ - غلاف من الجلد لمخطوطة من مخطوطات فلسفة العارفين بالله ، وعليه علامة عنخ رمز الحياة عند المصريين القدماء وهي رمز للعلم والمعرفة - وكانت المكتبة تسمى برعنخ أى بيت الحياة - وعلى الغلاف زخرفة حلزونية .  
من القرن الرابع الميلادى

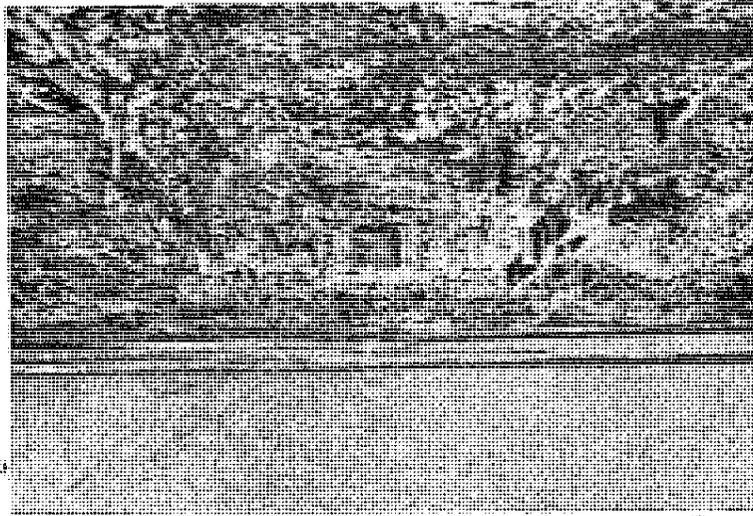


من القرن الخامس الميلادي

• مسرحة من البرونز على شكل عجل •



١٤ - رسم على الجص يرمز الى قصة تحكي التعاهد بين الفئران والقط ويحمل الفأر الاول  
نص المعاهدة ويرفع الثاني راية السلام ويمسك الثالث باناء وقمع .  
من القرن الخامس الميلادى



١٥ - آثار الكنيسة الكبرى (أبو مينا) بمريوط.  
من القرن الخامس الميلادى

النظرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية . ويخوى كل من هذين المجلدين حوالي ٧٠٠ رسم ، كل منها يخالف الآخر ، نقل بعضها عن المخطوطات القديمة وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان . وكتب على بعضها الأصل الذى نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التى كان الرهبان يتبعونها .

### الرواسب الفنية

أما تراثه القديم المنظور ، فقد أَمَاط العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافيا أو مختفيا سيظهره العلم يوما ، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص .

أما التراث غير المنظور فلا يملك غير المصرى الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية بما فيها من رواسب نفسية وقدرة تلقائية لا تغزوها المادة ، ولا تتحكم فيها الأوضـاع العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب . فهى سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو متقطعة أو مصطنعة الاتصال ، وهى وحدة متماسكة الحلقات . والمصرى وحده هو القادر على التفاعل مع هذه الرواسب يتناولها عن طريق الرضى والرغبة ، وعدم التكلف ثم عن طريق الحب والمثابرة . وهى السبيل للوصول الى أعماق نفسه ليستخرج منها ثروة كامنة أصيلة فى نفسه .

يقول الأستاذ حبيب جورجى « بهذا الايمان بدأت تجاربي للكشف عن كنه

بين الأقباط أنفسهم ويحيا مرتبطا بالنواحي الدينية والطقسية حتى عصرنا هذا .

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة فى الأديرة القبطية وما زالت هذه البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل المجلدين الضخمين اللذين تركهما الأبا مكاروريوس البطريك المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد رسمهما وهو راهب فى أديرة وادى

يعيش المصريون فى دورات زراعية يشترك فيها النيل والفلاح والحيوان والطير ، كل يقوم بدوره على وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع فى هذا الوادى الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعى وما يتجلى فيه من تعاون من بذر ووسقى وحصاد ، تكوّن لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين ديانات تباينت فى مظهرها ، وتشابكت فى أصولها ، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت فى قيمتها وتوحدت أغراضها ، فترسبت منها فوق هذا الأساس المتين رواسب انسانية سليمة عملت على تكوين مبنى المصرى الروحى والفنى .

وهذه الرواسب التى يحملها المصرى رواسب قديمة ممعنة فى القدم ، تميزه عن غيره من الناس فى هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور .

أمن الطبقات المصرية ، تتميز بحساسية فنية ، ولكنها أبدت قصدا عن علم الرسم وعن الطرق المدرسية ثم تركها لتخلق في حرية كاملة أعمالا فنية ابتدعها كل بنفسه وعلى فطرته .

وتطلب هذا العمل صبورا ومثابرة من الأستاذ حبيب جورجى ، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين اتخبتهم في عناية فائقة نحو ادراك الأبعاد وهم يشكلون الطين ، وأن يرشدهم في اختيار مصادر وحيهم وفي توضيح طرق التعبير عندهم ، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون . كذلك كان عليه أن يدرّبهم على نحت الحجر ، وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول .

وقد ظهرت النتائج ، وفي وسع كل انسان أن يحكم عليها . حقا ان القالب الذى صيغت فيه هو قالب مصر الحاضرة ، وهذا هو الطبيعى فى الأمر ، لأن الغرض الذى يهدف اليه ليس أن يحيى الرسم بل غرضه أن يوقظ الروح ويبعث التقاليد فى التعبير .

والشئ الذى أدهشنى شخصيا فى هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تتحد وروح مصر القديمة فى تناسقها وفى توزيع أجزائها . ولو أن مثلا من العصور الفرعونية أراد أن يمثل الحياة فى مصر الحديثة لما صورها على غير هذه الصورة . وسيظهر المستقبل الى أى مدى وإلى أية قوة فى التعبير تستطيع هبذم

الرواسب فى الأطفال الذين لم تمتد اليهم السدود التى تعترض الفيض ولم تتحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه . سهلت لهم سبيل الحياة الراضية والغالية من الصنعة والكلفة ، ففاضت نفوسهم بتراث مصرى صميم ، أذهل العالم وحير العلماء لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين .

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الاتاج الفنى لهؤلاء الأطفال :

« من الواضح أن النحت الذى كان الاعجاب به شديدا فى مصر القديمة هو وليد التربة أو هو نتيجة لحساسية ترهفت بفضل تلاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية ، حيث الجذب المتناهى يتباين مع الخصب الوفير . وحيث يتألف هذا المجموع وينتهى الى ادراك الأبدية . ولقد استوحى النحت المصرى كل أشكاله من هذه الروح وهذا ما يضىء عليه فى مجموعته وعلى الأخص فى تناسقه الداخلى تلك الصفة التى تكاد تملو على الانسانية حتى لكأنها تشارك فى اللانهائية التى لا يمكن أن نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر فى العالم . وكان الأستاذ حبيب جورجى يرغب فى أن يتبين صلة الفن فى مصر بالتقاليد الفرعونية التى صنعتها المدنية اليونانية منذ أجيال ، فغامر بتجربة ليجعل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة الشعبية التى هى من

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد توثقت ، وأن هذه التقاليد صميمة لأنها هي بعينها تقاليد مصر الفرعونية .

المدرسة أن تبلغ ، كما سيظهر المستقبل عددا من الفنانين الذين شاركوا في التجربة ومهدت لهم السبيل .

## الموسيقى والألحان

بلدة سنجار ، التي تقع شمالي مديرية الغربية ، وعرفت منذ أيام رمسيس الثانى وكانت تحوطها الأديرة فى العصر القبطى . وكذلك الأتريبي نسبة الى أتريب القديمة ( بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم ) .

تدل الصور المنقوشة على جدران المقابر والآلات الموسيقية التي عثر عليها فى مصر على أن الشعب المصرى منذ عرفناه فى التاريخ يميل بطبعه الى الغناء والموسيقى ويستخدمهما فى المناسبات المختلفة فى حياته الاجتماعية وفى الاحتفالات العديدة فى حياته الدينية .

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم . — ان لم تكن أغناها — فى فنها الموسيقى . والموسيقى جزء لا يتجزأ من تربيات عبادتها المتنوعة وطقوسها الطويلة . وهذه الطقوس كما نعرفها الآن قد وصلتنا كاملة منذ القرن الخامس للميلاد ، لا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو فارسية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

ولما انتشرت المسيحية فى البلاد المتباعدة وتكونت كنائسها ، نشأ معها فى كل قطر فن موسيقى كنسى تمثلى مع النزعة الفنية الموسيقية لكل شعب . وشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمداً ذلك من تقليده .

والموسيقى الكنسية — كما وصلتنا — صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية فى أدائها . وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاهاً . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية أخيراً بالنوتة الموسيقية للصوت وتقع فى عدة مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع ألحانها على أشرطة صوتية هى موضع درس يمكن أن تقابل بين بعضها وبعض الأغاني

وقد ذكر الفيلسوف الاسكندرى فيلو الذى عاش فى القرن الأول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحاناً لعبادتها الجديدة من الأنعام المصرية القديمة . وهذا يوضح لنا كيف انبثقت الموسيقى الكنسية المصرية من الفن الموسيقى المصرى ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان الشائعة الى الآن فى الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد . فاللحن السنجارى نسبة الى

الشعبية القديمة السائدة الآن في مصر وأوجه الشبه بينهما ملحوظة .

والألحان تتفاوت طولا وقصرا ، ويبلغ بعضها خمس عشرة دقيقة ، ومنها ما ينغم على كلمة واحدة أو بضع كلمات . وعلى الرغم من ذلك فالموسيقى القبطية ليست معقدة وتتكون من صوت واحد أى لا تتعدد نعماتها في وقت واحد ، ولها من بناطنها قوة تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأذواق ، وهى ألحان معبرة . وفيها اللحن الجزين ولحن الفرخ . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع

الألحان الحزينة «ان أنغامها عريقة في القدم، فيها حض على الزهد ، واسترخاء للنفس الطاغية . أما ألحان الفرخ ففيها نشوة تشعر الانسان بلذة روحية وتسمو به الى عالم أسمى » .

فهذا الفن القديم ورثته الكنيسة القبطية وحافظت عليه ، ولعل في دراسته العلمية ما يعود بنا الى أصوله المصرية القديمة . فان الموسيقى الكنسية القبطية أقدم مدرسة موسيقية معروفة في العالم .

## الفصل الخامس

### الحياة الاجتماعية

- (أ) مركز المرأة في الحياة المصرية . . .  
(ب) الأسرة .  
(ج) العادات .  
(د) التقويم .  
(هـ) الرهبنة : قيامها في مصر ، أطوارها ، آثارها التربوية والاجتماعية وانتشارها في أنحاء العالم المسيحي .

#### (أ) مركز المرأة في الحياة المصرية

حتى صارت نموذجا للوثنيين وقدوة مثلى اجتذبت هؤلاء الوثنيين الى دين المسيح بطريقة معيشتها ، لأنها كرست حياتها للخدمة في خشوع ، واضعة نصب عينها كلمة بولس الرسول « أأنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم » . ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فانتزعت احترام الجميع التواضعا . وكانت التعاليم التي تسلمها التلاميذ من السيد المسيح عن كرامة الشخصية الانسانية تتردد على مسامع الشعب كل يوم اذ كان اكليمنضس الاسكندري يعلن عظمة الزواج المسيحي في محاضراته بالمدرسة السكندرية . وكان يبين لسامعيه كرامة هذا الزواج الذي جعلت منه الكنيسة سرا مقدسا ورباطا روحيا يعقده الكاهن بمقتضى ما ناله من سلطان

كانت المرأة في مصر — منذ أقدم العصور — مصدر الوحي ومبعث الجهاد الروحي . حتى لقد جعلوا الالهة معات رمز العدالة والبر والحق . وقد سجل لنا التاريخ أسماء الالهات والملكات والكاهنات ، ولكن العظمة الروحية التي امتازت بها المرأة في مصر لا تتركز على هؤلاء وحدهن — اذ هن يؤلفن أقلية — بل تتركز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن اولادها أمام معلميهن، كما كانت مسئولة عن والديها في شيخوختها . فهي لم تكن مصدر الوحي فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضا .

واعتنق المصريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحي وظلت حاملة الشعلة ، فقد روضت نفسها على السمو بأخلاقها وفضائلها

ارادة الله ينال رضاه . فقد شاء ذات يوم أن يعرف ذرعة القداسة التي وصل اليها فرأى في رؤى الليل ملاكا ينبئ به بأنه بلغ مرتبة سيدتين في بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصدا البلدة التي أشار اليها الملك . ولما وصل الى بيت السيدتين استقبلتهما بالكرام والاحلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهم ليعرف السبب في ما نالتا من تقدير فأعلمتهما بأنهما يسكنان معا لأنهما متزوجتان من أخوين . وأنهما اتفقتا منذ اليوم الأول على أن لا تتفوه احداهما بكلمة تجرح الأخرى . واذا أحست واحدة منهما بأنها أساءت بكلمة الى الأخرى اعتذرت لها في الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت اليها وصفت الحساب مع ضميرها . وحين سمع الأنبا مكارى هذا الكلام هتف قائلا « حقا انه لا فرق بين الراهبة والمتزوجة وبين الناسك والرجل الذي يعيش في العالم . فقد وهب الله تعالى نسمة الحياة للجميع ولم يطالبهم الا بصديق نواياهم » .

ولقد أدركت المرأة المصرية قدسية الأمومة كما أدركت قدسية الزواج تماما . فلم يعد للام المسيحية شاغل الا العناية بأولادها والسهر على تربيتهم تربية تفق والكمال المسيحي . وقد دفعها هذا الادراك الى التفانى والمحبة . ولم تكن أمومتها منصبة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل

تسلمه من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح بارك العرس في قانا الجليل . وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد . والعجيب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون الى محاضرات اكليمنضس وغيره من معلمى الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته، وعن قدسية الزواج — كانوا يصغون بانتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد بنفوسهم الى ذروة الحكمة التي بلغها . فاذا ما قارن المستمعون الى محاضرات اكليمنضس بين تعاليمه وبين الحياة التي يحيها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للايمان بقدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكرامة الانسانية التي تترفع عن النزول الى حماة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التقديس للزواج وهذا التمسك التام بالعفاف تحولوا تدريجا نحو هذا الدين الذي ارتفع بالصلة الزوجية الى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء اللواتي بلغن مكانة روحية سامية الا أن هناك آلافا من الجنديات المجهولات اللواتي عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها ، ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة يرويها الأنبا مكارى الكبير بنفسه ، فانه — على الرغم من حياة النسك والرهبة التي كان يحيهاها — كان يؤمن بأن كل من يفعل

اتسمت لتشمل الأولاد المحتاجين الى العناية في شتى صورها . فلقد استشهد أبو أوريغانوس في الاضطهادات التي أثارها سبتيموس ساويرس في أواخر القرن الثاني للمسيحية . وكان أوريغانوس لا يزال يافعا مع كونه أكبر اخوته السبعة ، ولم يكتف الامبراطور الرومانى الظلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلهم بل صادر أموالهم أيضا . فاعتنت بهم سيده غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها، وسهرت على تربية هؤلاء الأطفال اليتامى وبذلك هيأت الفرصة لأوريغانوس ليكون من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية ومن أعلام الفكر المصرى الناضج .

ولقد كان من أثر تمسك المرأة بكرامتها وحفظها لظهرها وادراكها الصحيح لمسئولياتها أن وثق بها آباء الكنيسة ومعلموها . فنجد أن أوريغانوس ناظر المدرسة الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة استخدم سبع شابات يجدن الخط كى يكتبن له هذا الكتاب في صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل . ولما بدأت الاضطهادات المروعة التى شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة قوة راسخة شدت من عزيمة الرجال اذ كانت تقف الى جانبهم وهم يسامون أنواع العذاب تشجعهم على احتمال ما يلاقون من هول . وبعد ذلك تتلقى هى ما تلقاه الرجال من صنوف التنكيل فى سكينه وثبات .

وكان يحدث أحيانا أن يجبن الرجل فتكون المرأة سببا فى أن يستعيد شجاعته . وأبرز مثل لذلك السيدة دميانة التى كانت الابنة الوحيدة لمرقس والى البرلس . وكانت قد طلبت اليه أن يبنى لها قصرا تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه الى ربها وتقضى عمرها فى الزهد والتقشف ، وفى الصوم والصلاة ، وفى التأمل والعبادة . فأجابها أبوها الى رغبتها وبنى لها قصرا فى المنطقة المعروفة الآن بالبرارى بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه فى أمن وسلام مع أربعين عذراء نذرن العفة والطاعة مثلها . وعشن جميعا فى هدوء وطمأنينة . الا أن ديوقلديانوس الامبراطور الرومانى العشوم أثارها حربا شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل . وحين أعلن هذا الامبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه الى الهيكل ويرفعوا القرايين للالهة . فجبن مرقس أبو دميانة وخشى على مركزه وجاهه ، وذهب مع الامبراطور كما طلب .

فلما سمعت دميانة بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع . فلم يسع مرقس ازاء كلمات ابنته الا أن يعود الى الامبراطور ويعلن له ندمه عما فرط منه من تمجيد للالهة ويقرر له أنه مسيحي . فأمر الامبراطور بقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل

جنده الى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون  
عذراء ، فنكلوا بهن تنكيلا . وتحملت دميانة  
وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب .  
وكان أهل القرية قد خرجوا جميعا ليشاهدوا  
ما سيفعله الجند بالعداري . فلما رأوا ثباتهن  
وشجاعتهن أعلنوا مسيحيتهن فأمر الضابط  
الرومانى بقتلهم جميعا كما أمر بقتل السيدة  
دميانة والعداري الأربعين . وهكذا كانت  
بسالة السيدة دميانة سببا فى اذكاء نار الحمية  
والايان الثابت فى قلوب هؤلاء جميعا .

ثم انتهت الاضطهادات ، وحل الأمن  
والطمأنينة . فعادت المرأة الى مزاوله أعمالها  
العادية . فالزوجة انصرفت الى بيتها ، والأم  
عادت الى تربية أولادها . والى جانب الزوجة  
والأم كانت توجد من وهبت حياتها لخدمة  
الله والناس واختارت أن تكون راهبة  
أو شماسه ( أو كليهما فى آن واجد ) .  
ولم تكن حياة العبادة منصبة على العبادة  
والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوى  
والعقلى والخدمة الاجتماعية أيضا .

أما درجة الشماسية فكانت تستلزم ممن  
ينالها أن يتفقد المرضى والمسجونين والغرباء  
والمعوزين ، كما كان عليه أن يزور العائلات  
ويقدم تقريرا عن أعماله للكاهن أولا بأول .  
فكانت الشماسية مسئولة عن الحى المنوط بها  
خدمته ترعى سكانه وتعمل جهدها على  
تخفيف آلامهم وعلى ادخال الطمأنينة الى  
نفوسهم ، وتحرض على مصابحتهم الى  
الكنيسة كى ينالوا حظهم من الرعاية الروحية .

بل لقد كان الشماس ( أو الشماسه ) يوصف  
بأنه « عينا الأسقف وأذناه » لأهمية عمله .  
وأعظم مثل بين الشماسات تلك الشماسه  
التي لم يذكر التاريخ اسمها والتي اختبأ  
عندها اثناسيوس الرسولى ( البابا  
الاسكندرى العشرون ) . ذلك أن  
الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله .  
فهمجوا ذات ليلة على الكنيسة التي كان  
يصلى فيها . ووقف الشعب تلك الليلة فى وجه  
الأريوسيين . ثم حمله بعض الرهبان خارج  
الكنيسة . فلما وجد نفسه حرا طليقا أخذ  
يتمشى فى شوارع المدينة وهو يفكر . وكان  
ظلام الليل ستارا يغطيه عن أعين مطارديه ،  
وفيما هو يفكر ويصلى ألهمه روح الله أن  
يلجأ الى بيت شماسه لم تتجاوز العشرين من  
عمرها . ولما قرع الباب فتحته بنفسها ففرحت  
فرحا عظيما حين رآته ، ومكث القديس  
العظيم فى بيتها حوالى ست سنوات خدمته  
خلالها بأمانة لا تعرف الكلل . فكانت تأتي  
له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل الى  
الشعب رسائله الفصيحة وخطاباته التي كان  
يكتبها فى مختلف المناسبات مما أثار دهشة  
أصحابه وأعدائه معا .

فأصحابه كانوا يتلقون تلك الرسائل  
بغبطة ولهفة وهم يتساءلون فى شىء من  
الخوف : ترى أين البابا العظيم ؟ أما خصومه  
فكانوا يتميزون غيظا لمعجزهم عن معرفة مقره  
والفتك به . وضاعت جهود الأصديقاء  
والأعداء فى البحث عنه . فلما مات الامبراطور

قسطنس الثانى الأريوسى — وكان المؤمنون مجتمعين ساعتئذ فى الكنيسة للصلاة — اذا بأثناسيوس الرسولى واقف بينهم فجأة . فلاقوه بفرح لا يوصف ثم سألوه أين كان مختبئاً فأجابهم « لم أختبئ عند أحدكم لئلا يسألکم الحكام عن مكانى فتكذبون حرصاً على حياتى ، بل لقد اختبأت عند تلك التى هى فوق الشبهات مع كونها شابة جميلة . فكسبت بذلك حياتى وحياتكم » .

هذا المثل الرائع يعطينا صورة عن خدمات الشماسات ومدى جهودهن الدينية والاجتماعية ، والى جانبهن وقفت الراهبات اللواتى كرسن حياتهن للخدمة والعبادة فى تقان عجيب . ومن الأمثلة البديعة لخدمة الراهبات الروحية والاجتماعية مع ذلك المثل الذى قدمته العذراء « ييامون » حين فضت نزاعاً بين أهل قريتين بسبب مياه النيل — اذ كان أهالى كل قرية يريدون رى أراضيهم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت المرأة تؤديها . هذه الخدمة هى التطيب . فقد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض الأعشاب من فوائد صحية ويركبن منها العقاقير ويصفنها للمرضى . وكانت هذه الخدمة توهب مجاناً فى معظم الأحيان . ولا تزال فى بعض بلاد الصعيد سيدات يؤدينها . وهؤلاء السيدات لم يذهبن الى مدارس ولم يتلقين العلم على أساتذة . ومن المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم — أى أن المرأة التى لديها هذه المعرفة كانت تختار شابة تتوسم فيها الرغبة والمقدرة على تأدية رسالة التطيب فتسلمها معرفتها بالممارسة . ولما كانت هاته النسوة يعشن فى بيئة ساذجة ، يندر فيها من يعرف القراءة والكتابة كما يندر أن يوجد فيها من يهمن أن يكتب سيرة المرأة العاملة فانه لا توجد أدلة مخطوطة وانما الأدلة قائمة على قيد الحياة نفسها وعلى التقليد الذى سارت عليه مصر منذ أقدم العصور .

## (ب) الأسرة

( التى هى العماد — التثبيت — التناول — الاعتراف — الزبيحة — مسحة المرضى — الكهنوت ) ( والسركنسى هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة ) .

لذلك فرابطة الزواج تحتاج الى نعمة الهية لربط الزوجين بزباط روحى متين يستمر

اهتمت المسيحية بحياة الأسرة كأساس لبناء مجتمع سليم . فبمجرد دخول المسيحية الى مصر اهتمت بأن تدخل تعاليمها وقوانينها الى الأسرة لتدعيمها وحمايتها . فتساعد على تهيئة جو من الاستقرار والأمن .

فرابطة الزواج المسيحي تعتبر ركناً هاماً من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة

وتستمر احتفالاتها عدة أيام : الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة الحناء » وتقام وليمتها في بيت العروس لتوديعها ، وفيها تصبغ العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التي تتركها عجينة أوراق الحناء على الجلد . ثم ليلة العرس في بيت العريس — والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء، وما يسمى بالنقود (أى الهدية النقدية) ونشأت فكرتها أصلا كمشاركة عملية في مصاريف العرس . وأحيانا تستمر هذه الحفلات الى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كانت الأطعمة التي تقدم في ولائم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة ، فقد منعت الكنيسة اقامة « الاكليل » في أيام الأصوام ، حيث يتمتع تناول الأطعمة الحيوانية والدسمة ، وحيث يتمتع الأزواج عن المعاشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة .

وحينا يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلي به في اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن لبارك الوليد ، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة . وتسمى « صلاة الطشت » نظرا لاستخدام الطشت في غسل الطفل في ذلك اليوم . وخلال هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين في اختيار اسم قبطنى للوليد — يختارونه غالبا من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بشملهم العليا . ولهم في ذلك طرق مختلفة : فالبعض

مدى الحياة ولا يفصمه الا الموت أو الخيانة الزوجية ( الزنا ) . لذلك فمن المحتم أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن شرعى ، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يفصم هذه الرابطة الا الكاهن في حدود العلة الآتفة الذكر فقط . وبما أن الزواج في المسيحية رابطة روحية تجعل من الاثنين واحدا ، لذلك فلا يمكن أن يدخل ضمن هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة .

وعلى الكاهن بصفته أبا روحيا أن يستوثق من توافر شروط الزواج والخلو من موانعه . وأن يتأكد من الرضا الشخصى لكل من الخطيبين ، فيسأل كلا منهما رأيه على افراد بعيدا عن مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة .

ويسمى الأقباط حفل اتمام طقس الزواج بالاكليل — لأن الكاهن يتسوج رأس العروسين أثناء الصلاة باكليين ، دلالة على النعمة المقدسة التي توجت حياتهما برابطة الزيجة . وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة . كان من أولها تقديم الشكر لله بمحاولة اشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة في مشاعر الفرح وذلك بتوزيع الكساء وما طاب من مأكول وحلوى عليهم .

أما العائلات الثرية فتحر الذبائح

السوى لهذا القديس بتوزيع الصدقات  
وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء معا .

وحيثما يكتمل للولد أربعون يوما ،  
تحمله أمه الى الكنيسة لينال سر العباد فتعين  
له الكنيسة عرابا أى ( اشبيننا ) ومهمته أن  
ينوب عن الكنيسة فى رعاية الطفل روحيا الى  
أن يصل الى سن الدراسة فيلتحق بمدرسة  
الكنيسة .

وهذا الارتباط القوى بين البيت القبطى  
والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى  
تترك فى حياة أولاد العائلة انطباعات دينية  
عميقة . فكلما بنت العائلة بيتا جديدا أو نقلت  
مسكنها الى دار أخرى دعت الكاهن ليبارك  
المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم  
الكاهن فى آخرها برش الماء المقدس فى أرجاء  
البيت استجلابا للخير وطرادا للشر . ومن  
الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيوت  
رعيته من حين لآخر واعظا ومرشدا . كما  
عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه  
فيصلى سر مسحة المرضى ( القنديل ) ويدهن  
المريض بالزيت المقدس .

ومن العادات العائلية القديمة فى الصعيد،  
الأمسيات التى يسمونها « الميمر » . والميمر  
معناه السيرة . فاذا كان على عائلة نذر ما  
لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر  
لشفاء مريض أو توفيق شخص فى تجارته  
أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط  
احتفلت العائلة بدعوة الجيران والأقارب

يختار اسم القديس الذى ولد الطفل فى يوم  
عيده أو ذكرى استشهاده . والبعض يختار  
سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق  
أسماءهم على سبع شمعات ، والشمعة التى  
تستمر مضيئة الى آخر الحفل يطلقون الاسم  
الذى تحمله على الوليد . وأحيانا يكون الاسم  
قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية  
الوليد باسم القديس الذى استشفع به فى  
وقت ضيقته .

وكان جب الأقباط للقديسين والشهداء  
يدفهم لاطلاق أسمائهم على أبنائهم سواء كان  
اسم القديس من أصل مصرى أو يونانى  
أو سريانى . الأمر الذى اختلط على البعض  
فجعلهم يتشككون فى مصرية حاملى هذه  
الأسماء . فكانوا ينسبون مشاهير العلماء  
والقديسين المصريين الى اليونان لمجرد أن  
الاسم أصله يونانى .

وكان فى كل بيت قبطى « مقصورة »  
( ومعناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة )  
بها أيقونة ( أى صورة ) لقديس أو أكثر .  
وتوضع فى ركن خاص بالبيت كمكان  
مخصص للصلاة والعبادة . وأحيانا يضيئون  
أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض  
الشموع تكريما للقديس الذى كانت حياة  
الفضيلة والتضحية التى عاشها نورا وهديا  
للمجتمع . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة  
القبطية أن تجتمع لتصلى الصلاة العائلية فى  
الصباح وعند الغروب . وتحفل العائلة بالعيد

كبير في تخفيف وطأة الحزن على أقاربه .  
ويسمى العامة « رفع الحصر » أى انهاء  
فترة الحزن الشديد التى فيها يجلس أهل  
البيت والمعزون على الحصر أرضا بدلا من  
الجلوس على الأرائك أو المقاعد .

وبعد ذلك تقام القداسات فى الكنيسة  
استمطارا لرحمة الله فى أيام السابع والخامس  
عشر والأربعين . وتعتبر هذه فرصا مناسبة  
للتعبير السليم عن مشاعر الحزن ، اذا  
ما اقترنت بالتأثير الدينى الذى يعمل دائما  
على حفظ اتزان الشاعر ، فلا يكون فيها  
افراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين . كما  
لا يكون فيها كبت ، كما يحدث لدى الذين  
يفهمون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التعبير  
عن مشاعر الحزن . فقد أثبتت أبحاث علم  
النفس التطبيقي أن كبت مشاعر الحزن  
للظهور بمظهر التمدن ، قد أدى فى كثير من  
الحالات الى أمراض جسمية ونفسية تظهر  
آثارها بعد فترة من الزمن .

ولكن للأسف اقترنت أحزان الأقباط  
خصوصا عند النساء فى الصعيد ببعض  
العادات الوثنية من لطم مؤذ ، وشق  
للملابس ، وحل للشعر ، وصبغ للشعر  
بالنيلة ، والقرع على الصدر بشدة ، وفقد  
زام النفس حتى تتمايل الثكلى أحيانا  
باهتزازات توقعية تمشى مع أنغام التعديد  
الذى كثيرا ما يقترن بقرع الرق أو الطبول .  
وتختلف أقاليم الصعيد فى طريقة « التعديد »

والفقراء ومرتلَى الألحان الكنسية الى سهرة  
يجلسون فيها فى حلقة يتوسطها من يقرأ  
سيرة (مير) أحد القديسين . وكلما وصلوا  
الى فصل جديد فى السيرة أو نقطة بطولة ،  
يتوقفون عن القراءة ويأخذون فى ترسيل  
المدايح الشعبية فى تهليل وبهجة . ويتبارى  
مرتلو الألحان فى ارتجال مقطوعات شعرية  
يسمونها « الأرباع » ( أى أربعة أبيات ) .  
وتدور معانى هذه القصائد حول المناسبة  
التي يحتفلون بها . وتدخل فيها ألفاظ  
أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت  
تلقى قديما باللغة القبطية . ويدخل فيها أيضا  
تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة .  
وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يجزلون العطاء  
( النقوط ) على المرتل ( وهو غالبا ضرير )  
وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل فى ذكر  
الله ورجاله الأتقياء . وهذه الاجتماعات تعتبر  
فى نفس الوقت وسيلة من وسائل الترفيه  
الشعبى الروحى .

### المآتم

وترتبط عادات الحزن والمآتم فى العائلات  
بمظاهر دينية أيضا . اذ تشيخ الجثة الى  
الكنيسة حيث تقام صلوات جنازية استمطارا  
لرحمة الله على ما قد يكون المنتقل قد فعله من  
هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة .  
وفىها أيضا طلب التعزية السماوية لأهل  
الميت . وتقام صلاة خاصة فى بيت الميت فى  
اليوم الثالث للوفاة . ولهذه الصلاة أثر

وعادة زيارة المقابر ( الطلعة ) — أى الخروج الى المقابر التى تكون غالبا خارج القرية أو على مكان مرتفع جاف — من العادات القديمة . وهى من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت فى أيام الأعياد التى يعتاد فيها أفراد العائلة التجمع معا من بلادهم المتفرقة وتصطحب هذه الزيارة بعادات أخرى منها السليم ومنها الضار . فتوزع الصدقات والمأكولات على الفقراء . وترفع الصلوات لطلب رحمة الله . الا أنهم كانوا يغالون فى ذلك فيبيتون فى المقابر ويقيمون عدة أيام ويتجادون فى مظاهر الحزن المفرط .

وهى فى الغالب تعديد مآثر الفقيده ، ومقدار الخسائر التى لحقت بفقدته . الا أن بعضها ينحرف الى عبارات الكفر والتذمر . وهذه العادات والأقوال لا تقرها المسيحية ، ويحاربها رجال الدين فى مواعظهم . وعندما ترزأ عائلة بفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة الى مشاركتها فى التعزية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشارك أيضا فى أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، اذ ترسل كل عائلة ( صينية ) مأكولات الى بيت المآثم الذى يكون مشغولا فلا يتمكن من اعداد الطعام للمعزين .

### ( ج ) العادات

ومن هذا الاسم تميزت الكنيسة بوظيفة اجتماعية وروحية ، اذ أن مهمة السمو بروح الانسان تحتاج الى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تتعقد أو تنقسم على ذاتها ، فتصير شرا ناميا فى جسم المجتمع . بل تسعى الكنيسة الى تكوين المواطن الصالح .

ويسهر على توفير هذه الخدمات الرعوية لسد احتياجات الشعب ، رعاية الكنيسة وخدامها بدرجاتهم المختلفة : الشماس والقسيس والأسقف . وهى درجات الكهنوت الأساسية فى الكنيسة .

والكنيسة بهذا الوضع مجتمع اشتراكى ديمقراطى ، تكافأ فيه الفرص الروحية

ارتبط المصرى بالكنيسة ارتباطا وثيقا حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بانطباعات دينية كثيرة ظهرت آثارها فى أفراحه وأتراحه ، واحتفالاته وأعياده . ولا غرابة فى ذلك فان للكنيسة معنى اجتماعيا يشمل حياة الشعب التابع لها .

وكلمة كنيسة معناها جماعة ، أى « جماعة المؤمنين » . ويطلق الاسم اصطلاحا أيضا على المكان الذى يجتمع فيه المسيحيون مهما كان نوع هذا المكان . ففى فجر المسيحية ، قبل أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق اسم الكنيسة على البيوت التى يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلاة .

الغذاء للمصلين ويقوم كبار أعضاء العائلة بأنفسهم على خدمة أفراد الشعب الفقراء والأغنياء على السواء .

وتظهر قيمة هذه الولايم في الرابطة الأخوية والتقريب بين الطبقات والتقليل من الفوارق الاجتماعية ، بجانب ما تقدمه من ضيافة باطعام أفراد الشعب الذين تبعد بيوتهم عن مكان الكنيسة .

ولكل عضو في الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقة بالكنيسة لاقامة احتفالاته الخاصة من عرس أو ماتم . فهي تستخدم احتياجات الشعب عامة . ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لاضافة الغرباء والفقراء .

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة الملحقة بها ، وكانت في القرون الأولى للمسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لاعداد الراغبين في العماد وتلقينهم أصول الايمان المسيحى . ثم أخذت فيما بعد شكل « الكتابات » . وكانت تلقن الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية .

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرضى كما جاء في سيرة القديس باخوميوس ( القرن الرابع ) أنه أنشأ مستشفى في أديرته . وأجمل مظاهر الرعاية النفسية التي

والاجتماعية أمام الفقير والغنى ، الجاهل والمتعلم ، الصغير والبالغ ، وأبيض البشرة وأسودها . فيتمتع فيه الجميع بفرص العبادة المشتركة فيقف كل هؤلاء خاشعين يعبدون الها واحدا ، ويتعلمون كيفية تطبيق الفضائل في حياتهم اليومية ، حتى لا يصبح الدين مظهرا منفصلا عن الحياة أو المجتمع ، بل يصير وسيلة فعالة للمشاركة في العطاء للفقير والمحتاج ، والتعاون لخير المجتمع .

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة في مصر منذ أقدم العصور . فضمت مباني الكنيسة بين أسوارها مؤسسات تقوم بالخدمات المختلفة لشعبها من روحية وثقافية واجتماعية . ففي كثير من كنائس قرى الصعيد والوجه البحرى ، ما زالت تحيط بالكنيسة مباني « الليوان » أو « الايوان » وهي المضيفة أو قاعة الاجتماعات التي يجتمع فيها الشعب مع رعاته بعد صلوات قداس يوم الأحد فيتشاورون في شئون مجتمعهم ثم يتناولون معا ما اعتاد المسيحيون بتسميته « الأغابي » وهي كلمة قبطية معناها محبة . وتستخدم اصطلاحا بمعنى « وليمة المحبة » . اذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن في تناول الأسرار المقدسة في نهاية القداس يخرجون الى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون معا الغذاء على مائدة واحدة . وجرت العادة على أن تتناوب عائلات القرية تقديم الغذاء فيحدد لكل عائلة أسبوع معين من العام تقدم فيه

القائلة ( فاطم أول كل شيء أن تقام طلبات  
وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع  
الناس . لأجل الملوك وجميع الذين هم في  
منصب لكي تقضى حياة مطمئنة هادئة في كل  
تقوى ووقار ) ( اتي ٢ : ١ - ٢ ) .

ولما كانت مصر بلدا زراعيا فقد اهتمت  
الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من  
أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس وماء .  
ونظمت هذه الصلوات لتتمشى مع الفصول  
الزراعية :

( أ ) ففى فصل البذار ( من ١٠ بابة الى  
١٠ طوبة - أى من ٢٠ أكتوبر الى ١٨  
يناير ) تصلى قائلة ( تفضل يا رب الزروع  
ونبات الحقل فى هذه السنة باركها ) .

( ب ) وفى شهور الأهوية والحصاد ( من  
١١ طوبة الى ١١ بؤونة - أى من ١٩ يناير  
الى ١٨ يونية ) تصلى قائلة ( تفضل يا رب  
أهوية السماء وثمرات الأرض فى هذه السنة  
باركها ) .

( ج ) وفى شهور فيضان النيل ( من ١٢  
بؤونة الى ٩ بابة - أى من ١٩ يونية الى ١٩  
أكتوبر ) تصلى قائلة ( تفضل يا رب مياه  
النهر فى هذه السنة باركها - أصعدها  
كمقدارها ، كنعمتك فرح وجه الأرض ليرى  
حراثتها ، لتكثر أثمارها . أعددها للزرع  
والحصاد ، ودبر حياتنا كما يليق . بارك اكليل  
( بدء ) السنة بصلاحك ، من أجل فقراء  
شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والغريب

تقدمها الكنيسة لاحتياجات الشعب ، تجلى  
فى وظيفة « سر الاعتراف » . وهو كما سمته  
المخطوطات القديمة « طب روحانى » ، وبلغة  
العصر الحديث وعلم النفس « صحة نفسية »  
أو « طب نفسى » سواء الوقائى منه أو  
العلاجى . فمعروف أن الفرد محتاج الى ارشاد  
وتوجيه وبخاصة خلال الأزمات النفسية ،  
أو عندما تشتد وطأة مشكلات الحياة  
أو يزداد الشعور بالانتم . فأسلم طريق لراحة  
النفس وسلامة العقل هو تفرغ كوا من النفس  
على يد من يستطيع أن يطمئن النفس ويهدئ  
من روعها ، ويرسم لها طريقا لتجديد الرجاء  
أو بعثه .

وتحتاج النفس البشرية أيضا الى أن  
تكون على صلة مستمرة بالله تعالى ، لذلك  
تفتح الكنيسة أبوابها ليشترك الشعب معا فى  
رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع  
- يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية  
أن ترفع الصلوات فى أيام الأصوام أيضا  
وبخاصة الأربعاء والجمعة من كل أسبوع .  
وكانت الكنائس قديما تقيم القداسات يوميا .  
وتشتمل صلوات القداس القبطى على  
طلبات من أجل الظروف المختلفة التى تمر  
على الفرد فى حياته : من أجل المرضى  
والمسافرين ، والراقدين ( أى الأموات ) ..  
وكذلك من أجل سلامة العالم . ولم تغفل  
أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك  
والولاة ، تنفيذًا لوصية الكتاب المقدس

التجارية والاقتصادية أيضا . فتتعلق محلات ذبح اللحوم وبيعها . ويتجه النشاط التجارى نحو البقول والزيت وما شاكلها من سلع . واذ تمتنع الأعراس والولائم ، يسود المجتمع جو من التخشع والعبادة .

وأهم وأقدم أصوام القبط هما يوما الأربعاء ( لذكرى التشاور للقبض على المسيح ) والجمعة ( لذكرى صلبه ) من كل أسبوع . والصوم الأربعيني لذكرى الأربعين يوما وهى التى صامها المسيح ، ويسمى أيضا « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته فى وقتنا الحاضر ٥٥ يوما . والأسبوع الأخير منه يسمى « أسبوع الآلام » . ولهذا الأسبوع تقديس عظيم لدى الشعب لعظم الذكرى التى يحملها . فكانت تعطل فيه الأعمال ليتفرغ الجميع للصلاة فى الكنيسة حيث يتلى معظم الكتاب المقدس . ولصلواته لحن حزين . ويطلق الأقباط على كل يوم من أيام هذا الأسبوع اسما يناسب ذكرى خاصة . منها « أربعاء أيوب » الذى اعتاد الناس أن يغتسلوا فيه بالعشب المسمى « رعرع أيوب » لذكرى شفاء أيوب النبى به . وخميس العهد لذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين ليعلمهم التواضع ، وفيه أيضا بدأ معهم عهدا جديدا . وباتتشار الرهبة وكثرة الزهد اقتدى الشعب بالرهبان فى حفظ أصوام أخرى : كصوم الميلاد استعدادا لاستقبال بشرى الميلاد وشريعة العهد الجديد ، ويبدأ يوم ١٦

والضيف ، ومن أجلنا نحن الذين نرجوك ونطلب اسمك القدوس . لأن أعين الكل تتطلع اليك ، لأنك أنت الذى تعطيم طعامهم فى وقته . اصنع معنا بحسب صلاحك ، يا معطيا طعاما لكل جسد ، املا قلوبنا فرحا وبهجة لكى يكون لنا الكفاف فى كل شئ ، ونزداد فى كل حين عملا صالحا ) .

### الأصوام

القبط شعب يميل الى التصوف والزهد ، فقد اشتهر بكثرة أصوامه . اذ يرى الصوم وسيلة لتدريب الارادة وضبط النفس لكبح الشهوات ، والتقليل من قيمة الرغبات المادية حتى لا تضغط على الميول الروحية للنفس . فالصوم يسهل التسامى بها الى مستوى روحى رفيع .

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام مدة من النهار قد تصل الى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة كل شخص . يتناول بعدها الصائم اطعمة خالية من الدسم غير حيوانية .

وتطفى روح العبادة على القبط فى فترات الصوم ، فيكثرون من الصدقات . وتتأثر حياة العائلة كلها ، اذ تتغير أساليب حياتهم الرتيبة ، فتجرى العائلة استعدادات خاصة لاستقبال الصوم . وحتى الأطفال يشعرون أن للبيت جوا جديدا يفيد ارتباطا خاصا بالدين . وعندما كانت مصر كلها مسيحية ، كانت آثار الصوم تنعكس على الحياة

بالكنيسة أو بالتزاور في البيوت . أما في  
الثلاثة الأعياد الكبرى ( الميلاد — الغطاس  
— القيامة ) فيكون الاحتفال بالقداس مساء  
ليلة العيد ، وغالبا ينتهى بعد منتصف الليل  
فتكون له بهجة ، وبالأخص في ليلة عيد  
القيامة حيث اعتاد الشعب قديما أن يخرج  
من الكنيسة ممسكا بالشموع المضاءة الى  
أن يصلوا الى بيوتهم .

وترتبط بعض الأعياد القبطية بمواسم  
زراعية خاصة فتدخل في تقاليد الاحتفال  
بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم .  
فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء . ومن  
العادات التي كانت متبعة في عيد الغطاس  
( ذكرى عماد المسيح ) — ويقع في ١٩  
يناير — الاستحمام في النهر أو الترغ . وكان  
يوجد في مباني الكنائس القديمة حوض كبير  
يسمى المغطس في الجانب الأيمن من الجهة  
الغربية للكنيسة ( وما زال موجودا غير  
مستعمل في كنائس أبو سيفين وأبو سرجة في  
مصر القديمة ) . كان يملا بالماء وينزل فيه  
الشعب ليلة عيد الغطاس .

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبى البهيج ،  
عيد « أحد الشعانين » أو « أحد السعف » .  
وهو الأحد السابق لأحد القيامة . وفيه  
يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح الى  
أورشليم راكبا على جحش ، ذلك الاستقبال  
الاحتفالى الذى رفع الشعب فيه سعف  
النخيل وأغصان الزيتون . ويكرر الأقباط  
هذه الذكرى بحمل سعف النخيل وأغصان

هاتور ( ٢٥ نوفمبر ) وينتهى بعيد الميلاد  
يوم ٢٩ كيهك ( ٧ يناير ) ، وتبلغ مدته الآن  
٤٣ يوما . وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب  
بليالى كيهك فيجتمعون في الكنيسة ،  
ويرتلون المدايح والتسايح ابتهاجا بذكرى  
الميلاد . وفي ليالى الأحد من شهر كيهك  
يسهرون الى الصباح في ترديد هذه  
التسايح . وفي هذه الليالى كانت بعض  
العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة  
فتقدم لهم العشاء في المضيئة الملحقة  
بالكنيسة . -

وأيا صوم الرسل ، ويبدأ الاثنين التالى  
لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩  
يوما اذ ينتهى بعيد الرسل في ١٢ يوليو .  
وكذلك صوم العذراء ، ويبدأ في ٧ أغسطس  
ومدته ١٥ يوما ، وصارت له شهرة شعبية  
خاصة . وفي أواخر القرن العاشر بدأ الأقباط  
يصومون صوم نينوى ومدته ثلاثة أيام  
لذكرى نجات أهل نينوى ( مدينة قديمة  
بالقرب من الموصل الحالية بالعراق ) عن  
طريق الصوم .

### الأعياد

ينتهى كل صوم من الأصوام القبطية بعيد  
يحتفل به الأقباط باقامة القداس في صباح  
يوم العيد ثم يفترون بتناول المأكولات  
الدسمة واللحوم والحلوى ، بعد أن يكونوا  
قد وزعوا منها على الجيران والفقراء . وبعد  
ذلك يتبادلون التهاني معا في القاعة الملحقة

خاص من الفطير يوزعونه على الفقراء والجيران . وترجع فكرة الفطير الى عادة تقديم باكورات محصول القمح كعلامة شكر لله . وقد كان من عادات القبط ألا يذوقوا المحاصيل الجديدة ولا تدخل ثمارها بيوتهم قبل أن يوزعوا منها على الفقراء .

### الموالد

وكلما اشتهر قديس أو شهيد في منطقة أو مدينة ، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه . وعندما يصل القادمون الى المنطقة بضعة آلاف يضطرون الى اقامة الخيام حول الكنيسة ليبيتوا فيها ، ويقضوا أيام العيد التي تصل غالبا الى سبعة أيام .

وقد عرفت أعياد القديسين المزججة هذه في العصر العربي قياسا باسم الموالد . وهو اسم لا ينطبق على الواقع ، لأن الاحتفال غالبا يكون بذكرى استشهاد أو موت القديس ، وهو اليوم الذي أتم فيه البطل جهاده ولا يهم الكنيسة يوم الولادة فانه يوم لا يقترن بشيء من البطولة أو الاعجاز .

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات واقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتشبه بقدوته الصالحة . ثم بتقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم للكنيسة الى جانب نحر الذبائح لطعام الفقراء والمحتاجين . ولكن لكثرة العدد وما تحتاجه هذه الألوف

الزيتون الى الكنائس لحضور قداس العيد . وعادة تحية القادمين بالسعف كانت معروفة في مصر الفرعونية أيضا .

ومن اليوم التالي لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع الذي يسمى الآن « شم النسيم » . وفيه يخرج الشعب الى الحقول والحدائق للفرح بجمال الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك الطويلة السابقة . ويسمى كنسيا « اثنين الفصح » . وكانت تستمر أجازة عيد القيامة طوال الأسبوع الأول من الخماسين .

وإذا ما جاء عيد العنصرة - وهو عيد حلول الروح القدس في نهاية الخماسين - اعتاد القبط توزيع فواكه الموسم الجديدة على الفقراء وذلك لأن يوم الخمسين هذا كان يقابل قديما عيد الحصاد فيكون تعبير الشكر بتقديم باكورات هذه الخيرات .

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد كثيرة أخرى ، من أهمها عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفيل صغير . وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول يونية من كل عام . وبالأخص في الكنائس التي بنيت على الأماكن الأثرية التي زارها مثل مسطرد حيث البئر ، وشجرة العذراء بالمطرية ، وكنيسة أبو سرجة بمصر القديمة ، وقسقام حيث يوجد الدير المحرق ، وبه كنيسة أثرية لهذه المناسبة .

ويحتفل القبط بأعياد العذراء ومشاهير القديسين والشهداء والملائكة بعمل نوع

أو يستخلص لنفسه شيئاً من الفائدة نظير  
أثمابه . حتى الأشياء التي لا يمكن أن تحدث  
للباعه في الأسواق العامة. تحدث لهم في  
موالد الشهداء .

يا للغباء ! اذا كنتم تذهبون لمواطن  
الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتفعلوا كل  
ما يروق لكم ، فآية فائدة لبيوتكم التي في  
مدنكم أو قراكم ؟ يا لعقولكم المغلقة ! واذا  
كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رءوسهن  
ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس  
الذين ينظرون اليهن ، واذا كان أبناءكم  
واخوتكم وأصدقائكم وجيرانكم يفعلون  
هكذا عند ذهابهم الى مواطن الشهداء فلماذا  
جعلتم لكم بيوتا ؟

هناك كثيرون يذهبون الى الموالد لافساد  
هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح  
أعضاء للآثم والفجور بدلا من أن يحفظوا لها  
قداستها وطهارتها من كل رجس سواء  
كانوا رجالا أو نساء . دعوني أقول لكم  
بصراحة تامة ان كثيرين منكم يلتمسون  
لأنفسهم عذرا قائلين ليست لنا زوجة أو ليس  
لنا زوج ، فلا تجعلوا زيارتكم لموالم  
الشهداء فرصة لتدمير أجسادكم في المقابر  
التي حولها أو المباني القريبة منها أو في  
أركانها .

من أماكن للمبيت ، ومن مأكولات ونحسر  
للذبائح ويبيع لاحتياجات الزوار والنذور  
وخلافه انحرفت هذه الاحتفالات عن طبيعتها  
الدينية البسيطة الى مظاهر مادية تجارية  
كانت سببا في تسرب كثير من الشرور  
الاجتماعية الى تلك « الموالم » مما لم تقرأه  
الكنيسة ، لدرجة أن الأبا شنودة ( القرن  
الخامس ) ألقى عظة قوية ندد فيها بتلك  
الشرور قائلا « جميل جدا أن يذهب الإنسان  
الى مقر الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير  
ويظهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة في  
مخافة المسيح ، أما من يذهب لينتكم ويأكل  
ويشرب ويلهو ، أو بالحري يزني ويرتكب  
الجرائم نتيجة للافراط في الشراب والبغى  
والفساد والآثم ، فهذا هو الكافر بعينه .

وبينما البعض في الداخل يرتلون المزامير  
ويقراءون ويتناولون الأسرار المقدسة اذ  
بآخرين في الخارج يملأون المكان بالكلمات  
الطبل والزمر — بيتي بيت صلاة يدعى وأتم  
جعلتموه مغارة لصوص — لقد جعلتموه  
سوقا لبيع العسل والحلى وما أشبه . لقد  
جعلتم الموالم فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق  
حميركم وخيلكم ، جعلتموها أماكن لسرقة  
ما يعرض فيها للبيع ، فبائع العسل بالكاد  
يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين ،

## (د) التقويم القبطى

كل عام ، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التى تأتىهم كل عام ، أى حدوث الفيضان .

لم تعتمد السنة المصرية فى حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصرى على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام ، فهى سنة نيلية ، تعتمد على طبيعة الفيضان وقيمتها لدى الشعب الذى تتصل حياته به اتصالا وثيقا . ولم يكن من المهم لديهم أن يأتى الفيضان فى نفس اليوم من كل عام . بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتىهم فى نفس الوقت تقريبا .

وليس فى الامكان أن نحدد متى استطاع المصرى أن يقيم « حساب السنة المدنية » على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه نشأ فى فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك فى أثناء عصر حضارة قادة الثانية ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد .

وحين مضى على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بمرحلة ، كما لاحظوا أن أشهر « بذر الحبوب » التى كانت تقع فى الشتاء أخذت تقع فى فصل الصيف . وقد نشأ هذا المييب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية بربع يوم تقريبا ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحح من

وضع التقويم القبطى على أساس التقويم المصرى القديم . أدرك المصريون القدماء ضرورة استخدام سنة مدنية تحتوى على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما يكون الى السنة الشمسية . وتكونت السنة المصرية من اثنى عشر شهرا ينقسم كل منها الى ثلاثين يوما ، ثم زادوا عليها خمسة أيام فى آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التى ولدت فيها المعبودات الخمسة التى تتكون منها مجموعة أوزيريس وهى : أوزيريس ، وايزيس ، وست ، وفتيس ، وحوريس . وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة .

أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة شهور . وسماوا الفصل الأول فصل « الفيضان » والثانى « بذر الحبوب » والثالث « جنى المحصول » .

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذى تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يولية الى أكتوبر . أما أشهر فصل « بذر الحبوب » فهى من نوفمبر الى فبراير وهى أشهر الشتاء ، وأشهر فصل « جنى المحصول » من مارس الى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا .

ويدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذى يهب أرضهم الخصوبة ويجدها

وورد ذكرها في المتون الدينية القديمة على أنها « الجالبة للنيل » أى التى تحدث فيضانه ، وقدسوا هذا النجم على أنه صورة من صور ايزيس ، وهذا النجم هو الذى نسميه الآن « الشَّعْرَى اليمانية » .

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة « الشعرى اليمانية » تعادل تقريبا دورة الشمس فى عام .

هذا ولم يكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين فى أول الأمر . وكانت تنسب للفصول التى تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثانى من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا .

ومنذ الأسرة السادسة والعشرين أى منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريبا ، أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التى اعتادوا اقامتها .

والأسماء كما وصلتنا هى :

Thot	١ - تحوت
Paophi	٢ - باؤفى .
Hathor or Athyr	٣ - أثير أو حاتور
Khoiak	٤ - كحوياك
Tybi	١ - طيبى
Mekhir	٢ - مخير
Phamenoth	٣ - فمنوٲ
Pharmuthi	٤ - فرموتى
Pakhons	١ - بخونس
Payni	٢ - بينى
Epiphi	٣ - ايڤفى
Mesori	٤ - مسورى

فصل الفيضان :

فصل بذر الحبوب :

فصل جنى المحصول :

نفسه بعد مضى ١٤٦٠ سنة شمسية من الحساب بالتقويم ، ففى هذه المدة تجمع الفرق وهو ربع يوم فى كل سنة فأصبح ٣٦٥ يوما أى سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة . وبهذا عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية .

ولاحظ المصريون أن سنتهم النيلية التى تبدأ من اليوم الذى يأخذ فيه النيل فى الارتفاع وتنتهى بنفس اليوم من العام التالى ، تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل ، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مرة كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون فى الفجر المبكر قبيل شروق الشمس ، ويكون أظهر وألمع نجم فى السماء ، وفى دوران الأرض حول الشمس تأتى لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم فى خط مستقيم مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسما مؤثنا هو « سبت »

اليمانية في بدء ظهور الأسرة الثانية عشرة ،  
كما سجلت بردية أخرى ( اللاهون ) هذه  
الظاهرة في عصر الدولة الوسطى . ويؤكد  
« ادوارد ماير » أن أول الفترة التي تبدأ  
بعام ٢٧٨١ ق . م كان التوقيت الشمسي  
معروفا ومستعملا فيها ، فلا بد إذن أن يقع  
بدء استعماله في أول الفترة السابقة أى سنة  
٤٢٤١ ق . م .

\*\*\*

### قيمة التقويم للمصريين :

لا يزال هذا التقويم منذ عصور ممعنة في  
القدم دليلا نافعا ودقيقا للطقس وللصول  
وللزراعة وللنيل في فيضانه وتحاريقه ،  
ولا يزال المزارعون يراعونه في كل ما يخص  
البذر والحصاد كما كان يفعل المصري القديم  
منذ آلاف السنين . ولا زالت تجرى على  
أسنتنا الأمثال التي تدل على حالة الطقس  
فنقول : يابة : ادخل واقفل البوابة ، كياك :  
صباحك مساك ، طوبة : أبو البرد والرطوبة ،  
أمشير : أبو الهواء والزعاير ، برمها : اطلع  
الغيط وهات .. الخ .

والتقويم الزراعى في مصر لا يزال يتبع  
التقويم المصرى القديم ، واليك مثال ذلك :  
شهر توت :

يزرع فيه البرسيم والشبث والكرنب  
شتلا والشعير الشتوى والبقول ، وتظهر الذرة  
الشامى ، وينضج البصل البعلى ، ويتوافر  
الليمون ، وينضج الزيتون ويكثر السفرجل  
والتفاح .

النسئ ، وكانت تسمى به الأيام الخمسة  
المزيدة على السنة أو الشهر الصغير ، وهى  
خمسة أيام . وكل من الأشهر ثلاثون يوما .  
ان المصرى القديم هو أول من وضع  
تقويما يرصد الحوادث بمقتضاه ، وهو أول  
من ألف عاما شمسيا من اثنى عشر شهرا كل  
شهر منها ثلاثون يوما وأضافوا الشهر  
الصغير ( النسئ ) وهو خمسة أيام لكل  
عام ، كما قسم العام الى فصول .

واحتفل المصريون بيوم « طلوع الشعرى  
اليمانية » وجعلوا منه عيد أول السنة الى  
جانب احتفالهم العادى بفترة العام الشعبى  
( ٣٦٥ يوما ) ، وأطلقوا على هذا العيد اسم  
« طلوع سبت » . ولاحظ المصريون أن عيد  
« طلوع سبت » يتأخر عن عيد غرة العام  
الشعبى بمعدل يوم كل أربعة أعوام ، كما  
لاحظوا اتحاد العيدين مرة كل ١٤٦٥ سنة .  
وهى دورة « الشعرى اليمانية » .

وذكر الكاتب الرومانى كسنورينوس  
Censorinus أن الشروق الاحتراقى للشعرى  
اليمانية حدث في أول توت من سنة ١٣٩  
بعد الميلاد . وعلى هذا أمكن تحديد حدوث  
ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية  
في سنة ١٣٢١ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨١ ق . م  
وسنة ٤٢٤١ ق . م وهكذا عرف المصريون  
في عصر الدولة القديمة تقسيم العام الى  
٣٦٥ يوما وسجلت النصوص ( بردية  
ايرس ) ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى

### شهر بابه :

بدء الزراعة الشتوية : يزرع فيه الأرز والكتان والبصل والثوم ( بالوجه القبلى ) والقمح والبسلة والآيسون والكمون والشعير ، ويجنى القطن ، ويظهر البطيخ والشمام النيلى والقرع والقنييط ، ويحصد الفول السودانى ، كما تكثر فيه الأسماك الصغيرة ( البسارية ) .

### شهر هاتور :

ينتهى فيه جنى القطن ، وينضج الأرز النيلى ، وتقطع الذرة الشامى ، ويظهر فيه البرتقال واليوسفى . ويزرع العدس والقرع والكوسة والطماطم .

### شهر كيهك :

يزرع فيه المشمش والبرقوق والخض شتلا ، والمقات الصيفى والخبيزة والخضراوات الصيفية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويقطع قصب السكر للعصير ، ويكثر القلقاس .

### شهر طوبة :

تنقل فيه الأشجار الصغيرة ، وتعلم كروم العنب ، وتزرع الذرة الصيفية والجوز ونوى الخوخ .

### شهر امشير :

يزرع فيه القطن المبكر ( بالوجه القبلى ) والذرة العويجة وقصب السكر ، وتفرس الأشجار ، ويلقى النخل ، ويحصد الكمون ، ويفرس شجر التين والتفاح والبرقوق والمشمش ، ويظهر الخيار .

### شهر برمهاث :

يورق فيه شجر التوت ، ويفقس دود القز ، وتنضج البسلة البلدى ، وإبتداء زراعة القطن الهندى ، ويقلع فيه الكتان ، وتظهر الملوخية ، ويزرع الكمون والخضراوات .

### شهر برمودة :

يحصد فيه الفول والعدس والترمس والقمح فى بعض جهات بالوجه القبلى . ويزرع فيه الفول السودانى ، ويقطف أوائل العسل ، ويجنى الورد لاستخراج مائه ، ويظهر البطيخ الصيفى والتوت ، ويقلع البطاطس الشتوى ، ويزرع فيه الأرز والفلفل شتلا .

### شهر بشنس :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ، ويحصد البصل بالوجه البحرى ، ويزرع فيه السمسم والقلقاس .

### شهر بؤونة :

يزرع فيه الأرز والذرة الشامى ، ويقطف عسل النحل ، وتظهر الفاصوليا والقرع والكوسة ، ويظهر العنب والخوخ والكمثرى .

### شهر ابيب :

يزرع فيه الجرجير والكرفس والسلق والبقدونس والباذنجان الأسود والجوافة والتوت والخرشوف والباميا والملوخية ، ويظهر الرمان .

## شهر مسرى :

ينضج فيه البلح ، ويزرع فيه بصل النرجس والثوم والبصل والطماطم واللفت النيلى ، ويكثر فيه العنب والتين ، ويجمع الزيتون الأخضر .

\*\*\*

## الدولة الرومانية والتقويم المصرى :

ألقى يوليوس قيصر استخدام التقويم بالسنة القمرية الذى كان شائعا فى الدولة الرومانية وأنشأ تقويما شمسيا استعان فيه بالفلكى المصرى سوسيجينيس Sosigenes الذى قدر سنة التقويم ٣٦٥ يوما وربعا . واستخدم طريقة السنة الكبيسة مرة كل أربعة أعوام . وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم رسميا فى سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهى سنة ٤٦ ق . م وسمى هذا التقويم باليوليانى نسبة الى يوليوس قيصر . واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة ١٥٨٢ حين لاحظ الفلكيون فى عهد بابا روما جريجوريوس الثالث عشر خطأ فى الحساب الشمسى وأن الفرق بين السنة المعمول بها والحساب الحقيقى ١١ دقيقة و ١٤ ثانية وهذا الفرق اليسير يعادل يوما فى كل ١٢٨ عاما .

وصحح البابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فأصبح يوم ٥ أكتوبر من سنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ وهو التقويم المعروف بالجريجورى السائد الآن .

\*\*\*

## تطور التقويم المصرى الى القبطى :

حدد المصريون المسيحيون بدء تاريخهم بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذى استشهد فيه الكثير منهم ، وذلك بنفس التقويم الذى استخدم فى مصر قبل ذلك التاريخ ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصرى بالتقويم القبطى ويطلق عليه تقويم الشهداء . وهو يتبع الحساب اليوليانى ، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليوليانى والحساب الجريجورى قد بلغ ١٣ يوما فى التقويم القبطى .

\*\*\*

## أغراض التقويم القبطى :

للتقويم القبطى غرضان : غرض يتبع الحساب الشمسى ، وهدفه احصاء الأيام والفصول والأعوام الشمسية الكاملة وتحديد ما جميعا بالنسبة لدورة الكرة الأرضية حول الشمس . والغرض الآخر يتبع الحساب القمرى ، وهدفه احصاء الدورات القمرية وتحديد موعد ظهور كل هلال جديد .

وقد زاد اهتمام المصرى بالحساب القمرى بعد دخول المسيحية مصر لأن عيد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التى تتصل بعيد القيامة تحدد بالدورة القمرية وتتصل بالدورة الشمسية .

\*\*\*

## التقويم القبطى القمري :

شمسية تعادل ٢٣٥ شهرا قمريا كاملا بغير

كسور .

واستخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادى ، وقد وضع قواعدها المعمول بها الى الآن البطريك الاسكندرى الانبا ديمتريوس الكرام وهو البطريك الثانى عشر وساعده فى وضعها الفلكى المصرى بطلميوس . وبهذا يحدد عيد القيامة ( الذى يليه شم النسيم ) ، بأنه الأحد اتالى للقمر الكامل الذى يلى الاعتدال الربيعى مباشرة .

وقد أخذ الغرييون حساب الايقطى وطبقوه على التقويم الرومانى اليولياني ، فاتفقت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطى حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الغرييون تقويمهم بالتعديل الجريجورى .

### الشهور القبطية :

والشهور القبطية كما تعرف الآن هى :

- توت ( سبتمبر - أكتوبر ) .
- بابة ( أكتوبر - نوفمبر ) .
- هاتور ( نوفمبر - ديسمبر ) .
- كيهك ( ديسمبر - يناير ) .
- طوبة ( يناير - فبراير ) .
- أمشير ( فبراير - مارس ) .
- برمهات ( مارس - أبريل ) .
- برمودة ( أبريل - مايو ) .
- بشنس ( مايو - يونية ) .

حين خطرت فكرة تسجيل الحوادث للانسان الأول أخذ يؤرخ بظهور القمر وبأوجهه . ولما تقدمت العلوم أخذ يبحث فى الاختلاف بين مدة دورة قمرية وبين أخرى ، وكذلك فى متوسط مدة الدورة القمرية ، والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد التالى تسمى شهرا قمريا . وقد يتغير طول الشهر القمري حتى يصل الفرق الى ٩ ساعات تقريبا . ولكن هناك دورة كاملة لحركة القمر فى الفضاء بالنسبة الينا تبلغ مدتها ١٨ر٦ سنة شمسية ، كما أن هناك متوسطا عاما لطول الشهر القمري فى الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويعتبر هذا المتوسط دقيقا ، ويمكن التنبؤ بمقتضاه عن الأهلة الجديدة وأوجه القمر لمدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما كاملا .

ومن هذا نشأت فكرة استخدام طول متوسط الشهر القمري لحساب ظهور القمر الجديد وأوجهه لمئات من السنين ، ويسمى ذلك بحساب الأبتقنطى ( ومعناه الحرفى : الباقي ) لأن هذا الحساب يشتمل على استعمال الباقي بعد عمليات حسابية متعددة . وقد بنى حساب التقويم القبطى القمري على قاعدة وضعها الفلكى «ميتون» فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى أن كل سنة

سنتهم يبدأ السنة القبطية ، وتوافق  
شهورهم مع الشهور القبطية .

ويسمى الأثيوبيون حساب سنتهم بعام  
الرحمة ، وهو التاريخ الذي كان سائدا في  
مصر في القرن الحادى عشر ، ويسمى بالسنة  
الميلادية الشرقية أو السنة الميلادية القبطية ،  
وهى تنقص ثمانى سنوات تقريبا عن التقويم  
الميلادى الغربى .

بؤونة ( يونية — يولية ) .

أيب ( يولية — أغسطس ) .

مصرى ( أغسطس — سبتمبر ) .

النسئ ( سبتمبر ) .

### التقويم الأثيوبى :

ومما هو جدير بالذكر أن التقويم  
الأثيوبى هو نفس التقويم القبطى . فقد أخذ  
الأثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، وبدأ

## ( ٥ ) الرهبنة

يهدفون من ذلك الى أن تسمو أرواحهم  
وتترهف نفوسهم فيستطيعوا التحكم فى  
الجسد وأهوائه ، والتحرر من مغريات العالم  
التي قد تستهوى الانسان بعيدا عن خالقه  
وتطمس القبس الالهى الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية  
قبل المسيحية كجماعات فقراء الهنود  
والاسينيين اليهود ، الا أن الرهبنة المصرية  
كانت اتجاها مسيحيا أصيلا غير متأثر بتلك  
الحركات النسكية السابقة عليها لاختلافها عنها فى  
الهدف والفلسفة والأسلوب . كما أن الرهبان  
الأول الذين أسسوا هذا الطريق لم تكن  
ظروفهم البيئية أو العلمية مما يمكنهم من  
الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى  
يقلدوها . بل خرجوا الى الصحارى بدافع  
من الروحانية والزهد كما توحى بهما الديانة  
المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياة  
القديس أنطونيوس .

### ١ - قيامها فى مصر

المصرى بطبيعته يميل الى التدين ،  
وتصبو صفوة المتدينين منهم الى حياة روحية  
أعمق ، وأصفى سريرة ، وأكثر صلة بالله .  
حياة تتوق الى الكمال والبر . ومن يصل به  
الحنين الروحى منهم الى درجة الهيام بالله ،  
يسعى الى التخلص من المشاغل العالمية  
والاهتمامات المادية ليتفرغ للخلوة والتأمل .

استمال سحر صحراء مصر محبى  
الفضيلة والكمال اليها : فساؤها الصافية  
المليئة بالنجوم تنطق بما وراءها من قوة مبدعة  
مترفقة ، وفضاؤها الشاسع يهيم فرص  
الحرية الطليقة ، وسكونها الشامل يساعد  
الانسان على تركيز أفكاره ومشاعره  
ووجدانه فى الله وأن يخلو اليه ويخضع أمامه .

وهكذا اندفع المصريون المسيحيون الى  
البرية لمغالبة الشر وللخلوة بالله . وكانوا

كبيرة تأثر بما جاء في الانجيل « اذا أردت أن تكون كاملا فاذهب بع كل ما لك وأعطه للفقراء وتعال فاتبعني » . فنفذ الآية حرفيا ووزع ثروته وتوحد في الصحراء وسكن أولا في مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر . وعاش حوالي عشرين سنة لا يرى وجه انسان وهو في نسك وصوم وصلاة وتأمل . ولما اشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم الى المعيشة مثله ، خرج اليهم وأرشدهم الى حياة الوحدة . وكان تلاميذه لا يعيشون في أديرة بل في مغارات منفردة في الجبل . وقد تتلمذ عليه القديس ايلارى مؤسس الرهبنة في فلسطين ، والقديسان آمون ومقاريوس مؤسسا الرهبنة في وادي النطرون ، والقديس بنوده أب أديرة الفيوم . كما تتلمذ عليه البطريك اثناسيوس وكثير من مؤسسى الرهبنة .

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى . وسمع به الفلاسفة فأتوا اليه يحاورونه ليروا مدى علمه فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان في عرف الكبرياء الرومانية أميا لعدم دراسته اليونانية واللاتينية .

ولما حل بالكنيسة اضطهاد مكسيميانوس نزل أنطونيوس الى الاسكندرية يخدم المستشعدين ويقويهم مشتتيا هو نفسه أن يستشهد . كما نزل ابان هرطقة أريوس يحذر الناس منها ، وكان لظهور هذا الشيخ

ومع انتشار المسيحية في مصر بدأت مظاهر النسك تنتشر رويدا رويدا . فقد سمع عن شخص يدعى فروتونيوس ( ١٣٨ — ١٦١ م ) رحل الى برية نيتريا ( وادي النطرون ) وفي صحبته سبعون مسيحيًا ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد .

وأغلب الظن أن الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة . فأصول الرهبنة في مصر بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس . ولم تكن في بدايتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة . وانما أخذت وضعها الثابت المعروف وصبغتها العلمية الواسعة النطاق ابتداء من الأنبا أنطونيوس .

### أطوار الرهبنة

مرت الرهبنة المصرية في أطوار مختلفة :

#### ١ - التوحد :

اذ كانت الرهبنة الأنطونية في عهدها الأول تنطوي على العزلة الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد . ولما كثر أتباع أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطورا بطيئا الى نوع متوسط من الرهبنة الاجتماعية .

#### والقديس أنطونيوس ( ٢٥٠ - ٣٥٦ م )

هو القديس العظيم الذى يلقبونه « أب جميع الرهبان » . ولد من أسرة غنية في الصعيد . ولما توفى والده تاركًا له ثروة

الناسك المتوحد أثره الكبير في تأييد  
البطيريك أثناسيوس .

وقد أرسل اليه الامبراطور قسطنطين  
وأولاده رسائل يطلبون فيها بركته فلم يرد  
عليهم الا بعد الحاح رهبانه الذين قال لهم  
« لا تتعجبوا ان كتب الينا امبراطور فهو  
انسان . ولكن الأعجب من ذلك أن الله كتب  
الشريعة للانسان » .

## ٢ - الرهنة الاجتماعية

أخذ الرهبان المتوحدون في تركيز  
صفوفهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء  
الروحيين ليتلمذوا على أب روحى اشتهر  
بالقداسة والعلم . مع احتفاظ كل منهم بحياة  
التوحد في مغارته أو قلايته المنعزلة عن  
جاره ، ولكن قلايهم كانت قريبة بعض القرب  
من بعضها وتقوم حول قلاية الأب الروحى .  
لذلك يسمى هذا النظام أيضا بنظام القلاى .  
وهو مرحلة متوسطة بين الرهنة الأنطونية  
والرهنة الديرية . وقاد هذا النظام القديس  
مقاريوس الكبير ، وكان مركزه برية شهيت .  
آى وادى النطرون بالصحراء الغربية .

والقديس مقاريوس ، هو مؤسس  
الرهنة في وادى النطرون في صحراء مصر  
الغربية . ولد سنة ٣٠٠ م من أبوين مصريين  
في احدى قرى مديرية المنوفية . وكان أبوه  
كاهنا . وقد رسم هو أيضا قسا ولكنه لم  
يشأ أن يتقلد هذه الرتبة لجه في حياة  
الوحدة . فبعد وفاة والديه وزع أمواله على

الفقراء وذهب الى وادى النطرون سنة  
٣٣٠ م حيث توحد هناك . ثم زار الأنبا  
أنطونيوس في الجبل الشرقى فألبسه الزى  
الرهبانى وزوده بنصائحه ورجع الى وادى  
النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل . ولم  
يكن هناك غيره في كل تلك البرية . وقد عاش  
الأب مقاريوس ستين سنة في الرهنة وتجمع  
حوله تلاميذ كثيرون فبنى لهم كنيستين في  
الموضع الحالى لديرى البرموس وأنبا  
مقاريوس بوادى النطرون . ومن أشهر  
تلاميذه أرسانيوس والأميران مكسيموس  
ودوماديوس .

والمدرسة الرهبانية التى ترعها مقاريوس  
هى نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التى  
تظهر فى رهنة أنطونيوس ، والحياة المشتركة  
التي تمثلها رهنة باخوميوس . فكان الرهبان  
يعيشون فى قلاى منفردة متباعدة ولكنهم  
يجتمعون مرة فى كل سبت ليشاركوا معا فى  
الصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن  
لهم أسوار ولا حصون . ولكن هذا النظام  
تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومى .  
أما من ثبت من اتباع هذا النظام على حب  
الوحدة فانهم انفصلوا منفردين فى مغارات  
حفروها فى الجبال . وفى سنة ٣٩٠ توفى الأب  
مقاريوس بعد أن عمر وادى النطرون بألاف  
الرهبان . وانقسمت هذه البرية الى أقسام  
مشهورة هى تتريا والأسقيط والقلاى ،  
وأصبحت البرية كلها معصورة معروفة .

### ٣ - الرهبنة الديرية (حياة الشركة)

ووضع القديس باخوميوس ( ٢٩٠ - ٣٤٨ م ) مجموعة قوانين يعيش بمقتضاها الرهبان في دير واحد هو عبارة عن كنيسة أو كنائس الدير تحيط بها قلالي الرهبان داخل سور واحد .

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر الاختياري - العفة والتبتل - الطاعة للمرشد الروحي . وهي مقسومات انكار الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية .

وكان يشترط على من يريد الانضمام الى الدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار . وكان الطعام يقدم للرهبان في قاعة المائدة مرتين في كل يوم ( في الظهر وفي المساء ) وكانوا يستمعون أثناء الأكل لأحد الاخوة يقرأ فصلا من الكتب المقدسة . وكانت الأعمال اليدوية في المؤسسات الباخومية اجبارية لفوائدها الروحية التي تشغل الراهب عن الشرود في أفكار لا توافقه . كما أنها وسيلة لكسب القوت الضروري لكي لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل راهب يعمل في المهنة التي يتقنها بجانب من تخصصوا في كتابة الكتب ونسخ المخطوطات .

وكان النظام الباخومي يهتم بالعلم ، ولهذا نظم باخوم للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة

والسادسة (١) من النهار للمبتدئين . ودرسا أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومي الأربعاء والجمعة في تفسير الكتب المقدسة . وكان حضورها اجباريا .

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى في النظام والحياة الراضية والسلام في وسط عالم منهار ملاء الفزع والفوضى ، وشمله القنوط والدمار . لذلك كان من الطبيعي أن يهرع اليها الناس بالآلاف والآلاف في عصر سادته الروح الدينية .

والانبا باخوميوس ، ولد حوالي سنة ٢٩٠ م في احدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين . والتحق في شبابه بجيش قسطنطين في حربه لمكسيميانوس . وحدث أن عسكرت فرقته في ضواحي اسنا فخرج أهالي البلدة من المسيحيين يحملون اليهم الطعام والشراب . فذهب باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس الى ابداء هذا العطف فقيل له أنهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم . فقال في نفسه « ان كانت هذه هي المسيحية فانتى نفسي - ان عدت سالما - سأصير مسيحيا » . ولما انتصر قسطنطين وسرح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية واعتقها .

ثم تتلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون ، وازداد في النسك والمعرفة حتى صار أبا

(١) حسب التوقيت الشرقي ( أى الساعات السادسة والتاسعة صباحا والثانية عشرة ظهرا بتوقيتنا الحالي ) .

من سوهاج وأخميم . أدخل الأنبا شنودة  
تعديلات على نظام الشركة الباخومي  
تصطبغ بالشدّة والنظام .

نشأ الأنبا شنودة في الصعيد من أسرة  
غنية . وكان في صغره يخرج مع رعاة غنم  
أيه فيعطيهم طعامه ويقضى اليوم كله صائما ،  
كما كان ينفرد أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف  
للصلاة . ولما تنبه والده الى ذلك دفع به الى  
خاله «بيجول» الذي كان رئيسا للدير الأبيض  
من سنة ٣٥٠ م فرسمه راهبا . وظل شنودة  
الصبي يرتفع في درجات العبادة ، ويكثر من  
الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحدة  
والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعا .  
وبعد وفاة خاله اتخبوه رئيسا للدير سنة  
٣٨٣ م ودامت رئاسته للدير ٦٦ عاما حتى  
توفى سنة ٤٥١ م ، وقد قارب المائة والعشرين  
من العمر .

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالي  
خمسآة آلاف ، وكان أيضا أبا لألف وثمانمائة  
راهبة . وقد كتب لهؤلاء الراهبات عددا  
وفيرا من الرسائل تتبين منها تفكيره السليم  
وتعمقه في الروحيات . واهتم بتثقيف رهبانه  
حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة . ووضع  
لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين  
القديس باخوميوس .

ولكنه كان في زعامته الشعبية يختلف عن  
باخوميوس في أمرين : فبينما ضمت أديرة  
باخوميوس أجناسا كثيرة اقتصر هو في

لكثيرين وأسس ديره الأول في طيبة واستخدم  
في تديره ما اعتاده من نظام العسكرية ومن  
طاعة ونسك في الرهينة . وكثر عدد المنضمين  
اليه حتى لم يسعهم الدير ، فأنشأ أديرة  
أخرى وصل عددها الى تسعة ، كما أنشأ  
ديرا للراهبات تحت رئاسة أخته . وقد ذكر  
« بلاديوس » أن رهبان باخوميوس بلغوا  
ثلاثة آلاف في حياته وأنهم بلغوا سنة ٤٢٠ م  
سبعة آلاف ، وقدرهم « كاسيان » بخمسة  
آلاف راهب ، وكانت أديرته تضم غير  
الأقباط رهبانا من اليونان والرومان  
والأحباش والسريان . وكان كل هذا العدد  
الضخم تحت إدارة حكيمة حازمة . وضع  
لهم باخوميوس قوانين في العبادة والعمل  
اليدوي والملبس والمسكن والمآكل وما يلزمهم  
في معيشتهم الديرية . واشترط في طالب  
الرهينة ان لم يكن يعرف القراءة والكتابة  
أن يتعلمها قبل رهينته ليتمكن من قراءة  
الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع  
للرهبان نظاما في الدراسة . وهكذا لم تساعد  
أديرته على محو الأمية فحسب ، بل كانت  
معاهد للتثقيف . وقد اتشرت قوانين  
باخوميوس في أرجاء العالم . ويعتبر هذا  
القديس مؤسس الحياة الديرية في الرهينة  
المسيحية كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام  
التوحد فيها .

٤ - نظام الأنبا شنوده : ( ٣٣٣ -

٤٥١ م ) بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب

ان المسافر من الاسكندرية الى أسوان في القرن الخامس والسادس لم يكن في حاجة الي أن يحمل زادا للطريق ، اذ يستطيع أن يتزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالي المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيل وصحراواته الشرقية والغربية .

ومن أهم المناطق التي تركزت فيها جماعات الرهبان :

- ١ - منطقة بسبير في الصعيد الأوسط .
- ٢ - منطقة جبل تتريا أو وادى النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنقسم الى ثلاثة مراكز رهبانية :
  - (أ) تتريا .
  - (ب) الاسقيط .
  - (ج) القلالي .

٣ - منطقة مريوط على الساحل الشمالى غرب الاسكندرية .

٤ - منطقة البهنسا وهى بالقرب من بنى سويف الحالية وكانت تعرف في العصر الرومانى باسم أوكسيرانخوس .

٥ - منطقة اتينوى بالقرب من ملوى .

٦ - منطقة ليكوس بالقرب من أسيوط .

٧ - منطقة سوهاج وأخميم (بانوبوليس) حيث أديرة الأنبا شنودة .

٨ - منطقة طيبة وهى منطقة واسعة في مديرية قنا حيث انتشرت أديرة باخوميوس .

ولم يبق من هذا العدد الضخم من الأديرة ، في وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة

أديرته على الأقباط . وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميعة . وبينما كانت كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط ، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون اليه في الآحاد والأعياد فيعظهم ويرشدهم . وكان الأنبا شنودة محبا لشعبه يقاسمهم أتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام والملوك ودعا للرفق بالفقراء .

وقد كان نشاطه محصورا في محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبى وبدع الموالد . كما سافر مع القديس كيرلس الى افسوس واشترك معه في محاربة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطى . فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه . وكانت كتاباته عملية صالحة للاستعمال المباشر . وكان كثير الانتاج مالكا لخاصية اللغة . وقد خلف لنا في جهاده الدينى والقومى الطويل تراثا أدبيا ضخما باللهجة الصعيدية التى لم يكن يكتب أو يخطب الا بها .

وما أن وصلت الرهينة الى هذه الأطوار والأنواع المتعددة حتى كانت الصحارى المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلى على الأخص ، قد امتلأت بالأديرة وقلالي النساك . وامتلأت بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل

مدارس أولية ( كتاب ) في قرى وادى النيل  
لتعليم أبناء الأقباط .

ان الجو الشاعرى الذى يحيط بالأديرة ،  
والهدوء الشامل الذى يعيش فيه الرهبان هياً  
لهم فرص التأليف والكتابة وبخاصة في  
العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدسة  
الى جانب الخبرات النسكية والروحية التى  
تعتبر من أعمق الدراسات النفسية .

وكان بكل دير مدرسة لنسخ المخطوطات  
بجانب جماعات النساخ التى عملت على  
نشر التراث الثقافى والدينى فى وقت لم تكن  
الطباعة قد عرفت فيه .

ويجمل « هرناك » آثار الرهبنة العلمية  
فى عبارة واحدة قائلاً « ان الفن والشعر  
والعلوم قد وجدت فى الرهبنة ، فبادىء  
حضارتنا تعتبر فصلاً من تاريخ الرهبنة » .

#### ٢ - الاجتماعية :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الفور  
فى نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطى ،  
فسادته موجة من الزهد والتقشف وأخذ  
يقتردى بالرهبان وينقل عنهم كثيراً من عاداتهم  
وأصوامهم . ولما اشتهرت فضائل الرهبان  
وذاع صيتها ، اختار الشعب قاداته الروحانيين  
من الرهبان ، وكانوا فى العصور الأولى  
يحملونهم قسراً الى المدن لتولى مناصب  
الأسقفية والبطريركية . ومن ذلك الحين كثرت  
الانطباعات الرهبانية فى حياة المجتمع القبطى .  
ان النماذج الحية للفضيلة والتقوى

قبطية مأهولة بالرهبان ، والباقي منها أطلال  
متروكة يؤمها الشعب فى الأعياد لاقامة  
القداسات ، منها أربعة فى وادى النظرون  
وهى : أديرة البراموس - السريان - الأنبا  
بيشوى - وأبو مقار ، وفى جنوب صحراء  
القيوم : دير الأنبا صموئيل ( القلمونى ) ،  
وفى جنوبه بالقرب من ديروط : الدير  
المحرق ، أما فى الصحراء الشرقية فيوجد  
دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا .  
ولليونان الأرثوذكس دير سانت كترين  
بالقرب من الطور فى شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجد خمسة أديرة  
للراهبان فى مصر القديمة ، وجارة زويلة ،  
وحارة الروم .

#### آثار الرهبنة :

##### ١ - التربوية

عندما أدت الاضطهادات والاضطرابات  
المتوالية الى ضعف مدرسة الاسكندرية  
اللاهوتية فى نهاية القرن السادس اتقلت  
القوى التربوية فى القطر المصرى من  
الاسكندرية الى الصحراء . فصارت الأديرة  
مركزاً تربوياً عظيماً لعلوم الكنيسة .

وقد اعتبرت الأديرة مخازن كنوز العلوم  
والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية . وهى  
التى قادت الحركة التربوية فى مصر خلال  
القرون الوسطى . فبجانب البحوث  
والدراسات التى تركزت داخل الأديرة ، فقد  
عهد أيضاً الى عدد من الرهبان فى انشاء

## ٢ - انتشارها في أنحاء العالم المسيحي

نشأت الرهبنة في مصر ففاح عبر الآباء المصريين في أرجاء العالم ، حتى شمله غيرهم ، واجتذب الى مصر جميع الذين طرق قلوبهم صوت الله ، فجاءوا الى هذا الوادى ليرتووا من نبع تعاليمهم الصافية وليقتدوا بسيرتهم العطرة .

فوفدت الى الصحارى المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحش واليونان والأرمن واللاتين ، وسكان شمال افريقية وغيرهم . وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم . وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات في العصور الوسطى حيث انتشر في رحابها نظام الأهم ، وأيضاً نظام الأروقة في الجامعة الأزهرية .

وتعتبر تعاليم الآباء المصريين من أكبر المفاخر التى جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمددين .

### ١ - فى الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس « ايلارى » الكبير ( هيلاريون ) فدرس الفلسفة في مدرسة الاسكندرية ثم تتلمذ للقديس أنطونيوس . فلما رجع الى فلسطين أسس الأديرة على النمط المصرى مستعينا ببعض الرهبان المصريين . وقد ابتدأ فى برارى غزة ومنها انتشرت الرهبنة الى المنطقة المحيطة بالأردن .

وانكار الذات التى تألقت فى حياة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ، ووصايا الدين ، أمور واقعية يمكن الوصول اليها ، وليست مجرد مثل عليا ، أو مبادئ نظرية يتخيلها الدين ، الأمر الذى ينصر قوى الخير فى المجتمع على قوى الشر ، فلا يبتلع اليأس الكثيرين فى موجات الانحلال والمادية والالحاد . بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد فى سبيل الفضيلة تشبهاً بهؤلاء العباد . ولعل هذا مما حفظ للمجتمع المصرى طابعه الدينى على مر العصور .

ثمة ظاهرة اجتماعية أخرى . فالمرضى والرازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتسبون التغذية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالايان ، وغمر السلام نفوسهم . لذلك كان الشعب يلجأ الى الرهبان يلتمس منهم تخفيف آلامه بصلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم وبقدوتهم التى كان لها أكبر الأثر فى تجديد الرجاء لمن يقصدونهم . كما كانت الأديرة أشبه بميناء السلام فى أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، اذ يجد اللاجئون اليها الأمن والدواء والطعام .

وعن ذلك قال « هرناك » المؤرخ الألماني :

« ان النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصور — حتى فى نظر الغرب — آباء ، ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية » .

وفي أواخر القرن الرابع جاء «بلاديوس»  
وزار مصر للمرة الأولى من سنة ٣٨٨ الى  
سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبان برية شهيت  
لدراسة الحياة النسكية ثم عاد الى بيت لحم  
ثم الى اورشليم ورسم أسقفاً لهلينوبوليس  
سنة ٤٠٠ م .

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر ، كتب  
حوالى سنة ٤٢٠ م تاريخاً عما رآه وسمعه  
من رهبان الأسقيط اشتهر باسم « بستان  
الرهبان » وكان هذا الكتاب سبباً لانتشار  
الرهبنة في جهات كثيرة من العالم .

ومن الذين أسسوا أديرة الموصل وطور  
عبدین ونصيين رهبان مصريون يبلغ  
عددهم حوالى السبعين ذهبوا من مصر مع  
راهب سريانى اسمه مار آيون ( القديس  
أوجين ) كان قد عاش في الأديرة القبطية  
بالصعيد .

واتسرت المسيحية في بقاع كثيرة من  
الشرق على أيدي المبشرين المصريين ، غذتها  
مصر بـمعلمين من مدرسة الاسكندرية  
اللاهوتية ثم والت الكنيسة القبطية العناية  
بها على أيدي الرهبان المصريين ، فكانوا هم  
الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديرة  
وتوسعوا في نشر المسيحية .

فقد نشروا المسيحية في ليبيا والخمس  
مدن الغربية (بتابوليس) . ويذكر يوسابيوس  
المؤرخ اسم باسيليوس أحد أساقفتها في أيام  
ديونيسيوس الاسكندري . ويستتج

« هرناك » من ذلك ومن وجود عدد من  
الابرشيات فيها أن الكنيسة هناك كانت في  
حالة منظمة في منتصف القرن الثالث .

ويذكر أوسابيوس القيصرى تبشير  
بنتينوس في الهند . ويظهر أن العلاقة بين  
الكنيسة المصرية والهند قد استمرت طويلاً ،  
اذ يذكر كتاب تاريخ البطاركة مجيء كاهن  
هندي الى مصر في أيام البطريرك سمعان  
الأول في أواخر القرن السابع يطلب منه  
سيامة أسقف للهند .

أما عن بلاد العرب فان هرناك يستند الى  
أوسابيوس في تأكيد زيارة أوريغانس للبلاد  
العربية وقيادته لمجمع في بصرى .

أما عن الحبشة ، فقد دخلت اليها  
المسيحية على يد فرومنتيوس في منتصف  
القرن الرابع الميلادى . وهو مصرى كان  
يتاجر في صور ويجوب البحار شمالاً وجنوباً .  
والاسم فرومنتيوس لفظ قبطى معناه رجل  
الله ( افرومى - انت - تىوس ) .

وقد اعتنق المسيحية أولاً ملك الحبشة  
وتبعه في ذلك رجال البلاط . ثم أخذت  
المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب . وكان  
دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة  
مخالفاً لما عهدناه في البلاد الأخرى حيث كانت  
تجد طريقها الى الشعب أولاً ثم يعتنقها رجال  
البلاط فالملك .

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر ، طلب من  
الأنبا اثناسيوس بطريرك الاسكندرية أن

يرسل أسقفا لرعاية المسيحيين في أثيوبيا ،  
وبعد أن تشاور اثناسيوس مع مجمع الأساقفة  
الأقباط قرروا سيامة فرومنتيوس نفسه  
وأرسلوه الى اكسوم عاصمة الحبشة في ذلك  
الوقت .

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونيا سنة  
٤٥١ ، التي رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة  
أثر في هجرة كثير من الرهبان الى مصر حيث  
وجدوا في أديرتها المزدهرة ملجأ لهم ، ومنهم  
من أخذ في الانتقال الى النوبة ومنها الى  
الحبشة ، تدفعهم غيرتهم على نشر الدين  
المسيحي بحسب مذهبهم ، بين أقوام لم  
يتطرق الجدل الديني اليهم ، وقد حدا بهم  
خوفهم من المذهب النسطوري الذي لم يكن  
له أتباع في مصر أو الحبشة ، الى ترجمة  
بعض الكتب في معارضة النسطورية مثل  
كتاب كيرلس استعدادا للطوارئ .

وكان بين الرهبان الذين وفدوا الى  
الحبشة واستقروا في أماكن متعددة من  
مقاطعة التيجرى تسعة عرفوا « بالتديسين  
التسعة » هم رسل نشر المسيحية في الحبشة  
الذين أسسوا الأديرة وثبتوا العقيدة .

وقد أخذت الأديرة في الحبشة تزدهر في  
القرنين السادس والسابع ، وأخذ الرهبان  
يتفرغون الى دراسة الرهينة وتفهمها معتمدين  
في ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية  
أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط  
في مصر .

ومنذ القرن الرابع والكنيسة المصرية  
ترسل مطرانا قبطيا كرئيس للكنيسة  
الأثيوبية ، وكان له فيها مكانة ممتازة .

### في السودان :

ذكر المؤرخ يوحنا الأفسسي انه في  
القرن السادس كان البطريرك القبطي  
ثيودوسيوس منيا في القسطنطينية . وفي هذه  
الأيام أرسل يوليانوس الى النوبة لتبشيرها  
بالمسيحية وذلك بمساعدة الامبراطورة  
تيودورة التي كانت تؤمن بمذهب الكنيسة  
المصرية على عكس زوجها الامبراطور  
يوستنيانوس الذي كان شديد الاضطهاد لهذا  
المذهب . فوصل يوليانوس الى النوبة حوالي  
٥٤٣ م وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك  
والعظماء فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية  
وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الامبراطور ،  
فلما وصلت بعثة الامبراطور بعد ذلك لم يقبل  
ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها في النوبة ،  
فعدت فاشلة .

وتوالت بعد ذلك البعثات التبشيرية  
قادمة من الكنيسة القبطية . وكان أشهر  
المبشرين الأقباط لونجينوس الذي خاطر  
بحياته ، وسار في رحلة طويلة مع الجبال  
المحاذية للبحر الأحمر حتى وصل الى مملكة  
علوة ( عند ملتقى أنهار العطرة والنيل  
الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب  
الخرطوم الحالية ) فبشرها بالمسيحية فأمنت  
بمذهب الكنيسة القبطية ، وقد حاول

الامبراطور أن يجرحهم الى مذهبه بالقوة فلم يتبعوه .

وقد ظلت الكنيسة المصرية ترسل أساقفة وكهنة الى النوبة وعلوة وكذلك الى مملكة أخرى تتوسطهما اسمها ماكرة اتحدت في القرن السابع مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة .

واستمرت المسيحية في النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك .

### ب - في الغرب :

واتسع أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذي وضعه اثناسيوس الرسولى بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع عن سيرة الانبا أنطونيوس . وكانت نسخة من هذه السيرة سببا في تجديد حياة القديس أوغسطينوس ( أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ) أسقف مدينة هبو بشمال أفريقيا ، وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية . ومن ناحية أخرى حمل اثناسيوس التعاليم الباخومية الى أوروبا الغربية في رحلتين .

وجاء القديس باسيليوس الكبير ( القرن الرابع ) - وهو يونانى - الى مصر وعاش عدة سنين في أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل نظامها واسترشد بقوانينها في الأديرة التي أسسها بجبل آثوس في بلاد اليونان .

وفي سنة ٤٠٤ م قام القديس جيروم ( هيرونيوس الايطالى ) بترجمة قوانين

باخوميوس الى اللاتينية فبادر الرهبان الايطاليون الى اتخاذها دستورا لهم .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كاسيانوس ( الراهب الفرنسى ) تراجم الآباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التي وضعوها وحاول جهده أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما في جنوب فرنسا ( بالقرب من مرسيليا ) . ثم ان نظام الديرية البندكتية ( نسبة الى القديس بندكت = المبارك ) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية في أوروبا انتشارا واسعا .

كما أثرت تعاليم باخوميوس في حركة الاصلاح الكلونى ، تلك الحركة الكبرى التي كان لها أثرها الدائم في توجيه المدنية في العصور الوسطى . كما تلتها الجماعات الرهبانية Templers=Templiers في القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وتبعتها في عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان ( نسبة للقديس فرانسيس الأسيى ) والدومينكان . فليس من العبث القول بأن تلك السلسلة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها في وحي باخوميوس المصرى . وبالتالي فان النهضة الأدبية الفكرية الأولى في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التي تقترن بقيام العلوم الانسانية ونشأة الجامعات في العصور الوسطى انما هي أثر من آثار تلك الهيئات الديرية التي يرجع تكوينها في الأصل الى عبقرية باخوميوس .

طبية ، ولا تزال قبورهم معروفة في مدينة  
« تريير » Trier

وفي جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط  
على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلاتان  
ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس  
وكان للأقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه  
على قبرص ورودس ، كما ذكر « برمستر » في  
بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية .

وذكر بتلر في مقدمة كتابه « عن الكنائس  
القبطية القديمة » ان المبشرين الأقباط وصلوا  
الى الجزر البريطانية وأنه يوجد الى يومنا  
هذا ببلدة أوليدة ديزرت بايرلندة قبور سبعة  
من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماءهم  
في الصلاة بكنيسة تلك الجهة .

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط  
الى سواحل فرنسا الجنوبية ، والى بلجيكا  
حيث يصف « هرنالك » كيف عمل الأنبا  
اثناسيوس وهو في منفاه في بلجيكا على نشر  
المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك . وفي  
سويسرا في مدينة زيورخ اشتهر شهداء أقباط  
ضمن الذين بشروا المدينة كما اشتهر في  
سويسرا القديس موريقى ( مورتس ) وأخته  
وارينا ، وهى التى وجهت اهتمام السويسريات  
الى العناية بنظافتهن ، وما زالت تصور هناك  
حاملة مشطا .

وفي ألمانيا استشهد سنة ٣٦٨ م حوالى  
ثلاثة آلاف من أبناء مصر العليا من فرقة

## فهرس

### أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطارقة الإسكندرية

من عصر ديوقليانوس الى دخول العرب

الباطرة	الحكام	بطارقة الاسكندرية
<b>الإباطرة الرومان :</b>		
ديوقليانوس (دقلديانوس) ٢٨٤ - ٣٠٥	ماركوس اوريليوس بعد أكتوبر سنة ٢٨٤ ديوجينيس قبل مارس سنة ٢٨٦ فلافيوس فاليريوس أكتوبر سنة ٢٨٧ بمبيانوس ١٥ سبتمبر سنة ٢٨٩ إيميليوس روستيكانوس (نائب الحاكم) في سنة ٢٩٨ إيليرس بوليوس ١٩ أغسطس سنة ٢٩٩ كلودديوس كولكيانوس ٢٨ فبراير سنة ٣٠٣ و ٢٩ مايو سنة ٣٠٦	ثيوفاس (تولفا) ٢٨٢ - ٣٠٠
جاليروس (جالاريوس) ٣٠٥ - ٣١١	أمونيوس ١٧ أغسطس سنة ٣١٢	بطرس الأول (خاتم الشهداء) ٣٠٠ - ٣١٠
ماكسيميان (مكسيميانوس) ٣٠٥ - ٣١٣		ارخيلاس (ارشلاوس) ٣١٠ - ٣١١
ليقينيوس (ليسينيوس) ٣١٣ - ٣٢٣		الكسندروس الأول ٣١٢ - ٣٢٦
<b>إباطرة العصر البيزنطى :</b>		
<u>أسرة قسطنطين</u>		
قسطنطين الأول ٣٢٣ - ٣٢٧	يوليوس يوليانوس ٨ يوليه سنة ٣٢٨ سبتيموس زينون ٦ أبريل سنة ٣٢٩ ماجنيانوس ١٩ أبريل سنة ٣٣٠ فلورنتيوس ١١ أبريل سنة ٣٣١ هيجينوس ٢ أبريل سنة ٣٣٢ باتيريوس ١٥ أبريل سنة ٣٣٣ فلافيوس فيلاجريوس ٧ أبريل سنة ٣٣٤ و ٣ أبريل سنة ٣٣٧	اثناسيوس الأول (الرسولى) ٣٢٦ - ٣٧٣
قسطنطيوس الثاني ٣٣٧ - ٣٦١	فلافيوس انطونيوس ثيودوروس سنة ٣٣٧ و ٢٨ مارس سنة ٣٣٨ فلافيوس فيلاجريوس سنة ٣٣٨ و ٣٠ مارس سنة ٣٤٠ لونجينوس ١٩ أبريل سنة ٣٤١ و ٢٧ مارس سنة ٣٤٣ بلاديسوس ١٥ أبريل سنة ٣٤٤	

الاباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندرية
	نسطوريوس ٧ أبريل سنة ٣٤٥ و ١٩ أبريل سنة ٣٥٢	
	سبستيانوس ١١ أبريل سنة ٣٥٣ و ٢٧ مارس سنة ٣٥٤	
	ماكسيموس ١٦ أبريل سنة ٣٥٥ و ٧ أبريل سنة ٣٥٦	
	كاتافرونيوس ١٠ يونية سنة ٣٥٦ و ٢٣ مارس سنة ٣٥٧	
	هرموجينس بارناسيوس سنة ٣٥٧ و ٤ أبريل سنة ٣٥٩	
	ايتاليكيانوس سنة ٣٥٩	
	فوستينوس سنة ٣٥٩ و ٨ أبريل سنة ٣٦١	
	جيرونتوس سنة ٣٦١ و ٣١ مارس ٣٦٢	
يوليانوس (المرتد) ٣٦٣ - ٣٦١	اكديكيوس اويجبوس يوليه سنة ٣٦٢ و ١٥ سبتمبر سنة ٣٦٣	
يوفيانوس (جوفيانوس) ٣٦٤ - ٣٦٣		
والنس (فالنس) ٣٦٤ - ٣٧٨	هيريس ٤ أبريل سنة ٣٦٤ ماكسيموس سنة ٣٦٤ فلافيانوس سنة ٣٦٤ و ٢١ يولية ٣٦٦ بروكوليانوس بعد ٢١ يولية سنة ٣٦٦ أول أبريل سنة ٣٦٧ فلافيوس يوتولبيوس ١٣ سبتمبر سنة ٣٦٧ و ٢٩ مارس سنة ٣٧٠ اويجبوس بلاديوس سنة ٣٧٠ و ١٧ أبريل سنة ٣٧١ ايليوس بلاديوس سنة ٣٧١ و سنة ٣٧٤	
اسرة ثيودوسيوس (ثاودوسيوس)		بطرس الثاني ٣٧٣ - ٣٨٠
ثيودوسيوس الأول (الأكبر) ٣٧٩ - ٣٩٥	هدريانوس سنة ٣٧٩ يوليوس يوليانوس ١٧ مارس سنة ٣٨٠ بلاديوس ١٤ مايو سنة ٣٨٢ هيباتيوس ٢٩ أبريل سنة ٣٨٣ و ٨ مايو سنة ٣٨٣ انطونيوس سنة ٣٨٣ اويتاتوس ٣ فبراير سنة ٣٨٤ فلورنتيوس ٢٠ ديسمبر سنة ٣٨٤ و ١٦ يونية سنة ٣٨٦ يوسيبوس سنة ٣٨٦ يولينوس ٣٠ نوفمبر سنة ٣٨٦ و سنة ٣٨٧ فلاقيوس اوليبوس ارييريوس ٣٠ أبريل سنة ٣٨٨ الكسندروس سنة ٣٨٩ و ١٨ فبراير ٣٩٠ أواجريوس ٣٩٠ و ١٦ يونية سنة ٣٩١ هيباتيوس ٩ أبريل سنة ٣٩٢ و ١٢ أبريل سنة ٣٩٢ بوتاموس ٥ مايو سنة ٣٩٢ و ٣٠ يولية سنة ٣٩٢ أواجريوس سنة ٣٩٣	ثيموثاوس الأول ٣٨٠ - ٣٨٤ ثيوفيلوس (ثاوفيلس) ٣٨٤ - ٤١٢

بطاركة الاسكندرية		الحكام	الاباطرة
ملكانيون	اقباط		
		جيتاديوس ٥ فبراير سنة ٣٩٦ ريم جديوس من ٢٠ - ٣٠ مارس سنة ٣٩٦ أرخيلاوس ١٧ يونية ٣٩٧ و ٢٦ نوفمبر سنة ٣٩٧ بنتاديوس ٤٠٣ - ٤٠٤ يوثاليوس ٤٠٤ - ٤٠٥	أركاديوس (أركاديوس) ٣٩٥ - ٤٠٨
	كسبريس الأول (الكبير) ٤١٢ - ٤٤٤	أوريستيس سنة ٤١٥	ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ - ٤٥٠
		كاليستوس ٧ سبتمبر سنة ٤٢٢ كليوباتر ٢٩ يناير سنة ٤٣٥ خرموسينوس ٢٥ يونية سنة ٤٤٣	
بروتيريوس ٤٥١ - ٤٥٧	ديستورس الأول ٤٤٤ - ٤٥٤	ثيودوروس سنة ٤٥١ فلوروس ٤٥٢	مرفيانوس ٤٥٠ - ٤٥٧  <u>أسرة ليو (لاون)</u>
تيموثاوس ٤٦٠ - ٤٧٥ و ٤٧٧ - ٤٨٢	تيموثاوس الثاني ٤٥٧ - ٤٦٠ و ٤٧٥ - ٤٧٧	الكسندروس ١٩ أغسطس سنة ٤٦٨ وأول سبتمبر سنة ٤٦٩	ليو الأول ٤٥٧ - ٤٧٤  ليو الثاني ٤٧٤
	بطرس الثالث ٤٧٧ - ٤٨٩	بويثوس سنة ٤٧٦ انثيميوس سنة ٤٧٧	زينون (المتعصب) ٤٧٤ - ٤٩١
يوحنا ٤٨٢	اثناسيوس الثاني ٤٩٠ - ٤٩٦	ثيوكتيستوس حوالي ٤٧٧ - ٤٧٨ ثيوغنوستوس سنة ٤٧٩ و ٤٨٢ برجاميوس سنة ٤٨٢ ابولونيوس سنة ٤٨٢ أرسينيوس سنة ٤٨٧	
	يوحنا الأول ٤٩٦ - ٥٠٥ يوحنا الثاني ٥٠٥ - ٥١٦	يوسطانيوس سنة ٥٠١ ثيودوسيوس سنة ٥١٦	انطاسيوس الأول ٤٩١ - ٥١٨  <u>أسرة يوستينيانوس</u>
	ديوستوروس الثاني ٥١٦ - ٥١٧	ديوستوروس حوالي سنة ٥٣٥	يوستينوس الأول (يوسطانيوس) ٥١٨ - ٥٢٧
بولس الثاني ٥٣٧ - ٥٣٩	تيموثاوس الثالث ٥١٧ - ٥٣٥		يوستينيانوس الأول (يوسطانيوس) ٥٢٧ - ٥٦٥

بطاركة الاسكندرية		الحكام	الاياطرة
ملكانيون	• آقباط		
زويل ٥٥١ - ٥٣٩	ثيودوسيوس الأول ( تاودوسيوس ) ٥٦٦ - ٥٣٥	روهون سنة ٥٣٨ ليبريوس حوالى سنة ٥٣٩ - ٥٤٢	
ابولليانوس ٥٧٠ - ٥٥١		يوحنا لاسار يون سنة ٥٤٢ هيفيستوس	
يوحنا الثاني ٥٨١ - ٥٧٠	بطرس الرابع ٥٧٨ - ٥٧٦	جرمانوس يوستينوس سنة ٥٦٦	يوستينوس الثاني ٥٧٨ - ٥٦٥
افلوغوس ٦٠٧ - ٥٨١	دميانوس ٦٠٥ - ٥٧٨	يوحنا بولس يوحنا ( للمرة الثانية ) قسطنطينوس ميناس سنة ٦٠٠	طير يوس ( طيار يوس ) ٥٨٢ - ٥٧٨ موريقيوس ( موريسيوس ) ٦٠٢ - ٥٨٢
ثيودوروس ٦٠٩ - ٦٠٧	انسطاسيوس ٦١٦ - ٦٠٤	بطرس يوستينوس سنة ٦٠٣ - ٦٠٢ يوحنا سنة ٦٠٩	فوقاس ( فوقا ) ٦١٠ - ٦٠٢
يوحنا الثالث ٦١٧ - ٦٠٩	اندرونيكوس ( اندرونيقوس ) ٦٢٣ - ٦١٦	نيقيتاس سنة ٦١٠	<u>اسرة هرقل</u> هرقل الأول ٦٤١ - ٦١٠
جيورجيس ٦٣١ - ٦٢١	بنيامين الأول ٦٦٢ - ٦٢٣	قوروس سنة ٦٣١ و سنة ٦٤٠	
قوروس سنة ٦٣١		ثيودوروس سنة ٤١٦	هرقل الثاني ٦٤١ هرقليون ٦٤١

القسم الثاني  
العصر الإسلامي



# تاريخ مصر

## من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون

بقلم الدكتور حسين مؤنس

### الفتح العربي لمصر

بناية المحدث الأمين على ذكر اسناده ، على ذكر من أخذوا عنهم الأخبار من الرجال . ولو درسنا مجموعة هؤلاء الرجال المذكورين في هذه الكتب ، لتبيننا أن الأخبار كلها ، أو الجانب الأكبر منها ، قد صدرت عن مدرسة من القصاص أو المهتمين بالتاريخ نشأت في مصر وعينت بهذا الفن ، و « صنعت » قصة الفتح التي نجدها بين أيدينا متفرقة في ذلك الحشد من كتب تاريخ مصر الذي يبدأ بابن عبد الحكم ويستمر حتى ابن اياس .

وقد آن الأوان لأن توضع هذه المدرسة كلها موضع البحث ، حتى تتبين القيمة الحقيقية لما لدينا من الأخبار . ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الدراسة ، وإنما يكفي أن نذكر أن ما لدينا من الأخبار لا يخرج في مصادره عن عدد قليل من الرجال معظمهم من تلاميذ الليث بن سعد ( ٩٤ - ١٧٥ / ٧١٢ - ٧٩١ ) ، والظاهر منهم ستة نستطيع القول بأنهم المسئولون عن أكبر

تبدو قصة الفتح العربي لمصر لمن يقرأها عند مؤرخي الاسلام - من ابن عبد الحكم الى ابن اياس - وكأنها نزهة عسكرية لم يصادف الجند العربي خلالها من الصعوبات الا شيئاً قليلاً جداً لا يقاس بما اعترض جيوش الاسلام في فتح الشام وفلسطين ، فضلا عن العراق والمغرب . لأن الرواة الذين اعتمد عليهم المؤرخون جميعاً بسطوا الأخبار وأجزوها على نحو أصبح من العسير معه تتبع الخطوات التي تم بها هذا الفتح العظيم الذي يعتبر من أهم الانتصارات العسكرية والسياسية التي ظفر بها العرب ابان عصر الفتوح الاسلامية .

وقد تعودنا أن نرد ما لدينا من أخبار هذا الفتح الى أصحاب المدونات التي وصلت اليها ، وهي كتب جلييلة القدر كتبها شيوخ من أهل الثقة أهمهم الواقدي وعبد الرحمن ابن عبد الحكم والبلاذري والكندي والطبري ، مع أن الأخبار التي يوردونها ليست لهم ، وإنما هم رواها ، وقد حرصوا ،

جانب مما لدينا من المعلومات عن فتح مصر وأخبارها حتى منتصف القرن الهجرى الثالث على الأقل ، وهم عبد الله بن عبد الحكم ( والد عبد الرحمن ) ( ١٥٥ - ٧٧١/٢١٤ ) ( ٨٢٩ - ) وعبد الله بن وهب ( توفى ١٩٧ / ٨١٢ ) وعبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح ( ١٤٤ - ٢١٩ / ٧٦١ - ٨٣٤ ) ويحيى بن بكير ( ١٥٤ - ٢٣١ / ٧٧٠ - ٨٤٥ ) وسعيد بن عفير ( ١٤٦ - ٢٢٦ / ٧٦٣ - ٨٤٠ ) .

وأهمهم جميعا عثمان بن صالح ، فان كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » يدور على روايته تقريبا ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم يروى عنه فقرة بعد فقرة ، فاذا استطرده وروى عن غيره عاد اليه يقول : « ثم رجع الى حديث عثمان بن صالح وغيره » . والنسخ التي وصلتنا من « فتوح مصر والمغرب والأندلس » كلها برواية على بن قنيد تلميذ ابن عبد الحكم ، وابن قنيد هذا هو أستاذ أبي عمر محمد بن يوسف الكندى ، وعنه أخذ هذا الأخير الحديث والأخبار ، أى أن عبد الحكم والكندى يلتقيان عند هذا الرجل ، فهو تلميذ الأول وراويته وأستاذ الثاني ومعلمه . وهذا يفسر لنا التشابه الشديد بين مادتي كتابيهما فيما يتصل بالفتح ، وينتهى بنا الى القول بأننا فى الواقع أمام رواية واحدة تنفق أصولها عند الاثنين ، ثم تختلف التفاصيل بعض الشيء هنا وهناك .

ولا فائدة والحالة هذه من الاجتهاد فى المقارنة ومقابلة الروايات بعضها على بعض ، فان الخطوط العريضة ، وهى التى تهمننا هنا ، واحدة عند الاثنين . بل ان جل أخبار الفتح الواردة عند البلاذرى منسوبة الى محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وهذا أخذها عن أستاذه ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن المدرسة المصرية التى ذكرناها ، وأخباره شديدة الشبه بأخبارها . وكذلك أخبار الطبرى ترجع أحيانا الى محمد بن سعد وأحيانا أخرى الى يونس بن عبد الأعلى ( توفى ٢٦٤ / ٨٧٧ ) وهو من شيوخ المدرسة المصرية ، وهو جد أبى سعيد بن يونس المؤرخ المصرى المعروف .

والخلاصة أن ما لدينا من أخبار مصر فى شتى المراجع يعود فى الأصل الى أصل واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين ، بل صنع فى مكان واحد هو القسطنطينية ، وفى فترة محددة هى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . ومن رجال هذه المدرسة من هو ضعيف مشكوك فى أخباره كعبد الله بن لهيعة ( توفى ١٧٤ / ٧٩٠ ) الذى سخر منه معاصروه وسموه أبا خريطة ، ولا يشفع لأخباره أنه ينسب بعضها الى أبى الأسود النضر بن عبد الجبار ( توفى ٢١٩ / ٨٣٤ ) ، وفيه الحجة الثابت كاللثب بن سعد ، وجلهم من المصريين مولدا وموطنا ، حتى غير المصريين

وقد أثنى المؤرخون جهدا عظيما في البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن ينتهوا الى نتيجة تطمئن اليها النفس ، وذهبوا يلتمسون ضوءا فيما كتبه مؤرخو الأقباط مثل ساويرس أسقف الأشمونين المعروف بابن المقفع وسعيد بن بطريق المعروف بأوتينا وأبى صالح الأرمني وجرس المكين ، فاذا بمعظم أخبارهم منقولة عن الأصول العربية نفسها . ثم التمسوا المعونة من مؤرخي البيزنطيين أنفسهم مثل سيبيوس مؤرخ هرقل وتيوفانس صاحب المدونة المعروفة بالتاريخ Chronographia فلم يجدوا لديهم الا اشارات لا تغنى ، فعادوا الى الخطوط الرئيسية الأولى التي وضعتها أصحاب الروايات الاسلامية الأولى ، ووقف الأمر عند ذلك . ولا بد من تحقيق شخصية المقوقس مثلا قبل المضي في هذا البحث ، فهو في رأينا مفتاح موضوع فتح العرب لمصر ، اذا عرفنا من هو وما هو دوره بدت لنا قصة الفتح تحت ضوء جديد .

وقد حاول ألفريد بظفر في كتابه المعروف عن الفتح العربي لمصر أن يحل بعض هذه

(٢) انظر : ألفريد بظفر ، « فتح العرب لمصر » ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ص ٤٥٢ وما يليها ومناقشة الأستاذ محمود عكوش في كتابه « مصر في عهد الاسلام » ، القاهرة ١٩٤١ ، ومادة المقوقس بقلم أدولف جروهمان في دائرة المعارف الاسلامية .

منهم كالواقدي أتوا الى مصر ليأخذوا الأخبار عن شيوخها (١) .

فاذا كانت هذه هي أصول ما لدينا من أخبار الفتح ، فاننا لا نتظر أن يكون بين ما لدينا من هذه الأخبار اختلاف يعين على كشف حقيقة أو حل معضلة ، فكلهم يقولون شيئا واحدا تقريبا ، ويروون الأخبار على نسق واحد ويتفقون فيما يوردون من أسماء الأعلام ، ومعظمها مبهم لم يجد الباحثون له تفسيراً ، كقولهم « المقوقس » و « الأعرج » و « أبا ميامين » و « أبا مريم الجاثليق » و « أبا مريام الأسقف » و « الأربطون » ومن اليهم .

(١) بالاضافة الى المراجع العربية المذكورة في المتن ، انظر عن هذه المدرسة المصرية :

مقدمة روفن جست RHUVON GUEST لطبعته لكتاب القضاة وكتاب الولاة للكندي ، لايدن ١٩١٢ صفحات ٢٢ - ٢٤ . ومقدمة تشارلز توري CH. TORREY لطبعته لفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، نيويهيغن ١٩٢٢ .

R. Dozy. Recherches ... 3e éd. I, 26 sqq.

ومادة الواقدي في دائرة المعارف الاسلامية بقلم هوروثنز ، ومادتي ابن عبد الحكم بقلم توري والكندي بقلم بروكلمان في نفس الدائرة ، ومقال الدكتور محمود علي مكي :

Egipto y los origines y la historiografia arabigo-espanola

في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديرية ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٨ .

وانظر أيضا :

الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ، عصر الولاة ١٩٤٥ ، ص ٦٨ وما يليها .

Albert Gateau. Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne par Ibn Abd al-Hakam ( 2e éd. Alger, 1934) n. ١٢ sqq.

يسميه المقریزی « الهامواك » والواقدي « الهاميراك » ، يقال انه كان من أخوال المقوقس وكان على دمياط ، وقاتل المسلمين مع واحد من أولاده فقتل ابنه واستأمن هو ، ولحق ابن آخر له اسمه شطا بالمسلمين وأسلم ، وخرج الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مددا للمسلمين ، وسار بهم لفتح تيس ، وقاتل حتى قتل ، وقبره باق الى الآن في دمياط ، وهو معدود في أوليائها وصالحها . وذكر المؤرخون كذلك أبا للمقوقس يسمى أندراوس وبننا تسمى ثوليّة عشر الباحثون على قبرها ، وابنين يسمى أحدهما أرسطوليس ، بل ذكروا زوجه وقالوا انه كان لها شأن في ضواحي الاسكندرية ، هذا بالاضافة الى ابنته أمانوسة ذات الخبر المشهور .

وقد يكون في ذلك كله زيادات أضافها القصاص ، ولكننا لا نسرف في القول اذا ذهبنا الى أنها تدل على أن المقوقس كان قبطيا من أهل مصر ، وأن بيته كان معروفا منتشرا للأفراد ، فكيف يقال مع ذلك أنه هو « قيرس » أسقف فازيس الذي بعثه الامبراطور هرقل سنة ٦٣١ الى مصر لكي يعمل على القضاء على معارضة أقباطها للمذهب الرسمي للدولة البيزنطية ؟ لقد ذهب العلماء مذاهب شتى في البحث عن أصل هذا الاسم الذي نجده في المراجع

المشكلات ، فلم يخرج الا بنتيجة واحدة قبلها الناس زمانا ، ولكنها الآن موضع شك كبير ، ونعني بذلك قوله ان المقوقس هو « قيرس » ، ولم يستند في ذلك القول الا الى عبارات تحتل أكثر من تفسير وجدها عند ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين وفي نص « حياة الراهب شنودة » الذي نشره أميلينو وقصة « أبا صمويل القلموني » ، وكل هذه النصوص — فيما عدا قصة صمويل القلموني — تذكر قيرس دون أن تشير الى المقوقس أو تذكر اسمه ، كأن لفظ المقوقس هذا خاص بمؤرخي العرب وحدهم لم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون . وحيث أننا لا نجد ما يقابله من الأسماء عند هؤلاء ، فانه يغلب على الظن أنه لقب أطلقه العرب على شخص معين ، وليس ذلك بغريب ، فقد أطلقوا على رئيس حامية حصن بابلون لقب « الأعيرج » ، وسما القائد البيزنطي في افريقية « جرجير » مع أن اسمه الحقيقي « جريجوريوس » ، ولو أن المقوقس هذا كان هو قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية ، أو واحد منها على الأقل .

فاذا نحن مضينا في البحث وجدنا أولا أن المقوقس يوصف بأنه عظيم القبط ، ولو أنه كان عامل مصر من قبيل البيزنطيين لما وصف بذلك . وثانيا نلاحظ أنه كانت له في مصر أسرة كثيرة الأفراد متفرقين في نواحيها ، تذكر المراجع العربية منهم رجلا

العربية ، وأقرب الآراء الى القبول ما ذهب اليه أميلينو من أن العرب حرفوه من لفظ « كاوخوس » القبطى ومعناه الكافر ، فلعل أنصار البيزنطيين أطلقوا عليه هذا الوصف نظرا لمعارضته لسياسة الدولة ومذهبها وميله الى التفاهم مع العرب ، وغنم أخذه هؤلاء وحرفوه الى الصورة التى وصلت الينا .

أما اسمه الحقيقى كما يرد فى النصوص العربية فهو « جريج » ، وهو تصغير جيورجىوس أو جرجس ، وهو ابن مينا أو متى أو ابن فرقب أو قرقب وما الى ذلك من الصور التى تتوارد فى النصوص العربية . أما عن وظيفته فيقول البلاذرى انه « صاحب مصر » ، ويقول المقرئى فى « الخطط » انه كان « أميرا على مصر » ، ويردد هذا القول ابن دقماق فى « الانتصار » ، ويذهب ابن عبد الحكيم وجرجس المكين الى أنه كان « عاملا على مصر » ، ويقول ابن حجر انه كان « أمير القبط بمصر » ، وأوتيا انه « عامل على الخراج بمصر » . وليس فى هذه الاشارات كلها ما يدل على أنه كان بطريق مصر أو رئيس كنيستها ، أو الأسقف المعين من القسطنطينية .

ثم ان المراجع العربية تذهب الى أن المقوقس هذا هو نفس المقوقس الذى أرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن أبى بلتعة فى السنة السادسة للهجرة ، أى قبل سير العرب الى مصر باثنى

عشر عاما ، وقد نفى كثير من المستشرقين أن يكون الرجلان شخصا واحدا ، لأن مصر كانت فى سنة ٦ هـ / ٦٢٧ خاضعة للفرس ، بل ذهب بعضهم الى انكار الرسالة جملة ، غير أن اشارة عابرة لمؤرخ متأخر هو المنوفى صاحب « كتاب لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » ( القاهرة ١٣٠٠ هـ ) ربما فسرت لنا هذه الناحية ، فهى تقول ان صاحب الأمر فى مصر أيام الرسول ( صلعم ) وأبى بكر وعمر حتى فتح مصر كان المقوقس . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول ان المقوقس هذا كان كبير أقباط مصر ، وربما كان يتولى بعض شؤون الحكومة ، فلما دخلها الفرس واختفى رجال الدولة البيزنطية تولى هو الأمر تحت اشراف الفرس ، وفى أيامهم أتى مصر رسول النبى ( صلعم ) فلم يجد من يتحدث اليه الا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ورد ردا لطيفا وبعث بهديته المعروفة الى النبى .

فلما استعاد هرقل مصر ورجع اليها الروم وجدوا هذا الرجل قابضا على أزمة الأمور المالية والادارية فتركوه على هذه الناحية ، لأنه لم يكن يهمهم من مصر اذ ذلك الا الجباية وكان الرجل بها خبيرا ، واكتفوا بارسال قواد عسكريين لبابلون والاسكندرية ، ثم أرسلوا الأسقف قيرس ليعالج الخلاف المذهبى بين الأقباط والبيزنطيين ، فأساء قيرس الى المصريين ونفر

منه المصريون وعلى رأسهم المقوقس ، وأصبح هذا الأخير مستعدا للتفاهم مع أى قوة يمكن أن تخلص الأقباط من اضطهاد البيزنطيين . فلما أقبل العرب وتخاذل البيزنطيون وتوزعت جهودهم وتوالت عليهم الهزائم تصدى المقوقس لايجاد المخرج ، وتكلم مع العرب باسم الأقباط دون البيزنطيين ، وكانت هناك فرق قبطية فى الجيش البيزنطى المدافع عن مصر ، فائتمرت بأمره وانضم اليه الرهبان ومن اليهم من أهل البلاد ، وعرف الرجل كيف يحصل من العرب على عهد يؤمن القبط على عقيدتهم وأموالهم ، فكانت نتيجة ذلك دخول مصر فى طاعة العرب .

وقد وقفنا طويلا أمام مشكلة المقوقس لأن حلها يفسر قصة الفتح كلها ويعطينا من الكلام الكثير فى مشاكل الفتح التى اقتضت من ألفريد بطر جهدا عظيما ، ليحلها ، ولم يفلح مع ذلك ، لأن نقطة البداية ، وهى القول بأن المقوقس هو قيرس لم تكن سليمة ، فلم تكن النتائج سليمة تبعا لذلك . أما قولنا ان المقوقس كان زعيم القبط ، وأنه كان يتجه وجهة أخرى غير وجهة الروم فيجعل قصة الفتح مفهومة ، ويفسر السبب فيما قلناه من أنها كانت أشبه بنزهة عسكرية . وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه كانت فى مصر قبيل الفتح قوتان متنازعتان متعاديتان : القبط فى ناحية والبيزنطيون فى

ناحية أخرى ، ويمثل القبط المقوقس وفرق من جنود القبط كانت مشتركة فى الجيش البيزنطى وعدد كبير من الرهبان ورجال الكنيسة ثم بقية أهل البلاد ، وكلهم على المذهب المونوفيزى القريب من توحيد الاسلام ، وفى ناحية أخرى نجد البيزنطيين تمثلهم حاميات من الجند فى المعامل والحصون والمسالح وخاصة فى الاسكندرية ، وعلى رأس كل حامية قائد محلى ، ويمثل السلطان البيزنطى كله قيرس الذى أقامه هرقل بطر كالمصر وأطلق يده فى شؤونها .

وهذا المذهب الذى نذهب اليه يحل اشكالا آخر أوقع المؤرخين المحدثين فيه قولهم ان قيرس هو المقوقس ، لأنهم يقولون ان قيرس هذا أتى الى مصر ، وهو غريب عنها ولا عزوة له فيها ، لينفذ سياسة هرقل ، فبدأ يستميل الأقباط بالحسنى ، فلما فشل انقلب عليهم وأخذ يضطهدهم ، مما يدل على عصبية البيزنطية ، فلا يكاد العرب يطرقون أبواب مصر حتى نجده ينقلب على البيزنطيين ويسعى فى اخراج مصر من أيديهم ، ويتزعم الأقباط الذين كان يضطهدهم الى ذلك الحين . وهذه كلها قضايا لا يستقيم بعضها مع بعض . ورواية الأحداث على هذا النسق تجعل قصة الفتح غير منسجمة ولا متصلة الحلقات ، وهذا هو الذى يخرج به القارىء من كتاب ألفريد بطر على طوله وعرضه .

العربية ، وهى مشاكل لا تتصل بصلب الموضوع ، ولكن لا مفر من التعرض لها ، أهمها - فيما يتصل بالبداية - رفض عمر بن الخطاب الاذن لعمر بن العاص فى السير

فاذا بدأنا من هذه النقطة ومضينا نقتص قصة الفتح تعرضنا من أول الأمر لمشاكل من النوع الذى تعودت أن تخلقه الروايات

- : البيان والاعراب عما يارض مصر من الأعراب ، القاهرة ١٣٥٦ .
- : اغانة الأمة بكشف الغمة ، طبعة زيادة والشيال ، القاهرة ١٩٤٠ .
- : اتعاط الحنفا ، الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .
- اليقوي : تاريخ ، طبعه هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ جزءان .
- أبو المحاسن بن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، ج ١ و ٢ سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ .
- جرجس بن العميد ( المعروف بالمكنين ) : تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥
- Alfred J. Butler. *The Arab conquest of Egypt*. Oxford, 1902
- وقد رجعنا الى ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد بعنوان « فتح العرب لمصر » ، القاهرة ١٩٣٣ .
- : *The treaty of Misr*. Oxford, 1913.
- Leone Caetani : *Annali dell'Islam*. T. IV, V. Milano, 1911-1912.
- E. Amélineau : *Etudes sur le christianisme en Egypte*. Paris, 1887.
- Lane-Poole : *A history of Egypt in the Middle-Ages*. London, 1925.
- Gaston Viet : *L'Egypte arabe*. Vol. IV de Histoire de la Nation Egyptienne. Paris, 1937
- : *L'Egypte Musulmane*. Vol. II du Précis de l'histoire d'Egypte. Le Caire.
- سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ .
- محمود عكوش : مصر فى عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤١ .

- (١) عن فتح العرب لمصر ، انظر : ابن عبد الحـكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة تورى ، نيويهيغن ١٩٢٢ ، وطبعة هنرى ماسيه ، عن فتح مصر فقط (المعهد الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة ١٩١٤ ) ، وطبعة أليير جاتو ALBERT GATEAU بعنوان : فتوح افريقية والأندلس ، الطبعة الثانية ، الجزائر ١٩٤٣ .
- الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبعة روثن جست ( سلسلة جيب التذكارية ) بيروت ١٩٠٨ .
- البلادى : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٩ .
- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ، ج ٣
- حنا النقيوسى : مدونة حنا أسقف نقيوس Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte éthiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques, tome 1, Paris, 1883).
- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ج ٢ و ٣ .
- ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطارقة ، ج ١ ، ٤ ، ١٠ من مجموعة Patrologia Orientalia باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥
- ابن سعد ( كاتب الواقدى ) : الطبقات الكبرى ، ظهر منه ٨ كراسات ليدن ١٩٠٥ - ١٩٢١ . وطبعة بيروت ( كاملة ) سنة ١٩٥٧ .
- سعيد بن بطريق ( المعروف بأوتينا ) : كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان ، بيروت ١٩٠٥ - ١٩٠٩ .
- المقرئى : المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ فى مجلدين

اليه المؤرخ ، وهو أن عمر بن الخطاب كان رأيه قد استقر على فتح مصر ولكنه لم يكن قد اطمأن بعد الى عمرو بن العاص وقدرته على القيام بهذا العمل العظيم . ولكي نفهم هذا ينبغي أن نذكر أن عمرو بن العاص لم يكن اذ ذاك قد قرر مكاتته كقائد من أعظم قواد الاسلام ، ولم يكن ليقاس — في رأى عمر — بكبار قواد الدولة الذين تولوا فتوح الشام والعراق ، وكان عمر بن الخطاب لا يستريح اليه ، فتردد عمر لم يكن اذن في الفتح في ذاته ، وانما في شخصية الفاتح ، ويبدو من مجموع الروايات أن عمر وافق نصفك راغب ، وربما كان يفكر في اختيار قائد آخر ، وهذا أحسن — هو موضوع الكتاب الذى قال لعمرو انه سيرسله اليه أو الذى أرسله اليه فعلا .

على أى الأحوال أسرع عمرو نحو مصر، وينبغي أن نذكر هنا شيئا لا يشير اليه المؤرخون مع عظيم أهميته ، وهو أن المناطق المسيحية المتسدة من جنوبي فلسطين الى أطراف الدلتا كانت تعمرها قبائل عربية كثيرة معظمها من بطون قضاة وخاصة الضجاعم منهم . وفي نواحي العريش كانت منازل بنى راشدة وقبائل أخرى من لحم وجذام ، وكانت في شبه جزيرة سيناء والناحية الشرقية للدلتا وصحراء مصر الغربية مواطن لقبائل عربية كثيرة . وينبغي أن نذكر أيضا أن هذه النواحي لم تكن اذ ذاك قاحلة على الصورة

الى مصر ، ثم موافقته على كرهه منه وتعليقه الأمر بخطاب يرسله اليه ، فان بلغه قبل حدود مصر ارتد عنها والا سار في طريقه ، وهى قصة لا تتفق مع طبيعة عمر بن الخطاب أو مسلكه في سياسة أمور الدولة . ولو أن عمر استؤذن في فتح مصر وهو بالمدينة لكان من الممكن أن نصدق هذا الأخذ والرد الذى تطيل فيه المراجع في هذه المناسبة ، فقد حدث مثل ذلك عندما أراد العرب فتح المغرب على أيام عثمان ، ولكن عمر بن الخطاب فوتح في فتح مصر وهو مجتمع مع قواده ورجاله في الجابية جنوبى دمشق سنة ١٧/٦٣٨ ، وناقش عمر مع رجاله في ذلك المؤتمر — الأول من نوعه في تاريخ الاسلام — تنظيم ما فتح من البلاد والخطط التى يجرى عليها المسلمون فيما يلى ذلك من خطوات التوسع . وقد أحاط عمر اذ ذاك بالموقف تماما ، ووضع الخطوط الرئيسية لما سيعقب فتح فلسطين من الفتوح ، فالتقول بأن عمرا خاطب عمر في الأمر فيما بينه وبينه وأخذ يحسن له فتح مصر ويهون عليه أمرها ، أو أن عمرا حاصر قيسارية ثم خلف ابنه عليها وسار الى مصر من تلقاء نفسه ، فغضب عمر لذلك وكتب اليه يعنفه ويأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر ، أو أن عمرا أمر رجاله بالتسلل ليلا ثم اتبعهم ، روايات أقرب الى القصص ، وربما استطعنا أن نخرج من مجموعها برأى وسط يستريح

يسمونها رينوكورورا Rhinocorura أو Rhinokolora - فاستولى عليها المسلمون دون جهد ( ١٠ ذو الحجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ م ) ثم تقدم عمرو بن العاص حتى وصل الى موضع أقصى حصون مصر البيزنطية شرقا عند بلدة الفرما (Pelusium) وهناك وقع أول التحام بين المسلمين وروم مصر ، واستمر القتال بينهم شهرا أو شهرين حتى اقتحمه المسلمون ( حوالي ١٢ محرم ١٩ هـ / ١٣ يناير ٦٤٠ م ) وأصبح الطريق أمامهم الى قلب الدلتا مفتوحا ، فلم يضع عمرو وقته واتجه بمن معه نحو بلبيس .

ولم يكن الجيش الذي مع عمرو بالكبير ، فقد كان عدده ، حسب أقوال الرواة ، يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة ، ولكننا نرجح أن أعدادا كبيرة من عرب جنوبي فلسطين وسينا وشرقي الدلتا انضمت الى ذلك الجيش ، لأننا نلاحظ أن خبر سقوط الفرما واتجاه العرب نحو الدلتا كان له رد فعل عنيف في البلاد ، ومن المستبعد أن يكون ذلك نتيجة دخول آلاف قليلة من العرب أرض مصر ، فقد كانت غارات القبائل العربية على أطراف مصر الشرقية أمرا عاديا ، ولو كان جيش عمرو بهذه القلة لما كان لدخوله هذا الصدى البعيد ، وسنلاحظ أن العرب بعد أن خاضوا معركة عين شمس وأقبلوا لحصار حصن بابليون كانت لديهم قوة عظيمة لا تتناسب مع بقية ثلاثة آلاف أو أربعة ، فلا بد أن

التي هي عليها اليسوم ، وانما كانت مناطق حشائش ترعاها الماشية ، وكانت عيون الماء فيها كثيرة ، وحول كل عين ما يشبه الواحة الصغيرة أو الكبيرة ، ودليلنا على ذلك ما تذكره أخبار العصر البيزنطي من أن صحراوى مصر الغربية والشرقية كانتا عامرتين بالديور والرهبان ، وكان الكثير من أولئك الرهبان نساكا متأبدين وخدمهم في الفيفاء يقضون عمرهم كله في سياحة دائمة ، ولا يتأتى هذا لو كانت هذه الصحارى محلا كما هي اليوم ، وهذا يفسر لنا مقام القبائل العربية الكثيرة في سينا وصحراوى مصر الشرقية والغربية ، ويفسر لنا أيضا كيف استطاع الجيش العربي ، دون أن يتزود بشيء كثير أن يخترق سينا دون جهد ، وأن يعبر بعد ذلك الصحراء من الاسكندرية الى برقة ، ومن برقة الى ما يعرف الآن بتونس ، ولو راجعنا ما كتبه جغرافي كأبي عبيد البكرى عن المنطقة الواقعة بين مصر وافريقية ( تونس اليوم ) لوجدنا الطريق حافلا بالآبار والعيون والواحات .

ولم يكن للبيزنطيين سلطان على هذه النواحي المعشبة كلها ، أى أن الجيش العربي سار من رفح حتى بلبيس على الأقل وسط بلاد يسكنها ويسيطر عليها عرب ، ليس للبيزنطيين فيها الا حاميات قليلة أهمها في العريش — وهو تعريب لاسمها القديم « لاريس » Laris ، وكان البيزنطيون

دولة ، وأن ملكهم انقطع ، ويأمر القبط بتلقى عمرو ، فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو أعوانا . وسواء أكتب بنيامين الى اخوانه القبط أم لم يكتب ، فقد حدد الأقباط موقفهم بعد سقوط الفرما وتبينتهم أن الصراع الحاسم على مصير بلدهم قد بدأ فمالوا مع العرب على الروم ، وكان هذا هو العامل الحاسم في تيسير أمر فتح مصر على العرب . ولم ينضم الأقباط الى العرب علانية بعد سقوط الفرما ، بل بعد سقوط حصن بابليون وفتح الفيوم كما يقول يوحنا النقيوسى ، أما موقفهم قبل ذلك فكان موقف المحايد الذى يرمى انصر العرب وزوال أمر الروم .

وقد وجد عمرو أنه لا يستطيع ترك قوة كبيرة فى الفرما لتخفظها ، وكان موقعها هاما من الناحية العسكرية ، فهى مفتاح الطريق من فلسطين الى مصر ، وخاف أن يعود الروم فيتحصنوا فيها ، فهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفعوا بها ، ثم اتجه جنوبا بشرق فاستولى على بليدة تسمى النواصر ، ومكانها الآن قرية الجعافرة بمركز فاقوس بمديرية الشرقية ، ثم وصل الى بلييس « لا يدافع الا بالأسر الخفيف » كما يقول ابن عبد الحكم . وفى بلييس التحم المسلمون مع حامية رومية قاتله رجالها نحو الشهر ، حتى انتصر عليهم واستولى على البلد . ويذهب القصاص الى أن عمرا وجد أرمافوس ابنه

آلانا أخرى من العرب تبعت الجيش الفاتح وانضمت الى صفوفه . وأبسط دليل على ذلك أسماء القبائل التى اتخذت لأنفسها خططا فى الفسطاط بعيد اختطاطها سنة ٢١ هجرية ، فان عدد هذه القبائل يزيد على اثنتين وثلاثين قبيلة ، غير أصحاب الراية الذين سيرد ذكرهم ، وكان عددهم كبيرا . فاذا فرضنا أن الذين دخلوا مع عمرو كانوا ٣٠٠٠ ، ثم انضم اليهم المدد الذى جاء مع عبد الله بن الزبير لكان المجموع تسعة آلاف ، أى بمعدل أقل من ٣٠٠ رجل من كل قبيلة ، وهذا العدد لا تكون له خطة أو قسم من مدينة ، فلا بد أن العدد كان أكثر من ذلك . وقد اقتصرنا فى هذا الحساب على من نزل الفسطاط ، ومن المعروف أن عربا آخرين كثيرين نزلوا الاسكندرية والجيزة ونواحي شتى من الدلتا .

على هذا الاعتبار نستطيع أن نفهم السبب فيما أحدثه سير هذه القوة العربية من رد فعل بعيد المدى فى البلاد . وقد ظهر رد الفعل هذا بصورة جلية فى موقف الأقباط ، اذ أدرك رؤساؤهم أن الأمر أكثر من اغارة بدوية ، وأن الزحف العربى الذى قضى على أمر الروم فى الشام وصل الى مصر ، فخرج الأبا بنيامين بطرك الأقباط الأسبق — الذى عزله هرقل واضطهده سابقا حتى اختفى نحو عشر سنوات قبل الفتح العربى — وكتب الى القبط يقول : « انه لا تكون للروم

حدودها البسيطة تأييدا لما ذهبنا اليه من أن القبط مالوا الى العرب بعد استيلائهم على الفرما ، فأحب عمرو أن يجامل زعيمهم باكرام ابنته .

### بابلون ومصر :

واتجه عمرو بعد ذلك نحو مركز القوة الفعلية البيزنطية في البلاد ، وكان هذا المركز مساحة عظيمة تمتد من موقع عين شمس الحالية الى الحصن المعروف باسم قصر الشمع ، وكانت هذه المساحة تضم عددا من القرى الصغيرة والحصون والأديرة والكنائس عرفت كلها باسم « مصر » . ولفظ مصر آرامي قديم ومعناه الحد أو الحدود ، أما اسم بلاد مصر عند أهلها الى ذلك الحين فكان « كيمي » أو « شيمي » أو « خيمي » ومعناه التربة الحمراء ، والعرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ « مصر » وأطلقوه على البلاد كلها . نقول ان هذا الموضع كان يضم قرى وكنائس وحصونا وبساتين . وهذه القرى بقايا مدن أو عواصم قديمة أنشئت على طول تاريخ مصر القديم في هذا الموضع ، وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة الحالية ، فيما عدا موقع منفيس القديمة ، فهو تابع الآن لبندر الجيزة . ونستنتج من توالى اتخاذ المدن والعواصم في هذا الموضع على اختلاف العصور أنه الموقع المثالي لحكم مصر والاشراف على الوجهين القبلى والبحرى .

وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الأسرة

المقوقس في بليس . وأصل القصة في « فتوح مصر » المنسوب الى الواقدي ، وهى في خطوطها الرئيسية ممكنة الوقوع : وجد العرب في بليس ابنة للمقوقس ، فأكرمها عمرو وبعث بها الى أبيها معززة ، ولكن خيال القصاص أضاف اليها اطارا روائيا ، فذهبوا الى أنها كانت قد خطبت الى قسطنطين بن هرقل ، فبعث بها أبوها و « جهزها بأموالها وجواربها وغلماها لتسير اليه ، حتى يبنى بها بمدينة قيسارية .. » الى آخر القصة التى نسج حولها ش . ه . بوتشر ثم جرجى زيدان قصتين طريفتين . وقد تفاها ألفريد بطلر بحجة أن المقوقس كان أسقفا فلا يمكن أن تكون له بنت ، وهى حجة واهية ، فلم يكن المقوقس كما رأينا أسقفا ، ولو فرض وكان فلم يكن في قوانين النصرانية اذ ذاك ما يحرم الزواج على رجال الدين ، لأن تحريم الزواج عليهم من النظم التى ابتدعها البابوات . ومثل ذلك يقال عن نفى بعض المستشرقين لاهداء المقوقس جاريتين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قالوا بذلك على أساس أن المسيحيين ، فضلا عن رجال الدين ، لا يجوز لهم أن يحرزوا الجوارى أو يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وهذه كلها دعاوى لا تقوم على أساس ، فان المسيحية الأولى لم تحرم تعدد الزوجات ولا اتخاذ الجوارى ، وانما جاء ذلك في زمن متأخر ، وقد قرره البابوات أيضا . وربما كان في قصة أرماتوسسة في

الثالثة ، عندما أنشأ الفرعنة منف واتخذوها عاصمة لهم ، وفي نفس الوقت عمّر الفرعنة موضعا آخر على الضفة الشرقية ، وهو بلدة أون ، التي عربها العرب الى عين شمس ، ولا زالت قائمة الى اليوم . والى جنوب عين شمس ، في مواجهة جزيرة الروضة ، قام حصن بابليون ، ويرجح أنه من انشاء المصريين القدماء ، وأن اسمه الأصلي بي — هابي — ن — أون Pi—Hapi—n—on . ويذهب شتايندورف الى أن هذا الاسم كان يطلق أولا على جزيرة الروضة ، وأن صورته الصحيحة بر — هابي — ن — أون Per—Hapi—n—on ومعناه جزيرة أون النيلية . وسواء أكانت هذه هي الصورة الصحيحة للاسم ، أم الصورة الأولى ، فانه تحرف الى بابليون . وقد أنكر ذلك كله بطر ، وذهب الى أن الحصن من انشاء البابليين عندما دخلوا مصر ، وهو منسوب اليهم . أما قول العرب أن تفسير الاسم بأنه باب — ليون فغير مقبول . وقد خلط المؤرخون والرحالة الأوربيون في العصور الوسطى بين بابليون وبابل Babylonia ، فأطلقوا اسم بابيلونيا على القاهرة ، بل على مصر كلها ، فكانوا يقولون سلطان بابيلونيا ، ويريدون سلطان مصر . أما المصريون فكانوا يطلقون على الحصن تسمية قريبة من قولنا قصر الشمع ، والأرجح أنه تحريف للفظي Castra Chemi أى حصن مصر . وقد علله بعض مؤرخي

العرب تعليقات شتى ، فذهب الواقدي برواية المقريزي ، الى أن هذا القصر كان « يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر ، فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذي حلت فيه الى برج غيره » .

وصل عمرو الى أول قرية من قرى منطقة مصر ، وهي قرية أم دنين ، وقد وردت عند يوحنا النقيوسي باسم تندونياس Tendunyas ، ومكانها اليوم المنطقة التي يقوم بها جامع المقس — ويعرف اليوم بمسجد أولاد عنان — وتصل حدودها الى فنطرة الدكة والدرب الابراهيمى ، وكانت بها حامية صغيرة ، تغلب العرب عليها دون صعوبة وملكوها ، وكان النيل يصل اذ ذاك الى حدود القرية ، وبهذا أصبح في أيديهم موقع حصين على النيل ، فحصنه عمرو وشكاه بالرجال ، واتجه نحو حصن بابليون ، وكان مركزا لجيش بيزنطى كبير يضم عددا عظيما من القبط ، وبدأ عمرو يهاجمه ، ثم تبين أنه لن يستطيع الاستيلاء عليه بمن معه من الجند القليل ، فبعث يطلب المدد من عمر بن الخطاب ، واكتفى بالتحصن في أم دنين وبالالتحام مع البيزنطيين في اشتباكات يسيرة . ويبدو أن عمرا ومن معه لقوا شدة كبيرة اذ ذاك ، فان الأزواد في المنطقة لم تكفهم ، ولهذا نجده يبعث بنفر من جنده في القوارب عبر النيل الى الضفة الغربية حيث ساروا بحذاء النيل نحو الجنوب حتى بلغوا

ليبدلوا أقصى ما يستطيعون ، حتى ضاق ذرعهم وصاح فيه رجل من أهل اليمن : « انا لم نخلق من حجارة أو حديد » فقال عمرو : « اسكت ، فانما أنت كلب » ، فرد الرجل : « فأنت أمير الكلاب » . وعالج عمرو الموقف بكياسته ، فلم يلق بالآ الى اجابة الرجل ، ونادى تقرا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا معه الوقائع ليستعين بهم على استنهاض همم المحاربين .

وعجل عمر بن الخطاب بارسال المدد الى عمرو بن العاص ، ويبدو أنه كان لا يزال يشك في قدرة عمرو على اتمام الفتح ففاتح الزبير بن العوام في توليته أمر الفتح . وقد روى الخبر البلاذري ، وقال ان عمر قال للزبير : « يا أبا عبد الله ، هل لك في ولاية مصر ؟ » فقال : « لا حاجة لى فيها ، ولكن أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا ، فان وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لعمله ، وقصدت الى بعض السواحل فرابطت به ، وان وجدته في جهاد كنت معه . فسار على ذلك » .

#### موقعة عين شمس ( بابليون ) والاستيلاء على الحصن :

وبين المؤرخين خلاف على عدة المدد الذى أرسله عمر ، فذهب بعضهم الى أنه كان أربعة آلاف ، وقال آخرون بل اثنا عشر ألفا . والمهم لدينا أنه كان مددا قويا عليه أربعة رجال أشداء هم الزبير بن العوام والمقداد بن

موضع منفيس ، ولم يكن لعمرو من غاية من وراء ذلك الا الحصول على مدد من الأقوات . وقد اختلط أمر هذه الغارة على بعض قدامى المؤرخين مثل حنا النقيوسى ، الذى زعم أن عمرا أرسل في ذلك الوقت حملة لفتح الفيوم ، وتابعه في ذلك بطر ، فذهب الى أن عمرا حاول فتح الفيوم في ذلك الحين ، وهو قول مستبعد ، لأنه لم يكن قد استولى على حصن بابليون ولم يقض على قوة الروم بعد ، والحقيقة ما قلناه ويؤيده قول السيوطى : ان عمرا بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل الى القرى التى حولها ، وبقيت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون شيئا عنها ، وسرى مصداق ذلك فيما يلى من الكلام .

ورأى عمرو ألا يظل مكانه في أم دين حتى يصل المدد ، فتقدم بمن معه نحو حصن بابليون وبدأ في حصاره . وكان الروم قد حفروا خندقا حول الحصن واستعدوا استعدادا طيبا ، وأسرع المقوقس الى بابليون ليكون على مقربة من الحوادث . وبدأ الحصار في جمادى الأولى ١٩ هـ / مايو ٦٤٠ م . ولقى المسلمون عناء شديدا ، فقد استبان الروم قلة عددهم حتى قال البلاذري ان عمرا كان « يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، فلما انتهى الى الخندق نادوه أن: قد رأينا ما صنعت ، وانما معك من أصحابك كذا وكذا ، فلم يخطئوا برجل واحد » . وأخذ عمرو يشتد على جنوده

عمرو « الأسود » وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد ، أو خارجة بن حذافة العدوى . وقد وصل هذا المدد في ٩ جمادى الآخرة / ٦ يونيو ٦٤٠ م وبعد وصوله مباشرة دخلت معركة حصن بابليون في دورها الحاسم .

ورأى عمرو أن يمهّد لهذه المعركة الحاسمة بالفصل بين الروم والأقباط فصلا تاما ، فاتصل برجلين من زعماء الأقباط هما أبو مريم جاثليق مصرأى رئيس رجال الدين من الأقباط — وكان معاديا لقيرس — والأسقف أبو مريام ، ويبدو أنه كان مقدما بين رجال الدين ، لأنه حضر في « أهل البيعات » أى القسس ، وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأقباط ، وعرض عليهما الإسلام وقال : « فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة » . وكان لكلامه أثر بعيد في نفسيهما ، فردا عليه ردا جميلا ، وعادا الى المقوقس ليستشيراه . وعندما علم رجال الحامية البيزنطية بذلك أنكروه وأضروا على القتال ، وتزعم ذلك الأريطيون ، وهو قائد بيزنطى اسمه الأصيلى أريتيون Ariteon كان مشتركا في حرب العرب في الشام ، فلما انهزم الروم اتجه الى مصر واشترك في دفاع العرب عنها .

وكان عمرو قد أعطى ممثلى القبط مهلة خمسة أيام للسرود عليه ، فاذا هو ينتظرهما فاجأه الروم بالهجوم ، فقاتلهم قتالا شديدا

حتى ردهم الى الحصن . وثبين عمرو أنه ما دام الروم وراء الأسوار فإن أمر الحصن سيطول ، وأنه لا بد من اخراجهم من حصنهم ومقابلتهم في معركة في الفضاء ، وعول على ذلك . وكانت سرايا الروم تخرج بين الحين والحين فتجول وتتوصل في المزارع والبساتين انواقعة بين الحصن والمعسكر الرئيسى العربى فى أم دنين ، فقرر أن يهاجم من يخرجون منهم هجوما مدبرا مرتبا يضطر آخرين منهم الى الخروج . فأرسل تحت جناح الليل كتيبتين احدهما الى طريق أم دنين والثانية نحو الشرق حيث اختبأت في ثنية من ثنايا جبل المقطم . وخرج الروم على عادتهم فى الصباح الباكر ، وتقدموا نحو الشمال فى اتجاه ما يعرف الآن بالعباسية ، فلما توسطوا الطريق وصاروا بين البساتين والأديرة تقدم اليهم عمرو بكتلة من جيشه والتحم معهم ، فتجمعوا لقتاله ، فلما حوى الوطيس خرجت كتيبة الجبل من مكنها وهاجمت مؤخرتهم ، فحسبوا أنهم حصروا بين جيشين ، وأسرعوا هاربين فى اتجاه أم دنين ، فخرج اليهم الكمين الثانى ، ووقعوا بين جند المسلمين من كل ناحية ، واستحرق القتال ووقع فيهم القتل ، وانهزموا ، وأسرعت بقيتهم نحو الحصن لتعصم به ، واتتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين تقرر به مصير مصر كلها .

وقد عرفت الواقعة بوقعة عين شمس ، وقد ترجمها بطر خطأ باسم موقعة هليوبوليس ،

وهي في الواقع لم تكن في المطرية (عين شمس) أو في موقع هليوبوليس الحالية وإنما على مقربة من حصن بابليون ، فهي أولى بأن تسمى معركة بابليون ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، ولكن الأغلب أنها كانت في ١٠ رجب ١٩ هـ / ١٥ يوليو ٦٤٠ م ، وقد اشتهر موضع انهزام الروم في الروايات العربية المتأخرة بمسجد سمي بمسجد القسح بناه يانس الرومي الوزير الفاطمي بالقرافة الكبرى ، واستشهد فيها نحو أربعمائة من المسلمين دفنوا بمقبرة واحدة عرفت بمقبرة الشهداء بموضع يعرف بمجرى الحصى قرب رباط الأمير مسعود .

ويذهب بطر الى أنه لم ينج من جنود الروم الذين خاضوا المعركة الا ثلاثمائة ، لاذوا بالحصن وأغلقوا الأبواب . وقد استولى الذعر على من في الحصن ، فخرج جماعة منهم فارين بأنفسهم وركبوا النهر الى قرية نقيوس ، وعلق عليها بقوله : « على أنه بقيت من الروم فئة لا بأس بها ، اجتمع اليها من كان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جميعا مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة ، فقد أصبحت مدينة مصر في قبضة يدهم بغير قتال ( كذا ) وكانت من قبل يحميها الجيش الذي في الحصن ، وأصبحوا يملكون ناصية شاطئ النهر من ناحيتي الحصن من أعلاه ومن أسفله ، ونقلوا عسكرهم بمد من

هليوبوليس ( الأصح أم دنين ) فضربوه في شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس . وذلك المكان هو الذي صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار بابليون لا يعوقه عائق من التضيق عليه بعد أن قضى على جيش الروم ، فلم تبق منه الا الظلول التي لاذت بالحصن أو هامت على وجهها في بلاد مصر السفلى » .

بدأ عمرو بعد ذلك مباشرة في الاستعداد لاقتحام الحصن ، ففرق رجاله كتائب لمهاجمة الحصن من نواحيه كلها ، ونصب عليه منجنقات يبدو أنها لم تكن محكمة الصنع والوضع ، لأنها لم تقم بشيء ذي بال . وكان في الحصن جماعة قوية من الروم ذكر منهم حنا النقيوسي قائدين هما تيودور وأودقيانوس ، وذكر العرب قائدا ثالثا يسمونه الأعرج أو الأعيرج ويسمونه « المندقور » وهو تحريف للفظ mandatur وهي مرتبة من المراتب العسكرية في الجيش البيزنطي ، ويغلب أنه كان حاكم الحصن وان كان بطر — متابعا مذهبه المعروف في حل هذه المشاكل — يذهب الى أن المراد به جورج حاكم اقليم مصر ، وقد ذكره حنا النقيوسي . وكانت في الحصن أيضا جماعة من جند الأقباط وكبرائهم ، وقد نفى ذلك بطر ، وهو حريص أشد الحرص على نفى كل اشتراك للمصريين في الأعمال العسكرية

أوردت الروايات العربية الحديث الذي جرى بين عبادة والمقوقس ، وهو حديث بليغ عبر فيه عبادة عن روح العرب المجاهدين أحسن تعبير . والذي يعيننا هنا هو تمسك المسلمين بشروطهم المعروفة : الاسلام أو الجزية أو القتال . وقد مال المقوقس الى الجزية ، ورفض هذا الحل كثير ممن معه من الروم وقالوا : « القتال أهون علينا » ، وكانت هذه المفاوضة في آخر شعبان ١٩ هـ / أغسطس ٦٤٠ م .

### معاينة بابليون :

وفي أثناء المفاوضات تمكن العرب من الاستيلاء على الحصن ، وقد تولى كبر ذلك الزبير بن العوام في خبر طويل . ويبدو أن المسلمين لم يفتحموه اقتحاما كما تذهب اليه الروايات ، لأن المحاصرين فيه لم ينزلوا الا على شروط ، وقد أسرف الرواة في الحديث عن تلك الشروط حتى جعلوا حديثها أقرب الى الخيال ، ولكننا نأخذ بالمعقول المقبول ونقول انهم سلموا الحصن مقابل عشرين ألف دينار ومقادير من الأزواد والملابس . وقد زخرف الخبر بعد ذلك على أيدي الرواة ، فصاغوه منسوبا الى عبد الله ابن عمرو بن العاص وجعلوه في صيغة فقهية فيها شيء على الأرض وشيء على الرؤوس ، وكل هذه زيادات جدت فيما بعد ، أجاد سبكا الفقهاء لكي يتخذها الحكام أساسا في تقدير جباية مصر وليست من الحقيقة

الخاصة بفتح مصر ، وهو حرص لا معنى له ، إذ أنه من الثابت أن فرقا كثيرة من الجيش البيزنطي في مصر كانت من الأقباط . نعم انهم مالوا الى الحياد بعد سقوط الفرما ، وانضموا الى المسلمين علانية بعد سقوط حصن بابليون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لم يكونوا موجودين في الحصن في ذلك الحين . وكانت في الحصن ذخيرة طيبة من الزاد والسلاح من كل نوع ، وقد لجأ اليه جمع عظيم من غير الجند من أهل منطقة مصر والأديرة المجاورة للاحتماء بأسواره . ويقال ان المقوقس كان بداخله اذذاك ، وهو قول لا نستطيع تفييه أو تأكيده ، وعلى أي الأحوال فانه لما اشتد حصار العرب للحصن وقتالهم لمن فيه ، تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب الحصن الجنوبي وعبروا الى جزيرة الروضة وقطعوا الجسر الذي يصلها بالحصن حتى لا يصل اليهم أحد . وبعد قليل خاف الأعيرج وقرر ممن معه ، فهربوا الى جزيرة الروضة لاحقين بالمقوقس ومن معه .

بهذا هان أمر الحصن ، وأصبح الاستيلاء عليه مسألة وقت ، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة الروضة ، ورأى المقوقس أن الظرف لا يحتمل طول الانتظار فبدأ الاتصال بالعرب ، وأرسل الى عمرو يطلب المفاوضة ، فأرسل اليه عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت ، وهو الذي تولى الكلام . وقد

التاريخية في شيء . وتسلم العرب الحصن  
وخرج من فيه ، وأصبح من ذلك الحين حصنا  
اسلاميا .

وقد وجد المقوقس في سقوط الحصن  
ما يقوى وجهة نظره ، فأخذ يحض من معه  
على ضرورة التسليم والاذعان للجزية ،  
حتى قبلوا رأيه وتصلح الفريقان . ولم يكن  
المقوقس ممثلا للإمبراطور البيزنطى ، ولهذا  
فقد نص في معاهدة الصلح على أن الأمر  
خاص بأهل مصر أو الأقباط ، وقد أورد ابن  
عبد الحكم وغيره نص المعاهدة ، وسنورده  
فيما يلى لأهميته مقسما الى فقرات بحسب  
موضوع كل فقرة ، حتى نستطيع الرجوع  
اليها فيما يلى من البحث :

١ — « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا  
ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان  
على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم  
وصلبهم وبرهم وبحرهم .

٢ — لا يدخل عليهم شيء من ذلك  
ولا ينتقص .

٣ — ولا يساكنهم النوب ( أى أهل  
النوبة ) .

٤ — وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية  
إذا اجتمعوا على هذا الصلح واتفقت زيادة  
نهرهم خمسين ألف ألف ( دون تحديد  
والأغلب أن المراد درهم ، وسنترد مناقشة  
ذلك ) .

٥ — وعليهم ما جنى لثبوتهم ( أى  
لصوصهم ) .

٦ — فإن أبى أحد منهم أن يجيب ( يريد  
الى الصلح ) دثع ( أى خفض ) عنهم بقدر  
ذلك .

٧ — ومن دخل فى صلحهم من الروم  
والنوب فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم .

٨ — ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن  
حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .

٩ — عليهم ما عليهم أثلاثا ، فى كل ثلث  
جباية ثلث ما عليهم .

١٠ — على ما فى هذا الكتاب عهد الله  
وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير  
المؤمنين وذم المؤمنين .

١١ — وعلى النوبة الذين استجابوا أن  
يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا  
على ألا يتغزوا ولا يمتنعوا من تجارة صادرة  
ولا واردة .

١٢ — شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه  
وكتب وردان وحضر .

ونصوص هذا العهد واضحة لا تحتاج  
الى مزيد من البيان . وهى فى ذاتها تؤيد  
ما قلناه من أن المقوقس كان من أقباط مصر ،  
وأنه كان يتكلم باسم مواطنيه ، ولو أنه كان  
قيرس عامل هرقل لما عقد الصلح عن أهل  
مصر دون سواهم من الروم ، الا من قبل من  
هؤلاء الأخيرين الدخول فى ذلك الصلح .  
وبهنا أيضا ملاحظة أنه صالح عن تبعه من

أهل مصر ، لأن نواحي أخرى كانت لم تخضع بعد ، فهو غير مكلف بأداء الضريبة عنها ، وإذا ثارت ناحية على العرب وقطعت أموالها خفض مقدار الضريبة بقدر ما يخص هذه الناحية (فقرة ٦) ، لأن أهل مصر غير مكلفين باخضاع نواحيهم للعرب ، وعلى عكس ذلك كانوا مسئولين عن الأمن في نواحيهم ، ولهذا فعليهم ما جنى لصوصهم (فقرة ٥) . وواضح من الفقرة الحادية عشرة أن نفرا من أهل النوبة استجابوا لهذا الصلح ، فرضت عليهم ضريبة من الماشية والخيول .

وقد ذهب بطر الى أن هذا الصلح خاص بأهل منطقة مصر وحدها ولم يكن صلحا عاما عن أهل مصر ، واعتمد في ذلك على حجج أهمها قلة قدر الجزية التي تقرر ( ٥٠ مليون درهم ، وهي ٣٥ مليون دينار ) وخطت بين معاهدة الصلح هذه وشروط تسليم حصن بابليون . وغاب عنه أن مبلغ الجزية الذي تقرر في الصلح كان تقديرا مبدئيا ، وسيعاد التقدير بعد تمام فتح مصر كلها على ما سنراه .

### استكمال فتح الوجه البحرى والصعيد والفيوم :

وبقى للروم بعد ذلك معقل آخر هو الاسكندرية ، وكان لابد من فتحها حتى يتم خلاص البلاد من الروم ، ولكن عمرا رأى أن يستكمل افتتاح ما يستطيع الوصول اليه من نواحي مصر قبل أن يخرج الى الاسكندرية ، فبعث سرايا سريعة الى نواحي الوجهين

القبلى والبحرى ، فذهبت حملات الى عين شمس وتينيس ودمياط وتونة ( اندثرت اليوم ومكانها جزيرة بحيرة المنزلة تسمى كوم ابن سلام ، شرقى مطرية المنزلة ) ودميرة ( حاليا قرية بمركز طلخا ، مديرية الغربية ) وشطا ( من ضواحي دمياط على ٥ كيلو مترات منها ) ودقهلة وبننا ( اليوم بنا أبو صير مركز سنود مديرية الغربية ) وبوصير ( اليوم أبو صير بنا ، مركز سنود ، غربية ) والبشردات ( اقليم كان بشمالى الدلتا حول بحيرة البرلس ) ثم الى الفيوم والأشمونين واخميم وغيرها من بلاد صعيد مصر « فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها أرض خراج » كما يقبول البلاذرى . وكان أهل هذه النواحي يدخلون على شروط الصلح الذى عقده المقوقس ، فزادت مقادير الجباية ، مما جعل عمرا يقرر النظر في أمرها جملة بعد فتح الاسكندرية .

ويبدو أن فتح الفيوم كان أشبه بالمغامرة ، لأن المسلمين لم يفتحوا أول الأمر الا الى قرية متطرفة الى الشمال من قراها تسمى البهنسا ( زالت اليوم وبقي اسمها على حوض المهنسا أو المهنس بناحية قلمشاه ، الفيوم ) ، أما الاستيلاء على ناحية الفيوم فلم يتم الا بعد ذلك بنحو عام ، وتذهب الروايات الى أن أمرها ظل مجهولا للعرب حتى دلهم رجل عليها وعلى الطريق اليها ، وقد

كتب في فتحها كتاب قصصى خاص يسمى « فتوح البهنسا » . وذهب يوحنا النقيوس الى أن العرب عندما دخلوا البهنسا قتلوا كل من وجدوه فيها من رجال ونسوة وأطفال، وكذلك فعلوا عند دخولهم ققيوس ، وكلا الأمرين مستبعدان ، اذ لماذا يختص العرب هذين البلدين بهذه المعاملة دون بقية بلاد القطر ؟ ولا يخرج الأمر هنا عن كونه احدى الفريات الكثيرة التى ملأ بها هذا الراهب كتابه .

### فتح الاسكندرية :

ولم يضع عمرو وقتنا ، بل اتجه نحو الاسكندرية رأسا . وللمرة الأولى نرى القبط الى جانب العرب صراحة ، وذلك نتيجة طبيعية لمهادة الصلح ، فيقول ابن عبد الحكم عن عثمان بن صالح : « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجصور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت ، وقدمت عليهم فراكب كبيرة من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح » . ولم يلق المسلمون فى طريقهم أحدا من الروم الا عند ترنوط ( حاليا الطرانة مركز كوم حمادة ، مديرية البحيرة ) ، وكانت بها فرضة يعبّر النيل عندها فى الذهاب الى الاسكندرية ، وقد لقى المسلمون بها حامية رومية صغيرة انهزمت أمامهم .

ثم نزل عمرو بنقيوس ، وكانت بها حامية رومية يقودها قائد يسمى دومنتيانوس تحت يده سفن كثيرة فى النيل ، فلما رأى العرب ترك سفنه ومعداته وفر هاربا مع نفر من جنده الى الاسكندرية ، فأرسل عمرو فى أثره سرية يقودها شريك بن سمي المرادى ، فأدركهم عند كوم شريك (مركز كوم حمادة ، بحيرة) وكانوا أكثر من المسلمين عددا فأحاطوا بهم ، فأرسل شريك يستنجد بعمرو ، فأنجده ، وتراجع الروم حتى سنطيس ( اليوم سنطيس على سبعة كيلو مترات جنوبى دمنهور ) فالتقوا عندها وانهزم الروم ، وتقهقروا حتى وقفوا عند الكريون ( قرب معمل القزاز ، مركز كفر الدوار بحيرة ) وكانت مفتاح الطريق الى الاسكندرية . وكان فيها حصن منيع شمالى التربة الذاهبة الى الاسكندرية ، وكان القائد تيودور قد تحصن بها وبعث يطلب النجدات ، فأتته من مواضع مثل الخينس ( مكانها الآن قرية أم حكيم ، مركز شبراخيت ، بحيرة ) وسخا ( مركز كفر الشيخ ) وبلهيب . واستمر القتال بضعة عشر يوما ، ثم انهزم الروم وتعقبهم المسلمون حتى بلغوا خط الحصون الذى يحصى الاسكندرية فوققوا عنده .

ونزل المسلمون « ما بين حلوة الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط ، يمدونهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين » . وقد استعد

الذين ركبوا البحر بذلك ، فعادوا الى الاسكندرية ودخلوها ناقضين للعهد ، فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا حتى استولوا على البلد مرة ثانية . ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح عنوة « بغير عقد ولا عهد » ، فبعث الى عمر يستأذنه في أن يجعلها وأهلها غنيمة للمسلمين ، فأبى عمر وأمره بأن يجرى عليها الشرط الأول . وأسرع قيرس الى القسطنطينية ليحصل على تفويض بقبول الصلح ، وعاد بالموافقة واشترط المحافظة على الكنائس وعدم التدخل في الشؤون الدينية للأهالي والسماح لليهود بالاقامة في الاسكندرية ، وأن يبقى العرب أحد عشر شهرا خارج المدينة حتى يتم جلاء الروم عنها . وقد قبل عمرو ذلك كله وتم الصلح أوائل ذى قعدة ٢٠ هـ / أوائل نوفمبر ٦٤١ م ، وأبحر الروم من الاسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وكان قيرس قد مات خلال مهلة الأحد عشر شهرا ، في ٢١ مارس ٦٤٢ .

بذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وأربعة أشهر ، فقد وصل عمرو بن العاص العرش في ١٠ ذى حجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ وبارح الاسكندرية آخر جندي بيزنطي في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وضم العرب الى امبراطوريتهم الناشئة هذا القطر المصرى الذى كان أغنى وأثمن ما ملكته دولة البيزنطيين ، ووضع العرب قدما ثابتة في

الروم في الاسكندرية استعدادا عظيما ، واهتم هرقل للأمر حتى قيل انه استعد للذهاب اليها للدفاع عنها بنفسه لولا أن حال الموت دونه وذلك . وقد طال وقوف عمرو أمام الاسكندرية ، وكان بطبعه رجلا وافر النشاط لا يطمئن الى السكون ، فشغل بعض جنده في سرايا أخضعت بعض نواح من شمال غرب الدلتا واقليم البحيرة ، ثم عاد فشدد الهجوم على الاسكندرية حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ورد من عسى أن يكون العرب قد سبوهم من أهلها . ولم يستطع عمرو اجابتهم الى ما طلبوه الا باذن من الخليفة عمر ، لأن حكم البلد الذى يستولى عليه بعد هذا القتال العنيف هو حكم العنوة ، في حين أن المدافعين عن الاسكندرية طلبوا معاملة الصلح ، فكتب عمرو الى عمر بالأمر ، فوافق على اجابة المطلب ، ودخل العرب الاسكندرية بعد نحو ثلاثة أشهر من القتال والحصار .

وقد روى ابن عبد الحكم خبر الفتح عن رجل ممن حضروه هو زياد بن جَزْو الزبيدى . ولم يكن أحد يتصور أن مدينة كالاسكندرية تسقط بعد هذا الوقت القصير ، ولكن هكذا بلغ ضعف الروم واضطراب أمرهم ، وهكذا بلغت قوة العرب وعلو نجمهم . وقد أسرع عمرو بعد دخول الاسكندرية فأرسل جزءا كبيرا من جيشه ليتتبع فلول من هرب منها من الروم ، وأحس

افريقية مكنت لهم فيما بعد من السيطرة على الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، ومن الاسترسال مع الفتح حتى استولوا على المغرب كله والأندلس ، وسيطروا بذلك على الحوض الغربى لذلك البحر وتمهد السيل لتحويله الى بحيرة غربية . وامتدت حدود المشرق حتى وصلت الى المحيط الأطلسى بل الى جبال البرت المعروفة بالبرانس ، وافتحت أمام المسلمين الطرق الى قلب القارة الافريقية ، فلم يكن فتح من فتوح الاسلام أعظم أهمية ولا أبعد أثرا فى تاريخه من فتح مصر . ولا يتسع المجال هنا لعرض النتائج البعيدة المدى لهذا الفتح ، فهى أظهر من أن تبين وتوضح ، وسنرى بعض النتائج فيما يلى من دراستنا .

### مصر جزء من الدولة الاسلامية(١)

تعود المؤرخون أن يقولوا ان مصر أصبحت بعد تمام الفتح ولاية من ولايات

(١) أصول : الى جانب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لابن عبد الحكم ، و « كتاب الولاة والقضاة » للكندى ، و « خطط » المقرئى ، طبعة القاهرة ١٣٢٤ ج ١ و ٢ ، والطبرى وابن الأثير وبقية المراجع التى ذكرناها فى الفقرة السابقة ، انظر :

المقرئى : اتعاظ الحنفا ، طبعة الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

- : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الجزء الاول ، أقسام ١ و ٢ و ٣ .

- : تاريخ القبط ، قطعة نشرها فستنفلد فى جوتنجن سنة ١٨٤٥ .

أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ و ٢ ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ .

ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز الصحابة ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ ( مواد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح ومعاوية بن أبى سفيان ومعاوية بن حديج ) .

ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ١ و ٢ ، بولاق ١٣٠٦ .

قدامة بن جعفر : نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ج ٦ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٩ .

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ فى ١٤ جزء يحيى بن آدم القرشى : كتاب الحراج ، ليدن ١٨٦٥ - ١٨٦٦ .

أبو يوسف القاضى : كتاب الخراج ، بولاق ١٣٠٢ .

يحيى الأنطاكى : كتاب التاريخ ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ليدن ١٩٠٨ .

ابن سعيد : المغرب ، الجزء الخاص بمصر ، طبعة الدكتور زكى حسن وشوقى ضيف وسيدة اسماعيل الكاشف ، القاهرة ١٩٥٢ . ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، جزء واحد نشر فى دار الكتب سنة ١٩٢٤ .

ابن الجيعان : التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ .

الاسحاقى : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣٢٨ .

السيوطى : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢١ .

أحمد أمين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٢٨ ،  
وضحي الاسلام ، ج ١ القاهرة ١٩٣١ .

الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر  
الاسلامية - عصر الولاة ، الطبعة الثانية ،  
القاهرة ، بدون تاريخ .

محمود عكوش : مصر في عهد الاسلام ،  
القاهرة ١٩٤١ .

الدكتور عبد الرحمن فهمي : صنع السكة ،  
القاهرة ١٩٥٨ .

**Carl Heinrich Becker** : *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam*, Heft 1. Stra-  
sburg, 1903.

— : *Articles Egypte et le Caire*, Encyclopédie  
de l'Islam.

— : *Islamstudien*. 2 Baende, Leipzig, 1924.

**Max van Berchem** : *La propriété territoriale  
et l'impôt foncier sous les premiers califes*. Genève,  
1886 .

*Une page nouvelle de l'histoire de l'Egypte*.  
Journal Asiatique, 26 série, tome IX, Paris, Janvier,  
Février, 1907.

**Butcher, Mrs. E.L.** : *The Story of the Church  
of Egypt*. London, 1897.

**Franz Pascha** : *Kairo*, Leipzig, 1903.

**Reitmeyer** : *Beschreibung Aegyptens im mitte-  
lalter aus dem geographischen werken der Araber*.  
Leipzig, 1903.

**Becker** : *Papyri Schott Reinhart*. Heidelberg,  
1906.

**Casanova** : *Essai de reconstruction topogra-  
phique de la ville d'Al-Foustat ou Misr dans  
Mémoires de l'Institut Fr. d'Arch. Orientale*, vol.  
XXXV. Le Caire, 1913-1919.

**Wuestenfeld** : *Die Statthalter von Aegyten  
zur zeit der Chalifen*. Goettingen, 1875-1877.

مجموعات أوراق بردية ووثائق نشرها  
Galtier في مطبوعات المعهد الفرنسي بالقاهرة  
سنة ١٩٠٩ ، مجلد ٢٢

**Max van Berchem** : *Materiaux pour un  
corpus inscriptionum arabicarum*, tome I, le Caire  
1894-1903

وقد نشر المجلد الثاني جاستون فييت في  
سلسلة

*Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie  
Orientale*, vol. LII, le Caire, 1929-1930.

**Adolf Grohmann** : *Corpus papyrorum Raineri*,  
Series arabica. Wien, 1923-1924.

**Ibidem**, *Arabic papyri in the Egyptian Library*  
4 volumes, le Caire, 1934- Sqq.

وقد ترجم الجزئين الاول والثاني الدكتور  
حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٤٠ .  
ونشرت أيضا أربع محاضرات للأستاذ جروهمان  
مترجمة الى العربية بقلم توفيق اسكاروس ،  
القاهرة ١٩٣٠

**Carl Heinrich Becker** : *Historische Studien  
uber das Londoner Aphroditenwerk (Der Islami  
Band II, 1911)*.

**Karabacek** : *Papyrus Herzog Rasner. Fuehrer  
durch die Ausstellung*.

**H.I. Bell** : *Translations of the Greek Aph-  
rodito papyri in the British Museum (Der Islam*,  
Baende II, III, IV, XVII, 1911-1912-1913-1928)

**W.E. Crum** : *Coptic Ostraca*. London 1912.

**Gaston Wiet et autres** : *Répertoire Chro-  
nologique d'Epigraphie Arabe*, 1931 sqq.

## ابحاث ودراسات :

الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر  
في فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ . وهو أهم  
بحث في الموضوع .

الدولة الإسلامية . وهذا القول يخالف الواقع  
بعض الشيء ، وأقل ما يفهم منه أنه كانت  
هناك دولة رئيسية مركزية كالدولة الرومانية.  
مثلا ، تعتمد على شعب ممتاز حاكم بالشعب  
الروماني . والحقيقة فيما يتصل بدولة  
الاسلام تخالف ذلك ، فلم تكن هناك ، من  
الجهة النظرية الإسلامية ، دولة رئيسية  
تقوم على شعب ممتاز حاكم ، تخضع له  
ولايات تعيش فيها شعوب مقهورة مغلوبة على  
أمرها ، وانما الحقيقة فيما يتصل بالدولة  
الإسلامية أنها كانت دولة عامة يقوم بشئونها  
المسلمون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق  
والواجبات جنس أو مكان ، فكل مواطن  
مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله  
الحق في ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها  
والاشتراك في وضع التشريع الخاص بها .  
ومن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تولى  
المسلمون من غير العرب وظائف عامة ،  
وابتداء من عصر الراشدين اشتركوا في  
التشريع والتقنين ، وخلال العصر الأموي  
قادوا الجيوش وتولوا الولايات ، وخلال  
العصر العباسي تلاشت مسألة الأصول تلاحيا  
تاما ، وأصبحت الدولة بالفعل دولة عامة  
للمسلمين عامة . كذلك انتقل مركز الدولة  
من جزيرة العرب الى الشام ثم الى العراق ،  
والمفروض أنهما ولايتان ، ومع ذلك لم ينكر  
أحد ذلك الانتقال ، ونظر اليه الناس نظرتهم  
الى شيء عادي لا يتعارض مع طبيعة دولة

الاسلام . أى أن دولة الاسلام ليست دولة  
جنس ولا قطر بعينها ، فدخل مصر  
أو غيرها من النواحي في طاعة الاسلام  
لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة  
يحكمها جنس غالب أو بلد له السيادة كما  
كان الحال مع الامبراطوريات المعروفة في  
التاريخ ، وانما كان معناه أنها أصبحت جزءا  
من هذه الدولة العامة ، بل أصبحت قاعدة  
لامتدادات جديدة لدولة الاسلام .  
ومن مصر فتح المغرب كله ، وأصبح  
المغرب بدوره جزءا من الدولة العامة ، وقام  
أهله بضم قطر جديد الى الدولة العامة التي  
أصبحوا مواطنين فيها وفي جملة أصحابها ،  
ففتحوا الأندلس ، أو قاموا بأعظم جانب من  
هذا الفتح . ومثل هذا حدث في المشرق :  
فتح العرب العراق ، ثم اشترك أهل العراق  
مع العرب في ادخال ايران في دولة الاسلام ،  
ثم اشترك العرب والعراقيون والایرانيون  
في فتح ما وراء النهر وأخذوا يدخلون الأتراك  
وبلادهم في دولة الاسلام ، ثم قام الأتراك  
بتوسيع نطاق الدولة فيما يليهم شرقا حتى  
وصلوا بها الى الهند . وتوالت هذه الأجناس  
كلها على قيادة أمور الدولة الإسلامية العامة .  
كلما وهن جنس من أجناسها نهض بالأمر من  
بعده جنس آخر ، حتى صارت أمورها العامة  
آخر الأمر الى الأتراك العثمانيين . والى هذه  
الطبيعة الخاصة بدولة الاسلام ترجع الحيوية  
المتصلة التي ميزتها على غيرها من دول العالمين

التقديم والوسيط . وربما شابقتها من بعض الوجوه الدولة البيزنطية ، التي يرجع طول عمرها الى أنها كانت في الواقع دولة عامة يتولى أمورها الأكفأ أو الأهمر من أهلها ، وتتألف جيوشها من القوقازيين وأهل آسية الصغرى والأرمن وأهل البلقان بل الأتراك على السواء .

غير أنه في دولة مترامية متوسعة دائما كالدولة الاسلامية تستوطن أراضيها شعوب شتى لم يخل الأمر من شعب قوى وشعب ضعيف ، أو شعب يكون قويا حيناً ضعيفاً حيناً ، ومن ثم فقد غلبت في داخلها شعوب على شعوب وخضعت بلاد لبلاد ، دون أن يكون معنى ذلك أن الشعب الغالب أصبح صاحب الدولة وأن الشعب المغلوب قد أصبح رعية محكومة مستغلة ، كما كان أمر مصر مع الرومان مثلاً ، فقد كان من المفروض والمقرر *De jure et de facto* أنها ولاية تابعة لروما أو القسطنطينية . فإذا كان المصريون مثلاً قد غلبوا على أمرهم في بعض عصور التاريخ الاسلامى واعتبرت بلادهم ولاية خاضعة لغيرها ، فمعنى ذلك أنهم لم يستطيعوا المحافظة على حقوقهم ، وعندما استقوى أمرهم بعد ذلك غلبوا غيرهم واستقلوا ببلادهم بل ضموا اليهم غيرهم . والحجاز الذى كان المفروض أن يظل سيد الدولة كان أقل بلادها حظاً في الرياسة والقيادة على طول تاريخ الاسلام وعرضه .

كذلك لم يخل الأمر في هذه الدولة الاسلامية الواسعة من سوء ادارة أو ظلم أو فساد سياسة ، وما الى ذلك من المساوىء التي لا تخلو منها دولة من الدول ، ومرد ذلك دائماً الى صعوبة الحكم في ذاته والى تعدد المشاكل وعسرها والى عجز الحكام عن ايجاد الحلول الصالحة، وذلك أمر لا علاقة له بدولة الاسلام في ذاتها ، بل هو مشكلة انسانية خالدة قاسى منها بعض شعوب الاسلام كما قاسى منها غيرها .

هذه مقدمة لا بد منها قبل النظر في شؤون مصر بعد دخولها دولة الاسلام ، فهى لم تصبح ولاية عربية أو ولاية اسلامية ، بل جزءاً من دولة الاسلام يجرى عليها وعلى أهلها ما يجرى على الوطن الاسلامى الكبير وأهله جميعاً ، ويكفى أن تقول ان بلاد العرب وهم الجنس الذى تنسب اليه الدولة كلها ، كانت أسوأ حالا من مصر أو غيرها من أجزاء الدولة الاسلامية خلال العصر الأموى وما تلاه ، لا لأن شعبها كان شعباً مغلوباً أو مستضعفاً ، بل لأن طبيعة اقليم الحجاز لم تساعد أهله على الصمود في زحمة الصراع الطويل الذى لم يهدأ تياره قط على طول تاريخ الاسلام . ولم يشعر شعب مصر بعد دخوله في دولة الاسلام بأنه شعب مقهور ، ولم يكن موقفه من العرب موقف مغلوب من غالب كما يقول نفر من الأوربيين الذين أرحوا لمصر الاسلامية ( مثلاً يقول جاستون

ويهمنا أن نلاحظ هنا أمرا كان له أبعاد الأثر في تحديد الدور الذي قامت به مصر في تاريخ العصر الذي نتحدث عنه هنا وما تلاه من عصور ، وهو أن مصر بطبيعتها بلد غنى يقوم غناه على مورد ثابت هو الأرض ، وأن شعبها شعب دؤوب خبير باستغلال أرضه وما فيها من موارد الخير الأخرى ، وهو الى جانب ذلك قنوع مسالم يميل الى الحياة المستقرة الراتبة . وقد نظم هذا الشعب أموره على نحو ثابت منذ الزمن القديم ، ومن ثم فلم تكن هناك في العصور الوسطى مشاكل مستعصية أو طارئة كالتى تتعرض لها البلاد ذات الطبيعة الجبلية الوعرة ، أو التى يعتمد أهلها على مطر غير منتظم أو على تجارات رائحة غادية فى البر والبحر ، وما الى ذلك من وجوه المعاش المرتبط بالظروف الطبيعية أو العامة . وكل ما تحتاج اليه مصر من حاكمها فى سياسة أمورها الداخلية هو أن يكون قادرا على أن يقر الأمن فى ربوع البلاد عادلا فى أحكامه وفيما يجبى من أموالها ، ولهذا كان الناس يعبرون عن الحكم فى العصر التركى « بالضبط والربط » أى ضبط الأمن وربط الأموال . أما ما عدا ذلك من الأمور كالتنظيم وتعهد المرافق فمن شؤون سكان مصر أنفسهم ، تعلموا كيف يرتبونها على مر العصور . وكل ما تعرضت له مصر خلال تاريخها من الأزمات والمتاعب كان سببه عجز الحكام أو جشعهم أو تدخلهم فى شؤون الناس تدخلا مفسدا .

فبيت : ( les vainqueurs et les vaincus ) ، بل اننا اذا نظرنا الى الأمر مليا استطعنا أن نقول انهم كانوا — بموقفهم الى جانب العرب أثناء الفتح — فى جملة الغالين ، وهناك عبارة مشهورة لميخائيل السورى يقول فيها : « انه ليس بالكسب اليسير أننا تخلصنا من قسوة الرومان وشرهم وسخطهم وعصبيتهم القاسية علينا ، ووجدنا أنفسنا بذلك فى راحة » ؛ وليس هذا كلام رجل يشعر أن قومه قد غلبوا على أمرهم .

على أى الأحوال أصبح المصريون — سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم — جزءا من أهل الوطن الاسلامى الكبير ، يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أحكامه وظروفه وتقلب الأحوال به ، فرخيت حياتهم واطمأنوا بقية خلافة عمر بن الخطاب والنصف الأول من خلافة عثمان بن عفان ، شأنهم فى ذلك شأن بقية أهل دولة الاسلام . فلما نشبت أزمة عثمان وتحركت الفتن اشترك أهل مصر فيها وقاموا بدور معروف ، وشاركوا أيضا فى النزاع بين على ومعاوية ، وكان لهم شأن فى النزاع بين الأمويين والزييريين ، بل اقترن اسم مصر بالصراع النهائى بين الأمويين والعباسيين ، أى أن تاريخ مصر خلال هذه الفترة يعتبر جزءا من تاريخ دولة الاسلام كلها . ولهذا فانه يعسر أن نكتب لها تاريخا مستقلا من الفتح الى نهاية الدولة الأموية على الأقل .

المصريون بصفة عامة من ثقل ضرائب أو مساءات حكام . والفترة الثانية فترة قلقلة سياسية وفوضى ادارية تقصر فيها مدد الحكام ويتعاقبون فيها على البلاد واحدا في اثر واحد ، ويفقد الكثيرون من كبار العمال الهية وثقة الناس ، وتعلو مبالغ الجبايات ويشكو المصريون الظلم وتكثر ثوراتهم وتعرض أمور البلاد كلها للفساد . وهذا الاختلاف بين الفترتين انما هو صدى للتطور العام الذى شمل الدولة الاسلامية كلها خلال هذين العصرين .

#### الادارة :

ونبدأ بالفترة الأولى : اقتصر الجهاز الادارى الذى أنشأه العرب لمصر على وال يعتبر حاكما عاما وممثلا للخليفة ويدخل في اختصاصه كل شىء بصورة مبدئية . فهو الحاكم الادارى الأعلى وأمير الصلاة والقائد العسكرى والمسئول عن شؤون المال وما الى ذلك الا القضاء ، فقد اعتبرته الدولة الاسلامية من أول الأمر وظيفة رفيعة القدر يقتضى صلاحها أن يكون سلطان صاحبها مستمدا من الرئيس الأعلى للدولة مباشرة . وكان الوالى يسمى أيضا العامل أو الأمير أو أمير الصلاة أو أمير الجند ، وتسميه الوثائق البردية اليونانية سيمبولوس . وقد يفرد الخليفة لبعض اختصاصات الوالى موظفا خاصا يعينه من عنده ، ويظهر هذا بصورة خاصة فى الناحية

لهذا لم تتطلب مصر من العرب أن يضعوا لها نظاما جديدا ، بل الاكتفاء برعاية النظام التقليدى . ولم يكن الرومان أو البيزنطيون من بعدهم قد أفلحوا فى حكم مصر ، لأنهم اعتبروها موردا للغلال وأثقلوها بالمطالب والموظفين المكلفين بجمع المال ، ثم أضافوا الى ذلك التدخل فى شؤون العقيدة . وقد تلافى العرب ذلك كله من أول الأمر ، فقرروا على البلاد بالاتفاق مع أهلها قدرا معيناً من الجباية واختصروا الجهاز الادارى الى أبسط حد ممكن ، وتركوا الناس أحرارا فى عقائدهم ، فكان من الطبيعى أن يسود الرخاء والاستقرار .

#### الفترة الثانية الاموية والعباسية :

وينبغى أن تفرق عند دراستنا لأحوال مصر — منذ الفتح العربى الى قيام دولة أحمد بن طولون عام ٢٥٤ / ٨٦٨ — بين فترتين تختلف احدهما عن الأخرى اختلافا بينا فى الروح والاتجاه : الأولى تمتد من الفتح الى نهاية العصر الأموى ( من شوال ٢١ هـ / سبتمبر ٦٤٢ الى ربيع الأول ١٣٣ هـ / أغسطس ٧٤٩ ) ، والثانية من بدء العصر العباسى الى استبداد أحمد بن طولون بشؤون مصر فى الشهور الأخيرة من سنة ٨٦٨/٢٥٤ . فالفترة الأولى تعتبر بصورة عامة فترة استقرار ونظام ورخاء ، تطول فيها مدد العمال ويفلب عليهم وعلى من يعاونهم العدل والقدرة وحسن السمى ، ولا يشكو

المالية ، فكثيرا ما كان الخلفاء يعينون للقيام بها عاملا خاصا مسئولًا أمامهم مباشرة يسمى عامل الخراج .

ولما كانت شؤون المال أهم جانب من أعمال الوالى فان ذلك التصرف كان يلقي معارضة شديدة من الولاة ، بل ترك عمرو بن العاص ولاية مصر عام ٦٤٥/٢٥ عندما قرر عثمان أن يولى عبد الله بن سعد على الخراج الى جانبه ، وفي خلافة معاوية شكوا أخوه عتبة بن أبى سفيان عامل مصر من تولية وردان عاملا على الخراج الى جانبه ، فضم اليه الخراج . وكان الولاة على حق في هذا الاعتراض ، لأن الخراج كان عصب الولاية في واقع الأمر ، واذا تولاه رجل قادر استطاع أن يخمل الوالى ، كما حدث عندما ولّى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الجحباب عاملا على الخراج ، فقد استبد بالعمال حتى عزل خمسة منهم خلال ولايته الطويلة على خراج مصر ( ٧٢٣/١٠٥ - ٧٣٤/١١٦ ) ومع ذلك فلم يقلع الخلفاء عن افراد الخراج بوال خاص حتى أقام خلفاء بنى أمية سبعة منهم في فترات مختلفة . وعندما ولى هشام ابن عبد الملك على مصر الوليد بن رفاعة لم يدخر الوليد وسعا في التخلص من عامل الخراج عبيد الله بن الجحباب ، وتمكن من اقناع الخليفة بضرورة ابعاده عن خراج مصر ، فاستعمله على المغرب .

وكان العامل هو أمير الجند ، فكانت

قيادة الجيوش وتأمين البلاد من البر والبحر من أهم اختصاصاته ، وينبغى أن تقرر أن عمال مصر حتى نهاية العصر الأموى كانوا على الجملة قوادا مهرة ، وسرى فيما بعد مقدار اهتمامهم بشؤون الجند والحرب وتوفيقهم في ذلك .

وكان العامل مسئولًا عن الأمن داخل البلاد ، وجرت العادة بأن يعين الوالى من قبله موظفا مسئولًا عن الأمن يسمى صاحب الشرطة ، يكون في الغالب نائبا عنه اذا غاب وتاليا له في الأهمية في السلم الادارى ، وفي أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الوالى في منصبه اذا عزل أو مات أو تنحى عن عمله . وربما أقام الخليفة صاحبًا للشرطة من قبله . ووظيفة الشرطة بصفة عامة من وظائف الادارة التى لا نعرف عن أمورها شيئًا مفصلا . وفيما يتصل بمصر لدينا اشارات كثيرة عن الشرطة ، ونستطيع أن نستنتج منها اختصاصاتها ، ولكننا لا نعرف المدى الذى كان يمتد اليه سلطان صاحبها : هل كان يشمل بلاد مصر كلها أو القسطنطينية فقط . وقد ذهب بعضهم الى أنه كان يشمل القطر كله ، وأنه كان لصاحب الشرطة ممثلون في النواحي ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يؤيد ذلك ، وكل ما لدينا اشارات الى ما يسمى شرطة فوق أو الشرطة العليا وشرطة أسفل أو الشرطة السفلى ، والمراد هنا قسمان اداريان قسمت اليهما القسطنطينية .

وعلى أى حال فإن ذلك لا ينطبق على شرطة مصر فقط ، بل على شرطة غيرها من بلاد الاسلام ، ففي العراق كانت الشرطة خاصة ببغداد، وربما كانت هناك شرطة خاصة بالبصرة ، ولكنها تابعة لوالى البصرة . وفي قرطبة كانت هناك شرطة عليا وشرطة سفلى خاصتين بالمدينة ، وكانت هناك شربات في كبار المدن ، ولكنها كانت تابعة للوالى . أى أن نظام الشرطة في العالم الاسلامى كان نظاما خاصا بالعواصم ، ولم يكن جهازا اداريا ضخما مثل جهاز البوليس والأمن العام عندنا اليوم ، بل هو لم يكن — حتى في هذه الحدود — نظام أمن من أول الأمر ، بل كان يطلق في العصور الأولى على فرقة ممتازة من الجند تقوم بحراسة الخليفة أو الوالى ، ثم امتد سلطان صاحبها الى الأمن في العاصمة ، ولفظها معرب عن اللاتينى Securitas ، أما الأمن في الكور فكان من شأن عمال الكور .

وكذلك يقال عن البريد ، وقد نشأت وظيفته من أيام معاوية بن أبى سفيان على الأغلب ، وقد أنشأه ليعرف أخبار النواحي ، أى أنه كان نظاما مهمته تيسير المكاتبات بين مركز الدولة والنواحي ، وأهم أدواته الطرق التى تسير فيها البرد والخيول التى تحملها . وليس لدينا ما يدل على أن صاحب البريد في مصر مثلا كان يقوم على تعبيد الطرق المؤدية الى دمشق أو بغداد . انما كان الذى يهتم

بذلك الخليفة نفسه ، فقد أمر عبد الملك بن مروان مثلا بصنعة الأميال — أى تمهيد الطرق — واقامة النزول على المراحل لتحل بها خيول البريد للراحة أو للاستبدال بخيل أخرى . ولكن صاحب البريد كان موظفا رئيسيا ، لأنه كان مكلفا بايصال المكاتبات من مركز الخلافة الى عواصم الولايات .

هذه هى الوظائف الرئيسية التى احتفظ بها العرب لأنفسهم أول الأمر ، أما بقية شؤون التنظيم الداخلى فقد تركت لأهل البلاد . وقد قسمت مصر بصفة عامة الى قسمين كبيرين : الصعيد وأسفل الأرض ، ويقابلان الوجه القبلى والوجه البحرى ، وفي حالات قليلة كان الأمير يولى على كل منهما عاملا تابعا له . ويغلب على الظن أنه كان يتولى شؤون كل من القسمين رجل من أهل البلاد — ومعظمها شؤون مالية — وكانت البلاد مقسمة في العهد البيزنطى الى باجركيات فاحتفظ العرب بهذا التقسيم ، وأطلقوا على الباجركية لفظ كورة وهو معرب من اليونانى .

وقد اجتهد ياقوت في مقدمة « معجم البلدان » في تحديد معنى الكورة ، ولكنه لا زال في حاجة الى بيان ، فهو لا يعادل « المديرية » في تقسيمنا الحالى ، بل ربما كانت الكورة تقابل « المراكز » وما يتبع كلا منها من زمام ، فان ابن دقماق مثلا يقول ان كور مصر كانت ثمانين ، وقال المقرئى نقلًا

أما القرية فيحكما رجلا يسمى المازوت أى شيخ القرية ورئيسها ، وهو معرب من اليونانى أيضا-وله معنى الكاتب أو « الجرافوس » القديم .

ويبدو أن عدد الكور وحدودها لم تتغير خلال القرن الهجرى الأول عما كانت عليه خلال القرن السادس الميلادى ، فلدينا قائمة بباجركيات مصر عملها هيروقليس خلال الثلث الأول من ذلك القرن ، وهى تضم اثنتين وسبعين من عواصم الباجركيات ، نجد منها ٤٧ فى قوائم الكور التى كانت موجودة فى مصر خلال العصر الأموى . غير أن هذا التقسيم لم يظل على حاله ، واتجه الأمر شيئا فشيئا الى تقليل عدد الكور بضم بعضها الى بعض ، نتيجة للاضطراب والفساد اللذين دبا فى شئون البلاد عامة خلال العصر العباسى .

وهذا التقسيم الإدارى يختلف عن التقسيم الجغرافى للبلاد ، وقد خلط بعض الكتاب فجعل الأقسام الجغرافية أقساما إدارية ، مثال ذلك أن تقسيم مصر جغرافيا الى أسفل الأرض والصعيد لم يكن له وجود فى التنظيم الإدارى ، وكذلك تسمية أسفل الأرض بالريف ، وتقسيمه الى بطن الريف ( وهو جزء الدلتا المحصور بين فرعى دمياط ورشيد ) والحواف الغربى ( وهو ما يلى فرع رشيد غربا ) والحواف الشرقى ( وهو ما يلى

عن القضاء ان كور الصعيد كانت ٢٨ فلما ذهب يحصيها لم يذكر الا ٢٢ أو ٢٣ ، وكور أسفل الأرض ٢٥ أو ٣٣ أو ٣٨ ، والمجموع على أى حال لا يصل الى ٨٠ . والمهم لدينا أن الكورة كانت قسما إداريا ماليا يحكمه « صاحب كورة » من أهل مصر .

وكانت الكور مقسمة الى قرى ذهب بعضهم الى أن عددها ٢٠٠٠ ، وقال آخرون ان الوليد بن رفاعة أحصاها احصاء تاما دقيقا فبلغت ١٠٠٠٠ قرية ، « فلم يحص فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل » . وهذه كلها تقديرات جزافية لا نستطيع التعميل عليها ، وأبسط ما يدحضها أن احصاء الوليد بن رفاعة هذا — الذى يصف المقريزى ما أتفق فى عمله من جهد — قدر سكان مصر الذين تجب عليهم الجزية بخمسة ملايين ، فكان ينبغى أن تكون حصيلة الجزية وحدها ١٠ ملايين من الدنانير مع أن جباية مصر كلها فى العصر الأموى لم تزيد على أربعة ملايين . وكل ما نستطيع قوله هو أن البلاد قسمت الى كور ، كل كورة تضم عددا من القرى . وعلى رأس كل كورة صاحب كورة مسئول عن شئون كورته أمام العامل مباشرة ، ويعاون صاحب الكورة موظف مختص بشئون المال يسمى الجستال ، وهو معرب من اليونانى ومعناه الكاتب أو المسجل .



والضيافة وهو فرض ثقيل يدخل ضمن المفارم المستثقلة في الاسلام . وأغلب الظن أن الفقهاء هم الذين وضعوا صيغ هذه النظم رغبة منهم في التوفيق بين الواقع والأحكام الشرعية . وكانوا يتصورون ، أو يحاولون أن يصوروا للناس ، أن الأمر جرى منذ البداية على القواعد التي استخرجوها هم أنفسهم من الأصول بعد الفتوح بزمن طويل .

وقد بدأ يتضح ضعف هذه الآراء من أواخر القرن الماضي ، عندما اكتشفت مجموعات الوثائق البردية الخاصة بالمصر البيزنطى والقرنين الهجريين الأولين . وقد درس ماكس فون برشم ما استطاع دراسته من هذه الوثائق واستطاع — اعتمادا عليها — أن يقرر أنه « قد فرضت على الناس ضربتان رئيسيتان : الأولى ضريبة مالية كبيرة تسمى الجزية ( باليونانية : ديموزيا ) تؤدي تقدا بالدينار ، وضريبة نوعية أخف من الأولى تسمى الضريبة ( باليونانية : ايمبولي ) تؤدي بأرادب القمح . هذان المصدران من مصادر الأيراد في ميزانية الدولة يقابلان وجهين متميزين من وجوه الانفاق ، فالجزية تغطى عطاء الجند ، والضريبة تغطى ما كان يؤدي الى الجند من أرزاق . وكلتا الجزية والضريبة كانت مفروضة على الجماعة كلها كوحدة . كاتتا ضربتين فعليتين يسأل عنهما شيخ الناحية أمام الأمير رأسا . ثم حدث بعد

وتختلفان في التفاصيل ، فأما الأولى فتذهب الى أن المقوقس لما خاف على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص أن يفرض للعرب دينارين على كل واحد منهم ، وناعتقد أن هذه الرواية ان هي الا محاولة غير موقفة لتقنين الفقرة الرابعة من عهد الصلح . وأما الثانية فتقول « ان الصلح تم على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط خاصة ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ منهم العلم . ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ العلم ، ولا على النساء شئ . وعلى أن للمسلمين النزول بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شئ منها ، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم العلم وفرض عليه الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى السنة » . وهذه رواية ظاهرة الضعف ، فهي تذكر أن احصاء دقيقا بأهل مصر قد عمل وأن جزية الرؤوس وحدها بلغت ١٢ مليون دينار ، غير خراج الأرض ، ثم انها تجعل للعرب على المصريين حق النزالة

١ - الجزية نفسها وتسمى « خروسيخا ديموزيا » وهى ضريبة مالية صرفة .

٢ - ضريبة الطعام ( ستيخا ديموزيا ) وهى ضريبة عينية تؤدى قمحا أو شعيرا .

وكانت الادارة المركزية تحدد مبالغ هاتين الضريبتين . وكانتا تقرران جملة ، وتقوم الادارة المحلية بتقسيم مجموعهما حصصا على الأفراد كل بحسب طاقته .

أما الجزية نفسها ( خروسيخا ديموزيا ) فكانت تتألف من مجموعة من الجبايات هى :  
( أ ) الضريبة العقارية ( ديموزيا جيس ) .  
( ب ) ضريبة الرؤوس ( اندريوسموس دياجرافوس ) .

( ج ) الضريبة الادارية المحلية ( دابانى ) .  
ولم تكن الضريبة العقارية خاصة بملك الأراضى فقط بل كانت تشمل أيضا أصحاب الحرف الذين لا يملكون عقارا ما . ولم تكن ضريبة الرؤوس فى أول الأمر ضريبة عامة ، ولا نعرف على وجه التحديد على أى أساس كانت تجبى . كذلك كان من الممكن أداء ضريبة الطعام ( أمبولى ) نقدا ، فيدفع الانسان قيمتها أو الثمن ( ابارينرسموس ) بحسب مصطلح هذه الأيام . وكان جزء من الأمبولى ينفق محليا لتنظيف نفقات الادارة المحلية ، وهذا الجزء يعادل الضريبة الادارية

ذلك - نتيجة لما أصاب حصيلة الضرائب العامة من اضطراب بسبب دخول الناس فى الاسلام واتساع الملكيات العقارية التى جازها المسلمون - أن ظهر « الخراج » وتحدد فى صورة ضريبة واقعة على الأرض أيا كان مالكاها .

ثم توفر كارل هاينريش بيكر على دراسة الموضوع معتمدا على مجموعة الوثائق البردية المعروفة بمجموعة الأرشيدوق راينر Sammlung des Papyrus Erzherzog Rainer ودليل هذه المجموعة الذى وضعه كاراباتشيك Fuehrer durch die Ausstellung ، وعرض نتيجة دراسته فى أبحاث مختلفة أهمها الكراسة الأولى من كراستيه المعروفتين فى تاريخ مصر Beitrage zur Geschichte . Aegyptens unter dem Islam وفى مقاله عن مصر فى دائرة المعارف الاسلامية ، وخلاصة رأيه : أن الحكومة كانت تطالب صاحب الكورة بنوعين من الضرائب : الديموزيا والضريبة الاستثنائية . وكان توزيع المستحق من هاتين الضريبتين على الأقسام الفرعية للكورة يتم فى الادارة المركزية بناء على قوائم تعد فى الناحية نفسها وترسل اليها مقدما ، وتبلغ الى هذه الأقسام ببلاغ رسمى يسمى « الانتاجيون » عن طريق صاحب الكورة . وكانت الديموزيا ( الجزية ) وهى الضريبة العادية تشمل :

المخيلة (داباني) ويرسل الباقي الى الأهراء الحكومية في القسطنطينية أو الاسكندرية .

وكانت الضريبة الاستثنائية المسماة ( اكسترا أوردينا ) ضريبة منظمة أيضا ، ولكن نوعها كان يختلف بحسب الاقليم والظروف ، كأن يطلب الى الكورة مثلا أن تقدم الخشب وما اليه مما تبنى به السفن وكذلك الأدوات والعمال والبحارة وتدفع أجورهم ، وربما اضطر رجال الكورة الى شراء بعض هذه الأصناف المطلوبة واحتساب ثمنها من جملة الأمولى المقررة . وكانت هذه الضريبة الاستثنائية ترسل مباشرة الى المسكرات ومراكز تجمع الجنود . وكانت الدولة لا تقبل من الكورة مقابل هذه الأصناف نقدا الا فيما يتصل بعلوفة الخيل ، ولكن كان من الممكن للأفراد أن يدفعوا المستحق عليهم نقدا ثم يقوم رجال الكورة بتدبير المطلوب .

وهذا التفصيل الذى أوردناه مستخرجا من واقع الوثائق البردية يدل على أن ما ورد عند ابن عبد الحكم ومن اليه لم يكن الا تصويرا نظريا فقها لما كان يجرى في الواقع . ومع ذلك فان خطط المقرزى تضم نصوصا تؤيد ما تدل عليه أوراق البردى . فمن ذلك ما يقوله رواية عن يزيد بن أسلم : « وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبظها على جباية الروم ، فكانت جبايتهم بالتمديد ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد

عليهم ، وان قل أهلها . وخربت تقصوا ، فيجتمع عرافو كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسّم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم يجتمع ( رجال ) كل قرية بقسّمهم ، فيجمعون قسّمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبتدئون ويخترجون من الأرض فدادين لكنايسهم وحماياتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا لما فى كل قرية من الضياع والأجراء ، فقسّموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسّموا عليهم بقدر احتمالها ، وقلما كانت تكون الا للرجل الشاب أو المتزوج . ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمون بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم . فان عجز أحد منهم وشكا ضعفا من زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا قسّموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسّمهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك » .

وقال المقرزى رواية عن هشام بن أبى رقية اللخمي : « قدم صاحب اخنا على

عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فقال له :  
أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير لها ،  
فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة :  
لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك  
ما عليك . انما أتم خزائة لنا : ان كثر علينا  
كثرتنا عليكم وان خفف علينا خففنا  
عنكم » ، مما يفهم منه بوضوح أن مقادير  
الجباية لم تكن محددة ولا ثابتة ، وانما يقسم  
الأمير المطلوب منه عاما فعاما على الكور ،  
وعلى رجال الكورة أن يدبروه على النحو  
الآف الذكر .

كذلك روى المقرئى عن يحيى بن سعيد :  
« الجزية جزيتان : جزية على رءوس الرجال ،  
وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها  
أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التى  
عليهم جزية مسماة على القرية ليست على  
رءوس الرجال ، فانا نرى أن من هلك من  
أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه  
ترجع الى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية ،  
ومن هلك ممن جزيته على رءوس الرجال  
ولم يدع وارثا فان أرضه للمسلمين » . وهذا  
ينطبق تماما على ما دلت عليه أوراق البردى ،  
فالجزية التى على الرءوس هى الضريبة النقدية  
العامة ( خروسيخا ديموزيا ) ، والجزية التى  
تكون جملة على أهل القرية هى ضريبة الطعام  
( ستيخا ديموزيا ) . وكانت الحصيلة  
الاجمالية لكل من الضريبتين تحدد مقدما  
بمعرفة الادارة المركزية .

وهذا يفسر لنا المشكلة التى واجهت  
الحكام بعد أن تقادم عهد الاسلام بالبلاد :  
مشكلة الجزية المستحقة على من أسلم ، فان  
الديموزيا العامة كانت تتضمن — كما  
رأينا — الضريبة العقارية وجزية الرءوس  
والضريبة الادارية المحلية . أى أن ضريبة  
الرءوس كانت داخلة فى جملة الديموزيا ،  
ولم تكن تجبى على الأساس المقنن الذى  
نجده مفصلا فى كتب النظم الاسلامية ، وانما  
كانت تقدر جملة على أساس ما كان يجبيه  
ايبزنطيون منها ، ثم يقسمها أهل القرية على  
أنفسهم بحسب الطاقة . فلما بدأ الناس  
يسلمون طالبوا بالغاء هذا الجزء من  
الديموزيا ، اذ لا جزية رءوس على المسلمين ،  
ورفض العمال ، لأنهم لم يقرروها كجزية  
رءوس بل كجزء من ضريبة عامة تلتزم القرى  
بأدائها جملة أيضا . وقد طال الأخذ والرد بين  
الحكام والخلفاء بسبب هذه المشكلة  
الشرعية ، وانهى الأمر برفع هذا الجزء من  
الديموزيا عن أسلم ، ويؤيد ذلك ما يقوله  
المقرئى من أن عمر بن عبد العزيز كتب الى  
حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط  
على أحيائهم . وقد فسر المقرئى ذلك بأن  
عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فتحت  
عنوة ، وليس الأمر كذلك ، وانما الحقيقة  
هى أن هذا البند من الجباية كان مقررا جملة  
على أهل القرية ، وعليهم أدائه جملة كذلك  
بصرف النظر عما يصيب الأفراد من الموت .

ويؤكد ذلك قوله بعد ذلك : « وان الجزية انما هي على القرى ، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم ، وأن موت من مات منهم لا يوضع عنهم من الجزية شيئا » .

تلك هي الخطوط العريضة للنظام الذي سار عليه العرب في معالجة شئون مصر المالية ، وهو كما رأينا نفس النظام الذي كان جاريا أيام البيزنطيين والرومان مع فرق جوهرى هو أن دافع الضرائب في تلك الأعصر السابقة على الاسلام كان يدفع في الواقع أكثر بكثير من المقرر عليه ، وربما دفع الضعف ، إذ أن عمال الدولة كانوا يحرصون على أن يستفضلوا لأنفسهم مبالغ جسيمة ، وكان عبء ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الاسلام انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر عليهم قانونا فحسب ، وسيعرض النظام الذى وضعه المسلمون لمثل ذلك الفساد بمرور السنين . وقد وجد السبيل الى الفساد من أول الأمر ، لأن الدولة لم تتصل بدافع الضرائب رأسا ، بل كان اعتمادها على طائفة من كبار المزارعين أو متقبلى الخراج في كل ناحية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يؤدون أموال أهل نواحيهم الى عمال الكور . وكان اضطراب الأحوال في العصر البيزنطى قد زاد في قوة هذه الطبقة وجعلها أشبه بأولياء Patroni الصغار والضعفاء ، وكان الضعاف يدخلون في ولائهم Patrocinium .

ولما كانت مصر قد اعتبرت مفتوحة صلحا فقد ظلت رقاب الأرض ملكا للناس ، وهؤلاء الأولياء بصورة خاصة ، ونظرا لحاجة الدولة الى المال ، فقد كان اعتمادها على هؤلاء اكبار عظيما ، فهم الذين يتقبلون الجباية ويضمنون المال ، وشيئا فشيئا أصبحوا أشبه بالملتزمين .

وقد وصف لنا المقرزى طريقة تقييل الأرض فقال : « ان متولى خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من القسطنطينية في الوقت الذى تنهى فيه قبالة الأرض ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظم والاستبحار وغير ذلك . فاذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبّل أرضا وضمنها الى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالاته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضاربة مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين . يقال لما تأخر من مال الخراج

٢٠٠ ألف أو ٣٠٠ ألف بحسب اتفاقات خاصة  
مع الأمراء .

وقد كان العرب عندما دخلوا مصر  
يتصورون أنهم سيجبون منها من الأموال  
ما لا يحصى ولا يقدر ، فقد كانوا يسمعون ،  
بحسب ما يقول المقرئى ، أن فرعون كان  
يستفضل من مال مصر ، بعد استنزاله شتى  
أنواع النفقات ، ستة وعشرين مليوناً من  
الدنانير ، ولهذا فقد فوجيء عمر بن الخطاب  
بقلة ما بعث به عمرو بن العاص من الجباية  
وشك في أمره ، وجرت بينهما مكاتبات ذات  
مغزى عظيم ، لأن خطابات عمر تدل من ناحية  
على تصويره لغنى مصر ، وردود عمرو تدل  
على الواقع الذى كان يواجهه هذا الأمير  
الذكى القادر . وعندما جى عبد الله بن  
أبى سرح مليونين زيادة على ما جباه عمرو  
فرح الخليفة عثمان بن عفان بذلك وحدث  
عمراً في الأمر ، فرد عمرو رداً يدل على خبرة  
وبعد نظر ، وكان محققاً في ذلك ، لأن المسألة  
ليست مسألة ضخامة مبلغ الجباية ، وإنما  
المهم هو المحافظة على مورد المال سليماً حتى  
لا ينضب .

وظاهر من هذا النظام المالى الذى جرى  
عليه العرب في مصر أنهم تركوا الأرض بيد  
أصحابها من المصريين ، ولم يعتبروها ملكاً  
للدولة . وقد تناقش الفقهاء في هذا الموضوع  
وذهب بعضهم الى أن مصر فتحت صلحاً  
وقال بعضهم الآخر انها فتحت عنوة ، وكلها

البواقي . وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك  
مرة وتسامح به مرة . وربما كان هذا هو  
النظام المتبع في أيام العباسيين ولكنه متطور  
قطعا عن نظام بدائى شبيه به . وربما استطعنا  
أن نقول انه في هذه العصور الأولى كان  
أولئك الأولياء الكبار يتعهدون لعامل الكورة  
بجمع المال .

أما جملة المتحصل من هذه الضرائب  
بشتى صنوفها فمن العسير تحديدها ، فان  
التقديرات التى يوردها المؤرخون تتراوح ،  
فيما يتصل بالسنوات الأولى ، بين عشرة  
ملايين وخمسة عشر مليوناً من الدنانير  
( الدينار نصف جنيه تقريباً ) ويدخل في ذلك  
ما يدفع تقداً وثمن ما يؤدى نوعاً . ولم يكن هذا  
المال كله يرسل الى مركز الخلافة ، بل كان  
معظمه ينفق في البلاد : يستنزله عمال الكور  
ثم المتقبلون فيما بعد جزءاً منه في مقابل  
ما يقومون به من أعمال التعمير والاصلاح  
والصيانة ، ويرسلون الباقي الى الأمير ،  
فيؤدى هذا منه أعطيات الجند وأرزاقهم  
ورواتب الموظفين والعمال ، والباقي هو الذى  
يرسل الى مركز الدولة . ولكى تقدر النسبة  
بين هذا وذاك نذكر أن جباية مصر بلغت في  
عهد معاوية بن أبى سفيان أربعة ملايين دينار  
أرسل اليه منها ٦٠٠٠٠٠٠ دينار وعد ذلك  
مبلغاً جسيماً . أما متوسط ما كان يرسل الى  
مركز الدولة ابتداء من القرن الهجرى الثانى  
فكان نحو ١٠٠٠٠٠٠ دينار ، وقد يرفع الى

بعد ذلك فلها ظروف أخرى اقتضاها تطور عام في أحوال الدولة الإسلامية جملة ، ومن الخطأ القول بأنها استمرار أو اتساع لهذه المنح .

وقد حصل كثيرون من العرب الذين نزلوا مصر على أراض بهذه الطريقة ، أى أنها كانت منحا من أراض صارت الى الدولة بحق الفتح ، وحصلوا عليها أيضا من أراضى البور — التى كانت تسمى أرض الموات — ليستصلحوها ، وكانوا يعفون من ضربيتها فترة ما بحسب ما تقضى به الشريعة فى أحكام الأرض الموات ، ثم يؤدون عنها العشر بعد ذلك . وكان المالك العربى أيا كان وضعه يؤدى ضريبة العشر عما بيده ، وكان العرب يسمونها زكاة ترفعا عن دفع الخراج ، ولكنها كانت فى الواقع ضريبة عقارية تجرى مجرى الخراج . وقد طالب المصريون الذين دخلوا الاسلام أن يعاملوا بالمثل فتسقط عنهم الجزية ( بفروعها ) وضريبة الطعام ، وتكتفى الدولة منهم بضريبة عقارية هى العشر وتسمى الزكاة ، ومعنى ذلك فقدان الدولة لمعظم إيراداتها ، فرفضت الدولة ، بل ألزمت العرب أنفسهم بدفع الخراج كاملا عما يشترونه من أرض الخراج ، فلا تحول أرض خراجية الى أرض عشرية . ولهذا فقد ظل إيراد الدولة فى مصر متوازنا فى حين أن إيرادها من أرض العراق هبط هبوطا شديدا . لأن الدولة ، وهى مالكة رقبة الأرض ، كانت

مناقشات فقهية نظرية صرفة ، لأن الواقع الذى يقررونه جميعا هو أن أرض مصر أجريت مجرى الصلح ، وأن الملكية العقارية ظلت بيد الأهالى ، وقد نص على ذلك صراحة فى معاهدة بابليون ، وأكد فيما تلا ذلك من المعاهدات وما جرت عليه المعاملات . وبهذا اختلف الوضع القانونى لأرض مصر عن أرض العراق مثلا ، فقد كانت الأخيرة ملكا للدولة وليس للأهالى عليها الا حق الارتفاق ، أما فى مصر فقد ملك الناس الأرض ملكا كاملا ، « وقد دلت الأوراق البردية التى ترجع الى عهد الولاة على أنه كان يحق لأهالى مصر التصرف فى الأراضى التى يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة » . وقد ترتبت على ذلك نتائج ذات أهمية كبرى فيما يتصل بحقوق الدولة الإسلامية على أرض مصر ، فبينما جرى الخلفاء على منح الاقطاعات والضياع فى العراق من أول الأمر ، لا نجد هذه المنح فى مصر الا فى حدود ضيقة ، وانحصر أمرها فى تلك الأراضى التى كانت مملوكة للدولة البيزنطية ورجالها ، فآلت الى الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأراضى الأخيرة بدأت الدولة تمنح من تريد من زمن عمر بن الخطاب . نقول تمنح ولا نقول « تقطع » لأن المراجع تخطئ ، وتستعمل اللفظ الأخير ، مع ما بين اللفظين من خلاف فى المعنى القانونى والسياسى . أما الاقطاعات التى ظهرت بمصر

النحل على دينارين دينارين ، فالزم كل رجل أربعة دنانير ، فرضوا بذلك وأحبوه » ، ومن الواضح أن الدنانير الأربعة المذكورة منها اثنان للجزية واثنان لضريبة الطعام . غير أن هذا القدر الذى يحدده يزيد بن حبيب لم يكن ثابتا كما يفهم من النصوص العربية ، لأن أصحاب هذه النصوص كانوا يفهمونها على أنها كانت ضريبة الرؤوس ، مع أنها كانت فى الواقع الديموزيا التى أشرنا إليها ، وكانت ضريبة عامة تشمل الضريبة العقارية ( ديموزيا جيس ) وضريبة الرؤوس ( اندريسوس دياجرافوس ) والضريبة الادارية المحلية ( دابانى ) وكانت حصيلتها الكلية فقط هى المحددة ، أما حصص الأفراد منها فكان يقررها رؤساء القرية بحسب ثروات الأفراد ، فهناك من يدفع دينارا أو دينارا ونصفا أو دينارا وثلثا أو ثلثى دينار وهكذا . وقد ذهب المقرضى الى أن الدولة لم تحصل الزكاة الا فى عهد صلاح الدين ، ولكن أوراق البردى أثبتت أنها ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، فلدينا ايصال مؤرخ عام ١٤٨ / ٧٦٥ عن زكاة بعض الأشخاص . وهذا هو المعقول .

ولا شك فى أن مبالغ الجباية أخذت تتناقص مع الزمن بسبب دخول الناس فى الاسلام واضطرار الدولة الى معاملتهم معاملة العرب ، وبسبب تطرق الفساد الى النظم القائمة من ناحية أخرى . على أى

تقطع الناس الضياع والاقطاعات ، فتتحول الأرض من خراجية الى عشرية ، مع عظم الفرق بين الاثنتين ، ويلاحظ أن المقطعين فى العراق كانوا يتفاضون من الزراع الخراج ويؤدون العشر ، فيكسبون وتخسر الدولة . بينما كانت أرض مصر كلها تتحول شيئا فشيئا الى خراجية .

والوثائق البردية تؤيد كل ما ذكرناه خاصة بمصر ، فلدينا خطابات صادرة عن عمال مثل قره بن شريك أحدها مؤرخ سنة ٧٠٩/٩١ يطلب فيه الى أهل شيرابسيرو من كورة أشقوه أن يؤدوا المتأخر عليهم من الجزية نقدا ومن ضريبة الطعام قمحا . وفى خطاب آخر من نفس الوالى الى صاحب أشقوه أيضا يقول فيه انه اذا تعذر على الناس دفع ضريبة الطعام قمحا فلا بأس بأدائها نقدا ، ولكنه يطلب اليه أن يجتهد فى ارسالها قمحا . بل يظهر بوضوح من وثائق أخرى أن ضريبة الطعام لم تكن تؤدى دائما قمحا أو شعيرا ، بل كان من الممكن استبدالهما بحسب حاجة الدولة بأشياء أخرى من محصولات الناحية كالعسل والخل والزيت والنسيج والجلود .

ويفهم من رواية للبلاذرى عن يزيد بن حبيب أن قيمة ضريبة الطعام كانت تعادل الجزية ، قال : « ان أهل الجزية بمصر صولحوا فى خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل و ( عسل )

الأحوال نلاحظ فرقا واضحا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين ، وموقفها منها أيام العباسيين ، ففي العصر الأول كانت للولادة اهتمامات أخرى الى جانب العناية بشئون المال : كان هناك اهتمام بالانشاء والتعمير وبناء الأساطيل وما الى ذلك ، أما في العصر العباسي فقد كان الاهتمام موجها نحو الجباية وحدها ، وهذا لا ينطبق على مصر وحدها بل على بقية نواحي الدولة الاسلامية الأخرى .

ويلاحظ بصفة عامة أن الشئون المالية سارت سيرا طيبا حتى نهاية العصر الأموي ، والسبب في ذلك يرجع الى أن عمال الأمويين كانوا بصفة عامة على جانب طيب من الأمانة والكفاية الادارية والمعرفة بما لا بد منه لصالح الدولة وبلادها . ثم ان خلفاء بنى أمية كانوا على الجملة ذوى فهم حسن لشئون المال وتديير لما يصل اليهم منه ، وكانوا أميل الى الاقتصاد في نفقاتهم ، وكانت ادارتهم بسيطة لا تشكو كثرة الموظفين وثقل رواتبهم كما سيصير اليه الحال أيام العباسيين . ولا يتسع المقام هنا للكلام على ولادة الأمويين في مصر ، فان الكثيرين منهم يستحقون من المؤرخ وقات طويلة . ويكفى أن نذكر أن عددهم نحو ٢٨ واليا حكموا نحو ١١٢ سنة ، أى بمتوسط أربع سنوات لكل منهم ، وقد طالت مدد بعضهم حتى زادت على عشرين سنة ، ولم تقصر مدد

الولادة الا في أيام هشام بن عبد الملك ، فانه كان عظيم الاهتمام بشئون المال ، ولهذا فقد كان اعتماده الحقيقي على عامل الخراج وخاصة عبيد الله بن الحبحاب ، فقد تصرف هذا الأخير في الأمراء حتى عزل منهم أربعة برأيه ، ولم تطل مدة الخامس وهو الوليد ابن رفاعة الا بعد أن انطوى تحت جناح ابن الحبحاب .

وكان الكثيرون من هؤلاء الولاة من أمراء البيت الأموي ، وأهمهم عبد العزيز ابن مروان الذى تركه أخوه عبد الملك بن مروان على مصر من ٦٥ الى ٦٨٥/٨٦ — ٧٠٥ ، وكان من خيرة الولاة وأحسنهم . أما أعظم أولئك الولاة جميعا فهو عمرو بن العاص دون شك ، فقد فتحها وتولاها أول مرة من ٢٠ الى ٦٤١/٢٤ — ٦٤٦ ، ثم عاد اليها وتولاها مرة أخرى من ٣٨ الى ٤٣ / ٦٥٨ — ٦٦٣ ، وهو من مؤسسى مصر الاسلامية وواضعى قواعد الحكم فيها . وكان عمرو رجلا ذكيا واقعيا فاهما لشئون الادارة والمال ، وكان له فهم عميق لنفسيات الناس وقدرة على كسبهم الى جانبه . وقد توثقت العلاقات بينه وبين المصريين وطالت ممارسته لشئونهم حتى أصبح وكأنه مصرى يناضل عن حقوق المصريين . وموافقه من عمر بن الخطاب فى ذلك معروفة ، وهو من غير شك أول رجال مصر الاسلامية وأبدهم أثرا فى تاريخها . وكان لمصر أيضا أثر بعيد فى حياته ،

ففتح مصر هو الذي تقدم به الى الصف الأول من رجال الدولة الاسلامية ، بحيث أصبح بعد قليل من رجالها المعدودين . وقد تعلق قلبه بمصر فلم يعد له أمل بعد عزل عثمان اياه عنها الا العودة اليها ، وفي سبيلها انضم الى معاوية وقام بدوره المعروف في الفتنة التي أعقبت مقتل عثمان . ولو تركه عثمان بن عفان واليا على مصر ، أو لو ولاه اياها على بن أبي طالب ، لاتجهت الحوادث في دولة الاسلام وجهة أخرى . وقد عرف مؤرخو مصر قدر عمرو فأحاطوه بهالة من التقدير والاعجاب وتصدوا للدفاع عنه ، واليهم يرجع الفضل فيما يحتله عمرو من المكانة في كتب التاريخ والصحابة .

والمهم لدينا أنه وضع لمن بعده تقليد العناية بشئون البلاد ومرافقتها والرعاية لأهلها ، وعلى آثار عمرو سار من جاء بعده من ولاة الأمويين . فلما جاء العباسيون تغير الأمر جملة ، وتمهد الطريق لاستبداد الولاة بشئون مصر ، وهو ما سيحدث على يد أحمد ابن طولون ومحمد بن طغج الاخشيد من بعده .

وقد ظهرت بوادر هذا التغير من أيام أبي جعفر المنصور ( ١٣٦ — ١٥٨ / ٧٥٣ — ٧٧٥ ) فبدأ يظهر بوضوح تركز اهتمام الخلافة في شئون المال . ولم يكن هذا التطور قاصرا على مصر ، بل شمل الدولة الاسلامية كلها ، لأن الدولة العباسية احتاجت منذ قيامها الى

أضعاف ما كانت تحتاج منه الدولة الأموية . والنسب الأول في ذلك تغير الأساس العسكري الذي كانت الدولة تقوم عليه ، فبينما كان اعتماد الدولة الأموية قائما على أجناد الشام من العرب ما بين قيسية وكنية ، أصبح اعتماد الدولة العباسية على الخراسانيين . وكان الجندي العربي أيام الأمويين يكتفى بما تقيء عليه أجناد الشام ( أى كور الشام العسكرية ) ، فقد كان خراجها اقطاعا عسكريا لهم ، وما فضل عن ذلك من ايراد الولايات كان يغطي نفقات الخلفاء والجيوش الفاتحة ، وتبقى بعد ذلك منه جملة صالحة ينفق شيء منها في المنشآت والبنيات ويدخر الباقي . وكانت جيوش الدولة في الولايات تنال أرزاقها وأعطياتها من الايراد المحلي ، ولم يكن للدولة الأموية في الحقيقة جيش قائم ، فقد أمنوا بين جندهم في الشام وسرحوا معظم القوى العسكرية تفتح في كل وجه .

فلما جاء العباسيون احتاجوا الى جيش ضخم يحميهم ، فاستنفدت نفقات هذا الجيش معظم ايرادهم ، لأنه كان جيشا مرتزقا طامعا يحتاج الى المال الكثير ، ثم ان الادارة العباسية اتجهت منذ أيام المهدي الى الاسراف والأبهة ، وتعقدت الادارة وأدخل وزراء الفرس فيها كل مساوئ الادارة السياسية القديمة ، فبدأ العجز المالي يظهر من أيام الهادي ، وأحس به الرشيد احساسا

واضحاً وسعى لعلاجه ، ثم خرج الأمر عن الضبط جملةً من أيام المعتصم ، وأصبحت الدولة العباسية في الواقع دولة مفلسة مالياً يجتهد الخلفاء والوزراء في مداراة أفلابها بوسائل غير طبيعية ، وابتداءً من أيام الواثق تصبح المشكلة المالية مرضاً عضالاً لا سبيل أنى علاجه ، وعلى صخرة العجز المالى تحطمت خلافة بنى العباس شيئاً فشيئاً قبل أن تتحطم ادارياً وسياسياً .

للخراج ، وكانت الخلافة تطلق أيديهم يفعلون ما يريدون حتى يجيئوا بما ضمنوه من المال ، وابتدع الولاة ضرائب شتى أنكرها الناس ، ولكنهم دفعوها بالخوف والرهبة ، وتمهد الطريق لاستبداد رجل كأحمد بن طولون بشئون مصر على أساس ضمان مبلغ معين للخلافة .

#### الاسلام والتعريب :

فاذا تركنا هذه الناحية المالية جانباً ، وهى حجر الزاوية فى البناء الادارى لمصر فى عهد الولاة ، وجدنا أمور المصريين تجرى فى مجراها العادى بعد الفتح مباشرة ، وكأنما لم تتغير الأحوال ولم يذهب زمان ويقبل زمان ، وتبدو البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح فى هدوء يستوقف النظر ، ربما كان ذلك نتيجة لما عاناه المصريون من متاعب وقلقل خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، فلما تخلصوا أخيراً من شقاء البيزنطيين مالوا الى الدعة والسكون كأنهم يستجمعون . ثم ان العرب خلال هذه السنوات الأولى كانوا فى شغل بشئونهم وفتوحهم ، فقد كانت الدنيا قد فتحت أمامهم من كل وجه ، فمضت جيوشهم تفتح شرقاً وغرباً ، وأقبلت خلف الجيوش جماعات من مهاجرة العرب تستقر فى البلاد المفتوحة . ففى خلال الخمسين السنة الأولى من تاريخ الاسلام انتشر عشرات الألوف من العرب المهاجرين فى العراق وفارس ومصر

وفىما يتصل بمصر بدأ هذا التحول الخطير من أيام أبى جعفر المنصور ، فقد فكر فى أن يضمّ خراج مصر ، أى يبحث عن رجل يضمن خراجها بمبلغ معين ، فعرض على واليه عليها محمد بن الأشعث أن يضمن له خراج مصر ، فرفض محمد بن الأشعث خشية العجز ، فأقام الخليفة على الخراج رجلاً خاصاً هو نوفل بن الفرات . وأخذت مطالبة الخلفاء بالأموال تشتد ، وكثر عمال الخراج الى جانب الولاة ، وقلت ثقة الخلفاء فى هؤلاء فأخذوا يعزلون ويولون ، فتولى مصر للمنصور ثمانية ، وللمهدى تسعة ، وللرشيد ثلاثة وعشرون ، وللمأمون سبعة عشر وهكذا . وبدأ الناس يشكون من ثقل الجبايات بل يشورون بسببها ، واحتاج الولاة الى القيام بحملات على النواحي لجمع ضرائبها ، وفى القرن الثالث الهجرى نجد الادارة تستخدم القوة والضرب فى استخراج أموالها ، وأصبح الولاة فى الحقيقة ضمّاناً

والمغرب والأندلس ، وكانت الأرض واسعة  
وفي رحابها متسع لأوائلك العرب المهاجرين ،  
وكان جانب كبير من أراضي هذه النواحي  
قد ضيعه الإهمال ، وكان في حاجة الى نظام  
عادل يطمئن اليه الناس والى أيد عاملة .  
فأما الاستقرار فقد أتى به الفتح الاسلامي ،  
وأما الأيدي العاملة فجماعات العرب المهاجرة  
التي أشرنا اليها . وهنا نجد عرب اليمن  
يقومون بالجانب الأكبر من ذلك العمل ، وإذا  
كان عرب الشمال — وفي مقدمتهم قريش —  
قد حملوا عبء الفتوح واشتغلوا بالسياسة  
والادارة ، فإن عرب اليمن عرفوا كيف يجنون  
الثروات ، فقد كانوا شعبا ميالا الى الاستقرار  
له عهد بعيد بالزراعة وما يتصل بها من أعمال  
الحضارة .

فبعد فتح العراق مباشرة نجد بطون لخم  
تزحف شرقا وتستقر في نواحيه ، وتسرع اليها  
جماعات أزد اليمن ، فيكثر عددها حتى غلبت  
على أرض السواد ، ثم زحفت فروع منها  
غربا فعمرت غربي ايران ثم امتدت الى  
خراسان ، وشيئا فشيئا أصبحت هذه النواحي  
وكانها مستعمرة يمنية عقدت زعامتها بلواء  
أزد اليمن ، وكانوا أكثر القبائل عددا .  
أما العمال وجندهم فكانت غالبيتهم من  
القيسية . وبدأ التنافس بين الجانبين ، ثم  
اتتهى الى صراع دموي انتهى باضعاف جانب  
العرب في فارس وخراسان . فبينما ساد  
العرب هذا الجناح الشرقي من دولة الاسلام

في منتصف خلافة هشام بن عبد الملك حتى  
بدأت اللغة العربية تحل محل الايرانية ، نجد  
هذه الأخيرة تعود الى مكانها في نهاية العصر  
الأموي ، ثم انتهت سيادة العرب واللغة  
العربية بمجيء العباسيين وتقضيلهم  
الخراسانيين على العرب . وبدأت الفارسية  
تغلب على السنة العرب الباقين هناك حتى  
نسى الكثير منهم لغته وأخذ يتكلم الفارسية .  
وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا في  
مصر، لولا أن الظروف هنا اختلفت عنها هناك،  
ولم تبلغ القيسية في مصر مبلغا يمكنها من  
منافسة الكلبية ، فخلا الميدان تقريبا لهذه  
الأخيرة ، فسارت في طريقها محتفظة بقوتها  
وهيبة العروبة والعرب أمام السكان ،  
وتمكنت من نشر العربية والاسلام ، كما  
فعلت في المغرب والأندلس .

كان معظم رجال الجيش العربي الفاتح  
من عرب اليمن . نستنتج ذلك من أسماء  
القبائل التي نزلت الفسطاط واتخذت بها  
خططا ، أي أحياء . فإذا استثنينا نفرا من  
قريش ، وكان عددهم قليلا ، وجدنا أنفسنا  
أمام أغلبية يمنية تستوقف النظر : مهرة ،  
تجيب ، لخم ، جذام ، بنو بحر ، غافق ،  
حزرموت ، يحصب ، معافر ، سبأ ،  
بنو وائل ، مذحج ، غطيف ، بكلي ، خولان ،  
الصدف ، وغير هؤلاء كثير . ولا شك أنه  
كان بين هؤلاء كثيرون من عرب جنوبي  
فلسطين وسيناء وشرقي الدلتا وصحراء مصر

وقد حرم عمر بن الخطاب على جنود العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف الى مطلب آخر من مطالب الحياة ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب عامة ، لأن التحريم على الجند ضرورى وطبيعى ، أما على عامة العرب فغير معقول أو ممكن . وينبغى أن نذكر أن العرب لم يكونوا جميعا جندا مدونين ، فكيف يحرم عمر العمل على عربى عادى هاجر بنفسه وأهله الى بلد كمصر ليرتزق ويعيش ؟ من الطبيعى أن تكون قد وجدت فى مصر وغيرها جماعات عربية مدنية ، وهذه هى التى اشتغلت بالزراع والضرع وشئون المعاش دون أن يكون فى ذلك مخالفة لأمر عمر ، وهذه الجماعات يصعب احصاؤها ، وهى التى انبثت من أول الأمر بين الأهلين فى كل ناحية واختلطت بهم ، وهى صاحبة الفضل الأكبر فى تعريب ألسنة الناس وتحويلهم الى الاسلام ، لأن الجند العربى ظل منفصلا بنفسه فى معسكراته ، وأشهرها القسطنطينية ، ولذلك لم تتح له الفرصة للاتصال بالناس ، ومن هنا فان دوره فى التعريب وادخال الناس فى الاسلام قليل .

وسواء بحثنا فى العراق أو فى مصر أو الأندلس ، فاننا نجد الغالبية العظمى من هؤلاء الذين انبثوا بين الناس كانوا من عرب اليمن أول الأمر ، ثم لما غلب الأنصار على أمرهم فى معتك السياسة العربية ، واقتزع

الشرقية ، فمن انتسب منهم الى قبيلة من هذه فقد انضم اليها ، والا اندرج تحت جماعة عامة كانت تضم أفناء من القبائل ، سميت أهل الراية . وكانت هناك أيضا جماعات قيسية قليلة ، وقر من العرب الذين كانوا يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون الحمراء ، وقر قليل من بقايا فرس اليمن الذين استعربوا وكانوا يسمون الفارسيين . وعلى طول العصر الأموى كان تيار الهجرة العربية نحو مصر مستمرا ، ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من اليمن . وقد بلغ من أمر اليمنية أن من ولى مصر من القيسيين كانوا يحرصون على أن يتقنوا باستقدام قبائل قيسية الى مصر : حدث ذلك فى أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن رفاعة وولاية عبيد الله بن الجحباب على الخراج ، فكثرت جماعات القيسية بمصر ، ولكنها لم تنزل القسطنطينية ، وانما شرقى الدلتا : حوالى بلبليس أولا ثم امتدت شمالا وجنوبا حتى عمرت ما عرف بالحوف الشرقى ، ونزلت كذلك فى غربى الدلتا ، فيما يعرف الآن باسم البحيرة فعرف بالحوف الغربى . أى أن كتلة كل جذم من جذمى العرب الكبيرين نزلت فى ناحية غير ما نزلته الأخرى ، وربما كان هذا هو السبب فى أنه لم يقع بمصر هذا الصراع الدموى بين قحطان وعدنان الذى قضى على سلطان العرب فى فارس وخراسان وكاد يقضى عليه فى الأندلس .

من هنا كان من العسير تتبع حركة الاسلام والتعريب ، لا في مصر وحدها بل في نواحي الدولو الاسلامية الأخرى ، فهي عملية طبيعية بدأت منذ البداية وسارت سيرا لم يتنبه اليه أحد ، وتمرضت هنا وهناك لظروف أعانت عليها أو عطلتها حينما ما ، ولكنها مضت في طريقها . ففى فارس مثلا نجد الاسلام ينتشر بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية ، وفي الأندلس سار الاستعراب بأسرع مما سار الاسلام ، وفي مصر سار الأمران جنباً الى جنب لأسباب تتعلق بحالة المسيحية واللغات التي كان الناس يتكلمون بها في مصر عندما دخلها العرب .

فأما فيما يتصل بالمسيحية ، فقد كان اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغاً عرض أصول العقيدة النصرانية للابهام والغموض في نظر الناس . ولم تكن العقيدة المسيحية اذ ذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد ، وكانت المجامع الدينية تسعى نحو التحديد وتعمل على التقرير ، ولكن شئون المجامع شابتها أهواء الأشخاص وعصبيات النواحي ، وأفسد أمرها تدخل الأباطرة لأغراض سياسية حيناً وشخصية حيناً . وكانت مصر ، من بين بلاد الدولة البيزنطية ، قد اتجهت في تفسير معضلات العقيدة النصرانية اتجاهاً واحداً حرص البطاركة والقساوسة والرهبان على الاستمسك به من أول الصراع الى نهايته . وهو القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ،

المهاجرون الأمر منهم ، ترك الأنصار ميدان السياسة وانصرفوا الى مطالب العيش ، والأنصار يعدون في جملة اليمينية . وكلما انهزم فريق من العرب في ذلك المعترك انصرف أفراده الى طلب العيش في الأمصار أو الزراعة في الأرياف . ولهذا فقد كانت السياسة تلقى في ميدان الحياة العامة بفريق من العرب بعد فريق ، وهذه الجماعات المنهزمة هي التي حققت للاسلام والعربية نصرهما الحقيقي في بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس ، ومن أفرادها تكونت معظم الجماعات التي اشتغلت بالعلم والدرس في مركز الدولة والأمصار .

ولهذا فمن الخطأ أن يقال ان العرب بدأوا يتخلون عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالي من أيام هشام بن عبد الملك مثلا ، لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية طبيعية بدأت منذ البداية . وجدير بنا أن نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عربيتهم أو اعتزازهم بها ، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربي ، وتزاوجوا معهم وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية ، فأولاد العرب عرب ، ومن ثم فإن أعداد العرب في النواحي كانت في زيادة ، وكانت لهم امتيازات معنوية ومادية بحكم الدين والأصل واللغة ، وهذه الامتيازات كانت مما حجب الى الناس الانتساب اليهم ، ودخول الاسلام واتخاذ أسماء عربية ، بل اصطناع أنساب عربية .

وقد كسب رأى المصريين أنصارا كثيرين في الشام وآسية الصغرى بل في القسنطينية نفسها ، واستطاع بطاركة عظام من أمثال ديوسقوروس وكيرلس الاسكندرى أن يكسبوا انتصارات كبرى في المجامع الدينية ، واستيقظت القومية المصرية أثناء هذا الصراع حتى أصبحت المونوفيزية — وهى القول بالطبيعة الواحدة — مظهرا من مظاهر القومية المصرية .

وقد تنهت الدولة البيزنطية الى هذه الناحية ، وبذلت أقصى جهدها حتى انتصرت على رأى المصريين في مجمع خلقيدونية ، الذى يسمى في كتب التاريخ القبطى بمجمع اللصوص . ومن تاريخ ذلك المجمع انفصل المصريون انفصالا روحيا تاما عن كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما أيضا ، وأخذت الدولة البيزنطية تستعمل مع المصريين أقصى وسائل الاضطهاد لصرْفهم عن عقيدتهم دون جدوى . فلما غزا الفرس مصر نفر المصريون منهم أول الأمر بسبب ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة ، ولكنهم أحسوا لأول مرة بفضائل الانفصال بكنيستهم عن تلك الدولة البيزنطية التى لم يعرفوا في أيامها الا المتاعب والاضطهاد . فلما خرج الفرس وعاد البيزنطيون عادت معهم الاضطهادات والمتاعب وندبت الدولة ذلك الأسقف المتعصب قيرس أسقف فازيس ليقضى على مقاومة المصريين ويهدم كنائسهم .

وقد كانت نتيجة هذا الصراع الطويل وما تخلله من بلبلة الأفكار بسبب المذاهب الكثيرة التى اقترحتها الدولة رغبة منها في التقريب بين المذاهب المختلفة ، واجتهاد رجال الدولة في فرض هذه الآراء ، كانت نتيجة ذلك كله أن ضعف أمر المسيحية في مصر ضعفا شديدا ، وتبليت أفكار الناس ، بحيث لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل ، حتى ذهب بعض مؤرخى النصرانية الى أن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية ، وقال ليفيشر : « ان المسيحية لم تغير شيئا من روح الجنس المصرى ، ولم تصل الى التأثير في الحياة الخاصة للأفراد ، ولم تتحول الأرواح تحولا صادقا الى المسيحية » . وقال جاستون ثييت : « ان الشيء الذى لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الدينى . ان نصرانية الأقباط اقتصرت على منازعات عقيدية مع البيزنطيين ، واننا نلاحظ عندهم منذ زمن مبكر معارضة تقوم على كبرياء ، بل ربما استطعنا أن نقول اننا نلمح عندهم شعورا قوميا سلبيا . وقد ظهر هذا الروح القومى المصرى بأجلى مظاهره بعد مجمع خلقيدونية . وكان هذا من الواضح بحيث يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان تعصب الأقباط للمونوفيزية في حقيقته كراهة للسلطان البيزنطى قبل أن يكون اقتناعا بعقيدة » .

وهذه الأقوال كلها لا تقوم على فهم صحيح للنفس المصرية ، وتتجاهل حقيقة حال النصرانية خلال القرن السادس وأوائل السابع الميلاديين . فالواقع أن العقيدة المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين في طور التكون ، وكان الأساقفة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تحديد أصولها ، أما الرجل العادي فكان في حيرة من أمره ، لم يستقر بعد على شيء واضح فيما يتصل بأصول دينه ، وكانت آثار الوثنية باقية ما تزال تختلط بمفهوم المسيحية عند معظم العوام . وقد أثبتنا في دراستنا لفتح العرب للأندلس أن نواحي كثيرة من شبه الجزيرة الايبيرية كانت لا تزال على الوثنية ، وينطبق هذا على مصر ، فمن المغالاة أن تقول ان أهل القطر جميعا كانوا في أوائل القرن السابع مسيحيين ، أو أن المسيحيين منهم كانوا عارفين بأصول العقيدة وشريعتها ، بل كانت مراكز المسيحية المعروفة في مصر ، مثل الاسكندرية وبابليون وقيوس ، في خلاف بعضها مع بعض .

وكان الرأي السائد عند زعماء الأقباط قريبا جدا من الاسلام ورأيه في السيد المسيح عليه السلام ، ولم يكن من العسير لهذا أن يتحول الكثيرون منهم الى الاسلام دون جهد كبير ، خاصة وأن الاسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، واقناع الناس به لا يحتاج الى شرح أو تفصيل طويلين ، وهو بالنسبة لمسيحيي

مصر والشام ومن اليهم في ذلك الحين كان مخرجا مريحا من متاهة المذاهب المتضاربة ومشاكل الطبيعة الواحدة والطبيعتين ، حتى ان بعض المسيحيين لم يروا في الاسلام اذذاك الا مذهبا جديدا من مذاهب المسيحية ، فالانتقال مما كانوا عليه الى الاسلام لم يكن في نظر الكثيرين منهم خروجاً من دين الى دين ، فاذا أضفنا الى ذلك ما أصاب كنائس الأقباط من هدم ورجال دينهم من اضطهاد وتشريد على أيدي البيزنطيين ، بحيث بات الكثير من النواحي بلا كنائس ولا قساوسة ، تصورنا سهولة انتقالهم الى الدين الجديد .

ثم ان الدخول في الاسلام ينقل المصري أو المغربي أو الاسباني الى مرتبة الحكام وأصحاب الدولة ، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومغارم كثيرة ، ويجعلهم بنجوة من المعاملة الخاصة التي كان بعض العمال يختصون بها الذميين . وقد أشار المقرئى إشارة غير مقصودة الى العلاقة بين انتشار العرب في الأرياف وانتشار الاسلام فيها ، قال : « ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحواف الشرقى ، فلما كانت المائة الثانية من سنن الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

وربما بدا غريبا أن نقول ان مراكز تجمع الجند العربى ، في الفسطاط والاسكندرية والحيزة مثلا ، لم تكن بذات أثر كبير في

منحطة تعرف بلاتينية العصور المتأخرة  
Le bas latin لا نحو لها ولا ضوابط ،  
أغارت عليها لغات الجرمان في كل ناحية ،  
واختلطت هذه بتلك وبدأت تنشأ لهجات  
في النواحي ، ثم أخذت اللهجات تتقارب حتى  
نشأت اللغة المحلية ، سواء آكانت فرنسية  
أو إسبانية أو جرمانية . ولم تكن لهذه اللغة  
القبطية صورة ثابتة بعض الشيء الا في بعض  
الكنائس وفيما كتبه بعض قساوستها . ثم  
انها ، حتى في هذه الدوائر القليلة ، تأثرت  
تأثرا عظيما باللغة الاغريقية ، بل فضل بعض  
كتاب مصر أن يكتبوا بالاغريقية .

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالاغريقية  
أي أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا في الكتابة  
ولا في الكلام .

ثم دخلت اللغة العربية لغة كاملة غنية  
قادرة على التعبير عن كل شيء ، ولها كتابة  
ثابتة معروفة ، ثم هي لغة الاسلام والقرآن  
والحكام ، فلا غرابة في أنها غلبت غيرها دون  
مشقة وأخذت تغلب على السنة أهل الوادي .  
وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على  
المغرب والأندلس أيضا . وليس معنى ذلك  
أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في  
مصر دفعة واحدة ، وانما نحن بسطنا الأسباب  
التي مهدت الطريق أمامها ، أما انتشارها  
نفسه فعملية بطيئة تمت على مر السنين . وإذا  
نحن قرأنا كتابا مشمل « القضاة والولاة »  
للكندي استطعنا أن نتبع بعض خطوات

انتشار الاسلام في البلاد . ولكن هذا هو  
الواقع ، لأن هذه المراكز ظلت مراكز عربية  
صرفة ينزلها نفر من المصريين ، ولكنهم  
لا يتصلون فيها بالعرب هذا الاتصال الذي يؤدي  
الى التفاهم وانتقال الآراء والعقائد ، فقد كانت  
الفسطاط مثلا معسكرا لا ينزله أهل البلاد ،  
ويعيش فيه العرب في أحياء كل حي منها  
خاص بقبيل من العرب ، وهذه الأحياء هي  
التي تسمى الخطط ، وفي الاسكندرية عاش  
الجند العربي في مساكن خاصة به عرفت  
باسم الأخاند ، وكذلك حول العرب موضع  
« الجيزة » الذي اختطوه الى حصن ،  
وقسموه خططا تشبه خطط الفسطاط ، وقد  
ظلت هذه المعسكرات مغلقة على من فيها  
زمن طويلا ، فلم تكن بذات أثر في انتشار  
الاسلام ، انما كانت ذات أثر في انتشار  
العربية وثقافتها ، فقد كانت مراكز عربية  
صرفة ، ونشأت في الفسطاط بصفة خاصة  
مدارس علمية وفقهية كان لها أبعاد الأثر في  
تعريب ألسن الناس ، وفي جعل مصر مركزا  
من مراكز الثقافة العربية الرئيسية .

وانتشرت العربية جنبا الى جنب مع  
انتشار الاسلام ، وقد ساعدها على الانتشار  
أن المصريين في ذلك الحين لم تكن لهم لغة  
واحدة يتفاهمون بها في كل مكان ، فقد  
كانت اللغة القبطية اذ ذلك في دور التكون .  
كانت كلغات أوروبا مثلا خلال القرنين الخامس  
والسادس الميلاديين : بقايا لهجات لاتينية

هذا الانتشار ، وذلك من خلال عشرات الحكايات التي يوردها الكندي في أخبار القضاة . ولكننا نفهم من كلام الرحالة أن اللغة العربية لم تسد ألسنة أهل مصر جميعا حتى القرن السادس الهجري ، فعلى بن سعيد مثلا يشكو من أن الناس في مصر لا يفهمون « لسانه العرب » تمام الفهم ، بل ان الشرييني صاحب « هز القحوف » يقول ان الفلاحين في بعض النواحي كانوا يتكلمون في أيامه بلهجات خاصة بهم .

وجدير بنا أن نشير الى أمرين كان لهما عظيم الأثر في انتشار الاسلام واللغة العربية في مصر : الأول قرار عبد الملك بن مروان سنة ٧٠٦/٨٧ بتعريب الدواوين ، فقد كانت نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط — ممن كانوا يتولون الوظائف — الى الدخول في الاسلام وتعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم . نعم ان قرار عبد الملك لم يطبق بحذافيره ، وظل كثير من الأقباط يتولون الوظائف العامة ، ولكن معرفة العربية كانت شرطا لازما لاحتفاظهم بهذه الوظائف . والأمر الثاني هو قرار المعتصم باسقاط العرب من الدواوين وقطع أعطيائهم أثناء ولاية كيدر نصر بن عبد الله فيما بين سنتي ٢١٦ و ٨٣١/٢١٩ — ٨٣٤ ، فقد أصبح العرب بذلك رعية ، شأنهم وشأن الأقباط سواء ، وزالت الحواجز بين الجانبين ، وأصبحت البأ واحدا على الدولة وأتراكما .

ويبدو أن اندماج العرب في الحياة العامة بمصر كان اذ ذلك قد سار شوطا بعيدا ، لأن هذا القرار لم يكن له رد فعل عنيف بين العرب ، فبينما كنا نتوقع أن ينكره عرب مصر على بكرة أبيهم ، لا نلاحظ الا استنكار نقر من لخم وجذام لم يزد عددهم على خمسمائة ، قضى الوالى على مقاومتهم وانتهى كل شيء . وقد استنتج قبيت من شواهد القبور أن العرب احتفظوا بالاتساق لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فكانوا يحرصون على أن يكتبوا على شاهد القبر — الى جانب اسم الميت — القبيلة التي ينتسب اليها ، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجري ، وأصبح الناس ينسبون الى أقاليمهم .

وعلى أى الأحوال نستطيع القول بأن اللغة القبطية فقدت أهميتها تماما خلال القرن الرابع الهجري ، فاننا نجد كتاب الأقباط — مثل سعيد بن البطريق وساويرس الأشمونيني — يكتبون بالعربية ، وكانت كتاباتهم موجهة الى الأقباط ، فلو كانت القبطية أجرى على لسانهم لكتبوا بها ، أما وقد كتبوا بالعربية ، فذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة الناس أقباطا وغير أقباط . وذلك أكثر انطباقا على لغة الكتابة ، ولا ينفي أن الكثيرين من أهل النواحي ظلوا يتخاطبون بالقبطية ، ولكنها كانت في طريقها الى الزوال ، حتى لم يبق منها

في مطالع العصر الحديث الا بقايا قليلة في  
دوائر ضيقة .

ولنلاحظ — الى جانب ذلك — أن هذه  
العملية تمت في مصر دون ارهاق أو ضغط ،  
بل لم تتم نتيجة لسياسة خاصة للدولة  
الاسلامية ، فان الدولة لم تكن لها سياسة  
معينة في نشر الاسلام أو اللغة . وكان ذلك  
من حسن الحظ ، فاختار الاسلام من اختاره  
طائفا عن اقتناع ، وتعلم العربية من تعلمها من  
تلقاها نفسه بدافع من مصالحه . بل ان المتتبع  
لأخبار مصر ، خلال القرن الأول الذي تلا  
الفتح ، يلاحظ وكأنما كانت سياسة الحكام  
دافعة الى احياء المسيحية المصرية ، فقد قطع  
العرب صلة مصر بالدولة البيزنطية فتنفس  
المونوفيزيون الصعداء ، وأقبلوا يرثون ما  
وهى من أمور عقيدتهم وكنائسها ، وتركهم  
العرب ينظمون شئونهم الدينية كيف شاءوا :  
ينتخبون البطرك الذي يريدون ويعيدون بناء  
الكنائس المتهمة ، بل يبنون كنائس جديدة ،  
ويزيلون الأسماء الاغريقية عن قراهم  
ونواحيهم ليحلوا محلها أسماء قبطية .

ومعظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية  
الى الآن انما بنيت أيام الأمويين ، مثل كنيسة  
أبي مقار وكنيسة القديس مرقس  
بالاسكندرية ومارجرس وكنيسة الحمراء  
المعروفة بأبي مينا وما اليها ، بل كان كبار  
الفقهاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن  
لهيعة يرضون عن ذلك ويقولون انه « من

عمارة البلاد » . ونم تطبق على أقباط مصر  
القيود الخاصة باللباس والركوب والمباني  
والكنائس — التي نسبها نمر من الفقهاء  
الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه — الا في  
مناسبات قليلة ، و لانكاد نجد واليا متشددا  
في هذه الناحية الا أعقبه وال متسامح رحب  
الصدر يعيد أمر الأقباط الى ما كانوا عليه .  
فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه في مصر في  
سلام حتى نهاية العصر الفاطمي بل بعده ، فاذا  
كان قد أصابهم بعد ذلك حيف فقد أصاب  
المسلمين مثله ، وكان الرعايا جميعا مع  
حكامهم في بلاء منذ القرن السادس الهجرى ،  
مسلمين وغير مسلمين .

لهذا لا ينبغي أن نقف طويلا عند ما  
يحصيه بعض المستشرقين من ثورات الأقباط  
على حكام المسلمين . ولو أننا أحصينا  
ثورات المسلمين أنفسهم على حكامهم  
لوجدناها أكثر وأبعد مدى ، خاصة وأن هذه  
الثورات لم تشتد وتأخذ هيئة جديرة  
بالملاحظة الا في عصر بنى العباس . وأسباب  
هذه الثورات كلها مالية ، وهى جزء من  
المتاعب المالية التى ارتبكت الدولة العباسية  
فيها . ويكفى أن نذكر أن أكبر هذه الثورات  
كانت في سنة ٢١٦/٨٣١ أيام المأمون — وهى  
الثورة التى أزجعت المأمون وجاءت به الى  
مصر ليتلافى أمرها — فلم تكن هذه الثورة  
التي عمت الوجه البحرى كله ثورة أقباط ،  
بل شارك فيها العرب أيضا ، أى أن الحيف

الذى دفع اليها كان عاما على الجميع ، وهى نتيجة مباشرة لسياسة المعتصم عندما ولاء أخوه الخليفة المأمون أمور القسم الغربى من دولة بنى العباس . وقد أرسل المعتصم قائده الافشين فأخمد ثورة العرب المشتركين فى الفتنة ، ولم يستعص عليه الا أهل البشرد ، وهى ناحية بشمال الدلتا جنوبى بحيرة البرلس ، وكان أهلها ذوى عنف وشنودة ، يعتصمون بمستنقعات نواحيهم فلا يصل اليهم أحد . وكانوا فى حالة ثورة دائمة على الحكم العربى ، وقد حاول المأمون الاستعانة عليهم باثنين من بطاركتهم دون جدوى ، فوجه كل قوته نحوهم حتى أخضعهم فى أواخر سنة ٢١٦ / أواخر سنة ٨٣١ ، وكانت هذه آخر ثوراتهم وثورات الأقباط أيضا . وفى أثناء زيارة المأمون هذه لمصر حدثت قصة المثرية مارية القبطية بقصرية طاء النمل ، التى استضافت المأمون وأصحابه وقدمت له هدية عشرة أكياس من الذهب ، وقد رواها المقرئى فى خطه . ومهما استبعدنا من مبالغاتها ، فهى تدل على رخاء هذه الناحية من نواحي شرق الدلتا فى تلك الأيام . وبين هذه الثورة وقيام دولة أحمد بن طولون سنوات قليلة لا تزيد على ثمان وثلاثين .

#### الأحوال العامة - الزراعة والصناعة والتجارة :

هكذا جرت الأحوال فى مصر بعد الفتح الاسلامى عاما فعاما : ازدهرت شئونها وأمن أهلها ورخيت أحوالها خلال العصر الأموى ،

ثم بدأ يصيبها ما أصاب غيرها من نواحي الدولة الاسلامية من الاضطراب والضيقة والفتن ابتداء من العصر العباسى . ولكن الأحوال على الجملة سارت سيرا طيبا مقبولا : أقبل المصريون على عملهم الأبدى فى الأرض معتمدين على عدالة الحكم الاسلامى . ولا حاجة بنا الى تعداد محاصيلها ، فهى هى التى نعرفها فى كل أعصرها القديمة والوسطى ونكتفى بالإشارة الى الكتان ، فقد كان — بعد القمح — أهم محاصيل مصر الاقتصادية ، وكان المصريون ينسجونه فى نواح شتى اشتهرت بالمناسج . وكانت المنسوجات التيلية المصرية مشهورة فى العالم الاسلامى كله ، ولما كان القطن والحرير قليلين فقد كان نسيج الكتان هو الغالب ، وكان المصريون ينتجون منه نوعا عاديا رخيصا لعامة الناس وأنواعا أخرى رقيقة غالية يباع الدرهم من بعضها بدرهم فضة ، وقد اشتهرت بهذه الأنواع الرقيقة الاسكندرية وتيس ، وكان نساوجهما يخرجون ثيابا غاية فى الرقة يسمى الواحد منها البدنة ، « لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار » . وكان أهل دمياط ينسجون نوعا يسمى القصب يغلب أنه كان نوعا من الدتلا . واشتهرت بالنسيج أيضا شطا ودميرة وتونة ، وكلها

قرب تنيس ودمياط . وكان الصوف والقطن ينسجان بالبهنسا والقيس والأشمونين واخميم واهناس وبوصير قريديس من بلاد مصر العليا ، واشتهرت اخميم خاصة بالحرير . ويبدو أن الحكومة كانت تحتكر أنواعا من النسيج ، وقد ورثت الادارة الاسلامية في مصر ذلك عن الادارة البيزنطية التي كانت تحتكر الحرير . وكان النساجون المصريون يخرجون ما يصنعونه ملونا وسادجا ( وهذا أصل لفظ « سادة » ) وقد ينسجونه بخيوط الذهب والفضة ، وقد يزينونه بالكتابات . وكان النسيج الذي يخرج من المناسج التي تحتكرها الدولة يسمى بالطراز ، غير أن لهذا اللفظ مدلولات كثيرة ، أهمها أقمشة خاصة بالدولة ورجالها ، ثم أصبح معناه مصنع النسيج ، فكان يقال « طراز العامة » أى منسج عام ، و « طراز الخاصة » أى منسج تملكه الدولة . وعلى الجملة فقد كانت مصر أعظم مركز للنسيج في العالم الاسلامي ، ومن مناسج مصر لبس الخلفاء والأمراء ، ومن مصر كان التجار يحملون النسيج في كل وجه . وكانت كسوة الكعبة تصنع في مصر منذ أيام عمر بن الخطاب ، ولا زال الأمر على ذلك الى الآن عاما بعد عام .

ويلي النسيج في الأهمية من صناعات مصر صناعة السفن ، فقد دلت الأبحاث على أن مصر كانت اذ ذلك أعظم مركز لها في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط .

وقد بدأت عناية المسلمين بالسفن والأساطيل بعد فراغهم من أمر تحصين سواحل البحر الأبيض التي تحت سلطانهم ، واقامة المحارس على السواحل وشكها بالمقاتلة ، واقامة « المناظر » وهى أبراج تقام لمراقبة الشواطئ وتنظيم « المواعيد » وهى مواضع توقد فيها النار للإشارة ، ففى مصر مثلا كانت اشارات المواعيد تنتقل من موقد لموقد حتى تصل الأخبار من الساحل الى القسطنطينة فى زمن قليل . ثم بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية بأساطيلهم ، وظهرت هذه العناية بوجه خاص فى مصر ، فحفر العرب خليج أمير المؤمنين ، وهو قناة تخرج من النيل شمالى القسطنطينة وتصل الى خليج السويس عند القلزم . واهتموا بإنشاء السفن التي تحمل القمح وما اليه من القسطنطينة الى القلزم ومنها الى الحجاز ، فأنشأوا لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة ببصر ، ولهذا سميت بجزيرة الصناعة ، وقد أظهر المصريون براعة فائقة فى بناء السفن ، فبنشأ أسطول نهري . ثم خطوا بعد ذلك خطوة أخرى فأنشأوا سفنا كبيرا تخوض المعارك الحربية .

وكان اهتمام المسلمين بصناعة السفن جزءا من اهتمامهم العام ببحريتهم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وصاحب الفضل فى تلك الحركة معاوية بن أبى سفيان ، فقد اهتم أثناء ولايته على الشام بإنشاء السفن فى موانئ الشام اهتماما أخاف الدولة البيزنطية ، فقرر

امبراطورها قنسطانز أن يقضى على تلك القوة البحرية الاسلامية في مهدها ، فتصدى له المسلمون وأوقعوا بالأسطول البيزنطى هزيمة موقعة الصوارى أو ذات الصوارى ٣٤ / ٦٥٥ التى نقلت سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض الى أيدي المسلمين . وكانت نواة الأسطول الاسلامى الذى كسب هذا النصر شامية ، ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر . فبينما سار معاوية بسفن الشام الى قيصرية بآسية الصغرى ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبى سرح وكان يقودها نواتية من المصريين ، بل كان من بينها سفن ليس فيها الا أقباط . وكانت هذه الموقعة حافزا للمسلمين على الاهتمام بشئون الأساطيل ، ويبدو أن دار الصناعة فى جزيرة الروضة فتحت أعين المسلمين على أهمية هذه الدور ، فقد قال البلاذرى : « انه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم سواحل الشام ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا » . وظلت مصر طوال العصر الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل مركزا من أهم مراكز بناء السفن ، وظل قبضتها مشهودا لهم بالتفوق فى انشاء الثغور البحرية حتى كان يستعان بهم فى كل ناحية من نواحي المملكة الاسلامية .

وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو ، والتى ترجع الى عصر الوليد

ابن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة فى مصر ، فى جزيرة الروضة وفى القلزم والاسكندرية . فبعض تلك الأوراق يدلنا على أن الوالى قره بن شريك كان كثيرا ما يطلب من صاحب كورة أشقاو أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى اعداد الأسطول المصرى الحربى . كما تدل تلك الأوراق على أن الوالى كان يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى ، كما كان يفرض على الكورة قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها . كذلك كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يعملون فى الأسطول ، كما كان والى مصر يرسل بعض الملاحين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسى وعصرى الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف مصر عن الاهتمام بشئون البحر الا فى أيام المماليك كما يقول المقرئى . ولدينا وثيقة يردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ / ٨٥٠ تعطينا فكرة عن عظيم اهتمام ولاة مصر بدفع البيزنطيين عن سواحل مصر ، ومقدار ما كان المصريون يعانونه من المتاعب للقيام بالخدمة فى الأسطول وحماية شواطئ الاسلام . وكانت مصر تستورد الخشب اللازم لبناء

السنن من الشام ، وربما من آسيا الصغرى  
وبعض بلاد أوربا .

الصناع في مصر ، من المصريين . وكانت  
أغليبتهم ، أو كلهم ، في أول عهد الفتح من  
الأقباط . والى أواخر القرن الهجرى الأول  
وأوائل الثامن الميلادى كانت صيغة الطابع  
الذى يطبع على الورق « الآب والابن وروح  
القدس » ، ومع أن هذه الصيغة استبدلت  
فيما بعد بما يتفق والدين الاسلامى ، الا أن  
الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على  
ظهر أوراق الحكومة .

والى جانب هذه الصناعات الرئيسية  
اشتهرت مصر بصناعات تقليدية أخرى  
كالنجارة والحفر على الخشب والخزف  
والزجاج وصناعة المعادن ، وكل هذه  
صناعات متوارثة من العصور القديمة . فاذا  
أضفنا إليها ما كانت مصر تصدره من الجوب  
وتستورده من الخامات تبينا أن تجارة مصر  
في ذلك العصر كانت نافقة ، وأن القلم  
ودمياط والاسكندرية ورشيد كانت وافرة  
النشاط . فلم يضمحل أمر الاسكندرية  
وتتحول الى قرية لا أهمية لها بعد الفتح  
الاسلامى كما يقول بعض المستشرقين ، فقد  
زارها بعد الفتح الاسلامى بنحو ثلاثين سنة ،  
أى سنة ٥٠ — ٥١ هـ / ٧٦٠ ، آر كولف  
أحد حجاج بيت المقدس ووصفها بأنها ملتقى  
التجارة العالمية . ويذكر آدم ميتز أن  
الاسكندرية وبغداد كانتا تقرران في القرن  
الرابع الهجرى الأسعار العالمية ، ولا سيما  
في البضائع الكمالية .

وكان البردى خلال عصر الولاة من أهم  
منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، فقد  
كانت أوراق البشنين تنمو بكثرة في  
مستنقعات الدلتا والفيوم ، وشهرة المصريين  
بعمل الورق منه معروفة . قالت الدكتورة  
سيده الكاشف : « ويذكر ابن الفقيه في  
أواخر القرن الثالث الهجرى أن لأهل مصر  
القراطيس التى لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر  
اليقوبى أن القراطيس كانت تصنع في بورة ،  
وهى على ساحل البحر من عمل دمياط ، وفي  
مدينة أخينو وهى على ساحل البحر غربى فرع  
رشيد ، ويقال لها وسيمة . وطالما كان الناس  
يستعملون البردى للكتابة كانوا يعتمدون على  
مصر . أما في القرن الرابع الهجرى فيحدثنا  
الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس  
مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها  
لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون  
الا بسمرقند والصين . ويذكر كراباتشيك  
أن صناعة ورق البردى للكتابة انتهت في مصر  
بالاجمال حوالى القرن الرابع الهجرى ،  
والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل  
الينا ينتهى في عام ٣٢٣/٩٣٤ على حين أن  
الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها  
عام ٣٠٠/٩١٢ ، وهكذا نرى أن مصر كانت  
طوال عصر الولاة تقريبا تكاد تحتكر صناعة  
الورق . وكان صناع الورق ، كغيرهم من

## الفسطاط والجيزة ومنازل العرب في الاسكندرية

وفيما عدا ثورات الأقباط التي أشرنا إليها ، لا تذكر أصول تاريخ مصر الاسلامية من الحوادث التي وقعت فيها الا ما يتصل بمن نزلها من العرب ، سواء أكان ذلك خاصا بمن أقاموا في مراكز العرب كالفسطاط والجيزة والاسكندرية أو من تفرق منهم في فواح من مصر السفلى كالحوفين الشرقي والغربي ، بحيث يمكن القول بأن تاريخ مصر الذي تقرأه عند ابن عبد الحكم والكندي مثلا إنما هو تاريخ الجاليات العربية في مصر . فقد عاش العرب في الفسطاط خاصة منفصلين عن بقية الأهلين ، الا فيما يتصل بما تقضى به ضرورات الحياة ، وتنفرد الفسطاط من بين ما أنشأ المسلمون من مدن في ذلك العصر الأول بأنها كانت مركزا عربيا خالصا كأنما لم يغادر عربها جزيرتهم . فبينما نجد الكوفة والبصرة غاصتين بأهل العراق الأصلاء ، والقيروان مدينة غالية سكانها ممن أسلم من البربر ، وقرطبة مدينة اسبانية حلت فيها الجالية الاسلامية ، نجد الفسطاط تبدو من أول الأمر مدينة عربية خالصة لا يسكنها غير العرب ويسودها جو عربي خالص .

وهي ، على خلاف البصرة والكوفة ، ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط مبنية البيوت ، في حين أن هاتين أنشئت أول الأمر بالقصب ، ثم استبدل القصب بمباني اللبن فيما بعد . ولا يتصور هذا الا على فرض أن

وكانت العملة المستعملة في مصر هي الدينار الذهبي ، وكسوره الدراهم الفضية ، وربما استعملت كسور هذين وهي الدوايق والأنشاش البرونزية ، ولكن الأساس هو الدينار الذهبي بوزنه البيزنطي . وقد ظل وزن الدينار البيزنطي ثابتا معترفا به حتى أيام الأسرة المقدونية . وكان ثبات وزنه أساس الثقة فيه وضمان سلامة الميزان الاقتصادي للدولة البيزنطية ، حتى ان اختلال وزنه اعتبر من العلامات الحاسمة الدالة على انهيار أمر هذه الدولة . وعن البيزنطيين أخذ المسلمون الدينار بوزنه ورسمه أول الأمر ، ثم بدأوا يسكون دينارا اسلاميا من عهد عبد الملك بن مروان . ولكن الدولة الاسلامية لم تحافظ على وزن دينارها ، فاضطربت قيمته وقلت الثقة فيه ، وأصبحت الدنانير سلعة كغيرها تقدر بوزن ما فيها من الذهب ، وظل الناس يفضلون الدينار البيزنطي الثابت الوزن ، وظلت العملتان مستعملتين جنبا الى جنب مع اختلاف في قيمتهما .

وقد احتفظت مصر بالدينار كأساس لمعاملاتها ، في حين أن العراق مثلا أصبح يتعامل بالدراهم الفضية لقلّة الذهب وتعرضه للفسخ . وكان وزن الدينار المصري ثابتا على الغالب ، وذلك لأن الأمراء وعمال الخراج وولاة الشرطة حرصوا على تثبيت أوزان العملة على أساس صنع زجاجية رسمية مطبوعة بأسمائهم .

الفسطاط انما نشأت على أساس موضع كان مسكونا قديما ، أعاد العرب تخطيطه وتنظيمه بمعاونة أهل البلاد . فلم يكن العرب بنائين ، وليس لدينا ما يدلنا على أنهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم ، وما تقوله المراجع من أن اسمها مشتق من فسطاط عمرو بن العاص فرض لا يمكن رفضه تماما ، وان كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «فوساطون» اليوناني بمعنى الحفير أو الخندق . وقد سبق أن أشرنا الى أن المنطقة الواقعة بين قصر الشمع ( حصن بابليون ) الى ما يعرف الآن بعين شمس كانت عامرة بالقرى والمزارع والأديرة ، فاختر العرب أن تكون مدينتهم بينها .

القبط ، وكان الود بينه وبينهم متبادلا ، فكان يشاورهم في الكثير من شئون البلاد . والغالب أيضا أن هذه المساحة بالذات كانت من أملاك الدولة ، فاستصفاها عمرو ، ثم قسمها قطعا هي المعروفة بالخطط ، ويرجح أن الخطط لم تكن متساوية ، وأن كلا منها لم يكن حيا واسعا ، بل قسمت الأرض بحسب الظروف والحاجة ، فان الرواة يذكرون لنا مثلا خطة عبد الرحمن بن ملجم ، أعطيت له بأمر عمر بن الخطاب ليتخذ فيها منزلا يعلم الناس فيه القرآن ، وابن ملجم هذا هو الخارجي المشهور الذي اغتال على بن أبي طالب رضوان الله عليه .

ومن الدلائل على أن أهل البلاد كانوا يشتركون في الانشاء ، أن عمرو بن العاص بنى حماما فاستصفره القبط وقالوا : يصلح للفأر ، أى أن انشاءه لم يعجبهم . أما حمامات مصر فكانت ديماسات كبارا ( جمع داموس وهو البناء الكبير ، من Domus اللاتيني ، ثم أطلق على ما يعرف اليوم بالمستوقد ، ومنه يقال : فول مدمس ، أى منضج في الداموس أو الديماس ) ، ثم كانت حمامات الفسطاط بعد ذلك كبارا نتيجة للملاحظة أولئك المصريين . ثم اختط عمرو مسجده ، وهو أقدم مساجد مصر ، وان كان قد عدل وهدم وبنى من جديد بعد ذلك مرارا ، ولا زال باقيا الى اليوم ، ويعرف لقدمه بالمسجد العتيق . ثم اتخذ عمرو داره شرقي المسجد وبنى

وقد كانت عادة المسلمين في ذلك العهد اذا أرادوا أن ينشئوا مدينة ، أن يبدأوا ببناء مسجد جامع تقوم من حوله المباني بعد ذلك . هكذا حدث مع الكوفة والقيروان مثلا ، أما في حالة الفسطاط فقد بدأ العرب بتخطيط المدينة ، أى بتحديد المكان الذي ستقوم فيه وتقسيمة خططا ، بل أقام عمرو بن العاص رجلا من أصحابه مشرفا على هذه العملية وهو معاوية بن حديج الكندي ، الذي سيكون له دور عظيم في نصرمة معاوية بن أبي سفيان ثم في فتح المغرب بعد ذلك . ونستبعد أن يكون هذا الأسلوب المرتب في الانشاء من عند عمرو نفسه ، بل يغلب أنه استرشد فيه برأي من كان حوله من كبار

تسمى خطة اللقيف . وكان الوافدون من العرب ينزلون في خطط قبائلهم ، فلما ضاقت الخطط أنشئت خطة جديدة عرفت بخطة أهل الظاهر .

وكانت هندسة الخطة أول الأمر بسيطة :  
تقيم القبيلة منازل على حدود خطتها ، وتترك ما تدور عليه فضاء . وقد ضاق هذا الفضاء شيئاً فشيئاً بإنشاء مبان جديدة فيه وتحول إلى جزائر من المباني تتخللها الدروب والأزقة . ولهذا فلم تكن في الفسطاط القديمة شوارع رئيسية أو محجات تأخذ من طرف لطرف . قال ابن زولاق : « وفرق عمرو بين الروم والفرس ، وجعلهم في طرفي البلد ، فأسكن الروم الحمراءوات ، وأسكن الفرس بنى وائل وراشدة وبساتين بنى وائل ، ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين ، وأسكن القبط القصر ، وأسكن العرب الخطط » ، أى أنه جعل من انضم إلى جيشه من عرب فلسطين الذين كانوا يعرفون بالحمراء في طرف البلد الجنوبي على شاطئ النيل في الغالب ، لأن الموضع الذي نزلوه عرف بالحمراء الدنيا فيما بين حصن بابليون والنيل . ثم ابنتى الناس صفوفاً من المنازل على شاطئ النيل زحفوا بها إلى الشمال ، وقد نشأ عن ذلك ما عرف بالحمراء الوسطى ثم الحمراء القصوى . أما القصر الذي أسكنه الأقباط ، فالمراد به ما يلي قصر الشمع إلى الجنوب ، أى أنه أنزلهم خارج البلد .

أصحابه الدور فيما يجاوره . وكانت الدور أول الأمر من طبقة واحدة ، ولا تزيد غرف البيت عن ثلاث أو أربع . ولابن دقماق صاحب كتاب « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » مبالغات فيما حرص المسلمون عليه من البساطة في الأبنية . ولم يكن بحاجة إلى تكلف ذلك كله ، فإن الأمر بطبعه لم يكن ليخرج عن هذه البساطة .

وقد استطاع روغن جست أن يضع رسماً للفسطاط الأولى اعتماداً على أطلالها وبقيّة أسس بيوتها التي تم كشفها ، وأتم عمله الأثرى المصرى على بهجت . وقد ذهب إلى أن البلد كان يمتد من القرية الواقعة جنوبى القاهرة والتي كانت تعرف بدار الطين ثم عدل اسمها إلى دار السلام ، وتصل حتى بركة العجش وقد جفت الآن ، وكانت تقع قرب المرتفع الذى كان يعرف قبلاً بجبل يشكر ويعرف موضعه الآن بأسم أرض طولون ، وعليها يقع جامع أحمد بن طولون . وكان في كل خطة منسوبة إلى قبيلة ديوان أو سجل بالمقيدين في الجند الرسمى من أهلها ، وفي دار الامارة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو ادارة احصائية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المشتركين في الجيش وأبنائهم ممن لهم الحق في الانتظام في الجندية والحصول على العطاء والرزق . وكان لأهل الراية ديوان خاص في خطتهم ، وكانت هناك خطة للعرب الذين لا ينتمون إلى قبيلة بعينها ، وكانت

وشيئا فشيئا اختفى اسم بابليون وبقى اسم الفسطاط . وكان اسم مصر يطلق على الفسطاط أيضا ، وأطلق فيما بعد ذلك على القاهرة . أما النصوص اليونانية فأطلقت على البلد اسم فساطون ، وهذا هو الذى حدا بالمستشرق دوزى الى القول بأن لفظ الفسطاط مشتق من فساطون اليونانى . ويقوى هذا الرأى أن بعض النصوص العربية تقول فسطاط ، ويضعفه أن البلد لم يحط أول الأمر بخندق وانما حصن بزرب أو زربية ، وهو السور يتخذ من نبات ذى شوكة .

ولابد أن نضيف أن العرب لم يضعوا اسم مصر لهذا الموضع وانما كانت تستعمله قبل دخولهم القبائل العربية الضاربة في شمالي الجزيرة بمعنى الحدود أو الحد ، وربما استعمل أيضا للمعسكر الذى يقوم على الحدود . ويرجح أن أصله نبطى ، فلما أنشأ العرب المراكز العسكرية سموها أمصارا ، فقالوا مصر الكوفة ومصر البصرة . ويرجح أنه كان يطلق أيضا على موضع حصن بابليون ، ثم قالوا مصر الفسطاط ، ثم أطلقوا الاسم على بلاد مصر كلها . أما الاغريق فكانوا يقولون Aegyptos وقد أخذ هذا الاسم طريقه الى اللغات الأوروبية . أما اسم مصر القديم وهو خيمى أو شيمى أو كيمي فقد اختفى نهائيا .

ولم تكن الفسطاط عاصمة مصر بقدر

ما كانت مركزا للعرب ، ففى أثناء العصر الأموى نجد عبد العزيز بن مروان ينقل دار الامارة الى حلوان . ولم يتم العمال خلال العصر العباسى فى الفسطاط وانما فى موضع بالحراء القصى عرف بدار الامارة . وقد نشأت حول دار الامارة بليدة صغيرة عرفت باسم مدينة العسكر ، أقيم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع العسكر أو جامع ساحل الغلة . وقد أفادت الفسطاط من ذلك لأن مباني البلدتين اتصلت ، فعادت الى الفسطاط أهميتها كعاصمة ، وأنشئت لها شرطة خاصة عرفت باسم الشرطة العليا . وقد اتسعت الفسطاط وازدحمت بالناس شيئا فشيئا ، ولكنها لم تسور . وفى سنة ٦٤/٦٨٢ حفر عامل ابن الزبير على مصر حفيرا حول الفسطاط ليحميها من جنود الخليفة مروان ابن الحكم . وقد أنشئت فيها المنشآت الحكومية الواحدة بعد الأخرى ، فممر الجامع العتيق ، وأنشئت مساجد صغيرة فى الخطط عرفت بالمصليات ، ثم أنشئت أهراء كبيرة للقمح ذكرت فى النصوص الاغريقية ، ثم أنشئ بيت المال على مقربة من الجامع ، وكان يقوم على أساطين أى أعمدة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسى داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يخلى من المصلين بعد العشاء . وقد أصيبت الفسطاط بكوارث كبيرة خلال العصر الذى ندرسه ، أقساها احراق مروان بن محمد اياها سنة ١٣٢/٧٥٠

أثناء فراره أمام العباسيين ، حكى ذلك ساويرس بن المقفع . وقد استمرت مدينة العسكر مقام الأمراء حتى قدم أحمد بن طولون مصر وأقام دولته معتمدا على جنده الأتراك ، وأنشأ القطائع . وستحدث عن ذلك فيما بعد .

وقد ذكرنا أن نقرا من العرب نزلوا موضع الجيزة واختطوا مدينة الجيزة وجعلوها خططا ، وكان معظم من نزلها من العرب من قبيلتي همدان وياق . وقد بنى عمرو بن العاص في المدينة حصنا فيما بين سنتي ٢١ و ٢٢ / ٦٤١ - ٦٤٢ ، ثم بنى فيها مسجد جامع عرف باسم مسجد همدان وينسب الى مراحق بن عامر بن بكيل ، وقد عرف أيضا بالمسجد الأعظم لاتساعه وكان ملاصقا للحصن . وقد تلاشى الحصن والجامع فلا نجد لهما ذكرا عند ابن دقماق .

أما الإسكندرية فلم ينشئ العرب الأولون فيها شيئا ، وإنما نزلوا في مياكن كانت لبعض الروم وختل بخروجهم من مصر ، فكانت تسمى الأخاند . وكان المسلمون يسكنون هذه البيوت في رباطهم ، فاذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ، ثم استقروا بها بصورة نهائية .

أهم أحداث مصر من الفتح العربي الى قيام دولة أحمد بن طولون

هذه هي المراكز التي تجمع فيها العرب من أول الأمر ، وقد عاشوا فيها كما قلنا

حياتهم العربية الخالصة متصلين اتصالا دائما ومباشرا بأبناء عموماتهم في الجزيرة العربية ، ولهذا فقد كان تأثيرهم عظيما بكل ما يقع في شبه الجزيرة من الأحداث ، مثلهم في ذلك مثل عرب الكوفة والبصرة وما اليهما . ولهذا فان تاريخ هذه الجماعات يعتبر جزءا من تاريخ الخلافة عامة لا من تاريخ مصر فحسب ، وبينما ظل أهل مصر بعيدين عن الفتن الكبرى التي هزت كيان الدولة الاسلامية خلال القرنين الهجريين الأول والثاني اشترك عرب مصر في هذه المشاكل كلها وقاموا بدور حاسم في الكثير منها . فقد ألقى عرب مصر بأنفسهم في معمعان الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وليس هنا موضع تفصيل ذلك ، وإنما يهنا أن نلاحظ أن عبد الله بن سبأ الذي يقال ان أصله من يهود اليمن وجد أذنا صاغية من اليمنيين في مصر ، فكان الذي دفع عرب مصر الى الايضاع في هذه الفتنة هو استنكار جماعة اليمنية لما أبلغهم اياه بعض الدعاة من أن فريقا من قريش مستبد بالأمر مضيع لشئون المسلمين . أما من انضم الى الحركة من القرشيين فكانوا ينكرون استبداد بنى أمية بالأمر دون غيرهم من القرشيين باسم الخليفة عثمان ، وقد زاد نفورهم تولية عثمان أمور مصر أخاه من الرضاع عبد الله ابن سعد . وقد بذل الرجل جهدا عظيما ليثبت أنه جدير بثقة الخليفة ، فقام بحملة كبرى على

المغرب ، واتصر على الروم في سببلة سنة ٦٤٧/٢٧ انتصارا لا يقل عن انتصار عمرو على الروم عند بابلون ، ثم غزا النوبة وأرغم أهلها على معاهدة المسلمين سنة ٦٥١/٣١ ، ثم كسب انتصار ذات الصواري سنة ٦٥٤/٣٤ ، ولكن ذلك كله لم يشفع له ، وأصر عرب مصر على انكاره وكرهتهم له .

وربما كان من أسباب هذه الكراهة اجتهاده في جمع المال والارتفاع بالخراج حتى جمع منه فوق ما جمع عمرو بن العاص . وبينما كان عبد الله بن سعد مشتغلا بهذه الفتوح كان ابن سبأ ومن انضم اليه يكيدون له ، فلما عاد من غزوة ذات الصواري سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ تبين حقيقة الأمر ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ومضى الى المدينة ليلقى الخليفة . فلم يكذ يخرجه من مصر حتى ثار عربها على عقبة وطرده وتزعهم محمد بن أبي حذيفة ، وربما كان غرضهم الأول التخليص من والي عثمان عليهم ولكنهم وجدوا من عثمان اصرارا على واليه ، فزادوا سخطا . وتشجعوا عندما علموا أن غيرهم من عرب الأمصار الأخرى يشاركونهم الرأي في ولاية عثمان ، فبعثوا الى المدينة بجماعة منهم يقال ان عددهم كان ٦٠٠ رجل ، وفي المدينة التقى هؤلاء بغيرهم من الثوار وتطور الأمر حتى انتهى بمقتل عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٣٥ / مايو ٦٥٥ .

وقد انكمش المناصرون لعثمان على

أنفسهم أثناء ذلك كله ، وعرفوا بالعثمانية ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة ، وعرفوا كيف يحافظون على وحدتهم ومركزهم أثناء ذلك الوقت العصيب . والتف حولهم نفر من عرب مصر ، وثبتوا لخصومهم ، رغم ما بذله محمد بن أبي حذيفة والي علي على مصر من الجهود ، ثم أقبل اليهم معاوية ابن أبي سفيان بنفسه والتقى بهم في سلمنت من كورة عين شمس سنة ٣٦ / ٦٥٦ واحتال على محمد بن أبي حذيفة حتى تخلص منه ، فولى عليّ عليّ مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، فدخلها سنة ٣٧ / ٦٥٧ ولكن معاوية وعمرأ عرفا كيف يوقعان بينه وبين عليّ فعزله ، وولى مصر الأشتر بن مالك بن الحارث النخعي فدبر معاوية اغتياله ، فولى عليّ محمد بن أبي بكر فلم يستطع الثبات لأنه كان رجلا طائشا قليل التدبير ، لم يلبث عمرو بن العاص أن انتصر عليه واستعاد مصر لمعاوية سنة ٣٨ / ٦٥٨ ، أي قبل مقتل علي بستين .

ويبدو أن هذا الانكار لاستثثار بني أمية بالأمر دون غيرهم هو الذي دفع بغالبية عرب مصر الى تأييد عبد الله بن الزبير عندما طلب الخلافة لنفسه عام ٦١ / ٦٨٠ . ولم يكن يقتصر ذلك على عرب مصر بل شمل عرب الحجاز واليمن والعراق وكثيرا من عرب الشام . ومن الواضح ان عامة العرب لم يكونوا قد سلموا

وخروج الأمر عن أيديهم بدأ يوم مرج  
راهط .

وقد اهتم مروان بأمر مصر اهتماما  
عظيما ، وأسرع إليها ليستعيدها من والي  
عبد الله بن الزبير عليها وهو عبد الرحمن بن  
عتبة بن حَجدَم الفهري . وقد أبلى ابن  
جحدم بلاء عظيما في دفاع مروان بن الحكم  
وجنده ، ونفر عرب الفسطاط لعونه ، وكانت  
غالبيتهم يمنية ، ولكنهم انهزموا بنفس السبب  
الذي هزَمَ اليمنية في صراعها مع الشامية في  
كل ناحية من نواحي الدولة ، وهو أنهم كانوا أكثر  
استمساكا بما كانوا منصرفين إليه في الولايات  
من زرع وشرع وشئون معاش ، في حين أن  
الشامية كانوا قليلي الاهتمام بهذه الناحية ،  
انما همهم الحقيقي في السياسة وطلب  
السلطان ، فكانوا أصبر من اليمنيين على  
الكفاح السياسي والعسكري ، وربما كسب  
اليمنيون انتصارات أولى ، ولكنهم لم  
يكونوا يصبرون في الصراع الطويل ، ولهذا  
عقدت الانتصارات النهائية دائما بلواء  
القيسية . وقد دخل مروان بن الحكم  
الفسطاط سنة ٦٨٥/٦٥ وبإيعه عرب مصر  
الا قهر قليل تخلص منهم مروان بوسائل شتى .  
وقد انصرف يمنية مصر بعد ذلك عن المناوأة  
واستغرقوا في شئون المعاش ، فهدأت أحوالها  
إلى نهاية العصر الأموي .

غير أن اليمنيين شعروا منذ أيام يزيد بن  
الوليد أن أمر بني مروان إلى زوال ، فقد

بحق بنى أمية في الخلافة ، وان كانوا قد  
خضعوا للقوة . ويبدو هذا بصورة واضحة  
عند عرب النواحي ، فقد كانوا بعيدين  
عن مركز الخلافة يتمتعون بجانب كبير من  
الحرية ، ويبدو ذلك بصورة واضحة في حالة  
عرب مصر ، فقد كان لهم وضع خاص يختلف  
عن وضع عرب العراق مثلا . فقد كان هؤلاء  
الأخيريون يعيشون من أرض تملكها الدولة  
وليس لهم الا فيؤها . أما عرب مصر فكانت  
رقاب أرضهم بأيديهم أو بأيدي المصريين ،  
ولم يكونوا يخشون أن تنزعهم الدولة من  
الأرض أو تحاربهم بالأسلحة التي حارب  
الحجاج عرب العراق بها .

ومهما كان الأمر فقد كان عرب مصر  
مستعدين لتأييد أى منافس لبني أمية في  
الخلافة ، سواء أكان المنافس ابن الزبير  
أو غيره ، وخاصة عندما اقتنص الخلافة مروان  
ابن الحكم سنة ٦٨٤/٦٤ فقد بدأ بوضوح  
أن المسألة مسألة مهارة وخداع وُغصب  
بالقوة ، ومن قدر على الخلافة حازها  
بصرف النظر عن الحق أو رأى الأمة . وقد  
بدأ مروان بن الحكم أمره بمأساة مرج راهط  
حيث أنزل القيسيون بالكليين هزيمة فادحة  
تردد صداها في نواحي الدولة كلها ، ولم  
ينس اليمنيون مصيبة مرج راهط أبدا ، وظل  
الحقد يغلَى في صدورهم ، ولم يفادروا فرصة  
لزعزعة بناء دولة المروانيين الا ابتدروها ،  
بحيث يمكن القول بأن انهزام بني مروان

الوليد واليا على مصر حتى أوائل سنة ١٢٨ / ٧٤٥ ، وقد روع مروان روعا شديدا لخروج مصر عن سلطانه ، فانتدب لاختضاع عربها رجلا من خيرة رجاله هو حوثره بن سهيل الباهلي ومعه سبعة آلاف من جند حمص والجزيرة وقنسرين ، فخاف عرب مصر ، وتخلي حفص بن الوليد عن الأمر وطلب أنصاره الأمان ، فأمنهم ، ثم غدر بهم وقتل زعماءهم بما فيهم حفص بن الوليد سنة ١٢٨ / ٧٤٥ .

ولم تمض سنوات حتى كانت هزيمة مروان بن محمد أمام قوات العباسيين على نهر الزاب ( جمادى الآخرة ١٣٢ / يناير ٧٥٠ ) ، وشعر بنو مروان وولاتهم أن أمرهم قد انتهى . وهنا نجد فكرة التحصن بمصر تدور بفكر مروان بن محمد ، وحدثه بعض أصحابه بالعبارة التي لا تزال تتردد في أحاديث مؤرخي مصر الاسلامية : « هي أكثر بلاد الأرض مالا وخيلا ورجالا » ، وهي « كليشيه » لا يزال يتردد على ألسنة رجال الدولة ، دون أن يحاول أحد منهم الاستفادة منه ، حتى جاء أحمد بن طولون .

وبينما كان مروان بن محمد يفكر في مهرب يلجأ اليه كان واليه على مصر عبد الملك ابن مروان يستعد لحماية بلده من العباسيين ، وقد ارتكب في ذلك السبيل حماقات ما كان أغناه عنها : صادر أموال الناس واستولى على ما قدر عليه من نحاس وحديد ليستخدم

ضعف أمر القيسية بعد ذلك الجهد الطويل الذي بذلوه في تأييد بنى مروان منذ أيام مروان بن الحكم . واذا كان اليمينيون قد عجزوا عن مواجهة الخلافة المروانية جملة واحدة ، فإن جماعاتهم في كل ناحية من نواحي الدولة أخذت تناوىء من معها من القيسيين ، وظهر ذلك بصورة واضحة جدا عندما ولي الأمر مروان بن محمد ، فقد اعتمد على القيسيين اعتمادا كاملا أخرج صدور اليميين في كل ناحية . وفيما يتصل بمصر نجد واليها حفص بن الوليد الحضرمي ، وكان يمينيا ، يستغنى من ولاية مصر عقب سماعه بتنصيب مروان بن محمد خليفة ، فولى مروان عليها حسان بن عتاهية وعلى خراجها قيس بن أبي عطاء وهما مضرين قيسيان ، فانتصب اليمينيون يقاومونها حتى اضطروها الى الخروج من مصر ، ونصبوا على أنفسهم حفص بن الوليد مرة ثانية .

وكانت دعوة العباسيين قد قوى أمرها وترامت أخبار تجمع قواهم في شرق الدولة الاسلامية ، وربما وصل الى مصر نفر من دعواتهم ، فتشجع اليمينيون وصارحوا مروان ابن محمد بالعداء . وقد اجتهد في اخضاعهم فولى مصر حنظلة بن صفوان الكلبي ، وكان يمينيا من المخلصين لبنى مروان ، وكان قد خاض معارك طويلة في المغرب لم يوفق في شيء منها ، فرفض المصريون الاعتراف به وأخرجوه من القسطنطينية . وظل حفص بن

ذلك كله في شئون الدفاع . فتغيرت النفوس عليه ، ورموا بنى مروان عن قوس واحدة ، حتى اذا بدأ مروان بن محمد يسير الى مصر هاربا من بنى العباس اجتمع نفر من الجند لمنع من دخولها ، ثم أقبل مروان بفلول جيشه ، فوجد عرب مصر جميعا ، من الاسكندرية الى أسوان ، مع العباسيين عليه . ثم انضم اليهم أهل البشمور ( ويسمون أيضا أهل البشرد ) واعتصموا بمستنقعاتهم ، وقضى مروان في مصر نحو الشهرين يحاول أن يجمع أمره دون جدوى .

فلما علم بأن قائدى العباسيين صالح بن على وأبا عون في الطريق الى مصر أمر باحراق القسطنطينية ، ثم أحرق جميع المراكب الراسية في دار الصناعة بالروضة ، ثم مضى جنده يخربون ما استطاعوا تخريبه من أراضي الوجه البحرى ، كأنما ظن أن سياسة « الأرض المحترقة La terre brulée » قد تنقذه من مصيره المحتوم . ولم تكن لذلك نتيجة الا تنفير أهل البلاد جميعا — عربا ومسلمين وأقباطا — فقد شاء له رأيه الدبرى أن يقبض على البطرك الأنبا ميخائيل لأنه لم يؤد اليه مالا معلوما ، وانتهى الأمر بالقبض عليه وقتله في بوصير الملق ( مديرية الجيزة ) في ٧ ذى الحجة ١٣٣ / ٧ يوليو ٧٥٠ . وبهذا لقي آخر خلفاء بنى مروان مصرعه على ثرى مصر ، وأتيح لساويرس بن المتفنع مؤرخ الأقباط أن يحيى هذه المناسبة في تاريخه ،

ويذكر مكافأة العباسيين لآخوانه على ما قاموا به من حرب مروان ، فقد خففوا عنهم الخراج وأطلقوا سراح الأنبا ميخائيل وبسطوا حمايتهم على الكنيسة المصرية وأملاكها ، وأغفوا أهل البشمور من الخراج ومنحوهم مالا على سبيل المكافأة .

هكذا دخلت مصر في طاعة العباسيين ، وتولى أمرها صالح بن على عم أبى عبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس . ولم يعلم عرب مصر الذين استبسلوا في المعاونة على القضاء على بنى مروان أن هلاك آخر مروانى انما هو ايدان بنهاية امتيازهم في مصر ، فقد كانت للعباسيين وجهة أخرى في الحكم غير وجهة الأمويين : قامت دولتهم على غير العرب واختارت عاصمتها على حدود أرض الفرس في بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وابتعدوا بذلك عن الجناح الغربى للدولة الاسلامية ابتعادا شاسعا . وبدأت وحدات هذا الجناح تنفصل عن كيان الدولة الاسلامية الواحدة بعد الأخرى : بدأ الأمر فى الأندلس بقيام دولة عبد الرحمن الداخل ، ثم انفصلت افريقية عندما استقل بأمرها بنو الأغلب على أيام الرشيد ، وظلت مصر بين طاعة وعصيان وحرب وفوضى حتى استبد بأمرها أحمد ابن طولون .

ولقد كثر الخارجون على العباسيين فى مصر كثرة تستوقف النظر ، ففى خلافة المهدي وأثناء ولاية ابراهيم بن صالح بن على ( ١٦٥

— ١٦٧/٧٨١ — ٧٨٣) كاد يستقل بصعيد مصر داعية أموى هو دحية بن مصعب بن الأصبح بن عبد العزيز بن مروان . وكانت كفة المضربة قد شالت وآن الأوان لليمنية لترد اليها ما أسلفت من المساءات أيام عز بنى أمية ، ووقف الحيان وجها لوجه يتقاتلان في نواحي مصر حتى عمت الفوضى ، وزاد الأمر سوءا أن ولاة بنى العباس لم يكونوا على قدرة أو كفاية ولم يتميز أحد منهم بشيء من الخبرة أو حسن الادارة . وكانت الدولة لا تكاد تولى واحدا منهم حتى تغزله ، لا بسبب العجز في ذاته ، بل لأن سياسة العباسيين العامة نفسها قامت على تغيير الولاة خوفا من استبدادهم بالأمر .

ثم ان الولايات بالنسبة لبنى العباس كانت قد أصبحت مجرد مصادر للإيراد ، فمن عرض على الخليفة أن يأتيه بخراج أكثر ولاءه الأمر ، وهى سياسة ساسانية قديمة أدخلها وزراء بنى العباس ، وكما كانت هذه السياسة من أسباب زوال بنى ساسان فقد كانت من أسباب اضمحلال ملك العباسيين . ومن غريب الأمر أن خلفاء بنى العباس كانوا مولعين بالنظر في تاريخ الفرس ، فلو أن الانسان يعتبر بالتاريخ لا يعتبر به العباسيون ، ولكن التاريخ قلما أفاد عبرة أو أعطى درسا ، وكل من ولى أمرا يحسب أنه أول عاقل تربع على عرش أو لبس تاجا .

والتأمل في أحداث تاريخ مصر خلال

العصر العباسى يشعر وكأنما قد تحولت البلاد الى ميدان فسيح للكر والفر ، بين رجال الدولة وخصومهم حيناً وبين بعض قبائل العرب وبعض حيناً آخر . وقد بدأ الأمر بفتنة دحية بن مصعب بن الأصبح المروانى الذى ذكرناه ، وقد طال أمره ( من ١٦٥ — ١٦٩ / ٧٨١ — ٧٨٥ ) ولم يتمكن ولاة بنى العباس من الخلاص منه الا بعد عناء شديد . وكانت ثورات عرب مصر مع العلويين كثيرة كذلك ، وأول فتنة علوية نسمع بها كانت في خلافة المنصور ، قادها أحد العلويين في مصر وهو على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . فقد دعا لأبيه محمد المعروف بالنفس الزكية وانتهى أمره بانتهاء أمر أبيه في وقعة ياخرا بين الكوفة وواسط في أول ذى الحجة ١٤٥/٧٦٢ . ويبدو أن مصر بدت لدعاة العلويين وكأنها تربة خصبة لدعواتهم فكثروا فيها وأخذوا يسيبون المتاعب للولاة ، حتى ضاق العباسيون بأمرهم ، فأمر الخليفة المنتصر واليه على مصر بالألا يتقبَّل علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يخرج من القسطنطينية ، ثم أخرج كل من عثر عليه بمصر من العلويين الى بغداد في رمضان ٢٤٨/٨٦٢ أيام خلافة المستعين . ولا ينبغي أن تصرفنا ثورات هؤلاء العلويين عن الحقيقة التى تستتر تحتها ، وهى كراهة عرب مصر وأهلها لجند الترك الذين اعتمد عليهم العباسيون ، فقد كانوا

غلاظا على الناس شديدي الوطأة على البلاد ،  
ومن ثم فلم يكن الناس يسمعون بدعوة  
علوى الا يسرعون الى تأييدها ، وفي بعض  
الاحيان لم يكونوا بحاجة الى انتظار علوى  
ليقودهم في الثورة ، كما ترى في ثورة جابر  
ابن الوليد المدلجى بالاسكندرية في ربيع  
الآخر سنة ٢٥٢ / نوفمبر ٨٦٦ أيام المعترز ،  
فقد اشتد أمره حتى بسط سلطانه على الكثير  
من بلاد الوجه البحرى وجبى خراجها ، وقد  
اضطر الخليفة الى ارسال جيش كبير الى مصر  
ليقضى على جابر هذا ، فأتى الجيش يقوده  
مزاحم بن خاقان وقضى على الثائر وتولى  
مزاحم أمر مصر في ربيع الأول ٢٥٣ / ٨٦٧ .

وعندما ثارت الفتنة بين الأمين والمأمون  
أحس أهل النواحي أن هيئة الدولة قد  
زالت ، فقد اتهم كل منهما الآخر بكل رذيلة ،  
ولم يكن النزاع بينهما في أول أمره نزاعا بين  
الفرس والعرب كما ذهب كثير من المؤرخين ،  
لأن كلا المعسكرين كان يضم عربا وفرسا ،  
ولكن الأمين عندما بدا له ضياع أمره فكر  
في الاستعانة بعرب الشام ، وأخذ دعائه  
يصورون دعوة الأمين على أنها دعوة العرب  
ودعوة المأمون على أنها قضاء مبرم على  
العرب . وقد تردد في كتب التاريخ صدى  
هذا الدور الأخير الذى أخذه ذلك النزاع  
المحزن بين ابني الرشيد في مصر ، وتزعّم  
جانبا من عرب مصر في الدعوة للأمين السرى  
ابن الحكم بن يوسف وظل يدعوا للأمين

حتى بعد هزيمته . ولكن والى المأمون على  
مصر عباد بن محمد بن حيان استطاع أن  
يتغلب على خصمه ويأخذ بيعة أهل القسطنطينية  
للأمين في جمادى الآخرة ١٩٦ / مارس ٨١٢ .

وقد وقعت في البلاد فتنة عنيفة بعد  
ذلك ، اذ خشي السرى بن الحكم وأنصاره  
على أنفسهم ، واستطاعوا أن يكسبوا عرب  
الحواف الى جانبهم ، وبعث الأمين الى ربيعة  
ابن قيس زعيم القيسيين بالحواف يوليه أمر  
مصر ، فنهض ربيعة بن قيس بهم وأقبل  
يحاصر القسطنطينية . ورأى عباد بن محمد بن  
حيان عامل المأمون أن يكسب الى جانبه نفرا  
من عرب مصر يتقى بهم بلاء أنصار الأمين ،  
فاختار للأمر عربيا طموحا الى السلطان هو  
عبد العزيز بن الوزير الجروى ، فانهزم  
الجروى في ذى القعدة ١٩٧ / سبتمبر ٨١٣  
ومضى بفلول قومه من لحم وجذام الى  
فاقوس ، وهناك ألقى أنصاره في نفسه فكرة  
الدعوة لنفسه . ولم لا ؟ ألم يصبح الأمر  
فوضى لا ضابط لها ؟ وبالفعل ، دعا  
عبد العزيز بن الوزير الجروى لنفسه  
واليا على مصر وبعث عماله لجباية الخراج  
من الوجه البحرى ، وتصدى له السرى بن  
الحكم ومن معه ، وأصبح النزاع في الحقيقة  
بين فريقين من عرب مصر ، على أحدهما  
السرى بن الحكم وعلى الثانى عبد العزيز  
الجروى . وقد طال النزاع بين الجانبين ،  
حتى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ حين أجمع جند

عمر بن هلال يستنجد بالأندلسيين وأدخلهم  
البلد ، ولكن الأهليين أنكروا ذلك وثاروا  
بالأندلسيين وأخرجوهم بعد أن قتلوا منهم  
وطردوا عمر بن هلال أيضا .

وقد استطاع هذا الأخير أن يعود الى  
ولاية الاسكندرية اثر هدنة وقتية بين السرى  
ابن الحكم وعبد العزيز الجروى ، فلما استقر  
فيها طلب اليه الأندلسيون أن يدخلهم مرة  
أخرى ، فخاف أن يقع له ما وقع في المرة  
الأولى ، فما كان منهم الا أن اقتحموا البلد  
بمعاونة طائفة عرفت بالصوفية ، كانوا  
يقولون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
ويعارضون الولاية ، وعاونهم كذلك نفر من  
بنى لخم كانوا في الاسكندرية ، ودارت  
بينهم وبين عمر بن هلال حرب قتل فيها سنة  
٢٠٠/٨١٥ . واستقر الأمر للأندلسيين  
واللخمين في الاسكندرية ، ثم اختلفوا فيما  
بينهم ، ووقعت الحرب فاتصر الأندلسيون  
وأصبحوا سادة البلد ، وولوا عليها عبد  
الرحمن الصوفى رئيس جماعة الصوفيين الذين  
ذكرناهم ، ثم عزلوه وولوا رجلا منهم يعرف  
بالكنانى ، وهكذا انفصلت الاسكندرية عن  
بقية البلاد وحكمها أولئك الأندلسيون .  
وأراد الجروى أن يستخلص البلد ، فسار  
اليها في جيش عدته خمسون ألفا ، ولكنه لم  
يتمكن من ادراك غايته ، لأن منافسه السرى  
أراد أن ينتهز الفرصة ليستولى على مقره في  
تنيس ، فعاد الجروى مسرعا .

الفسطاط على السرى ، ولكن الجروى  
اعتصم بشرق الدلتا من شطونف الى الفرما  
وجبى خراجها ، بل استقل بالاسكندرية  
وما حولها بعض زعماء العرب ، وتفرقت  
البلاد أيدي سبا وعمت نواحيها الفوضى .

وليس أدل على ذلك من استيلاء  
الربضيّين الأندلسيين على الاسكندرية  
واستبدادهم بأمرها في ذلك الحين . وأمير  
أولئك الأندلسيين أقرب الى الأسطورة ،  
فقد كانوا في جملة من ثار على الحكم  
الربضى الأندلسى وكادوا يقضون عليه . فلما  
أخذم فنتتهم واستقر له الأمر أخرج أهل  
ربض قرطبة الجنوبي سنة ١٩٨/٨١٣-٨١٤  
من الأندلس عقابا لهم على قيامهم بهذه  
الفتنة ، فذهب بعضهم الى العدو الافريقية .  
واستقر بفاس وأنشأ لنفسه فيها حيا خاصا  
يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الباقيون فقد  
ساروا بحرا ونزلوا على مقربة من الاسكندرية  
عام ١٩٩/٨١٤-٨١٥ يقودهم رئيسهم  
أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب بن الوليد  
البيثوثى . ولم يؤذن لهم بدخول البلد لأن  
الولاية كانوا لا يسمحون لجماعات  
الأندلسيين بدخوله ، وكان عدد هؤلاء  
الأندلسيين الربضيّين نحو ١٥٠٠٠ رجل  
عدا نساءهم وأطفالهم ، وقد ظلوا خارج البلد  
حتى وقع خلاف بين عامله عمر بن هلال  
وعبد العزيز بن الوزير الجروى صاحب  
السلطان على الدلتا اذ ذاك . فأسرع الوالى

وقد استمر النزاع بين السرى والجروى ثم بين ابنيهما كذلك ، ولم ينته الا عندما قدم الى مصر عبد الله بن طاهر قائد المأمون ، فانضم اليه على بن الجروى ومن معه ، ثم دخل عبد الله بن السرى في طاعته سنة ٢١١ / ٨٢٦ على أمان وعهد . وبعد ذلك سار عبد الله ابن طاهر في صفر ٢١٢ / ٨٢٧ الى الاسكندرية ، وصالح الأندلسيين على أن يسيروا من الاسكندرية الى أى موضع يريدون ، فخرجوا في البحر الى جزيرة كريد فاتزعوها من أيدي البيزنطيين يقودهم زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطى .

وعلى هذا النحو من الاضطراب والفوضى

توالى ولاية بنى العباس على مصر ، لا يكاد أحدهم يستقر حتى يعزل . وكان أمر الولاية كذلك قد هان ، لأن الخلفاء ، أو من يديرون لهم الدولة ، حرصوا على أن يفسلوا الخراج عن الولاية ، ويمهدوا فيه الى رجل ضليع في شؤون الجبهة يضمن لهم خراج مصر بأقصى مبلغ مستطاع ، وقد اشتهر من أولئك رجل يسمى أحمد بن المدبر ، وكان ماليا قديرا بميزان تلك الأيام ، تولى خراج مصر وأثقل الناس بالجبايات حتى لم يبق شيئا دون ضريبة ، وكان لهذا محل ثقة الخلفاء ورجالهم . وفي أيامه دخل أحمد بن طولون مصر واستقر في القسطنطينية في ٢٣ رمضان ٢٥٤ / ١٥ سبتمبر ٨٦٨ وكىلا لصهره عامل مصر للخليفة الموفق .

## دولة بنى طولون<sup>(١)</sup>

### أحمد بن طولون :

أسد الساماني عامل بخارى وخراسان ، أهداه الى المأمون في جملة مماليكه ، فرقاه المأمون حتى صار في عداد أمراء جنده . ويقال ان أحمد ليس ابنه بل تبناه لما توسمه فيه من

ولد أحمد بن طولون في ٢٣ رمضان ٢٢٠ / ٢٠ سبتمبر ٨٣٥ في بغداد أوسر من رأى ، وكان أبوه طولون تركيا من موالى نوح بن

### (١) أصول :

كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢ .

الى جانب المراجع العامة التي أوردنا ذكرها خلال هذا البحث ، انظر :

المحسن بن القاسم التنوخى : الفرج بعد الشدة ، القاهرة ١٣٥٧ .

أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ، نشرها Vollers فى قايما ٦٨٩٥ .

- : جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المسذكرة ، ج ١ طبع مصر ١٩٢١ و ج ٨ طبع دمشق ١٩٣٠ .

- : كتاب المكافاة ، القاهرة ١٣٣٢ / ١٩١٤ البلوى ، عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدينى : سيرة أحمد بن طولون ، نشرها محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ .

الجهشياري : كتاب الوزراء والكتتاب ،

على مذهب الامام الأعظم أبي حنيفة . ولما ترعرع أحمد تزوج بابنة عمه خاتون فولدت له العباس سنة ٢٤٢ ، ولما مات أبوه طولون فوض اليه الخليفة المتوكل ما كان لآبيه . ثم تتقلب به الأحوال الى أن ولى امرة الثغور امرة دمشق ثم ديار مصر .

وقد قال كارل هاينريش بيكر ان أحمد بن طولون يعتبر نموذجا لغيره من الأتراك ، وهى ملاحظة لم يحالفه فيها التوفيق ، لأن ابن طولون كان يختلف عن زملائه الأتراك فى كل شىء . فقد كان سياسيا أرييا واسع الصدر حسن التدبير بعيدا عن التهور عارفا بشؤون المال . وكان الى ذلك مثقفا ذا اطلاع واسع ، وهذه كلها خلال لا نعرفها الا فى القليل جدا من معاصره الأتراك . بل كان هو ينكر خلق

#### أبحاث ودراسات :

أحسن كتاب فى الموضوع هو « الطولونيون Les Tulunides للدكتور زكى محمد حسن ، بالفرنسية ، باريس ١٩٣٣ .  
مادة « الطولونيين » بقلم كارل هاينريش بيكر ، ومادة أحمد بن طولون بقلمه أيضا فى دائرة المعارف الاسلامية .  
آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٤٠ .

A. Muller : *Der Islam in Morgen und Abendland*, I, 557 sqq.

Lane Poole : *A history of Egypt in the Middle Ages*, pp. 59 sqq.

Corbet : *The life and works of Ahmad ibn Tulun* (J.R.A.S. 1891) pp. 527 sqq.

Carl Heinrich Becker : *Beitraege zur Gesche Aegyptens unter dem Islam*, II. p. 148-149.

مغاييل النجابة ، وقد أنكر ذلك أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون . قال أبو المحاسن : « ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل ، وحفظ القرآن وأتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه

حققه الاساتذة السقا والابيارى وشلبى ، القاهرة ١٩٢٨ .

ابراهيم بن محمد المصرى المعروف بابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، نشر الجزئين ٤ و ٥ المستشرق Vollers ، القاهرة ١٣٠٩ .

أمين الدين أبو القاسم على بن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، طبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٢٤ .  
محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ١٩٢٧ .

جمال الدين على بن ظافر الأزدي المصرى : كتاب الدول المنقطعة ، صورة شمسية بدار الكتب المصرية لجزء من مخطوط بالمتحف البريطانى . وهناك مخطوطة أخرى فى جوتا نشر منها فستفلد كتابه الذى سبقت الاشارة اليه عن حكام مصر أيام الخلفاء .

بدر الدين محمود العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج ١٢ .

ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩٣٣ ( الجزء الخامس ) .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، ج ٣ .

المقرزى : السلوك ، الأجزاء المشار اليها سابقا .

ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١  
ابن خلدون : طبعة بولاتى ج ٤ ص ٢٩٧

وما يليها .

أولئك الأتراك قد هبطوا بحزيمة الدولة والخلفاء الى درك اضرب معه ميزان الخلق وتلاشى معنى النظام والمسئولية ، فقضى ابن طولون سنوات شبابه الباكر بعيدا عن ذلك الوسط كله ، وعاد من طرسوس فارسا مكتمل الأدوات ودخل في خدمة الخليفة المستعين فأعجب به وقربه وأهداه جارية تسمى مياس أنجب منها ابنه خمارويه سنة ٢٥٠/٨٦٤ .

وعندما غدر الأتراك المستعين ، طلب هذا أن يكون الموكل بشأه أحمد بن طولون . ثم طلب الأتراك الى ابن طولون أن يقتل المستعين فأبى حفظا للجميل ، فبعثوا تركيا آخر فقتله ، وقام أحمد بن طولون بدفنه بما ينبغي له عليه من حرمة . ثم عاد الى سر من رأى وظل بها الى أن حصل صهره بايكباك — وكان من كبار أجناد الأتراك — على ولاية مصر فبعث أحمد بن طولون الى مصر وكيلا له . وكانت الولاية اذ ذاك لا تخرج عن ضمان الخراج ، أى أن بايكباك ضمن خراج مصر للخلافة بمبلغ معين ، وأرسل صهره وكيلا عنه ليدير البلد ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ، وأقام هو في بغداد ليكون على مقربة من وكر السعيات والمؤامرات مخافة أن يدبر أحد خلعه عن الولاية أو اغتياله .

دخل أحمد بن طولون القسطنطينية في ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ كما قلنا ، ولم يلبث صهره أن توفي فصارت اليه الولاية ، وقد تنبه من أول الأمر الى أن الحكم لا يستقيم له ما دام

الأتراك . روى أحمد بن محمد بن خاقان ، وكان خصيصا عند ابن طولون انه قال يوما : « يا أخى ، الى كم تقييم على هذا الاثم مع هؤلاء الموالي ! ( يعنى الأتراك ) لا يطأون موطننا الا كتب علينا الخطأ والاثم ، والصواب أن تسأل الوزير أن يكتب أرزاقنا الى الثغر . فكتب له ، وخرجنا الى طرسوس ، فلما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سر بذلك » .

وكان لخروج أحمد بن طولون الى طرسوس واقامته فيها أثر بعيد في تكوينه وتاريخه ، فقد كانت اذ ذاك ثغرا عامرا بالمجاهدين والفرسان والمرابطين ، يقضون أيامهم في منازلة من يليهم من الروم والتعبد والقراءة ، فأتقن الفروسية وحصل جانبا كبيرا من الثقافة . وقد انتفع بذلك بقية أيامه ، وكانت ذكرى أيام شبابه في ذلك الثغر عزيزة عليه ، وسنراه فيما بعد يبذل جهدا ومالا عظيمين في سبيل الحصول عليه .

وأهم ما أفاده ابن طولون من اقامته بالثغر ابتعاده عن مجتمع الأتراك في بغداد وسر من رأى ، فقد كان الجو الذي يعيشون فيه قاتما حافلا بالملأسى والمؤامرات ، تختلط فيه شؤون الدولة والرؤساء بشؤون الخدم والجواري اختلاطا جعل الحياة فيه أشبه بالمغامرة ، اذا سلم بدن الانسان من العطب لم يسلم خلقه . وقد كاد أحمد بن طولون نفسه أن يفقد حياته نتيجة لعبث جارية من جواري أبيه ، وكان

الخراج خارجا عن يده ، وكانت الدولة تحرص على أن يظل الخراج في يد عامل خاص ، وكان العامل اذ ذلك أحمد بن المدبر ، فما زال يكيده لابن المدبر حتى عزله وصار اليه الخراج . ثم عهد اليه الخليفة في أن يخرج لحرب أحد الثوار في الشام ، فاستأذن في أن يجمع جيشا لهذه المهمة فأذن له ، فأسرع بتكوين فرقة قوية من الجند كانت نواة جيشه الذي أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية في بلاد الخلافة العباسية . وكانت نواة هذا الجيش من الأتراك ، غير أنه لم يلبث بعد استقراره في مصر أن ضم اليه فرقا من السود ، ووصل بعد قليل الى ما يقارب المائة ألف جندي ، وهكذا اكتملت له أدوات السلطان وسار في طريقه قدما .

وبهذه القوة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضى على كل منافسيه في مصر ، وقد لجأ في ذلك الى كل سبيل مشروع أو غير مشروع ، ووضع على الناس الجواسيس وأخذ بالظنة حتى اشتهر أمره بالعدو والظلم والبطش . وقد حكى ابن الداية فيما رواه من سيرة أحمد بن طولون كثيرا من مساوئه ، وحاول البلوى انضافه والدفاع عنه ، ولكن يبدو أن ابن طولون كان قاسيا مسرفا في الدماء ، ويبدو ذلك واضحا في كلام من دافعوا عنه ، ويبدو أيضا أن ذلك كان في أول أمره ، ثم صلحت سيرته بعد أن استقر له الأمر ومال الى الخير والعدل تكفيرا عما سلف من أعماله .

وقد تعرض ابن طولون لأول خطر جسيم على سلطانه بعد استقراره في مصر ببضع سنوات ، فإن الأمير الموفق كان قد غلب على أخيه الخليفة المعتمد وحصل منه على تفويض بحكم الولايات الشرقية من أملاك الخلافة ، على أن تكون الغربية — ومنها مصر — تحت حكم الأمير المفوض بن المعتمد . ولكن الموفق تعلل بما تحتاجه حرب ثورة الزنج من مال وطلب أن تضم اليه مصر ، طمعا في مالها ، وحصل على موافقة الخليفة على ذلك . وكتب الموفق الى أحمد بن طولون يطلب الأموال ، فرفض ابن طولون ، وأراد أن يظهر للموفق قوته ، فلانتهاز فرصة موت عامل الشام سنة ٢٦٤/٨٧٧—٨٧٨ وسار بجنده واحتل الشام ودخلت الرملة ودمشق وحمص وحماء وحلب في طاعته ، ثم استولى على أنطاكية بعد حصار قصير . وقد فزع الموفق لذلك ، وبينما كان ابن طولون في الشام خرج عليه ابنه العباس في مصر ، وكان نفر من القواد قد غرروا به ، فعاد أحمد بن طولون الى مصر مسرعا ، وأخذ الفتنة وقتل المسؤولين عنها واكتفى بسجن ابنه العباس . ثم عاد الى الشام سنة ٢٦٦/٨٧٩—٨٨٠ ، ومن ذلك الحين يبدو ابن طولون حاكما على دولة واسعة تشمل مصر الى النوبة، وتمتد غربا الى برقة ، وتشمل الشام أيضا .

هكذا انضمت مصر والشام تحت سلطان واحد ، وبدا وكأن هذا التركي الغريب عن مصر قد سار في آثار الفراعنة الأقدمين في ضم

انفصلا انفرد بهما وبجيرانهما المتسلطون  
 والمستهدون . وقد عرف الطامعون في الشرق  
 العربي هذه الحقيقة في العصر الحديث ،  
 فعندما أرادت إنجلترا أن تمهد لنفسها طريق  
 الاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه من  
 بلاد الشرق العربي بدأت بالقضاء على قوة  
 محمد علي في الشام فسهل عليها الأمر بعد  
 ذلك . وما يجرى تحت أنظارنا من أحداث  
 أيامنا خير مضاد لذلك . والكلام هنا ينطبق  
 على الشام بمعناه التاريخي الكامل ، لأن  
 التقسيم الحالي لبلاد الشام شيء جديد  
 فرضته مصالح الطامعين في الشرق العربي  
 خلال النصف الأول من هذا القرن ، وهو  
 إحدى النتائج للحكم العثماني في البلاد  
 العربية .

وخاف الموفق أحمد بن طولون بعد أن  
 اتسع سلطانه الى ذلك الحد ، وبدأ يدبر عليه .  
 وكان ابن طولون واعيا لأمره منتبها لكل  
 ما يصدر عن خصمه ، وكان الى جانب ذلك  
 حريصا على ألا يعلن العصيان على الخلافة ،  
 بل ظل يدعو على منابره للخليفة المعتمد ، ولم  
 يقطع ارسال الأموال الى بغداد ، بل ظل يرسل  
 الى الخلافة ما لها من مال ، حتى ذكر  
 أبو المحاسن أنه حمل الى الخليفة المعتمد في  
 ٤ سنين مبلغ ٢٢٠٠٠٠٠٠ دينار أي بمعدل  
 ٥٥٠٠٠٠٠ دينار في العام ، أي نحو ثمن خراج  
 مصر كله ( كان الخراج على أيامه  
 ٤٣٠٠٠٠٠٠ دينار ) . ومع أن أحمد بن

الشام ومصر تحت راية واحدة . ولم يكن  
 ذلك وحى المصادفة ، وانما هي ظاهرة تاريخية  
 لا تزال تظهر على طول تاريخ هذين القطرين:  
 اذا قامت في مصر حكومة محلية قوية لم تلبث  
 أن ضمت الشام اليها ، أو لم يلبث الشام أن  
 انضم اليها . حدث هذا في تاريخ مصر القديم  
 ابتداء من أيام الأسرة السابعة عشرة ، ثم ظهر  
 عندما قام في مصر ملك البطلمة ( وان لم  
 يوفقوا الى الاحتفاظ بالشام ، وكان ذلك من  
 أقوى أسباب ضعف دولتهم ) ثم ظهر في أيام  
 ابن طولون هذا والاشيد والفاطيين  
 والأيوبيين والمباليك ، ثم ظهر في أيام محمد  
 علي وتجدد على أيامنا هذه ، كأنما وحدة  
 هذين البلدين ضرورة منطقية تستلزمها  
 سلامتهما وسلامة الشرق العربي كله .

وفي خلال العصور الاسلامية نلاحظ أن  
 انضمامهما لم يأخذ صورة سيطرة أحد منهما  
 على الآخر ، بل أخذ صورة الدولة الموحدة ،  
 فسواء نظرنا في تاريخ العصر الطولوني أو  
 الاخشيدى أو الأيوبي أو المملوكي ، نجد أن  
 أمراء مصر وسلاطينها يقيمون بالشام قدر  
 ما يقيمون في مصر ، ويولونه من العناية قدر  
 ما يولون مصر ، بل أكثر بكثير . فقد حارب  
 أولئك جميعا في سبيل الشام أكثر مما حاربوا  
 في سبيل مصر . وكان رجال دولتهم شاميين  
 ومصريين على حد سواء ، وقد ارتهنت سلامة  
 الجناح الشرقي لعالم الاسلام باتحاد مصر  
 والشام ، فاذا اتحدا ارتدت عنه المطامع ، واذا

بطبعه رجلا عاجزا قليل الملكات ، ولو ترك وحده لقضى عليه صاحب الزنج أو القواد الأتراك ، ولكنه كان دائم الانتكار لاستبداد أخيه الموفق من دونه بالأمر . وكان ابن طولون يعرف هذا ، وكان له في دار الخلافة عيون وأرصاد ينبئونه بكل شيء ، فأوعز الى المعتمد أن يغادر بلاد أخيه ويلجأ الى مصر . ومع غرابة الفكرة — لأن حال المعتمد مع ابن طولون لم تكن لتكون أحسن من حاله مع الموفق — فقد راقته له الفكرة ، لأن ضجره بأخيه بلغ به الى حد جعله مستعدا لقبول أى مخرج . فانتهاز فرصة غياب أخيه وقواده وخروج في نفر من أصحابه متجها نحو الموصل ، ليمضى من هناك الى حلب وهى من أعمال ابن طولون ، ويبدو أن الخبر نسي الى اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل ، فقبض على المعتمد وأصحابه ، ووبخ الخليفة على ما فعل ، ثم رده الى سرمن رأى . ويهمننا من تفاصيل هذا الخبر قول اسحق بن كنداجيق لأصحاب المعتمد : « انكم قاربتم عمل ابن طولون ، والأمر أمره وتصيرون من جنده وتحت يده ، أفترضون بذلك وقد علمتم أنه كواحد منكم ؟ » مما يدل على أن حدود ملك أحمد ابن طولون كانت واضحة يتحاشى قواد الخلافة التطرق اليها ، وعلى أن سلطانه كان بالفعل جاريا في ملكه الواسع حتى هذه الناحية القاصية ، ويدل أيضا على أن رجال الموفق كانوا ينظرون الى ابن طولون على أنه ند لهم ، لا يزيد عنهم في شيء .

طولون بعد أن ضم الشام الى سلطانه حمل عبء الحرب مع الروم ، وسد عن الدولة هذا الباب الثقيل بالتكاليف ، الا أن ذلك كله لم ينع عنه شيئا في نظر الموفق ، وانتصب هذا يكيد له حتى استمال لؤلؤا قائد أحمد بن طولون على الشام ، فانقلب على سيده وانضم للموفق .

وتحرج أمر ابن طولون واضطر الى منازلة الموفق علانية ، فأعلن نفسه حاميا للخليفة المعتمد المغلوب على أمره وسجين أخيه ، واستخرج من الفقهاء فتوى بابطال دعوى الموفق في السلطان ، وقد شذ عن ذلك القاضى بكار بن قتيبة ، وكان من أكبر فقهاء العصر وصاحب لابن طولون ، فلم يرع ابن طولون حرمة وجسه ، وكان ذلك من أخطاء ابن طولون التى أخذت عليه ، وندم عليه هو نفسه بعد فوات الوقت ، وأراد استصلاح القاضى وهو على شفا القبر ، فرفض القاضى وقال قالته المشهورة : « شيخ فان وعليل مدنف والملتقى قريب والقاضى الله عز وجل ! » . وكان لهذه العبارة وقع شديد على ابن طولون ، حتى يقال انه غشى عليه عندما سمعها ، ثم أمر بنقله من السجن الى دار اكترت له ، ولم يلبث الشيخ أن مات ، وهو آخر القضاة الذين ترجم لهم الكندى في كتابه عن قضاة مصر .

وكان الخليفة المعتمد ضجرا من أخيه الموفق وما يسطه عليه من سلطان ، وكان

لاستعادة ثغر طرسوس ، وكان هذا الثغر من أحب بلاد مملكته اليه ، لا يفتأ يلم به المرة بعد المرة معاودة لذكريات الشباب ، فأرادت المقادير الا أن تفجعه فيه في آخر أيامه ، فقد وثب به أحد خدمته من الجند وقبض على عامل ابن طولون ، فأسرع ابن طولون الى هذا الثغر القصي الذي يقع جنوبي آسية الصغرى ، ونزل أذنة ، وكتب الى خادمه يستميله دون جدوى ، بل لجأ الخادم الى كسر جسور نهر كان يمر بالبلد فاندفع الماء فأغرق عسكر ابن طولون . ولازم ابن طولون هذا الثغر وألح في طلبه ، وأقبل الشتاء واشتد البرد وتساقط الثلج وعظمت نفقة ابن طولون وتضحياته في سبيل هذا الثغر العزيز عليه ، وضج العسكر ، فاضطر الى الرحيل عنه محنقا ، وكتب الى ذلك الوائب بالبلد يقول : « لم أرحل الا خوفا أن تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو » . وعاد الى أنطاكية ، وهناك مرض ومات .

وقد اختلفت الآراء في ابن طولون ، فبعض الرواة يصورونه رجلا قاسيا غليظا لا يتورع عن شيء في سبيل درك مآربه ، وبعضهم يصورونه رجلا تقيا كريما لا يكاد يقدم على شيء فيه مساس بالحرمة أو الخلق الكريم ، بل يغالى بعضهم فيجعله أشبه بالأولياء ، لا يفعل شيئا الا رأى الله عز وجل . أو الرسول صلى الله عليه وسلم في نومه يهديانه الى الطريق السليم . والغلاصة في

وأصبح العداء بعد ذلك بين أحمد بن طولون والموفق سافرا ، فطلب الموفق الى أخيه المعتمد أن يصدر أمرا بلعن ابن طولون على المناير ، ونفذ هذا الأمر على رغم المعتمد ، وقطع ابن طولون الأموال التي كان يرسلها الى دار الخلافة ، بل حاول سنة ٢٦٧/٨٨٠ أن يستولى على مكة ، فبعث جندا واستعان بنفر من الحنطين والجزارين فرق فيهم مالا ، ووفق ابن طولون أول الأمر ، وهرب هارون ابن محمد عامل الخلافة على مكة ، خوفا على نفسه ، ثم أتته أمداد مكنت له من القضاء على محاولة ابن طولون . وقد رد الموفق على ذلك بتولية اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل أعمال ابن طولون ، ولم يجسر عامل الموصل هذا على عبور حدود ابن طولون ، ورد ابن طولون باسقاط اسم الموفق من الخطبة والطراز ، ولكنه ظل يخطب للمعتمد .

وقد ظل هذا العداء بين الرجلين حتى سنة ٢٧٠/٨٨٤ عندما تبين لهما أن الخلاف بينهما لا يؤدي الى خير ، فبدأت مفاوضات الصلح بينهما فلما قاربت على التمام أدرك الموت ابن طولون بعد عودته من طرسوس في ذى القعدة ٢٧٠/ مايو ٨٨٤ عقب اسهال شديد . وكان ابن طولون عمره كله نهما الى الأكل مسرفا فيه ، حتى في علته الأخيرة كان يأكل سرا حتى لا يعلم بذلك أطباؤه ، فلما زاد الأمر عليه اعترف لهم فأسقط في أيديهم .

وكان آخر جهود ابن طولون محاولته

هذا الموضوع أن شأن ابن طولون كشأن غيره من الطامحين ورجال الدولة ومؤسسى الممالك فى تاريخ الاسلام : يستحلون كل شىء فى سبيل الوصول الى السلطان والمحافضة عليه ، ولا تعرف قلوبهم الرحمة اذا اتصل الأمر بسلطانهم ، فلا يحجمون عن شىء يتصورون أنه يثبت ملكهم . أما فيما عدا أمور سلطانهم فهم كرماء ذوو حلم وسعة صدر و عفو و حذب على الفقراء والمساكين ، ومهما بلغ خطأ الانسان فالعفو مرجو عندهم ما دام الأمر بعيدا عن تهديد السلطان أو المناقشة فى الحكم وما الى ذلك .

وهم يبررون مسلكهم بأن كل شىء جائز فى سبيل القضاء على الفتنة ، ويكفرون عن قسوتهم ببناء المساجد والمدارس وأعمال الخير والاحسان : هكذا كان شأن معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان وأبى عبد الله السفاح والمنصور والرشيد وابن طولون والاشيد والمنصور بن أبى عامر وسلاطين المماليك ومن اليهم . ومن ثم فقد اختلف الحكم عليهم ، فمن نظر الى حسناتهم ومآثرهم ومنشأتهم ومبانيهم وبرهم بأهل العلم والفضل والمساكين لم ير غير الناحية المشرقة من خلقهم ، ومن نظر الى كفاهم السياسى رأى الناحية القاتمة . ولا بد من اعتبار الوجهين معا فى الميزان ، وما دما قد عرفنا مفتاح سلوكهم فلا معنى لتشديد الحكم عليهم ، فقد عاشوا فى أزمان كانت الوسيلة

الوحيدة فيها للسلامة من أذى خصم هى قتله ، وكانت قاعدتهم الذهبية التى لم يعلنوها هى قول روبسبير : أرسل أعداءك الى المقصلة قبل أن يرسلوك .

ومن هنا كان رجال أحمد بن طولون على خوف دائم منه ، خشية أن تصل اليه وشاية فى حقهم ، فيكون سيفه أسرع الى رقابهم من دفاعهم عن أنفسهم الى أذنيه . وقد عبر عن ذلك طيبه سعيد بن توفيل النصرانى ، فقد عجز عن علاجه عندما اشتد عليه الاسهال الذى قضى عليه ، فقيل له : لست بحاذق ! فقال : والله ما خدمتى له الا خدمة الفأر للسنور ، وان قتلى لأهون على من صحبته ! وقد بلغ به الضعف أثناء مرضه الأخير الى درجة أن تعذر عليه الانتقال الى مصر برا ، فحمل فى البحر ، فلم يكذ يصل حتى هدد أطباءه بالقتل اذا لم يعالجوه ، فعاجله الموت قبل أن ينفذ وعيده .

ولا شك أن توفيق ابن طولون يرجع أولا وقبل كل شىء الى سياسته الادارية والمالية ، فقد أدرك الرجل من أول الأمر أن مصر بلد غنى كثير الخير ، وأنه اذا أحسنت ادارته أعطى من المال أكثر مما يعطيه غيره من النواحي ، واذا أحسن تدبير الحاصل أمكن الوصول به الى الكثير . ولهذا فقد وجه همه من أول الأمر الى تنظيمها وترتيب شؤونها ، وكان ابن المدير ومن سبقه من ولاة العباسيين قد حولوا الادارة الى مجرد أداة

ارتفع الأيراد من ٨٠٠٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠٠٠٠ رطل  
ووجد ابن طولون نفسه في سعة .

أما الكنز الذي عثر عليه ابن طولون  
وبنى من ذهبه جامع فلم يكن أمرا غريبا ،  
فقد كان الناس على طول تاريخ الدول  
الإسلامية يحملون بالعثور على شيء من كنوز  
الفراعنة كما يحلم الناس اليوم بالعثور على  
البتروول ، وكانت هذه الكنوز تسمى الدفائن ،  
وقد بلغ من اهتمام الناس بها أن ابن خلدون  
عقد لها في مقدمته فصلا . وقد استفاد ابن  
طولون من حكمة أحمد بن محمد الواسطي  
الموكل بشؤون المال ، فقد كان رجلا قديرا  
صالحا حاول بعض المؤرخين أن يجعله من  
واسط ، ولكننا نرجح أنه مصرى من  
الواسطي . واستعان ابن طولون أيضا بأبي  
بكر المادرائي ، وكان ماليا قديرا ، وأصله من  
مادرايا ، ولكن المقرئى يحكى عنه حكايات  
تدل على سوء اهتماله للسلطان واعطائه  
القبالات لنفر من أصحابه في مقابل حصص  
معينة له ( وكذلك كان بقية المادرائيين ،  
وستحدث عنهم فيما بعد ) .

ونلاحظ في تصرفات ابن طولون المالية  
شيئا من الشبه بتصرفات محمد على ، فقد  
احتكر بعض المصنوعات كالنيل ، وتاجر في  
المحاصيل ( ولو أن المؤرخين يقولون انه عدل  
عن ذلك لأنه وجدته محطأ بشأنه ، ولكن  
الثابت أنه عاد الى المتاجرة في المحاصيل في  
أواخر أيامه ) . وكانت نتيجة هذه الإدارة

لجمع المال ، ففرضوا من الضرائب والمغارم  
والمكوس ما أثقل كاهل الأهلين ، وأهملوا  
الى جانب ذلك العناية بمرافق البلاد وعيون  
الثروة ، فهبطت الأجوال الاقتصادية هبوطا  
شديدا ووقفت الجباية عند ٨٠٠٠٠٠٠ دينار ،  
رغم الجبايات الاستثنائية والمغارم .

فلما جاء أحمد بن طولون عول على  
اصلاح الحال ، ولم تكن له وسيلة الى ذلك  
الا بضبط الادارة واحكام الرقابة على  
الموظفين ، وخفض المبالغ التي كانت ترسل  
هدايا ورشى الى مراكز الخلافة . وقد تنبه  
أحمد بن طولون الى ما لم يتنبه اليه أحد  
من تولى البلاد قبله من الأمراء ، وهو أن  
أهل مصر أقدر على تدبير شؤونهم المالية من  
الأجانب ، فاستكثر من الموظفين المصريين حتى  
أصبحت الادارة المالية كلها في أيديهم . وقد  
أنكر الترك وغيرهم ذلك ورووا عن مساويء  
هؤلاء الموظفين كثيرا من الأخبار البعيدة  
عن التصديق ، كهذا الخبر الذي يرويه  
أبو المحاسن عن ابن دشومه ( برسومة ؟ )  
متولى المال ونصح لأحمد بن طولون  
بالاستمرار في الجبايات الظالمة ( تسمى المظالم )  
وكيف أن ابن طولون رفض ذلك ، ثم عوضه  
الله عما تنازل عنه بكنز عظيم عثر عليه .  
والمقرئى يتحدث عما يسميه «مكر الأقباط» ،  
ولكن ذلك كله ان هو الا رد فعل لما عمله ابن  
طولون من وضع الأمور المالية في أيدي  
المصريين وما أدى اليه ذلك من الخير ، فقد

المالية الحازمة أن كثر المال في يدي ابن طولون ، فأقبل على شراء الجند واستكثر منهم حتى يقال ان جيشه بلغ ١٠٠ر٠٠٠ جندي ، والراجح أن معظم الجيش كان من السودان ، فقد ذكر المؤرخون أن ٤٠ر٠٠٠ من جنده كانوا من السود و ٢٤ر٠٠٠ من الأتراك ، أما الباقي فمن أصناف شتى من المرتزقين ، فيهم نفر من الروم والنصارى . ومن هذا المال الكثير بنى أحمد بن طولون مبانيه الكثيرة ، وأهمها جامعها الباقي الى اليوم ، وهو من معالم تاريخ العمارة الاسلامية ، فقد بنى على صورة جامع سامرا وخاصة منذته ذات السلم الخارجي الحلزوني . وقد شرح ابن طولون لمهندسيه كيفية بنائها في خبر لطيف ساقه أبو المحاسن ، وقد عَمَّر ما حول الجامع عمارا عظيما حتى أجزت مسطبة ما يؤجره التجار لعرض بضائعهم باثنى عشر درهما في اليوم ، مع أن مساحتها لم تزيد على ذراع في ذراع . وأنشأ ابن طولون أيضا البيمارستان ، وأتفق في بنائه ٦٠ر٠٠٠ دينار غير نفقته اليومية ، وهذا البيمارستان يعتبر أول مستشفى عام في تاريخ مصر الاسلامية ، وكان مقسما أقساما بحسب الأمراض ، وفيه الأطباء والكحالون والمرضون ، وكانت الأدوية والأغذية تصرف للمرضى . وأنشأ قصره الكبير على طراز قصور خلفاء بغداد ، وجعل أمامه ميدانا فسيحا لعرض المسكر ، مهده وأقام فيه المظلات ، وكنفه ذلك ٥٠ر٠٠٠ دينار .

وكانت ثقافته في أبواب الخير كثيرة ، فكان يوزع الأطعمة والصدقات على الناس وفق نظام معين وضعه . ووقع ذات مرة حريق في دمشق ، فأنتق في تعويض خسائر الناس ٧٠ر٠٠٠ دينار . ومع ذلك فيقول بعض الرواة أن الله تعالى لم يفض له كل ذنوبه ، فقد روى محمد بن علي المادرائي أن قارئ القرآن على ضريح ابن طولون اقتطع عن القراءة مدة ، فلما سأله عن السبب قال : « رأيت في النوم وهو يقول : أحب ألا تقرأ عندي ، فما تشر آية الا قرعت بها وقيل : أما سمعت هذه ؟ » .

وقد سكن أحمد بن طولون أول ولايته « العسكر » على عادة أمراء مصر من قبله ، فلما كثر جنده بنى لهم ضاحية للفسطاط سميت « القطائع » ، وكان موضعها من قبة الهواء ( موضع قلعة القاهرة الحالية ) الى جامع ابن طولون ، وعرضها من الرميلة الى حى زين العابدين . ولم تكن مدينة ، وانما هي ضاحية . قال أبو المحاسن : « وكانت مساحة القطائع ميلا في ميل . وقبة الهواء كانت في السطح الذي عليه قلعة الجبل : وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون ، وموضع هذا القصر الميدان السلطاني الآن الذي تحت قلعة الجبل بالرميلة . وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال سابقا ، ويجاورها الميدان الذي يعرف اليوم بالقيبات ، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذي أنشأه أحمد بن طولون المعروف به ، ويجوار

وهو أكبر أبنائه وهو الذى نأثر به فقبض عليه  
وحبسهُ ، وخمارويه الذى خلفه على الولاية ،  
وعدنان ومضر وشيبان وربيعة وأبو العشائر.

وقد ذهب نفر من المؤرخين المحدثين الى  
أن استبداد أحمد بن طولون بمصر يعد حركة  
قومية مصرية ، وأنه بذلك بدأ عصر الاستقلال  
لمصر فى ظلال الاسلام . وذلك اسراف فى  
تأويل التاريخ مع الحقيقة ، فان ابن طولون  
أولاً لم يستقل عن الخلافة بل ظل تابعا لها ،  
وهو لم يقطع الخطبة لبني العباس أبداً ،  
واستمر يرسل المال الى بغداد معظم أيامه ، فلم  
يقطعه الا عندما وقع الخلاف الصريح بينه وبين  
الموفق . ومن ناحية أخرى كان المصريون بعيدين  
عنه وعن حركته ، نعم انه اعتمد عليهم فى ادارته ،  
أكثر ، ولكنه لم يتمصر ولا شعر أنه يعمل لحساب  
مصر أو يعتز بقومية مصرية . وكل ما هنالك  
أنه كان رجلاً ذكياً قادراً أحسن الاستفادة من  
الظروف واستخدم امارة مصر فى ادراك  
ما تصبو اليه نفسه من الانفراد بالسلطان فى  
ناحية ما . وكان من الممكن أن تتمصر دعوته  
لو خلفه أبناء قادرون على مواصلة سياسته ،  
فان مصر غلابة على من يقيم فيها ، وقد بدأ  
الرجل أول خطوة من خطوات التمصر فتخلى  
شيئاً فشيئاً عن تركيته وتعرب ، وقد رأينا أنه  
كان عربى الثقافة والذوق . وقد عرف مؤرخو  
مصر الاسلامية قدره ، فأحاطوه بالتقدير  
والاجلال ، ونسجوا حول سيرته الأساطير .

الجامع دار الامارة فى جهته القبلىة ، ولها باب  
من جدار الجامع يُخرَج منه الى المقصورة  
المحيطة بمصلى الأمير الى جوار المحراب ،  
وهناك دار الحرم . والقطائع عدة قطع يسكن  
فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وعساكره  
وغلمانهُ . وقد قسمت القطائع الى أقسام  
تشبه خطط الفسطاط ، قال القضاعى : « وكان  
للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة  
مفردة تعرف بهم ، وللغراشين قطيعة مفردة  
تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة  
مفردة تعرف بهم ، وبني القواد مواضع  
متفرقة . وعمرت القطائع عمارة حسنة ،  
وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وعمرت فيها  
المساجد الحصان والطواحين والحمامات  
والأفران والحوانيت والشوارع » .

وقد خلف ابن طولون فى خزائنه من  
الذهب النقد ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ومن  
المماليك ٧٠٠٠٠٠ مملوك ، ومن الغلمان  
٢٤٠٠٠٠ غلام ، ومن الخيل الميدانية ٧٠٠٠٠  
رأس ، ومن البغال والحمير ٦٠٠٠٠ رأس ،  
وذكروا أنه كان يدخر فى كل عام ١٠٠٠٠٠٠٠٠  
دينار ، ففاق فى ذلك الخليفة المعتضد ، فقد  
أراد هذا الأخير أن يستفضل كل عام بعد  
نفقاته مليون دينار ، حتى اذا اكتملت عشرة  
ملايين صاغها قطعة واحدة وجعلها أمام باب  
قصره حتى يعلم أمراء النواحي أنه أغنى منهم ،  
فمات دون هذه الغاية . وترك ابن طولون من  
بعده ٣٣ ولداً منهم ١٧ ذكراً أهمهم العباس ،

## خمارويه وابو العساكر جيش وهارون بن

### خمارويه

وخلفه ابنه خمارويه ، وهو ثاني أولاده ، وقد كان ابن طولون أوصى له بالامارة وبإيعة الجند عقب وفاة أبيه في ذي الحجة ٢٧٠ / مايو ٨٨٤ ، وقد احتج العباس على ذلك وهو في الحبس فعملوا بقتله . وكانت مفاوضات الصلح بين ابن طولون والموفق دائرة عندما مات الأول ، وكان الجانبان قد اتفقا على أن تظل مصر والشام له ، فلم يكد قواد الموفق يسمعون الخبر حتى حفزوه على التوقف ، وكان أحدهم قد ولي على الشام قبل ذلك - وهو ابن كنداجيق كما ذكرنا - فانضم إليه أبو الساج عامل شمالي العراق وقررا السير الى الشام ومصر واتزاعهما من أيدي خلفاء ابن طولون ، وانضم اليهما عامل دمشق لابن طولون ونزل لابن كنداجيق عن أنطاكية وحلب وحمص . وبعث خمارويه بجنده لملاقاة خصومه ، فعسكروا عند شيزر ، وحل الشتاء فتوادع الجانبان .

وفي أثناء الشتاء انتهز ابن كنداجيق وأحمد بن الموفق الفرصة وقررا مهاجمة معسكر المصريين على غرة . وقد فوجيء المصريون بذلك الهجوم ، فنتهقروا حتى الرملة . ثم وقع الخلاف بين أحمد بن الموفق وقواده ، فتركوه في نحو ٤٠٠٠ من جنده . وفي هذه الأثناء وصل خمارويه من مصر ومعه ٧٠٠٠٠ من جند مصر الطولونيين ، وقرر

الهجوم على معسكر العدو . وفي شوال ٢٧١ / أبريل ٨٨٥ وقع اللقاء بين الجانبين عند نهر أبي فطرس المعروف بالطواحين شمالي يافا . ولم يكن خمارويه قد حضر قبل ذلك قتالا ففزع عند اللقاء وهرب معجلا الى مصر ومعه معظم جيشه ، وانقض جند أحمد بن الموفق على معسكر المصريين ينهبون ويأسرون . وفي هذه اللحظة تقدمت فرقة من الجند المصرى يقودها قائد يسمى سعد الأيسر فهجمت على جند أحمد بن الموفق ، فحسب هذا أن خمارويه عاد من مصر بالجند ، ففر هاربا واختل نظام جيشه ، فشدد عليهم المصريون وهزموهم هزيمة كبرى بقيادة سعد هذا ، ثم أسرع المصريون فاحتلوا دمشق .

وقد استخف سعد الأيسر بخمارويه وبدأ يفكر في الانفراد بالشام ، ولكن خمارويه تغلب عليه وقتله . واستمر الخلاف بين خمارويه والموفق طلحة زمنا ، ثم عقد الجانبان صلحا شركت فيه مصر والشام لخمارويه لقاء مبلغ سنوى معين . واستقرت الأحوال بين الجانبين حتى مات الخليفة المعتمد وخلفه أحمد بن الموفق باسم المعتضد في رجب ٢٧٩ / أكتوبر ٨٧٢ ، فتأكد الصلح بين مصر والخلافة وعرض خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد ، ولكن هذا الأخير فضل أن يتزوجها هو ، وأصدقها مليون درهم ، ودخل بها عام ٢٨١ / ٨٧٥ . وقد بالغ خمارويه في تجهيز ابنته حتى قيل « ان المعتضد أراد

بزواجها أن يفقر أباهما في جهازها .. » . وزالت  
الوحشة بين الخليفة وحمارويه بعد هذا  
الزواج « وولاه المعتضد من الفرات التي يرقه  
ثلاثين سنة ، وجعل اليه الصلاة والخراج  
والقضاء بمصر وجميع الأعمال ، على أن يحمل  
حمارويه الي المعتضد في العام ٢٠٠٠٠٠ دينار  
عما مضى و ٣٠٠٠٠٠٠ دينار عن المستقبل » ،  
واستقرت الأحوال لحمارويه بعد ذلك .

ولم يحسن حمارويه الاستفادة من  
الفرصة التي أتت له ، فمضى يتلف المال  
على نحو جعله مثله في أفواه معاصريه ، وبلغت  
نفقته على جنده قرابة المليون دينار ، وبالغ  
في منشأته حتى جاوز الحد المعقول ، فأنشأ  
حديقة لم يسمع بمثلا ، اذ جعلها حديقة نباتات  
وطيور وحيوان في آن واحد ، ويقال انه  
أنشأ لنفسه بركة من الزئبق يوضع له على  
سطحها فراش لينام وهو يتهدد ، اذ كان  
النوم كثيرا ما يمتنع عليه . وقد أثق حمارويه  
في هذه التفاهات ما كان أبوه قد أدخره  
وما كان يأتيه من خراج ، واستكثر من  
الجواري والعلماء حتى ضاع أمره ، وكثرت  
نفقته على طعامه حتى كان الباقي في مطبخه  
من أصناف المأكول يزيد عن حاجة الخدم  
فبيعونه ، « واشتهر بيع الخدم لذلك ، فكان  
الناس يأتونهم لذلك من البعد ، ويشترون  
منهم ما يتفكهون به من الأنواع الغريبة من  
المأكول . وكان هذا دواما في كل وقت ، بحيث  
أن الرجل اذا طرقة ضيف خرج من فوره الي

دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليحصل به  
لضيفه مما لا يقدر على عمله مثله » . كانت  
نفقة المطبخ في الشهر ٢٣٣٠٠٠٠ دينار . وقد  
مات قتيلا على أيدي خدمه وجواريه في  
دمشق في ٢٧ ذى الحجة ٢٨٢ / يناير ٨٩٦ .  
وخلفه ابنه أبو العساكر جيش ، وكان  
شابا صغيرا لا يحسن من الأمر شيئا ، التف  
حوله طائفة من أمثاله العلمان والمهين فأفسدوا  
أمره وزينوا له قتل عمه أبي العباس بن  
طولون قتيلا ، فنفر الجند منه وعولوا على  
خلعه . وكان الجيش الذي كونه جده قد  
أصبح القوة الفعلية في البلاد ، ولم يكن من  
الممكن أن يملأ مثل هذا الحدث أعين قواده ،  
فتخلى عنه رجال مثل خاقان المفلحي ومحمد  
ابن اسحاق بن كنداجيق ووصيف بن  
سوارتكين وبنديقة بن لمجور ( أو المعروف  
بلمجور ) وأخيه محمد بن لمجور وابن  
قراطغان ، وانما أتيت بهذه الأسماء ليتبين  
القارئ كيف كان قواد الجيش — وبالتالي  
جنودهم — من غير المصريين . وانه لمن  
الغريب أن نلاحظ كيف حرص أولئك الحكام  
على الاعتماد على جند أجنبي ، وأمامهم أهل  
البلاد يمكن التجنيد منهم ، لا في مصر وحدها  
بل في بقية بلاد الدولة الاسلامية . مع أن  
البيزنطيين اعتمدوا كثيرا على جند المصريين ،  
وانتمعوا بذلك . ولكن هذه هي القاعدة التي  
جرى عليها حكام المسلمين جميعا في العصور  
الوسطى : اعتبار أهل البلاد رعية مستأمنة

تحكم بواسطة جند أجنبي مرتزق ، وكان هذا من أكد أسباب زوال هذه الدول جميعا . وكان كبير الدولة والمقدم في هؤلاء الجند أبو جعفر بن أبي ( يكتب خطأ أبالي ) فكلمه القواد في أمره ، ولاموه اذ قصر في تأديبه وتسديده ، وانتهى الأمر بقتله ونهب داره « فوقع في أيدي الجند من نهبا ما يملأ قلوبهم وعيونهم ، حتى ان بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجندية وسكن الريف ، وصار من مزارعيه وتجاره » .

ثم خلفه أخوه هارون بن خمارويه ولم يكن بأحسن حالا منه ، فلم يكن يرجى للدولة صلاح على يديه ، فهذه الدول لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد ، وانما ينشئها طموح رجل فرد وملكاته ، فاذا انقضى أمره زالت الدولة .  
تولى هارون في ١٠ جمادى الآخرة ٢٨٣ / سبتمبر ٨٩٦ وكان جند الدولة قد فسد أمره وتفرقت وحدته ، اذ كان هذا الجيش يقوم على فرق من الترك وأخرى من السود وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقين أهمهم الروم ، وكان أمر هؤلاء الأخيرين قد علا بفضل ثلاثة من قوادهم هم بدر وفائق وصافي ، وكانوا من خيرة القواد عقلا وقدرة ، فحقد عليهم الباقون ، وخاصة السود . وكان ربيعة ابن أحمد بن طولون ، وهو عم هارون ، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدثه نفسه بطلب الأمر لنفسه . ويبدو أن عماد هارون كان على

السود ، ففضب قواد الروم ، واجتهد كل منهم في أن يحوز لنفسه طائفة من الجيش يستولى على عطايمهم ويوزعه عليهم كأنهم غلمانة . وقد تمكن هارون بفضل جنده السود من القضاء على ربيعة وقتله ، فزاد احتراس بدر وموفق وصافي منه .

وتولى أمر هارون أبو جعفر بن أبي ومضى يحاول اصلاح أمر أصبح من العسير اصلاحه . وفي هذه المناسبة أظهر قواد الروم سماحة وبرا يستوققان النظر ، فذهبوا للحج واحدا بعد واحد وأنشأوا بعض منشآت البر . فبنى بدر ميثأة لجامع ابن طولون وسبيلا لشرب الناس وأكثر من تفريق المال والطعام على المساكين ، وفعل فائق وصافي مثل ذلك ، وأظهروا من الاخلاص للبيت الطولوني ما لم يظهره غيرهم ، رغم سياسة هارون في الاعتزاز بغيرهم . وقد اشتد أبو جعفر بن أبي مع الروم وفرق قوادهم في البلاد . وفي ذلك الحين بدأت حركة القرامطة تجتاح الشام ، فتصدى لها جند الطولونيين وتمكنوا من الثبات في وجهها ، فاستنفذ ذلك جانبا كبيرا مما كان قد بقي لهم من قوة .

وكان أمر هارون قد ساء ونفر منه جند الروم جملة ، وتسامع رجال الخلافة بذلك فما أسرع ما طمعوا في استعادة سلطانهم على مصر ، وندب الخليفة المكتفي ووزيره القاسم ابن عبيد الله الكاتب القائد محمد بن سليمان الحنفي للقيام بالمهمة . وكان محمد بن

سليمان هذا من خدم ابن طولون ، اذ استخدمه لؤلؤ الطولوني كاتباً له ، فلما انحرف لؤلؤ عن بني طولون وانضم الى رجال الخلافة انحرف معه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرقى حتى أصبح في جملة القواد ، ثم ندبه المكتفى للقضاء على آخر الطولونيين .

وبينما كان جند العباسيين يستولى على أملاك الطولونيين في الشام ، وثب شيبان بن أحمد بن طولون على ابن أخيه هارون وذبحه بيده في ١١ صفر ٢٩٢ / نوفمبر ٩٠٤ وتولى الأمر مكانه . وكان شيبان « أهوج جسيما جلداً شديد البدن في عنفوان شبابه ، فصار يسرع في أموره ، وذلك بعد أن تم أمره » . وكان جند الطولونية قد أيسوا من الأمر ، فانضموا جماعة بعد جماعة الى جند الخليفة المكتفى . ووصل محمد بن سليمان الى العباسية (بمديرية الشرقية) وقد تخلى الناس عن الطولونيين ، وأسرع دميانة قائد الأسطول المصري فأحرق جسر مصر الشرقي وبعض الغربي حتى تمزق القسطنطين عن الصعيد . وأقبل محمد بن سليمان بمن معه ووقف دون القسطنطين ، ونهض شيبان بمن بقى معه من الجند السود وحاول الدفاع . ثم كتب اليه محمد بن سليمان يؤمنه وأهله جميعاً ، فاستأمن وسار اليه بأهله تاركاً جنده واقفين في المصاف وهم لا يعلمون تخليه عنهم . فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وانهاه عليهم الناس

حتى صاروا يتذبحون جماعة جماعة بين يدي القائد العباسي ، ثم أحرقت القطائع ونهبت القسطنطين نهباً ذريعاً وأصاب الناس أذى شديداً ، وامتدت دولة بني طولون ، ولم يحكم شيبان غير تسعة أيام . وقد اجتهد محمد بن سليمان في ازالة آثار الطولونيين جملة حتى لم يبق منها شيء ، واستصفى أموالهم ونهبها وحمل الى بغداد جزءاً وسرق الباقي ، وقد حاسبه الخليفة على ذلك أعسر الحساب . ولم يظل مقام محمد بن سليمان بمصر ، اذ استبدله الخليفة المكتفى بعميسى النوشري ، وعادت مصر ولاية عباسية كما كانت ..

#### نظرة عامة على دولة بني طولون

حكم بنو طولون مصر ثمانية وثلاثين عاماً ، وان من يسمع صيتمهم في تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة ، وهم كما رأينا لم يدخلوا على مصر جديداً ولم يتقدموا بأمرها خطوة ، انما كانوا كسحابة صيف ، أما صيتمهم البعيد هذا فيرجع الفضل فيه الى المصريين ومؤرخيهم . ولكن يبدو أن ما يقوله أبو المحاسن من أن الدولة الطولونية كانت من « غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام » لم يكن مبالغاً ، فقد أمنت البلاد في أيامهم ورخيت أحوالها ، وخاصة في أيام أحمد ابن طولون وخمارويه . أما ما أتينا بطرف منه من النزاع بين الجند فكان أمره مقصوراً على المحاربين : يتصارعون ويتقاتلون في واد

والناس في واد آخر ، الا اذا دار القتال في العاصمة مثلا فيصيب الناس اذى .

وقد تنفس الناس الصعداء مع آل طولون وانكف عنهم نهب ولاية العباسيين ، وبدأ ينمو في البلد وعى بالشخصية المصرية ، ولكنه كان وعيا ضعيفا خافتا يحتاج الى سنوات طوال ليتجلى ويأخذ صورة واضحة . ولو تنبه آل طولون لذلك لكان لدولتهم شأن آخر ، ولكنهم مضوا في أعقاب غيرهم من الاعتماد على العسكر الأجنبي ، فحيل بينهم وبين اقتطاف ثمر ما غرسوه ، وظلوا أجناب مزعزين تعصف بهم رياح السياسة والعسكرية ، وتلاشى أمرهم مع أمس الدابر . ومع ذلك فقد أسف المصريون عليهم وقالوا في رثائهم شعرا كثيرا ، بل تراحم الشعراء على أحمد بن طولون حتى قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى في كتاب « حسن السيرة في اتخاذ الحصن في الجزيرة » : « رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون ، فاذا كان اسم الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، فكم يكون شعرهم ؟ » .

ولقد كان أحمد بن طولون أجنبيا عن مصر ، ولكنه يعد بدون شك من رجال التاريخ المصرى . فقد كانت تلك أيام لا تعرف غير القومية الاسلامية ، فأحمد بن طولون مصرى فى مصر وشامى فى الشام وعراقى فى العراق ، وهو أيا كان موضعه وأصله منسوب

الى البلد الذى كرس معظم جهوده للنهوض بأمره ، ودولته دولة مصرية اسلامية ، وفى الاطار العام للتاريخ الاسلامى يعد ابن طولون من أفذاذ ذلك التاريخ ومن أبطال التاريخ المصرى تبعا لذلك . واذا قارناه بغيره ممن استبدوا بنواحي الدولة الاسلامية فى ذلك العصر رأيناه يمتاز عنهم بفكرة واضحة عن الدولة وما ينبغى لها . وقد كان منشئا بانينا ومنظما ماليا ممتازا . وكان ذلك من حسن حظ مصر ، بل ربما كان ذلك أثر مصر فيه . واذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى فى بناء مصر الاسلامية ، فان ابن طولون صاحب الخطوة الثانية .

وهو صاحب أول تجربة لانشاء كيان مصرى خاص داخل الكيان الاسلامى العام ، وفضله من هذه الناحية عظيم ، فهو النموذج الذى جرى على مثاله محمد بن طفج الاخشيد ثم الفاطميون ثم الأيوبيون . فاذا كانت التجربة قد انتهت الى الفشل فان عبرتها ظلت باقية وأصبحت محور تاريخ مصر الاسلامية . ومن ذلك الحين سيجتهد كل من واته الفرصة فى اعادة انشاء دولة فى مصر والاعتماد عليها ، مما جعل تاريخ مصر الاسلامية خطأ متصلا مستقلا عن التيار العام لتاريخ الشرق الاسلامى . وقد هيات البيئة المصرية ذهن أحمد بن طولون للاتجاه فى الوجة التى يملها تاريخ مصر العام : فقد استبد بها ثم ضم اليها برقة واتجه بمد ذلك

الى الشام ، وجعل من ذلك كله وحدة واحدة ،  
وسيفعل ذلك كل من يجيء بعده . والتجربة  
الطولونية من هذه الناحية عظيمة القيمة في  
تاريخنا ، فقد دلت على أن مصر قاعدة القوة  
الاسلامية ، فاذا انضم اليها الشام أصبحت  
العمود الفقري لدولة الاسلام ، وشيئا فشيئا  
سيصبح ذلك حقيقة واقعية ، وتحمل مصر  
عبء الاسلام والخلافة والثقافة العربية .

وفيما يتصل بمجرى التاريخ المصرى  
العام دلت هذه التجربة القصيرة المدى على أن  
مصر لا زالت تحتفظ بعناصر القوة في كيانها ،  
فعلى الرغم من الكوارث التى توالى عليها  
منذ دخول الفرس أرضها سنة ٥٢٥ قبل  
الميلاد ، وقضائهم على مظاهر الحضارة  
الفرعونية ، وما تلا ذلك من محاولات للقضاء  
على الجذور البعيدة لشجرة الحياة المصرية :  
من عيث الفرس فى مصر وتخريبهم اياها ،  
وغلبة الاغريق وثقافتهم خلال العصر البطلمى ،  
ثم ما نزل بمصر من عسف الرومان ونهب  
البيزنطيين واضطهادهم ، ثم الفتح العربى وكل  
ما أتى به من مقومات حضارية وقيم معنوية  
روحية جديدة ، وما صاحب ذلك كله من  
الانتقال من الوثنية الفرعونية الى النصرانية  
فالاسلام ، ومن تغير اللغة من لهجات مصر  
القديمة الى غلبة اللغة القبطية وصراعها مع  
اليونانية ، وذهاب هذه وتلك وجريان ألسنة  
أهل مصر باللغة العربية ، على رغم ذلك كله  
ظلت الجذور سليمة والروح واحدة ، وما هو

الا أن نعمت مصر بالهدوء بضع عشرات من  
السنين حتى عادت اليها عافيتها وبدأت شجرتها  
تورق ثم تثمر . وهذه حقيقة لم يتنبه لها ابن  
طولون ورجاله وخلفاؤه ، وكان فى ذلك ضياع  
أمرهم . ولكن شعب مصر شعر بها شعورا  
غير واع كما يحس المريض بالانتعاش يسرى  
فى كيانه دون أن يصدق أنه فى طريق العافية .  
بقى سؤال قبل أن تترك هذه التجربة  
الطولونية : ما الذى جعل رجال الدولة  
العباسية يقسون هذه القسوة على بقايا  
الطولونيين ؟

لو أننا نظرنا الى الدولة العباسية فى  
مجموعها اذ ذاك للاحظنا أن بنى طولون ،  
رغم كل شئ ، كانوا أبر الناس بها وأتقهم  
لها ، فهم لم يخرجوا على الطاعة ولم يمنعوا  
مالا ، حتى السنوات التى قطع فيها ابن  
طولون مال مصر عن الخلافة عوضها ابنه  
خمارويه فكان يدفع ٢٠٠٠٠٠٠ عن السنوات  
الماضية و ٣٠٠٠٠٠٠ عن كل عام جديد . وفى  
تلك السنوات المظلمة التى عبث فيها الزنج  
بمضائر دولة العباسيين وهبت عليها ريح  
القرامطة لم يكن للخلافة من عماد حقيقى  
الا ما يرد من مصر من دنانير الذهب . ثم ان  
الطولونيين صاهروا الخلفاء ووسعوا عليهم  
قدر ما استطاعوا وحملوا عن الدولة عبء  
الحرب مع البيزنطيين ، فما الذى جعل محمد  
ابن سليمان الكاتب وجنده يفعلون ببقايا بنى  
طولون ما فعلوا ؟ حملوهم الى بغداد

مصفيدين في الحديد كأنهم أسرى حرب ، ثم عاثوا في بلاد مصر وأحرقوا ونهبوا كأنهم يقتحمون بلدا معاديا ؟

الحق ان ذلك يدل على انحطاط المستوى الخلقى العام لرجال الدولة العباسية ، فقد كانوا شراذم من الشذاذ والعفاة شقيت بهم بغداد ودمشق كما شقيت بهم القسطنطينية ، وقاسى الخلفاء منهم قدر ما قاسى بنو طولون . كانت بلاد الخلافة العباسية كلها فريسة أولئك الطفافة ، واذا تأمل الانسان أفعالهم أدرك أن حمدان قرمط لم يكن أسوأ من هؤلاء الرجال بحال ، وأنه لم يكن بدعا بين أهل زمانه حين أعلن الحرب على هذه الدولة ورجالها واستحل دماءهم ، وفعل ما فعل مما تقشعر منه الأبدان ، فلم يكن رجال الدولة خيرا منه ، وكانت فوضاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة أو الحق أو النظام .

### من الطولونيين الى الاخشيديين

عادت مصر مرة أخرى الى بحر الدولة العباسية الحافل بالعواصف . ولم يكن من المأمول أن تستقر حالها أو تهدأ أمورها والدولة ورجالها على ما وصفنا . فما هو أن استقر محمد بن سليمان الكاتب بمصر شهورا حتى عزله الخليفة المكتفى بعبسى بن محمد النوشرى ، وكان من جملة قواد محمد بن سليمان ، فبدأت امارته عليها في جمادى الآخرة ٢٩٢ / مايو ٩٠٥ وبدأ يرتب أموره فجعل الحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى

زبور على الخراج وولى أصحابه النواحي ، وهى بحسب ما يذكره أبو المحاسن : الاسكندرية وثرنتيس ودمياط والأحواض وبرقة ، والصعيد وأسوان . وربما كانت هذه هى أهم النواحي ، ويهمننا أن نلاحظ أن برقة كانت معدودة جزءا من مصر في ذلك الحين . ثم جمع النوشرى بقايا رجال الدولة الطولونية وأخرجهم من البلاد موكلا بهم ، أما بقية جند الطولونية فقد ساروا مع محمد بن سليمان حتى بلغوا دمشق ثم تفرق أمرهم ، فمنهم من ذهب الى العراق ومنهم من عاد الى مصر .

وكان من بين هؤلاء العائدين شاب من الجند يسمى محمد بن على الخلنجى ( يلقب أيضا بالخلنجى والخليج ) كان قبل ذلك في قيادة صافى الرومى ، فلما وصل الى مصر ورأى ما حل بينى طولون وما فعله جند العباسيين بمصر أنفت نفسه وقرر القيام على الدولة . واجتمع اليه نفر من الجند وبايعوه ، فأسرع بمن معه نحو الرملة في شعبان ٢٩٢ / يونيو ٩٠٥ وقضى على الحامية العباسية بها وملك البلد وخطب فيه للخليفة ولابراهيم بن خمارويه بن طولون ولنفسه . ثم كر الى مصر ، وحاول عيسى النوشرى أن يتصدى له فانهزم أمامه ، ثم فر الى الجيزة وأحرق الجسرين المؤديين من القسطنطينية الى الجيزة ، ودخل الخلنجى القسطنطينية . ثم هرب النوشرى الى الاسكندرية فأرسل الخلنجى فرقة من جيشه تتبعه بقيادة جندى نوبى يسمى خفيفا ، فانهزم هذا الأخير .

عليه وزالت دولته بعد أن حكم مصر سبعة أشهر وأياما .

وهذا الحادث يكشف عن ضعف بناء الدولة وقلة غناء القائمين بأمرها من الرجال ، فقد استطاع هذا الشاب المغامر أن يحول دون الدولة ورجالها ، وسيطر على مصر وهزم جيوشها ، وأفزع عامل العباسيين حتى أصبح يفر أمامه من القسطنطينية إلى الصعيد إلى الإسكندرية . ولولا أنه هو نفسه لم يكن كفتا للمطلب الذي أراد لما استطاعت الدولة أن تتغلب عليه . ويكفي أن نذكر أن سنة ٢٩٢ / ٩٠٤-٩٠٥ شهدت أربعة ولايات لمصر ، هم شيبان بن أحمد بن طولون ومحمد بن سليمان الكاتب وعيسى النوشري ومحمد الخنجي .

### الإخشيديون (١)

كاملين ، وكل من قدر على ناحية استبد بها . فأما في شرق الدولة ، أي فيما يلي العراق شرقا ، فقد أصبحت البلاد نهبا موزعا بين الاقطاعيين الكبار والمحاربين . فأما الطائفة الأولى فكانت تقرا من الأغنياء حازوا مالا مكن لهم من اصطناع جند مرتزق ، وبهذا الجند المرتزق حازوا ما استطاعوا حيازته من الأرضين وقاطعوا الدولة عليه بمال معلوم . وأما المحاربون فكانوا أجناسا من الترك والديلم والفرس والخراسانية ومن اليهم ذوى ملكات وهيئات تصلح للحرب والقتال ، وظهر فيهم أفراد يمكن أن نشبههم بالكوندوتيري Condottieri الايطاليين في القرن الخامس

وقد اضطرب أمر الخنجي بعد تلك الهزيمة فأخذ يطالب الناس بالأموال ليؤدي لجنده أرزاقهم . وقد بلغ الذعر برجال الدولة أن الحسين بن أحمد المدرائي أخذ الدواوين — أى دفاتر الأموال — وفر بها حتى لا يوقف على معرفة أصول الأموال ، فلجأ الخنجي إلى إكراه الناس على أداء ما يطلب « وأجرى أعماله على الظلم والجور وصادر أعيان البلد ، فلقى الناس منه شدايد ، إلا أنه كان إذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه ، ويعده أن يرد له ما أخذ منه أيام الخراج » . ولم يستقم الأمر لهذا الرجل ، فقد اضطربت الأحوال وتكاثر عليه رجال الدولة وتوالت قواتها ، فقبض

وقد فتحت التجربة الطولونية أعين رجال الدولة على ما يمكن أن تقدمه مصر للمتولى أمورها من امكانيات . وقد كانت الدولة العباسية إذ ذاك في حالة تشقق وتصعد

(١) جميع المراجع التي أشرنا إليها في الحديث عن الطولونيين تتحدث عن الاخشيديين . وبالإضافة إلى ذلك نذكر أهم دراسة في تاريخهم للسيدة الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في عصر الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ والمراجع المستوفاة المذكورة في ذلك الكتاب . ومادة « اخشيديين » بدائرة المعارف الاسلامية بقلم كارل هاينريش بيكر . وانظر :

C.J. Tornberg : *Mémoires sur les monnaies des Ikhshidites* (dans *Nova Acta Regiae Societis Scientiarum Upsaliensis*) 3e série, vol II.

عشر ، وهم متمهدو جنود ، يقدمون منهم الى من يريد لقاء أجور معينة ، وقد يقودون هم هؤلاء الجنود ويؤجرون أنفسهم ومن معهم لمن يريد .

وقد نبغ من الطائفتين — ملاك الأراضي والمحاربين — أفراد تمكنوا من أن ينشئوا دولاً ، بل منهم من دخلوا في خدمة الدولة العباسية وأصبحوا أصحاب الأمر فيها ، كالبويعيين والسلاجقة من بعدهم . غير أن هضاب إيران وتركستان وما يليها حتى حدود الصين كانت بلاداً فقيرة قليلة الخير ، لا تعين دولة على الصمود زمناً طويلاً ، وغاية ما كان يرجوه أصحاب الدول فيها أن يفرضوا أنفسهم على دولة الخلافة . وفي بلاط الخلفاء المضطرب الحافل بالانقلابات والدسائس ضاع أمر معظم أصحاب هذه الدول ، فكأنها في تتبعها كانت موجات بحر يلى بعضها بعضاً ويلاشى بعضها بعضاً .

وقد رأى هؤلاء الناس جميعاً أن الجانب الغربي من الدولة العباسية يقدم للطامع فيه فرصاً أحسن ، فهناك مصر القاعدة العسكرية الاقتصادية الكبرى ، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل ، وبهذا المال الوفير يستطيع أن يقطع مطامع أهل الدولة ويقيم لنفسه ملكاً يدوم بدوامه ، وربما أورثه أعقاباً . وهذه هي عبرة التجربة الطولونية في نظر رجال الدولة العباسية ، فمنذ بدأ أمر بنى طولون يضعف شهرته أنظار رجال الدولة

الى مصر وأصبح الأذكىاء منهم حريصين على أن يثبتوا أقدامهم فيها محاولين إعادة التجربة الطولونية لحساب أنفسهم . وأكبر من حاول هذا الأمر القائد تكين التركي ، ثم محمد بن طنج الاخشيد . فأما تكين فقد تولى مصر فيما بين سنتي ٢٩٨/٩١٠—٩١١ و ٣٢٣/٩٣٤—٩٣٥ أربع مرات حكمها في مجموعها قرابة ستة عشر عاماً . فاذا ذكرنا أن عمر دولة بنى طولون كلها لم يزد عن ٣٨ سنة والاكشيد عن ٣٤ ، تصورنا طول المدة التي سيطر فيها تكين هذا على مصائر مصر وجانب كبير من الشام أيضاً .

غير أن جميع من طمعوا في مصر من أولئك القواد لم يرزقوا شيئاً مما رزقه أحمد بن طولون من المواهب والكفايات ، حتى محمد ابن طنج الاخشيد نفسه ، لم يكن يمتاز عن تكين بشيء ، فلم يكن على ثقافة أو اتساع ذهن أو طموح بعيد ، بل كان بخيلاً أميل الى الجبن وسوء التصرف . ولولا أن أمور مصر المالية كانت في أيامه الى أسرة المادرائيين لما استطاع أن يقيم لنفسه في مصر كيانه ، ولولا قيام كافور الاخشيدى بشؤون بنيه بعد وفاته لتلاشى أمر بنى الاخشيد عقيب وفاته . واذا قارنا بين محمد بن طنج وكافور لرجحت كفة هذا الأخير ، فقد كان أعقل وأقدر وأعرف بشؤون السياسة ، وهو عماد هذه الدولة ومحور سياسة مصر خلال العشرين السنة التي انقضت بين موت محمد بن طنج وزوال أمر بنى الاخشيد على أيدي الفاطميين .

في خدمتهم ، وهو الذي قبض على قتلة خمارويه في الشام ، مع أن خمارويه كان قد أزمع الفتك به ثم حال مصرعه دون ذلك . وظل طفج واليا على دمشق وطبرية أيام أبي العساكر جيش . وفي أيام هارون بن خمارويه نجده واليا على الشام مستبدا بالأمر فيه ، ثم تمكن رجال الدولة الطولونية من استرضائه واستمالته ، فدخل في طاعتهم وأقروه على الشام . وعندما قتل شيبان هارون لم يعترف طفج بشيبان ، وانضم الى محمد بن سليمان الكاتب ، وشارك بهذا في القضاء على دولة الطولونيين . ثم انتقل طفج الى بلاط العباسيين وناله ما كان ينال رجال الدولة اذ ذاك من الأذى ، فحبسه الخليفة المكتفى بالله مع ابنه محمد وعبيد الله بسعاية الوزير العباس بن الحسن . وقد مات طفج في السجن سنة ٢٩٤/٩٠٦-٩٠٧ وهرب محمد وعبيد الله . وكان محمد أكبر أبناء طفج ويكنى بأبي بكر ، أما اخوته الآخرون فهم أبو الحسين محمد وأبو المظفر الحسن وأبو نصر الحسين وأبو القاسم على ، وسيكون لمعظمهم دور في أمور مصر أيام دولة أخيه وأبنائه .

وتنقلت الأحوال بمحمد بن طفج حتى ظهر أمره سنة ٣٠٢/٩١٤ وكان في خدمة تكين والى مصر ، فقد اشترك في رد غزوة فاطمية على مصر ، فقربه تكين حتى أصبح منه بمنزلة الولد . وعندما نقل تكين عن مصر صحبه محمد بن طفج ، فلما تولى دمشق جعله نائبا

ومن هنا فانه يبدو لنا أنه من المبالغة أن نحسب دولة الاخشيديين في مصر بين الدولات ذات الخطر أو الأهمية في تاريخ مصر العام . فلا هم أنشأوا شيئا ذا بال أو وضعوا رسا أو سلكوا سياسة تجعلهم في عداد دول التاريخ المصرى ، ومن الانصاف ألا يقال دولة الاخشيد ، بل دولة الاخشيد والمدرائيين وكافور .

وقد ظهر أمر محمد بن طفج أثناء خلافة الراضى بالله ، حتى ليقال انه هو الذى منحه لقب الاخشيد عام ٣٢٧/٩٣٩ على أصح الآراء . والذين يروون هذا الخبر يقولون ان محمد بن طفج هو الذى طلب الى الراضى أن يختصه بهذا اللقب ، ويقال ان الاخشيد كان لقب ملوك فرغانة ، كما أن أصبهبذ لقب ملوك طبرستان ، والاخشيد لقب ملوك أشروسنة ، وما الى ذلك . ويقال أيضا ان معناه ملك الملوك ، وهذا تفسير لا يمكن القطع بصحته ، مثله في ذلك مثل قولهم ان معنى « طفج » عبد الرحمن . وعلى أى الأحوال فقد اتصل بيت محمد بن طفج بن جف بالعباسيين من أيام المعتصم ، فقد كان جف من رجاله المقربين اليه ، وقد أقطعه المعتصم اقطاعا سنيا . وظل جف في البلاد حتى توفى في الليلة التى قتل فيها المتوكل من سنة ٢٤٧/٨٦١ .

وخلفه ابنه طفج بن جف وكان من كبار الجند وأصحاب الولايات ، وقد دخل في خدمة الطولونيين وتولى لهم الشام وأخلص

يعزل محمد بن طغج ويحل محله ، ودخل مصر واليا للمرة الثانية في شوال سنة ٣٢١/٩٣٣ ، أى أن محمد بن طغج تولى مصر للمرة الأولى نحو ٣٠ يوما دون أن يدخلها . ولكنه لم ييأس ، ولم يزل يسعى حتى حصل على ولايتها مرة ثانية من الخليفة الراضى ، ودخلها واليا في رمضان سنة ٣٢٣ / سبتمبر ٩٣٥ وظل يحكمها من ذلك الحين الى وفاته سنة ٣٣٥/٩٤٦ .

ولم تكن الظروف التى تولى فيها محمد ابن طغج الاخشيد مصر موالية، فقد كان طمع رجال الدولة فيها عظيما . أما من جهة الغرب فقد اشتد طمع الفاطميين ، ولم يعد يمر عام دون أن يوجهوا الى مصر حملة . وقد عاش الاخشيد وخلفاؤه بين حجرى الرحى هذين طوال مدة حكمهم مصر ، وانتهى أمرهم عندما غلبهم المعز الفاطمى على البلاد ، وفصل مصر عن الخلافة العباسية جملة .

ولم يكد محمد بن طغج الاخشيد بتولى أمور مصر حتى نهض محمد بن رائق . وكان هذا من فحول الرجال وعتاة ذلك الزمان ، لم يزل أمره يعلو حتى اضطر الخليفة الراضى الى تقليده جميع أمور الدولة « وبطل حينئذ أمر الوزارة والدواوين وبقي اسم الوزارة لاغير » كما يقول أبو المحاسن ، أى أن ولايته كانت تمهيدا لنشوء وظيفة أمير الأمراء فيما بعد . وقد فزع الاخشيد من التفات محمد بن رائق اليه وسار لحربه ، والتقى الجانبان عند

عنه في حماه وجبل السراة . فلما عاد تكين لولاية مصر ولاء الاسكندرية ، وهناك أتاحت له الفرصة لرد الفاطميين عن مصر مرة أخرى . وفى أثناء ذلك وثق محمد بن طغج علاقته بأبى بكر محمد بن على المدرائى والحسين بن أحمد المدرائى المعروف بأبى زنبور ، وعرف منهما شيئا كثيرا عن شؤون مصر المالية اتفنع به فيما بعد . ثم ولاء تكين أمر الحوفين الشرقى والغربى ، وفى أثناء ولايته على الاسكندرية ثم الحوفين بدأ يظهر شرهه الى المال ، فأقبل على مصادرة المياسير والاستيلاء على التركات . وقد أنكر ذلك منه تكين وبدأت العلاقات تسوء بينهما .

وأحسن محمد بن طغج بذلك ، فسعى حتى دبر له بعض معارفه ولاية الرملة بالشام ثم هرب من تكين الى الرملة . ثم حصل على ولاية دمشق سنة ٣١٩/٩٣١ ومكن لنفسه فيها . وهنا أخذ يكون لنفسه قوة عسكرية يعتمد عليها فى صراع السلطان الذى كان دائرا اذ ذاك ، ثم استقدم اخوته عبيد الله والحسن والحسين ، وأخذ يستعد لانتهاز أول فرصة تسنح . ولا شك أن عينه كانتا مثبتتين على مصر ، فأخذ يجمع المال بالمصادرات وغصب التركات ، وكلما اجتمع له مال اصطنع به جندا يقربونه من غايته .

واستطاع وهو فى الشام أن يستصدر من الخليفة القاهر أمرا بضم مصر الى ولايته فى الشام ، ولكن أحمد بن كينغلغ استطاع أن

يحتفظ بملكه خلال هذه السنوات بفضل القوة العسكرية التي استطاع أن ينشئها ، ثم انه كان الى ذلك كَيْسًا مداورا يستطيع أن يراوغ ويداور وينحني للعواصف ، وما كان أكثرها اذ ذاك ، وقد رأينا موقفه من ابن رائق . وكان الزمان عصيبا لا يسلك في متاهته الا من كانت له هذه الخلال ، فقد كانت غارات القرامطة لا تكف عن الشام والحجاز ، وليس هنا موضع تفصيل أفاعيلهم ، وانما المهم أن تقول ان الله رحم المسلمين بموت أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي في سنة ٣٣٢/٩٦٣ بعد أن فعل بالشام والحجاز والحجاج الأفاعيل ، وسرق رجاله الحجر الأسود من الكعبة عشرين سنة ، ولم يردوه الا بعد عناء . هذا والأتراك المستبدون بدولة بنى العباس ينهزمون أمامه مرة بعد أخرى ، وكلما انهزموا لم يجدوا أمامهم الا الخلفاء الساكنين يعذبونهم ويسلمون أعينهم ويقتلونهم . ولم يكن أولئك الخلفاء على شيء من المهابة واحترام النفس ، وقد بلغ من أحدهم — وهو القاهر ، وكان قد خلع وسمت عيناه — أنه لما بلغه خبر قبض توزون التركي على المتقى وسمله عينيه قال : « صرنا اثنين ، ونحتاج الى ثالث » يعرض بالمستكفي الذي بويغ بعده . ولم يكن الوزراء بخير من الخلفاء ، ويكفي أن نذكر أن الوزير ابن شيرزاد وزير المتقى كان قد أمّن لصًا فاتكًا « وخلع عليه ، وشرط عليه

اللجئون على مقربة من طبرية في فلسطين . وقد انتصر الاخشيد ، ولكنه أحس رغم انتصاره أنه لن يستطيع الصمود لابن رائق ، فصالحه على أن يحمل اليه كل عام ١٤٠٠٠٠ دينار على أن تكون له الرملة ، ويترك باقى الشام لابن رائق ، وكان ذلك في المحرم ٣٢٩/ أكتوبر ٩٤٠ . ثم توفى الخليفة الراضى في ربيع الآخر من السنة وخلفه أخوه المتقى ، وقتل ابن رائق في العام التالي ، فسار الاخشيد ودخل دمشق وضم الشام الى ولايته ، وأقره المتقى على ذلك . وقد عرف محمد بن طفج كيف يكسب ثقة المتقى ، بل دعاه الى ترك بغداد والمجيء الى مصر ، مقلدا في ذلك ما فعله ابن طولون مع المعتمد ، ولكن المتقى لم يقبل هذا الرأي .

وفي ذلك الحين كان أمر بنى حمدان في حلب قد اشتد ، وبدأ الصراع بينهم وبين الاخشيد ، وهو صراع كتب النصر فيه للاخشيد ، فظلت ولايته على مصر والشام خلال بقية أيام المتقى ثم المستكفي ثم المطيع . وفي خلافة هذا الأخير توفى الاخشيد في دمشق في ذى الحجة ٣٣٤/ أغسطس ٩٤٥ وخلفه ابنه أبو القاسم أونوجور أو أتوجور ، أى أن الاخشيد ظل واليا على مصر ١١ سنة و ٣ أشهر ويومين كان في معظمها واليا على الشام أيضا ، وكانت سنه عندما توفى ٩٦ سنة ودفن بالقدس .

وقد استطاع محمد بن طفج الاخشيد أن

أن يصله كل شهر بخمسة عشر ألف دينار ، وكان يكبس بيوت الناس بالمشعل والشمع وتأخذ الأموال . »

وكان محمد بن طفج يحاول التشبه بأحمد ابن طولون ، ولكن شتان بين الرجلين من كل ناحية . وقد ألمنا بصفة ابن طولون والمعنا بشيء من خصال محمد بن طفج ، وبقي أن نضيف أن جشعه الى المال واستهاته بما في أيدي الناس وقلة تعففه جعلته موضع الزرابة والانكار والتندر . بل كان يطعم في القليل ، حتى لقد طمع في فرو كان يلبسه أحد رجاله ، فجعل يعرض له به لعل الرجل يهديه اياه ولكنه لم يفعل ، فلما آيس منه عرض بعض غلمانه فغصبوا الرجل الفرو وهو خارج من عند الاخشيد ثم أنكروه . ثم أراد الاخشيد أن يتظرف فلبس الفرو ، فلما دخل عليه الرجل مرة أخرى ورآه عليه ضحك الاخشيد وقال : « كيف رأيت ؟ ما أصفق وجهك ! ولكنك ابن أبيك .. وكم عرضت لك وأنت لا تستحي فلم تفعل ، حتى أخذناه بلا شكر ولا منة ! » وربما خفف من ذلك أن الرجل كان شديد التقى ، ولكن تقاه لم يكن يظهر الا بعد قيامه بالأذى . ولم يكن حال الاخشيد من هذه الناحية يختلف عن حال غيره من رجال الدولة والسياسة في ذلك الزمان ، فقد كانوا يظهرون الأسف والندم على ما يفعلون بعد فوات الوقت ، وكانت ضراعتهم الى الله خوفا من العذاب لا عاطفة دينية كريمة . وكان

الاخشيد من هذه الناحية حريصا على ألا تقوته فرصة لطلب الغفران ، حتى لقد تكاسل مرة عن حضور ختم القرآن في جامع عمرو ، وكان حريصا على ذلك أثناء شهر رمضان ، فدعته احدى جواريه الى القعود على أن تعتق عنه عشر رقاب فقال : « أعرس رقاب ؟ ويحك ! لعله يكون في هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول في دعائه : اللهم اغفر لجماعتنا ، فعسى أن أدخل بهم » ، ثم ركب الى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم . وقد حاول أن يتشبه بأحمد بن طولون في مظاهره ، فلم يوفق . وظل الناس لا يوقروه توقيير الملوك حتى أصبح يطلب ذلك ويصر عليه ، وقد قرب تقرا من بقايا الطولونيين فأصبحوا من نداماه ، وربما جلس للعلماء والشعراء .

وجدير بنا قبل الانتقال الى خلفاء الاخشيد أن نقف وقفة عند المادرائيين ، فهم كما قلنا يقاسمونه فضل ما أدرك من توفيق . وقد سبق أن ذكرنا أن أفراد هذه الأسرة كانوا في مصر أيام الطولونيين . وهم في الغالب أسرة فارسية الأصل أتى أولهم الى مصر أيام أحمد بن طولون وأصبح من حواشيه ، ثم تداعوا بعد ذلك حتى كثروا في البلاد . وأهم رجالهم ثلاثة : أحمد بن ابراهيم أو محمد ابن أحمد بن ابراهيم المادرائي الأطروش ، والحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور ، وعلى بن أحمد المادرائي ثم ابنا هذا الأخير أبو بكر محمد وأبو الطيب على .

٣٢١/٩٣٣ وأصبح صاحب السلطان الفعلى فى البلاد . وبدو أنه كان يعتمد على قوة عسكرية خاصة به تحميه من خصومه وترد عنه أيدي الطامعين فى ثروته . ولم يكن الحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور بأقل كفاية ولا مهارة من ابن أخيه أبى بكر ، فقد صار إليه الأمر بعد ذلك ، وعندما توفى سنة ٣١٧/٩٢٩ كانت شؤون مصر والشام المالية والادارية فى أيدي أهل بيته . وكانوا جميعا يهبون أموال الدولة ويوزرون فى الأوراق ، وكان رجال الدولة يعلمون ذلك ويستحلون مصادرتهم ، وكانت المصادرة جزءا من النفقة العادية عندهم ، يدخرون المال لما ينزل بهم منها ويبقى لهم بعد ذلك الثراء الطائل مخبأ فى سرايب وأماكن لا يعلم بأمرها أحد .

وكان العمل الرئيسى للمادرائيين أنهم كانوا يضمون الخراج للخلافة أو لصاحب الأمر فى مصر ، فيدفعون مبلغا معيناً ثم يستخرجون من الناس ما يشاءون . وقد اشتهر أمرهم بذلك ، حتى ان أصحاب الأمر كانوا يكرهونهم ويحسدونهم ولكنهم لا يستغنون عنهم ، نظرا لمعرفتهم بوجوه الايراد والاتفاق ، ولم يكن هناك من يجرؤ على ضمان الخراج بالمبالغ التى كانوا يضمونها بها .

وفى سنة ٣٢٧/٩٣٨ - ٩٣٩ أو التى بعدها استدعى الاخشىد أبى بكر المادرائى

فأما أحمد بن ابراهيم فقد ولى خراج مصر سنة ٢٦٦/٨٧٩ شركة مع ابن شعيب المدائنى ، ويغلب أن الذى وضعه فى هذا المنصب كان أحمد بن طولون نفسه ، ثم انفرد أحمد بن ابراهيم المادرائى بخراج مصر . وبعد قليل عهد ابن طولون الى الحسين بن أحمد المعروف بأبى زنبور فى عمل من أعمال الخراج فى الشام . ثم ظهر من بين أفراد البيت على ابن أحمد المادرائى وعلا أمره أيام خمارويه حتى قال المقرئى انه « كان يملك النظر فى جميع أمور مصر لأبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ووزارة » . وفى سنة ٢٧٢/٨٨٥ استقدم على هذا ابنه أبى بكر محمد بن على وأبى الطيب أحمد بن على ، واستخلف أبى بكر على الخراج ثم على الرسائل ، وهكذا أصبحت الأمور المالية والادارية كلها فى مصر بأيدي أفراد هذا البيت .

وقد قتل على بن أحمد المادرائى مع أبى العساكر جيش ، فنهض ابنه أبو بكر مكانه وتولى أمور هارون بن خمارويه . وعندما دخل محمد بن سليمان مصر انضم إليه أبو بكر محمد المادرائى ، ورافقه الى بغداد ، ثم عاد الى مصر وتولى خراجها الى سنة ٣٠٤/٩١٦ أيام تكين وأصبح صاحب السلطان المطلق فى البلاد وحاز ثروة واسعة . ثم أبعده هو وعمه أبو زنبور عن مصر وطولبا فى بغداد بأموال جليظة ، وظلا بعيدين عن خراج مصر ١٤ سنة ، ثم عاد أبو بكر الى خراج مصر سنة

وفوض اليه أمور المال ، وخلع على ابنه الحسين بن أبى بكر ، وأصبح أبو بكر أشبه بوزير للاخشيد . قال ابن سعيد : « ورد اليه الاخشيدي التدبير بمصر والشام والرملة ، ولبس الدراعة ونزع الطيلسان ، وكان الاخشيدي لا يصدر الا عن رأيه ولا يخليه من حضور مجلسه ، ويقول للناس اذا انصرف : كم قبلت يده ووقفت بين يديه ! » - والدراعة هى شارة الوزراء ، فكأن أبى بكر المدرائى قد أصبح بالفعل وزيرا وان لم يتسم بذلك . وقد غضب عليه الاخشيدي سنة ٣٣١/٩٤٣ - ٩٤٣ وعزله وجبسه فى بيته مكرما وأجرى عليه رزقا يعث اليه فى سجنه .

وتقلبت الحال بأبى بكر ، حتى اذا توفى الاخشيدي وتولى أبو القاسم أونوجور أظهر أبو بكر همة عظيمة فى تأييده ، فأعاده الى ما كان عليه . ومن غريب ما حدث بعد ذلك أن قائدا يسمى غلبون خرج بالصعيد وغلب جيش أونوجور وتولى الأمر فخدمه أبو بكر وضمن له الخراج ، فلما عاد الأمر الى أونوجور جبسه وصادره وضربه ، فلما صار الأمر الى كافور أخرجه من سجنه وأعاده الى ما كان عليه . أى أن هذا الرجل استطاع أن يطفو على السطح رغم كل شىء ، وقد ذهبت دول وقامت دول والمدرائيون على حالهم من السلطان والغنى والجاه . وقد توفى أبو بكر المدرائى فى الثامنة والثمانين من عمره أيام كافور سنة ٣٤٥/٩٥٦ وكان قد ابتعد عن الأعمال فى أواخر أيامه .

ونعود الى خلفاء الاخشيدي : فبعد وفاة محمد بن طنج خلفه ابنه أبو القاسم أونوجور ، وكانت سنة أربع عشرة سنة عندما تولى الأمر . وانتهاز كافور الاخشيدي الفرصة ووضع يده على الأمور كلها . ومن ذلك التاريخ الى دخول الفاطميين مصر سيطر كافور هذا على مصائر مصر وجزء من الشام فى بعض الأحيان . وهو عبد أسود يصفه المؤرخون بقبح الشكل وكبر البطن والقدمين وثقل البدن ، وقالوا انه كان مثقوب الشفة السفلى . ويبدو أن هذه مبالغات من المؤرخين أرادوا بها أن يجعلوا كافورا مثلا لقدرة الله على اعطاء الدنيا لمن يشاء . ويرجح أنه ولد بين عامى ٢٩٢ و٣٠٨/٩٠٥ و٩٢٠ بالنسبة أو الحشة ، ويسمى فى بعض الأحيان باللابى نسبة الى ناحية اللاب من بلاد النوبة . ويقال ان الاخشيدي اشتراه بثمانية عشر دينارا . ومهما يكن من أمر فقد أخلص كافور للاخشيدي اخلاصا عظيما فأدنى محله ورفع قدره ، وعهد اليه فى تربية ابنه أونوجور وعلى .

وكان الرجل ذكيا فآلم بالكثير من شؤون الدولة ، ورأى خلفاء الاخشيدي صغارا لا يرجى منهم خير ، ورجال الدولة لا يمتازون بأمانة ولا اخلاص ، فنظر الى الأمر وأخذ يمهّد لنفسه بكسب الصداقات والأعوان . فلما صارت الأمور الى أونوجور أصبح هو صاحب رأى الأعلى ، ودام له ذلك على أيام أخيه على . وقد حاول كلاهما أن يتخلص

والعباسية ، وله ندماء ، وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب يمتنع عن الأمراء ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كريما كثير الخلع والهبات خيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية ، كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وكان يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويضدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر . وكان لا يتفك عن ارسال الأموال والهبات الى الحجاز . وكان يتظاهر أمام الناس بكل ما يجيبه الى قلوبهم . ذكروا أن خطيبا عرض به في احدى مواعظه وذكره في معرض التذليل على هوان أمر الدنيا على الله ، فسمع كافور بذلك فأرسل اليه خلعة ومائة دينار ، فصار الواعظ يقول بعد ذلك : ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة : لقمان وبلال المؤذن وكافور .

ويكفى للتذليل على ما بلغه كافور من المكانة ما وقع له مع المتنبي ، وقصد هذا الشاعر الكبير اياه ومدحه والتقرب اليه ، حتى لقد كان المتنبي على احتقاره لكافور يخافه ويركب في موكبه . ولم يبلغ المتنبي من كافور شيئا ، فاتجه الى رجل من منافسيه هو أبو شجاع فاتك الرومى المعروف بالمجنون ، فمدحه ، وحصل منه على ألف دينار وهدايا أخرى ، ثم خاف كافورا فهرب من مصر ، وعندما صار على حدودها أطلق لسانه فيه .

منه دون جدوى ، وظل كافور صاحب الأمر المطلق في البلاد مستعينا بأبي بكر المادرائى وغيره من رجال الدولة . ويذهب بعض المؤرخين الى أن كافورا تخلص من أبى القاسم أونوجور ثم من أخيه على بالسم ، وذلك غير مستبعد وان كنا لا نستطيع القطع به . وبعد أن توفي على لم يعد هناك الا ابنه أحمد ، وكان صبيا فى التاسعة من عمره ، فأزاحه كافور جملة ودعا لنفسه على المنابر وأصبح أمير مصر ولكنه اكتفى بلقب الأستاذ ، فكان يقال « الأستاذ أبو المسك كافور » . وقد صمد كافور فى الحفاظ على كيان الدولة ورد عنها الفاطميين أكثر من مرة وحماها من عدوان رجال الدولة العباسية ، ولولاه لضاع أمر بنى الاخشيد عقب وفاة محمد بن طغج مباشرة . أى أنه ظل يحكم مصر فعلا من سنة ٣٣٤/٩٤٥ الى سنة ٣٥٧/٩٦٧ ، وقد سقطت مصر فى أيدي الفاطميين بعد وفاته بعام واحد .

وكان رجال الدولة يخشون بأس كافور ، أما جمهور الناس فكانوا يحبونه . وقد جمع من الصفات ما أهله لهذا وذاك ، فأما مع رجال الدولة فكان حاسما حازما بل قاسيا ، ولم يمنعه ذلك من القدرة على المراوغة والمطاوله . وأما مع الجمهور فكان يظهر التقى والتواضع وحب آل البيت . قال الذهبى : « وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ له فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية

اهتمامهم نحو مصر وطمعوا فيها بسبب ما كانت عليه أحوالها من الاضطراب ، وقوى طمعهم عندما صار الأمر الى كافور ، ولكنه عرف كيف يرد أطماعهم عن بلاده . وكان الفاطميون قد دعوا الاخشيد الى الدخول في طاعتهم ، فجعل يراوغهم ، حتى وطد علاقته مع العباسيين واطمأن من ناحية رجالهم ، فوقف من الفاطميين موقفا حاسما . فلما مات الاخشيد عادوا يحاولون مع كافور ، فأخذ يراوغهم هو الآخر : لم يرفض طلبهم ولم يجبه ، وظل يجتهد في المحافظة على مركزه بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى .

وقد بدا للمعز الفاطمي بوضوح أن فرصته لدخول مصر قادمة يوم يموت كافور ، وبدأ بالفعل يستعد للأمر ، فبدأ في حفر الآبار على الطريق من افرقية الى مصر من سنة ٣٥٥/٩٦٥ ، وعندما وصلت الأخبار بموت كافور سنة ٣٥٧/٩٦٧ عجل باعداد الحملة . وزاده همة في ذلك ما تسمع به من سوء سياسة الوزير جعفر بن الفرات . ويبدو أن دعاة الفاطميين في مصر كانوا كثيرين ، لأننا نقرأ في أخبار هذه الشهور الحاسمة ما يدل على أن الجو في مصر كان مهياً لاستقبال الفاتحين الجدد . وعندما اقتربت عساكر الفاطميين من مصر اجتمع جعفر بن الفرات بكبار رجال الدولة ، وقرروا مفاوضة القائد جوهر على شروط التسليم ، ثم اجتمعوا بجوهر وحصلوا منه على أمان لأنفسهم وأهل

وبعد أن توفي كافور اجتمع رجال الدولة وولوا أحمد بن علي بن محمد بن طنج الاخشيد في جمادى الأولى سنة ٣٥٧/٩٦٧ وجعلوا الحسن بن عبيد الله بن طنج ( ابن عم أبيه ) خليفته ، وتولى أموره أبو الفضل جعفر بن الفرات . وكان أحمد في الحادية عشرة من عمره لا يستطيع أمرا ، وقد أساء جعفر بن الفرات التصرف وصادر بعض الناس وفي جملتهم يعقوب بن كلس وكان من سروات الناس ، ففر الى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر ، وقد بلغ ابن كلس بعد ذلك مركزا عظيما أيام الفاطميين .

وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد منذ أيام الاخشيد ، وقد أشرنا في كلامنا عن الاخشيد الى بعض محاولاتهم لفتحها . والواقع أن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم في القيروان لم يعرفوا راحة ولا اطمئنانا ، فقد ناصبهم أهل البلاد العداء وكرهوهم وحاربوهم ، حتى ضاق ذرعهم . وكانت البلاد فقيرة لا تعينهم على ادراك ما كانوا يؤملون من ملك عظيم ، ثم انهم عجزوا عن السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى ، وبدا لهم بوضوح أن أمرهم الى زوال اذا هم ظلوا في هذا الركن الذي شئت المقادير أن تقوم دولتهم فيه . فاتجهت أنظارهم الى ضم بلاد أخرى الى افرقية ، وبعثوا العيون والجواسيس في كل ناحية ليعلموهم بأحوال بلاد مثل الأندلس ومصر ، غير أنهم بعد أن مات الاخشيد اتجه

تلك هي التجربة الاخشيديية ، أراد صاحبها من ورائها أن يعيد تجربة ابن طولون فلم يوفق، وانقضت سنواتها الأربع والثلاثون وكأنها ظل مر على حائط دون أن يخلف أثرا . واذا كان ولا بد أن نجد لها دورا في تاريخ مصر الطويل قلنا انها أتاحت للشعب المصرى عددا من السنوات عاشها بعيدا عن العواصف التى هزت بقية أجزاء الدولة العباسية فى ذلك الحين . فلقد شقيت الجزيرة العربية والشام والعراق بغارات القرامطة ، وتهددت الدولة البيزنطية حدود مملكة الاسلام من الشمال واجتاحتها فى مواضع ، وبقيت مصر هادئة تجرى الحياة فيها على مألوف عهدتها فى تلك العصور من التشابه والتكاسل . ولا شك أن محمد بن طفج كان حريصا على الدفاع عن مصر والابتعاد بها عن المعمة الدائرة، وضحى فى سبيل ذلك بمعظم الشام ، فلم يحتفظ منه الا بالرملة ، وهى مفتاح مصر من ناحية الشام .

وربما استطعنا أن نقول انه لولا الاخشيدي وكافور لتقدم استيلاء الفاطميين على مصر بضع سنوات . فقد ولدت الدولة الفاطمية فى افريقية بعد زوال دولة آل طولون بأربع سنوات ، ومنذ أن تربع فى دستها عبيد الله المهدي فى سنة ٢٩٦/٩٠٨ تفتحت عيناه على مصر وأخذت حملات الفاطميين تنوش حدودها الغربية . وقد دافعها ولاية بنى العباس ما أمكنتهم المدافعة ، فلما جاء الاخشيدي اهتم

البلد . وقد أورد المقرئى نص هذا الأمان فى « اتعاظ الحنفا » ، وهو لا يخرج عن تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم ، ولكنه حافل بما اشتهر عن الفاطميين من تمجيد لأنفسهم واستعلاء على غيرهم وامتنان على الناس بطاعتهم . وفى شعبان ٣٥٨/٩٦٨ دخل جوهر الصقلى مصر بجيوش الفاطميين بعد مناقشات يسيرة ، وبدأ فى تاريخ مصر عهد جديد .

ولم تكن للاخشيديين أثناء حكمهم فى مصر عناية حقيقية الا بشؤون المال ، وقد وفقوا فى ذلك بفضل المادرائيين ، وظلوا يجبون مال مصر كل سنة نحو مليونين من الدنانير على قول و ٣٢٧٠٠٠٠ على قول آخر . والراجع أن الرقم الأخير أقرب الى الصحة . وقد تشدد الاخشيديون فى ذلك حتى أرهقوا الناس بالمغارم والجبايات ، حتى كان الجباة يستخرجون من الناس ضرائب على أراضى البور . وقد قرر المقدسى أن الضرائب والمكوس كانت ثقيلة ، وبخاصة فى تيس ودمياط وعلى ساحل النيل . وقد ذكرنا أن الاخشيدي كان لا يتورع عن مصادرة الأموال، أما كافور فقد كف يده عن ذلك ، ثم عادت المصادرات بعد وفاته ، وأسرف جعفر بن الفرات فى ذلك . ويبدو أن رجال الدولة غد أهملوا صيانة المرافق ، فقد توالى على البلاد الغلوات ، وفى السنة التى دخل الفاطميون مصر فيها كانت الحالة قد بلغت مبلغا جعل البلاد على حافة الخراب ، وقد تدارك المعز ذلك لأول دخوله .

بالدفاع وأعد له عيادته وتمكن من رد كل محاولات الفاطميين ، وأضآف الى ذلك سياسة مرنة جعلته يصانح الفاطميين حيناً ويتصدى لهم حيناً ، حتى لبيدو في بعض سنواته أميل الى الدخول في طاعة الفاطميين والخروج من دولة بنى العباس ، ولكن قوى الفاطميين لم تبلغ أيامه المبلغ الذى يخيفه أو يدعوهم الى طاعتهم ، ففضل البقاء على طاعة العباسيين ، فهم مهما كان أمرهم أضعف من الفاطميين ، وهم مشغولون عنه بما حزبهم من المتاعب ، فكانوا يقنعون منه بما يرسل ، ولم يكن الفاطميون ليرضوا منه بأضعاف ذلك .

ثم جاء كافور فمضى على سياسة مولاه ، وأخذ يراوغ الفاطميين ويدافعهم ، حتى اذا انتهت أيامه كان على عرش الفاطميين تميم أبو معد أعظم رجال دولتهم ، وفي خدمته قائد مظفر ماهر هو جوهر ، جاس خلال المغرب كله يفتزو ويحارب ، حتى تجمعت له تجربة عسكرية جعلته من أكبر قواد زمانه ، وقد يش المعز وقائده من مصير دولتهم فى المغرب وتعلقت آمالهما بدخول مصر ، ووجها نحوها كل قواهما ، فصارت اليهما دون كبير جهد .

ولابد أن نضيف الى الاخشيد جانباً من الفضل فى مدافعة البيزنطيين عن بلاد الاسلام ، فقد كانت الدولة البيزنطية قد نهضت اذ ذلك نهضة كبيرة على يد تقفور فوقاس ثم يوحنا الشمشق من بعده . وأغار على بلاد الاسلام وخربا شمال الشام فسقطت أنطاكية ودفعت حلب الجزية وتهدد الخطر دمشق ، وتصدى لمدافعهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب والاششيديون ومتطوعة المسلمين الذين تكاثروا فى الثغور الاسلامية تدفعهم الحماية الدينية ، وخاصة ثغر طرسوس ، وعلى الرغم من أن دولتى الاخشيديين والحمدانيين لم تستطعا رد عادية البيزنطيين عن بلاد الاسلام بصورة حاسمة ، الا أنهما تمكنتا من ائقاذ ما أمكن ائقاذه ، وأرسل الاخشيديون قواتهم لحماية الثغور وأخرجوا الأموال لاقتداء أسرى المسلمين ، وقد هابهم البيزنطيون وكاتبوهم رأساً متخطين رجال الدولة العباسية . وكانت سياسة الاخشيد وكافور مع البيزنطيين سياسة ملاينة وموادعة فى الغالب ، ولم يكونا ليستطيعا أكثر من ذلك على أى حال .





المختلفة من سجن وقتل وتشريد ، ولهذا لم يؤرخ الاسماعيلية لحركتهم بأنفسهم ، لأن الستر أصل من أصول مذهبهم ، ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور ، وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد الستر — وهو العهد الذي يبدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهي بقيام الدولة الفاطمية — يسوده التناقض والاضطراب ، ولا يمكن الركون اليه أو الوثوق به .

### الحزب الشيعي — نشأته وتطوره

الى اليوم ؛ وتولى معاوية زعامة المعارضة ، وكانت حجته الكبرى أنه انما قام للمطالبة بئار عثمان ، والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة ، غير أنا نرى أن هذه حجة عاطفية اتخذها معاوية شعارا ليثير شعور المسلمين على على ، أما الصراع الحقيقي فهو صراع سياسى تمتد جذوره الى الماضى البعيد ، الى عصر ما قبل الاسلام ، عندما كان التنافس على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم فى سبيل السيادة فلما ظهر محمد برسالته كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له وكان أبو سفيان — زعيم بنى أمية — حامل لواء المعارضة والمقاومة .

ونصر الله عبده محمدا ، وانتقلت السيادة الى بنى هاشم ، فمنهم اختار الله نبيه ، وقد استجاب العرب جميعا لرسالته وخضعوا لنفوذه بعد أن كون دولته الجديدة التى

أولهما أننا لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الاسماعيلية أو من بدأ بها ، فقد بدأت سرية ، وما كتبه المؤرخون السنيون عن أصولها ومبدئها فيه تناقض كثير واضطراب ، ويعتمد فى أكثره على الشائعات المغرضة .

وثانيهما أن الاسماعيلية أنفسهم لجأوا فى أول الأمر الى التقية فقد كان العهد عهد ستر ، وخضع الشيعة لعوامل الاضطهاد

المشهور المتواتر أن محمدا عليه السلام توفى ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، وعن طريق هذه الشورى اختير الخلفاء الأربعة الراشدون ، وان اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم .

وكان على بن أبى طالب يطمع فى أن يلى هذا المنصب منذ اللحظة الأولى التى نلت موت الرسول عليه السلام ، ولكن المنصب فاته فى الحالات الثلاث الأولى ، ولما أدركه فى الحالة الرابعة أدركه فى ظروف عسيرة عصيبة ، فقد تولى على الخلافة فى أعقاب الفتنة الكبرى التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وحدث الانقسام الأول الذى فتت الوحدة الاسلامية وجر الولايات الكبار على المسلمين والعالم الاسلامى منذ تلك اللحظة

وحدث المؤمنين والمسلمين من العرب جميعا ليكونوا أمة واحدة من دون الناس .

آلم بنى أمية أن ينال بنو هاشم هذا الشرف كله ولكنهم خضعوا على مضض ، وخاصة بعد دخولهم في الاسلام ، غير أن بذور هذا النزاع لم تمت بل ظلت كامنة في النفوس الى أن ولي عثمان — وهو من كبار بنى أمية — الخلافة فاستيقظت عوامل الخلاف من جديد ، والتف رجال هذه الأسرة حوله يلونون سياسته باللون الذي يريدون ، فلما ثارت الفتنة وقتل عثمان ، وولى على الخلافة خشوا أن تستقر السيادة ثانية في بيت بنى هاشم ، فحمل لواء المعارضة معاوية — كبير بنى أمية في ذلك الوقت — وقاد معركة النضال في عنف واصرار شديدين مستعملا كل ما أوتى من مكر ودهاء .

فلم يكن الصراع بين على ومعاوية اذن صراعا للأخذ بثأر عثمان أو للانتقام من قتلته ، وانما كان حلقة جديدة في سلسلة النزاع القديم في سبيل السيادة بين بيتين كبيرين من قريش هما بنو أمية وبنو هاشم ، ولقد كان تقى الدين أحمد بن على المقرئ — زعيم مؤرخى مصر الاسلامية — أول من فطن الى هذه الحقيقة ، وأول من عالجها معالجة طيبة في كتابه الصغير القيم : « النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم » .

ابان هذا الصراع ظهر الحزب الشيعى وهو الحزب الذى يضم من ينتصرون لعلى

أو يتشيعون له ، وقد انضم الى هذا الحزب كل الشائين والمتذمرين من العرب وغيرهم ، ومن الموالى بوجه خاص ، وصنع رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ خاصا ، وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها الى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التى كانت تؤمن بحق الملك المقدس وحجر الزاوية في هذا المبدأ عقيدتهم في الامامة ، وبنوا هذه العقيدة على حديث نبوى ، فقالوا ان الرسول عليه السلام مر عند أوبته من حجة الوداع بغدير ختم — وهو مكان بين مكة والمدينة — وعند هذا الغدير آخى بينه وبين ابن عمه على وقال : « على مولاى ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

وقالوا استتاجا من هذا ان هذا الحديث يتضمن مبايعة ضمنية من محمد لعلى ، وان عليا وصى الرسول ، أوصى له بالامامة من بعده لشروط خاصة ينفرد بها ، ولعلوم لدنية تلقاها عنه ، وان الامامة يجب أن تنتقل من على الى اولاده الواحد بعد الآخر لأن هذه الشروط والعلوم تنتقل في نسل على بطريق الوراثة من الابن الى الابن .

ولهذا وقف أتباع هذا الحزب فيما بعد الى جانب اولاد على يحرضونهم على المناذاة بحقهم في الخلافة ، فرشحوا أولا الحسن بن على ليلى أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ، ولكن الحسن كان رجلا بعيد النظر ، فرأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مع





— بعد أن قضى نهائيا على ملك الأغالية —

ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدي .

وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية في الوصول الى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير ، كان بعضه في العلن الى عهد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وبعضه في السر ويمتد من محمد بن اسماعيل الى نجاح الدولة وظهور عبيد الله ، ويعرف هذا العهد الثاني بعهد الكتمان ، فقد كتبت فيه أسماء الأئمة تقية وخوفا وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الأئمة المستودعون من نسل عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هنا ثار الجدل حول صحة النسب الفاطمي فقد أصبح كتمان أسماء الأئمة المستقرين من محمد بن اسماعيل الى عبيد الله المهدي جزءا من المذهب ، ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسيغون اعلان هذه الأسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليهم الخلافة ، ومن هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس للطعن في نسب الأئمة الفاطميين يريدون بذلك أن يقوضوا الدعائم التي قامت عليها الدولة .

والى هذا الشك — الذي ثار حول نسب عبيد الله المهدي منذ اللحظة الأولى — يرجع بعض المؤرخين السبب في النزاع الذي قام بين عبيد الله وقائده أبي عبد الله ، والذي انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عام .

وبعد ثلاث سنوات من وصوله الى بلاد المغرب أي في سنة ٢٩١ هـ ( ٩٠٣ ) بدأ جهوده الحربية فخضعت له مدن كثيرة ، وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب الدولة الأغالية صاحبة الحكم في تونس حينذاك من ضعف وانحلال .

وعند ذلك أرسل أبو عبد الله الى عبيد الله المهدي — الامام الاسماعيلي صاحب الدعوة — وكان يقيم في مدينة سلمية بالشام ، يستدعيه للحضور الى بلاد المغرب ، فأسرع بتلبية الدعوة ، وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة ، ويقال ان الخليفة العباسي علم بخروجه فأرسل الى عماله في مصر وافريقية يوصيهم بالقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع بالتستر تارة ، وببذل المال تارة أخرى أن يفر من مراقبة الولاة ، وانتهت به الرحلة الى مدينة سجلماسة في المغرب الأقصى حيث قبض عليه واليها وسجنه بها .

وفي سنة ٢٩٦ هـ تم لأبي عبد الله النصر النهائي على الدويلات القائمة في شمال افريقيا : دونة بنى مدرار في سجلماسة ، ودولة بنى رستم في تاهرت ، ودولة الأغالية في افريقية ( تونس ) ، وأطلق سراح عبيد الله ، فقاد الجيش بنفسه ، وسار حتى دخل مدينة رقادة في سنة ٢٩٧ هـ ، ونزل بقصر من قصورها ، وفي يوم الجمعة خطب باسمه على منابر رقادة والقيروان

# الخلفاء الفاطميون

## ١ - في المغرب

٣٢٢	ت ١٤ ربيع الأول	المهدى أبو محمد عبيد الله	١ - ٤ ربيع الآخر ٢٩٧ (٩٠٩)
٣٣٤	ت ١٣ شوال	القائم بأمر الله أبو القاسم نزار	٢ - ١٤ ربيع الأول ٣٢٢ (٩٣٤)
٣٤١	ت ٢٩ شوال	المنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل	٣ - ١٣ شوال ٣٣٤ (٩٤٥)
٣٦٥	ت ٣ ربيع الآخر	المعز لدين الله أبو تميم معد	٤ - أول ذى القعدة ٣٤١ (٩٥٢)

## ٢ - في مصر

(وفى شعبان ٣٥٨ فتحت مصر ، وفى رمضان ٣٦٢ دخل المعز القاهرة)

٣٨٦	ت ٢٨ رمضان	العزیز بالله أبو منصور نزار	٥ - ربيع الآخر ٣٦٥ (٩٧٥)
٤١١	اختفى فى ٢٧ شوال	الحاكم بأمر الله أبو على منصور	٦ - ٢٩ رمضان ٣٨٦ (٩٩٦)
٤٢٧	ت ١٥ شعبان	الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على	٧ - ١٠ ذو الحجة ٤١١ (١٠٢٠)
٤٨٧	ت ١٨ ذو الحجة	المستنصر بالله أبو تميم معد	٨ - ١٥ شعبان ٤٢٧ (١٠٣٥)
٤٩٥	ت ١٤ صفر	المستعلى بالله أبو القاسم أحمد	٩ - ذو الحجة ٤٨٧ (١٠٩٤)
٥٢٤	قتل ٢ ذو القعدة	الأمير بأحكام الله أبو على منصور	١٠ - ١٤ صفر ٤٩٥ (١١٠١)
٥٤٤	ت ٥ جمادى الآخرة	الحافظ لدين الله أبو ميمون عبد المجيد	١١ - ١٥ المحرم ٥٢٥ (١١٣٠)
٥٤٩	قتل ٣٠ المحرم	الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل	١٢ - ٦ جمادى الآخرة ٥٤٤ (١١٤٩)
٥٥٥	ت ١٧ رجب	الفاتر بنصر الله أبو القاسم عيسى	١٣ - أول صفر ٥٤٩ (١١٥٤)
٥٦٧	نخلع ٣ المحرم، ومات ١٠ المحرم	العاقد لدين الله أبو محمد عبد الله	١٤ - رجب ٥٥٥ (١١٦٠)

## الابويون





## الفتح الفاطمي لمصر

الثاني ، فاستبد الأتراك بشئون الحكم الفعلية حتى غدا الخلفاء كالدُمى في أيديهم يحركونهم كيف شاءوا ، وانطبق عليهم عند ذلك قول الشاعر :

خليفة في ققص

بين وصيف وبغا

يقول ما قال له

كما تقول البيغا

وأدى هذا الضعف الى اجترأ كل طموح أو محب للشعب أو راغب في السلطة الى الثورة ، فقامت ثورة الزنج في اقليم البصرة والجزء الجنوبي الغربي من فارس ، وظلت مشتعلة خمس عشرة سنة ( ٢٥٥ — ٢٧٠ هـ ) ، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين تقدموا حتى ملكوا بادية الشام وجنوبه وهددوا حدود مصر الشرقية ، وعاثوا في الجزيرة العربية فسادا ، واستلبوا الحجر الأسود حيث بقى معهم مدة اثنين وعشرين عاما ، ولم يردوه الا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسي مبلغا كبيرا من المال ؛ وصاحب هذه الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة فيها .

ففي الشرق قامت الدول الصفارية والسامانية والظاهرية ، وفي الغرب قامت الدولتان الطولونية والأخشيدية .

وفي قلب الدولة نفسها ، في العراق قامت دول ملكت زمام الحكم في أيديها ،

كان الغرض الأساسي الذي سعى العلويون دائما لتحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضى على الخلافة العباسية السنية وترثها في ملك العالم الاسلامي ، وقد رأينا كيف نجح الفاطميون في تحقيق الشطر الأول من غرضهم فأقاموا دولتهم في المغرب ، ولكنهم لم ينسوا بعد نجاحهم الشطر الثاني والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية ، ومصر هي أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق .

لهذا كانت مصر حلم الفاطميين منذ اللحظة الأولى ، ولهذا لم تكد الأمور تستقر نوعا ما للمهدى — الخليفة الأول — حتى أعد العدة للاتجاه شرقا وغزو مصر ، فأرسل في سنة ٣٠١ جيشا لتحقيق هذا الغرض ثم أرسل في سنة ٣٠٧ حملة أخرى ، ولكنهما نيا بالفشل ، وقد حذا حذوه ابنه القائم فأرسل في سنة ٣٢١ حملة ثالثة — ولكنها لم تكن أسعد حظا من سابقتها ، ولم يكتب النجاح الا للغزوة الرابعة التي تمت في عهد المعز لدين الله .

وقد ساعد على نجاح هذه الغزوة الرابعة أمور كثيرة ، أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الأخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها .

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل الى كيانها في العصر العباسي

المحارب ، فمات رجل وامرأة في الزحام ، ولم تصل الجمعة يومئذ .. » .

« وفي سنة ست وخمسين لم يبلغ النيل سوى اثني عشر ذراعا وأصابع ، ولم يقع مثل ذلك في الملة الاسلامية ، وكان على امارة مصر حينئذ الأستاذ كافور الأخشيدي ، فعظم الأمر من شدة الغلاء » .

وفي سنة ٣٥٧ هـ مات كافور ، فانهارت المقاومة « وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، واتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل وية بدينار ، واختلف العسكر : فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طنج - وهو يومئذ بالرملة - وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي ، وعظم الارجاج بمسير القرامطة الى مصر ، وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب ، الى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ودخل القائد جوهر بعساكر الامام المعز لدين الله .. » (١) .

هذه صورة رائعة للحالة في مصر قبيل الفزو الفاطمي ، رسمها بقلمه المبدع تقي الدين المقرئ زعيم مؤرخي مصر الاسلامية ، ويستطيع أي فنان أن يحيلها بريشته وألوانه الى لوحة ناطقة نرى فيها

(١) المقرئ : اغانة الأمة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ، ص ١٢ - ١٣ .

قوى الشمال قامت الدولة الحمدانية في نواحي الموصل و حلب ، وظالما حاولوا دخول بغداد نفسها ، وفي العاصمة بغداد قامت الدولة البويهية في سنة ٣٣٤ هـ ، واستبدت بأمر الخلافة جميعا ، وأصبحت للبويهيين الكلمة الأولى والعليا في تولية الخلفاء وعزلهم بل وقتلهم ، وصدق بذلك قول البيروني فيهم : « ان الدولة والملك قد انتقلا من آل العباس الى آل بويه والذي بقي في أيدي الدولة العباسية انما هو أمر ديني اعتقادي ، لا ملكي ديني » (١) .

وفي مصر اتهمت الأمور بعد موت محمد ابن طنج الأخشيدي في سنة ٣٣٤ الى الضعف اذ لم يخلفه أحد من نسله له مقدرته وشجاعته ، حقيقة لقد استبد كافور بالحكم دون ولدي الأخشيدي ، فاستطاع أن يخمّد الثورات التي نشبت وأن ينتصر على الحمدانيين ، ولكن هذه الوثبة كانت أشبه شيء بصحوة الموت ، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية ففي سنة ٣٥٢ هـ قصر النيل في فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد تجت عنه مجاعة ظلت نحو تسع سنوات ، قاسى المصريون في خلالها الشدائد ، فحدث في سنة ٣٥٣ هـ مثلا أن « عظم الغلاء ، وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن ، ونهبت الضياع والفلات ، وماج الناس في مصر بسبب السعر ، فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط في يوم جمعة ، وازدحموا عند

(١) البيروني : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .





بلاد المغرب الى مصر ، ونزل بها فسماها  
القاهرة « (١) » .

وهذا فيما نرى السبب الصحيح لتسمية  
القاهرة ، فان جوهرًا عندما وضع الأساس  
للمدينة الجديدة سماها « المنصورية » ،  
ولعله كان يريد أن يتقرب الى خليفته المعز  
باحياء ذكرى والده الخليفة المنصور ، فسمى  
العاصمة الجديدة باسمه ، واختار لها موقعا  
خارج العاصمة القديمة الفسطاط لينزل بها  
الجند ، كما كانت المنصورية خارج القيروان ،  
وسمى بابين من أبواب المدينة الجديدة  
باسمى : زويلة والفتوح ، وهما اسمان  
لبابين بمدينة المنصورية في المغرب . فلما أتى  
المعز الى مصر سماها « القاهرة » تفاؤلا ،  
يريد بذلك أنها ستقهر الدولة القديمة التي  
قام الفاطميون لمنافستها والقضاء عليها ، وهي  
الخلافة العباسية ، فالمعز نفسه هو صاحب  
هذه التسمية ، وقد اختارها ، وهو بعد في  
المغرب ، فقد روى أنه قال عند وداعه لجوهر  
أمام جمع من شيوخ كتامة : « والله لو خرج  
جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى  
مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن في  
خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى  
القاهرة ، قهر الدنيا » (٢) .

ومما ينفي قصة الغراب والجمال نفيا

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفيا ، نشر

الشيال ، ص ١٦٢ .

بالبستان الكافورى ، ودير للنصارى يعرف  
بدير العظام وبناء يعرف بقصر الشوك ، وقد  
بنى مكانه بعد تأسيس القاهرة أحد قصور  
الفاطميين الكبيرة وسمى بقصر الشوك .

وقيل فى سبب تسمية المدينة بالقاهرة أن  
جوهرًا لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة  
أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد  
لوضع الأساس ، فجعلوا بدائرة السور قوائم  
من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل  
علقوا فيه أجراسا ، وقالوا للعمال : اذا تحركت  
الأجراس فألقوا ما بأيديكم من طين وحجارة ،  
وبينا العمال منتظرون اذ وقف غراب على  
أحد تلك الجبال ، فتحركت الأجراس جميعا  
وبدأ العمال فى البناء ، فصاح المنجمون :  
لا ، لا ، القاهرة فى الطالع ، فسيت المدينة  
بالقاهرة — والقاهر هو المريح .

ولكننا لا نميل الى تصديق هذا الرأى ،  
فهو أقرب الى القصص الخيالية ، ويؤيدنا فى  
شكنا المقرئى نفسه راوى هذه القصة ، فانه  
يقول فى موضع آخر ان جوهرًا « لما سار  
من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء  
لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨  
بعساكره ، وقصد الى مناخه الذى رسمه له  
مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد ،  
واستقرت به الدار اختط القصر وأصبح  
المصريون يهتفون فوجدوه قد حفر الأساس  
فى الليل ، فأدار السور اللين ، وسماها  
المنصورية ، الى أن قدم المعز لدين الله من

بأن أن المسعودي<sup>(١)</sup> يروي قصة شديدة  
الشبه جدا بهذه القصة وينسبها إلى

الاسكندر عند بنائه الاسكندرية ، فلعل  
المقریزی نقلها عن مراجع متأخرة شُبّه عليها  
الأمر عند الكلام عن قاهرة المعز ، فاقبست  
ما قيل عن اسكندرية الاسكندر .  
وأول ما بنى في القاهرة القصر الكبير  
ليكون سكنا للخليفة وأتباعه ، ومقرا  
لدواوين الحكم ، وضع جوهر أساس هذا  
القصر ليلة نزل بالمناخ .  
وفي يوم السبت لست بقين من جمادى  
الآخرة سنة ٣٥٩ هـ ( ٥ مايو سنة ٩٧٠ م )  
اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من  
فرق الجيش في مكان خاص بها ، وسميت  
خطتها بالحارات ، ومنها حارة زويلة ، ونزلت  
بها قبيلة زويلة ، وحارة كتامة ، ونزلت بها  
قبيلة كتامة ، وحارة البرقية ، ونزل بها قوم  
من بركة .. وهكذا .

وكان السور الأول الذي بناه جوهر من  
اللبن ، وقد أدرك المقریزی قطعة منه كانت  
باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ ( ١٤٠١ م ) ، وأعجب  
ببنائه ، وذكر أن اللبنة الواحدة منه كانت قدر  
ذراع في ثلثي ذراع ، كما ذكر أن عرض  
جدار السور عدة أذرع ، وأنه يسع أن يمر  
به فارسان .

وكان للسور عدة أبواب في جهاته  
المختلفة ، فكان في جهته القبلية بابان  
متلاصقان يقال لهما « بابا زويلة » ، وفي  
جهته البحرية بابان متباعدان ، هما : باب  
الفتوح ، وباب النصر ، وفي جهته الشرقية  
بابان ، هما : باب البرقية ، والباب الجديد ؛

(١) المقریزی : الخطط ، ج ٢ ،

ويعتقد على مبارك في كتابه الخطط  
أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ وقتئذ  
ألفا ومائتي متر ، وأن مساحتها كانت ٣٤٠  
فدانا ( الفدان ٤٢٠٠ متر ) ، وكان القصر  
يشغل خمس هذه المساحة ، أي نحو سبعين  
فدانا ، وكان بستان كافور يشغل عشر  
المساحة أي ٣٠ فدانا ، وكان الميدان المعد  
لعرض الجند يشغل ٣٥ فدانا أخرى ،  
أما الباقي وقدره مائتا فدان فقد خصص لنزول  
فرق الجند المختلفة .

ويقال في سبب اختيار جوهر لهذا المكان  
كى يبنى مدينته عليه انه رغب « أن تصير  
حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر  
ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبني على  
مناخه الذي نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من  
داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدّها معقلا  
يتحصن به وتنزله عساكره ، واحترق الخندق  
من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ،  
ص ٢١٥ .

وفى جهته الغربية بابان ، هما : باب القنطرة و  
وباب سعادة . ثم أضيفت أبواب أخرى بعد  
نمو المدينة وتجديد السور .

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذى  
بنى حول القاهرة ، وإنما بنى بعده سوران  
آخران : أحدهما بناه أمير الجيوش بدر  
الجمالى وزير الخليفة المستنصر فى سنة ٤٨٠هـ  
( ١٠٨٧ م ) ليحيط بزيادات أضيفت الى  
القاهرة فى الجهتين البحرية والقبلىة ، وكان  
هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة ،  
ولا زال بابان من أبواب هذا السور ، وهما  
باب النصر وباب الفتوح موجودين حتى  
اليوم وعليهما نقوش تحمل اسم منشئهما  
( بدر الجمالى ) وتاريخ انشائهما .

وبنى السور الثانى صلاح الدين يوسف  
ابن أيوب ، بدأ عمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو  
وزير للخليفة الفاطمى العاضد ، وفى  
سنة ٥٦٩ هـ عين قائده بهاء الدين قراقوش  
للاشراف على اتمامه ، وقد بنى هذا السور  
كله من الحجر ، وكان يضم داخله مدينتى  
القاهرة ومصر — أى الفسطاط — ولا تزال  
أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أطلال  
الفسطاط ، وكان محيط هذا السور ٢٩٣٠٢  
ذراع ، وكان يبدأ فى الشمال عند قلعة المقس  
( ميدان باب الحديد الحالى حيث كان يجرى  
النيل وقتذاك ) ميناء القاهرة على النيل ،  
ويدور حول القاهرة والفسطاط جميعا ثم  
ينتهى جنوبا عند ساحل مصر ( الفسطاط ) ؛

وكان خارج السور خندق لحياته وحماية  
المدينة ، وبذلك كان حدا المدينة الشمالى  
والجنوبى ينتهيان عند السور ، أما الحد  
الغربى فكان خليج أمير المؤمنين ، كما كان  
جبل المقطم هو الحد الشرقى .

وكانت القاهرة فى العصر الفاطمى ضاحية  
ملوكية ، يسكنها الخليفة وحرمة وجنوده  
وخواصه ، وكانت — كما وصفها  
المقريزى — « معقل قتال يتحصن بها ويلتجأ  
إليها » ، فلما قدم الى مصر أمير الجيوش  
بدر الجمالى أثناء الشدة العظمى التى كانت  
فى عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خالية  
غير عامرة « فأباح للناس من العسكرية  
والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته  
الى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا  
من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس  
ما كان هناك من أبقاض الدور وغيرها ،  
وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها » (١).

ولما انتهت الدولة الفاطمية وولى حكم  
مصر السلطان صلاح الدين « نقلها عما كانت  
عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكن  
العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور  
الخلافة ، وأسكن فى بعضها ، وتهدم البعض ،  
وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده ، فصارت  
خططا وحرارات وشوارع ومسالك وأزقة ،  
ونزل السلطان ( صلاح الدين ) منها فى دار  
الوزارة الكبرى .. الخ » .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

● الأقاليم المجاورة نحو أربع سنوات ، ولما تم له اخضاع مصر والشام والحجاز ، وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمعز يستدعيه الى مصر ، وخرج المعز من المنصورة يوم الاثنين لثمان من شوال سنة ٣٦١ هـ ، وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ وصل القاهرة ، ولما دخل القصر خر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين .

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمي بعام ، وفي يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ ( ٥ مايو سنة ٩٧٠ م ) بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر الكبير ، وتم بناؤه بعد عامين ، ففتح للصلاة أول مرة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٢ م ) .

وظل جوهر يحكم مصر ، ويمهد الفتوح

## الجامع الأزهر

مصر ، فقد كان الغرض الأساسي من الفتوح الاسلامية نشر الدين الجديد ، ولذلك كانت ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى ، فكان الوالى على مصر يجمع بين الولاية على صلاتها وخراجها ، أو يكتفى بولايته على صلاتها ، ويعين الى جانبه وال آخر على خراجها .

وكانت المساجد أيضا مقرا لدواوين الحكم ، ومجلسا للقضاة ، ومعهدا لنشر العلم ، ومنبرا لاذاعة الأوامر الحكومية .

بنى الجامع الأزهر اذن وفي مصر مسجداً جامعان : جامع عمرو وجامع أحمد ابن طولون ، لأن جامع العسكر كان قد هدم وزالت معالمه ؛ وقصد الفاطميون ببناء هذا الجامع أن يكون مصلى للخليفة وجنوده ، وأن يكون مسجداً جامعاً للعاصمة الجديدة ، وأن يكون مركزاً لنشر الدعوة الشيعية ، وأن يكون رمزاً لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية .

كانت القاهرة — كما أسلفنا — رابعة العواصم المصرية في العصر الاسلامي ، وكانت سياسة الدول الاسلامية تقضى بأن تنشأ في كل عاصمة جديدة مسجد جامع ، وترجع هذه السياسة الى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كتب الى ولاته على الأقاليم المفتوحة — ومنهم عمرو بن العاص — أن يتخذ كل منهم في عاصمته مسجداً للجماعة ، واتباعاً لهذه السياسة بنى عمرو مسجده في الفسطاط ، فلما أنشئت العسكر في أول العصر العباسي بنى فيها مسجد جامع ، وعندما أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده الجامع كذلك .

فهذه المساجد الجامعة كانت رمزا لظفر المسلمين ، وكانت مركزا للدعوة الدينية ، وفيها كانت تقام صلاة الجماعة ، وكان يؤم الناس في الصلاة — في العصر الأول — ولاة

بديء في انشاء الجامع الأزهر في ٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) وتم بناؤه في عامين وثلاثة أشهر ، وافتتح للصلاة أول مرة في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٢ م ) .

وسمى الجامع عند انشائه جامع القاهرة — أى باسم العاصمة الجديدة — ، وظلت هذه التسمية غالبية عليه طول العصر الفاطمى ، ولم يُسمَّ بالجامع الأزهر الا في تاريخ متأخر ، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخى العصر الفاطمى — وفي مقدمتهم المسبحى وابن الطوير — يذكرون هذا المسجد دائما باسم جامع القاهرة ، وقلما يشيرون اليه باسم الجامع الأزهر ،

ويرى البعض أن هذا المسجد سُمى بالجامع الأزهر بعد انشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله ، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة ، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الجامع الأزهر ، ولكننا نرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء ، لقب السيدة فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول وزوج على بن أبى طالب ، واليها تنتسب الدولة الجديدة ، وباسمها تسمى .

ولبت الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعا ورعايتهم فكان كل خليفة منهم يتولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وتزيينه حتى زالت الدولة ، وبدأت في مصر دولة صلاح الدين ، وهى دولة سنية

قامت للقضاء على المذهب الشيعى ، فأهمل الجامع الأزهر ، لأنه كان المركز الرئيسى لنشر الدعوة الشيعية ، وأبطل الخطبة في الجامع الأزهر قاضى القضاة فى عهد صلاح الدين ، واسمه صدر الدين عبد الملك ابن درياس ، فقد كان شافعى المذهب ، والمذهب الشافعى يمنع اقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد .

أبطل هذا القاضى الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى ، وظل الأزهر معطلا من اقامة الجمعة فيه نحو مائة عام حتى ولى عرش مصر الظاهر بيبرس ، فأعيدت الخطبة الى الجامع ، وعادت اليه أهميته ، وعنى به كثيرا فى عصر المماليك والعصور اللاحقة الى وقتنا الحاضر .

كان للأزهر عند انشائه الصفة الدينية الرسمية — شأنه فى ذلك شأن المساجد الجامعة الأخرى — ولكن لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى هامة هى الصفة العلمية التعليمية ، وذلك منذ فكر الفاطميون فى نشر مذهبهم الجديد بوساطة دروس تلقى فى حلقاته ؛ وقد كانت المساجد الجامعة التى بنيت قبله — وخاصة جامع عمرو — مراكز لنشر العلم ، وفى حلقاتها كانت تلقى الدروس فى الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب وسائر العلوم المختلفة ، غير أن مسجدى عمرو وابن طولون كانا قد اتخذتا لهما فى العصر الاسلامى الأول تقاليد علمية خاصة ،

فكان من الأوفق اذن أن يكون المسجد الجامع الجديد هو المركز الجديد لنشر المذهب الجديد .

يقول المقرئى : « وفي صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مختصر آيه فى الفقه عن أهل البيت .. وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » ، فكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس فى الجامع الأزهر ، ثم تتابعت حلقات بنى النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعى .

وفى رمضان سنة ٣٦٩ ( ٩٨٠ م ) جلس يعقوب بن كلس — وزير الخليفة العزيز بالله — وقرأ على الناس كتابا ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعيلية ، وكان يجلس بعد ذلك لقراءته فى الأزهر ، ويحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة . ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر فى جعل الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنظمة المنتظمة ، ففى سنة ٣٧٨ هـ ( ٩٨٨ م ) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء ( أى الطلاب ) للدرس والقراءة فى أوقات منتظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم فى الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها ؛ ورتب لهم العزيز — تنفيذًا لاقتراح ابن كلس — أرزاقا

وجرايات شهرية ، وبنى لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر ، « وخلق عليهم يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغلات .. » ، « وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة فى كل سنة .. » (١) .

فمنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفته التعليمية الجامعة ، فمئى له طلبة متفرغون للدراسة ، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعى وراء الرزق ، فرتبت لهم الأرزاق والجرايات ، وبتت لهم المساكن ، وقدمت لهم الكسوة فى كل عيد ، ويسرت لهم سبل الركوب والانتقال .

وظلت هذه الصفة التعليمية الجامعية مميزة للجامع الأزهر طول العصر الفاطمى فزاد عدد طلابه وأساتذته ، وكثرت أروقه وحلقات التعليم فيه ونمت الدراسة وازدهرت حتى بدأ يجتذب اليه الطلاب والعلماء من خارج مصر ، وتمطت هذه الصفة التعليمية وقتا ما فى العصر الأيوبى ، ولكنها لم تلبث أن عادت اليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه ، وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس ، وبرزت هذه الصفة بروزا واضحا فى عصر الماليك وما تلاه من عصور ، وساعد على هذا أن غزوات المغول فى المشرق قضت على

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٩ ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ .

العلم من مختلف جهات هذا العالم الاسلامى .  
وقد مرت بالأزهر عصور ازدهار وعصور  
اضمحلال ، ولكنه قاوم الأعاصير التى  
قابلته ، وحافظ على المكانة المرموقة التى  
يتمتع بها فى قلب كل مسلم فى جميع أنحاء  
الأرض ، فانه يعتبر حتى اليوم أكبر معهد  
للدراستات الاسلامية .

معظم المدارس فيه ، وأن معاهد العلم  
والمساجد الاسلامية المزدهرة بالمغرب انتهى  
أمرها أيضا حوالى هذا العصر الى الضعف  
والانحلال ، وتوافد العلماء من الشرق ومن  
الغرب الى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ ،  
فأصبحت القاهرة فى العصر المملوكى مركز  
العالم الاسلامى وأصبح الأزهر قبلة طلاب

## العصر الفاطمى الأول

### عصر القوة والازدهار

وفىها امتد النفوذ الفاطمى الخارجى حتى  
وصل أوجه وأقصاه ، فخضعت لهم اليمن  
والحجاز ومصر والمغرب وصقلية والشام ،  
وخطب لهم فى الموصل وبغداد وقتا ما .  
وخير ما يؤيد هذه السمات التى اتسمت  
بها الخلافة الفاطمية فى الشطر الأول من  
حكمتها أن نستعرض جهود الخلفاء الذين  
تولوا الحكم فى هذه الفترة :  
كان أول الخلفاء الفاطميين فى مصر هو  
المز لدين الله ، وقد حكمها ثلاث سنوات  
( ٣٦٢ — ٣٦٥ هـ ) ركز جهوده فى خلالها  
لتنظيم مركز حكمه الجديد ، فعنى أول  
ما عنى بشؤون مصر المالية ، لأن مصر كانت  
وشبكة الخروج من المجاعة الخطيرة التى  
أصابتها قبيل الفتح الفاطمى وابانه ، فمنع  
المز النداء بزيادة النيل — كما كانت العادة  
قديما — وأمر ألا يكتب بذلك الا اليه والى  
قائه جوهر ، حتى اذا تم الفيضان ووصل

حكمت الدولة الفاطمية مصر مدة تينف  
على القرنين ( ٣٥٨ — ٥٦٧ = ٩٦٩ —  
١١٧١ م ) غير أنا نستطيع أن نقسم هذه المدة  
قسمين على وجه التقرب ، كانت الخلافة  
الفاطمية تتسم فى كل منهما بسمات وصفات  
خاصة ، ففى القسم الأول ومداه قرابة قرن  
من الزمن وينتهى فى النصف الأول من حكم  
الخليفة المستنصر تقريبا (حوالى سنة ٤٥٧هـ)  
بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم شئون  
مصر الداخلية ، فنشرت الأمن فى ربوعها ،  
ووضعت النظم الادارية الدقيقة ، وعينت  
بالجيش والأسطول ، ونمت الزراعة ،  
ونهضت بالتجارة الداخلية والخارجية ،  
وشجعت الآداب والعلوم والفنون .  
وفى هذه الفترة أيضا امتاز خلفاء  
الفاطميين بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها  
فى أيديهم ، ولهم على الشعب ورجال الدولة  
النفوذ الأول ، وللوزراء المكانة الثانية .

عصر المعز قد امتاز بالتنظيم الداخلى للدولة الجديدة ، فان عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجى ، وامتدت الدولة المصرية فى عهده من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج الفارسى شرقا ، ومن أقصى الشام شمالا الى بلاد النوبة واليمن جنوبا ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر ، وخطب له المقلد العتيللى — صاحب الموصل — بالموصل وأعمالها فى المحرم سنة ٣٨٢ ، وضربَ اسمه على السكة والبند ، وخطب له باليمن ، وخاف بأسه امبراطور الدولة البيزنطية فخطب وده ، وأرسل اليه رسلا يحملون الهدايا ، ويطلبون الصلح والهدنة ، فأجابهم العزيز واشترط شروطا شديدة التزموا بها كلها ، منها : أنهم يحلفون أنه لا يبقى فى مملكتهم أسير الا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يحل اليه من أمتعة الروم كل ما افترضه عليهم ، ثم ردهم بعقد الهدنة سبع سنين <sup>(١)</sup> .

وهكذا بلغت مصر الذروة فى عهد العزيز فأصبحت امبراطورية واسعة تضم — كما أسلفنا — المغرب ومصر واليمن والجزيرة العربية والشام وجزيرة صقلية ، وبهذا فاقت الخلافة العباسية قوة وثقوذا واتساع ملك ، وأصبحت الدولة الاسلامية الكبرى فى المشرق ، وبدأت تهتد ما بقى فى أيدي

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

الى أقصاه أعلن ذلك للناس ، واشترك فى الاحتفاء بوفاء النيل ؛ ثم عهد بادارة شؤون مصر المالية جميعا الى رجلين من أقدر رجال ذلك العصر وهما يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن ، فقاما بما عهد به اليهما خير قيام حتى زادت إيرادات الدولة فى وقت وجيز زيادة كبيرة ملحوظة .

وتأكيدا لاستقلال مصر الاقتصادى عن الدولة العباسية أمر المعز فضربت سكة مصرية جديدة باسمه ، وفضل الدينار المعزى فى المعاملات الحكومية على الدينار العباسى ، فقلت قيمة هذا الأخير وطرد من السوق شيئا فشيئا .

وفى عهده اشتد خطر القرامطة وهددوا مصر برا وبحرا ، ووصل أسطولهم الى مدينة تنيس ، فقاتلهم أهلها ، وأخذت عدة من سفنهم ، وأسر عدد كبير من جنودهم .

وأدرك المعز ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر ، فعنى بالأسطول عناية كبيرة ، وببنى دارا جديدة لصناعة السفن فى المقس — ميناء القاهرة — وأنشئ بهذه الدار فى عهده القصير ستائة سفينة حربية « ام يثر مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقه وحننا » <sup>(١)</sup> .

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله ، وكان رجلا سمحا كريما شجاعا ، ولئن كان

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣١٧ ( عن المسجى ) .

عهدده أكبر دولة إسلامية في الشرق الأوسط .  
وقد عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة  
فقد نعموا في عهدده بالحرية التامة في أداء  
شعائر دينهم وترميم كنائسهم ، وبناء كنائس  
جديدة ، ولا غرو فقد كانت زوجته — أم  
ولده الحاكم — مسيحية روسية ، وقد عين  
العزيز أخويها بطريركين ملكانيين في  
الاسكندرية وأورشليم ، وكان من وزرائه :  
يعقوب بن كلس اليهودي ، وعيسى بن  
نسطورس المسيحي .

وفي عهد العزيز نمت ثروة البلاد وزادت  
ثروتها فعاش الناس في رفاهية وعاش الخليفة  
حياة كلها بذخ وترف ، وبنى لنفسه قصرا  
جديدا — عرف بالقصر الغربي — مقابل  
القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للمعز ،  
وكان يفصل بين القصرين ميدان متسع  
يستخدم لعرض الجند ، كما بدأ بناء جامع  
الكبير الذي أنتمه ابنه الحاكم فيما بعد ،  
وعرف باسم الجامع الحاكمي .

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة  
حكم العزيز ، فقد حكمها واحدا وعشرين  
عاما ، وتوفي سنة ٣٨٦ هـ ، فخلفه ابنه  
الحاكم بأمر الله ، وهو بعد طفل لا يجاوز  
الحادية عشرة من عمره .

والحاكم شخصية عجيبة هي في الحقيقة  
جماع المتناقضات مما يدل على أنه كان ملثا  
العقل غير مترن التفكير ، فقد امتاز عهدده  
بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء .

العباسيين من ملك ، وفي الوقت نفسه كان  
العزيز يرنو ببصره نحو الخلافة الثالثة ،  
وهي الخلافة الأموية السنية في الأندلس ،  
يريد أن يزيلها من الوجود لتصبح في العالم  
الإسلامي خلافة واحدة هي الخلافة الفاطمية ،  
لهذا أرسل العزيز الى خليفة الأندلس يهجو  
ويتهدده ، غير أن الأندلس كانت في ذلك  
الوقت في عنفوان قوتها ، فأرسل صاحبها ردا  
على خطاب العزيز — الجملة المشهورة التي  
يعرض فيها بنسب الفاطميين والتي يقول  
فيها : « أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ،  
ولو عرفناك لأجبناك » .

وقد رأى العزيز أن الجيش القوي هو  
السياج الطبيعي لحماية هذه الدولة الكبيرة  
المتراصة الأطراف ، فصرف همه للعناية  
بالجيش ، وهو أول من استعان من الفاطميين  
بالعنصرين التركي والسوداني فأصبح في  
جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن  
كان اعتماد الفاطميين على المغاربة الذين  
ساعدوهم في فتح مصر واقامة ملكهم بها ،  
وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة في أول  
الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة  
والاقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت  
سببا من أهم أسباب ضعف الدولة وانحلالها  
عندما دب النزاع وقامت أسباب المنافسة  
والنضال بينها .

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من  
عنايته بالجيش ، حتى لقد أصبحت مصر في

واتتهى به الأمر الى أن ادعى الالوهية وتكونت طائفة جديدة تنادى بالوهيته هي طائفة الدرّوز ، ( نسبة الى الدرّزي أول دعائها ) .

ورغم هذا التناقض العجيب في تصرفاته كان الحاكم شخصية قوية جبارة ، يخافها ويخشى بأسها الجميع ، وكان للخلافة الفاطمية في عهده الشأن الكبير والمقام العظيم ، ولم يكن لأحد من وزرائه ورجال جيشه ودولته نفوذ الى جانب نفوذه .

ومع هذا فقد كان لشخصية الحاكم المضطربة ولسياسته الخرقاء أثر جد خطير في الدولة ومستقبلها ، ففي عهده بدرت بوادر كثيرة مهدت لضعف الدولة وانحلالها . بدأت هذه البوادر باجترأ الخلفائين السنيين المعاصرتين على مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها ، وقد حالت شخصيتا المعز والعزّيز المترتبان من قبل دون هذا الاجترأ وهذا الهجوم .

أما الخلافة العباسية فلم يكن لديها من القوة المادية ما يمكنها من تديير هجوم ايجابي ، ولهذا فقد اتخذ هجومها شكلا سلبيا ، فجمع الخليفة القادر عددا من علماء بغداد وقضاتها وكتبوا محضرا طعنوا فيه في النسب الفاطمي وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه « أدعياء خوارج ، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب » وانما هم « كفار فساق زنادقة ، ملحدون معطلون ، وللإسلام

وأوضح ما يميز الحاكم التناقض وازدواج الشخصية ، فهو حيناً دكتور جيكل وحيناً آخر مستر هايد : وهو تارة شجاع مقدام محب للعلم والعلماء وهو تارة أخرى جبان متردد منتقم من العلماء قاتل لهم ؛ وكان الغالب عليه السخاء ، غير أنه ربما يبخل بما لم يبخل به أحد قط ، وأقام يلبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس في الجمع ليلا ونهارا ، ثم عن له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة ؛ وكتب على المساجد والجوامع سبّ أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمر بن العاص في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ثم محام كتب في سنة سبع وتسعين بأمر بقتل الكلاب، ثم نهى عنه، ونهى عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها، ومنع من صلاة التراويح عشرين ثم أباحها؛ ومنع من بيع العنب ، وقطع الكروم ، وأراق خمسة آلاف جرة عسل في البحر خوفا من أن تعمل نبيذا ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا ، وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها ، وهدم الكنائس في بلاده — ومن بينها كنيسة القيامة — ثم أمر بإعادة بنائها (١) .. وهكذا .

وقد قتل الحاكم عددا من وزرائه ،

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٢٤ ص ١٧٦ - ١٧٨ نقلا عن سبط بن الجوزي في مرآة الزمان .

جاحدون ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون » .

كتب هذا المحضر في سنة ٤٠٢ هـ ووقع عليه الحضور من العلماء والقضاة وأرسلت منه نسخ الى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، فكان له صدى قوى .

وأما الخلافة الأموية فى الأندلس فقد اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر ايجابية وخطرا ، فقد خرج فى الصحراء الغربية خارج اسمه أبو ركوته — وادعى أنه ينتسب الى بنى أمية ، وجمع هذا الرجل جيشا كبيرا ، وهاجم حدود مصر الغربية وانضم اليه بنو قره — من عرب البحيرة — وكانوا ناقلين على الحاكم لكثرة ما أوقع بهم وغنم من أموالهم ، واشتد خطر أبو ركوته فأرسل اليه الحاكم جيشا لمقاتلته ، فهزم الجيش ، فأرسل اليه جيشا آخر فكتب له النصر وتبع أبأ ركوته فى الصعيد ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فى بلاد النوبة وارساله الى القاهرة وقتله .

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضعف الايمان ، فأصدرت هذا المحضر وأرسلته الى أطراف العالم الاسلامى ، وانتهت ثورة أبى ركوته التى كانت تؤيدها الخلافة الأموية الأندلسية بالفشل ، ولكن هاتين الحركتين أثرتا دون شك فى الدولة الفاطمية ، فأضاعتا ما كان لها من هبة قديمة ، وبدأ الكل يجترئون عليها ، وتطور الأمر الى أن قام النزاع فى الداخل بين العناصر المختلفة المكونة

للجيش الفاطمى من مغاربة وأتراك وسودان ، واشتد النزاع بين كل فريق والآخر ، ولم تهدأ الفتنة الا بعد أن قتل عدد كبير من قادة الجيش .

ومن الأمور التى بدأت تززع كيان الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الاسماعيلى ، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية يقضى أن تكون الامامة فى نسل على بن أبى طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب ، لأنهم كانوا يعتقدون أن للامامة صفات وعلوما خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما ، وقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام ، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق ، ولكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية المهدي لابن عمه عبد الرحيم بن السياس وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه الى جانب اسم الخليفة على السكة ، وأن ينقش على البنود والطراز ، كما أمر أن ينوب ابن عمه وولى عهده عنه فى الخطبة والصلاة والتحر والنظر فى المظالم ، وأن يسايره فى المواكب . وكادت هذه المحاولة أن تؤدى الى انقسام خطير بين الشيعة الاسماعيلية لأن فى تنفيذها هدما لركن قوى من أركان المذهب ، لولا أن الحاكم قتل ، وقضت ست الملك أخت الحاكم على هذه المحاولة ، فأرسلت الى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة .

مدة حكمها خليفة مسلم ، وقد بلغت الخلافة الفاطمية في القسم الأول من حكمه أوجها في العظمة داخليا وخارجيا ، وزار مصر في هذا النصف الأول الرحالة الفارسي ناصر خسرو ووصفها ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها وصف المعجب بما رأى وشاهد .

وبدأت مصر في هذا النصف الأول تنرفو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد مقر الخلافة العباسية المتهاوية ، وأحس الخليفة العباسي بوادر الخطر فأصدر في سنة ٤٤٤ محضرا ثانيا شبيها بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطمن في نسب الخلفاء الفاطميين ، ووقع عليه كبار العلماء والقضاة في بغداد وأرسلت منه نسخ الى أطراف العالم الاسلامي .

ولكن رد المستنصر كان قويا وإيجابيا ، ففي سنة ٤٤٨ خرج على الخليفة العباسي أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيري ، واتمى للخليفة المستنصر فأرسل اليه الأموال والسلاح ، وتقدم البساسيري في سنة ٥٠٠ فدخل بغداد ففر منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وأرسل البساسيري ثياب هذا الخليفة الفار وعامته الى القاهرة ، وخطب للمستنصر على منابر بغداد نحو عشرة شهور ، وخذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد ، فخطب للمستنصر في هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالها .

يتضح من هذا كله أن هذله البوادر الأربع : المحضر العباسي بالطمن في النسب الفاطمي ، وثورة أبي ركوته ، والنزاع بين عناصر الجيش الفاطمي ، ومحاولة الحاكم الخروج عن أصول المذهب الاسماعيلي ، كان لها أثر قوى في هز كيان الدولة الفاطمية فبدأت عوامل الضعف تعمل في بنائها .

وولى الظاهر في سنة ٤١١ عرش الخلافة بعد أبيه ، وكان عند ذلك صبيا مراهقا في السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الملك ، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدي رجال الدولة من وزراء وقادة وقضاة ، وأبرز ما يميز عهده أنه أباح كل ما كان قد حرمه أبوه ، بل انه قد غالى فأقبل هو نفسه على شرب الخمر ، ورخص للناس بشربها فأقبلوا على حياة اللهو .

ومما يحمد له أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا في عهد أبيه ، فجدد الهدنة مع صاحب الروم في سنة ٤١٨ هـ بشروط كان أهمها أن يفتح جامع القسطنطينية وأن يعين فيه مؤذن ويخطب فيه للظاهر ، وأن يعيد الظاهر بناء كنيسة القيامة بمدينة القدس .

وفي سنة ٤٢٧ ولى الخلافة المستنصر بن الظاهر ، وعمره ٧ سنوات ، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت ستين عاما ، وهي أطول

## العصر الفاطمي الثاني - عصر الضعف والانحلال

حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، وشمل الخوف ، وخيفت السبل برا وبحرا ، وتعذر السير الى الأماكن بالخفارة الكثيرة وركوب الفرار ، واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من القسطنطينية كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا ، وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا .. ثم آل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : « الجوع ! الجوع ! » تردن المسير الى العراق ، فتسقطن عند المصلى ، وتمتن جوعا .. الخ .. الخ»<sup>(١)</sup>.

وكان من نتيجة الغلاء الذي صاحب هذه المجاعة أن منعت مصر ما كانت ترسله الى الحجاز من غلال ومؤن ، فقتعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة ، وخطب للخليفة العباسي في سنة ٤٦٢ هـ ، وان كانت قد أعيدت للمستنصر في سنة ٤٦٩ هـ .

وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة ، فانفصل شمال افريقيا كله وخطب للعباسيين ،

(١) المقرئى : اغاثة الامة ، نشر زيادة والشبال ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية المصرية في النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها وأقصى اتساعها فامتدت من المحيط الأطلسي الى العراق ، ولكن عوامل الضعف الكامنة لم تلبث أن بدأت تنخر في كيان الدولة في النصف الثاني من حكم هذا الخليفة ، فدخل طغرل بك السلجوقي بغداد ، وقتل البساسيري ، وأعاد الخليفة العباسي الى عرشه ، فانقطعت الخطبة للمستنصر وعادت للقائم .

وقبل هذا بقليل نشب نزاع بين اليازورى - وزير المستنصر - والمعز بن باديس عامل الفاطميين على المغرب ، وآل الأمر الى أن قطع ابن باديس الخطبة للفاطميين بالمغرب وأقامها للعباسيين .

وفي سنة ٤٥٧ هـ أصيبت مصر بالمجاعة الخطيرة التي ظلت سبع سنوات ( ٤٥٧ - ٤٦٤ ) فكانت الطامة الكبرى ، وتدهورت أحوال مصر الاقتصادية تدهورا خطيرا ، والمقرئى يسمي هذه المجاعة « بالثدة العظمى » ، ويرجع أسبابها الى « ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم من يزرع ما شمله الري » .

وكان من نتائجها - في رأيه - أن : « نزع السعر ، وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء

« وقد قلّدتك أمير المؤمنين جميع جوامع تدييره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلّدتك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصلحا للفساد ، ومدمرا لأهل العناد .. » .

وأصبحت الأمور كلها مردودة اليه ، والاتصال بين الخليفة وبينه اتصالا مباشرا ، وجعل له تعيين قاضي القضاة وداعى الدعاة — وكان تعيينهما من اختصاص الخليفة دون غيره — ، ولهذا لقب بكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين .

وقد كان وزراء العصر الأول جميعا من أرباب القلم ، أى من رجال الفكر والدين ، أما بدر فقد كان من أرباب السيف — أى من رجال الجيش — ولهذا لقب أيضا بالسيد الأجل أمير الجيوش ، وهو اللقب الذى توارثه من بعده وزراء التفويض فى العصر الفاطمى الثانى ، فقد كانوا جميعا من أرباب السيوف :

ولم يحدث أن ولى الوزارة ابن بعد أبيه فى العصر الأول ، وإنما حدث هذا فى العصر الثانى ، فولى الوزارة بعد بدر الجمالى ابنه شاهنشاه ، فوزر للمستنصر ثم للمستعلى ثم للأمر ، وقد زيد فى ألقابه « الأفضل » وبه اشتهر حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه ، وقد أضيف هذا اللقب أيضا للوزراء من بعده .

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير

ثم قطعت الخطبة من بغداد والمراق بعد أن أقيمت للفاطميين عشرة أشهر ، ثم انقطعت الخطبة لهم فى الحجاز لمدة سبع سنوات ، وأخيرا فى سنة ٤٦٣ دخل النورمان صقلية واستولوا عليها ، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ قامت دولتهم فى سنة ٢٩٧ هـ .

وفى سنة ٤٦٦ هـ تفاقم الحال ، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدا واختلت أحوالها ، وعجز المستنصر عن أن يصنع شيئا لملاجها ، فاستدعى واليه على عكا بدر الجمالى ، فلبى الدعوة وتولى بعد مجيئه أمور مصر كلها ، وتلاشت — منذ ذلك الحين سلطة الخليفة ، وبدأ عهد سيطرة الوزراء .

وقد جرى المؤرخون الاسلاميون على تقسيم الوزارة الى نوعين : وزارة تنفيذ ، وفيها تكون السلطة كل السلطة بيد الخليفة وإنما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره ؛ ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوبا على أمره ، والأمور كلها مفوضة للوزير .

وتطبيقا لهذا التقسيم النظرى نستطيع أن نقول ان وزراء العصر الفاطمى الأول كانوا جميعا وزراء تنفيذ ، أما وزراء العصر الفاطمى الثانى فكانوا جميعا وزراء تفويض ، وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالى .

وقد أنشئ لبدر سجل خاص بتفويض أمور الحكم اليه ، جاء فيه :

بلقب « الملك » ، وأول من لقب به رضوان ابن ولخشي وزير الحافظ لدين الله ، فقيل له : « السيد الأجل الملك الأفضل » ، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء ، فقيل للصالح طلائع بن رزيك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه رزيك بن طلائع « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء الدولة من أرباب السيف — « بالملك الناصر » .

وخير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير في العصر الفاطمي الثاني أصبح هوكل شيء في الدولة ، فقد أصبح « السيد الأجل » ، ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم « الملك » ؛ يقول المقرئزي : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، واليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذي يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية .. » (١) .

ولهذا عرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بمصر الوزراء العظام ، وتأييدا لسلطانهم بنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من القصر الخليلي يباشر فيها الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى » .

(١) المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

وكان لتولى بدر الجمالي الوزارة نتائج أخرى كثيرة أهمها إضافة عنصر جديد إلى العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فقد كان هذا الجيش في أول أمره مكونا من المغاربة — وخاصة قبيلة كتامة — الذين أتوا مع جوهر لغزو مصر ، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك واستخدم عددا كبيرا منهم في جيشه ، ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان في الجيش الفاطمي ، فلما ولى المستنصر استكثرت أمه من السودان — فقد كانت منهم — حتى يقال أنهم بلغوا نحووا من خمسين ألف أسود واستكثروا من الأتراك ، فتجدد النزاع بين العنصرين ، وقامت بينهما — كما يقول المقرئزي — « الحرب التي آلت إلى خراب مصر وزوال بهجتها » .

ثم قدم بدر الجمالي من عكا ، وقتل رجال الدولة وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن — فقد كان هو أرمنيا — ، وصار معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن .

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فأصبح يتكون من المغاربة والعرب والأتراك والسودان والأرمن وغيرهم من الأجناس وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر ، وكثيرا ما أدى هذا النزاع إلى خراب البلاد ونهب أموال الأهلين ، وكانت أسوأ نتائجها ضعف الجيش الفاطمي وبالتالي ضعف الدولة نفسها .

ولم تكن هذه وحدها هي الأسباب التي

غير أن هذا النظام كانت له — الى جانب هذه الفوائد — مضار وعيوب ، منها أنه كان يوجب تولية هؤلاء الخلفاء الأطفال لا لشيء الا لأن كلا منهم كان ابنا للخليفة السابق وقد نصّ على توليته ، مما أتاح الفرصة لاستبداد الوزراء بشئون الحكم ، وقيام أسباب التنافس والنزاع بين رجال الدولة المتطلعين الى منصب الوزارة .

وكان من الشروط الهامة لصحة الامامة عند الشيعة الاسماعيلية الوصية أو «النص» ، أى أن ينصّ الامام السابق على الامام اللاحق من أولاده ، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الامام السابق ، ولذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الامامة ، ويشترط في النص عندهم أن يصدر عن الامام وقت ثقنته ، أى عند موته ، بمعنى أنه اذا صدر عن الامام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فانه لا يؤخذ الا بالنص الأخير الذى صدر عنه وقت ثقنته وانتقاله الى الدار الآخرة ، لأنه فى رأيهم يجب كلّ النصوص الأخرى السابقة .

وقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام الوراثى بجميع شروطه فيما عدا ثلاث حالات :

— فى الحالة الأولى حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه ، فعهد بولاية المهدي لابن عمه عبد الرحيم بن الياس ، وقد أشرنا الى هذه المحاولة وأثرها فيما سلف ،

أدت الى ضعف الدولة وانحلالها ثم زوالها ، وانما كانت تضاف اليها كلما تقدم الزمن بالدولة عوامل جديدة ، منها أن معظم خلفاء العصر الثانى تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار مما زاد فى شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم ، فقد ولى الخليفة الأمر وعمره خمس سنوات ، وولى الفائز فى نفس العمر وتوفى فى الحادية عشرة من عمره ، وولى العاضد كذلك وعنده أحد عشر عاما .

وقد ولى هؤلاء الخلفاء فى هذه السن المبكرة لأن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية كان يقضى — كما ذكرنا — أن تكون الامامة — أى الخلافة — فى نسل على ابن أبى طلب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب الى الابن <sup>(١)</sup> ، فهم فى هذا يختلفون عن أندادهم الخلفاء السنيين من الأمويين والعباسيين ، الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانا الى الأخ أو الى ابن العم أو الى أكبر أفراد الأسرة سنا ، لأنهم كانوا يشترطون فيمن يتولى الخلافة شروطا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغا عاقلا سليم الحواس ، وقد كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة أهمها أنه كان عاملا من عوامل الاستقرار ، وأنه جنب الأسرة والدولة — الى حد كبير — عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم فى سبيل العرش .

(١) الشيبلى : مجموعة الوثائق الفاطمية ،

القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٠ .

ورأينا أنها لم يكتب لها النجاح ، فقد قتل الحاكم قتلة تحوطها الريب والشكوك ، وسعت أخته « ست الملك » حتى أقامت « الظاهر » ابن الحاكم على عرش الخلافة .  
— والحالتان الثانية والثالثة خولف فيهما هذا المبدأ فعلا ، وتولى الخلافة ابن العم لا الابن ، فبعد وفاة الخليفة الأمر بأحكام الله ولى الخلافة ابن عمه الحافظ لدين الله ، وبعد وفاة الخليفة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله ، وهو آخر خلفاء الدولة .

وفى كل مرة خولف فيها نظام الوراثة — كما نص عليه المذهب — حدث انقسام مذهبي سياسى ، وهذه الانقسامات المذهبية السياسية — وقد حدثت كلها فى العصر الفاطمى الثانى — هزت الدولة هزات عنيفة ، وكانت من أهم العوامل التى أدت الى اضعاف الدولة وانحلالها .

فعند وفاة المستنصر حدث خلاف فى تحديد النص ، فقال نزار — الابن الأكبر . بأن النص والوصية له ، وقال الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبى القاسم أحمد — الذى ولى الخلافة باسم المستعلى — ؛ واتتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية المستعلى ، واقسم الاسماعيلى منذ ذلك الحين الى فرقتين .

— الاسماعيلى النزارية التى نجح دعائها فى اقامة ملك لهم فى قلعة الموت ثم فى الشام

وقد لعبوا دورا خطيرا فى التاريخ الاسلامى فى القرنين الخامس والسادس .  
— والاسماعيلى المستعلى أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر .

وقد ناصب النزارية الفواطم فى مصر العدا ، ولم يلق الخلفاء الفاطميون — منذ عهد المستعلى — أعداء أشد قسوة من النزارية ، بحيث نستطيع أن نقول ان تاريخ الحركة الاسماعيلى بوجه عام ، وتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر بوجه خاص كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذى عرفناه لو أن الاسماعيلى النزارية ( الحشيشية ) اتحدوا مع الفاطميين فى مصر بدلا من اتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم والاضرار بهم .

والحقيقة أن ابعاد نزار وتولية المستعلى يعتبر انقلابا سياسيا (Coup d'état) واضح المعالم ، قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد المستنصر ، فقد كان نزار — عند موت أبيه المستنصر — رجلا مكتمل الرجولة ، ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل — أثناء حياة المستنصر — علاقات طيبة ، بل لقد كانت على العكس علاقات يشوبها الكره المتبادل .

والانقسام المذهبى الثانى حدث بعد وفاة الخليفة الأمر ، فقد خولفت أصول

المذهب ، وولى الخلافة الحافظ ابن عم الأمر ،  
في حين أنه كان قد ولد للأمر قبيل وفاته ابن  
اسمه « الطيب » وأخذت له البيعة بولاية  
العهد ، ولهذا اتسمت الاسماعيلية مرة ثانية  
الى :

— اسماعيلية حافضية .

— اسماعيلية طيبية .

وقد مرت الدولة الفاطمية عند مقتل  
ال خليفة الأمر بأزمة عنيفة كادت تودى بها  
وتضع حدا لحياتها ، وذلك أن بعض جواسيس  
النزارية تسللوا الى القاهرة وتربصوا للأمر  
وقتلوه في ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ،  
وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة — ومعظمها  
مراجع سنية — أن الأمر لم يكن عند قتله قد  
أعقب ، وانما ترك من بعده احدى زوجاته  
حاملا ، فعين الحافظ ابن عم الأمر حاكما  
مؤقتا ، على أن يكون وليا للعهد وكفيلا للطفل  
الذى يولد ان أتى ذكرا ، ولكن الزوجة  
أنجبت بنتا فاستقر الحافظ خليفة .

كان هذا هو الرأى الذى تعرضه المراجع  
السنية المتداولة الى عهد قريب ، ولا تذكر  
رأيا غيره ، ثم بدأت تظهر في عالم المطبوعات  
مراجع تاريخية سنية تشير الى رأى آخر ،  
وأول هذه المراجع «تاريخ مصر لابن ميسر» ،  
وقد أورد المؤلف فيه نصا يشير الى أن الأمر  
كان قد ولد له قبل موته بشهور ولد سماه  
أبوه « الطيب » ، واحتفل بمولده احتفالا  
علنيا رائعا ، وأعلنه وليا لعهد ، وأرسلت

السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى  
اليمن ، وأعلنت هناك ، ولهذا سيظل اسماعيلية  
اليمن — في معظمهم — بعد ذلك طيبية ، ثم  
يكونون لهم جالية أخرى في الهند تتبع نفس  
المذهب والفرقة .

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا  
— وحتى اليوم — يشككون في هذه القصة  
وفي وجود الطيب ، لأنه منذ مات الأمر لم  
يظهر الى الوجود ، بل أعلنت القصة الجديدة ،  
قصة وجود زوجة من زوجات الأمر حاملا ،  
وقصة كفاءة الحافظ للمولود المنتظر .

ثم ظهرت للنور بعد ذلك بعض المؤلفات  
السنية والشيعية تحمل نصوصا جديدة عن  
الطيب ، وكلها تثبت وجوده وأنه ولد في  
ربيع الأول سنة ٥٢٤ ، وأنه أعلن بعد مولده  
وليا للعهد ، وزينت القاهرة ومصر زينة حافلة  
بهذه المناسبة ، وورد في كتاب « البستان  
الجامع » الذى نشره الأستاذ كلود كاهن نص  
يفيد أن الحافظ دس لهذا الطفل — بعد مقتل  
أبيه — أحد أتباعه « فأخذه عنده ، ولم يظهر  
له خبر الى الآن بموت أو بغيره » (١) .

وهذه النصوص تفيد أيضا أن الطيبية  
— اتباع الطيب — اتشروا بعد ذلك في  
اليمن والشام دون مصر .

اختفى الطيب اذن من الميدان — بعد  
مقتل والده — وانتقلت السلطة الفعلية الى

(١) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ،

اثنين من رجال الجيش هنا : هزار الملوك  
وبرغش ، واختار هذان القائدان عبد المجيد  
— ابن عم الأمر — ليلى السلطة من الناحية  
الشكلية فقط ويكون كفيلا للمولود المرتقب  
ان أتى ذكرا .

واختار عبد المجيد (الحافظ) هزار الملوك  
ليكون وزيرا له ، ولكن هذا الوضع الجديد  
لم يعمّر غير نصف يوم ، فقد دمغت الغيرة  
برغش الى تحريض قائد آخر له مكاتته على  
الثورة ؛ هذا القائد الآخر هو أبو علي أحمد  
ابن الأفضل شاهنشاه — الملقب بكتيفات —  
وقد ثار هذا القائد فعلا ، وثار معه الجيش  
عقب الاحتفال بتولية هزار الملوك الوزارة ،  
واتتهت الثورة بالقبض على هزار الملوك  
وقتله .

« واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد بن  
الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر  
الجمالى ، وكان يلقب بكتيفات ، في يوم  
الخميس سادس عشر ذى القعدة » (١) .

« واستدعى (الحافظ) الخلع لأبي علي ،  
فأقيضت عليه يوم الأربعاء خامس عشرة ،  
وركب الى دار الوزارة ، والجماعة مشاة في  
ركابه ، فكانت وزارة هزار الملوك نصف يوم  
بغير تصرف .. » .

وكان أول عمل باشره أبو علي أحمد بمد  
توليه الوزارة أنه : « أحاط بالحافظ وسجنه

في خزانة فيما بين الايوان وباب العيبد  
وتمكن أبو علي ، واستولى على جميع ما في  
القصر من الأموال والذخائر .. » .

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع  
حدا نهائيا للدولة الفاطمية الاسماعيلية ، فأبو  
علي قائد قواد الجيش له مكانة خاصة في  
الدولة ، فهو ابن وزير وحنيد وزير ، وأبوه  
وجده كانت لهما السلطة الفعلية الكاملة  
والمكانة الأولى في الدولة أيام وزارتهما ، وقد  
ثار أبو علي ثورة عسكرية انتهت بقتل الوزير  
القائم ، والقبض على الكفيل وسجنه ، ثم  
توليه هو السلطة كلها دون منازع أو مشارك.

ويضاف الى هذا كله أمر هام بالغ  
الأهمية ، وهو أن أبا علي لم يكن اسماعيليا  
المذهب ، بل كان اماميا ، ولهذا بدأ باتخاذ  
اجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب  
الاسماعيلى والغائه ، والاعتراف بالمذهب  
الامامى ، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية  
الاسماعيلية ، وقيام دولة علوية امامية ؛ يقول  
المقريزى : « وكان (أبو علي) اماميا متشددا ،  
فالتفت عليه الامامية ولعبوا به حتى أظهر  
المذهب الامامى » (١) .

ومن هذه الاجراءات التى اتخذها  
أبو علي لاطهار المذهب الامامى أنه : — رتب  
في الحكم أربعة قضاة — قاضيا للشافعية ،  
وقاضيا للمالكية ، وقاضيا للاسماعيلية ،

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاط الحنفا ،  
ص ١١٣٤ .

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاط الحنفا ،  
ص ١٣٣ ب .

وقاضيا للامامية — وصار كل قاض يحكم  
بمذهبه ، ويورث بمذهبه ؛ ويعلق المقرزى  
على هذا بقوله : « ولم يسمع بشئ هذا في  
الملة الاسلامية قبل ذلك » (١) .

— وأسقط اسم اسماعيل بن جعفر  
الصادق — الذى تنسب اليه الاسماعيلية —  
واسم الحافظ من الخطبة .

— وألغى الأذان الاسماعيلية الفاطمية .

— وجعل الخطبة على المنابر له وحده  
باعتباره « ناصر امام الحق فى حالتى غيبته  
وحضوره ، والقائم بنصرته بماضى سيفه  
وصائب رأيه وتدييره » .

— وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم  
الامام المنتظر .

حكم أبو على أحمد اذن حكما مطلقا ،  
واتخذ هذه الاجراءات الكثيرة التى تهدف  
جميعا الى القضاء على الاسماعيلية ومذهبهم،  
غير أنه ظل يشغله أمران : أمر الحافظ كبير  
أفراد الأسرة وولى العهد والكفيل السابق ،  
وأمر المولود الجديد الذى ولد للأمر .

أما الحافظ ، فيبدو أنه لم يكن ذا خطر ،  
ولم يكن له أعوان يشدون أزره ، وقد سجنه  
أبو على أحمد ، وشدد عليه الرقابة فى سجنه ،  
وقد فكر أكثر من مرة فى قتله ولكنه لم يفعل .  
وأما المولود فقد ظل أمره يقلق بال أبو  
على أحمد ، وظل دائب البحث عنه ، وقد

(١) المقرزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ،

تضاربت الأقوال فى شأن هذا المولود ، فبعض  
المراجع المنشورة المتداولة تشير الى أن المولود  
جاء بنتا ، وبهذا أمن أبو على أحمد واطمان ،  
وبعض المراجع التى لا تزال مخطوطة تشير الى  
أن المولود جاء ذكرا ، وأن أمه عملت على  
اخفائه خوفا عليه من الوزير أبى على ومن  
الحافظ الى أن قبض عليه الحافظ فيما بعد  
وقتله .

والرأى الثانى ذكره المقرزى فى كتابه  
« اتعاظ الحنفا » نقلا عن الشريف محمد بن  
أسعد الجوانى ، وهو الصحيح ، بدليل  
ما تذكره المراجع أيضا من أن أمر هذا المولود  
قد شغل بال أبى على أحمد كثيرا أثناء السنة  
التي انفرد فيها بالحكم ، وأنه ظل طول هذه  
السنة دائب البحث عنه ، فقد قال المقرزى فى  
نفس المرجع : « واشتد ضرره ( أى ضرر  
أبى على أحمد ) على أهل القصر من الارعاد  
والابراق ، وأكثر من ازعاجهم ، والتفتيش على  
ولد الأمر .. » .

ولبت أبو على أحمد يحكم مستقلا  
ما يزيد على السنة قليلا، ولو طالت مدة حكمه  
لكان قد قضى على الدولة الفاطمية والمذهب  
الاسماعيلية نهائيا ، ولكن الاسماعيلية لم  
يرضوا عن حكمه ، وتكونت منهم معارضة  
قوية تولى زعامتها القائد يانس ، وظلوا  
يتربصون بأبى على الفرض للقضاء عليه ، الى  
أن تمكنوا من قتله فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ .

قضى اذن على أبى على أحمد ، وقضى

بطبيعة الحال على المحاولة التي حاولها لجعل الدولة امامية ، وعادت الدولة اسماعيلية كما كانت ، وأعيد الحافظ — بعد اطلاق سراحه — الى منصب الخلافة .

واعتبر هذا اليوم الذي قتل فيه أبو علي أحمد وأعيد الحافظ الى الحكم يوم عيد قومي — لا للحافظ نفسه بمناسبة اطلاق سراحه واعادته للحكم — بل للدولة كلها ، وللمذهب الاسماعيلي وأتباعه ، فقد كان المذهب على وشك أن يقضى عليه ، ولهذا اعتبر هذا اليوم عيدا للاسماعيلية ، وسمى « عيد النصر » ، وضم الى قائمة الأعياد الرسمية ، وظلت الدولة تحتفل به سنويا في عهد الحافظ ، وفي عهد من أتى بعده من الخلفاء الى أن دالت الدولة وزالت .

ورغم تولي الحافظ الحكم فقد كانت المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة ، فالمذهب الاسماعيلي — كما أسلفنا — لا يبيح أن يتولى الخلافة من ليس ابنا للخليفة السابق ، والحافظ ليس ابنا للأمر ، بل هو ابن عمه ، والطفل الذي وُلد للأمر بعد مقتله والذي أخفته أمه كان لا يزال موجودا ، ويبدو أن الحافظ كان يعلم بوجوده ، فلا يصح إذن أن يتولى الخلافة مع وجود الطفل ، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ المذهب على تعيين الحافظ خليفة ، بل أعادوه — كما كان — وليا للعهد وكفيلًا للطفل المختفي ، يقول المقرئزي : « فاجتمع الناس ،

وأخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه » (١) .

ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية وجود عملة ضربت في الاسكندرية في سنة ٥٢٦ هـ ( ومن المؤكد تبعا للحوادث التاريخية أنها ضربت في المدة بين المحرم وربيع الأول من هذه السنة ) تحمل اسم عبد المجيد ولقبه كولي للعهد ، ونص : ما عليها : « أبو الميمون عبد المجيد ، ولي عهد المسلمين » (٢) .

ويبدو أيضا أن الحافظ ظل منذ تلك اللحظة يعمل جاهدا للبحث عن هذا الطفل ليتخلص منه نهائيا ، ولتخلص له الخلافة من كل شائبة ، ولم يطل بالحافظ الوقت ، فقد عثر على الطفل بعد نحو شهرين ، وحسم الأمر بقتله ، ورأى أن يعلن على الملأ توليه الخلافة ، فان المقرئزي يقول في حوادث سنة ٥٢٦ هـ :

« وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله ، وبويع له بيعة ثانية لما عدم الحمل » (٣) .

وأخيرا ولي الحافظ الخلافة ، وبتوليته حدث انقطاع في الفرع الفاطمي الأصيل ، فقد كان الخلفاء الفاطميون الذين حكموا قبله كلهم من نسل عبيد الله المهدي ، وكل خليفة

(١) المقرئزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ .  
(٢) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) المقرئزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٥ ؛ وابن ميسر : تاريخ مضر ، ص ٧٥

اليه ، فقريء على الناس ، فما زاده ذلك  
الا جراءة عليه ، وافسادا له .

ولم تخدم هذه الفتنة الا بعد أن قتل  
حسن ، ولكنها كانت عاملا جديدا من عوامل  
اضعاف الدولة بعد اقسام الجيش على نفسه  
وقتل عدد كبير من كبار قواده .

ولم تنشب الصعوبات في هذا العصر  
الثاني في الداخل وحسب ، بل نشبت فيه  
صعوبات أخرى في الخارج ، أخذت تؤثر في  
كيان الدولة وتعمل على فصل أطرافها طرفا  
طرفا ، وقد أشرنا من قبل الى انفصال شمال  
افريقيا كله ثم انقطاع الخطبة الفاطمية في  
الحجاز لفترة ما ، ثم انفصال جزيرة صقلية .

وقد استمرت حركة الانفصال في طريقها،  
ففي عهد المستعلي بدأ عدوانان خطيران يهددان  
أملاك الدولة في الشام ، فاستولى الأتراك  
السلجقة على دمشق والأجزاء الداخلية من  
الشام وقطعوا الخطبة للمستعلي وخطبوا  
للخليفة العباسي ، وفي عهده أيضا ، في  
سنة ٤٩٠ هـ تحركت الحملة الصليبية الأولى من  
القسطنطينية لأخذ سواحل الشام فملكوا  
أنطاكية ، وفي سنة ٤٩٢ هـ ملكوا بقية الساحل  
وبيت المقدس ، ولم يبق بأيدي الفاطميين غير  
مدينة عسقلان .

وفي عهد الأمر استولى الفرنج على عدد  
آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبنياص  
وصور .

منهم ابنا للخليفة السابق ؛ وسيصبح الحافظ  
أصلا لفرع جديد ، ولكن هذا التحول فتت  
الاسماعيلية تفتيتا جديدا ، فانقسموا — كما  
أسلفنا — الى اسماعيلية حافظة وهم أتباع  
الخلافة الفاطمية الجديدة في مصر، واسماعيلية  
طبيية وقد اتشروا في اليمن والهند .

وفي عهد الحافظ حدثت أزمة أخرى كانت  
معولا جديدا ساعد على تحطيم ما بقي للدولة  
الفاطمية من قوة ، فقد أراد الحافظ أن  
يتخلص من سلطة الوزراء واستبدادهم  
بشؤون الحكم ، كما أراد أن يمهد لاستقرار  
الحكم في أسرته ، فأصدر في سنة ٥٢٨ سجلا  
بتولية ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد وأقامه  
مقام الوزير .

ولكن سليمان توفي بعد صدور هذا  
السجل بشهرين ، فأصدر الحافظ سجلا آخر  
بتولية ابنه الثاني حيدرة ولاية العهد ، فشق  
ذلك على أخيه حسن فقد كان أكبر أولاد  
الحافظ سنا بعد وفاة سليمان ، وقام حسن  
بثورة حربية خطيرة ، وانقسم الجيش الفاطمي  
نتيجة لهذه الفتنة على نفسه ، وكانت هذه  
الوقعة — كما يقول المقرئ — « أول  
مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص  
عدد عساكرها .. » .

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لاختاد  
هذه الثورة واسترضاء ابنه حسن ، ولم يجد  
بدا « من مداراة حسن ، وتلافي أمره عساه  
ينصلح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله

وفي عهد الحافظ قطع الصليبيون الخطبة له في اليمن ، وخطبوا للطيب وهكذا تجمعت عوامل الضعف لتعمل مجتمعة على انهاء الدولة ، وأصبح وزراء الدولة هم أصحاب السلطان الفعلي ، بل لقد أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء ، ومن الشواهد القوية على عظم هذا النفوذ أن الصالح طلائع بن رزيك عمد إلى اختيار طفل صغير ليلي الخلافة بعد

موت الفائز ، وهو الذي سمي فيما بعد باسم «العاقد لدين الله» ، واجتمع الناس للاحتفال بتوليته وأحدثوا ضجة كبرى ، فسأل طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له ان الناس يفرحون بالخليفة ، فقال : « كأنى بهؤلاء الجهلة يقولون : ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أنني كنت من ساعه أستعرضهم استعراض الغنم » (١) .

### انتهاء الدولة

كان أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة — كما أسلفنا — هو استبداد الوزراء بشؤون الحكم ، لهذا أصبح منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة ، فقامت بين بعضهم البعض منافسات دامية في سبيل الوصول إلى هذا المنصب ؛ وكان النزاع الذي قام بين شاور — وزير العاقد آخر خلفاء الفاطميين — وضرغام — صاحب الباب — هو آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة ، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليته الوزارة ، وفرار شاور إلى الشام .

نور الدين ، وسأله أن يرسل معه جيشا إلى مصر ليساعده في نضاله مع خصمه ضرغام ، وفي اعادته إلى منصب الوزارة ، وعرض أن يدفع له — مقابل هذه المساعدة — ثلث إيرادات مصر ، وأن يدين له بالولاء ان عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة . ورحب نور الدين بشاور واستضافه ، وتردد أول الأمر في اجابته إلى مطلبه ، ولكنه لم يلبث أن وافق ، ففى هذه الموافقة تحقيق لخطته التي كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الاسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبي والقضاء عليه .

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين ، وعلم

وكانت الشام قد انسلخت من ملك الفاطميين واقتسمت ملكها قوتان : قوة نور الدين محمود بن زنكي في الداخل ، وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين .

وقد لجأ شاور إلى القوة الاسلامية ، إلى

(١) المقرئى : مخطوطة اتعاطر الحنفا ، ص ١٥ ب ؛ وانظر : الشيبان : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ١٢٠ - ١٢٣ .

ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الفزع اذ لم يكن الجيش الفاطمي في حالة تمكنه من المقاومة أو احراز النصر ، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية في الشام ، بالصليبيين .

ووصل أسد الدين شيركوه الى مصر — وفي معيته شاور — ، وانتصر على جيش ضرغام ، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه ، ثم قبض عليه وقتل ، وأعيد شاور — نتيجة لهذا النصر — الى دست الوزارة .

غير أن شاور كان من خلقه الغدر والخيانة ، فلم يلبث أن حث بوعده ، ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه ، بل طلب اليه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام ، وآلم شيركوه مسلك شاور ، وأبى أن يستمع له ، وعسكر بجيشه عند مدينة بليس ، وتحصن بأسوارها ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل ، فلجأ الى عموري Amalric ملك بيت المقدس الصليبي ، وأرسل يستنجد به ، ورحب عموري بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه ، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم في الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب .

اتجه عموري بجيشه في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) نحو مصر ، وحاصر أسد الدين في بليس شهورا ثلاثة ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر من خطر ، فبدأ يضغط

على أملاك الصليبيين في الشام ، وهاجم بانياس ، مما جعل عموري يفكر جديا في الانسحاب ، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسجبا معا وفي وقت واحد من مصر .

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا اليها ثانية وثالثة ، وكل منهما كانت تحاول في كل مرة من المرات الثلاث أن تستولي على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، ولكن النصر كتب أخيرا وفي الحملة الثالثة لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه .

وقتل شاور لغدره وخيائه واستعائه بالصليبيين المرة بعد الأخرى ، ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة ، فاختر أسد الدين ليكون وزيره ، غير أن أسد الدين لم يعمّر في الوزارة غير شهرين ثم مات ، فاختر العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرا .

كان موقف صلاح الدين منذ ولي الوزارة موقفا غريبا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمي الشيعي ، وهو في الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السني ، فهو موزع الولاء ، ومع هذا كان يتبع في سياسته ازاء الرجلين الحكمة والتؤدة .

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد ، والخطبة للخليفة العباسي ، وكان نور الدين مدفوعا في هذا بسنيته ، وكرهه للشيعية ، وبرغبته في

نور الدين يستأذنه في أن يرسل إليه أباه نجم الدين أيوب وأهله ، فأرسلهم إليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين ، فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة .

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة انشاء المدارس في مصر ، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعي ، والدعوة للمذهب السني وتدريبه ، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي أنشئت في القسطنطينية لتدريس المذهب الشافعي ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته ، فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية .

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى ، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة ، فجعل القضاة في سائر الديار المصرية شافعية ؛ يقول ابن واصل معقبا على حركة انشاء المدارس ، وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعي الاسماعيلي الى المذهب الشافعي : « فاشتهر مذهب الشافعية ، واندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية ، وانمحي أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به » ؛ وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التي كان يخطوها صلاح الدين في حرص وحذر

اجابة الخليفة العباسي الى طلبه ، فقد كان دائم الالاحاح عليه أن يقيم له الخطبة في مصر ؛ ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر ، ولهذا آثر التمهّل ، وأن يمهّد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ، ليستعيدوا قوادمهم وسلطانهم المسلوب ، وكان صلاح الدين يخشى ان هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينجح هؤلاء في الثورة عليه ؛ يقول ابن واصل في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » : « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة ، كتب الى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ، ويخطب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك ، لميلهم الى العلوية ، فلم يصنع نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه .. » (١) .

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره ، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على اقطاعاتهم ، ومنحها لقواده هو ، ليضمن ولائهم واخلاصهم ، ثم أرسل الى

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيبان ، ج ١ .

للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسي ونور الدين بقطع الخطبة للعاقد .

ولما تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه ليستشيرهم في أمر قطع الخطبة ، فترددوا كثيرا ، وأخيرا تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة ؛ وفي يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ هـ خطب هذا الرجل ، ولم يدع للخليفة العاقد، وإنما دعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة

العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة جميعا، وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية .

أما الخليفة العاقد فيقال انه كان مريضا، فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض ، وتوفي في يوم عاشوراء ، أي في اليوم العاشر من المحرم من هذه السنة ؛ وهكذا اتهمت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان كانت مصر في خلالهما امبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة .

# الدولة الأيوبية

للكنور محمد مصطفى زباده

مصر حقيقة تامة . ولكن هذه السنة المختارة ١١٢٧ م ، لا لأهمية تاريخية خاصة أو عامة ، بل لصلاحيه نسبية معينة ، وهى أن عماد الدين زنكى أمير حلب بحق ورائه امارتها عن أبيه صار فيها أميرا كذلك على الموصل ، بحق تعيينه عليها من قبل السلطان محمود السلجوقى والخليفة المسترشد العباسى ، وبذا أصبح بحكم موقعه الجغرافى أمير أقوى دولة اسلامية فى غرب آسيا فى زمنه . ثم جمعت الصدفة التاريخية بين زنكى والأخوين الكرديين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر ، وهذا هو الأصل العائلى لهذه الدولة

ووقعت هذه الصدفة سنة ١١٣٢ م ، حين وصل زنكى الى قرب قلعة تكريت منهزما يريد عبور نهر دجلة ، كيلا يقع بجيشه فى يد أعدائه ، فساعده نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة على العبور ، ومن هذه المروءة نشأت صداقة بين زنكى وأيوب وشيركوه . ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل أيوب وأخوه وأهلها على الرحيل فى شىء من السرعة ليلا عن تكريت ، ويقال ان ميلاد صلاح الدين يوسف تلك الليلة لم يستطع أن يؤخر ذلك

يقرب المؤرخ الحديث من تاريخ الدولة الأيوبية فى مصر من زاويتين متكاملتين ، وهما البيئة السياسية التى نشأت فيها هذه الدولة ، والأصل العائلى الذى نبتت منه ، وهذا التكامل يجعل العبارات الافتتاحية فى قيام الأيوبيين بمصر مزيجا من هاتين الزاويتين . أما البيئة السياسية التى نشأت فيها هذه الدولة فهى الشرق الأوسط فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وأما أهم عناصر هذه السياسة وأوضحها أثرا فى قيام الدولة الأيوبية فهى الخلافة الفاطمية التى سوف يحل الأيوبيون محلها فى مصر ، ثم الخلافة العباسية التى غدت تستمد قوتها من السلطنة السلجوقية المقيمة فى بغداد عاصمة العباسيين ، ثم المملكة الصليبية التى تأسست فى بيت المقدس وما حولها ، ثم الدولة الزنكية التى أسسها عماد الدين زنكى ، وهى الدولة التى تستطيع أن تكون نقطة بداية تاريخية لظهور الأيوبيين .

والمؤرخ الحديث يحسن صنعا اذا هو اختار سنة من السنوات لوقفه يقفها هنيهة لاستعراض أحوال هذه الدولة الزنكية ، ثم يتقدم من هذه السنة المختارة بعد ذلك رويدا رويدا حتى يفتدو تأسيس الدولة الأيوبية فى

الرحيل ، مما ينبىء بأن سببا خطيرا هو الذى دعا الى انتقال الأخوين أيوب وشيركوه وأسرتيهما عن تكريت .

وذهب أيوب وشيركوه الى زنكى بالموصل ، ودخلا فى خدمته ، ولم يلبثا أن شاركا فى حروبه وسياسته ، وهى العمل على تكوين جبهة اسلامية قوية لاجراج الصليبيين من الشام . وفى سبيل ذلك لم يتخرج زنكى من الهجوم على مدينة دمشق سنة ١١٣٩ ، على أنه قنع من هذا الهجوم باستيلاء قائديه أيوب وشيركوه على بعلبك التابعة للامارة الدمشقية ، وعين أيوب حاكما عليها . وبفضل هذين القائدين وغيرهما من رجال الدولة الزنكية استطاع زنكى أن يتقدم بمشروع الجبهة الاسلامية المتحددة خطوات معنوية واسعة ، أهمها استيلاؤه من الصليبيين على الرها سنة ١١٤٤ م . ثم توفى زنكى بعد ذلك بسنتين ، اذ اغتيل وهو على حصار حصن جعبر الواقع على نهر الفرات الى الجنوب الشرقى من حلب .

ثم بدت وفاة زنكى فرصة لبعض أمراء البلاد المفتوحة أن يستردوها من ولديه ، وهما نور الدين محمود الذى آل اليه القسم الغربى من المملكة الزنكية وعاصمته حلب ، وسيف الدين غازى الذى آل اليه القسم الشرقى منها وعاصمته الموصل . ومن تلك البلاد بعلبك التى حاول الدمشقيون أمراؤها الأقدمون استرجاعها من حاكمها نجم الدين أيوب ، ولم

يقو أيوب على دفعهم عنها بالقتال ، ففضل الرضوخ للواقع وسلم بعلبك سنة ١١٤٦ ودخل خدمة أمراء دمشق ، ولم يلبث أن أوغل فى سياسة الامارة الدمشقية وحوادثها حتى أصبح القائد العام لجيوشها . أما شيركوه فانتقل بعد وفاة زنكى الى خدمة ابنه نور الدين محمود بحلب ، ولم يلبث هو الآخر أن صار القائد العام فى الدولة النورية . وفى سنة ١١٥٤ جهز نور الدين حملة للاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لسياسة توحيد الجبهة الاسلامية التى ورثها عن أبيه ، وعين شيركوه لقيادة هذه الحملة . ومن ثم بدأ شيركوه فى مفاوضة أخيه أيوب لتسليم دمشق بالحسنى ، واتفقت المفاوضات أواخر تلك السنة بأن أصبحت الدولة النورية مهيمنة على محور عاصمته حلب الى دمشق .

أما الأخوان أيوب وشيركوه فبلغا ذروة القوة والنفوذ بعد تسليم دمشق ، اذ تعين أيوب حاكما على هذه المدينة من قبل نور الدين ، وميزه نور الدين عن سائر رجاله باعطائه حق الجلوس فى حضرته ، رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكى . وتعين شيركوه نائبا للسلطنة باقليم دمشق كله ، كما استقر باقطاع كبير فى حمص . وأما الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب فليس يوجد بالنصوص المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته ( اذا أردت توسعة فعندك على بيومى ص ٨ - ٨٤ ) ما عدا أنه عاش بالبلاط النورى بدمشق ،

وأنة تقلب في بيئة عالية ، ولا بد أنه قضى معظم أيامه في تعلم علوم طبقة وفنونها ، ويستخلص كذلك ما هو معروف من اشارات مبشرة أن السلطان نور الدين عين الشاب صلاح الدين ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، أى سنة ١١٦٠ م في وظيفة شحنة دمشق ، وهى وظيفة رئيس الشرطة والموكل بالأمن بها .

هذه خلاصة عابرة لبعض أحوال الدولة الزنكية النورية التى نشأ فيها مؤسسو الدولة الأيوبية في مصر ، ولا أقل هنا من عرض مشابه لبعض أحوال الدولة الصليبية بالشام والدولة الفاطمية بمصر ، وكلاهما ذو شأن في تأسيس الدولة الأيوبية . والمقصود بالصليبيين هنا مملكة بيت المقدس سنة ١١٥٣ م بالذات ، حين استولى ملكها بالدوين الثالث على ميناء عسقلان الواقعة على الطريق بين الشام ومصر ، اذ ترتب على هذه الحركة الحربية قيام نور الدين بالاستيلاء على دمشق في السنة التالية ، كما ترتب عليها كذلك تطور السياستين النورية والصليبية الى سباق جدى للاستيلاء على مصر من خلفائها الفاطميين .

وكانت الخلافة الفاطمية في مصر وقتذاك في دور الاحتضار ، وخليفتها العاضد العوبة لينة وسط حزبية فاسدة ، ولا سيما بعد أن دعا شاور أحد زعمي هذه الحزبية السلطان نور الدين لمؤازرته ، على حين دعا ضرغام — وهو الزعيم الآخر — الملك عمورى الأول لمؤازرته . ولذا جرى السباق النورى الصليبي

بين ثلاث حملات عسكرية صليبية ومثلها نورية ، وأولها سنة ١١٦٣ ، وآخرها ١١٦٩ ، وانتهى السباق حين استطاع القائد شيركوه أن يخرج الصليبيين من مصر ، وأن يتخلص نهائيا من الزعيمين ضرغام وشاور ، وأن يصبح وزيراً للخليفة العاضد الفاطمى . وبذا حقق شيركوه رغبات نور الدين ، ما عدا اعتلاءه الوزارة فان نور الدين رأى في ذلك شيئاً من الطموح الخطير .

وصحب شيركوه في حملاته الثلاث صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، وشارك صلاح الدين في حروب هذه الحملات ومؤامرتها ، ودل على مهارة ملحوظة . فلما توفى شيركوه ( مارس ١١٦٩ ) بعد ثلاثة أشهر فقط من توليته الوزارة الفاطمية ، اختار المحيطون بالخليفة العاضد بعده للوزارة ظناً منهم أن السلامة السياسية تقترح عليهم اجلال الشاب محل عمه ، وعمره وقتذاك احدى وثلاثون سنة ، باعتبار أنه أقل ضباط الجيش النورى خبرة بشئون الحرب والسياسة . غير أن صلاح الدين لم يلبث أن ألقى على رجال القصر الفاطمى درسا تعلموه ولم يستطيعوا نسيانه ، وهو أنهم يتتوا له سيف تلك السنة مؤامرة بزعامة خصى نوبى اسمه مؤتمن الدولة نجاح ، واتصلوا بالملك عمورى لترتيب هجوم داخلى وخارجى على القوات النورية في وقت واحد . غير أن صلاح الدين علم بتفاصيل المؤامرة قبل تنفيذها ، فقبض على زعيمها

وشركائه بالقاهرة وأمر باعدامهم وأخذ حركة  
عصيانة بالجيش الفاطمي ، كما استطاع اجلاء  
أسطول صليبي بيزنطي بنفسه عن دمياط .  
ودل صلاح الدين بذلك كله على مقدرة فائقة  
في غير جلبة ، كما دل سيده نور الدين بحركاته  
الحرية المتوازية ضد الصليبيين بالشام على  
عزمه على مساعدته ، ما دامت أهدافه تقوية  
مركز الدولة النورية بالقاهرة .

وكان اجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط  
تلك السنة نقطة تحول في تاريخ صلاح الدين ،  
وفي تاريخ الحملات الصليبية على مصر .  
ذلك أن رجوع هذا الوزير العسكري من  
دمياط منتصرا ، أفتق الخلافة الفاطمية والباقيين  
من رجالها ، وكذلك القاهرة وأهلها بأنه  
يستطيع حماية الدولة من اغارة المغيرين ،  
فضلا عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين  
وبدأ بذلك ما عمل على بنائه لنفسه في قلوب  
الخاص والعام . واغتتم صلاح الدين هذه  
الفرصة فأرسل الى سيده نور الدين يطلب  
ارسال الباقيين بالشام من أهله حتى وقتذاك  
الى مصر ، ليستعين بهم في وظائف الدولة ،  
فوصلوا الى القاهرة في فبراير سنة ١١٧٠ ،  
وعلى رأسهم أبوه السياسي الداهية نجم الدين  
أيوب ، فجعله صلاح الدين على بيت المال ،  
كما جعل بهاء الدين قراقوش مملوك عمه  
شريكوه واليا على القاهرة ، وأقطع اخوته  
وأعمامه وأولادهم اقطاعات الفاطميين الذين  
نقوا الى الصعيد بعد هدم ثورة مؤتمن الدولة .

ويبدو من تطور الحوادث بعد ذلك أن  
نجم الدين جاء الى مصر بتعليمات معينة من  
عند نور الدين وأن قيامه الى جانب ابنه  
يوسف ضاعف من حركة هذا التطور فأعقب  
وصوله الى القاهرة مثلا تأسيس مدارس  
(كليات) لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ،  
وبذا بدأت مناهضة فقه المذهب الشيعي  
ومراكزه الرسمية . ثم أخذ صلاح الدين في  
ازالة كثير من مظاهر المذهب الشيعي في  
الآذان ، كما أخذ في اضافة أسماء الخلفاء  
الراشدين في الخطبة ، فضلا عن الدعاء  
للسلطان نور الدين بعد الخليفة العاضد . ثم  
حدث أن مرض الخليفة العاضد فاتفق صلاح  
الدين مع أبيه أيوب على استغلال ذلك بقطع  
اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة واحلال اسم  
الخليفة العباسي محله في أحد جوامع القاهرة ،  
وتم ذلك في الجمعة الأولى من شهر المحرم  
سنة ٥٦٧ هـ ( ١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م )  
وتقرر أن يعم ذلك أنحاء القاهرة في الجمعة  
التالية ، لكن العاضد لم يمتد به أجله الى هذا  
الميعاد ، اذ مات خلال الأسبوع الواقع بين  
هاتين الجمعتين ، وسقطت الدولة الفاطمية  
سقوطا صامتا بعد قيامها في مصر قرنين ونصف  
قرن من الزمان .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر  
أصداء كثيرة في الشرق الأدنى كله ، فأرسل  
الخليفة المستضيء العباسي لنور الدين بسيفين  
أحدهما رمزا لسيطرته على الشام بما في ذلك

دمشق ، وثانيهما رمزا لامتداد سلطانه الى مصر ، على أن يكون نائبه فيها صلاح الدين (على يومي ١٨١ - لينبول ١٩٥ - مذكرات ٣٣) . أما صلاح الدين نفسه فأصبح القوة الكبرى في مصر ، غير أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر المعتبط بمأساة الفاطميين ، فظل مثلاً في دار الوزارة ، ولم ينتقل الى قصر الخلافة حتى لا يثير انتقاله شيئاً من الظنون ، وفتح القصور الفاطمية ، لا ليستولى على ما فيها لنفسه ، بل ليوزع موجوداتها على أتباعه وأنصاره ، وليرسل لنور الدين منها هدية ضخمة . وأما أبناء البيت الفاطمي وأقاربهم فأودعهم صلاح الدين دوراً مختلفة ، ومنع الاختلاط بينهم بتحديد اقامتهم .

ثم عكف صلاح الدين على التمكين لنفسه نهائياً في مصر ، وضاعف من جهوده في مد سور القاهرة حتى غدا محيطاً بالفسطاط والقطائع والعسكر ، وبدأ في تشييد القلعة على الطرف الغربي من جبل المقطم ، لتكون مشرفة على جميع أجزاء هذا السور ، وأنفذ حملة الى برقة ، وأتبعها بحملة ثانية الى فلسطين لتأمين الدولة التي أزمع انشاءها في مصر وتقويتها عسكرياً واقتصادياً ، ولم يشأ أن ينتظر قدوم نور الدين الى فلسطين ، بل قفل راجعاً الى مصر اجتناباً للقائه .

وبدأ الشك يساور نور الدين بسبب هذه الحركات الداخلية والخارجية ، وشاع في الأوساط الصديقة والمعادية للأيوبيين في

القاهرة ودمشق وحب أن نور الدين يوشك أن يسير الى مصر على رأس حملة كبيرة يؤكد بها تبعية مصر وصلاح الدين للدولة النورية أو يقوم بعزل صلاح الدين ، واستدعت هذه الأشاعة مجلساً جمع بالقاهرة أبناء البيت الأيوبي وأقاربهم وخواصهم ، وأوردت المراجع العربية محضراً بما دار في ذلك المجلس ، وفيه دلالات على ما جال في قلوب الزعامات الأيوبية من مختلف النيات المعقودة على تكوين دولة للبيت الأيوبي في مصر أو في غيرها من بلاد الشرق الأوسط . وهو على أية حال يشرح نظرية المقرئ في تكوين الدولة الأيوبية ، ونصه : « وفيها ابتدأت الوحشة بين .. نور الدين .. وصلاح الدين .. وعزم (نور الدين) على دخول مصر وقلع صلاح الدين منها فبلغ ذلك صلاح الدين ، فخاف وجمع أهله وخواصه واستشارهم ، فقال تقي الدين عمر ابن أخيه : « اذا جاء (نور الدين) قابلناه كلنا ، وصددناه عن البلاد » ووافقه جماعة من أهله على ذلك . فسبهم نجم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأى ومكر وقال لابن ابنه تقي الدين : « اقعده ، وسبه . والتفت الى ولده .. صلاح الدين ، وقال : « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمي خالك . أتظن في هؤلاء من يحبك ويريد الخير لك أكثر منا ؟ قال « لا » ، فقال (نجم الدين) : والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ، وتقبل

غير أنه يبدو أن صلاح الدين لم يطمئن الى هذا الموقف السالب ، فعاد الى عمليات تأمين مركزه داخليا وخارجيا ، بل تنبىء بعض هذه العمليات عن تفكيره في الانتقال عن مصر الى غيرها من البلاد المجاورة اذا أخفقت مشروعات تكوين دولة أيوية في القاهرة ، مثال ذلك تقريره غزو بلاد النوبة وارساله حملة كبيرة الى تلك البلاد بقيادة تورانشاه وهو أكبر اخوته . وسار تورانشاه الى أسوان أواخر ١١٧٢ ، وزحف جنوبا حتى استولى على ابريم ، ثم عاد الى مصر بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للأغراض التي تفيهاها صلاح الدين . ومثال ذلك تقرير صلاح الدين ارسال حملة بقيادة أخيه تورانشاه أيضا لمحاولة فتح اليمن ، حيث تكلفت هذه المحاولة بالنجاح أواخر سنة ١١٧٣ . وأما من الناحية الداخلية فإن صلاح الدين استطاع أن يهدم مؤامرة ثانية لاعادة الدولة الفاطمية اذ قضى على هذه المؤامرة وهي في مهدها ، بأن قبض على زعمائها ورئيسهم عمارة اليمنى ، واستفتى العلماء فيهم فأقتوا بقتلهم ، فشنقهم جميعا في أبريل سنة ١١٧٤ . وفي الشهر التالي توفي نور الدين واندرجت الأيام ، كما قال نجم الدين أيوب الذي كانت وفاته في السنة السابقة لوفاة نور الدين .

على أن الجو لم يصبح بذلك خاليا تماما لصلاح الدين ، ولذا لم يعلن استقلاله بمصر مباشرة ، بل عمد أولا الى معالجة الموقف

الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لقلنا . فاذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى السلطان وحده لم يتجاسر على الثبات في سرجه ، وما يسهه الا النزول وتقييل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه . فان أراد عزلك فأى حاجة الى المجيء ؟ يأمر بك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولى البلاد من يريد .» وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا ، فنحن ممالك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم الى نور الدين بهذا الخبر . ثم ان نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له : « أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير ، وتظلمهم على ما في نفسك فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وأسلموك اليه . وأما بعد هذا المجلس فانهم سيكتبون اليه بقولي فاكتب أنت أيضا في هذا المعنى ، وقل له أين حاجة الى قصدي ؟ تجاب يجيء فيأخذني بمنديل يضعه في عنقي ، فانه اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو في شأن » . ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين .

الذى نشأ عن وفاة نور الدين ، وقيام ابنه الطفل اسماعيل فى المملكة النورية الشاملة لدمشق وحلب . ثم كان هناك سيف الدين غازى ملك الموصل ، وهو ابن أخى نور الدين ، ولا بد لصلاح الدين أن يحسب له حسابه وهذا فضلا عن ملك السلاجقة بالروم ( أى آسيا الصغرى ) ، وهو قلعج أرسلان الثانى . على أن صلاح الدين لم ير فى هذا أو ذلك ندا له أو منافسا أو بديلا ، اذ تولدت عنده أنه هو الوارث الكفء لمشاريع نور الدين وسياسته فى تكوين جبهة اسلامية متحدة لمجاهدة الصليبيين ، وأنه هو الذى يستطيع النهوض بذلك العبء المزدوج .

وبدأ صلاح الدين عمله فى سبيل تكوين جبهة اسلامية متحدة بالشام ، حيث كان المحيطون بالطفل اسماعيل بن نور الدين حزينين ، أحدهما دمشقى يريد أن تكون دمشق عاصمة للمملكة النورية ، وتكون اقامة الملك الطفل اسماعيل بها ، وثانيهما حلبى يريد أن تظل حلب عاصمة للمملكة النورية كما كانت منذ نشأتها . وتغلب الحلبيون بمساعدة الصليبيين ، واستنجد الدماشقة بصلاح الدين ، فخفف اليهم بفرقة قليلة من الجند ، وأعلن أن غرضه حماية مصالح الملك الطفل ، ودخل دمشق فى نوفمبر سنة ١١٧٤ . وذهب منها الى حمص ثم حماة ثم حلب ، حيث كان الملك الطفل مقيما . غير أن مدينة حلب أغلقت أبوابها فى وجه صلاح الدين ، فحاصرها حصارا

قصيرا ، ثم ارتد عنها قائما مؤقتا بولاء الشام له ما عدا حلب . وهنا تحرك سيف الدين غازى ملك الموصل ، ولم يكن من المنتظر منه أن يقف صامتا ، على حين صلاح الدين يعلن أنه يعمل لمصلحة الملك الصغير . ولذا أرسل سيف الدين غازى حملة الى حلب لمؤازرة الحلبيين فيما سوف يقومون به من حركات لمقاومة صلاح الدين ، وانضمت هذه الحملة الى الجند الحلبى ، والتقت بجيش صلاح الدين قرب حماة عن بلدة اسمها قرون حماة فى ابريل سنة ١١٧٥ . وأعقب صلاح الدين انتصاره هناك بانتصار ثان على القوات الحلبية الموصلية فى أبريل من السنة التالية (١١٧٦) عند بلدة اسمها بئر التركمان ، ودخل مدينة حلب وعقد مع الملك اسماعيل بن نور الدين صلحا تم فيه الاعتراف بشرعية تملك صلاح الدين على جميع ما بيده من البلاد التى امتدت وقتذاك من مصر الى قرب أطراف القرات .

ومنذ هذه السنة ( أى ١١٧٦ م ) غدا صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر والشام اذ شهدت بذلك معاهدة الصلح بينه وبين الملك اسماعيل بن نور الدين ، كما شهدت به توقيعات وصلت اليه من عند الخليفة العباسى ، وهذا وذلك فضلا عن سك النقود الذهبية والفضية والنحاسية باسم صلاح الدين بمصر والشام . وانصرف صلاح الدين مدة السنوات التالية حتى سنة ١١٨٢ الى أعمال

ثم توفي سيف الدين غازى أمير الموصل في أواسط سنة ١١٨١ ، وتوفي بعده اسماعيل ابن نور الدين في ديسمبر من تلك السنة . واضطربت شئون الهدنة القائمة بين صلاح الدين والأمراء المسلمين ، حين عمد بعض أولئك الأمراء الى مفاوضة الصليبيين ليكونوا يدا واحدة على منع صلاح الدين من الاستيلاء على الموصل أو حلب . وجعل صلاح الدين من هذه المفاوضات سببا للزحف من القاهرة في مايو سنة ١١٨٢ ابتغاء القضاء على جميع أنواع المقاومة ضده تمهيدا لاعلان الجهاد ضد الصليبيين . على أنه لم يشأ أن يكون البادىء بالعدوان ، احتراماً للهدنة المعقودة ، ، فظل بدمشق حتى انتهى أجل هذه الهدنة — في سبتمبر من تلك السنة ، ثم تحرك منها نحو الفرات ، فعبره عند مدينة البيرة وتتابعت انتصارات صلاح الدين في الأراضى الفراتية اذ سلمت له الرها وسروج والرقّة وقرقيسيا ونصيبين وتقدم صلاح الدين أخيرا نحو الموصل في نوفمبر من السنة نفسها ، لكنها استعصت عليه ففضل الاستيلاء على غيرها من المدن مثل سنجار وآمد ، وما زال يعمل فى تلك الأطراف حتى سلمت له حلب فى يونية من السنة التالية .

وأضحى صلاح الدين بعد تسليم حلب أقوى ملوك المسلمين فى الشرق الأوسط وأحسن هو نفسه بأهمية هذا الحادث ، بدليل قوله للمحيطين به وهو صاعد الى القلعة الطيبة ما سررت بفتح مدينة كسروى بفتح

داخلية ، ومنها بداية بناء القلعة وتكميل السور المحيط بالقاهرة وأسلافها من العواصم الاسلامية ، وتجديد بعض تحصينات دمياط والاسكندرية وترميم الأسطول باضافة سفن جديدة . ومن أعمال صلاح الدين فى تلك السنوات كذلك تأسيس المدارس — أى كليات التخصص فى علوم الدين على المذهب السنى — لمناهضة الشيعة التى توطنت بمصر على أيدي الفاطميين ، ومن هذه مدرسة الامام الشافعى والناصرية والقمحية والسيفية بالقاهرة والفسطاط ، والحافظية والسلفية بالاسكندرية ، وبعض هذه المدارس يرجع أصله الى ما قبل أيام صلاح الدين . على أن هذه السنوات التى صرف صلاح الدين معظمها فى أعمال سلمية داخلية لم تخل من أعمال عسكرية وسياسية أهمها بدء اصطدامه بقوى مملكة بيت المقدس الصليبية بقيادة أوناط أمير الكرك وانهزاه أمام تلك القوى عند الرملة سنة ١١٧٧ ، مما كان بمثابة درس نافع للمستقبل . ويبدو أن هذه الصدمة أجنحت صلاح الدين الى فكرة مهادنة الصليبيين مؤقتا ، بدليل عقده سنة ١١٨٠ هدنة لمدة سنتين مع مملكة بيت المقدس ، وعقده هدنة مشابهة فى أواخر تلك السنة مع قلع أرسلان ملك السلاجقة بالروم ، وأمراء الموصل والجزيرة وأربل وكيفا وماردين . ودلت هذه الهدنة الثابتة على مبلغ ما وصل اليه صلاح الدين من مكانة بالشرق الأوسط ولما يفيض على استقلاله بمصر والشام سوى بضع سنين .

هذه المدينة ، والآن قد تبينت أنى أملك البلاد ، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت .. » ..

والواقع أن دولة صلاح الدين بعد تسليم حلب غدت من حيث القوة والسعة والمناعة الحربية أعظم دولة في الشرق الأوسط كله ، كما أضحى اسمه موضع التبجيل العميق ، ومصداق ذلك قول ابن جبير في مذكراته بصدد صلاة الجمعة أن الحجاج حين سمعوا دعاء الخطيب لصلاح الدين « ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بالسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة ، وتخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا لما وهب الله لهذا السلطان العادل ( صلاح الدين ) من الشاء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس » . وليس عجبا أن يشعر صلاح الدين بعد أن صارت له كل هذه التوقعات أن واجبه أضحى متركزا في الجهاد ضد الصليبيين ، وإذا كان ثمة ما يمنعه من الاقدام الكلى على الجهاد حتى وقتذاك كبقاء الموصل وبعض البلاد المجاورة خارجها عن دولته ، فإن صلاح الدين سار لاختضاع هذه البقايا سنة ١١٨٥ ، ولم تنته السنة التالية حتى دخل أمراء الموصل وشهرزور واربل وغيرها في طاعته ، ولم يبق أمامه من كردستان الى السودان سوى مملكة الصليبيين وغيرها من الامارات الصليبية بفلسطين .

وكان صلاح الدين عليما بمواطن القوة والضعف في الأوساط الصليبية ، وذاق مرارة الهزيمة على أيديهم في وقعة الرملة سنة ١١٧٧ ،

كما ذاق حلاوة النصر عليهم في وقعة مرج عيون سنة ١١٧٩ . على أن صلاح الدين لم يشأ أن يجعل مشروع توحيد الجبهة الاسلامية مرهونا بما يأتى به الحوادث من هزيمة أو نصر في ميدان النضال ضد الصليبيين ولذا فضل الانصراف الى شئون توحيد الجبهة الاسلامية ، وجنح سنة ١١٨٠ الى مهادنة مملكة بيت المقدس مؤقتا لمدة سنتين . غير أن عدوا صليبيا أفسد جو الهدنة ، وهو أرناط أمير حصن الكرك ، اذ عمد هذا الأمير في أوائل سنة ١١٨٣ الى القيام بحملة بحرية من خليج العقبة للاغارة على شواطئ البحر الأحمر ، تمهيدا للزحف على المدينة أو مكة . وأرسل العادل أخو صلاح الدين ، وهو وقتذاك والى مصر سفنا مصرية تعقبت السفن الصليبية حتى اشتبكت معها في ميناء الحوراء شمالي ينبع ، وألحقت بها وبجنودها هزيمة فادحة . حدث كل ذلك وصلاح الدين مشغول بأعمال توحيد الجبهة الاسلامية مرهونا بما تأتى به الحوادث من الصليبيين لمدة أربع سنوات تبدأ من ١١٨٥ . وللمرة الثانية كان أرناط أمير حصن الكرك سببا في افساد جو الهدنة القائمة بين الطرفين ، وذلك أنه هاجم قافلة تجارية سلمية وهى تمر على مقربة من حصن الكرك سنة ١١٨٧ فاستولى على متاجرها ، كما احتجز أختا لصلاح الدين كانت على سفر مع تلك القافلة على ما قيل . ولذا أقسم صلاح الدين ايقظان أرناط اذا وقع في يده يوما من الأيام واعتبر حادثة القافلة اعلانا بانتهاء الهدنة وبداية

أوربية لمملكة بيت المقدس ، فضلا عن أنه يصل بها بين مصر والشام . وكان أقرب هذه البلاد من مواقع صلاح الدين وقتذاك مدينة عكا ، فسلمت له في ١٠ يولية ، وكانت شروط التسليم أن يرحل الصليبيون عن البلد اذا شاءوا ، أو يقيموا حيث هم بشرط دفع الجزية المقررة ، فمن شاء الرحيل ضاعت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء البقاء بقيت أملاكه في يده وأسرع الى التسليم بهذه الشروط معظم مدن الساحل شمالي عكا وجنوبها ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية بما في ذلك مدينة بيت المقدس نفسها التي كان تسليمها له بعد حصار قصير ، وكل ذلك في مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر من وقعة حطين . والواقع أنه لم تأت سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية في يد صلاح الدين ، ولم يبق في حيازة الصليبيين سوى أمارتى أنطاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية ، وأهمها صور التي نجحت في مقاومة الحصار لها مرتين ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن التي استولى عليها صلاح الدين ، ووصول حملة صليبية صغيرة اليها وقتذاك .

ومن صور نبعت المقاومة ضد صلاح الدين ، فمنها سارت رسل الى أوربا تستنهض ملوكها لتجيز الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومنها تحركت القوات الصليبية نحو عكا ، لمحاصرتها أملا في استعادتها من صلاح الدين . وغدت عكا منذ أواسط ١١٨٩ م ميدانا لعمليات حربية

العدوان ، وأرسل في طلب الجند من مصر والشام والبلاد الفراتية . وخرج صلاح الدين من دمشق في مارس سنة ١١٨٧ مستعدا للقتال ، فعسكر عند عشتري جنوبي قصر يعقوب ، حيث تلاحقت اليه أجناد مختلف البلاد ، واستقر الرأي بين أرباب مشورته على السير نحو طبرية ، تمهيدا للزحف منها نحو صفورية حيث اجتمعت عساكر مملكة بيت المقدس ، وهى قرية في منتصف الطريق بين طبرية وعكا . على أن الاصطدام وقع أخيرا بين الفريقين عند قرية حطين وهى في منتصف الطريق تقريبا بين طبرية وصفورية ، وذلك في يوم السبت ٤ يولية سنة ١١٨٧ ، وأسفر ذلك الاصطدام عن هزيمة صليبية فادحة ، ذهب فيها معظم جيش مملكة بيت المقدس ، فضلا عن جيوش الامارات الصليبية التي اشتركت في المعركة ، كما وقع فيها ملك بيت المقدس وأرناط أمير الكرك ، وغيرهما أسرى في يد صلاح الدين .

لذلك كانت هزيمة الصليبيين عند حطين بداية النهاية لمملكة بيت المقدس في فلسطين ويكفى للبرهان على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم هذه الواقعة ، ففي اليوم التالى عاد صلاح الدين الى طبرية ، فسلمت اليه قلعتها من غير مقاومة ، وهى التى استعصت عليه بعد استيلائه على طبرية نفسها قبيل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجمات خاطفة نحو بلاد الساحل ، ليقطع بالاستيلاء عليها بما عساه يرد من نجدة

نصف دائرية تقريبا ومركزها حامية أيوبية تحاصرها قوات صليبية ، وهنذ القوات الصليبية يهاجمها صلاح الدين ليفسد عليها. حصارها للحامية الأيوبية المركزية . ثم لم تلبث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة أن وصلت كذلك الى عكا بقيادة رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وانضمت السفن والجند الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية المحاصرة ، وشدت على عكا الحصار من ناحيتي البر والبحر حتى سقطت في يدها بعد حصار طويل حتى أواسط ١١٩١ ( يولية ) أى مدة سنتين مريرتين تخللتها حوادث بطولة حقيقية وقصصية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا عن الشرق الى بلاده بعد سقوط عكا ، على حين بقى رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا سنة كاملة بالشام ، وجعل من عكا قاعدة لاستعادة مملكة بيت المقدس . وفي هذه المدة استطاع رتشارد أن ينتصر على صلاح الدين مرة واحدة في أرسوف ، وأن يستولى على يافا ، غير أنه أخفق في جميع محاولاته للزحف ضد بيت المقدس . ولم تغير أعماله الحربية كلها شيئا من مجرى الحوادث . لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهودا لا تستطيع حملة واحدة أو شخصا واحدا أن تمحوه في بضعة أشهر ، ومن الدليل على ذلك أن ملك انجلترا عمد بعد انتصاره في

أرسوف مباشرة الى فكرة المفاوضات والمصالحة ، ليصل الى تسوية مرضية لعلها تكفل بقاء دولة صليبية أوروبية بالشرق الى جانب دولة صلاح الدين . واتت هذه المفاوضات بعقد صلح الرملة ( سبتمبر سنة ١١٩٢ ) الذى اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية بين عكا ويافا بيد الصليبيين ، وأن يؤذن لفئات الحاج المسيحي بزيارة بيت المقدس على شرط قدومها من عكا .

ويتضح من هذا الصلح أن صلاح الدين حقق في عهده أقصى ما تطلعت اليه أجيال المسلمين بالشرق الأوسط ، منذ حلول الصليبيين بفلسطين ، وأحسن صلاح الدين وهو في أوجه هذا أن مهمته تحققت فعلا ، غير أن الحروب والجهود التى تجشمها من أجل ذلك أنهكت صحته فأصابه المرض ، وتوفى بدمشق ( مارس ١١٩٣ ) ، ولما يبلغ من العمر سوى خمس وخمسين سنة ، وقبره على مسافة يسيرة من قبر أستاذه نور الدين بن زنكى ، ومن الجامع الأموى .

والباحث لا يستطيع الا أن يشعر بالفراغ الكبير الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، وما يزيد في هذا الشعور أن الدولة الأيوبية المتحدة سرى عليها بعد صلاح الدين ما سرى على أمثالها في العصور الوسطى من تقسيم بين أفراد البيت الأيوبي ، اذ قسم صلاح الدين دولته في وصيته بين أولاده وأخوته وأولادهم . غير أنه لم تمض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى طوى أخوه

أوروبا والشرق أنه لا فائدة من محاربة القوى الإسلامية بالشام ، ما دامت السلطنة الأيوبية قائمة بمصر . وشجعت المدن التجارية الإيطالية على تنفيذ هذا المشروع ، لأن الاستيلاء الصليبي على مصر سوف يمكن لهذه المدن من انشاء جاليات تجارية لها بالموانئ المصرية ، على غرار ما تم لها بالمدن الفلسطينية وسوف يفتح لها الطريق الى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية . ووافق هذا التحول في النشاط الصليبي دعوة البابا انوسنت الثالث ١٢١٦ م لاعداد مشروع حملة صليبية هي المعروفة بالخامسة . وسن تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢١٨ م بوصول أسطول صليبي كبير والغائه الحصار على دمياط . وأسرع السلطان العادل بالقدوم من شمال الشام الى مصر لدفع هذه الحملة الصليبية ، لكنه توفي في الطريق قريبا من دمشق ، وأعقب وفاته تقسيم الدولة الأيوبية مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي ، وكانت مصر من نصيب ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، فوقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط ، ومع هذا أظهر السلطان الكامل روح المسالمة التي سار عليها الأيوبيون عموما نحو الصليبيين منذ أوائل أيام ابنه العادل فعمد الى معالجة المشكلة الصليبية الرابضة بسفنها وجنودها في دمياط ، بمرض المفاوضات والمصالحة مع المحافظة على كرامة الطرفين . وخلاصة ما عرض السلطان الكامل أن

الأكبر وهو العادل هذه الوصية ، وملا هو الفراغ الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، وذلك بعد أن أخضع لسلطاته جميع أبناء البيت الأيوبي ، ووجد معظم أملاكهم تحت يده . وأعلن العادل موقفه هذا سنة ١٢٠٠ ، حين خطى الخطوة النهائية في سبيل توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ، بخلع حفيد صبي من أحفاد صلاح الدين بالقاهرة ، اذ قال في مجلس من أمراء الدولة « انه قبيح بي أن أكون أتاك صبي ، مع الشيخوخة والتقدم . والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب .... والرأى أن يمضى هذا الصبي الى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فاذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره وقمت بمصالحته» . وامتد عهد العادل في الدولة الأيوبية ثمانى عشرة سنة ( ١٢٠٠ - ١٢١٨ ) وظلت السلطنة بيد أولاده دون غيرهم من أبناء البيت الأيوبي ، ولذا كان تاريخ الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، ثم بعد العادل كذلك ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى انتهت الدولة الأيوبية المتحدة سنة ١٢٥٠ . وتأثرت بهذه المنازعات الداخلية سياسة الدولة الأيوبية نحو الصليبيين ، فلم يستطع سلاطينها القيام بجهود مشابهة لما قام به صلاح الدين ، بل عمدوا الى سياسة المسالمة رغبة في تجنب البلاد ويلات الحروب . وفي هذه السنوات تحول النشاط الصليبي نحو مشروع الاستيلاء على مصر بالذات ، اذ اعتقدت الزعامات الصليبية في

نياهم البليدة ، لأنهم لم يصلوا الى قرارهم هذا الا بعد ثمانية عشر شهرا من تفكيرهم فيه . وقبالة بلدة طلخا ، وشمالى المعسكر الأيوبي عند بحر أشموم طنح ، توقفت القوات الصليبية فى البر والبحر استعدادا لدفع الأيوبيين الى الورا ، وازالتهم عن الطريق الى القاهرة . غير أن السلطان الكامل أمر بفتح كثير من السدود والجسور ، ففرقت مساحات شاسعة من الأراضى ، ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تعوقهم عن التقدم الى الأمام ، وتعزلهم عن قاعدتهم العسكرية بدمياط ، ما عدا طريقا ضيقا عند بلدة أشموم طنح . هكذا انحصر الصليبيون ، وذهبت آمالهم فى الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم يبق لهم محيص الا أن يشقوا لأنفسهم طريقا شمالا عن قاعدتهم فى دمياط ، واهتبلوا فرصة المستميت للانسحاب فى جنح الظلام فحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصودهم ، ولحقهم هزيمة فادحة . عند ذلك — وليس قبله — رضى الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضى المصرية ، فى غير قيد أو شرط ، أواخر سنة ١٢٢١ .

على أن فكرة معالجة المشكلة الصليبية بالمفاوضة والمصالحة لقيت هوى فى نفس الامبراطور الألماني فردريك الثانى ، ودارت بينه وبين السلطان الكامل مراسلات وصلت الى مرحلة الاتفاق على معاهدة سلمية بين الطرفين ، وجاء الامبراطور فردريك الى فلسطين على رأس قنة رمزية من جنده

يجلو الصليبيون عن دمياط والشواطىء المصرية جلاء تاما ، وان يقدم السلطان للصليبيين مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ، ومعظم المدن الفلسطينية التى أخذها منهم صلاح الدين ، أى مملكة بيت المقدس الصليبية وبلادها كلها تقريبا ، ما عدا بلدين صغيرتين واقعتين عند الأطراف المصرية الفلسطينية ، وهما الكرك والشوبك لما لهما من أهمية استراتيجية ، غير أن الصليبيين رفضوا هذا العرض السخى ، ولو كان غرضهم دينيا فقط لما ترددوا فى قبوله ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصول الديانة المسيحية . أما الأسباب التى دعت الى رفض عرض السلطان فهى أن المندوب البابوى فى المعسكر الصليبي واسمه بلاجيوس رأى أن المفاوضة لا تكون الا بعد هزيمة الأيوبيين ، وأن المصالحة لا تكون الا بعد دفع فدية يتسلمها الصليبيون قبل أن يتحركوا من دمياط . ثم ان المدن الايطالية التى اشتركت فى هذه الحملة بجنودها وأموالها وأطامعها عز عليها أن تكون هناك شروط معناها الجلاء عن دمياط ، وهى وقتذاك الثغر التجارى الهام الذى تستطيع المصالح التجارية الايطالية أن تنفذ منه الى جوف البلاد المصرية .

وفى صيف سنة ١٢٢١ م ، والنيل على وشك الامتلاء بماء الفيضان السنوى ، تحرك الصليبيون من دمياط ، حسبما انعقدت عليه

تجمعت وقتذاك فوق أطراف غرب آسيا حيث الدولة الخوارزمية ، ولم تلبث أن محت هذه الدولة محوا تاما جعل جنودها فلولا ومناسر مبشرة تحاول الدخول في خدمة الراغبين في استخدامها ، كما جعل الشرق الأوسط كله عرضة لما سوف يقوم به المغول من زحف آجل أو عاجل طوعية لمقتضيات حركتهم التوسعية المترامية . وأدخل الملك الصالح أيوب بن الكامل من هذه الشراذم الخوارزمية فئات عدتها عشرة آلاف فارس ، ووصلت هذه الفئات الى الشام ، فهاجمت ضواحي دمشق المعادية ، كما هاجمت مدينة بيت المقدس الصليبية واحتلتها باسم الملك الصالح سنة ١٢٤٤ ، وهكذا اختل التوازن السياسي اختلالا أقلق الدوائر الصليبية في أوروبا والشرق الأوسط من جديد .

ومن باب الأمل في تصحيح التوازن السياسي تصحيحا صليبيا حاسما وصلت الى الشواطئ المصرية حملة صليبية فرنسية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وألقت هذه الحملة مراسيها كما فعلت الحملة الصليبية السابقة خارج دمياط ، وكأنما أراد الملك لويس التاسع بذلك أن يفيد بهذه البداية من تجارب الحملة السابقة ، على حين أنه وقع في معظم أخطائها الى درجة تجعل الكاتب مضطرا هنا الى استعمال تعبيرات متشابهة لوصف حوادث متشابهة في الحملتين .

وكان الملك الصالح بن الكامل مريضا ، لكنه لم يستسلم للمرض بل عكف على تجهيز

سنة ١٢٢٩ ، لتوقيع هذه المعاهدة الفريدة في تاريخ العصور الوسطى . ونصت هذه المعاهدة على أن يسلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتبار ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرية وطريق الحج من عكا الى بيت المقدس ، على أن تظل منطقة المسجد الأقصى فضلا عن بعض المدن الفلسطينية بيد الأيوبيين . وتعهد الامبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك بأن يعمل على منع أية حملة صليبية من أوروبا ، وأن يوقف الأمداد الأوربية عن الامارات الصليبية بأنطاكية وطرابلس ، وأن يكون حليفا للسلطان الكامل . غير أن هذه المعاهدة الكاملة الفردريكية لقيت نقدا مريرا في الأوساط المسيحية الأوربية ، فضلا عن الأوساط الاسلامية في مصر والشام ، مع العلم بأنها ضمنت السلام بين المسلمين والصليبيين لعدة سنين . ومن الدليل على ذلك أن حركة أو حملة صليبية كبرى لم تحدث برغم ما انتشر من أخبار النزاع والتخاصم فيما بين أبناء البيت الأيوبي بمصر والشام ، وبرغم وفاة السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ ، واضطراب أحوال الدولة الأيوبية مدة الملك الصبي العادل الثاني بن الكامل ، وهو الذي خلعه أخوه الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٠ م .

غير أن خلو الأفق السياسي من سحب صليبية كبيرة لم يكن معناه سلام عام دائم في الشرق الأوسط ، وذلك أن غيوما مغولية

الدولة ريثما يصل ولي العهد الى مصر ، فاطمان الصليبيون الى سرعة النصر الذي شاءته لهم المقادير . وأخيرا استطاع الملك الفرنسي أن يصل بالجيش الصليبي الرئيسي الى بلدة البرمون الواقعة على البحر الصغير ، وأصبح هذا البحر فاصلا بين المعسكر الأيوبي الممتد من أشموم طنح الى قرية جديدة وبلدة المنصورة وبين المعسكر الصليبي المترکز في البرمون وتناوش الجيشان من هذين الموقعين مدة شهرين ونصف شهر — أى حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠ . وكان الملك الفرنسي في هذه الأثناء مشغولا بأقامة جسر من الخشب في عرض البحر الصغير ليعبر منه الى المعسكر المصرى الأيوبي ، غير أن هذا المشروع غدا مستحيل التنفيذ ، ووقف العمل فيه بعد أن جاء أحد الخونة الى المعسكر الصليبي وأرشد الملك الى مخاضة لعبور جيشه منها الى مواقع الجيش الأيوبي . وعبرت الطلائع الصليبية ذات يوم قبل الفجر بقيادة أخى الملك ، وتقدمت حتى هجمت فجأة على المعسكر الأيوبي في جديدة . واشتبك الطرفان اشتباكا عاما مات القائد فخر الدين قتيلًا فى أوائله وتقهقرت الجنود الأيوبية الى المعسكر الرئيسى بالمنصورة ، ووراءها الطلائع الصليبية ، وظن أخو الملك الفرنسى أن النصر الصليبي السريع أضحى قاب قوسين أو أدنى ، غير أنه لم يلبث أن رأى ظنه فى النصر السريع يخيب كل الخيبة ، اذ دخل بلدة المنصورة فوجدها خالية من المقاومة ، ثم لم يكده يقترب

قواته فى البر والنهر ، فجمع جيوشه أولا عند بلدة أشموم طنح جنوبى البحر الصغير ، وكان معظمها من المماليك الأتراك ، وجعل مركز قيادته فى بلدة المنصورة التى غدت مشهورة بانتصار أبيه الكامل على الصليبيين فى الحملة السابقة . وأكثر الملك الصالح فى تموين دمياط بالأسلحة والأقوات استعدادا لما عساه يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب مقاومة طويلة ، وأنفذ القائد فخر الدين بن حمويه بجزء من الجيش للنزول على البر الغربى قبالة دمياط نفسها على البر الآخر . غير أن القائد فخر الدين كان مشغولا بفكرة احتمال وفاة الملك الصالح ، وضرورة وجوده هو قريبا من المعسكر الأيوبي ليشترك فى المؤامرات والمنافسات التى تتلو أخبار الوفاة ، وانسحب بعسكره الى أشموم طنح ، وبات مدينة دمياط محرومة من الجيش المكلف بحراستها ، ولم تلبث أن رحل عنها أهلها جافلين . ولذا دخل الصليبيون دمياط دون حاجة الى قتال أو حصار ، واستولوا على ما فيها غنيمة باردة .

ثم استقر رأى الصليبي على الزحف جنوبا نحو المنصورة ، وخرجت الجيوش الصليبية من دمياط فى نوفمبر ١٢٤٩ . وبينما الصليبيون فى أول زحفهم جنوبا توفى الملك الصالح ، فترأى للملك لويس التاسع أن المقادير فى مشيئتها كتبت للصليبيين نصرا سريعا ثم تمخضت الأخبار عن قيام زوجة الملك الصالح واسمها شجر الدر على شئون

من القصر الملكي حتى أحاطت بجيوشه حركة تطويقية متفق عليها . وبذا انقلب النصر الصليبي عند جديلة الى هزيمة طامة عند المنصورة ، حيث بلغ عدد قتلى الصليبيين ما يقرب من ألف وخمسمائة في بضع ساعات ، وهو معظم عدد الطلائع الصليبية .

أما الملك الفرنسي فعبر البحر الصغير ، وتقدم استعدادا لما سوف يقوم به الجيش الأيوبي من حركات هجومية . ومنذئذ حمى القتال بين الفريقين ، وتبادل الأيوبيون والصليبيون النصر والهزيمة ، وظل المعسكر الصليبي في مواضعه خارج المنصورة ، أملا في أن يدب النزاع في المعسكر الأيوبي بين السلطانة شجر الدر وولى العهد تورانشاه عند وصوله الى مصر . لكن نزاعا لم يقع في الصورة أو في السرعة التي تظامن اليها الملك الفرنسي ، بل وصل الملك الجديد الى المنصورة وتسلم زمام الموقف ودل على مهارة فائقة بما اتخذ من تدابير حربية متنوعة . وكان أول هذه التدابير أن أمر تورانشاه باحضار أسطول من السفن الخفيفة ، وحملها وهي مفصلة على ظهور الجمال الى مكان بعيد شمالي المنصورة ، حيث تم تركيبها وتقويمها في النيل واستخدامها لمنع المراكب الصليبية الواردة بالمؤن من دمياط من الوصول الى معسكر الصليبيين . واستطاع هذا الأسطول أن ينهض بهذه المهمة ، وباتت الجيوش الصليبية مهددة بالمجاعة . ثم لم تلبث المجاعة أن أعقبتها الأمراض الوبائية

الخبثية ، ولا سيما حمى التيفوئيد التي اشتعلت في المعسكر الصليبي اشتعالا مميتا . ولذا جمع الملك الفرنسي مجلس قادة جيشه ، وقرر معهم وجوب التقهقر الى دمياط ، على أن تكون عودة المرضى والجرحى على المراكب الصليبية الباقية في النيل ، وأن تكون عودة الجيش عن طريق البرمون وفارسكور . وبدأت هذه الحركة التقهقرية في البر والنهر أوائل أبريل سنة ١٢٥٠ ، وكانت هذه البداية مؤذنة للمعسكر الأيوبي أن تخرج من المنصورة لمطاردة الصليبيين وعرقلة تقهقرهم . ثم لم تلبث هذه العملية أن انقلبت من مطاردة وعرقلة الى حركة تطويقية غرضها الاحاطة بالجيوش الصليبية واجبارها على التسليم وتراعات الهزيمة المحتمومة للملك الفرنسي وهو يعالج آلام المرض بالحمى وقتذاك ، ولا يكاد يستطيع الجلوس على ظهر فرسه ، ولذا رضى بالتسليم قبل فوات الأوان . وجاءت طائفة من الجند الأيوبي فحملت الملك الفرنسي أسيرا مكبلا في السلاسل الى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيها ابراهيم بن لقمان ، وهي دار لا تزال قائمة بشارع الحوار بالمنصورة الحالية . ثم اتفق الطرفان على أن يجلو الصليبيون عن دمياط جلاء تاما ، وأن تبحر السفن الصليبية عن الشواطئ المصرية في سرعة ، وأن يتعهد الملك بدفع فدية مالية تعين مبلغها وموعد دفعها وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه ، وكل ذلك مقابل اطلاق سراح الملك وكبار الصليبيين ، فضلا

عن عامة الأسرى الذين تم الاتفاق كذلك على إطلاق سراحهم بعد الوفاء بآخر قسط من أقساط الفدية الملكية .

ثم كان زوال الدولة الأيوبية بعد هذه الحوادث التي ظهرت فيها بسالة مماليك السلطان الصالح وشجاعة زوجه شجر الدر ومهارة خلفه تورانشاه . ذلك أن تورانشاه أساء الظن بمماليك أبيه ، وهم أصحاب الفضل في وقعة المنصورة ، واعتقد أنهم يعملون مع شجر الدر على خلعهم ، فأخذ يضايق شجر بمختلف الوسائل ، ويتهمها بجيازة أموال أبيه وإخفائها عنه ، ودبر مؤامرة للفتك بها وبزعماء المماليك . غير أن هؤلاء سبقوه الى مثل ما دبره لهم ، إذ قتلوه شر قتلة في فارسكور سنة ١٢٥٠ . وهكذا كانت نهاية الدولة الأيوبية في مصر .

ربما يتبادر للذهن هنا أن تاريخ الدولة الأيوبية لا يعدو أن يكون تاريخا لتكوين جبهة اسلامية متحدة ، واستخدام صلاح الدين لما تأدى له بتلك الجبهة المتحدة من قوة عسكرية هدم بها مملكة بيت المقدس الصليبية تقريبا وهذا وذاك صحيح في جملته وتفصيله ويدل عليه ما تحقق لمعظم سلاطين الأيوبيين منذ أيام صلاح الدين الى أيام تورانشاه من توفيقات في ميادين الحرب والسلام وما بينهما من دبلوماسية ماهرة اشتهر بها السلطان العادل صاحب الفضل في معاهدة البندقية التي أبعدت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن مصر ، والسلطان الكامل صاحب المعاهدة

الكاملية الفرديكية التي عطلت مشروعات الصليبيين لمدة عشر سنين ولدينا من الوثائق المنقولة من متحدرات القاضى الفاضل ما يساعد على تقدير أعداد القوات البرية والبحرية التي استعان بها صلاح الدين في أعماله الحربية المختلفة وتقدر القوات البرية مثلا بما لا يقل عن خمسة عشر ألف فارس من الأتراك والأكراد ، وأولئك عدا جيوش الشام والجزيرة ، وعربان الأقاليم المصرية والشامية . واشتملت القوات البحرية على سفن متنوعة عدتها خمسون سفينة لحماية السواحل المصرية والشامية ، وثلاثون لأعمال الهجوم البحرى على موانئ الصليبيين . وتنوعت هذه السفن ، فكان منها الشينى والغراب والطريدة والحراقة والشلندية والبطسة والحمالة ، والمركوش والقوقل وجرى الاصطلاح على تسمية رجال هذه السفن باسم رجال الأسطول ، كما بلغ من عناية صلاح الدين بشئون البحرية ما جعل لها ديوانا خاصا سماه ديوان الأسطول .

واعتمدت نفقات هذه القوات البرية والبحرية ، كما اعتمد جزء كبير من نفقات الدولة عموما ، على تنظيم اقطاعى أحله صلاح الدين بمصر والشام محل نظام الرواتب والأعطية ، أسوة بالسلاجقة والزنكيين قبله لذا صارت الأراضي كلها اقطاعات للسلطان وأبناء البيت الأيوبي وأمراء الدولة الأيوبية وأجنادها . وانقسمت هذه الاقطاعات الى نوعين ، وهما الاقطاعات الادارية التي اختص

فصلى الربيع والصيف حين تغدو ملاحه العصور الوسطى فى البحر الأبيض المتوسط أقل تعرضا للأخطار .

وجلبت هذه السفن وأشباهاها من أوروبا الى ميناء الاسكندرية وسائر الموانى المصرية والشامية كميات كبيرة من الفراء والجوخ والقطران والحديد والأخشاب والأسلحة ، وذلك رغم تحريم المرسومات البابوية على التجار أن يتاجروا مع مصر فى المواد الحربية التى يمكن استخدامها فى أغراض حربية . وأغفل التجار الأوربيون — ومعظمهم من البنادقة والبيادنة والجنوية هذه الموسومات ، لأنهم اشتروا بأثمان بضائعهم هذه بضائع شرقية غدت الأسواق الأوربية التى تطلبها بكميات متزايدة سنة بعد أخرى ، وأهمها القفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والنسد والكافور والعاج والبخور والشمر والنيلة واللؤلؤ والزمرد والشب والنظرون والأقمشة الرقيقة والمنسوجات الكتانية والحربية الموشاة بالذهب والفضة والبسط والسكر والحلوى .

وأتجت مصر جزءا كبيرا من هذه السلع المعدنية والصناعية فأخرجت مناجمها الزمرد من قرب قوص ، والشب من قرب أسوان والواحاح والنظرون من وادى النظرون ومنخفض الخطارة ، كما أخرجت مراكزها الصناعية فى تيس ودمياط والاسكندرية وديق أنواع المنسوجات ، فضلا عن المعاصر التى أتجت كميات وفيرة من السكر بالوجه القبلى .

بها السلطان وأبناء البيت الأيوبى وكبار الأمراء والموظفين وكل من هذه يتفق عادة مع وحدة اقليمية ادارية ، ثم الاقطاعات الحربية التى يمنحها السلطان مقابل ما يؤديه المقطع للدولة من خدمات حربية باقتناء عدد من الفرسان وتقديمهم للجيش العامل زمن الحرب ، ولم تكن هذه الاقطاعات بنوعها وراثية ، بل قلما ظل الاقطاع فى يد واحدة مدى الحياة ، وكفى دليلا على ذلك أن الوظائف الكبرى كانت مربوطة الى اقطاعات معينة لا تتغير ، فاذا انتقل صاحب وظيفة ما الى وظيفة أعلى انتقل بذلك الى اقطاع جديد ، وهكذا .

وبالإضافة الى التنظيم الاقطاعى وموارده التى استمدت الدولة منها جزءا كبيرا من نفقاتها ، اعتمدت الدولة كذلك على عدة منابع مالية أخرى ، وأهمها الخراج المتحصل من الأراضى المزروعة ، وخراج المعادن مثل الزمرد والشب والنظرون ، وأموال الزكاة التى أنشأ صلاح الدين من أجلها ديوانا خاصا ، وأموال الخمس المفروض على المتاجر الأجنبية الواردة من أوروبا الى دمياط والاسكندرية ، وأموال المكوس المرسومة على البضائع التى يجلبها التجار الكارمية فى البحر الأحمر الى عيذاب والقصير والطور والسويس .

ونشطت التجارة فى ذلك العصر الأيوبى نشاطا دل عليه أن أعداد السفن التجارية الأوربية الراسية فى ميناء الاسكندرية وحدها بلغت فى شتاء سنة ١١٨٨ م سبعا وثلاثين سفينة ولا بد أن هذه الأعداد زادت كثيرا فى

هذه الأحمال في الطريق بسبب اعياء الابل  
الحاملة لها بقيت مطروحة لا حارس لها حتى  
ينقلها صاحبها مصنونة من الآفات والسرقات ،  
تنويها بأحوال الأمن والرخاء الاقتصادي في  
مصر زمن السلطان صلاح الدين غير أن هذه  
العبارات الوصفية الدالة على مركز مصر في  
تجارة الشرق زمن الأيوبيين لم تخل من نقد  
مرير لأعمال رجال الديوان ( الجمرک ) في  
مختلف الموانى والمدن ، لأنهم لم يميزوا أحيانا  
بين الحاج والتاجر ، فيفحصوا متاع هذا  
وذاك بحثا عن المال ، ويفرضوا الزكاة على  
ما يجدونه ، سواء حال عليها الحول أو لم  
يحط ، مع العلم بأن صلاح الدين أبطل  
المكوس على الحجاج ، وهى سبعة دنانير  
ونصف دينار من الدنانير المصرية يدفعها  
الحاج الواحد عن نفسه بعيداب أو جدة ،  
برسم ميرة مكة والمدينة .

وكان الغاء هذا المكس الثقيل جزءا من  
عملية سياسية ضخمة استهل صلاح الدين بها  
عهده من باب الدعاية الطيبة لدولته السنوية  
وللتخفيف عن كواهل الناس . ولذا بلغت عدة  
المكوس التى ألغاهها صلاح الدين مرة واحدة  
في مرسوم واحد خمسين مكسا ، قيمتها مائة  
ألف دينار سنويا ، أى مليون دينار في عشر  
سنوات ، ذلك فضلا عن كميات هائلة من  
الغلال التى سامح بها ، وأبطل تحصيلها من  
المستحقة عليهم . ومن هذه المكوس ما كان  
معروفا باسم مكس البهار ، ومكس البضائع  
والقوافل ، ورسم الخشب الطويل ، ورسم

على أن الظاهرة الكبرى التى استقامت  
لمصر في هذا الميدان التجارى هى كونها  
المستودع الدولى العام لتجارة متاجر الغرب  
والشرق ، فكما تكدست البضائع الأوربية فى  
الموانى المصرية الشمالية ، امتلأت موانئها  
الجنوبية على نهر النيل والبحر الأحمر بحركة  
تجارية فيها من كميات البضائع الشرقية ما جعل  
الطريق النهري من القاهرة الى المنيا ومن المنيا  
الى أسيوط وقوص وعيداب ، أشبه بشئ  
بطريق الامبراطورية البريطانية الى الهند فى  
القرن الثامن عشر الميلادى . ووصف ابن جبير  
هذا الطريق الدولى العظيم وصف حاج ناء  
بشئون الحج والتقوى عن شئون المتاجر  
والأموال والمكوس ، اذ تنقل بين مراحل حتى  
عيداب ، فوصف قوص مثلا بأنها كانت مدينة  
حفيلة الأسواق متسعة المرافق لكثرة الصادر  
والوارد إليها من التجار المصريين والمغاربة  
واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ،  
كما وصف عيداب بأنها كانت من أحفل مراسى  
الدنيا فى العصور الوسطى ، بسبب أن مراكب  
الهند كانت تهبط إليها وتقلع منها ، وهذا  
فضلا عن مراكب الحجاج الى جدة ، وهى  
التى كانت تسمى الجلاب ، وواحدتها جلبة .  
وشهد ابن جبير من قوافل البضائع فى هذا  
الطريق ما أعجزه عن الاحصاء ، ولا سيما  
القوافل العيذاوية المحملة بسلع الهند الواصلة  
الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيداب ، وخيل  
إليه أن أحمال الفلفل والقرفة فى هذه القوافل  
توازى التراب فى كثرة كمياتها ، فاذا تعطلت

التفتيش وسمرة الكتان ، ومربعة العسل ، وغير ذلك من المكوس المثيرة للسخط . أما معنى هذه السياسة الضريبية الحكيمة فهو أن المجتمع الأيوبي المصري تمتع بكثير من الرخاء الاقتصادي سواء من ناحية هذه الاعفاءات العامة من المكوس ، أو من ناحية الحركة التجارية الناشطة في البر والبحر ، ومن ناحية النهضة الصناعية التي تطلبتها حركة التجارة الداخلية والخارجية ، بالإضافة الى ما تطلبته الجيوش البرية والبحرية من أنواع الملابس والأسلحة والسفن والأطعمة .

ويبدو أن هذا الرخاء الاقتصادي ظل صفة للمجتمع المصري الأيوبي حتى بعد صلاح الدين بدليل المعاهدات التجارية التي عقدها حلفاؤه من السلطان العادل فصاعدا مع الجمهوريات الإيطالية والامبراطورية ، وبدليل انعدام ثورات الفلاحين في العصر الأيوبي كله ، وهذا وذاك فضلا عن دليل ثالث هو استطاعة القوات المصرية الأيوبية أن تتغلب على حملتين صليبيتين كبيرتين ، وهما الحملة المعروفة بالخامسة بقيادة حنا برت ، والحملة المعروفة بالسادسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

وللدولة الأيوبية آثار روحية عميقة في الحضارة الاسلامية في مصر والشام ، نتيجة انتقال الحكم من الفاطميين الشيعة الى الأيوبيين السنيين ، وأول ذلك ما عمده اليه صلاح الدين وحلفاؤه من تعطيل معاهد الدعوة الشيعية ومذاهبها ، وتأسيس المدارس

السنية بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وغيرها من المدن الكبرى . وأهم هذه المدارس التي رادفت الواحدة منها الكلية الجامعية في العصر الحاضر ، المدرسة الناصرية الصلاحية التي بناها السلطان الناصر صلاح الدين بجوار مسجد الامام الشافعي لتدريس فقه الشافعية خاصة . وهذه المدرسة زارها ابن جبير قبل أن يكتمل بناؤها الفسيح الأنيق ، ووصفها بأنها لم يعمر بالشرق الأوسط مثلها من حيث المساحة والبناء ، حتى انه ليخيل لمن يتطوف عليها بأنها بلد مستقل بذاته ، وبازائها الحمام والمسكن للطلاب ، الى غير ذلك من المرافق . ولقى ابن جبير شيخ هذه المدرسة الناصرية الصلاحية ، وهو نجم الدين الخبوشاني ، ولم يلق من كبار رجال مصر غيره ، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضي الفاضل ، وهم أصحاب الفضل الأول في اقامة الدولة الأيوبية .

على أن هذه المدرسة الناصرية الصلاحية لم تكن أولى المدارس التي أنشأها صلاح الدين في مصر ، كما أن فقه الشافعية الذي اتخذه مذهباً رسمياً للدولة الأيوبية ، وخصص هذه المدرسة لتدريسه ، لم يكن كذلك المذهب السني الوحيد الذي حظى بعناية . والواقع أن أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر هي مدرسة اسمها كذلك المدرسة الناصرية ، بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار ، نسبة الى أحد أعيان الشافعية

هذا الأمير . ومدرسة ابن الأرسوفى ، نسبة الى التاجر غفيف الدين عبد الله بن الأرسوفى . واستمر عدد هذه المدارس الجديدة فى ازدياد ونمو زمن الأيوبيين ، كما تطور التعليم فيها تطورا ملحوظا ، فظهرت المدارس المخصصة لتدريس علم الحديث ونموذجها المعروف هو المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل بن العادل ، وكانت الأولى من نوعها فى مصر ، ولم يسبقها فى هذا التخصص سوى المدرسة العادلية بدمشق نسبة الى السلطان العادل نور الدين محمود ابن زنكى وناحية أخرى من ذلك التطور أن بعض المدارس أخذت تتسع لتدريس فقه الحنابلة ، بحيث صارت هذه المدارس شاملة المذاهب الأربعة ونموذجها المعروف المدرسة الصالحية التى أسسها السلطان الصالح أيوب أواخر أيام الدولة الأيوبية . ولم تقتصر هذه النهضة الثقافية الأيوبية على مصر ، بل تعدتها الى الشام ، بحيث بنيت العادلية الكبرى . وفى هذه المدارس جرى تدريس عدة علوم مساعدة الى جانب الفقه والحديث والتفسير والقراءات والمنطق والحساب فاشتملت برامجها على النحو والبلاغة والهندسة وعلم الهيئة والموسيقى ، على مستويات مختلفة بحسب الحاجة إليها . وامعانا فى هذه النهضة السنية اجتذبت الدولة الأيوبية جماعات من الفقراء الصوفية من مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وجعل السلطان صلاح الدين من أولئك المتصوفة

الذى بدأ التدريس بها ، وصارت تعرف بعد ذلك باسم المدرسة الشريفة نسبة الى الشريف قاضى العسكر الذى درس بها كذلك . وبجوار جامع عمرو بن العاص كذلك قامت المدرسة القمحية التى أنشأها صلاح الدين للفقهاء المالكية ، وعرفت باسمها هذا لأن القمح الذى جاء من أوقافها بالفيوم كان يوزع مباشرة على مدرسيها وطلبتها وأنشأ صلاح الدين كذلك المدرسة السيوفية لمذهب الحنفية ، واشتهرت هذه المدرسة باسمها هذا من أجل أنها أطلت على سوق السيوفيين بالقاهرة وقتذاك .

وامتدت هذه التقوى المشبعة بالحماسة المعمارية الى أبناء البيت الأيوبي وأمراء الدولة الأيوبية وكبار موظفيها ونسائها فأنشأ الملك العادل محمد أخو صلاح الدين المدرسة العادلية ، وأقام أخوه الآخر تقي الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو المدرسة التقوية نسبة الى الأمير تقي الدين نفسه ، كما أنشأ هذا الأمير مدرستين بالفيوم بعد أن صارت بلاد الفيوم جزءا من اقطاعه . وأنشأ القاضى الفاضل وزير السلطان صلاح الدين المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وهى المدرسة التى احتوت على مكتبة بلغت كتبها فيما قيل مائة ألف مجلد فى مختلف العلوم . ومن هذه المدارس كذلك المدرسة الأزكشية الحنفية ، نسبة الى مؤسسها أزكش أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، والمدرسة العاشرية نسبة الى الست عاشوراء زوجة

سكون وخشوع . وعند وصول هذا الموكب الى جامع الحاكم ، يدخل الصوفية مقصورة اسمها وقتذاك مقصورة البسمة ، اشارة الى البسمة المكتوبة في صدرها بحروف ضخمة ، فيصلى شيخ الشيوخ ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس الصوفية ، وتوزع عليهم أجزاء الربعة للقراءة قبل الأذان والخطبة . ثم اذا قضيت الصلاة قام قارئ من قراء الخانقاه ، ورتل بضع آيات من القرآن ودعا للسلطان صلاح الدين ولسائر المسلمين ، وكان ذلك الدعاء بمشابة اشارة لاستعداد الموكب للعودة الى الخانقاه ، حيث يكون الناس في انتظارهم للتبرك بهم .

وبالاضافة الى هذه الخانقاه والمدارس التي غيرت ملامح المجتمع المصرى وطقوسه زمن الأيوبيين اختط صلاح الدين القلعة بالقاهرة وشرع في تسوير القاهرة ومصر بسور واحد من الحجارة ، الراجح أن صلاح الدين بدأ في هذين المشروعين الكبيرين في وقت واحد ، فأراد من بناء القلعة أن يجعل لدولته وحكومته وجيشه سكنا جديدا ، لا صلة له بالقاهرة الفاطمية وقصورها وذكرياتهما ، كما أراد بيناء السور أن يجعل من القاهرة ومصر وحدة حربية واحدة ، بحيث لا يحتاج كل منهما الى حرسية خاصة من الجند . وتعتبر القلعة من الناحية المعمارية أعظم ما بدأه صلاح الدين من منشآت ، ومن المعروف أنه توفي قبل أن يكتمل بناؤه ، وأن خلفاءه من السلطان العادل فصاعدا أضافوا

دعاة للمذهب السنى ، وخصص لهم دورا تسمى الواحدة منها الخانقاه وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، كما شجع كثيرا من المتصوفة المحليين على سكنى الربط والزوايا ليكونوا هداة ووعاظا متجولين بين الناس . وأولى خانقاه أيوبية هى الخانقاه الصلاحية وأصلها دار فاطمية كبيرة اسمها سعيد السعداء بجوار دار الوزارة ، واختار صلاح الدين هذه الدار عمدا فيما يبدو لتكون للفقراء الصوفية ، وجعل لها رئيسا منهم ، وتوقف عليها عدة جهات ، ورتب لسكانها طعاما يوميا ، كما بنى بجانبها حماما خاصا . واتخذ رئيس الصوفية سكان هذه الخانقاه شيخ الشيوخ ، وتولى هذه الوظيفة أولاد ابن حمويه الجوينى مع ما كان لهم من الدولة الأيوبية كلها من الوزارة والامارة وتدير الدولة وقيادة الجيوش وتقديمه المساکر ، على قول المقرئى ، وأشهرهم فخر الدين يوسف الذى قتله الصليبيون في وقعة جديلة قرب المنصورة .

وأضحى لهذه الخانقاه الصلاحية صيت دينى ذائع ، وصار اسمها رمز الصوفية ، وغدا المعتاد في كل يوم جمعة أن يأتى الناس من مختلف البلاد الى القاهرة ليشهدوا صوفيتها ، وهم متوجهون في موكبهم الى صلاة الجمعة بجامع الحاكم الفاطمى ، دون غيره من الجوامع ، ويبدأ هذا الموكب بخروج شيخ الشيوخ من الخانقاه ، وبين يديه خدام الربعة الشرفية وهى محمولة على رأس أكبر الخدام ، والصوفية سائرون وراءهم في

الاتجاه . ولهذا وذلك امتلأت العاصمة الأيوبية بحركة بنائية واسعة ، وشهد الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي زار القاهرة أواخر عهد صلاح الدين ، وظل بها مدة غير قصيرة ، ما نجم عن هذه الحركة البنائية من دور سكنية عالية البناء ، وحمامات عامة رحبية وأسواق مسقوفة .

واتصل عبد اللطيف البغدادي في أثناء رحلته هذه بأعظم رجال الدولة الأيوبية أمثال الوزير القاضي الفاضل ، والكاتب المؤرخ عماد الدين الأصفهاني ، والاداري الشهير بهاء الدين قراقوش ، وكثير غيرهم ممن أسهموا في خلق حركة علمية أدبية كبيرة . وشجعت الدولة الأيوبية بدورها هذه الحركة العلمية تشجيعا واضحا منذ أيام صلاح الدين ، ولذا فمن حق هذه الدولة وسلطينها أن يختتم هذا التلخيص الحضاري الخاطف باستعراض لأسماء العلماء والأدباء ورجال السياسة الذين أتجتهم هذه الدولة ، وهم بالاضافة الى المتقدمة أسماؤهم ، العالم الزاهد نجم الدين الحنوشاني شيخ المدرسة الناصرية ، والأسعد ابن ممتي ناظر الدواوين ، وموسى بن ميمون الطبيب ، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه شيخ الخاقاه الصلاحية سعيد السعداء ، وبهاء الدين بن شداد المؤرخ وزميله شهاب الدين عبد الرحمن المعروف بأبي شامة ، والشاعر العظيم بهاء الدين زهير ، والقاضي جمال الدين بن واصل صاحب التاريخ الحافل بحوادث انتهاء الدولة الأيوبية وبداية عهد سلاطين المماليك .

اليها اضافات انشائية وتدعيمية كثيرة ، فبنى العادل الثلاثة الأبراج الكبرى الكائنة بالجانب القبلي ، كما أتم بناء البرجين الكبيرين الواقعين في الركن الشمالي الغربي ثم جاء الكامل فبنى الايوان والقصور السلطانية وباب السر المؤدى اليها ، والاصطبلات وقاعة صاحب الوزير ، وأبراج حمام الزاجل التي غدت مركز البريد بين مصر وسائر بلاد الدولة الأيوبية من أسوان الى حلب ، وخزانة الكتب التي ضمت مكتبة القاضي الفاضل ، ونقل الكامل الى القلعة دواوين الادارة والحكم ، وتحول هو من دار الوزارة الفاطمية التي سكنها صلاح الدين وأخوه العادل بعده الى أحد القصور السلطانية الجديدة . ثم بنى السلطان الصالح أيوب بن الكامل القاعة الصالحة التي أعدت خصيصا لتكون مسكنا سلطانيا بعيدا عن سائر المباني الحكومية . وهكذا صارت القلعة مقر الحكومة والبلاط والجيش في مصر ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي . غير أن هذه المباني الأهلية لم يبق منها سوى أسماء أو موضعها ، وحلت محلها مباني جديدة في العصر المملوكي والعصور التالية .

أما أهمية بناء القلعة والسور فهي أولا : ان تركيز الجهاز الحكومي والاداري والجيش في القلعة جعل القاهرة تنمو نموا جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال الفعلي بينها وبين القسطنطينية ، كما أن امتداد السور الجديد الى النيل من ناحيتها الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك في هذا

# الدولة المملوكية الأولى

للكاتب محمد مصطفى زياده

( ١٢٥٠ - ١٣٨٢ )

وبالإضافة الى هذه التوفيقات الكبرى أسهمت السلطنة المملوكية الجديدة بسهم كبير في تطور الحضارة الاسلامية وثقافتها ، نتيجة انتقال مركز الخلافة من بغداد الى القاهرة ، وهذا فضلا عما أسهمت به من دور فعال في التجارة الدولية منذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى كشف الطريق الى رأس الرجاء الصالح والهند وأمريكا في أواخر القرن الخامس عشر .

والمماليك — كما يدل عليه اسمهم — أرقاء أصبحوا في حيازة أو ملكية غيرهم عن طريق البيع أو المبادلة أو الأسر في الحرب أو المهادة ، أو كجزء من الضريبة المفروضة على أحد الحكام التابعين . ولكن اذا كان كل مملوك في أصله رقيقا فلم يكن كل رقيق من طبقة المماليك . وذلك ان الرقيق في الاسلام اما أسود أو أبيض ، وفق أصولهم والبلاد العديدة التي جلبوا منها . فالنوع الأول كان من الزنوج والسود عامة وخير مثل لهم جماعات الزنج بجنوب العراق في القسرد التاسع الميلادي .

وكذلك الأمير كافور الاخشيدى الذى

لم يكد النصر يحقق على حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٥٠ حتى شهدت مصر قيام سلطنة المماليك ، وهي السلطنة التي شملت في عز أيامها مساحات واسعة تشبه في معالمها الرئيسية الامبراطورية الأيوبية التي سبقتها في الشرق الأوسط . ذلك أن السلطنة المملوكية شملت جميع الأقاليم الحديثة المعروفة باسم مصر وفلسطين وسورية ولبنان ، فضلا عما كان لسلاطين المماليك من سيادة متقطعة على بعض القلاع والمدن في أعالي الفرات والجهات الجنوبية الشرقية من آسية الصغرى وشمال السودان وبرقة والحجاز .

وإذا نجحت السلطنة الجديدة في أن تغلب البيت الأيوبي في الحكم ، فان عوامل هذا النجاح لا ترجع الى النصر الذى أحرزه القادة المماليك على حملة لويس التاسع الصليبية فحسب ، بل الى عوامل باطنة مكنت لهؤلاء القادة من اقامة دولة استطاعت أن تكسر موجة الغزو المغولى في وقعة فاصلة وأن تتزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين في المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية بالشرق .

حكم مصر فيما بين سنتي ٩٦٦ ، ٩٦٨ م .  
أما النوع الثاني وهو الرقيق الأبيض —  
فهؤلاء هم المماليك ومعظمهم في الأصل  
أتراك جاءوا من مختلف أقاليم آسية  
الوسطى ، أوقات السلم والحرب . ثم لم يلبث  
لفظ مملوك أن اتسع معناه حتى شمل جميع  
أنواع الرقيق المجلوب من غرب آسية وكثير  
من أقاليم أوربا ، بما فيها الجهات المحيطة  
بالبحر البلطى .

\*\*\*

تدفق أولئك المماليك على المجتمع الاسلامى  
في أعداد كبيرة تباينت باختلاف البلاد التى  
ينتسبون اليها ، وذلك منذ أيام الخلافة  
العباسية في بغداد عندما أصبح الجيش  
العباسى يحوى أعدادا متزايدة من الرقيق  
الأبيض . ثم كثرت أنواع المماليك نتيجة  
لنشاط حركة التوسع الاسلامى عن طريق  
الفتح والغزو أو التجارة فكان منهم التركى  
واليونانى والصقلبى والكرجى والأرمنى ،  
ولكنهم تباهاوا جميعا بتسمية أنفسهم  
« أتراك » ، من باب اطلاق الجزء الغالب على  
الكل ، ولا سيما بعد أن غدوا أصحاب أثر  
واضح في توجيه السياسة الاسلامية في  
العصور الوسطى ، كما أصبحت حياتهم  
موضع دراسة المؤلفين . ومن أمثلة ذلك ،  
وصف ابن حسون المتوفى سنة ١٠٥٨ للمملوك  
التركى بأنه : « لم يرض الا بأن يساويه سيده  
في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه ، لا يسف

في خدمته الى ما يعف اليه سواء من الحاصلين  
في الرق ، والمجلوبين بالسبى ، ككنس الدار  
وسيامة الدواب ، وما أشبه ذلك مما يستخدم  
فيه سائر الرقيق .. وليس يرضى التركى اذا  
خرج من وثاقه الا بزعامة جيش أو التوسم  
بحجابه أو الرياسة على فرقة ، والأمر والنهى  
على عصبية » .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة في العصور  
المتقدمة والمتأخرة على مدى العناية بتربية  
هؤلاء المماليك وتدريبهم ليصبحوا عماد  
الجيوش التى اعتمدت عليها الدول الاقليمية  
المستقلة في العالم الاسلامى . ومن هذه  
سلطنة السلاجقة ( ١٠٣٧ — ١١٥٧ م )  
اذ اعتمد سلاطينها على هذا النوع من الجند ،  
ووصف وزيرها الشهير نظام الملك (ت ١٠٩٢)  
في مؤلفه « سياسة نامه » مختلف المراحل  
التي يمر بها المملوك منذ دخوله ملكية سيده  
الى وقت عتقه ، حين يغدو حرا ويصبح  
فارسا ، ومن ثم يستطيع أن يرتقى في سلك  
الوظائف العسكرية والسياسية وفي أيام هذه  
السلطنة السلجوقية عم التحول من الاقتصاد  
النقدى الى الاقتصاد الاقطاعى العسكرى ،  
بحيث صار أرباب الوظائف العسكرية  
والادارية — ومعظمهم من المماليك يملكون  
على أساس اقطاعى شخصى حربى .

وسارت الدولة الأيوبية ( ١١٧٤ —  
١٢٥٠ ) التى تفرعت بطريق غير مباشر عن  
الامبراطورية السلجوقية ، على هذه القاعدة  
من حيث الاعتماد على المماليك الى مدى

تفوذهم ، ولا سيما زمن الصالح أيوب بن الكامل ( ١٢٤٠ — ١٢٤٩ ) وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر — ذلك ان الملك الصالح لم يشعر بميل نحو الجند من المماليك الأكراد .

كما انه لم يثق كثيرا في الكاملة وغيرهم من طوائف المماليك الذين دان لهم بمساعدته في الوصول الى السلطنة . ولذا أكثر من شراء المماليك الجدد ، واستوردتهم من مختلف الأسواق ، وان كان معظمهم من الأتراك المتحدثين بالتركية ، وبعد ذلك شيد الصالح أيوب بجزيرة الروضة قلعة لنفسه تطل على بحر النيل . وانتقى من هؤلاء المماليك صفوة لتكون حرسا خاصا له بتلك القلعة . وأطلق التنظيم المملوكي على هذه الفئة اسم المماليك البحرية الصالحة ، تمييزا لهم عن سائر طوائف المماليك الصالحة السابقة واللاحقة ، كتمييز البحرية العادلية وغيرها من طوائف المماليك المشابهة التي عرفها التاريخ قبل قيام الدولة الأيوبية وبعدها .

على أن تسمية هذه الفئة باسم البحرية ليس مصدره بحر النيل ، اذ لصقت هذه التسمية بفئات معينة من المماليك في مصر والشام ، بل في اليمن كذلك زمن الرسوليين ولذا يبدو أن هذا اللفظ جرى على المماليك المجلوين من البلاد الشمالية أو بلاد ما وراء البحار ، وشرح جواتقيل هذا اللفظ شرحا يطابق هذا المعنى تماما ، وهو المؤرخ الفرنسي

النصف تقريبا في تكوين الجيش الأيوبي ، ومن حيث التعميم في التمليك الاقطاعي لأولئك المماليك وغيرهم في مصر والشام وسائر أقاليمها في الشرق الأوسط . ومن الأدلة الباكرة على ذلك ان صلاح الدين أحاط نفسه بمجموعة مختارة من المماليك الذين انتقوا بعناية ودربوا تدريبا فائقا في فنون الحرب . وأخذ هذا النظام المملوكي الاقطاعي ينمو على نطاق أوسع زمن خلفاء صلاح الدين في ممالكهم واماراتهم ، وكانت كل جماعة من المماليك الأيوبيين بنسبتها الى مؤسسها : أميرا كان أو سلطانا ، فالأسدية مثلا نسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وسلفه في السيطرة على مصر ، والصلاحية نسبة الى صلاح الدين نفسه ، وهكذا . وأسهمت هذه الجماعات الصلاحية المملوكية بسهم كبير في حروب صلاح الدين قبل وقعة حطين وبعدها ، وتدل كثرة أسماء موتاهم وجرحاهم على مدى اعتماد هذا السلطان في حروبه وحملاته على جند المماليك الى جانب جنده الأحرار الذين كان معظمهم من الأكراد .

وثمة دليل آخر على ضخامة النفوذ المملوكي في امبراطورية صلاح الدين ، وهو ما تحمله الآثار والمؤسسات الخيرية والأوقاف من أسماء أولئك المماليك بالقاهرة ودمشق وغيرهما من المدن الكبرى في العصر الأيوبي . ثم ترتب على حروب الأمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين لزيادة أعداد المماليك وتضخم

الذى عاش مدة بين المماليك البحرية في مصر .  
ومما يؤيد هذا التفسير أن المؤرخين العرب  
المعاصرين دأبوا على اطلاق لفظ البحرية على  
الجماعات الصليبية الوافدة من وراء البحار .  
ولقى أولئك المماليك البحرية الصالحة  
صدمة الهجوم الصليبي على المنصورة ( فبراير  
سنة ١٢٥٠ ) واليهم يرجع الفضل في انتزاع  
النصر من أياب الهزيمة في وقت كانت مصر  
بدون سلطان بعد أن توفي سلطانها الصالح  
أيوب في نوفمبر من العام السابق . على أن  
حسن الحظ شاء عندئذ أن تمسك بزمام  
الدولة امرأة قديرة ، هي شجر الدر زوجة  
السلطان الصالح أيوب المتوفى ريشا يصل  
إبنة وخليفته تورانشاه من مقره بحصن كيفا  
بأعلى العراق . ثم وصل هذا الابن الى  
مصر ، فسلمته شجر الدر مقاليد الدولة  
ومسئوليات القتال ضد الصليبيين ، على أن  
مقتل تورانشاه ١٢٥٠ م على أيدي زعماء  
المماليك البحرية الصالحة — وهو الحادث  
الذى أنهى الدولة الأيوبية في مصر — أدى  
الى فراغ كان لا بد من الاسراع الى ملئه ،  
قبل أن يفلت زمام الموقف من أيدي أولئك  
الزعماء . ذلك أنه كان بالشام عدد كبير من  
أمراء البيت الأيوبي الذين تطلعوا منذ سنين  
الى الفوز بالسلطنة على مصر . وهذا فضلا  
عن الخوف من مجيء نجدة صليبية حربية الى  
مصر للانتقام مما حل بحملة الملك الفرنسى  
لويس التاسع . ولذا وقع الاختيار على شجر  
الدر لمواجهة الأمراء الأيوبيين الطامعين في

عرش مصر ، باعتبارها زوجة السلطان الصالح  
أيوب ، وربما أيضا كوسيلة لوضع حد  
لأحلام بعض الأفراد الطامعين كذلك في  
الاستبداد بشئون السلطنة ومنهم الوزير  
أبو على الهذباني والزعيم المملوكى اقطاي .  
ثم عرض بعد ذلك منصب أتابكية  
العسكر — وهو من أهم مناصب الدولة —  
على أحد الأمراء الذين ظلوا مغمورين حتى  
ذلك الوقت وهو ايبك التركمانى ، قبله  
وهكذا تم مولد دولة المماليك ( مايو  
سنة ١٢٥٠ ) التى لم تكن في الواقع سوى  
استمرار للدولة الأيوبية في سياستها الداخلية  
والخارجية ، لأن المماليك أنفسهم صنائع  
سادتهم السالفين ، وخبرتهم في شئون  
الحكومة والادارة محدودة في دائرة النظام  
الاقطاعى الذى قام في مصر والشام في العصر  
الأيوبي .

وكان أول اجراء اتخذته السلطنة شجر  
الدر هو انهاء ذيول الحملة الصليبية الفرنسية  
باقرار شروط الفدية التى تم الاتفاق عليها بين  
تورانشاه ولويس التاسع . واستطاعت زوجة  
الملك لويس فى دمياط أن تجمع نصف المبلغ  
المتفق عليه ، وانجحت الحملة الصليبية عن  
الشواطىء المصرية الى عكا بعد قيام الدولة  
الجديدة ببضعة أيام على الرغم من المعارضة  
الشديدة التى لقيتها فى مصر فكرة اطلاق  
سراح الملك الفرنسى .

ثم أخذت شجر الدر تسرف فى توزيع  
العطاءات والمناصب والاقطاعات على جميع

التخلص منه فيما بعد ، ولذا لم تمض بضعة أيام على قيام أيك في السلطنة حتى استقر الرأي بينه وبين بعض المماليك المعادين لأقطاي على اشراك أحد أمراء بنى أيوب في السلطة ، وسواء جاءت هذه الفكرة المفاجئة نتيجة الاحساس بعدم صلاحية أيك أو لمواجهة المعارضة المتزايدة من جانب الأيوبيين ، فموضع الأهمية هو أنه وقع الاختيار على طفل من بنى أيوب اسمه موسى لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ليكون شريكا لأيك في الحكم .

لكن هذه الحيلة لم تنطل على أصحاب الحق الشرعى من أمراء البيت الأيوبي الذين أخذوا يزحفون فعلا نحو مصر ، بزعامة الناصر يوسف أمير حلب ودمشق ، ثم ان فئة من المماليك في القاهرة نفسها اختارت أميرا آخر من بنى أيوب — وهو الأمير المغيث عمر أمير الكرك — ليكون سلطانا على مصر ( سبتمبر سنة ١٢٥٠ ) أما أيك الذى ظن البعض أنه شخص سهل يمكن التخلص منه دون صعوبة فأثبت أنه أكثر مهارة مما تراءى للناس ، اذ أعلن أن مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، وأنه يتولى السلطنة فيها بوصفه نائبا عن الخليفة العباسى . ثم لجأ أيك الى الحيلولة دون أى تقارب بين الأيوبيين الزاحفين على مصر والملك الفرنسى لويس التاسع الذى لم يزل مقيما وقتذاك فى عكا ، بأن أطلق سراح بعض الأسرى

فئات المماليك الذين دانت لهم بوصولها الى منصب السلطنة ، على حين بدأت الهمسات تردد فى القاهرة مستنكرة قيام امرأة فى السلطنة ، على أن حركة خطيرة فى هذا الصدد بدأت من دمشق حيث رفض الجند الأكراد أن يقسموا يمين الولاء للسلطانة المملوكة الجديدة ، وأعلنوا الثورة واستعان هؤلاء الثوار بالملك الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ، وطلبوا منه أن ينهض — وهو سليل صلاح الدين — ضد معتصبى الحكم فى القاهرة . ولذا زحف الناصر يوسف على دمشق التى فتحت له أبوابها ، فقبض على جميع من كان فيها من المماليك . ثم ان الخليفة العباسى فى بغداد لم يقر قيام امرأة فى حكم الدولة الأيوبية ولا سيما انها كانت فى وقت ما من جواريه ، وهذا فضلا عن وجود بعض آراء دينية تنكر قيام امرأة فى حكم أية دولة اسلامية .

لذلك استقر رأى أخيرا فى القاهرة على أن تزوج شجر الدر من أتابك العسكر أيك ، على أن تترك له العرش . وتم الاحتفال بزواج شجر الدر من أيك واعتلى أيك عرش السلطنة المملوكية فى شهر يولية سنة ١٢٥٠ ، وعلى هذا الوجه السعيد انتهت مدة الثمانين يوما التى قضتها شجر الدر فى دست الحكم . على أنه يبدو أن هذا الاجراء لم يرض المماليك وزعيمهم وقتذاك أقطاي ، ولكنهم اعترفوا بأيك مؤقتا لعلهم يستطيعون

عن الأجزاء الساحلية حتى نابلس ، على حين يظل الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت الأيوبي على اماراتهم بسائر فلسطين والشام . وهكذا اجتازت الدولة المملوكية العقبة الأولى التي اعترضت طريق تأسيسها في القاهرة ، ولو الى حين على الأقل .

على ان اعتماد أيك على المماليك البحرية الصالحية في محاربة الأيوبيين زاد من سلطتهم بحيث صار من الصعب قيادتهم أو خضوعهم لأي شخص عدا زعيمهم أقطاي . ومع هذا ظل أيك حريصا حذرا في تصرفاته نحوهم ، طالما كان الخطر الأيوبي قائما ، حتى اذا انعقدت معاهدة الصلح بينه وبين الناصر يوسف ، أخذ أيك يتحرك في سرعة ، فأبعد الطفل موسى الأيوبي عن منصب المشاركة في الحكم ، وعين مملوكه قطز في منصب نائب السلطنة ، ولم يبق لديه من المنغصات سوى المماليك البحرية . غير أن قيام ثورة العربان ، ومناداة زعمائها بأن المماليك — وقد مسهم الرق — لا يصح أن يحكموا قوما من الأحرار ، جعل أيك في حاجة الى قوة المماليك البحرية الصالحية مرة أخرى . فعهد الى أقطاي باخضاع هذه الحركة الخطيرة التي ضمت أعدادا ضخمة من البدو ، ونجح أقطاي في هدمها في وقعة حربية قرب بلبس ( يونية سنة ١٢٥٣ ) .

لكنه اذا كان النجاح في اخضاع هذه الثورة أدى الى ازالة عقبة أخرى خطيرة

الفرنسيين الذين لم يزالوا بمصر . ومع هذا لم يشأ أيك أن يترك مجالاً لاغراء لويس التاسع أو غيره من الصليبيين فأمر بهدم مدينة دمياط القديمة وتحصيناتها في أكتوبر سنة ١٢٥٠ ، تمهيدا لبنائها من جديد في موضعها الداخلي الحالي ، بعيدة عن ساحل البحر . وفي هذه الأثناء تمت الاستعدادات في مصر لارسال حملة لدفع الأيوبيين الزاحفين من فلسطين الى مصر ، ودارت معركة بين الجانبين قرب الصالحية الحالية ( فبراير سنة ١٢٥١ ) أي داخل البلاد المصرية ، وحلت الهزيمة بالغزاة في هذه المعركة ، ووقع كثير من أمراء الأيوبيين أسرى في أيدي المماليك وان استطاع زعيمهم الناصر يوسف الفرار . على أن أيك لم يقنع تماما بهذه النتيجة ، فأرسل أقطاي لهدم معازل المقاومة الباقية بفلسطين ، حتى لا يتمكن الأيوبيون بعد ذلك من الزحف الى مصر أو اجتياز حدودها في سهولة .

وحوالي ذلك الوقت تراءى الخطر المغولي واضحا في غرب آسية ، فهدد الخلافة العباسية نفسها في بغداد . ورأى الخليفة انه من الأمور الحيوية أن يتناسى أمراء الدول الاسلامية ما بينهم من الخلافات لمواجهة الخطر الجديد ، وعقدت معاهدة ( ابريل سنة ١٢٥٣ ) بين أيك والناصر يوسف بحيث تكون لأبيك مصر وجزء من فلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك بيت المقدس — فضلا

السنوات الواقعة بين ١٢٥٤ — ١٢٥٧ يرقب حركات المماليك البحرية في الشام ، ولجأ الى أسلوبه القديم باعلان تبعيته للخلافة ، وارساله بعثة الى بغداد لطلب الخلع والتقاليد اللازمة ، ثم انه جدد الهدنة مع الصليبيين وحالف الأمير الأرمني الأصل بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل على أن يتزوج ابنته ويتخلص بذلك من سيطرة شجر الدر وتضرعاتها من أجل المماليك البحرية المشردين. غير أن هذه الخطوة الزواجية أثارت شجر الدر التي لم تتوقع أن يصل فكران الجميل بالسلطان أيك الى هذا الحد ، وهو الذي أصبح سلطانا بفضل مساعدتها . وأحست شجر الدر بأن كبرياءها خدشت بعد أن هجرها أيك ليقم في منزل صيفى قرب جهة باب اللوق الحالية . ودبرت مؤامرة للانتقام منه فدعته الى اجتماع للتوفيق والصلح ، ولقى مصرعه في هذا الاجتماع على صورة وحشية في حمام القصر السلطاني بالقلعة ( أبريل سنة ١٢٥٧ ) . وأذاعت شجر الدر أن أيك مات ميتة طبيعية فجأة ، غير أن الحقيقة انكشفت ، فتعرضت هي الأخرى للقتل على صورة وحشية كذلك ، بعد ثلاثة أيام من مقتل أيك .

وإذا تبعنا تاريخ أيك في شيء من التفصيل ، فذلك لأن سنوات حكمه بمثابة اختبار لمقدرة الدولة الجديدة على البقاء . غير أنه لم يكن للصبي على بن أيك أى حق

اعترضت قيام السلطنة المملوكية في مصر ، فان هذا النجاح زاد من خطر أقطاي والمماليك البحرية الصالحية .

وبدا ذلك واضحا عندما أخذ أقطاي ينتحل لنفسه بعض السلطات والشعائر التي هي من حق السلطان وحده ، ومنها ركوبه من داره بالقاهرة الى مقر السلطنة بالقلعة في موكب حافل ، ثم تزوج أقطاي من إحدى أميرات البيت الأيوبي في حماة بالشام ، وطلب من أيك أن يسمح له ولعروسه بالاقامة في القلعة ، على أساس انه أصبح زوجا لسليمة أيوية . وعند ذلك أحس أيك أنه أمام أمر واحد لا ثاني له ، وهو التخلص من أقطاي قبل قوات الأوان ، واستدعاه الى القلعة لبعض مهام الدولة ودبر مؤامرة سريعة لقتله ، وعندما ألقى برأس أقطاي الى أتباعه المنتظرين أسفل أسوار القلعة ، أصاب الذعر فئات المماليك البحرية الصالحية ، فهرب كثير منهم الى مختلف البلاد الخارجية كما قبض أيك على الذين بقى منهم في القاهرة . وهكذا يبدو أن أيك ألقظ سلطنته ولكنه في الوقت نفسه أثار على نفسه مشكلة كبرى بهروب كثير من المماليك البحرية الى بلاط خصومه من الأيوبيين بالشام حيث عاشوا لاجئين سياسيين يحرضون الناصر يوسف وغيره من أبناء البيت الأيوبي على مهاجمة مصر ، فضلا عن اغاراتهم المستمرة على فلسطين والأطراف المصرية . لذلك قضى أيك معظم الثلاث

في وراثة السلطنة بعد أيك في ظل النظام العسكري المملوكي ، ما عدا رغبة من ناحية كبار الأمراء في احترام وصية سلطان راحل ، وذلك حتى يمكن الاتفاق على أن يتولى السلطنة بين أولئك الأمراء أنفسهم ، وعندئذ يتخلصون من السلطان الصبي في غير جلبة أو اضطراب . وتكررت هذه التمثيلية مرة بعد مرة عقب نهاية حكم كل سلطان مملوكي ، فأقام زعماء المماليك ابن السلطان المتوفى مؤقتا ، ثم تخلصوا من هذا الابن بالنفي الى بعض جهات مصر أو الخارج .

وإذا استطاع بعض أولئك الأبناء أن يظل في السلطنة مدة من الزمن ، فلم يكن ذلك راجعا الى اعتقاد المماليك في مبدأ الوراثة ، بل الى عجزهم أحيانا عن الاتفاق على من ينبغي أن تؤول اليه السلطنة من بينهم ، أما مبدأ الوراثة نفسه فلم يكن مقبولا أو معقولا في أوساطهم .

هكذا خلف الصبي على أباه أيك ، وتمين الأمير قطز — وهو أقدم ممالك أبيه — في منصب نائب السلطنة . وظل هذا الصبي سلطانا اسميا لمدة سنتين ، لم يدل في أثنائها على شيء سوى مهارته في ركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة على حين كان قطز يمهّد لنفسه بممارسة السلطات الفعلية في الدولة ، وفي خلال هاتين السنتين بالذات كان الخطر المغولي على أشده في غرب آسيا فسقطت بغداد والخلافة العباسية

على يد هولوكو وجنوده في فبراير سنة ١٢٥٨ واتشرت موجة من الذعر في جميع البلاد الاسلامية المجاورة وبخاصة بلاد الشام حيث أعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق عزمه على مقاومة المغول في أول الأمر واتصل من أجل ذلك بالسلطنة المملوكية ، واستغل نائب السلطنة قطز هذه الحوادث وشرح لمجلس الثورة ان التهديد المغولي سوف يلتهم مصر بعد الشام . وان الموقف يستدعى قيام رجل قوى في الحكم بدلا من صبي قليل الخبرة بشئونه . وبذا خلع السلطان الصبي على بن أيك من السلطنة دون عناء وأعلن قطز سلطانا في ٥ أكتوبر سنة ١٢٥٩ .

ولم يمض شهر على هذا الانقلاب حتى أخذ هولوكو يزحف نحو حلب الأيوبية وسط مظاهر التدمير والسفك ، وشاركته في الاستيلاء عليها في فبراير سنة ١٢٦٠ فرقة عسكرية من عند هيثوم ملك أرمينيا الصغرى ، وبوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبية ، وفي حلب جاءت الأخبار الى هولوكو بوفاة الخان المغولي الأعظم منكوخان ، فاضطر الى الرحيل عن الشام الى المقر المغولي العام في جوف آسيا للمشاركة في اختيار الخان الجديد ، بعد أن أسند قيادة جيشه الى كنبغا وهو أحد المغول الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب النسطوري . ثم لم يلبث كنبغا أن زحف جنوبا نحو دمشق ، وهي كذلك

وبذا أسس قطز سيادة السلطنة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا امارة الكرك الصغيرة التي ظلت بيد أميرها الأيوبي ، وذلك فضلا عما حققه للسلطنة المملوكية من هبة داخلية وخارجية بفضل هذا النصر العظيم ، لأن عين جالوت لم تنقذ مصر وحدها من المغول وقتذاك ، بل أوقدت كذلك أوربا المسيحية التي تعرضت أطرافها الشرقية للخطر المغولي .

على أن قطز لم يلبث أن جوزى على اقتصاره هذا جزءا عكسيا ، اذ وقع فريسة مؤامرة لقتله وهو في طريق عودته الى مصر في أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، على يد صديقه الأمير بيبرس البندقدارى . وأسرع الأمير بيبرس الى دخول القاهرة حيث اغتصب عرش السلطنة وسط مزيج من الدهشة والرعب . ويقال ان بيبرس قام بارتكاب هذه الهزيمة لا لرفض قطز تعيينه على حلب فحسب كما يتواتر في معظم المراجع ، بل تسوية كذلك لثأر قديم يرجع الى مقتسل الزعيم أقطاي وتشريد المماليك البحرية ، وهي حوادث كان للأمير قطز دور هام فيها .

ومن الواضح ان وصول بيبرس الى منصب السلطنة كان معناه عودة تفوذ المماليك البحرية ، ولم يلبث السلطان الجديد ان دل على ذلك كما دل على براعة فائقة في شئون الادارة وقيادة الجيوش خلال حكمه البالغ سبعة عشر عاما ( ١٢٦٠ - ١٢٧٧ ) والواقع

أيوبية ، فانهارت أمامه قوات ملكها الناصر يوسف الأيوبي ، وسلمت له دمشق نفسها أخيرا في مارس سنة ١٢٦٠ . وزحفت بعد ذلك قوات مغولية نحو الجنوب ، وهددت أراضي السلطنة المملوكية في فلسطين ، فهب قطز لملاقاة هذا الزحف الداهم بجيش كبير . واستطاعت طلائع هذا الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى أن تطرد الطلائع المغولية من غزة حيث وصل قطز بعد قليل للزحف فورا نحو الشمال .

أما كتبنا القائد المغولي فوعد الصليبيين في عكا أن يحالفهم ويساعدهم ضد السلطنة المملوكية ، مقابل قيامهم بعرقلة الزحف المملوكي وعدم السماح للسلطان قطز بالمرور شمالا . غير أن الصليبيين لم يأمنوا لوعود المغول واستطاع قطز أن يحصل على حياض عكا الصليبية في هذه الحرب ، وأن يغير بجيشه في غير صعوبة الى منطقة الجليل . ولذا لم يلبث المغول أن فوجئوا بوصول المماليك الى طبرية ، وبفضل هذه المفاجأة تمكن السلطان قطز من انزال الهزيمة بالمغول في وقعة حاسمة عند عين جالوت قرب بلدة الناصرة ، في سبتمبر سنة ١٢٦٠ ، وهي أول هزيمة لحقت بهم في تاريخهم الصاحب منذ أيام جنكزخان ثم أعقب ذلك تفهقر مغولي عام فانجلت القوات المغولية عن دمشق ، وحلب ، على حين عكفت القوات المملوكية على مطاردتها الى ما وراء الفرات .

ان أعمال بيبرس أكسبته لقب مؤسس دولة المماليك ، لأن هذا السلطان قام فعلا بتنظيم جهازها الادارى والحربى على أسس متينة . غير ان اغتصاب بيبرس للسلطنة لم يرق في عين نائب دمشق وهو الذى أعاده قطز الى منصبه بعد طرد المغول ، ولذا رفض هذا النائب أن يعترف بذلك الاغتصاب ، وأعلن نفسه سلطانا في نوفمبر سنة ١٢٦٠ ، ودعا الأمراء الأيوبيين والنواب والمماليك بالنيابات الشامية الى الاعتراف به ، وأرسل بيبرس حملة ضد هذا الأمير الخارج ، فقضت على حركته في سرعة ، وجاءت به الى القاهرة مكبلا بالسلامل ( يناير سنة ١٢٦١ ) بعد أن أقامت محله في نيابة دمشق الأمير علاء الدين البندقدارى ، وهو الذى كان في وقت ما سيد بيبرس ، أى أستاذه الذى اشتراه ورباه على قول المصطلح المملوكى ، وفي تلك الأثناء قامت بالقاهرة حركة من نوع آخر بزعامة رجل من الشيعة اسمه الكوراني ، ونادت بندايات بدت كأنها صدى لثورة العرب أيام أيك فهدها بيبرس هى الأخرى في سرعة كذلك ، اذ قبض على رجالها وزعيمهم الكوراني الشيعى ، وشنقهم جميعا على باب زويلة ( بوابة المتولى الحالية ) .

وامتاز بيبرس في جميع أعماله بسرعة التنفيذ ، كما امتاز في سياسته بالحزم والشجاعة وبعد النظر فضلا عن المقدرة على القيام بعدة أعمال في وقت واحد ، وتصريف

ادارة شئون الدولة أثناء أسفاره الكثيرة من مصر والشام . ووضحت هذه المواهب في بضعة الأشهر الأولى من حكمه ، حيث عمل جاهدا على ترتيب شئونه الداخلية ليتفرغ لمشكلة تطلبت منه جميع ما أوتيته من مهارة سياسية وشجاعة وحزم ، وهى مشكلة الفراغ الذى نجم عن سقوط الخلافة العباسية في بغداد . وتفكير بعض ملوك الدول المجاورة في احياء هذه الخلافة في بلده . ومن أولئك الناصر يوسف الأيوبي حين كان أميرا على حلب ودمشق . اذ حاول استمالة أحد العباسيين الفارين من وجه المغول الى الشام ليعلنه خليفة عنده ، وليستعين به في مقاومة الزحف المغولى بقيادة هولوكو ، غير ان سرعة الحوادث أفسدت عليه محاولته . وقام السلطان قطز بمثل هذه المحاولة بعد أن دخل دمشق ظافرا غداة عين جالوت ، اذ أعلن خلافة لاجىء عباسى آخر . وأمدته بقوات وأسلحة للعمل على استرداد بغداد . وحذا بيبرس هذا الحذو ، أى انه لم يكن مبتكرا لهذه الفكرة ، ولكنه كان صاحب الفضل النهائى في احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ١٢٦٢ . وهكذا استطاع بيبرس أن يجعل مصر قاعدة الخلافة الاسلامية ومحط أنظار المسلمين ، وأضحت القاهرة مركز العالم الاسلامى ، وهى أقرب الى حواضر البلاد الاسلامية من بغداد . لذلك أخذ كثير من علماء المسلمين يفدون الى مدينة النيل ، حيث وجدوا ينايع وافرة من الرعاية

والتشجيع وأحدثوا بمصر نهضة علمية في مختلف الدراسات ، على حين أمسى الخلفاء العباسيون في القاهرة اتباعا لسلطين المماليك .

وحق لبيرس أن يفخر بهذه النتيجة التي جعلت السلطنة المملوكية صاحبة الفضل في احياء الخلافة العباسية ، وأمنت السلاطين على مستقبلهم في الشرق الأوسط وسائر العالم الاسلامى باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها . غير أن مشكلة أخرى عاجلة تطلبت من السلطان حلا عاجلا ، وهى ان المغيث عمر الأيوبي — أمير الكرك — ظل متعلقا بحقه الشرعى في السلطنة بمصر ، بخلاف غيره من أبناء البيت الأيوبي الذين ركنوا الى الهدوء بالشام ورضوا بالعيش في سلام في ظل الحكم المملوكى . وعرف بييرس أطماع المغيث عمر جيد المعرفة منذ لجوئه الى امارة الكرك أيام تشريد أيبك للمماليك البحرية ، واشترك معه في الاغارة أكثر من مرة على الأطراف المصرية . ولذا أسرع بييرس على عادته الى مهاجمة الكرك رغم وساطة الخليفة العباسى ، ولم يلبث أن ألقى القبض على المغيث وأرسله أسيرا الى القاهرة ، حيث اتهم بالاتصال بالمغول والتآمر معهم ، وحكم باعدامه في أبريل سنة ١٢٦٣ .

وعمل بييرس في هذه السنوات الافتتاحية الثلاث من حكمه على تنظيم الجيش المملوكى وتجديد بناء الأسطول واعادة توزيع

الاقطاعات على الأمراء والأجناد فضلا عن عنايته بإنشاء الطرق واصلاح الجسور وخرق القنوات في مختلف البلاد المصرية على مقياس لم تشهد مصر سوى أيام صلاح الدين . كذلك اهتم بييرس بتقوية حصون الشام وشحنها بالجنود من المماليك ، كما نظم المواصلات البريدية بين دمشق والقاهرة بحيث صار تبادل البريد بينهما مرتين في الأسبوع . أما الاسكندرية فعنى بييرس باصلاح حصونها والسهر عليها ، كما عنى بمداخل النيل عند رشيد ودمياط بإقامة الأبراج والسلاسل لحراستها ، وكل ذلك خشية حملة صليبية مرتقبة ، وفي هذه السنوات الافتتاحية كذلك بدأ بييرس بناء الجامع والمدرسة المنسوين اليه ، كما أنشأ مقبرة للفقراء .

وتدل هذه الأعمال الداخلية المتنوعة على أن بييرس كان يبنى لنفسه وللسلطنة المملوكية في قلوب الناس ، وأنه كان يعد العدة الحربية للقيام بمشروعات عسكرية ضخمة ، والواقع أنه أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثانى ، واستطاع أن يحرز نجاحا لا يقل عن نجاح سلفه العظيم ، وذلك في أكثر من جهة واحدة . ذلك انه تعين على السلطان بييرس حماية الأطراف القرائية لسلطنته من اغارات الدولة المغولية التي تأسست بعد هولاكو في فارس والعراق ، وعقاب الامارات الصليبية مثل أنطاكية التي

أما تحالف بيبرس مع دولة السلاجقة بالروم ( آسيا الصغرى ) فلم تقل أهمية عن هذه المحالفات السابقة ، لأن الوضع الجغرافي لهذه الدولة السلجوقية جعلها منبع خطر على الأطراف المغولية الفارسية من ناحية ، وأطراف مملكة أرمينيا الصغرى المسيحية من ناحية أخرى . على أن أعظم ما اهتم له السلطان بيبرس وقتذاك هو احتمال قيام الدولة المغولية الفارسية بهجوم مفاجيء على الأطراف المملوكية الشرقية عن طريق أعالي العراق ، ولذلك خرب طريق الغزو ومعابره بين آمد و خلاط ، على حين أصلح القلاع الشامية التي سبق لهولاكو وجنوده تخريبها أثناء الزحف المغولى الأول .

لم يكن عجبا بعد هذه الاستعدادات والمحالفات والاحتياطات ، وبعد المناوشات التجريبية الناجحة التي قام بها بيبرس أوائل سنة ١٢٦٥ ضد الصليبيين والمغول أن يقوم هذا السلطان منذ أواسط هذه السنة بهجمات حربية عنيفة في أكثر من جهة واحدة . وإذا اصطبغت حركاته التالية في هذه الجهات بكثير من الغدر والنكث والقسوة ، فإن هذه الحركات كانت في ذاتها سلسلة من انتصارات متواصلة دالة على أن السلطان بيبرس امتاز بعزيمة لا تكل ، وعقلية ناشطة ، ومقدرة على استمرار التنقل بين مصر والشام ، تارة لإدارة دفة الحكم ، وتارة لتنظيم شؤون القتال .

وبدأ بيبرس هذه الانتصارات المتواصلة بالاستيلاء على قيسارية وعثليث وحيفا

دأبت على محالفة تلك الدولة ، وذلك فضلا عن الاستعداد لمواجهة أية حملة صليبية جديدة تأتي من أوروبا . وطبيعى انه لم يكن لدى بيبرس أية معلومات عن الدول الأوربية وأحوالها السياسية التي جعلت ارسال حملة صليبية كبرى الى الشرق أمرا غير ممكن أو ميسور ، بدليل قيامه بالأعمال التحصينية المتقدمة لتأمين الشواطئ المصرية والشامية ، واهتمامه بعقد سلسلة من المعاهدات والعلاقات الودية مع حكام البلاد المجاورة ، ومنهم الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس — وهو الخصم اللدود للصليبيين بالشرق ، وملك صقلية مانفرد هوهنشتاوفن ابن الامبراطور فردريك الثانى . ويبدو أن هذا الحلف بين بيبرس ومانفرد حدا بالأمير شارل الأنجوى هو الآخر الى ارسال بعثة لتأكيد حسن علاقته بالسلطان بيبرس . واستقبل بيبرس هذه البعثة ، وأكرم وفادتها بالقاهرة سنة ١٢٦٤ . وحالف السلطان بيبرس الملك بركة خان صاحب القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق وعاصمتها سراى فى وادى الفولجا ، وهو أحد أحفاد جنكيزخان وكان بركة خان على دين الاسلام منذ شبابه ، غير ان العلاقة الدينية وحدها لم تكن هى التي أدت الى هذا الحلف ، بل كان اتجاه الدولة المغولية الفارسية نحو الأقاليم المجاورة لمملكة القبيلة الذهبية هى التي أدت الى تبادل الرسل والبعثات بين القاهرة وسراى ضد هذا العدو المشترك .

وارسوف من الصليبيين قبسل أن تنتهي سنة ١٢٦٥ ، ثم عاد الى مصر ليستأنف رحلة تفتيشية لمعرفة أحوال حصون الاسكندرية ، وليدعم قواته بجيش جديد من المماليك . ثم رجع بيبرس الى الشام سنة ١٢٦٦ ، وأمر بمهاجمة المدن الصليبية على امتداد الساحل الشامى ، على حين استولى هو على صفد ، وعاد منها الى دمشق للسير بنفسه على رأس حملة ضد مدينة سيس عاصمة أرمينيا الصغرى وانتهت هذه الحملة الأرمينية بتخريب سيس ، وكل ذلك فى سنة واحدة . وبعد زيارة قصيرة للقاهرة أوائل سنة ١٢٦٧ ، ذهب بيبرس الى الشام حيث تفقد تحصينات صفد الجديدة ، ثم عاد الى القاهرة مزهوا بنتائج حروبه . ثم رجع بيبرس الى الشام أوائل العام التالى ( سنة ١٢٦٨ ) فاستولى على يافا وشقيف أرنون ، وألقى الحصار أخيرا على مدينة أنطاكية ، وهى وقتذاك عاصمة أهم الامارات الصليبية الباقية بالشام . وحقق الاستيلاء على هذه المدينة للسلطان بيبرس نصرا وأمنا ، ففضى أيام سنة ١٢٦٩ متقلبا فى سلام بين مصر والشام وبلاد العرب ، وأدى فريضة الحج فى تجميل عظيم ، وأكد السيادة المملوكية على مكة والمدينة والحرمين الشريفين وعاد الى القاهرة بعد أن عين واليا فى مكة للإشراف على الكسوة التى أهداها السلطان للكعبة مطرزة باسمه بحروف من الذهب . وفى سنة ١٢٧٠ أجرى السلطان بيبرس

مفاوضات مع طائفة الاسماعيلية الحثيضية بالشام ، وتم الاتفاق على أن يدفع شيخ هذه الطائفة — شيخ الجبل — جزية سنوية ثمنا للسلام بين الطرفين . وفى هذه السنة نفسها قام الملك لويس التاسع بحملته الصليبية على تونس ، فرأى بيبرس أن يظل بالقاهرة ليرقب أخبار هذه الحملة عن كئيب ، وأعلن استعداداه لمساعدة تونس ضد الغزاة الصليبيين . غير أن موت الملك لويس التاسع فى تونس بددت جميع مخاوف بيبرس فسار الى الشام سنة ١٢٧١ ، حيث استولى على صافيتا وحصن الأكراد وعكا ، وأعقب ذلك بحركات خاطفة استولى فيها على بعض قلاع الاسماعيلية عقابا لهم على تقض ما بينه وبينهم من اتفاق وجزية وسلام . ثم رجع بيبرس الى القاهرة أواخر تلك السنة ، لكنه عاد مرة أخرى الى الشام سنة ١٢٧٢ ، حيث تفقد حاميات المدن التى استولى عليها من الصليبيين فى حملاته السابقة .

وفى هذه السنة نفسها ( ١٢٧٢ م ) أرسل بيبرس أسطولا عدته احدى عشرة سفينة للاغارة على قبرص ، فحطمته عاصفة قرب ليماسول ولم تستطع سفينة من سفنه أن تصل الى الشاطئ القبرىسى . وفى العام التالى أى سنة ١٢٧٣ غادر بيبرس دمشق الى اليرة على الفرات ، لدفع اغارة مغولية تلك السنة . فأنزل بالمغيرين هزيمة كبرى بعد أن عبر النهر سابحا على رأس قواته لملاقاتهم . وفى طريق عودته الى دمشق استولى بيبرس على بقية

قلاع الاسماعيلية ، على حين كانت قوات مملوكية تعمل في برقة وأرمينيا الصغرى ، فضلا عن النوبة التي اعتمدت منذئذ على الدولة المملوكية في حل مشاكلها الداخلية ، ولا سيما وراثه عرش مملكة النوبة .

وشعرت الامارات الصليبية وقتذاك بأن مستقبلها يتطلب هدنة عامة عقدها بيبرس مع كل من هذه الامارات سنة ١٢٧٤ ، وربما كانت هذه الهدنة هي التي شجعت على الزحف بنفسه على أرمينية الصغرى سنة ١٢٧٥ ، حيث استولى على سيس وأياس ، كما شجعت على الزحف بقوة حربية مرة أخرى الى أقصى الشمال سنة ١٢٧٦ ، حيث أحرز انتصارا كبيرا على قوات المغول والسلاجقة بالروم ، ودخل العاصمة السلجوقية قيصرية وجلس على عرش سلاطينها ، وأخيرا عاد بيبرس الى دمشق أوائل سنة ١٢٧٧ وتوفي تلك السنة وهو في أوج مجده بعد مرض قصير بسبب تناوله شرابا مسموما .

ويقال ان بيبرس كتب في أواخر أيامه وصية الى السعيد بركة ، وهو أكبر أبنائه وولى عهده في السلطنة وانه نصحه في هذه الوصية بالحذر من كبار الأمراء بما نصه : « فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه في وقته ، ولا تعتقله ، ولا تستشر أحدا في هذا ، وافعل ما أمرتك به والا ضاعت مصلحتك » على أن الخطر على سلطنة بركة هذا جاء اليه من مأمنه

في أغسطس سنة ١٢٧٩ ، حين خلعه حموه قلاوون ، وأقام مقامه ابنا ثانيا لبيبرس ، وهو طفل في السابعة من عمره اسمه سلامش . ثم لم يلبث قلاوون أن خلع سلامش كذلك في نوفمبر سنة ١٢٧٩ ، وأقام نفسه سلطانا .

وكان السلطان قلاوون — مثل بيبرس — من المماليك البحرية ، وشارك زملاءه زمن أيك ، وعاد الى مصر مع بيبرس تلبية لنداء قطز في تعبئة القوى لصد المغول . ولما آلت السلطنة الى بيبرس خدمه قلاوون أحسن خدمة ، وظهرت كفايته في الحرب ضد المغول وأرمينيا الصغرى ، ولكنه بدا مغضوبا عليه أواخر أيام بيبرس لأسباب غير واضحة ، وواجه قلاوون معارضة قوية لسلطنته ، واصطبغت هذه المعارضة بشيء من الولاء لأبناء بيبرس ، وهي في الواقع لم تخرج عن أن بعض أمراء المماليك الذين أسهموا بقسط وافر في الانتصارات البيبرسية أحسوا بأن لهم حقا مثل قلاوون في السلطنة .

ومن هؤلاء سنقر الأشقر نائب دمشق الذي أعلن نفسه سلطانا بها ، ووجد تلبية لحركته في الشام وفلسطين . واستطاع قلاوون أن يقضى على هذه الحركة في وقعة حربية جنوبي دمشق ، غير ان سنقر تمكن من الفرار ، وذهب الى بلاط ايلخان أبغا بن هولانكو يطلب نجده . وكان أبغا من أشد الدعاة لمشروع التحالف بين الصليبيين والمغول ضد المماليك ، مستعدا تمام الاستعداد لمساعدة أية حركة ثورية ضد السلطنة

الملوكية في مصر أو الشام ، ولذا تحسب أبا لنجدة سنقر ، وغزت فرقة مغولية شمال الشام في سبتمبر سنة ١٢٨٠ ، ودمرت كثيرا من القوى المحيطة بحلب ، وخرج قلاوون الى الشام لمواجهة هذا الغزو ، على حين أرسل الى سنقر يسترضيه بأن تكون له بعض المدن في شمال الشام ليحكمها حكما مستقلا ، وأن تكون مرتبته من حيث الوظيفة والاقطاع تالية لمرتبة السلطان . وبفضل هذه الترضية استطاع قلاوون أن يركز جهوده ضد الغزاة الذين زحفوا نحو حلب مرة أخرى بقيادة منكوتر — أخى أبا ، تؤازرهم قوات من أرمينيا الصغرى وجورجيا وغيرها من البلاد التي خضعت للمغول . وأخيرا وقعت الواقعة بين الطرفين عند حمص ( أكتوبر سنة ١٢٨٠ ) حيث انهزم منكوتر ، واضطر الى الانسحاب من الشام .

وبعد ذلك بعام توفي أبا وخلفه في الايلخانية الفارسية أحمد تكدار الذى ترك المغولية واعتنق الاسلام ، ودلت خطاباته الودية الى قلاوون على مدى تعلقه بدينه الجديد وهي خطابات كرر فيها تكدار رغبته في العيش في ظلال السلم مع جميع البلاد الاسلامية المجاورة . غير أن الايلخانية نفسها لم تشارك في هذه الرغبة ، حتى اذا اعتلى عرشها سنة ١٢٨٤ أرغون انقلبت سياسة تكدار رأسا على عقب ، وأخذ أرغون في احياء مشروع أبا لانشاء حلف صليبي — مغولى ضد السلطنة الملوكية . على أن هذا

المشروع لم يتحقق يوما من الأيام مع العلم بأن قلاوون نفسه كان يخشى تحقيقه في عهده ، بدليل ما حرص على عقده من محادثات وصلات مع مغول القبيلة الذهبية والامبراطورية البيزنطية وملوك فرنسا وقشتالة وصقلية ، وجمهورية جنوا ، فضلا عن الامبراطور رودلف هابسبرج ، مقتنيا في ذلك أثر سياسة بييرس .

وفي طريقه لصد الغزو المغولى ، أى قبل وقعة حمص ، جدد قلاوون الهدنة العامة التي عقدها بييرس في أواخر أيامه مع المدن الصليبية . وكانت هذه الهدنة لمدة عشرة أعوام ، فأضاف اليها قلاوون شروطا مجحفة دالة على مدى ما صارت اليه الامارات الصليبية الباقية من ضعف واضمحلال . ومع هذا لم يكن في نية قلاوون أن يحترم هذه الهدنة بعد فراغه من المغول ، إذ أراد — مثل بييرس — أن يقوم كذلك ضد الصليبيين بدور حربى مشابه لما قام به صلاح الدين . ولذا لم يكد قلاوون يعلم بخيبة مشروع أرغون في عقد حلف مغولى صليبي ضد سلطنة المماليك حتى أخذ هو يركز جهوده ضد المدن الصليبية .

وكان قلاوون عندئذ في الخامسة والستين من عمره ، ويبدو أنه اشتفى أن يختم حياته بصفحة من الجهاد الذى أكسب بييرس شهرته في خدمة الدين . وجعل قلاوون هدفه الأول حصن الاستارية بالمرقب قرب الأطراف الشمالية لامارة طرابلس ، ففاجأه وألغم

أسواره في سرعة أذهلت حاميته واضطر الاستتارية الى التسليم والجلء في مايو سنة ١٢٨٥ . ثم زحف قلاوون صوب مرقية وهي قلعة حصينة على ساحل البحر ، وصاحبها تابع اقطاعي للكونت بوهيمند السابع أمير طرابلس . وأندز قلاوون الكونت بوهيمند بأنه اذا لم تتجرد هذه القلعة من سلاحها وحاميتها ، فانه سوف يشن الحرب على امارة طرابلس نفسها ، فأسرع بوهيمند الى اصدار التعليمات بتنفيذ ذلك سنة ١٢٨٦ ، في سبيل انقاذ الامارة الطرابلسية . وأسرت كذلك مرجريت أميرة مدينة صور الى شراء السلم من قلاوون بشروط من املائه ، وعقد ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى اتفاقية مشابهة تعهد فيها بدفع جزية سنوية باهظة للسلطان . وأحس قلاوون بأنه حقق مغنم كثيرة من الصليبيين في غير عناء ، فأغراه هذا التوفيق بخصيمه القديم سنقر الأشقر ، واستطاع أن يخرج من امارته الواسعة في شمال الشام سنة ١٢٨٧ ، وأن يحمله على القنوع بالعيش في القاهرة بطالا ، أي بعيدا عن الحياة السياسية .

وفي السنة التالية ( ١٢٨٨ ) انصرفت جهود قلاوون الى النوبة ، اذ أرسل حملتين تأديبيتين لتنظيم العلاقة بينها وبين السلطنة المملوكية على قاعدة التبعية التي أنشأها بيبرس سابقا . وفي السنة نفسها توفي بوهيمند السابع أمير طرابلس دون أن يعقب وريثا ، فأغرت الخلافات الصليبية حول هذه المشكلة قلاوون بالاستيلاء على مدينة طرابلس لنفسه ،

وحاصرها وخرب حصونها ، حتى تم له الاستيلاء عليها سنة ١٢٨٩ . وبعد ذلك بقليل استولى قلاوون على قلعة البطرون جنوبى طرابلس بعد أن خربها هي الأخرى ثم عاد الى مصر حيث أعد العدة لحصار عكا ، وهي البقية الباقية للصليبيين بالشام بعد أن ادعى أن التجار المسلمين يعاملون فيها معاملة سيئة ، تبريرا لما بيته من زحف حربى ضدها . غير أنه مرض ومات قبل أن يحقق هذه الخطوة النهائية ضد الصليبيين وكانت وفاته في ( نوفمبر سنة ١٢٩٠ ) بمعسكره خارج القاهرة ، وهو في السبعين من عمره .

واذ اقتنى قلاوون أثر بيبرس في سياسته ضد الصليبيين والمغول ، بحكم تشابه الأهداف والأحوال ، فانه اقتنى أثر بيبرس كذلك في اقامة المباني والعمائر في مدن مصر والشام ، بما في ذلك مسجد وضريح مشهوران بالقاهرة . أما المستشفى العام ( اليمارستان ) الذي أنشأه قلاوون بالقاهرة ، فأكسب صاحبه شهرة خاصة ، مع العلم بأن هذا المستشفى ثم يكن الأول من نوعه في قاهرة العصور الوسطى . واهتم قلاوون بتنظيم الجيش المملوكى ورفع مستواه ، وأضاف له فرقة جديدة تبلغ ثلث عدده القديم ، وجعل اقامة هذه الفرقة الجديدة بأبراج القلعة ، ومن ثم تسمى أفرادها باسم البرجية .

وعين قلاوون ابنه الأكبر عليا ليكون خلفا له في السلطنة ، غير أن هذا الابن توفي في حياة أبيه ، فصار أخوه خليل هو الوريث التالي ، برغم ما اشتهر به من ميل الى العنف

والشر ، فضلا عن الظن بأنه دس السم لأخيه المتوفى .

ولذا رفض قلاوون التوقيع على تعيين خليل لولاية العهد ، وقال « أنا ما أولى خليلا على المسلمين » أملا منه في الاحتفاظ بولاية العهد لابن صغير أنجبه في أخريات أيامه من زوجة مغولية شابة ، اسمه محمد . لكن وفاة قلاوون على غير انتظار لم تترك مجالاً للتردد ، وأقيم خليل في السلطنة وعلم في اجتماع مجلس المشورة باعلان سلطنته في نوفمبر سنة ١٢٩٠ ، وتقليده بولاية العهد ، فقال « ان السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني الله » .

غير ان السلطان خليل انساق وراء ما اشتهر به من ميل الى الشر والعنف ، فعكف على الانتقام من رجال أبيه ، اعتقادا منه بأنهم السبب في تشويه سمعته واتهامه بدس السم لأخيه . ولذا بدا حكمه من هذه الناحية الداخلية سلسلة مخيفة من أعمال المصادرة والتعذيب والسجن والقتل ، وكان الأمير طرنتاي خصيمه القديم أول من ناله كل هذا وذلك حتى مات في السجن . واتبأت خليل مع هذا نوبات من كرم الخلق وحسن السلوك اذ نزل مثلا عن أملاك طرنتاي لابنه ، وأغفى أرض مصر والشام من المتأخر عليها من بعض الضرائب من عهد أبيه ، كما أنه أحيا ذكرى أبيه قلاوون احياء سنويا حافلا .

أما من ناحية السياسة الخارجية ، فدلّت أعمال خليل على شجاعة ومقدرة وقوة كما هو

واضح من تصرفاته في أكثر مواقفه . ذلك أنه أخذ في تنفيذ مشروع أبيه للزحف على عكا ، فأضاف الى الاستعدادات الكائنة اعدادا من الجند وكميات من أدوات القتال ، حتى فاقت آلات الحصار حول عكا في ربيع سنة ١٢٩١ أية كمية سابقة ضد أية مدينة من مدن الصليبيين بالشرق . على أن عكا كانت هي الأخرى محصنة تحصينا قويا ، ولذا قاومت مقاومة مستمرة عشرة أيام متتابة ، حتى قرر خليل مهاجمتها والاستيلاء عليها عنوة .

وهنا يضيق المجال عن وصف أعمال الشجاعة والبطولة التي بذلها المهاجمون والمدافعون سواء ، مع العلم برجحان كفة الجيوش المملوكية ، بعد أن بات الصليبيون وليس لهم في الشام من المدن الكبرى سوى عكا . ثم كان الهجوم النهائي على عكا صباح يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ ، فعادت المدينة لمدة عشرة أيام منذ ذلك الصباح ميدانا للمجوم والدفاع ، والكر والفر حتى انتهى الأمر بهدم تحصيناتها وسقوط المدينة نفسها في أيدي جيوش السلطان خليل ابن قلاوون . وهكذا سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين بالشام ، وفي بضعة الأشهر التالية تم الاستيلاء على سائر المدن الساحلية التي كانت لا تزال في قبضة الصليبيين ، فهدمت جميعها ، ماعدا بيروت التي استجابت الى طلب التسليم بدون قتال .

وأخيرا رحل السلطان خليل عن عكا الى دمشق ، وفي موكبه عدد كبير من الأسرى





والقصور الرائعة ، بفضل ما توافر من الموارد الضخمة المستمدة من التجارة العالمية ، وبفضل ما أجراه الناصر في زمنه من اصلاحات في طريق الزراعة في كل من مصر والشام .

واذ تولى السلطنة المملوكية بعد الناصر محمد ثمانية من أبنائه ، واثنان من أحفاده ثم اثنان من أبناء أحفاده على التعاقب ، فيتضح من هذا وحده أن شيئاً من مبدأ تولية الابن الأكبر للحكم أخذ محل ما سبق تفصيله من تنصيب ابن السلطان المتوفى مؤقتاً على الطريقة المملوكية المعهودة . ولذا أشبهت هذه السلسلة الطويلة من أبتاء السلطان الناصر محمد سلسلة الملوك الميروقينجيين المتأخرين الذين حكموا فرنسا أوائل العصور الوسطى . غير أن سلطنة الواحد من أولئك السلاطين من أبناء الناصر وأحفاده لم تمتد الا بمقدار ما سمح به زعيم أو آخر من زعماء المماليك ، وظل الأمر على ذلك تقريبا حتى استطاع برقوق ، زعيم المماليك البرجية ، أن يتخلص من آخر سلالة الناصر محمد في سنة ١٣٨٢ ، فأضحى بذلك أول سلاطين المماليك البرجية أو الجراكسة في مصر .

وفي خلال هذه المرحلة التي استغرقتها حكم أولاد الناصر وأحفاده ، ومدتها البالغة احدى وأربعون سنة ، وقعت ثلاث حوادث تختلف في أهميتها ودلالاتها في التاريخ المملوكي . وأول هذه الحوادث الوباء الكبير المعروف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

باسم الوباء الأسود ، وهو الوباء الذي أنزل الفناء والدمار بأهل مصر وسائر سكان الشرق الأوسط بين سنة ١٣٤٨ و سنة ١٣٥٠ ، وامتد كذلك الى أوروبا وأدى الى خسائر فادحة في الأرواح والماشية والزراعة وترتب عليه نتائج اقتصادية واجتماعية في الشرق والغرب .

أما الحادث الثاني فهو أن أسطولا مؤلفا من سفن قبرص ورودرس والبندقية وجنوه ، جاء بجنود من عناصر مختلفة ، وهاجم الاسكندرية في خريف سنة ١٣٦٥ وتولى قيادة هذا الأسطول بطرس الأول لوزيجنان ملك قبرص ، وهو الذي أنشأ طائفة الفرسان الصليبيين المعروفة باسم طائفة السيف ، لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين . واستولى هذا الأسطول على الاسكندرية واستباحتها جنوده أسبوعا ، فلم يسلم من شرهم ونهبهم مسلم أو يهودى أو مسيحي . ثم غادر الأسطول مياه الاسكندرية ، بعد أن حملت سفنه ما يقرب من خمسة آلاف أسير من الرجال والنساء من اليهود والمسلمين والنصارى ، ويروى شاهد عيان من المسلمين أن سبعين سفينة من هذه السفن أبحرت من ميناء الاسكندرية محملة بأنواع الغنائم ، فضلا عن هذا العدد الكبير من الأسرى . وأعقب هذه الكارثة مفاوضات تعرضت للفشل والاقطاع بسبب ما جرى من حين الى آخر من اغارات قبرصية على سواحل الشام ومصر للضغط على السلطان وأخيرا تقرر عقد الصلح بين قبرص والسلطنة المملوكية

سنة ١٣٧٠ بعد أن توسط بينهما كل من جمهوريتى جنوة والبندقية .

أما الحادث الثالث فيرتبط بالمملكة المسيحية فى أرمينيا الصغرى باقليم قيليقية بأطراف آسيا الصغرى مما يلى الشام ، اذ دأبت هذه المملكة منذ تأسيسها على تقديم المساعدة للصليبيين فى الشرق ، فأصبحت بذلك هدفا للاغارات المملوكية المتكررة . فلما سقطت عكا فى يد السلطان خليل غدت مملكة أرمينية الصغرى هذه الهدف التالى للحملات المملوكية ، حتى استولى أمير حلب المملوكى على عاصمتها سيس ، سنة ١٣٧٥ ، باسم السلطان شعبان ، واقتسم الأمراء المقطعون أراضى هذه المملكة ، بعد اعلان تبعيتهم للسلطنة المملوكية . أما ليو السادس آخر ملوكها فانه وقع أسيرا ، وحمل الى القلعة بالقاهرة حيث بقى فى أسره الى أن جرى افتدائه سنة ١٣٨٢ ، وهذه السنة هى التى صار فيها برقوق أول سلطان فى دولة المماليك الجراكسة أو الدولة المملوكية الثانية.

يتبقى للقارىء هنا بعد هذا العرض العابر تصوير عام للحكم المملوكى من حيث البناء السياسى ونظم الحكم والجهاز الادارى والاقتصادى ، فضلا عن التركيب الاجتماعى ، والحركة الفكرية ، والنشاط البنائى المعمارى الذى اشتهر به عصر سلاطين المماليك وأول ما يبدو واضحا من ملامح هذا التصوير ان أقلية حرية مملوكية حاكمة مستندة الى طبقة

عسكرية من المماليك هى التى تسيطر على البلاد . ورمز سيطرتها بسلطان هو تصه مملوك من هذه الطبقة الا اذا كان ابنا لسلطان وأحاط زعماء هذه الأقلية المملوكية الحاكمة بالسلطان وكلهم بدأوا حياتهم مثله ممالك صفارا فى الجيش السلطانى الخاص أو جيوش الأمراء ثم تدرج الواحد منهم فى المراتب العسكرية تدرجا متناسبا مع طبقتة . وكان المماليك جميعا — مثل السلطان — غرباء عن البلاد ، ينتمون الى بلاد وأصول عديدة ، واذ كان معظمهم فى القرن الثالث عشر من مغول القفجاق الذين اتنى اليهم بيبرس وفلاوون فان أفرادا منهم جاءوا من ايطاليا وألمانيا وروسيا والصين ونشأ أولئك المماليك على أساس من الفروسية الاقطاعية ، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة ، بحيث غدت فى أيديهم جميع المناصب العسكرية والوظائف البلاطية واقطاعاتها فضلا عن الوظائف الادارية الكبرى واقطاعاتها فى مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية . وكانوا جميعا مسلمين منذ اندماجهم فى الزمرة المملوكية ، وأطلق عليهم عموما اسم رجال السيف تمييزا لهم من رجال القلم ، وهم أصحاب الوظائف الديوانية المدنية ، من أهالى البلاد المسلمين وغير المسلمين ، ويبلغ عدد غير المسلمين فى الوظائف الديوانية ، ولاسيما الوظائف المتعلقة بالأموال وحسابها أعدادا كبيرة معظم الأحيان .

رند أم ليل الاقطاع تلك التي تملكها الأبناء قليل اليك  
مقابلها فوجدوا للملوك بخلها بالتعسكية ووعا لعلها  
بالاعطية أو بادل لية أفتكوا فحصل ما فيه من الخلع طبعه  
قد جعل الكون بهذه خلافا لعلمه أول من ظهر له  
(القطعة واحدة أو أليم من زواج) الأولى قرعة الكمال  
أن جيبه ليل في ضاربة: الألف لكن يعلل الملك كوضع  
أو بقلل من مظهراته التلا تشر في الدولة على  
تأثيرها وتفظت به الاقطاعات لكونك تميز لحيمة  
الهيبة التقدير للراعية وهي السوا في  
المصير والديم أن المملوكي ناسين العيون تباين  
عليه وكل ما أسير أن يخص بثلي اقطاعه  
بما ليله بأن يخص لكل واحد لجمعها منهم  
يتميز من الإقطاع أو منه من النقية  
وهو لأم الممالك هو الذين اشتريه من الأجر  
في حروب السلطان واختص ديوان الجيش  
بتميزه في تلك الأقطاعات وتنها ولذا سمي  
هذا الديوان كذلك باسم ديوان الأقطاع  
وبالإضافة إلى الأقطاعات تسمى الأقطاعات  
من العطاءات النقية في المنية التظلم اعتبار  
السلطان يوزعها على أهلها العسك وأرباب  
القلم كذلك في مناسبات معينة من السنة  
عن طريق ديوان المال وغسيرة من ديوان  
الدولة فلقا باليه بها انيسة فيسا  
والأمر ما حوزها تلك التظلم لئلا يظلم المملوك  
الذي أطلبه صلاح العيون الأخرى على الملوك  
لئلا يظلم المملوك خلافا للعلماء الذين هم من المملوك  
أين من التظلم للاطلاع على الملوك في القرنين الثالث  
عشر والتنظيم الاقطاعي الفلج لتمام الموضع أو ربا

وقد لا فان التنظيمية اختلفا بهام الاختلاف  
في أصولها ، فضايقون بليمة الملوك تميز فيمكن  
فقط ما بوزنك أنه على عاين تطورا الاقطاع  
التقليدي ويحق في انصافا إليه بل في التوريث  
وتملكه اليقنة ، ظل الاقطاع على الملوك إلى  
العاقبة العظمى شخصيا فقطه أو لا يميز الأكر  
من قطعة أرض أو أي جيبه قطاعات لا يمتنع  
صاحبها بتجربته ملكيتها الأذ للصفه فيلنا  
أنه في تلك الحالة تظلمت له على المتخالفات  
بذلك نظامته فما وظفتها أو منة تميزه أو تملك  
فيها في عهد عثمان وخاصة في ملات كمال  
د ١٧١٠ أيضا السلطان التطور في رفاقه كمال  
الملوك والتمسك إلى طلبهم في المال والموالي  
بذلك السلطة في الملوك وطريقه في الملوك  
طريق الاقطاع من قبل الملوك المملوكين هو في ذلك  
بالمال من يخلص المملوك من أرباب السلطان  
بالتوفيق على الطرفية في الملوك في الملوك  
أهنا في العظيمة العبا في قيام المملوك  
فلهذا في المملوك أعل في العطاءات المملوكين  
فحينئذ تغير السلطان في أقطاعاتها وذلها لكل  
السلطان في المملوك في المملوك في المملوك  
من الأرباب المملوك المملوك من السلطان  
المملوك مع المملوك السلطان في المملوك  
في المملوك المملوك المملوك في المملوك  
المملوك في المملوك المملوك في المملوك  
على بقايا السلطان في المملوك في المملوك  
في المملوك المملوك المملوك في المملوك  
مملوك المملوك المملوك في المملوك



عن تأثيرها في مصائر السلاطين أنفسهم في الحياة الدنيا والآخرة . ولذا بنى السلطان الظاهر بيبرس مسجده العظيم المعروف باسمه ، والذي يعرف به أحد أحياء القاهرة الحالية ، وهذا المسجد بالإضافة الى المدرسة الظاهرية وهي كذلك بالقاهرة بشارع النحاسين . أما السلطان المنصور قلاوون ، فهو صاحب المارستان المنصوري الذي وصفه أحد مديريه الإداريين ، وهو النويرى المؤرخ ، وصفا تفصيليا في كتابه : « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، ولا يزال جزء من هذا البناء يستخدم لعيادة طبية لأمراض العيون ، ويسمى مستشفى قلاوون ، ولهذا السلطان وعهده يرجع كذلك بناء المدرسة المنصورية ومدرسة زوجته أم ابنه الأكبر الصالح على ، ومدرسة ابنه الثانى خليل ، وهذه وتلك فضلا عن القبة المنصورية ، ومكتب السبيل المخصص لتعليم الأيتام .

ثم يأتى بعد ذلك عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهو عصر الذروة المعمارية المملوكية ، بكل ما فى ذلك الوصف من معنى ، اذ استمر الحكم الفعلى المباشر لهذا السلطان مدة اثنتين وثلاثين سنة ( ١٣٠٩ — ١٣٤١ ) ، وخطت هذه السنوات الطويلة من أية حروب خارجية أو فتن داخلية كبرى ، فانصرف السلطان — ونساؤه وأمرأؤه معه — الى أعمال معمارية مختلفة المقاصد والمنافع ، وأولها من حيث الأهمية عدد حافل من

برغم أجنبييتهم عن مصر التى غدت مركز سلطنتهم ، أو كان كونهم جديدين على شئون الحكم جعلهم يشعرون شعورا خاصا بمسئولياتهم ، أو كان حداثة عهدهم بالاسلام جعلتهم متحمسين لاقامة العماير الدينية ، من باب التقوى والزلفى الى الله ، أو من باب السياسة واجتذاب القلوب . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن السلاطين المماليك عنوا أكبر عناية . بتخليد أسمائهم فى منشآت معمارية أعطت ملامح القاهرة ومعالمها وآفاقها مسحة من الجمال الهندسى والذوق الفنى بالإضافة الى مسحتها التى امتازت بها منذ أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومن هذه المنشآت المعمارية المملوكية عدد كبير من المساجد والمدارس والخواقق التى تزين السماء القاهرية ببقاياها الرائعة ، من مآذن سامقة وقباب فاخرة ، وتملا أحياء القاهرة القديمة بآثار لا يرى فيها الزائر سوى صنمها البليغ . وأول هذه المنشآت مدرسة بناها السلطان المعز أيبك التركمانى بمصر ( مصر العتيقة الحالية ) ، على شاطئ النيل ، قبالة مقياس جزيرة الروضة ، وأطلق عليها اسم المعزية نسبة اليه وهى فيما يرجح أول مبانى الدولة المملوكية بالقاهرة ، وأعقب هذه الفاتحة المعمارية سلسلة من المبانى المتنوعة الدالة بكثرة عددها على استقرار الدولة المملوكية نفسها ، واقتناع سلاطينها بما لتلك المبانى من نصيب فى ذلك الاستقرار ، فضلا

الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والقباب ، اذ هي تبلغ نحو تسعين مبنى ، ومنها على سبيل المثال جامع السلطان الناصر محمد نفسه بالقلعة ، ومسجد الأمير الطنبا المارديني ، بالتبانة ، ومدرسة الأمير أقبا عبد الواحد داخل الجامع الأزهر ، وخالقاه الأمير قوصون بالقرافة القبليّة ، وقبة طشتمر حمص أخضر بالقرافة الشرقية ، وجامع ست حدت القهرمانه بحي الناصرية . ويضيق المجال هنا عن ذكر ما عدا ذلك من هذه المباني التي تملأ أوصافها صفحات من كتاب المقرزي الذي عنوانه : « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والأمصار » .

وبالإضافة الى هذه المنشآت ذوات الصفات الدينية والتعليمية والتذكارية أنجب النشاط المعماري المملوكي مجموعة معمارية ثانية من القصور السلطانية والدور الأميرية التي بناها السلاطين لأنفسهم أو لأمرائهم ، أو بناها الأمراء اقتداء بشغف سلاطينهم بالمعمار . واذا أتجت عهد السلاطين العسكريين وهم أيك وقطر ويبرس وقلاوون و خليل ، عددا قليلا نسبيا من هذا النوع الثاني من المنشآت السلمية ، نظرا لاهتمامهم بالمنشآت العسكرية ، فان هذه القلة النسبية أبرزت عظمة النشاط المعماري الذي امتاز به عصر السلطان الناصر محمد ، وتوصل ذلك أنه على حين اقتصر عصر السلطان بيبرس على بناء القصر المعروف بالدار الجديدة بالقلعة

( مواعظ - ٢ - ٢١٢ ) واقتصر عصر السلطان قلاوون على مبانيه التي تقدمت الاشارة اليها ، كما اقتصر عصر السلطان خليل بالدار الأشرفية وقصر الرفوف ( مواعظ - ٢ - ٢١٢ ) امتلا عصر السلطان الناصر محمد بعدد كبير من هذه المنشآت السكنية ، ومطلعها القصر الأبلق الذي بناه السلطان الناصر لنفسه ، وجعله مطلا على الميدان المخصص للعب الأمراء بالكرة والصوالة ( البولو ) وعمر السلطان الناصر كذلك القصر المعروف باسم السبع قاعات بقلعة الكباش ( مواعظ ٢٠ - ٢١٢ ) ، وجعله لجواريه وسراريه ، كما انه عمر بالقلعة لكل أمير من الأمراء أزواج بناته الاحدى عشرة دارا خاصة . ثم ان السلطان الناصر عمر عدة قصور لغير أولئك الأزواج من كبار الأمراء ، ومنها قصر طقتمر الدمشقي بحدوة البقرة وقصر بكتمر الساقى على بركة الفيل ، وقصر بهادر الجوباني تجاه قلعة الكباش ( سلوك - ٢ - ٥٤٠ ) . ولم يكتف هؤلاء وأولئك من الأمراء بما أغدق عليهم السلطان الناصر محمد من منشآته ، بل أخذوا يتنافسون فيما بينهم لتشييد قصور اضافية لأنفسهم ، وهي قصور امتدت على طول الخليج الناصري ( الخليج المصري ) من قرب ميدان باب الخلق الحالي الى بلدة سرياقوس الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات شمالي القاهرة الحالية ومن هذه القصور دار الأمير ايدغمش أمير أخور ، دار أقبا ، ودار طقزدمر .



والهوامش والحواشي عن ظهر قلب وهؤلاء  
وأولئك فضلا عن الصوفية ، وهم في خواتيمهم  
وربطهم وزواياهم منصرفون إلى العبادة  
والدروس التي تعلمون العلم والارشاد .

بيرس يعقد بها مجلسين في يومي الاثنين  
والخمس من كل أسبوع فيستعرض شئون  
التي تصل إليه . ومن هذه المباني العامة  
بالقلعة كذلك دار النيابة التي بناها السلطان

غير ان المجال لا يتسع لغير هذه المحطات  
الاجتماعية العابرة ، ولذا يحسن استكمال  
موضوع المنشآت المملوكية بذكر منشآتهم  
تليها القلعة وغيرها ، ومنها دار العدل التي  
بناها السلطان بيبرس في موضعها في العصر  
الحاضر بميدان سارية العلم ، الواقعة بين  
الداخلية إلى القلعة وكان السلطان الظاهر  
لما دعيه في قاعة في القلعة وبعدها  
قاعة منه وبنى في قاعة في القلعة شبيها  
تتبعها قاعة قاعة بنى في ٦٨٦١ قس  
بني عليه زائرا لجمعة في ٨٦١ قس  
بني في القلعة منه في قاعة في القلعة  
منه تتدلف تتدلف . قيله به في القلعة  
في قاعة في القلعة بنى في قاعة في القلعة  
بنيها في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة  
بنيها في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة  
لشيء مسنن ومجود في قاعة في قاعة  
بنيها في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة  
بالتقلا في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة  
في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة  
من قاعة في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة  
بنيها في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة  
من قاعة في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة

شاه بيبرس بنى في القلعة في قاعة في قاعة  
في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة

الفضل ما منه في قاعة في قاعة في قاعة  
في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة في قاعة

# الدولة المملوكية الثانية

للدكتور محمد مصطفى زياده

(١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

دون احتجاج من ناحية بعض الشخصيات المملوكية التي سئمت حكم السلطان المخلوع كما تقمت على السلطان الجديد وصوله الى دست السلطنة . ولذا لم تلبث هذه الشخصيات المملوكية أن تأمرت لاقامة الخليفة المتوكل العباسي سلطانا في دولة من نوع جديد ، كما لم يلبث السلطان برقوق أن هدم هذه المؤامرة سنة ١٣٨٣ ، لكن مؤامرة ثانية تكونت سنة ١٣٨٩ ، وتزعما أميران مملوكيان منافسان للسلطان برقوق ، وهما منطاش أمير حلب ، وبلبغا أمير ملطية . واستطاعت هذه المؤامرة الثانية أن تقبض على السلطان برقوق وترسله منفيًا الى الكرك ، وأن تقيم الصبي حاجي في السلطنة مرة أخرى . ثم هرب برقوق من سجنه ، وجمع لنفسه جيشا استطاع به أن يستعيد مركزه ، وأن يدخل القاهرة سنة ١٣٩٠ محوطا بأنواع الاحتفال والترحيب ، بعد أن أمر بخلع الصبي حاجي ، مع السماح له بالاقامة بالقلعة وسط جواربه ومغاليه .

وبينما يتغلب برقوق على هذه الأخطار الداخلية ظهرت في الأفق الخارجى أخطار من

دلّ المقرزى المؤرخ على حساسية قوية بالحتمية التاريخية الدينية ، حين وقف في كتابه : « السلوك لمعرفة دول الملوك » عند منتهى أيام السلطان حاجي بن شعبان ، وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، وقال معقبا : « فسبحان محيل الأحوال ومديل الدول » ، ثم بدأ في السطر التالى بداية عهد السلطان برقوق ، وهو أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية . بعبارة أخرى وقف المقرزى وقفته هذه ليودّع دولة ويستقبل أخرى في آن واحد ، لأنه يعلم تمام العلم أن الدولة المملوكية الثانية لن تكون في جملتها أو تفصيلها سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث الخصائص الحضارية ، والتنظيمات الادارية ، والاتجاهات الاقتصادية والقواعد السياسية ، وهذا فضلا عما انتشر بين أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية من الرضى العام بالحكم المملوكى — أوله وثانيه — رغم أجنبيته وصفته الاستعلائية على أهل البلاد .

غير أنه لم يكن من المنتظر أن يمر حادث خلع السلطان حاجي واقامة السلطان برقوق

الفرات ، وهي المدينة التي شهدت انتصارات المماليك على المغول زمن بيبرس وقلاوون . أما تيمورلنك فانه وجه كل اهتمامه وقتئذ ان الى جورجيا ( بلاد الكرج ) بأقصى الشمال ، لقتال طقتمش الذي اعتبره أخطر أعدائه ، وأما برقوق فانه مات في يونية سنة ١٣٩٩ قبل أن تنهيا له الفرصة وشجاعته وبطولته في قتال المغول .

وتولى السلطنة بعد برقوق ابنه فرج ، وهو أكبر أبنائه ، وأمه يونانية ، وكذلك كانت أم أتابكة تغرى بردى والد المؤرخ المعروف أبى المحاسن يوسف ، مؤلف كتاب : « النجوم الزاهرة » . ولم يكن فرج عند سلطنته يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، غير أن تنصيبه جاء في جو خال من المؤامرات الداخلية المعتادة عند قيام سلطان صغير ، ولم يلبث أن سار الى الشام أواخر سنة ١٤٠٠ على رأس الجيش المملوكى الزاحف لوقف التقدم التيمورى المباشر نحو الأراضى المملوكية . وكان تيمورلنك يتحول وقتذاك جنوبا في سرعة صاخبة ، فنهج حلب واقترب من دمشق . وجرت معركة عنيفة شمال دمشق ، فارتد الجيش المملوكى على أعقابهم ، وبادر السلطان فرج الى الانسحاب الى القاهرة ، وترك جيشه في كفة المقادير ، فاستسلمت دمشق على شروط استخلصها المؤرخ ابن خلدون من تيمورلنك ، وتعرضت عاصمة الشام برغم ذلك لكل ما اشتهر به المغول من التخريب .. وبديهي أن السلطان فرج لم يكن كفتا

ناحية الدولة المغولية التي أسسها القائد الصاعقة تيمورلنك ، وأزعج بها أرجاء آسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادى . ذلك أنه لم يكد تيمورلنك يعود من فتوحاته المخربة بالهند حتى بدأ متعظشا للحركة بجنوده للبحث عن ميدان جديد للحرب والتدمير ، فزحف على العراق واستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ ، وعلى ماردين في السنة التالية ، وهي مدينة تابعة للسلطنة المملوكية وقتذاك . ولم يكن السلطان برقوق تموزه الشجاعة ، فنهض لمقاومة هذا الخطر المحدق ، واستطاع أن يقيم جبهة قوية متحدية لتهديدات تيمورلنك وانذاراته . وأول ما قام به برقوق في سبيل تكوين هذه الجبهة أنه اتصل بملوك البلاد المعرضة لحركات تيمورلنك ، وهم قرا يوسف التركمانى ، وبرهان الدين أمير سيواس ، وبازيد الأول السلطان العثمانى ، وطقتمش خان القبيلة الذهبية المغولية على نهر الفلجا . وتوفر للسلطان برقوق من الصلابة والشجاعة ما جعله يرحب بلجوء الشريد سلطان بغداد المعروف باسم أحمد الجلائرى الى القاهرة . ولما أرسل تيمورلنك الى برقوق سفارة لمفاوضته على قاعدة الاعتراف بالسيادة التيمورية ، أمر برقوق بقتل السفراء ، فجرى بذلك على نهج ما فعله السلطان قطز قبيل معركة عين جالوت وأعقب ذلك أن احتشد جيش مملوكى عند مدينة البيرة على نهر

لعمرك ان الموقر قد علم اني قد اشتهيت في ارضه خوف شديد  
بمنها عوامه من عبيانها على هذه تيسر علينا انك  
لما اذعن وقوم في مدينته غير انما القول اتجسسوا  
لحسن حفظه في حق (نحوه) اسما بالاصغر في وجهه  
انزلوا تدويرك بالجنس والتمسك من هذا سنة  
شبهه في فهم وقعة القبرية من سنة ١٠٤٠ هـ في هذا المكان  
الدولة العثمانية انما كانت تهاجم في الاماكن  
ان تحقق ان السلطان بايزيد وقع في الخطا  
تصور لك وجاءت هذه الاخبار الي السلطان  
في سنة ١٠٤٣ هـ في تلك السنة من قبله الى السلطان  
فرجع في ايامه انصرافه اليه والشراب تسجد يد  
لخاوفه ولم يمش ان قبله ما املد عليه في سنة  
تصور لك سنة ١٠٤٣ هـ من قبله من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
ولم يكن بذلك بل وافق على انة تكون  
السكة باسم تصور لك في مصر والتمسك  
للدلالة على تسميتها في الاماكن والسيادة  
في تلك السنة من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
التمسك ان علي ان تصور لك في سنة ١٠٤٣ هـ  
زحفه على الشام مدينة دمشق وولم اتجر في  
السادة التمسك على مصر ما اظهر السلطان  
في سنة ١٠٤٣ هـ من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
الخلاف على شخصه من الامارات الخضوع  
في سنة ١٠٤٣ هـ من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
ومات تصور لك في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
رؤس مخونه في خراج في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
بقي الفارق في شواهد الوغير في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
طويلة حاضرة بين كبار الامراء من الممالك التي  
متشبهه في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
مطر والشام للوصول الي العرش واخيرا  
في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
جري عزل فرخ وقتله في مايو سنة ١٠٤٣ هـ بعد  
ثلاث ايام والسنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
ان ثبتت عليه جريه في زوجته وغير ذلك  
في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
الامارات الكبرية في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ

لعمرك ان الموقر قد علم اني قد اشتهيت في ارضه خوف شديد  
بمنها عوامه من عبيانها على هذه تيسر علينا انك  
لما اذعن وقوم في مدينته غير انما القول اتجسسوا  
لحسن حفظه في حق (نحوه) اسما بالاصغر في وجهه  
انزلوا تدويرك بالجنس والتمسك من هذا سنة  
شبهه في فهم وقعة القبرية من سنة ١٠٤٠ هـ في هذا المكان  
الدولة العثمانية انما كانت تهاجم في الاماكن  
ان تحقق ان السلطان بايزيد وقع في الخطا  
تصور لك وجاءت هذه الاخبار الي السلطان  
في سنة ١٠٤٣ هـ في تلك السنة من قبله الى السلطان  
فرجع في ايامه انصرافه اليه والشراب تسجد يد  
لخاوفه ولم يمش ان قبله ما املد عليه في سنة  
تصور لك سنة ١٠٤٣ هـ من قبله من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
ولم يكن بذلك بل وافق على انة تكون  
السكة باسم تصور لك في مصر والتمسك  
للدلالة على تسميتها في الاماكن والسيادة  
في تلك السنة من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
التمسك ان علي ان تصور لك في سنة ١٠٤٣ هـ  
زحفه على الشام مدينة دمشق وولم اتجر في  
السادة التمسك على مصر ما اظهر السلطان  
في سنة ١٠٤٣ هـ من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
الخلاف على شخصه من الامارات الخضوع  
في سنة ١٠٤٣ هـ من قبله في سنة ١٠٤٣ هـ  
ومات تصور لك في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
رؤس مخونه في خراج في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
بقي الفارق في شواهد الوغير في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
طويلة حاضرة بين كبار الامراء من الممالك التي  
متشبهه في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
مطر والشام للوصول الي العرش واخيرا  
في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
جري عزل فرخ وقتله في مايو سنة ١٠٤٣ هـ بعد  
ثلاث ايام والسنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
ان ثبتت عليه جريه في زوجته وغير ذلك  
في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ  
الامارات الكبرية في سنة ١٠٤٣ هـ في سنة ١٠٤٣ هـ



القبرصية ، فاستولى على ليماسول ولارناقا ، وأوغل في الداخل حتى هزم جيشا قبرصيا بقيادة الملك جانوس لوزجنان، ودخل عاصمته نيقوسيا . وعادت تلك الحملة المنتصرة بالملك جانوس أسيرا بين الأسرى ، ثم لم يلبث السلطان أن أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة ، على أن يصبح تابعا للسلطنة المملوكية في مملكته قبرص . أما حسن بن عجلان شريف مكة فجرى اخضاعه قبل نهاية هذه المشكلة القبرصية . وبذلك استردت مصر سيادتها على مكة ومينائها جدة وقدم الشرف حسن الى القاهرة صحة ركب الحاج المصرى والجيش المملوكى العائد ، فأكد لبرسباى ولاءه واخلاصه للسلطنة ، وتمهد بأن يدفع جزية سنوية تأكيدا لتبعيةه . غير أن تقرر ابقاؤه بالقاهرة رهينة حتى يتم تأدية القسط الأول من هذه الجزية .

وحدث قبيل مغادرة الجيش المملوكى سواحل بلاد العرب أن وصلت الى جدة قافلة من السفن تحمل متاجر الهند وذلك بعد أن أضحى ميناء جدة خاضعا للسيادة المملوكية ، بعد أن تعهد القائد المملوكى لقائد هذه السفن بتقديم كل ما تحتاجه سفنه من المساعدة . وكان ميناء عدن باليمن حتى وقتذاك الميناء الوحيد الذى ترد اليه التجارة الهندية ، غير ان سوء المعاملة بهذا الميناء صرف قائد هذه السفن شمالا حتى جدة ، فأدت هذه الاتفاقية الى تحويل التجارة الشرقية كلها اليها تدريجا . ولم تلبث جدة أن أصبحت مركزا ومستودعا

وساد السلام أرجاء الدولة المملوكية بمصر والشام ما يقرب من سنة ونصف سنة ولم يعكر صفو ذلك السلام الا خروج نائب صفد بالشام ونائب البهنسا بالأطراف الشمالية ، فأخذ السلطان هاتين الحركتين في سهولة . غير أن برسباى ارتاع لما ورد في أغسطس سنة ١٤٢٣ من خبر هروب منافسه الخطير جانيك الصوفى ، من سجنه بالاسكندرية ، فأمر بالقاء القبض على كل من له صلة بالأمير الهارب ، ولكنه لم يستطع الحصول على شيء من أخباره . وكأنما كان هروب جانيك الصوفى مؤذنا بقيام عدة مشاكل مختلفة في وجه برسباى في وقت واحد ، وهى خروج نائب دمشق عن الطاعة ، واغارة القراصنة الافرنج على سواحل مصر على البحر المتوسط وامتناع الأمير حسن بن عجلان شريف مكة عن الاعتراف بالولاء والخضوع للسلطنة المملوكية . وبدأ برسباى معالجة هذه المشاكل الثلاث بارسال حملة الى الشام صحة نائب جديد لدمشق اسمه سودون ، حتى اذا جاءته الأخبار بانتصار سودون هذا على النائب الناصر وسجنه بقلعة دمشق ، وجه اهتمامه لمعالجة المشكلتين الأخرين . وكانت قاعدة القراصنة الافرنج وقتذاك جزيرة قبرص اللوزجانية ، فأغار برسباى على سواحلها اغارتين ناجحتين ، ثم عزم على الاستيلاء عليها نهائيا سنة ١٤٢٦ . ففى تلك السنة أفض برسباى جيشا يساعده أسطول كبير من مصر والشام الى المياه

لهذه التجارة الهائلة . واهتم السلطان برسباى صاحب السيادة على جدة بهذا المورد التجارى الجديد . فأنشأ بالقاهرة ديوانا خاصا أطلق على متوليه اسم شاد جدة ، وصار هذا الشاد يجمع من هذه التجارة السنوية ضريبة على قاعدة العشر من قيمتها . ولم يكتف برسباى بهذا الدخل الفجائى الضخم بل عمد الى احتكار التجارة الشرقية كلها لنفسه ، فضلا عن صناعة السكر فى مصر . وترتب على هذه الاجراءات ارتفاع جنونى فى الأسعار بحيث لم يعد فى استطاعة التجار الأوربيين احتمالها ، على الرغم من استعدادهم للشراء . وأدى هذا الى قيام كل من البندقية وقشتالة وأرجونة بالشكوى والتهديد بمقابلة هذه الاجراءات بمثلها ، أى برفع أثمان هذه السلع الأوربية الواردة الى مصر والشام ومعظم هذه أسلحة وحديد ومواد معدنية وحجرية مما يلزم للجيش المملوكى والقصور المملوكية .

على أن برسباى لم يكتف باحتكار التجارة بل عمد أيضا الى التدخل فى العملة والنقد بأن غير عيار الذهب والفضة بما يتفق مع مصلحته وغرضه ، ومنع تداول النقد الأجنبى كما يشتره بسعر منخفض . ثم اطلاق تداوله بعد ذلك ، مما أدى الى الحاق الخسائر الكبيرة بالتجار الوطنيين والأجانب على السواء . واشتد سخط الأهالى أيضا على السلطان بسبب ما اتخذ من طرق تصفية لجمع الأموال ، ومنها رفع أسعار السكر مع

احتكاره على حين امتد الاحتكار واتسعت دائرته حتى شملت خشب الوقود واللحم والحبوب ، ولم يعد يبيع الماشية مباحا . ولذا انتشرت المجاعة فى جهات كثيرة بمصر ، كما اشتعل الوباء أكثر من مرة بالقاهرة ، وزاد الحالة سوءا ما حدث على أيدي فئات المماليك الجلبان من أذى الناس فى الطرقات والشوارع .

وترتب على تطبيق سياسة الاحتكار فى الشام أن حل بالتجار والناس من الشدائد والمتاعب مثلما حدث بمصر ، غير أنه لم يتعرض السكان لما تعرض له أهل مصر من اساءات المماليك الجلبان لندرة وجودهم بالمدن الشامية . ثم شهدت الشام منذ سنة ١٤٢٩ عدة تجمعات حريرية موجهة لمراقبة قبائل التركمان ، ومراقبة حركاتهم المختلفة على الأطراف المملوكية ، وهم قبيلة الشاة البيضاء ، وقبيلة الشاة السوداء وقبيلة الدلفادرية . وكان وراء هذه الحركات العدائية التركمانية شاه رخ بن تيمور لك الذى ساءه رفض السلطان برسباى السماح له بالمشاركة فى كسوة الكعبة ، ولذا حالف قبيلة الشاة البيضاء ، وشجع زعيمها عثمان قرابلك على تحدى برسباى ، ومقاومة الحصار المملوكى الذى ضربه برسباى بنفسه حول آمد سنة ١٤٣٣ . أما قبيلة الدلفادرية التابعة فعلا للدولة المملوكية وقتذاك ، فخلاصة حركتهم العدائية أنهم ألجأوا الأمير جانك الصوفى الهارب من سجن الاسكندرية منذ

جقمق أن عزل يوسف وسجنه بقلعة الجبل، وأقام نفسه مكانه في السلطنة في سبتمبر سنة ١٤٣٨ . وبينما يتجهز جقمق للسير على رأس حملة الى الشام لقمع حركة المعارضة لسلطنته في دمشق وحلب فرالسجين يوسف من القلعة متخفيا في زى خدم المطابخ السلطانية ، ولحق به مؤيدوه في جوف الصعيد حيث قامت حركة معارضة أخرى ضد السلطان . على أن جقمق استطاع التغلب على هاتين الحركتين في سهولة ، اذ قبض على يوسف في أبريل سنة ١٤٣٩ وأرسله الى الاسكندرية ليقتضى أيامه بها حبسا مكرما ، وفي الشهر التالي تهدمت حركة دمشق وسار جقمق على نهج برسباي للحد من القراصنة المسيحيين الذين نشطوا في البحر من جديد ، على الرغم من حرمانهم من موانئ جزيرة قبرص ، وذلك لأنهم جعلوا من جزيرة رودس التابعة لهيئة الفرسان الاستبارية موئلا ، وأغاروا منها على السواحل المصرية والشامية وعاثوا فيها فسادا . ولذا أرسل جقمق في أغسطس سنة ١٩٤٠ حملة لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس . ومع أن المحاولة تجددت سنتي ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، فإن الجزيرة استطاعت مقاومة الاغارات المملوكية الثلاث ورضى السلطان جقمق بالصلح على قاعدة منع القراصنة من اللجوء الى سواحل رودس ، واحترام مصالح هيئة الفرسان الاستبارية في كل من قبرص وسواحل آسيا الصغرى ، وساعد على عقد هذا الصلح

السنة الأولى من سلطنة برسباي ، وأنهم أعلنوا حمايتهم له ، على أن النصر تحقق أخيرا للسلطان برسباي ، اذ لقي عثمان قراييك مصرعه في حرب ضد قرا يوسف زعيم قبيلة الشاة السوداء ومات جانك الصوفي قتيلا ، وعادت قبيلة الدلفادرية الى تبعيتها القديمة .

ولم يعيش برسباي طويلا لينعم بهذه الانتصارات التي لم يكن جديرا بها البتة ، على قول المقرئى المؤرخ المعاصر ، ومات هذا السلطان غير مأسوف عليه ، في يونيه سنة ١٤٣٨ ، بعد أن جعل ابنه يوسف الذى يبلغ من العمر أربع عشرة سنة خلفا له في السلطنة ، وعين أحد خلفائه من الأمراء وصيا عليه ، واسمه جقمق . وكان برسباي ملكا عسوقا محبا للمال . ولم يكن ما اتشر في عهده من هدوء وسلام دليلا على شيء من الرخاء أو الطمأنينة بين الناس ، فان فتح جزيرة قبرص لم ينتفع به الا مماليكه ، وسياسته الاحتكارية لم تملأ جيوبا سوى جيوبهم الواسعة . أما أهل مصر والشام فتحملوا أنواع الارهاق أثناء ذلك العهد الذى امتد الى ستة عشر عاما اذ هددتهم المجاعات والفلاء حتى في سنوات وفرة المحاصيل .

ولم يبق يوسف بن برسباي في السلطنة سواء تسعة وأربعين يوما ، عمل أثناءها جقمق على جمع مقاليد الأمور في يده . ثم ما لبث

وحب الخير بالقياس الى ما اشتهرت به حكومة سلفه من الجشع . واتصف جقمق بصفات وخلال شخصية تابعة من تقوى عميقة ، على غير المعهود في معظم سلاطين الماليك ، اذ راعى في حكمه ما ورد في القرآن الكريم من أحكام ، فلم يتناول طعاما نهى عنه الشرع ، ومنع شرب الخمر ، وحرم استخدام الأدوات الموسيقية وكره الملابس المبهجة وألزم رجال القصر والأمراء بارتداء الثياب القصيرة ، وقص شواربهم الطويلة . واشتهر جقمق بسخائه وكرمه مع العلماء ، واعتقد أن الكتاب القيم لا يقدر بثمن مهما ارتفع هذا الثمن . ثم مات جقمق وهو يناهز الثمانين ، في فبراير سنة ١٤٥٣ ، بعد مرض طويل ظل يعانيه في صبر وشجاعة مدة سنة .

وتنازل جقمق عن السلطنة وهو على فراش الموت ، وهو أمر لم يكن له سابقة عند الماليك ، وترك أمر تعيين سلطان بعده للخليفة العباسي والقضاة وجماعة الأمراء ، اذ استدعى هؤلاء وأولئك لحضرته ، وخطب الحاضرين قائلا : « الأمر لكم ، انتظروا فيمن تسلطنوه » اعتقادا منه أنهم سوف لا يفعلون ابته . وهكذا أجرى اختيار عثمان بن جقمق ليخلف أباه في الحكم .

وبلغ عثمان بن جقمق التاسعة عشرة من العمر حين صار سلطانا ، أى أنه لم يكن طفلا صغير السن ، غير أنه كان أقصر عهدا من صفار الأبناء الذين خلفوا آباءهم في السلطنة.

التاجر الفرنسى الشهير جاك كير على أن هذا التاجر الذى سيطر فى زمنه على جزء كبير من التجارة بين فرنسا والدولة المملوكية لم يستطع أن يقنع السلطان جقمق بضرورة الغاء السياسة الاحتكارية التى بدأها برسباى . واتتهج جقمق نحو الدول الاسلامية المجاورة سياسة مبنية على التساهل والتضامن فلم يكثر لآراء أمراء المشورة بشأن شاه رخ بن تيمور لك بل سمح له سنة ١٤٤٣ بارسال كسوة الكعبة ، فأنهى بذلك مشكلة النزاع القائم بين الدولتين المملوكية والتيمورية منذ أيام برسباى ، وذلك دون أن يفقد شيئا من حقوقه أو كرامته . وحرص جقمق على استمرار العلاقات الودية مع السلطان العثمانى مراد الثانى ، وأمراء آسيا الصغرى ، وكل ذلك فى سبيل السلام .

على أن جقمق لم يحرز من النجاح فى السياسة الداخلية ما أحرزه فى السياسة الخارجية بسبب ما دأبت عليه فئات الماليك السلطانية من حركات التمرد والاساءة الى الأمراء ورجال الحكم والادارة ، مما يسلا صفحات عديدة من التواريخ المعاصرة وازدادت اعتداءات أولئك الماليك على الكبير والصغير حتى النساء فى أيام المواسم والأعياد ، دون أن يستطيع السلطان جقمق ردعهم ، وكذلك لم يستطع جقمق أن يوقف ما تسرب من الفساد فى الاحتكارات التجارية . ومع هذا اشتهرت حكومة جقمق بالاعتدال

بالكرامة والاحترام ، ولم يلبثوا أن ملكوا  
زمام الحكم ، فصاروا يعزلون ويولون من  
يريدون من الموظفين ، ولم يجرؤ السلطان أن  
يؤنبهم على ما ارتكبوه باسمه .

ولذا يبدو عجبا أن السلطان اينال  
استطاع اصلاح النقود الفضية سنة ١٤٥٨ ،  
اذ أمر بسحب النقود التي أصدرها السلاطين  
السابقون منخفضة العيار وأحل محلها عملة  
جديدة ، كما أمر بتوقيع العقوبة القسوى  
على المتهمين بغش النقود ، وهم الرغلية الذين  
كثرت أعدادهم منذ أيام التلاعب بالنقد زمن  
برسباى .

وأصاب السلطان اينال كذلك نجاحا في  
السياسة الخارجية فاستت علاقاته بالسلطان  
العثمانى محمد الثانى بالود الخالص ، وذهبت  
من القاهرة سفارة خاصة لتقديم التهنئة  
للسلطان بفتح القسطنطينية . ورضيت  
السياسة الاينالية بما حلّ بامارة قرمان بأسيا  
الصغرى من اعتداءات العثمانيين ، وهى اماره  
معروفة بولائها القديم لسلاطين المماليك ،  
وترتب على ذلك أن أغار أمير قرمان على  
الأطراف المملوكية بشمال الشام ، واستولى  
على عدة بلاد من اقليم قيليقية ( أى أرمينيا  
الصغرى سابقا ) ، غير أنه لم يلبث أن ارتد  
عنها بعد أن نهض اينال الى مصالحته  
سنة ١٤٥٨ ثم تدخل فى النزاع حول وراثة  
العرش فى مملكة قبرص التابعة للسلطنة  
المملوكية منذ أيام برسباى اذ قدم الى القاهرة

ويرجع سبب خلعه بعد ستة أسابيع فقط من  
اعلان سلطنته الى طيشه الذى أدى به الى  
استبعاد جميع فئات المماليك عن شئون الحكم  
ما عدا ممالك أيه ولذا حاصرت هذه الفئات  
المملوكية بزعامه الأتابك اينال بالقلعة فى  
مارس سنة ١٤٥٣ وجرى خلعه قبيل استسلامه  
للمحاصرين ، بموافقة الخليفة العباسى الذى  
اشترك فى الاحتفال .

ومع أن اينال تولى السلطنة وهو فى  
الثالثة والسبعين من عمره ، وأنه بلغ من  
الأمية والجهل ما جعله عاجزا عن كتابة اسمه ،  
فانه استطاع أن يظل فى الحكم ثماني سنوات  
وتعليل هذا ، أن السلطان اينال التزم الليونة  
والمطاوعة والاستجابة لمطالب الفئات المملوكية  
التي وصل على أكتافها الى السلطنة ، ولا سيما  
فئة المماليك الجلبان . غير أن استمرار  
خضوع السلطان للمطالب المالية التي عكف  
الجلبان على تقديمها جعل هذه الفئة أخيرا  
مصدر فتنة وخطر على مركز اينال ، بدليل  
رميهم اياه مرة بالحجارة ، وهو فى طريقه اليهم  
من القلعة لمناقشة مطلب من مطالبهم  
سنة ١٤٥٦ . وما زاد الطين بلة أن هذه القلعة  
العارمة أدت بالسلطان اينال الى الاستجابة  
لمطلب الجلبان ، ووصف المؤرخ أبو المحاسن  
يوسف هذا الامعان فى استرضاء الجلبان ،  
بأنه « الاحتمال الذى يؤدي الى قلة المروءة » .  
والواقع أن الجلبان غدوا بسبب هذه  
النرضيات المستمرة فئة خالية من كل احساس

ويختلف خشقدم عن سائر سلاطين المماليك السابقين من الجراكسة بأنه ينتمي الى أصل يوناني ، واليه ترجع تجربة مريرة في نكران الجميل ، وهى أنه تخلص بالقتل والسجن والتشريد والمصادرة من أمراء المماليك الذين أقاموه في السلطنة ، وألب الفئات المملوكية بعضها على بعض ، أملا منه في السيطرة بعد ذلك على مماليكه الجلبان ، واستخدام شعبهم في الاستيلاء على أموال الأغنياء من التجار ، فضلا عما استولى عليه من أموال الأمراء المصادرين . وهكذا أخلى خشقدم الجو للماليك الجلبان ، فأخذوا يعيشون فسادا كما يشاءون ، ويقتلون الأبرياء ، وهذا على حين دأب السلطان خشقدم على جمع الثروة لنفسه فباع الوظائف الحكومية علنا ، وهدم موازين العدالة بمساومة المتقاضين أمامه في دار العدل . وأسوأ من ذلك كله ما لجأ اليه هذا السلطان من زيارة كبار الأغنياء رسميا في بيوتهم ، ومطالبة الواحد منهم بتقديم الهدايا اللائقة بالسلطنة .

أما من ناحية السياسة الخارجية فيعتبر عهد خشقدم بداية النزاع بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية ، وهو النزاع الذى أدى أخيرا الى زوال دولة سلاطين المماليك بمصر والشام ، واستيلاء العثمانيين على هذين القطرين أوائل القرن السادس عشر . وبدا هذا النزاع في سنة ١٤٦٣ بما

جيمس لوزجنان رئيس نيقوسيا ، وطالب بحقه فى العرش كما طالبت بحقها كذلك أخته الملكة شارلوت لوزجنان . وعاد جيمس الى قبرص صحبة حملة مملوكية لنجدته ، واستطاع بمساعدة هذه الحملة أن يحتل العاصمة نيقوسيا غير أن النزاع بين جيمس وشارلوت استمر بضع سنوات ولم تظهر نتائج في حياة اينال الذى كانت وفاته في فبراير ١٤٦١ ، وترك اينال أسرة اشتملت على أربعة أفراد ، بنتان وولدان من زوجة وحيدة ، وهو أمر نادر الحدوث في التاريخ المملوكى . غير أن ستارا كنيفا لا بد أن يسدل على حياة السلطان الشخصية .

وتنازل السلطان اينال ، قبيل وفاته بيوم واحد ، عن العرش لابنه الأكبر أحمد الذى تولى وظائف مسئولة مختلفة في حياة أبيه ، واشتهر بحبه للإصلاح ، وبلغ الثلاثين من عمره حين آلت اليه السلطنة ، ولذا كان لأحمد بن اينال من الخبرة الادارية والحماسة والنضوج السياسى ما يبشر بعهد جديد . غير أن الحزبية المملوكية التى رفض السلطان الجديد ترضيتها على طريقة اينال اجتمعت على تدمير مؤامرة لاقصائه عن العرش واقامة الأتابك خشقدم أو غيره مكانه . وتعرضت القلعة لهجوم المتآمرين في يونية سنة ١٤٦١ ، ولم يلبث السلطان أن أعلن التسليم ، وتم عزله واخراجه من القلعة سجينا الى الاسكندرية وجرت المناذاة بخشقدم سلطانا .

جرى من اختلاف حول الوراثة في امارة قرمان حيث أيد السلطان العثماني محمد الثاني أميراً معروفاً بعمدائه للسلطنة المملوكية ، وأمدته بقوة عسكرية مقابل نزوله عن عدة بلاد قريبة من الأطراف المملوكية ، غير أن هذا النزاع لم يؤد إلى حرب بين الدولتين زمن السلطان خشقدم .

وجرى خشقدم في قبرص على سياسة سلفه اينال لغرض أعمق من مجرد المساعدة الحربية لملكها جيمس الثاني ضد أخته شارلوت ، وكان هذا الغرض هو التخلص من بقايا الفئات المملوكية التي غدت ناقمة على السلطان بمصر والشام ، بدليل تكرار هذه المساعدة الحربية دون الحاجة إليها . وفي أواخر حكم خشقدم ، أخذت قبائل البدو تثير الرعب والاضطراب لا في الوجه القبلي فحسب ، بل في الشام وشمال بلاد العرب ، حيث تعرضت قوافل الحجاج لسطوهم ونهبهم . وبينما تجرى الاستعدادات لارسال الحملات اللازمة لقمع هذه الحركات البدوية حل المرض بالسلطان خشقدم ، ومع أن حملة سارت فعلا إلى شمال بلاد العرب فإن حملة أخرى إلى الصعيد ، رفضت السير ، إذ فضل قائدها البقاء في القاهرة ليرقب ما تأتى به الأيام بعد موت السلطان . وفي أكتوبر سنة ١٤٦٧ ، مات خشقدم ، وترك ولدين أكبرهما هو المعروف باسم منصور .

وفي الشهور الأربعة التالية غدت القاهرة

مسرحاً لمؤامرات واضطرابات بين الفئات المملوكية وتولى السلطنة في هذه المدة صاحبة سلطانان . وتفصيل ما حدث أن السلطان خشقدم لم يجر على القاعدة التي درج عليها السلاطين السابقون ، فلم يرشح ابنه منصوراً ليخلفه ، ولم يوعز إلى أحد بترشيحه ، ولم يحفل زعماء المماليك بدورهم بما عسى يكون للرجل الراحل من رغبات باطنة حول هذا الموضوع ، بل عقدوا اجتماعاً قبيل وفاة خشقدم بساعات قليلة ، واتفقوا على إقامة أحدهم وهو الأتابك بلباي في السلطنة ، وهو المشهور بالمجنون ، وجرى إعلانه سلطاناً في نفس اليوم بعد الانتهاء من تشييع جنازة خشقدم ودفنه . وبعد شهرين فقط قرر أولئك الزعماء عزل بلباي فعزلوه ، لأنهم أرادوا إقامة زعيم آخر منهم فأقاموه ، وهو تمريفا اليوناني الأصل في ديسمبر سنة ١٤٦٧ . ولم يقيم تمريفا في السلطنة أكثر مما أقام سلفه سوى أيام معدودات ، وتراءى للمعاصرين أن سوف تتكرر الحال على هذا المنوال ، ما دامت الفئات المملوكية على ما هي فيه من منافسات وقتن ، وما دامت زعامتها لا تنطوي إلا على أمثال بلباي وتمريفا . غير أن الحوادث لم تلبث أن أنجبت رجلاً من نوع آخر ، وهو الأتابك قايتباي الذي أقامته الفئات المملوكية سلطاناً في يناير سنة ١٤٦٨ ، ظناً منها أنها سوف تتخلص منه سريعاً كما تخلصت من سلفيه . لكن قايتباي ظل سلطاناً ما يقرب من تسع وعشرين سنة . ويرجع هذا

على أن المشكلة الخارجية الكبرى زمن قايتباى جاءت من ناحية الدولة العثمانية التي أخذت منذ تمت لها السيطرة على البلقان تعمل على الاستيلاء على ما تبقى خارجا عن طاعتها بآسيا الصغرى ، وهما امارتا قرمان ودلغادر المشمولتان بحماية السلاطين المماليك وعليهما اعتمدت الدولة المملوكية في شؤون الأمن والدفاع على أطرافها الشمالية . ورأى قايتباى معالجة هذه المشكلة بمعاودة وافقت السلطان العثمانية والمملوكية فيها على عدم التدخل في شؤون هاتين الامارتين ، وبحسب هذا الاتفاق ظلت العلاقات في وئام ظاهر بين السلطنتين حتى وفاة السلطان العثماني محمد الثاني سنة ١٤٨١ . ثم حدث أن أساء قايتباى الى السلطان العثماني الجديد بايزيد الثاني باستقبال أخيه ومنافسه الأمير جم بالقاهرة سنة ١٤٨٢ ، بل ان قايتباى قدم لهذا الأمير عدة أنواع من المساعدة للقيام بثورة فاشلة ضد بايزيد الثاني في آسيا الصغرى . ولهذا السبب فضلا عما قام به عمال قايتباى من اعتراض سفارة هندية الى البلاط العثماني ، أعلن بايزيد الحرب على مصر في سنة ١٤٨٦ . فاستولى جيش عثمانى على أذنه وطرسوس وسائر مدن قيليقية ، على حين قام جيش بحصار مدينة ملطية ، وكلها مدن تابعة لسلاطين المماليك وأعقب ذلك لعدة سنين حرب دفاعية هجومية رجعت فيها كفة الجيوش المملوكية على العثمانية أكثر من مرة ، واختتمت بصلح سنة ١٤٩١ لاعادة

التغيير الى شخصيته ، كما يرجع الى طبيعة المشاكل الخارجية التي واجهته منذ أوائل سلطنته وهي مشاكل صرفت الفئات المملوكية عن شعبها القديم الذي لم ينقطع منذ سنين ، وأدت بها أخيرا الى التكتل وراء السلطان في سبيل الدفاع عن مصالح الدولة المملوكية . ولهذا لم يكن عهد قايتباى أطول عهود دولة السلاطين الجراكسة فحسب ، بل أكثرها توفيقا ونجاحا . وأول هذه المشاكل الخارجية حركة الزعيم التركماني شاه سوار رئيس امارة الدلغادرية وآسيا الصغرى ، اذ عكف هذا الأمير على الاغارة على أطراف السلطنة المملوكية ، معتمدا في ذلك على معونة الدولة العثمانية ، فما زالت الحملات المملوكية حتى هزيمته وحملته أسيرا الى القاهرة حيث أعدم أواخر سنة ١٤٧٣ . ولم يكن قايتباى أقل امعانا في جهوده ضد أوزون حسن ( حسن الطويل ) زعيم الشاة البيضاء الذي حلا له أن يتظاهر بالولاء والاخلاص للسلطان قايتباى أثناء حركة شاه سوار وأرخصى له قايتباى الجبل على الغارب حتى انتهى من هذه الحركة وصاحبها . ذلك أن أوزون حسن كان يطالب بمشاركة السلطنة المملوكية في كسوة الكعبة ، كما طالب بها قبلا شاه رخ تيمورلنك زمن السلطان برسباى ولذا عمل قايتباى على هدم هذه المطالبة بإرسال حملة مملوكية تلو أخرى لغزو الأراضى القرآتية التابعة للشاة البيضاء حتى وفاة أوزون حسن سنة ١٤٧٨ .

الأوضاع السياسية الى ما كانت عليه قبل الحرب ، غير أن هذا الصلح لم يكن سوى نقحة من نقحات الهدوء قبل العاصفة .

واستطاع قايتباي برغم انصرافه الى كل هذه الحملات والحروب السابقة أن يجد وقتا للدبلوماسية الهادئة الى تطلبتها جزيرة قبرص بعد أن صار عرشها الى الملكة كاترينا كورنار والتي ترجع الى أصل بندقى ، وبعد أن غدا للبندقية كلمة نافذة في شئون ذلك العرش . ذلك أن الملكة كاترينا لم تواظب على دفع ما هو مقرر عليها من جزية سنوية منذ ١٤٧٨ ، فما زال قايتباي يضغط على جمهورية البندقية ، ويهدد تجارتها بمختلف التضيقات التجارية بالاسكندرية ، حتى قامت البندقية بدورها بالضغط على كاترينا لارسال الجزية المقررة في انتظام . على أن دبلوماسية قايتباي لم تنجح في كل الأحوال ، إذ حاول مساعدة أبى عبد الله ملك غرناطة ، بأن هدد فرديناند ملك اسبانيا المسيحية بتدمير بيت المقدس واستئصال شأفة المسيحيين بمصر والشام إذ لم ينته من هذه الحرب بصلح عاجل . غير أن الملك فرديناند أبى أن يدعن لهذا التهديد وظل يحارب ملكة غرناطة حتى استولى عليها تماما ، وكل ذلك دون أن يفكر قايتباي في تنفيذ أية ناحية من نواحي تهديداته .

أما السياسة الداخلية زمن قايتباي ، فأول مميزاتها أن السلطان اتبع طرقا ووسائل مخالفة لما سار عليه سائر السلاطين الجراكمة

قبله وبعده ، ومثال ذلك حسن معاملته لجميع من جرى خلعه من السلاطين وأبنائهم ، إذ حرص على دعوتهم الى مشاركته في لعب الكرة بالقاهرة ، وسمح لهم بتأدية فريضة الحج ، بل انه أجاز لهم النزول الى القاهرة أثناء غيابه ، ولم تساوره الشكوك فيهم ، ولم يخش كيدهم . وأكثر قايتباي من مغادرة القلعة لا للتنزه والصيد خارج القاهرة فحسب ولا للحج زلقى ، بل لمعرفة أحوال المدن والحصون ، فزار حبرون وبيت المقدس والاسكندرية ودمياط ودمشق وحلب ، وبلغ شاطئ الفرات . وهو طرف السلطنة المملوكية . وخلف قايتباي أينما سار آثارا دالة على عظمته ، من طرق وجسور ومساجد ومدارس واستحكامات ، ومن هذه القلعة المعروفة باسمه بالاسكندرية حتى العصر الحاضر .

على أن قايتباي لم يبلغ ما بلغه من النجاح في سياسته الخارجية والداخلية الا بفضل شخصيته الناضجة ، فالى جانب ما اشتهر به من الكياسة والشجاعة ، كان قايتباي كذلك سلطانا حازما سيطرا بقوة الخلق على مماليكه الجلبان تمام السيطرة وبفضل مساعدتهم الخالصة له استطاع أن ينجح في ضبط الأحزاب المملوكية الأخرى ، وبذا اتشر في السلطنة المملوكية من مظاهر الأمن مالم يكن معروفا من قبل . غير أنه كان أمنا مشوبا بكثرة المطالب المالية الاضافية التي فرضها قايتباي على مختلف طبقات الناس بمصر والشام ، للصرف على حملاته الحربية وعمائره

الفضيحة ، فلم يكتف مثلا بما فرضه على  
الأملاك العقارية من ضريبة مبلغها ايجار سبعة  
شهور ، بل فرض مكسا باهظا في أواخر  
أيامه على ما يجري بيعه من القمح . واشتد  
قايتباى كذلك في استخلاص الأموال من  
اليهود والنصارى ، ولم يسلم كبار موظفى  
الدولة من مطالبه ، كما لم يسلم منها أعيان  
الأقاليم الذين أكرمهم السلطان بزياراته  
الرسمية ، كيما يحصل منهم على هدايا ثمينة  
لم يقدموها اليه عن طيب خاطر .

ثم اشتعل بمصر وباء سنة ١٤٩٣ ، واجتاح  
القاهرة والأقاليم حتى أفنى ما يقرب من مائتى  
ألف من أهل البلاد ، عدا ثلثى المماليك من  
مختلف الفئات ، وذهبت ضحيته ابنة السلطان  
وأما في يوم واحد . وما كاد يمضى على  
الوباء سنتان حتى أصاب القحط عامة البلاد  
المصرية ، وتفشيت الأمراض فى الماشية . ثم  
أعقب ذلك موجة من الشغب بين الفئات  
الباقية المملوكية ، ومع أن السلطان بلغ  
وقتذاك الخامسة والثمانين من عمره ، فانه  
نهض لاختاد الفتنة دون سفك دماء  
سنة ١٤٩٥ ، غير أن الشيخوخة أثقلته ،  
والمرض تغلب عليه وكانت وفاته فى يولية  
سنة ١٤٩٦ .

وشهدت القاهرة فى السنوات الخمس  
التي أعقبت وفاة قايتباى عهدود خمسة من  
السلاطين طمعت بالقوضى الداخلية  
والاضطراب ، وأولها عهد محمد الابن الوحيد

للسلطان قايتباى من عتيقته أصسلباى ،  
وكذلك عهد خاله قانصوه الأشرفى ، ولذا  
لم تستقر الحال الا سنة ١٥٠١ ، حين أقيم فى  
السلطنة أمير شبيه بالسلطان قايتباى من حيث  
السن والخبرة بشئون الحكم والمهارة فى  
معاملة فئات المماليك واسمه قانصوه الغورى .  
وعلى الرغم من أن السلطان الجديد تجاوز  
الستين من عمره ، وأنه تولى السلطنة بفضل  
اتفاق جماعة من الأمراء على توليته ، فانه  
لم يلبث أن أظهر لأولئك الأمراء أنه لن يكون  
صنيعة أحد منهم . ولم يختلف السلطان  
قانصوه الغورى عن سائر سلاطين المماليك  
فيما واجهه عند توليته من اجتماع فئات  
المماليك حول القلعة والحافهم فى طلب  
ما جرت به العادة من نفقة التولية ، غير أنه  
استغل هذه المطالبة لمعالجة الضائقة المالية التى  
كدستها أحوال السلطنة المملوكية منذ أواخر  
أيام قايتباى ، ووعد بتوزيع أموال النفقة  
المطلوبة فى أقرب فرصة . ولذا فرض السلطان  
الغورى من الضرائب الفجائية ما لم تشهد  
دولة الجراكسة له مثيلا ، إذ أمر بجباية ايجار  
العقارات لعشرة شهور دفعة واحدة ،  
ولم يقتصر فى ذلك على الدور والحوانيت  
فحسب ، بل تعداه الى الحمامات والسواقي ،  
والطواحين والسفن ، ودواب الحمل . وتقرر  
على الأوقاف الخيرية أيضا أن تدفع ما مقداره  
ربع سنة كاملة ، وهذا فضلا عن تخفيض سعر  
النقود لمصلحة الخزانة السلطانية . وترتب

على هذه الاجراءات أن توفر للسلطان الغورى من الدخل ما استطاع به أن يدفع أموال النفقة لفئات الممالك بحسب وعده السابق ، كما أنه اشترى عددا كبيرا من الجلبان ألف منهم طوائف جديدة اتسبت اليه ، وهى طائفة الغورية . على أن المعروف أن الغورى أنفق جانبا كبيرا من هذا المال كذلك فى تقوية حصون الاسكندرية ورشيد وحلب ، وفى اصلاح طريق الحجاج الى مكة ، وتشيد مسجده ومدرسته بالقاهرة .

ولذا ساد الهدوء مدن السلطنة المملوكية، برغم ما أمعن فيه من جمع الأموال ولم يقع من الحوادث ما يعكر صفو الأمن فى السنوات الأولى من عهده ، ما خلا حركات البدو المعتادة فى مصر والشام ، وما تطلبتة من حملات تأديبية على نحو ما جرى زمن جميع السلاطين . غير أن ما حدث من وصول البرتغاليين الى الهند واقامة أول محطة تجارية أوربية على الساحل الغربى الهندى أخذ يؤثر منذ أوائل عهد الغورى فى التجارة الشرقية المتدفقة على مصر والشام عن طريق عدن وجدة ، اذ ذهب هذه التجارة الضخمة تدريجا الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وذهبت معها حصيلة الضرائب المرورية الهائلة عند مرورها بالموانى المصرية التى جمعها سلاطين الممالك على هذه التجارة ، كما ذهب أرباح التجار المصريين والشاميين الى البرتغاليين . وأضاف سوءا

الى هذه الحال ما عمد اليه البرتغاليون من مهاجمة السفن المصرية فى بحار الهند ، ولبت الغورى استمع وقتذاك لما كررته له جمهورية البندقية من النصح ، فبادر الى استخدام القوات البحرية المملوكية لوقف الاعتداء البرتغالى قبل استفحاله ، لكنه حاول الوصول الى تسوية سلمية ، وبعث رسولا الى روما سنة ١٥٠٤ بشكوى الى البابا يوليوس الثانى تتضمن التهديد بتدمير الأماكن المقدسة فى فلسطين اذا لم يمتنع ملك البرتغال عن أذى مصالح التجار المسلمين بالهند ، وتهديد سفنهم التجارية . غير أن هذه السفارة لم تحقق شيئا ، وترتب على ذلك أن أعد السلطان أسطولا كبيرا فى البحر الأحمر لقتال البرتغاليين فى البحار الهندية وهاجم هذا الأسطول المملوكى البرتغاليين فى ميناء شول بالهند سنة ١٥٠٨ ، واستطاع بمساعدة قوات بحرية من سلطنة جوجيرات الاسلامية ، أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين . غير أن البرتغاليين انتقموا لأنفسهم فى السنة التالية فى معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ولم تقم للتجارة المملوكية فى الهند بعد ذلك قائمة .

ولم يمض على معركة ديو البحرية سوى سبع سنوات حتى زالت السلطنة المملوكية من الوجود على يد السلطان العثمانى سليم الأول ، وذلك أنه منذ صلح سنة ١٤٩١ بين السلطان قايتباى والسلطان بايزيد الثانى ، ظلت العلاقات ودية بين الممالك والعثمانيين .

وبينما تموج القاهرة وأهلها بأخبار هزيمة السلطان قانصوه الغورى ومصره ، جرى اختيار سلطان جديد فى أكتوبر سنة ١٥١٦ وهو الأمير طومانباى ، الذى عهد إليه قانصوه بتصريف أمور الحكم أثناء غيبته . وقبل طومانباى السلطنة كارها ، بعد أن أقسم الأمراء له فى مقبرة ولى من أولياء الله وهو الشيخ أبو السعود ، بأنهم سوف يبدلون أموالهم وأنفسهم فى سبيل دفع العثمانيين عن البلاد .

أما العثمانيون فأسرعوا فى زحفهم نحو مصر ، وعلى الرغم مما بذله طومانباى من جهود لوقف الزحف السريع حلت الهزيمة بالجيش المملوكى أولا فى بيان قرب غزوة ، ثم فى الريدانية خارج القاهرة . ووقعت معركة الريدانية فى يناير سنة ١٥١٧ ، وفى اليوم التالى لوقوعها تم الاعتراف بسليم الأول سلطانا على مصر والشام وجرت الخطبة باسمه من منابر القاهرة واستمر طومانباى يناضل بضعة أشهر ، غير أن الهزيمة حلت به مرة بعد مرة ، ووقع أخيرا فى قبضة العثمانيين وجرى اعدامه شتاء فى أبريل سنة ١٥١٧ ، على باب زويلة ( بوابة المتولى الحالية ) ، وباعدامه انتهى أمر السلطنة المملوكية .

ولابن اياس المؤرخ فى وصف الأيام الأخيرة من حياة طومانباى عبارات ملؤها الحزن على ما صارت إليه مصر من التغير ، بعد ذهاب السلطنة المملوكية ومجىء

ثم ما لبثت هذه العلاقات أن تحولت تحولا خطيرا سنة ١٥١٢ ، بعد سلطنة سليم الأول العثمانى الذى اشتهر بأطماعه التوسعية اشبعا للحركة العثمانية الذاتية ، وتحقيقا لسيطرة العثمانيين على العالم الاسلامى ، فما كاد ينتهى سليم من هزيمة الشاه اسماعيل أول ملوك الأسرة الصفوية الشيعية بايران فى معركة تشاردران سنة ١٥١٤ ، حتى وجه اهتمامه الى الأطراف المملوكية العثمانية بآسيا الصغرى ، فاستولى على امارة دلغادر وعاصمتها الابلستين ، برغم الصلح القائم بين المماليك والعثمانيين . ثم عزم سليم الأول على محاربة السلطنة المملوكية ، فاتخذ من الاتهامات التافهة التى وجهها الى السلطان قانصوه ذريعة للحرب ، والتقى بالجيش المملوكى فى أغسطس سنة ١٥١٦ فى دابق شمالى حلب ، حيث انهزم السلطان قانصوه هزيمة ساحقة ، ولقى حتفه فى الميدان . وترجع هذه الهزيمة الى تفوق عدد الجيش العثمانى ، والى المدفعية العثمانية التى لم يكن لدى الجيش المملوكى ما يقابلها ، وهذا وذلك فضلا عن خيانة قائد الجناح الأيسر للجيش المملوكى ، واسمه جابر بك ، وهو الذى نعتته التاريخ باسم خاين بك . فسلمت له حلب دون مقاومة ، كما سلمت له دمشق كذلك بعد مفاوضات قصيرة ، ولقى العثمانيون أينما حلوا كل مظاهر الترحيب ببعيئهم لا تقاذ البلاد وتخليصها من المماليك .

العثمانيين . على أنه لم ير في ذلك التغيير شيئا  
الاما جرت به المقادير التي ليس لانسان عليها  
سلطان ، ولم يدرك — أو أنه لم يستطع أن  
يدرك — أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة  
كانت تنخر في الجسم السياسي للدولة  
المملوكية ، وأن معظم هذه العوامل وارد  
صراحة وتلميحا في تاريخه الكبير . وحز في  
نفس ابن اياس أن مصر صارت ولاية تابعة ،  
بعد أن كان سلطانها على قوله « أعظم  
السلطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم  
الحرمين الشريفين ، وحامي ملك مصر الذي  
افتخر به فرعون .. » .

أما العوامل الداخلية التي مكنت لهذه  
الدولة استمرارها رغم قصور سلاطينها عن  
مستوى سلاطين الدولة المملوكية الأولى ،  
فلا مشاحة أن أول هذه العوامل هو أن  
الممالك سيطروا على جميع الوظائف  
العسكرية والادارية كما سيطروا على وظائف  
البلاط السلطاني ، ثم انهم حرصوا — ابتداء  
من السلطان الى المملوك المجلوب حديثا —  
أن يظلوا طبقة أولي جارية ممتازة منعزلة عن  
سائر أهل مصر والشام وغيرها من الولايات  
المملوكية ، ومن هذه الطبقة تألفت فئات  
الجهاز العسكري الوحيد في البلاد .

وإذ اختتمت السلطنة المملوكية في مصر  
والشام وغيرها من الولايات المملوكية على  
هذا النحو الكسير ، وذلك بعد مرحلة زمنية  
بدايتها ١٣٨٢ م ونهايتها ١٥١٧ ، أي مدة مائة  
وخمس وثلاثين سنة فلا أقل من استعراض  
بعض العوامل العامة التي مكنت لهذه الدولة  
أن تمكث مدتها في شيء من الاطمئنان  
الداخلي ، والخارجي كذلك . أما من الناحية  
الخارجية فمن الواضح أن الأعمال المملوكية  
في قبرص وروودس وأطراف العراق وآسيا  
الصغرى جعلت للحكم المملوكي هبة عامة في

وإذ اختتمت السلطنة المملوكية في مصر  
والشام وغيرها من الولايات المملوكية على  
هذا النحو الكسير ، وذلك بعد مرحلة زمنية  
بدايتها ١٣٨٢ م ونهايتها ١٥١٧ ، أي مدة مائة  
وخمس وثلاثين سنة فلا أقل من استعراض  
بعض العوامل العامة التي مكنت لهذه الدولة  
أن تمكث مدتها في شيء من الاطمئنان  
الداخلي ، والخارجي كذلك . أما من الناحية  
الخارجية فمن الواضح أن الأعمال المملوكية  
في قبرص وروودس وأطراف العراق وآسيا  
الصغرى جعلت للحكم المملوكي هبة عامة في

المترددين ، بل فضل ملوكها البقاء في سلام  
ووثاق مع السلطان المملوكي .

ثم ان السلطنة المملوكية توفر لها جهاز  
ادارى بالغ الدقة والمقدرة على الاستمرار  
الذاتي ، يرغم ما أحاط به أحيانا من مظاهر  
الاضطراب لأن عامة موظفي هذا الجهاز  
الادارى كانوا من المصريين والشاميين على  
اختلاف عقائدهم الدينية ، فلم يحفلوا بما  
جرى في دوائر السلطنة ، أو بين زعماء  
المماليك من أحقاد ومناقسات .

والواقع أن أهل مصر وانشام لم يحدثوا  
لحكامهم المماليك متاعب كثيرة ، اذ قنعوا  
بزراعة الأرض ودفعوا ما هو مفروض عليهم  
من ضرائب ثقيلة متعددة ، وصنعوا ما احتاج  
اليه السلطان والأمراء والجيش من معدات  
مدنية وعسكرية ، ورضوا بما أضفت عليهم  
أعمالهم في الزراعة والصناعة من أرزاق يومية  
قليلة . ولذا لم يكن أهل مصر والشام أداة  
راضية في أيدي السلاطين فحسب ، بل أداة  
طبعة كذلك ، وكان ما اشتهروا به من الوداعة  
والهدوء مما يسر لسلاطين المماليك بأن  
يقوموا بحروبهم خارج البلاد ، أما البدو  
بالأقاليم الذين لم يحفلوا بما للقانون من  
سلطان فلم يشتهروا بما اشتهر به المصريون  
والشاميون من الرضى العام والميل الى  
السكون والهدوء ، بل كانوا خطرا على  
الحكم المملوكي منذ أيامه الأولى ، وكانت  
كراهيتهم للمماليك سببا من أسباب انهيار  
المقاومة المملوكية ضد العثمانيين .

ويستطيع سلاطين الدولة المملوكية الثانية  
أن يفخروا بعدد من المباني التعليمية  
والتذكارية ، فضلا عن العمائر التجارية الدالة  
على ما بلغت تجارة مصر الخارجية في زمنهم ،  
من ضخامة وتنوع زمن هذه الدولة ، سواء  
مع فرنسا واسبانيا والجمهوريات الايطالية  
من ناحية ، أو مع الهند والصين عن طريق  
البحر الأحمر من ناحية أخرى . أما المباني  
التعليمية والتذكارية فأهمها ، مدرسة السلطان  
برقوق ، وموضعها شارع المعز لدين الله  
الحالي ، وهي المدرسة التي ألقى فيها المؤرخ  
الفقيه عبد الرحمن بن خلدون دروسه في  
منهجه فقه المالكية ، ولا بد أنه تظل هذه  
الدروس اشارات كثيرة الى نظرياته  
الاجتماعية والاقتصادية التي امتلأت بها  
مقدمته المشهورة . وهي النظريات التي تأثر  
بها المقرئ في مؤلفاته . ومن هذه المباني  
كذلك ، خاتمة السلطان فرج بين برقوق ،  
وموضعها القرافة الشرقية الحالية بالقاهرة ،  
ثم مسجد المؤيد شيخ ، وهو المسجد الذي  
ظل حافلا بحلقات تدرسية أزهرية حتى  
العصر الحديث ، وموضع هذا المسجد  
بالسكرية بجوار باب زويلة ( بوابة المتولى ) .  
وهناك كذلك المدرسة الأشرفية برسباي ،  
وهي التي وافق الانتهاء من بنائها مجيء  
الأخبار الى القاهرة بوصول الملك القبرصي  
جانوس الثاني أسيرا الى الاسكندرية في  
ركاب الحملة المملوكية العائدة من قبرص ،  
ولذا أمر السلطان برسباي بتعليق خوذة

على المستويات التجارية والفنية أواخر عصر  
سلاطين المماليك .

واحتذى عدد من أمراء الدولة المملوكية  
الثانية حذو سلاطينهم في البناء والعمارة ،  
كما حدث أيام الدولة المملوكية الأولى ،  
ولكن على مقياس أصغر من حيث الفخامة  
والضخامة والكثرة العددية ، فبنى جركس  
الخليلى الخان المعروف باسمه ، وهو السوق  
الذى يعد أحد المباحج السياحية بقاهرة  
العصور الوسطى ، وبنى القاضى يحيى  
مدرسته الكائنة بشارع الأزهر الحالى  
ومسجده الأول بشارع المحكمة ببولاق  
ومسجده الثانى بالحبانية ، وترجع لعهد  
قايتباى عدة مبان أميرية ، أولها مدرسة الأمير  
قجماس الاسحاقى ، ومدرسة أبو بكر مزهر ،  
وقبة يشبك بن مهدى الدوادار ، وهى القبة  
القداوية بالعباسية .

وهناك كذلك مدرسة أزبك اليوسفى فى  
طولون ومدرسة تغرى بردى المؤذى  
بالصليبية .

وفى هذه المباني السلطانية والأميرية  
ما يبرهن على أن سلاطين الدولة المملوكية  
الثانية وأمراءها لم يكونوا أقل اهتماما  
بالمباني الدينية والتذكارية عن سلاطين الدولة  
المملوكية الأولى وأمرائها ، طواعية لنفس  
العوامل السابقة ، واشباعا لنفس الأغراض  
الدينية والأخروية .

واعترز سلاطين الدولة المملوكية الثانية

جانوس على باب تلك المدرسة ، تذكارا للتبعية  
قبرص للسلطنة المملوكية ، ولا تزال هذه  
المدرسة قائمة على رأس سوق العنبريين  
بالقاهرة الحالية . وللسلطان برسباى كذلك  
خانقاه ومدفن بالقرافة الشرقية ، فضلا عن  
مسجد لا يزال كذلك قائما ببلدة الخانكة  
الحالية ، شمالي القاهرة . وللسلطان اينال  
كذلك خانقاه ومدرسة ومدفن بالقرافة  
الشرقية ، أما السلطان قايتباى وهو الذى  
ظل فى دست السلطنة المملوكية ثمانينا  
وعشرين سنة ميلادية ، فهو صاحب أكبر  
مجموعة من المنشآت المعمارية ، ومنها مسجد  
ومدفن بالقرافة الشرقية ، ومنها كذلك القلعة  
التي بناها هذا السلطان بالاسكندرية على  
أنقاض الفنار القديم ، وفى بنائه لها دلالة  
واضحة على خشية الدولة المملوكية من ازدياد  
القوة البحرية العثمانية ، بعد أن أخذ  
السلاطين العثمانيون يمدون أبصارهم نحو  
جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى .  
وللسلطان الغورى مدرسة وقبة بجوار  
الجامع الأزهر ، ولا تزال القبة تستخدم  
لأغراض ثقافية ، وهى احدى القباب المملوكية  
التي شاءت المقادير أن يموت صاحبها بعيدا  
عنها ، فلا يدفن فيها . ومما يشيد باسم  
السلطانين : قايتباى والغورى فى ميادين  
المنشآت المعمارية ، وكالة قايتباى عند باب  
النصر ، ووكالة الغورى فى نهاية شارع  
الغورية ، وكلاهما كنز زاخر بالمعلومات الدالة

بالقلعة اعزازا ملحوظا ، وهم الذين نشأوا بها — واشتهروا باسم البرجية نسبة الى سكنهم بأبراجها ، ولم يكن لديهم من الحروب الخارجية ما يضطرهم الى التنقل والسفر بعيدا عنها ، بل كان لديهم من الفتن الداخلية ما جعلهم يعتصمون بها ، ولذا أقاموا بيوتها أكثر مما أقام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . على أنهم لم يحدثوا بها جديدا ، نظرا لاكتمال مبانيها وأسوارها وأبوابها وأبراجها وأحواشها ، فضلا عن بيوتها السكنية والحكومية ، منذ أيام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . ولذا اقتصر اهتمامهم بها على أعمال ترميمية واضافات تكميلية وتجديدات تحصينية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن السلطان برقوق عمّر بها صهريجها وطاحونا ، واشترى بسطا جديدة لدار العدل ، وأن السلطان جقمق جدد باب المدرج ، وأن السلطان قايتباي جدد عمارة الايوان الكبير ، وأنشأ مقعدا وبيتين بالحوش السلطاني ، كما أن السلطان الغوري جدد عمارة المطبخ الكبير ، وأنشأ المقعد القبطي الشهير .



والى هنا تكون الدولة المملوكية الثانية صورة مكررة تقريبا من الدولة المملوكية الأولى ، بعد تصغيرها . غير أن هذه الدولة المصغرة امتازت على سالفها بما أنجبت من حركة جديدة في كتابة التاريخ ، بفضل قدوم ابن خلدون الى القاهرة وقيامه بشرح نظرياته

الاجتماعية والاقتصادية في حلقات دروسه ، وتأثيره في تلميذه أحمد المقرئ وغيره من المعاصرين الذين تتلمذوا عليه . ووضح ذلك أول ما وضح في كتاب صغير عنوانه : « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » حيث أرجع المقرئ مشكلة اسلامية كبرى الى جذور قبيلة قديمة ، كما وضح في كتاب : « السلوك لمعرفة دول الملوك » حيث خصص المقرئ تأليفا عظيما في أربعة أجزاء ضخمة لتاريخ مصر زمن الدولتين الأيوبيه والمملوكية حتى سنة وفاته ، وهو الكتاب الذى تقدمت الاشارة اليه في الفاتحة من هذا الفصل .

ويلاحظ أن المقرئ خصص كتابا أخرى لعصور معينة من التاريخ المصرى ، مثل « عقد جواهر الأسفاط في ذكر تاريخ الفسطاط » . وتمعظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء الفاطميين .

وتبدو هذه النزعة المصرية القومية الخالصة في مؤلفات أخرى للمقرئ مثل : « المقفى الكبير » الذى أراد المقرئ أن يجعل منه معجما مصريا قوميا من أقدم العصور الى عصره ، ومثل « درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة » وهو معجم قومى لمعاصره . واستمرت هذه النزعة القومية في تلاميذ المقرئ والتابعين لهم ، فكتب يوسف بن تغرى بردى تاريخه الضخم المسمى : « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » وكتب عبد الرحمن السيوطى : « حسن المحاضرة في

وفي هذه العناوين شواهد بليغة لأطمة  
بالتطور في مفاهيم التاريخ ، ولكنها شواهد  
لم تلبث أن زالت بزوال ما لمصر من كيان  
سياسي ، نتيجة للفتح العثماني الذي جعل  
البلاد المصرية ولاية تابعة لدولة لا تعرف  
ولا تدرك من اللغة العربية وتراثها سوى  
النزr اليسير الضروري لشئون الدين .

تاريخ مصر والقاهرة « كما كتب محمد بن  
اياس : « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ،  
وهو كذلك في التاريخ المصري .  
ويبدو تأثير ابن خلدون واضحا في نوع  
جديد من المؤلفات ، منها : « اغائة الأمة  
يكشف الغمة » للمقرزي ، « وعلان بالتوبيخ  
لمن ذم التاريخ » للسخاوي ، « والشاريخ في  
التاريخ » للسيوطي .

# الحياة الدينية في مصر الإسلامية

من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث

لأستاذ أمين الخولي

حول المنهج :

الدين . . . والتدين

« هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشىء  
السحاب الثقيل ، ويسبح الرعد بحمده ،  
والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب  
بها من يشاء . . . »

( سورة الرعد آيتي ١٢ و ١٣ )

فيحدث عن نشأة — وتطور — ومقارنات ..  
ونواميس تنظم الحياة الدينية .. وسنن  
اجتماعية لها .. ونحو ذلك ..

وهو منهج لا يد لأحد بالخروج عليه ،  
ولا قدرة على انكاره .. وما أخالنا في الحديث  
عن الحياة الدينية المصرية الا مصغين لما  
يقوله في هذا ، غير منكرين لما يرى من صلات  
مثلا ، بين ألوان التدين المختلفة ، في مصر ،  
وفي سواها من بلدان أخرى ، وما يجد من  
روابط بينها ، أو مشابه ، وما يفسر به شيئا  
من هذا كله .

وهو اتجاه يخشى أن يجد فيه صاحب  
دين سماوي : مسلما أو مسيحيا ، أو غيرهما  
شيئا من غضاضة ، أو مساسا بكرامة عقيدته ،  
إذا جمع الدرس بينها وبين ألوان من التدين

منذ وجد الانسان على ظهر هذا الكوكب  
الأرضي ، قبل أن يكتب تاريخه وبعد ما كتبه ،  
كان يحتكم في حياته هذان الشعوران :  
الخوف والطمع ، أثرا لموقفه أمام الظواهر  
الحيوية ، أرضية وسماوية ، واحساسه  
الواضح بضعفه ، وعجزه ، وجهله ، أمام  
ضخامتها ، وشمولها ، وغموضها ، وتكرارها  
.. وما الى ذلك .

ولذلك تدين الانسان في كل زمان ، وكل  
مكان لونا ما من ألوان التدين ، بنوع ما من  
أنواع الدين .. فعرفت له ديانات وثنية  
مختلفة في أنحاء الأرض ، كما كانت له  
ديانات توحيدية ، في أرجاء من الدنيا .

والدرس العلمي لظاهرة التدين ،  
والأديان المختلفة يمضى على منهجه المحرر ،

أولا - وحدة الأديان ، التي يقررها القرآن ، بوضوح وصراحة تكررت في مثل (١) آية ١٣ من سورة الشورى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تفرقوا فيه .. الآية .. فهو يقرر أن الحقيقة التي شرعها فيما وصى به الرسل المتعددين واحدة .. والوحى الذي أوحاه اليهم جميعا متماثل .. وهذه الرسائل قد دخل عليها مع الزمن من التغيير ما دخل ، وجرى حولها من التخالف والتناكر ما جرى ؛ كما يحدث القرآن نفسه عن ذلك فيما بين اليهود والنصارى وسواهم ، لكنه مع ذلك كله يقرر وحدة أصلها ، وأن ما أوحى الى رسلها ، وأوصوا به واحد .. والصلة بينها قائمة في الأصل ؛ وفهم العوامل التي طرأت عليها في تأثرها وتطورها يبيح لباحثها أن ينظر اليها في ظل هذه الوحدة ، وأن يلتبس العوامل الفعالة في حياة هذا الأصل الموحد ، وما طرأ عليه من تغيرات ، دون أن يجد المتدين المؤمن غضاضة في الجمع بين ما صارت اليه رسالة نوح و ابراهيم ، وما في رسالة موسى وعيسى ومحمد بعدهما مثلا .

(١) في معنى هذه الآية المقررة للوحدة الدينية آية ١٦٣ من سورة النساء : انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبیین من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق .. الآية . وآية ١٣٦ من سورة البقرة . وآية ٨٤ من سورة آل عمران ، وغير هذه الآيات مما لا حاجة بنا الى احصائه .

البدائي أو المتطور ، لا يعدها صاحب الدين السماوى الا أساطير ، أو خرافات ، أو تحريفا شوهت عقائد سليمة الأساس ، كريمة المصدر .

ومن أجل هذه الخشية المتحرجة قدمنا هذه الكلمة عن « الدين .. والتدين » لنقول فيها لمثل هذا المتحرج أو المنكر لبعض مقررات المنهج العلمى الاجتماعى ، فى درس تاريخ الأديان ومقارناتها .. الخ : ان هذا المنهج لا يسيء الى الأديان السماوية المنزلة ، حين يقرنها فى درسه الى الديانات الأخرى ، التى تعدها الديانات السماوية ضلالات ، وخرافات ، أو تحريفات لحقائق صحيحة .

نعم .. لا يسيء ذلك الى الأديان السماوية فى شىء ، ويبين هذا بيانا كافيا وقوف الاسلام بخاصة ذلك الموقف الذى يقدم لنا تفسيراً يقر العلم فيما يصل به بين هذه الديانات التى يختلف نظر المعتقدين اليها ، وهو موقف يتجلى فى أصلين اجتماعيين دينيين ، قد قررهما القرآن فى صراحة ووضوح ، وفيهما التوفيق بين تناول العلم ، وتكريم المؤمن لعقيدته ، وبهما تفسر الجمع بين أديان هى تحريفات ، أو ضلالات فى رأى المؤمنين مع غيرها من الأديان المنزلة ، فبهما يمكن للعلم أن يسلكها معا ، حينما يدرس ظاهرة التدين الانسانية .

وهذان الأصلان الاسلاميان اللذان

يهيئان هذا التوفيق هما : —

وثانى الأصلين اللذين يقررهما الاسلام،  
ويسمحان للمنهج العلمى بخطته هو : أن كل  
أمة قد جاءها نذير ، أى أنه قد ألقيت إليها  
رسالة مبلغة ، كانت مناسبة لوقتها ، ملائمة  
لحالها وهو ما تقرؤه قويا ، بصيغة القصر فى  
آية ٢٤ من سورة فاطر : وان من أمة الا خلا  
فيها نذير .. وتظاهرها الى حد ما آية ٤ من  
سورة ابراهيم : وما أرسلنا من رسول الا  
بلسان قومه ليبين لهم ..

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال :  
ان ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها  
على يد نذير ، وله أصل سماوى .. ثم تغير مع  
الزمن كما تقضى بذلك طبيعة التطور ، فان كانت  
فيها حقيقة أو حقائق قد جاءت بها رسالات  
سماوية أخرى فليس ذلك مما اتفق فيه تدين  
خرافى أو ضال مع تدين سماوى ، ينزهه  
المؤمنون ، بل هى من الحقائق التى اشتركت  
فيها الوحدة الدينية فى الرسالات ، ووصية  
السماء ، وما حولها من باطل فى رأى المؤمنين  
هو ما لحقها من تشويه أو تحريف أو تغيير ..  
وخذ لذلك مثلا يزيد الأمر وضوحا وهو  
الميزان الأخرى ، ووزن الأعمال فى دار  
الجزاء على النحو الذى يوضح به ويرسم فى  
الوثنية المصرية ؛ فهل هو من الوثنية  
المصنوعة ، وقد انتقل الى الديانات الموحاة  
المنزلة بعد ذلك ؟ وفى هذا ما فيه من المساس  
بحرمة تلك الأديان المنزلة ؟ أو أن هذا الوزن  
والميزان فى الوثنية المصرية يمكن أن يقال —

فى ظل ما يقرره القرآن من الوحدة الدينية ،  
وارسال النذر الى جميع الأمم قاطبة — انه  
حقيقة دينية موحاة خلا بها نذير ، ثم تغير  
من أمر هذه الرسالة ما تغير ، وحفت بها  
التغيرات والتحويلات الوثنية ..

واذا ما أمكن أن يقال هذا فلا بأس على  
الدارس المصطنع للمنهج العلمى فى فهم ظاهرة  
التدين الانسانى أن يقرر الصلة بين التدين فى  
مختلف ألوانه ، ومتعدد صورته ، وأن يقارن،  
ويوازن بين الأديان المختلفة ، وأن يخضعها  
لقوانين مطردة ، وسنن موحدة ، لأنها فى  
حديث الوحي المنزل ، من القرآن ، ليست  
الا حقيقة واحدة ، ولا غرابة فى أن يكون قد  
خلا فى أمتها — حيث كانت — نذير من  
السماء بها .. ولا بدع فى الربط بين الأديان  
المختلفة ، فى أى زمن من الأزمان ، ولا يصح  
أن يشق ذلك على مؤمن ، أو يرى فيه بأسا ،  
أو منالا من دينه الذى يدين به .

وهكذا يزيل الهدى القرآنى كل صعوبة  
تعترض المنهج العلمى فى درس الأديان على  
مستوى اليوم .. فيستطيع المتحدث فيها أن  
يقول ما يجد عن صلة بين الدين .. والتدين  
فى الحياة المصرية ، على اختلاف أزمنتها ،  
وتنوع دياناتها ، وأن يلمح أوجه المشابهة بين  
هذه الصور المختلفة .. وأن يستخرج منها  
دلالات على الشخصية المصرية الدينية مثلا ،  
غير مشفق من أن يظن ظان بهذا المنهج خطرا  
على ايمان مؤمن برسالة سماوية ، أو نيلا

منها في شيء .. وعلى هذا المنهج تتقدم الى الحديث عما تقصد اليه من :

### التاريخ الحضارى

فبقول : لئن أمكن — بكل تساهل — أن يكتب التاريخ العام ، أو التاريخ السياسى ، وما أشبه ، على أنه أحداث مسرودة ، وأسماء معدودة ، وسنين مرقومة ، فانه لا مجال مطلقاً لأن تقبل — بأى تساهل — كتابة التاريخ الحضارى على مثل هذه الصورة .

انما تاريخ الحضارة حديث عن خصائص ومميزات لجماعة من الناس ، وطوابع لها ، ومقومات ، يمكن في ضوئها تفسير اتجاه خطوات تلك الجماعة المؤرخة ، في طريق التقدم الانسانى ، ومسير التمدن البشرى .. وفهم أهدافها في نشاطها ذلك ، وكشف البواعث والدوافع التى صدرت عنها أعمالها ، في هذا المجال .. وتبين العوامل النفسية التى سيطرت عليها في أدوارها المختلفة وسادت أنفس أجيالها المتتابعة .. وتحديد الفكرة الثابتة التى دارت عليها حياتها ، وصنعت تاريخها ، وكانت محور فلسفتها الخاصة ، ومدار تقديرها لشئون الكون ؛ ومنهج ادراكها لمشكلات العالم ، وآفاق المستقبل .. وعن طريق معرفة ذلك وما اليه في حياة مجموعة انسانية موحدة يمكن فهم شخصيتها المميزة ، وهل هى متماسكة ، واضحة ، متسقة ، كما يكون الانسان الفرد القوى ، في شخصيته .. أو هى منها فئة مهترزة منهارة ،

كما يكون الانسان الفرد الضعيف ، وتكون شخصيته ..

ومن هنا يدق القول في هذا التاريخ الحضارى ، دقة هذا التمثيل للشخصية .. والاهتداء لعناصرها ، بالجمع والتتبع تارة .. وبالتحليل والتجزئة تارة .. وما يتطلب كل أولئك من النظرة الشاملة ، العميقة ، الفاحصة .. المنتظمة للحياة المؤرخة في مختلف عصورها ، ومتغير أحوالها ، ومتنوع مجالاتها ، منذ عرف عنها خبر ، أو كتب لها تاريخ ، وتقلبت بها الظروف ، بين بؤس ونعيم ، ونصر وغلبة ، أو هزيمة وضعف ، ورخاء وجذب ، وجهل وعلم ، وما الى ذلك .. تجول هذه النظرة النفاذة المستشفة في حياة الجماعة ، على أنها كل لا ينقسم .. ووحدية لا تتجزأ ، مثلها مثل النهر المتواصل الجريان ، المتلاحق الأمواج .. لا تجد في تياره فجوة ، ولا ترى بين أمواجه ثغرة .. وان تقسمت واديه دولات .. أو توزعته سياسات .. وليس من الصواب في شيء أن يخال باحث يقظ أن حاضر جماعة بشرية ينبتر من ماضيها ، أو ينبت ما بين مستقبلها وحاضرها ، فذلك ما لا تسمح به الحياة ، ولا يجيزه تسلسل الوراثة ، ولا يمكن منه تأثير البيئة ، ولا تقبله النواميس الكونية والاجتماعية المطردة ..

وما دام الأمر كذلك فلن نستطيع الحديث عن شيء من أمر الحياة الدينية ، في مصر الاسلامية ، خلال وسيط التاريخ وحديثه

الا تحت أضواء من الشخصية المصرية الدينية  
في قديم تاريخها وأوله ..

وكذلك لن يكون حديثنا الحضارى عن  
هذه الفترة الا حقائق اجتماعية عامة تفسرها،  
وتعلمها، وتقررها، عوامل الشخصية المصرية،  
التي سيرت تاريخ هذه الأمة، منذ سعت في  
هذا الوادى، وما رست الحياة في جنباته .

ولئن ألزمتنا ذلك — ولا محالة — بأن  
نستحضر في أنفسنا، ونحضر القارىء معنا  
صورة واضحة الملامح للشخصية المصرية  
الدينية بخاصة — على الأقل — فانا سنحاول  
ذلك، في أقصى ما يمكن من الإيجاز  
والاجمال، تاركين كل تفصيل أو استدلال  
لثقافة القارىء، ونحن نعتقد أن التاريخ  
الحضارى لمصر، فيما كتب من هذا الكتاب  
قبل الفترة الاسلامية التي نحدث عنها، لا بد  
أن قد هيا القارىء لما نحيل عليه، ونجمل  
القول فيه، من سمات هذه الشخصية،  
وسلوك الأمة المصرية، في أعصرها السابقة  
على العهد الاسلامى من حياتها .

والى القارىء ما لا بد منه، أساسيا، من  
الفكرة القصيرة المركزة عن :

#### ملامح الشخصية المصرية الدينية

ولمصر — على سير التاريخ — شخصية  
واضحة السمات، بادية القسما، بينة  
الملامح، راسخة العرق، ثابتة الخطو .. بعيدة  
عهد بالتحضر، قديمة الأثر في التمدن ..  
مؤسسة معلمة ..

وتلك الشخصية المصرية حقيقة يعرفها

العلم، فيما يدرس من شئون الجنس،  
والوراثة، والبيئة، ويقررها الدرس حين  
يحايد ولا يتحيز .. وليس القول بتلك  
الشخصية زخرفا من الكلام، وسحرا من  
البيان، أو اندفاعا من عواطف قومية .

وكما رسمنا خطة الحديث لا تتعرض  
لشئ من أصول ذلك ودلالته، بل نكتفى  
بالإشارة الخاطفة، بعبارة موجزة لجوستاف  
لوبون، تشير من أمر هذه الشخصية الى  
أصول عامة، وعوامل جامعة، وهى : —

« .. ندرك الآن السبب الذى أدى  
بالجنس المصرى، بعد تكونه البطيء، في  
عزلة عن الدنيا بحاجزى الصحراء والماء  
الى بلوغ الوحدة القوية، التى استخرجها  
من أصله الغامض، واحتفظ بها الى أيامنا  
هذه ظاهرة على أبنائه ظهورها على غرائث  
معايده، وقبورهِ القائمة من آلاف السنين » .

\* \* \*

ولتلك الشخصية المصرية جوانبها  
المختلفة، ونواحيها المتعددة، من دينية،  
وخلقية، وعقلية .. وسواها، ويعنينا هنا من  
ذلك الجانب الدينى، الذى نمضى الى  
الحديث عن بضعة عشر قرنا من تاريخه ..  
فنحاول بتمثل ما قدمنا الآن من اشارة خاطفة  
أن نصف ملامح تلك الشخصية الدينية،  
لنضع في يد القارىء بذلك ما يفسر ظواهر  
الحياة الاسلامية في مصر، ويردها الى المستقر  
المعروف، من أمر شخصيتها على الزمن .

ومن أبرز ملامح الشخصية المصرية  
الدينية : —

ومن الأثر القريب لهذا الايمان القوى بالحياة الثانية : سيادة عقيدة البعث ، وما اتصل بها من الايمان بالخلود ، وتفنن المصريين في بيان ذلك ، ثم في العمل من أجله . فعقيدة البعث في النفس المصرية هي محور النشاط العملى في وجودها ، وهى أوضح البواعث والدوافع في أعمالها ، وهى سر تاريخها ، وخلاصة فلسفتها في تفسير حياة الكون والانسان .

وقد وجدت في البيئة المادية حولها تعبيراً وتصويراً لهذا المعنى ، فالشمس تحكى ذلك كل يوم بشروقها الناشئ فظهيرتها الشابة ، الى أصيلها الكهل ، فغروبها القانى في ظلام ، يعقبه بعث وميعاد مصبح ، اذا الصبح تنفس .. والنيل يكتسح بفيضانه الزاخر رمال الصحراء ، وجمود الجذب الميت ، فيحى الأرض بعد موتها ، ثم اذا هو يهبط ويفتر في تحاريقه فتسرب الحياة من الأرض الراية رويدا ، ويسودها الموت الى بعث جديد بفيضان معاود ؛ وكذلك عمر القلب المصرى بأمل لا يخيب في الحياة الدائمة بفضل ما يشله من ذلك نيلها الدافق وشمسها الوضاء .

وفى سبيل هذه العقيدة وبتوجيهها دبرت مصر ما دبرت ، وبذلت ما بذلت لأجلها من التماس عوامل البقاء ، ومهينات المعاد ، فكانت قبور راسيات كالأطواد ، وأهرام شامخات ، راسخات ، ومعارف ، ومباحث

فمنذ أول الدهر عرف المصريون بقوة التدين ، ولا نظيل في ذلك ، بل نكتفى بما قاله أبو التاريخ هيرودوت : ان المصريين أشد البشر تدينا ، ولا يعرف شعب بلغ من التقوى درجتهم فيها ، فان صورهم بجملتها تمثل ناسا يصلون أمام الرب ، وكتبهم — على الجملة — أسفار عبادة وتنسك ..

وسرى لسيطرة الشعور الدينى ما يمكن أن نلمحه من أثر في حياة المصريين الدينية على اختلاف العصور ، ومع مختلف الأديان .. ثم ان من أوضح ملامح الشخصية المصرية الدينية أيضا : —

### قوة الايمان بالحياة الأخرى

فحين لا تجد في أصول اليهودية مثلا عناية بتلك الحياة تجد أن المصريين قد احتقروا الحياة الدنيا مخالفين كل جنس سواهم ، وتملقوا الموت — كما قيل — فلم يكن المصرى يهتم بما يسر أو يحزن ، أو بمن يجب ويعمل ، ويبكى ويفنى ، على ضفاف النيل ، وانما يصرف همه الى المومياء الخالدة .. والمصريون — وهم أقدر البنائين القدماء في العالم لم تكن قصور ملوكهم الاخانات بالنسبة للقبور ، وذلك لأن المسكن يبنى عندهم ليأوى اليه الانسان في حياته ، والقبر يبقى خالدا على الدهر ، ومنذ القدم قد لحظ هذا المعنى في فنهم المعمارى من حولهم من الأمم ، كاليونان .

المدى في تدين البشرية بما هو ظاهرة اجتماعية ، في حياة الجنس الانساني .

وحيثما كان التدين وثنية تجسيمية عرفت مصر من هذه الوثنية الكثير جدا ، مما عرفت الوثنيات القديمة في اقاصى الأرض واتصل بعقائد مختلفة الصور في ديانات متعددة .. فوثنية مصر قد عرفت تعدد الآلهة ، بمختلف الأقاليم من ثلاثة الى ما بعد التسعة .. كما عرفت تلك الوثنية عقيدة الفداء والتخليص وولادة المخلص الالهى ، وقيامه من بين الأموات .. وكما عرفت أمومة العذراء .. وما يتصل بذلك .. وكان لها من الطقوس الكثير ، فعرفت التعميد والرهبة و .. و .. مما تكشف مقارنة الأديان عن قوة المشاركة المصرية فيه ..

ثم اذا ما كان التدين توحيدا عرفت الديانة المصرية في هذا التوحيد ما لها من محاولات وتفسيرات . وهكذا تدرك من هذا الاجمال ما في الشخصية المصرية الدينية من سعة الأفق ، وبسطة النظر الدينى .. وتقدر أنها بذلك وما اليه من مشخصات تشارك في حياة التدين البشرى بعامة ، وفي حياة الأديان الكبرى المعروفة اليوم بخاصة .. مشاركة نظرية اعتقادية .. وعملية ايجابية .. فاليهودية ربيبة مصر ، وفي حجرها ربي رسولها موسى — عم — والصلة بين التوراة والبيئة المصرية موضع الدرس الواسع عند المختصين .. والمسيحية لا تنقض العهد القديم ، بل

تهيمه لذلك كله ، وتمكن من صون الجسم ، ليتلقى الروح في الوقت الموعود .. وانتشرت في الوادى تلك المعازل الخفية في جوف الأرض ، وتلك المعالم الشامخة على سطحها .. وكانت مصر بذلك بيئة دينية لها بتلك الجهود الجبارة ايجاءاتها وتأثيراتها الراسية الأصل ، وان اختلفت صورها . فمصر البرابى هى هى مصر الأديرة ، ثم هى هى مصر السياحة الصوفية .. بعمق روحها الدينية ، وتمثلها للحياة الأخرى — واطمئنانها الروحى الآمل .. ومصر بهذه المعانى هى مصر التى سنحس من معانى تدينها في اخلاصه ، وتشبته ، ونضاله عن العقيدة أصداء تلك الجهود الجبارة التى كانت صورها صلوات .. وكتبها أسفار عبادة .. وفنونها اعدادا للبعث وتمكيننا من الخلود .. وسنرى حياتها الدينية الاسلامية — فيما يلى — امتدادا متصلا لهذه المعانى المتدينة بلا تخلف .

ثم من أبين ملامح الشخصية المصرية الدينية التى تؤازر عمق التدين ، وقوة اليقين الأخرى .

### سعة الأفق الدينى

فقد أوتيت مصر بسطة في النظر الدينى ، وتطلعا الى فسيح الآفاق وبعيها في عالم التدين . وكان من ذلك أن عرف البحث المقارن في الأديان البشرية صلوات لها ، وروابط ، ومشابه بأديان مختلفة في مواطن عريقة التدين ، فاذا لمصر مشاركة واسعة

تعد تراث اليهودية شطرا منها .. والاسلام  
مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ..  
وتلك لفحة الى المشاركة النظرية الاعتقادية من  
مصر في حياة الأديان الكبرى عندنا ..

وأما المشاركة الايجابية العملية وما أدت  
مصر في مختلف عصورها ، من خدمات جلّى  
لحياة هذه الأديان فقدمها فيها راسخة ،  
وجهدتها عبقرى ، في لحظات ذقيقة ، ومواقف  
حاسمة ، تعدل في عظمتها ما أدته كذلك من  
الخدمات الجليلة الخالدة لحماية الحضارات  
وصون التراث الانساني ، العقلى ، كما  
صانت التراث الانساني الوجداني الاعتقادي ..  
وهذه المشاركة العملية الايجابية في حياة  
الأديان والحضارات مما لا فرصة هنا للقول  
فيه بتفصيل ولا باجمال ، وحسب القارىء  
ما تذكره به هذه الاشارة من ثقافته التاريخية،  
عن تلك المشاركة المصرية .

\*\*\*

ويعيننا هنا أن نقول أن هذه الشخصية  
المصرية الدينية قد هيأت لمصر المشاركة في  
الأديان الكبرى ، بمعرفتها .. ولقائها ..  
وتقبلها في أناة ويقظة .. وتمكينها من الحياة  
في بيئتها الاعتقادية ، ثم الوقوف الى جانبها  
بعد التمثل الصحيح لها ، وقوف المستشهد  
العميق الايمان .

ولعلك بعد هذه الاشارات العابرة ،  
المصورة لقسمات الشخصية المصرية وملاح  
تكوينها تستجيب لما قصدت اليه من هذا

التصوير ، فندرك المظاهر العامة المطردة التي  
تجلوها هذه الشخصية ، فتسلم معى بأن :  
مصر صاحبة هذه الشخصية الدينية قد حققت  
على اختلاف الأدهار معانى نعتمد عليها في فهم  
حياتها الدينية الاسلامية ، ليتسق فهمنا  
للتاريخ الحضارى من جانبه الدينى .. وتلك  
المظاهر العامة هي أنها : —

(أ) ثابتة التدين ليست كما يقول التعبير  
العربى ، قبضة رفضة ، فتعتقد في سهولة  
وتصبأ في سهولة .. كلا .. بل هي مستأنية  
فيما تقبل من عقيدة ، لا تعدم أصلا في أقدم  
تدينها ، وسترى ذلك في الحديث قريبا عن  
تلقياها الاسلام ..

ثم هي اذا ما تقبلت في أناة ظهر أثر هذا  
التأني في تدينها ، فرأيت لذلك أنها : —

(ب) متعمقة روح الدين الذى تعتنقه ..  
لا تقف منه عند القشور والمظهريات بل  
تستشف اللباب وتدرك الجوهر ، وسنرى  
هذا في اسلامها بعد اعتناقه .. ولعلها لهذا  
لا تبذل جهدا كبيرا في شقشقة الخلاف الدينى،  
واقتراق المقالات الاعتقادية ، بل ترى موقفها  
في هذه النحل والخلافات هو موقف غير  
المقبل ولا المسرف .. وهو ما سنجد أمثلة له  
في الكلام على حياة الاسلام فيها ..

ثم اذا ما تعمقت في تدينها رأيت لذلك  
انها :

(ج) مضحية في سبيل الدين الذى تلقتة  
في أناة وتعمقت روحه .. وكذلك تجد لها  
الضحايا في مختلف الأديان على شتى الصور:

ناضلت عن الوثنية التي عاشت بها أجيالا ..  
ثم لما تلقت المسيحية قدمت لها شهدها  
مقاومة عن مسيحتها ، حتى تلقت الاسلام  
في أناة — ولما تعمقته بذلت في سبيل حماية  
عقيدته ودولته ما بذلت في صراعها الدامي ،  
مع الغرب الصليبي، والشرق التتري الهمجى،  
وقد كادا يطبقان عليها من الجانبين في عصر  
واحد .

وبمثل هذه الملاحظة العامة تشعر أننا قد  
مهدنا للقول الاجتماعي في التاريخ الحضارى  
الدينى لمصر الاسلامية ، وأقمنا من المعالم  
ما يرد الحديث عن هذا العهد الاسلامى الى  
معان عامة ، تدل على تتابع أمواج نهر الحياة  
المصرية ، متلاحقة متواصلة يهيم السابق منها  
للاحق .. ويزيد الأول وضوح الثانى ..  
ويتسق به التبيان مترابطا متواصلا ، متطورا  
متدرجا .. كما ينبغى أن يكون الأمر في تاريخ  
الحضارة ، ليمكن أن يلتقى أضواء جلية مركزة  
على الأحداث وتطورات للحياة ، وليجعل  
القول في شخصية مصر الحضارية ثابت  
الأسس ، أصيل المنهج ، لا تكثرا .. ولا تحيزا  
.. ولا تعصبا .. ولا افتراء مدعى .  
وعلى هذا الأساس ننظر الى :

### مصر تتلقى الاسلام

ولمصر بمهد الاسلام ووطنه الأول صلات  
كثيرة ، بعضها يحدث عنه التاريخ الدينى  
الرواية .. وبعضها يحدث عنه التاريخ المادى  
المصادر .

فأما ما يحدث عنه التاريخ الدينى فأمومة  
هاجر المصرية للعرب المستعربة ، اذ أهداها  
صاحب مصر لابراهيم — عم — حين دخل  
مصر ومعه زوجته سارة ، وكان من أمره  
وأمرها مع ملك مصر ما يحكى ..

ثم هى صلة يجدها اهداء المقوقس  
مارية القبطية التى ولدت للرسول محمد  
— عم — ولده ابراهيم على ما هو معروف .

ويلحق بما يحدث عنه التاريخ الدينى من  
صلات ما تحكى الرواية العربية من دخول  
العرب الى مصر ، وقصة عمرو بن العاص ،  
ووقوع الكرة فى كفه ، بلعب الاسكندرية ،  
وان من كانت تقع فى كفة تلك الكرة يملك  
مصر ، ولذا عجب المصريون من وقوعها فى  
كف هذا الأعرابى .. ولكنه أخيرا ملك مصر ..!!  
ومهما يكن الرأى فى تلك المرويات كلها  
فان لها دلالة اجتماعية على صلة ما بين  
الاقليمين القائمين على شاطئى ، بحر واحد  
هو البحر الأحمر .. ولهذا الجوار ما يكون  
لمثله من اتصالات ، ومبادلات ، مادية ومعنوية  
لا مفر منها .

والتاريخ المادى المصادر يحدث من هذه  
الاتصالات بأشياء معينة ، من رحلات مصرية  
وتجارات لا نخوض فى شىء منها ، ولكن  
نشير الى ما يذكره ذلك التاريخ من صلة  
دينية بين الوثنية المصرية ، والوثنية العربية  
جعلت المعبودات الوثنية العربية ترجع فى  
أصلها الى معبودات مصرية ، حتى أمكن رد

قيام المركز الدينى الهام فى الحجاز غرب الجزيرة العربية وبين مقابلة هذا الغرب لمصر بلد الحياة الدينية الحافلة القوية ، الواسعة الأفق .. وهو احتمال نكتفى منه هنا بالإشارة الى قوة الاتصال بين مصر وبين مهد الاسلام ومنشئه الأول ، لنرى أن الاسلام لم يكن دعوة غريبة على مصر . ولا بعيدة عن جوها وبيئتها الدينية ، على ما أشرنا اليه ..

وقد كان لهذا الجوار أثره فى أن وجهت الدعوة الاسلامية الى مصر برسالة من محمد نفسه الى المقوقس أو — قيروس — حاكمها السياسى وزعيمها الدينى ، فى السنة السادسة من الهجرة .. وكان الرد على هذه الرسالة من خير الردود على ما وجهه الاسلام من رسائل الى الملوك والحكام حوله ، ان لم يكن خيرا .. وتتوسع المصادر العربية فى وصف تقبل المقوقس للرسالة ، وسؤاله حاملها فى خلوة خاصة ، عن صفة رسول الاسلام — عم — واعلانه فهم الدعوة الاسلامية ، وانتظار ظهورها وغلبتها الى حد القول بأنها ستنزل بساحتهم هذه — مصر —

وان لم يكن هذا كله قد كان كما وصفت الروايات الاسلامية فان الهدايا المرسلة ، والرد الحسن يكفى فى وصف تقبل المقوقس لهذه الدعوة .. وسواء آكان هذا التقبل الحسن سياسة من الرجل ، أم كان حسن فهم لسير الحياة الدينية فانه يتصل — على كل حال — بما وصفنا فى ملامح الشخصية

أسماء الآلهة المشهورة التى ورد ذكرها فى القرآن وهى : اللات ، والعزى ، ومناة — بل رد غيرها أيضا — الى نظائر من آلهة مصر ، اسمها شبيه بالاسم العربى ، ووصفها شبيه بوصف مصر لتلك الآلهة وعملها ، فاسمها ورسمها مصرى .

واللات مثلا ، هى معبودة مصرية ، اسمها المصرى شبيه بالاسم العربى ويرمز بها فى مصر الى الحصاد ، حين يذكر فى العربية أن الاسم من لتّ السوق ، المتخذ من الحنطة والشعير .

وقد تولى هذا البيان الأثرى المصرى المرحوم أحمد كمال باشا .. ولا يتسع المقام للخوض فى شىء منه هنا ، لكننا هى الإشارة الى تلك الصلة بين مصر والجزيرة العربية على أساس أقوى من مجرد الخبر الذى تعرضه الروايات الدينية الشائعة .. هو اتجاه الى الناحية الدينية فى البلدين بخاصة ، وهى موضع عنايتنا هنا .

ولا نعرض كذلك لشىء من أخبار تلك الصلة بين البلدين فى العهد القريب من الاسلام . ولكننا بالنظرة الجامعة نشعر فى اطمئنان أن بين البلدين من المشاركة الناتجة عن الجوار ما يمتد الى جذور عميقة فى حياتهما ، ويجعل لهما من الروابط الدينية والاجتماعية ما يتطلب الدرس المفرد باعتبارهما جارتين متقاربتين على جانبى بحر واحد — كما قلنا — .

ولعله ليس من البعيد أن نجد الصلة بين

المصرية ، من سعة أفقها الدينى ومشاركتها  
الواسعة فى حياة التدين الانسانى .

ولعل مما يؤيد هذا المعنى أيضا ما تسوقه  
المصادر العربية كذلك من أن المغيرة بن شعبة  
فى خرجة له الى مصر ، قبل أن يسلم ، قد  
تحدث الى المقوقس بشأن صاحب الدعوة  
الاسلامية الجديدة فى بلاد العرب ، كما  
تحدث الى أسقف قبطى ، بهذا الشأن ، لم ير  
المغيرة أحدا أشد اجتهادا منه ، فأخبره عن  
آخر الأنبياء ، النبى الأسمى العربى .. الخ ..  
وهى روايات ، ان لم تصح كلها فان لها  
دلالتها على ما كان فى البيئة المصرية من علم  
بالشئون الدينية ، يؤيد ما وصفنا لها من أفق  
واسع فى التدين .

ثم لم تمض بضعة عشر عاما من هذه  
الدعوة السلمية حتى جاءت دعوة الاسلام  
الموجهة .. فأقامت له دولة داعية فى مصر ،  
بعد ما كان من وقائع الفتح التى لم تستغرق  
وقتا قصيرا .

ولا نبعد اذا ما قلنا ان مصر القوية  
التدين ، العليمة بالأديان قد كانت لها مشاركة  
فى حياة الدين الاسلامى ، خارج مصر ، فى  
مهده بالحجاز ، ثم فى مصر نفسها ، على  
عصور مختلفة .

ففى الحجاز يعد بين صحابة الرسول  
— عم — غير واحد ينعت بالقبطى ، مثل :—  
جبر بن عبد الله — ت ٦٣ هـ — الذى  
ينعت فى كتب الصحابة بالقبطى ، ويروى

السيوطى أن القبط تفخر بأن منهم من صحب  
النبى — عم — ..

وفى بعض خبر القوم عن هذا الصحابى  
القبطى : أنه كان رسول المقوقس بنارية الى  
رسول الله — عم — فبقى هناك وأسلم  
وصحب .. وان كانوا يقولون مع هذا : ان  
منهم من رأى بعض ولده بمصر .. فهو على  
هذا ليس مجهولا ، قد هاجر الى الحجاز  
نهائيا ، بل عاد هو أو بنوه الى مصر ، وكانت  
لهم فيها أسرة .

ومن الصحابة المنعوتين بالقبطية أيضا  
صحابى قوى الصلة برسول الاسلام نفسه  
هو :

أبو رافع القبطى مولى النبى — عم —

لأنه هو الذى حرره — فى رواية — وليس  
فيما رأيت من خبرهم عنه ما يبين مصريته ، أو  
سبب انتقاله الى الحجاز الا شيئا واحدا هو  
رواية لهم ، فى اسمه الأول ، اذ يقولون : كان  
اسمه «قزمان» ثم غير الى أسلم ، أو ابراهيم  
أو «بريه» بصيغة التصغير التى كان يلقب  
بها ..

وفى كل حال فان لهذا الذى نعته كتب  
الطبقات بالقبطى رواية للحديث عن النبى  
— ص — وعن عبد الله بن مسعود ، كما  
روى عنه أولاده ، وأحفاده ، وغير قليل من  
الصحابة .

وفى هؤلاء وأمثالهم ممن اتصلوا بالاسلام  
فى مهده ، ولأول عهده مشاركة من مصر

مسرف فى التعرب—صحب الشافعى ، وكتب الكثر من كتبه وروى عنه عشرة أجزاء من السنن والأحكام .. وكان آخر من صحب الشافعى موتا .. وبلغ فى الفقه مبلغا طيبا فكان مفتيا .

\*\*\*

هذه وما إليها شواهد على مشاركة من مصر وبيتها فى تلقى الاسلام تلقيا مبكر الوقت ، واضح المساهمة ، بعيد الغور والتأثير فى حياة الاسلام عقيدة ، وعلما دينيا..

وهى شواهد نعدها لمصر مع ما نعرفه من أن الكتاب العرب فى الموارد المختلفة ينعنون بالقبطية من فى مصر ، ولو كان رومانيا مثلا .. ومع ما نعرف من أن المسيحية قد اعتنقها فى مصر أخلاط من عناصر شتى . ومع هذا وما إليه نعد تلك الشواهد مشاركة لمصر وبيتها وطابعها الدينى ، الذى عرفنا معالمه قريبا ، لأن ذلك فى التاريخ الحضارى صواب ، ولا يتغير بشىء من عرق أو جنس .. فالبيئة بوتقة تمزج العناصر المختلفة التى تستقر فيها وتطبعها بطابعها ، على قدر قوته وأصالته .. ونحن لا نعتد الا على مثل هذا الأصل فيما قرناه ونقررره من المبادئ الاجتماعية التى نرى فيها التفسير المتسق للشخصية المصرية ، والحياة المصرية ، فى العصور المختلفة ، فرغم اختلاف الأشكال والصور الخارجية تظل الحقيقة الجوهرية — فيما عرفنا من قوة الشخصية المصرية — واضحة

وبيئتها فى تلقى الدعوة الاسلامية التى وجهت لمصر منذ عهد مبكر — كما رأينا — .

ثم تصل مصر حبلها بالاسلام ، وتتجه العناية الى الثقافة الاسلامية الخاصة فى مدارس القرآن ، والحديث ، وما يتصل بذلك من العلوم الدينية كالفقه ونحوه فاذا مصر تشارك فى ذلك برجال غير مغمورين ، ولا يزالون ينعنون بالقبطية ، عند الحديث عنهم بين المعدودين فى حياة تلك الثقافة الدينية الخاصة .

ففى قراءة القرآن وتلقيه ، وتحرير نصه ، ووصل السلسلة فى تناقله يشترك قبضى من وجوه القراء السبعة المعروفين ذوى الأسماء الشائعة الى اليوم ، هو القارىء :

ورش — القبضى المصرى مولدا ووفاة — ١١٠ هـ — ١٩٧ هـ .. الثقة الحجة فى القراءة ، والذى ينعته أصحاب هذه المادة فيهم بأنه : شيخ القراء المحققين ، وامام أهل الأداء المرتقين .. وأنه انتهت إليه رياسة الاقراء بالديار المصرية فى زمانه .. أخذ عن نافع بن أبى نعيم .. وله اختيار — فى القراءة — خالف فيه نافعا .. وكان جيد القراءة ، حسن الصوت ، لا يمله سامعه ..

ثم فى ميدان الفقه ، ولعهد مبكر نجد بين الطبقة الأولى من أصحاب الشافعى الذين جالسوه قبطيا فقيها هو :

أبو حنفية الأسوانى القبضى — ت ٢٧١ هـ —  
واسمه قحزم بن أبى قحزم ، ولعله اسم

ثابتة .. وهو ما نرجو أن يجد القارىء صحته في هذا التفسير التاريخي بشواهد متعددة ، واطراد متسق .

ولئن كنا قد قدمنا شواهد المشاركة المصرية الاسلامية التي تشجع عليها قوة التدين المصرى ، وسعة الأفق الدينى المصرى — كما بينا — فانا لا ننسى ما لمحناه من المعالم الثابتة لتلك الشخصية ؛ وأنها مستأنية فيما تقبل من عقيدة ، لا تعدم أصلا في تدينها — ص ٥٣٦ — فهل تختلف هذه المظاهر في تلقى مصر للاسلام ؟ سنرى الجواب فيما كان فعلا من :

#### تحول ٠٠ غير سريع

اذ انك تقرأ في تاريخ الطبرى ، من حوادث سنة ٢٠ هـ : أن صاحب الاسكندرية عرض على عمرو بن العاص ، بعد ما أصاب سببا كثيرا ، بلغ بعضه المدينة ومكة ، أن يعطيه الجزية على أن يرد عليه ما أصاب من سبى . وأن عمرا استأذن عمر في ذلك ، فرأى عمر أن ما تفرق من السبى بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن لا قدرة على رده ، وأما من في أيدي المسلمين بمصر من السبى فيخيرون بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . وان صاحب الاسكندرية قبل ذلك .. قال : فجمعنا ما في أيدينا من السبايا ،

واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل ممن في أيدينا ، ثم نخيره بين الاسلام ، وبين النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال : ثم نحوزه اليها ، واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم .. قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم ، وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال : وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد — قال : فوقفنا فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية ، وأبوه وأمه ، واخوته في النصارى ، فاختر الاسلام . فجزناه اليها ، ووثب عليه أبوه وأمه واخوته يجاذبونا حتى شققوا عليه ثيابه . ثم هو اليوم عريفنا ..

وأحسب أنا لو أردنا أن تتمثل هذا التجاذب الدينى في مصر منذ عرفت الاسلام لما وجدنا أوضح صورة مما تصور هذه الرواية التى ساقها الطبرى ، فهى تصوير مادى ونفسى قيم لهذا التجاذب في أرض مصر على اختلاف الأزمان ، ومع سلطان العقيدة الدينية اذ ذلك . ولهذا التصوير فى الوقت نفسه دلالة على ما لمحناه فى شخصية مصر من عدم سرعة تحولها من دين الى دين .. وأاناتها فى ذلك بل بطئها .. ان شئت أن تقول :

\* \* \*

وتقرأ فى الطبرى ، من خبر هذه السنة نفسها — ٢٠ هـ — ما يلى :

.. وحضرت القبط باب عمرو ، وبلغ عمرا أنهم يقولون : ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ، ما رأينا مثلنا دان لهم ، فخاف أن يستشيرهم ذلك من أمرهم ، فأمر بجزر فذبحت ، فطبخت بالماء وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلس ، وأذن لأهل مصر ، وجيء باللحم والمرق ، فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا : انتشلوا وحسوا ، وهم في العباء ، ولا سلاح ، فافترق أهل مصر ، وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، وبعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأخذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر فرأوا شيئا غير ما رأوا بالأمس ، وقام عليهم القوام بالوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم ، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا : كدنا .. وبعث اليهم أن تسلحوا للعرض غدا ، وغدا على العرض ، وأذن لهم ، فعرضهم عليهم . ثم قال : انى قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء ، حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت أن أريكم حالهم ، وكيف كانت في أرضهم ؛ ثم حالهم في أرضكم ؛ ثم حالهم في الحرب فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثانى ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثانى ،

وراجع الى عيش اليوم الأول .. فنفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برجلهم .. وبلغ عشر فقال لجلسائه والله ان حربى للينة ، ما لها سطوة ، ولا سورة كسورات الحروب من غيره ، ان عمرا لعرض .. ثم أمره عليها وقام بها .

وأحسب أن هذه القصة — مهما يكن أصلها — لتمثل أئين التمثيل التنافس الاجتماعى بين العرب والمصريين ، وعوامله ، وأهدافه ، حتى ما نجد أبلغ منها فى عرض ذلك كله موجزا دالا .. وان فيها من هذا التمثيل الصادق الاشارة لما يجلى نظرة المصريين للعرب تلك النظرة التى تفعل فعلها فى هدوء التحول الدينى أو الاجتماعى — ان لم يكن فى بطنه — ان شئت أن تقول .

وتحت كل ما سبق من موجبات مؤثرات مضت الحياة فى طريقها .. وكانت ثورات فى مصر خلال القرنين الأول والثانى الهجريين ، وصدرا من القرن الثالث ، تارة من المصريين منفردين ، وتارة مع عناصر عربية شاغبة ، حتى أوفد اليها المأمون ولى عهده المعتصم ، ثم لم يكف ذلك ، واقتضى الأمر مجيء الخليفة بنفسه ، من بغداد الى مصر ، وحضر المأمون ، فدبر للحرب وأشرف .. وأسرف أيضا .

وكل أولئك وما اليه تقضى به السنن الاجتماعية فى سير الحياة .. وعلى مر الزمن تم هذا التحول البطيء ، وانتقلت مصر — فى

الا عن تطهير للروح ، وتصفية للقلب ،  
وتهذيب للنفس ، وتحطيم لضراوة الشهوة ،  
وتخلص من ظلام المادة .. كما يعرف الفضل  
ذووه ..

وقد كان للمسلمين نصيبهم من هذا  
الاتجاه منذ ظهور الاسلام ، بما في كتابه ،  
وهدى نبيه ، من زهد مترفع عن الشهوات ،  
لا يمد عينيه الى زهرة الحياة الدنيا ..

ثم تقدم عمل المسلمين في ذلك الى الأخذ  
بصور من الرياضة الخاصة في العبادة ،  
والعمل ، ثم الى امداد ذلك بتفكير روجي  
ديني ، يأخذ بأسباب من الفلسفة وآراء  
قوية التمثل في تفسير الكون والحياة والصلة  
بالله ، وهو تفكير لا يعدم تأثرا بمذاهب الحياة  
من الفلسفة العامة ، والأديان القديمة ، من  
أقصى الشرق أو أدناه ، قد توثقت الرابطة  
بينها وبين الفكر الاسلامي ، حين خالطها في  
بيئات كانت موائل لها ومواطن ..

وما ننس لا ننس أن هذه الصورة  
الجميلة من التصوف الانساني ، أو التصوف  
الاسلامي ، لا تثبت حيث تمثلناها في تلك  
الآفاق المتسامية ، بل تتغير مع الزمن حتى  
تصير الى صور من الشكليات التافهة ،  
والظواهر السطحية الجامدة ، يوجهها جهل  
بشئون الدين وشئون الدنيا جميعا ،  
وتسودها مخرقة وشعوذة ، يتأذى بها الدين  
والدنيا ، أخيرا .. وهو ما لن ننساه ، ولا نحب  
أن ينسى القارىء أنا لا نعنيه حين نحدث هنا

أناها — الى الاسلام ، وقد أبت الى جانبه  
ما أبت من مسيحيتها وكنيستها المرقسية ،  
وما لها من شأن في المسيحية وحياة أهلها في  
هذه البقعة من أفريقية ، وملتقى القارات  
الثلاث .. وما لها من ميراث لاهوتي ، وفلسفي  
من مدرسة الاسكندرية ، وأديرة الوادي .

\* \* \*

استقر الاسلام في مصر ذات الشخصية  
البارزة ، الواضحة المعالم الدينية ، على  
ما تبينتها — أول هذا الحديث — وجعلت  
طوابعها التي ذكرناها في كبريات واضحة  
— ٥٣٤ ، ٥٣٥ — توجه حياة الاسلام في مصر  
توجيها بينا ، يميز حياة هذا الاسلام في مصر  
عن حياته في غيرها ، ويفذى التفكير في  
الاسلام ، كما يفذى العمل كذلك بعناصر غير  
خافية .. نشير هنا الى أمهاتها في اجمال  
لا يسمح المقام بأكثر منه .. فتحدث عن :

### روحية مصر .. في الاسلام

وتتجه في ذلك أول ما تتجه الى التصوف ،  
الذي هو حركة انسانية عالمية عامة ،  
متصاعدة ، في حياة التدين البشري ، على  
اختلاف ألوانه ، وتعدد صورته ، وتباعد  
دياره .. حركة انسانية من دقة الحس الديني ،  
ورفاهة الوجدان الاعتقادي ، تمضي بالتدين  
الى أعماق من التكاليف العملية ، والعبادات  
المرسومة ، وتمثل روح الايمان ، ودفعه الى  
التقاني في المعبود ، وامتلاء القلب بتمثله ،  
وجبه ، ونسيان كل ما سواه ، والصدور في  
كل شيء عن رضاه ، وهي مشاعر لا تتم

والفلسفة الدينية المسيحية ، والمذهب  
الغنوصي ، وهو المذهب الفلسفي الديني  
الذي نستطيع أن نسميه « المذهب اللدني »  
لأنه يقوم على المعرفة بلا واسطة ..

فكل أولئك وما اليه من النماذج الفكرية  
كانت الاسكندرية من أهم مراكزه .. اذ في  
مصر تأثرت الفلسفة بالدين ، وتأثر الدين  
بالفلسفة .. واليها هاجرت الثقافة اليونانية  
بعد سقوط عاصمتها .. وبعد اتصال طويل  
أصيل بين مصر وهذه الثقافة والحضارة ..  
ومؤرخ الفكر الاسلامي يعرف جيدا أن  
المسلمين قد عرفوا فلسفة أرسطو نفسها عن  
طريق الأفلاطونية الحديثة التي انتشرت بينهم  
أوسع الانتشار .. ومصر وما حولها قد كانت  
موطن تلك الفلسفة ، ثم موطن ما أشرنا اليه  
من التيارات الأخرى ، عقلية واعتقادية .. كما  
يعرف مؤرخ التصوف الاسلامي أن هذه  
المنطقة نفسها كانت وطن الصوفية والتصوف  
الاسلامي المتطور ، الذي تبدو فيه آثار تلك  
الروافد الفكرية والاعتقادية واضحة ، يتولى  
بيانها الباحثون .

ولو اكتفينا كذلك بهذا الاجمال من  
البيان اعتمادا على ثقافة القارئ العامة لكان  
له من ذلك ما يفتح السبل الى ادراك تأثير  
روحية مصر على الاسلام في تصوفه ، الذي  
هو أعمق شعور ديني فيه .. لكننا نجد كذلك  
وراء هذا من مظاهر التأثير ما لا بد من الإشارة  
الى بعض خطوطه الكبرى ..

عن التصوف ، وعن أثر الروح المصرية في  
تصوف الاسلام ، فلا نزيد من ذلك  
الا التصوف في نشأته ، وتطوره نحو الكمال  
لا في فترة تدهوره الأخيرة .

\*\*\*

وقد كانت مصر بما هي بيئة دينية ، قوية  
التدين ، واسعة الأفق ، على ما بينا ، .. ثم  
بما هي بيئة فكرية أيضا ، قد شاركت في جهاد  
الانسانية العقلية ، وأعطت ما حولها من أقطار  
ذات ماض فكري ، وأخذت منها ، وجمعت  
الثقافات والحضارات — كما أشرنا — ..  
كانت مصر بكل أولئك في عهد انتشار الاسلام  
بأنحاء الدنيا القديمة ، ذات تأثير واضح ، في  
بعث النشاط الروحي الصوفي للمسلمين ..  
وفي امداده بغير قليل من العناصر الدينية  
والفلسفية جنيعا ، وبمشاركتها في عمق هذا  
التصوف وتطوره .. ولو اكتفينا بهذا الاجمال  
لكان في ثقافة القارئ ما يبينه وجها من  
البيان ، قريبا أو بعيدا .. وذلك لأن الزهد  
الاسلامي الذي حمله القرآن ، وسارت به  
السنة قد اتصل في مصر — خاصة — بمؤثرات  
دينية ، من الأديان الشرقية المختلفة ، وصلت  
لمصر عن طرق متعددة ، من الحروب  
والرحلات ، ووفادة الأمم المختلفة ، وحياة  
الأديان المتعددة في مصر نفسها ، من وثنية ..  
ويهودية .. ومسيحية ..

واتصل الزهد الاسلامي كذلك في مصر  
— خاصة — بتراث فلسفي من الأفلاطونية  
الحديثة ، والفلسفة الدينية اليهودية ،

على أن الصوفية يكون لهم ما لهم من  
المواجد ، والأذواق ، والأحوال ، فاذا هم  
يفتحون من الفن آفاقا رفاة شفافة ، تتجاوب  
فيها أنغام موسيقية ساحرة من شعرهم ،  
وحبهم ، وتقانيهم .. فاذا مصر تقدم في هذا  
الميدان الصوفي ، المحب ، الشاعر :

ابن الفارض — ت ٦٣٢ هـ — الذي  
يوضع في الطبقة الأولى ، من أصحاب الشعر  
الصوفي ، بما في كثير قصائده من جمال  
النظم ، ورقة الأسلوب وأناقته ، وقوة الروح ،  
وعمق المعنى ، مما يقول الباحثون المحدثون  
عنه : انه من البعيد أن يكون عملا تنبها ، بل  
هو نتيجة لوحى أحوال الوجد الصوفي ،  
الذى يشابه ما يسمى في عرف علم النفس  
الحديث « الكتابة الآلية » .

وكذلك قدمت البيئة المصرية العنصر  
الفنى ، الفعول بالألباب ، يتمتع التصوف ذى  
الحب الالهى المتقانى .. ولا أمعن من هذا  
فى الروحية .. ولا أدل منه على ما أشرنا اليه  
من روحية مصر .. فى الاسلام .

\*\*\*

والحديث عن التصوف جدير بأن يضع  
القارىء فى جو من التسامح الوديع ، يشعره  
بجوهر التدين ولبابه ، ويشرف به على  
الوحدة الدينية ، التى سمعنا القرآن نفسه  
يقررها فى قوة وجلاء — ص ٥٣٠ —

فهذا مصرى — أو ثوبى — من اخميم ،  
كان كثير الملازمة لربا اخميم ، لأنها بيت من  
بيوت الحكمة القديمة — فيما يقول القدماء —  
كما يقولون أيضا : انه قد فتح على هذا  
الاخميمى علم ما فيها من كتابات !!! .. ذلكم  
هو الحكيم الصوفى :

ذو النون المصرى — ت ٢٤٥ هـ —  
تقول عنه المصادر الاسلامية : انه وحيد دهره  
علما وعبادة ، وحالا ، ومعرفة ، وأدبا ..  
وانه : هو رأس هذه الفرقة — الصوفية — ،  
فالكل قد أخذ عنه ، وانتسب اليه ، وقد كان  
المشايع قبله ، ولكنه أول من فسر اشارات  
الصوفية ، وتكلم فى هذا الطريق ..

ويقول الباحثون المحدثون عن هذا  
المصرى : هو أحق رجال الصوفية — على  
الاطلاق — بأن يطلق عليه اسم واضع أسس  
التصوف .

ولو كان فى المجال شىء من سعة لبينا من  
أقوال ذى النون المصرى وأفعاله ما يكشف  
السييل الواضح للتأثير على التصوف  
الاسلامى من البيئة المصرية الخاصة ،  
بمذاهبها الفكرية عن المعرفة ، وبالمتداول فيها  
من معارف كيمياوية ، وغيرها ، وبالنشاط  
التبدي فى صور مختلفة .. الخ .. لكنا ندع  
ذلك كله للبحث المختص .. وحسبنا ما قيل  
برهانا على ما دلت عليه ملامح الشخصية  
المصرية من بث الروحية .. فى الاسلام ،  
بتوجيه تصوفه واعلائه ..

وفي هذا الجو يتمثل القارىء كذلك شخصية مصر واضحة القسمات ، جلية المعارف ، تعبر الأجيال ، وتمضى فى التاريخ بخطى ثابتة ، وطيدة ، متسقة .. فهى فى تاريخ الرهبة المسيحية ، أو الرهبة العالمية ، هى هى فى تاريخ التصوف الإسلامى ، أو التصوف العالمى .. هى فى كليهما بيئة صالحة — بقوة التدين التى استقرت فيها منذ قديم الزمن — لانعاش التجرد الروحى ، والتبطل النفسى ، والخشوع القلبى ، واستشفاف أسمى معانى التدين وأنبىل أغراضه .. وبين الترهيب والتصوف مشابه شاخصة ، بل مسالك واصلة ، لا يسهل على النظر الثاقب تجاهلها أو تناسيها .. وللقول فى مثل هذا مكانه الخاص .

ويتغير الحال بالرهبة ، على الزمن وأحداثه ، كما يتغير بالتصوف كذلك ، فىكون فىهما من السوء والفساد ما يكون .. وتشقى منهما الحياة بما تشقى به .. وهو ما قد نشير الى شىء منه فى الكلمة عن الدين والمجتمع المصرى .

وفى الذى أجمل عن روحية مصر .. فى الإسلام ما يهبىء لاشارات عامة كذلك عن :

#### حيوية مصر ٠٠ فى الإسلام

ففى هذه البيئة التى قاد حياتها الايمان بالبعث .. وفسر تاريخها هذا البعث دينا يعتقد ، وفلسفة تتوارث .. فى هذه البيئة

تكون الحياة الدائمة المتصلة واقعا شاهدا ، وفكرة سائدة .. وأنت واجد ذلك فى قرب قريب ، ووضوح سافر ، يشخص أمامك حين تمر بذاكرتك شريطا تاريخيا سريعا ، لمعالم الحياة فى مصر ، منذ تقدمت سكان هذا الكوكب ، ترتاد طريق الحضارة ، الى الساعة التى أنت فيها .. فسيبدو لك جليا أنها كانت دائما على مسرح هذا التاريخ ماثلة ظاهرة .. لم تختف عنه لحظة ما ، كما اختفت أمم قديمة ذات يد على الحضارة ، بعد ما لعبت دورها القصير أو الطويل ، فاليونانيون .. والفينيقيون .. والأشوريون .. الكلدانيون .. وسواهم قد قاموا بنصيبهم من المشاركة فى الحياة ، ثم شملهم ظلام غامر ، حجبه عن الأنظار ، فخفتت أصواتهم ، وفتر نشاطهم ، فاذا بلادهم أقاليم مهملة ، أو مناطق مستعمرة ، لا تنهض فيها دولة ، ولا يتميز لها كيان .. على حين ترى مصر فى قديم التاريخ ، ومتوسطه ، وحديثه ، تقدم للدول المجال الحيوى الصالح المسعد على الثبات والنهوض ، فى مصر .. ولمصر .. وباسم مصر .. فتراها يوم كانت تحمل مشعل الحضارة : دولة واحدة تنافس أممات العواصم ، التى دارت حولها الدنيا .. لا يفترق حالها مع روما ، عن حالها مع بغداد ، ولا يتغير عن مركزها مع الاستانة .. يعوذ بها البراطرة .. ويحتفى الخلفاء .. ويعتز السلاطين ، ويجد الطامحون من الفرصة للاستقلال المتفرد عن العاصمة الكبرى

عاشت فكرتها في العالم الاسلامي ، وأعانت  
المصلحين على شق الطريق للتيار الاسلامي  
الجارى مع الأجيال .

في حياة هذه الفكرة التجديدية تجد  
مصر — كدأبها — مشاركة بحيويتها ،  
حاضرة بانبعائها ، الذي يجدده تدينها ،  
المتفلسف ، وتفلسفها المتدين ، وعملها العتيد  
في البعث .. ومن أجل البعث ..

فهذا التجديد كل قرن ليس الا صورة  
من صور البعث الذي آمنت به مصر وعملت  
له ، فكان من عملها الاسلامي أن قدمت  
جمهرة من الرجال ، الذين ربّتهم وأنضجتهم ،  
فكانوا مجددى قرون متعددة ، بين أولئك  
البضعة عشر نقرا ، الذي نهضوا على رأس  
البضعة عشر قرنا من حياة الاسلام ..

ويبدأ العادون من القدماء ، والمحدثين  
بعمربن عبد العزيز ، ربيب مصر ، وساكن  
حلوان ، ويمضون فيعدون غير واحد حتى  
تكون الكثرة — أو الأغلبية المطلقة — بلسان  
اليوم — ممن نمتهم مصر ، واتسبوا لمصر ،  
من وجوه رجال الدين — ثم يطمئن المحدثون  
الى أن يعدوا مجدد القرن الرابع عشر الهجرى  
في الاسلام مصريا .. مصريا .. وهو ما نشير  
اليه حين نحدثك ، عن الحياة الدينية بمصر في  
العصر الحديث .

ولا نجد المجال لشيء من التفصيل لفكرة  
التجديد ، والمجددين المسلمين ، فلهذا مكانه

ما يهبىء لهم الدولة القوية ، والمغالية الناجحة ،  
ويجرى الأمر في ذلك على نسق متماثل ، بل  
يكاد يكون موحداً في صميمه .. « فابن  
طولون » والخلافة في بغداد في القرن التاسع  
الميلادى كمحمد على وخلافة الاستانة في  
القرن التاسع عشر ، ترسم البيئة لأهدافها  
سياسة متماثلة .. تنهض بهم مصر ،  
وينهضون هم بمصر ليساموا الخلافة  
الكبرى ، ويرابوا منها ما انصدع بيد مصر ..  
فأنت واجد دائما ، وعلى مر الأيام ، وفي كل  
حين « مصر » في الميدان التاريخي ، والملعب  
الحيوى لاعبة مرموقة ، فعالة مؤثرة .. دائمة  
الحيوية ..

وتلك الحيوية الزاخرة هي التي نحاول  
أن نلمح أشعتها الدافئة في حياة الاسلام  
بمصر .. ونقدر — بين يدي ذلك — ما في  
طبيعة التدين من ميل الى المحافظة ، وجنوح  
الى الثبات ، ونفور من التغيير ، بل شبه انكار  
للتطور .. ولكننا واجدون مع هذا في  
الاسلام انبعاتا حيويا ، يتطلع لاستئناف  
النشاط ، وتجديد النظر ، واستدامة النماء ،  
واسعاف الحياة بالتطبيق الجديد ، والتصرف  
المرن ، الذي يحفظ للأصول العيوية  
صلاحيتها ، ويقيها من عوامل التجمد  
والجفاف — وهذا هو ما يشير اليه حديث ،  
« ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد  
لهذه الأمة أمر دينها .. » أو ما في هذا المعنى .

وهو تعبير عن تلك المحاولة المرنة التي

كذلك — وحسبنا هنا تلك المعالم العامة ،  
التي تهىء لمؤرخ الحضارة أن يحدث عن  
حيوية مصر في الاسلام ..

ولنمض بعد ذلك الى لمحة من خصائص  
تدين مصر بالاسلام ، واعتقادها له فترى :

#### اسلام مصر .. بلا نحل ولا مقالات اعتقادية

ونحب أن نرد هذا — كما اعتدنا — الى  
خصلة أصيلة لمصر ، وطبع لها مألوف ، بعد  
الذي عرفنا ، من ملامح شخصيتها الدينية  
فنجد أن مصر القوية التدين ، الواسعة الأفق  
الدينى ، المستشفة لجوهر الدين الذى تؤمن  
به وروحه — ص ٥٣٤ ، ٥٣٥ — نجد أن مصر  
الذى هذا شأنها — كما عرفنا — لم تهش  
كثيرا للجدل الاعتقادى فى الاسلام ، ولم  
تفسح صدرها كثيرا لأصحاب النحل، وأرباب  
المقالات الاسلامية .. وقبل أن نمضى فى بيان  
هذه الظاهرة وتعليلها نقف أمام :

سر تاريخى .. نفتشه .. وذلك ما يذكره  
بتلر صاحب «فتح العرب لمصر» ، عند حديثه  
عن مقاومة المصريين لما أراد « هرقل » من  
حملهم على المذهب الدينى الذى قرره  
بطاركنه ، وانهم تلقوا ذلك بكراهة شديدة ..  
ثم تفسيره لهذه الكراهية بقوله « .. وقد  
كان استقلالهم فى أمور الدين أكبر ما تتعلق  
به نفوسهم فانهم لم يعرفوا الاستقلال ،  
القومى قط ، ولعلمهم لم يحلموا يوما بمثل  
ذلك الأمل ، وأما الاستقلال فى أمر الدين

فقد ناضلوا من أجله وجاهدوا فى سبيله ، لم  
يشنوا عن ذلك فى وقت من الأوقات منذ  
مجلس خلقدونية ، وكانوا حريصين على  
بلوغ ذلك الغرض لا تغفل عنه قلوبهم  
ولا يحجمون عن بذل كل شىء فى سبيله مهما  
يعظم . ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعا ..

هكذا يصل المؤرخ الى أن سر تاريخ  
هؤلاء المصريين — أو القبط ان شاء — هو  
أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط ،  
ولعلمهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل ،  
وانما عرفوا الاستقلال الدينى ، وناضلوا من  
أجله ولم يحجموا عن بذل أعظم شىء فى  
سبيله .

ونقول للسيد المؤرخ : انها شنشنة  
لقومك معروفة .. فسرتم بها تاريخنا تفسيراً  
ضالاً مشوها مفرضاً مفسداً .. تزعمون به  
أنتا لم نعرف هذا الاستقلال القومى منذ آخر  
عهد الفراعنة .. ولم نحكم نفسنا منذ ذلك  
العهد .. ولم .. ولم .. مما افترتتم وجاراكم  
فيه سدج منا ، لعلمهم حتى اليوم ، وبعد  
ذهاب ريحكم يرددونه .

وانكم بذلك لتنكرون خاصة ظاهرة  
جلية من خصائص هذه البيئـة المصرية ، وتلك  
هى صلاحيتها بتكوينها المتميز المتحيز ،  
المتجدد ، المحوط بفواصله من الصحراء  
والماء ، لأن تكون مهدا للوجود المستقل ،  
والدولة المتفردة ، والقومية الشاخصة . وبهذه  
الخاصة الفطرية الطبيعية ، وما تكسبه لأهلها

ما نجد من تفسير لهذه الظاهرة الدينية ، بعد أن نصف عمل مصر الاسلامية فيها ، وتشير الى شواهد عليها .

ففى الحادث الذى تقدم جاء الخلاف الدينى من القسطنطينية بأمر « هرقل » وقاومته مصر مقاومة شديدة ، يمثلها ما يروى من أمر أحد رجال المسيحية فيها ، اذ يعذب بالقاء المشاعل ، وتسليط نارها على جسمه ، حتى يسيل دهنه من جانبيه الى الأرض ، ولكنه لم يتزعزع عن ايمانه ، فخلعت اسنانه، ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل ، وحمل فى البحر ، حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة اذا هو آمن بما يعرضونه ، وفعلوا ذلك ثلاثا ، وهو يرفض فى كل مرة ، فرموا به فى البحر ، فمات غرقا ... !

ولك أن تجد فى هذا مبالغة ، أو كثيرا منها ، بل لك أن تعده مختلقا .. لكن له على كل حالة دلالاته النفسية والاجتماعية ، بما فيه من تعبير الذين صاغوه أنفسهم عما يجدونه من شعور دينى ، يقتضى المؤمن مثل هذه المقاومة العنيدة ، ويتجسم هذا الشعور فى تعقيب راوى خير هذه المقاومة بقوله بعدها : ولكنهم بفعلهم هذا لم يقهروا « فلانا » الذى مات شهيدا ، بل قد غلبهم هو بصبر الايمان المسيحى .. !

ثم يمضى أكثر من مائتى عام ، وتتجدد

من خصائص معنوية وفنية تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية فى ابان قوة الأمم التى اتصلت بها ، وناوات — كما أشرنا — أثينا وروما ، وبغداد ، والقسطنطينية .. وكانت متفردة عالية الرأس فى كل الامبراطوريات التى وصلت جبلها بها ، وظلت على مسرح التاريخ لم تخفف منه أبدا ، بل لم تسقط عليها ظلال ما تقلل الأضواء على قساماتها ومميزاتها .

فحديث التاريخ الصريح : ان مصر بيئة استقلال بطبيعتها .. واهلها بذلك من أكثر الناس شعورا بهذا الاستقلال .. وليس هذا العناد الذى وصف « بتلر » منه روائع فى المقاومة ، الا لونا من قوة تلك الشخصية التى لا تتجزأ .. ولا ينفصل منها جانب عن جانب.

وحديث غير المصريين من الحاكمين بمصر ليس الا سذاجة وغرارة أو هو تغرير بالسامعين ، لأن تلك العهود لم تعرف القومية الاقليمية ، والوطنية المحلية .. بل كانت تطويها وتشملها عصبيات من غير هذا اللون ، هى فى الأعم الأغلب عصبيات دينية أو سياسية ، تلونها أمة غالبية حينما كانت ظروف الحياة المادية ومواصلاتها تتيح لأمة واحدة أن تحمل شعلة الحضارة .. حتى يهن ساعدها فتتلقاها أمة أخرى .. فلم يقف المؤرخ «بتلر» بقوله هذا على شيء من سر تاريخ المقاومة المصرية للمذهب الدينى الوافد ، ولعله بعد وقتنا هذه أمام زعمه الذى زعم يطمئن الى

هو الحال العامة ، وان مصر لا تلجج في النزاع الاعتقادي ، ولا تتولاه بتأليف أو كتابة تنبئ عن رواج ، وحسن تقبل ؛ بل تعارضه مثل هذه المعارضات المسرفة في التحدى ، على نحو ما سمعنا في حادثين ، من دينين مختلفين ، في زمانين متباعدين ، يؤكدان أن للبيئة في هذا ميلا خاصا ..

ولو نظرت النظرة الجامعة الى موقف مصر من مقالات الاسلاميين الكلامية على اختلافها لخرجت بالنتيجة التي صدرنا القول بها ، وهى عدم الاقبال فى اسلام مصر على هذا الجدل الاعتقادى .. وعدم رواج النحل الاسلامية فى مصر ، مهما تشتد عناية المسلمين بها فى غير مصر .. ومهما ينصبوا للتأليف فيها، والخصومة حولها ومهما تساعد الظروف العملية السياسية أو غيرها على رواج هذه النحلة أو الفرقة أو المقالة ، ومهما تظفر فعلا بشيء من ذلك فى مصر ، تحت تأثير العوامل المختلفة فانها لا تلبث أن تقتر ، ولا تترك من الاتفعال بها ما يسم مصر بسمة خاصة ، فى المقالات الكلامية ، أو يجعلها وطننا خاصا لفرقة من الفرق ، كما كانت ايران مثلا مركز التشيع قديما وحديثا ، أو كانت اليمن موطننا خاصا للزيدية .. أو ما الى ذلك .. بل لا تلبث مصر أن تلوذ بالمعنى الجامع ، والكلمة الشاملة ، أى بالجواهر الخالص ، واللباب من الدين .. وكانما تحول سعة أفقها الدينى دون

الأحداث فى الميدان الدينى بمصر فاذا الليلة أشبه بالبارحة ، فهذا المأمون شبيه « هرقل » فى فرض مسألة اعتقادية ، هى قضية خلق القرآن المعروفة التى تطول وتتجدد بعد عصره ! ويكتب الخليفة الواثق الى الولاة بالامتحان فيها ، كما فعل المأمون ، ويحجى الأمر الى والى مصر ، بامتحان البويطى الفقيه الصعيدي ، أكبر أصحاب الشافعى ، ت ٢٣١ هـ — . وامتحنه الوالى : فلم يجب ، وقرر المخالفة ، وكان الوالى حسن رأى فيه فيقول له : « قل فيما بينى وبينك » ، فيرد عليه البويطى : انه يقتدى بى مائة ألف لا يدرون المعنى !! : ثم يحمل البويطى من مصر الى بغداد ، على بغل ، فى أربعين رطل حديد ، هى غل فى عنقه ، وقيد فى رجله ، وبين الغل والقيد سلسلة ، فيقول : لئن أدخلت عليه — يعنى الخليفة — لأصدقنه ولأموتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم . ويسجن فى هذا الحديد وقد عجز عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة ، اذ كان مقيدا الى أنصاف ساقه ، مغلولة يدها الى عنقه ، ويموت البويطى فى سجن بغداد ، فى القيد والغل ، كما مات أخ له ذو دين فى البحر قديما ..

وما نشك فى أن ناسا كانوا يفتنون بمثل هذه الاضطهادات ، وينزلون على ارادة أمثال « هرقل » « والمأمون » لكن الذى يلفتنا هنا

الاندفاع الحاد ، والتحزب المتطرف لفرقة  
دينية دون فرقة .

ولعلنا واجدون فيما يلي من قول عن  
النظرة المصرية في الأمور العملية ، والنظم  
القانونية الفقهية ما يؤيد هذه السعة الفسيحة  
في الأفق .. والرحابة السمحة في ادراك هذه  
الشئون الحيوية والتدبير لها .. وعدم  
الاطمئنان الكثير الى الافتراق المذهبي فيها ..

\*\*\*

وفي عرض موجز عابر ننظر الى بعض  
الفرق الإسلامية في البيئة المصرية ، وما كان  
من أمرها .. مختارين لذلك أولاً :

نحلة ذات صفة سياسية واضحة ، هيأت  
لها الحياة العملية من أسباب التأثير القوي  
قدرا كبيرا فخدمت السياسة دعوتها ، وعملت  
القوى الحكومية على نشرها وحمايتها بمختلف  
وسائل الترغيب والترهيب ، وتلك هي :

التشيع : فقد جاء مصر أصله وجذره  
المسمى « ابن سبأ — مهما تكن شخصيته —  
حين طورد في خارجها ، فاستقر بها وجعل  
يعمل لما يعزى اليه من توهين الاسلام ووحدة  
المسلمين بمختلف الوسائل .. ومن ذلك  
حديثه عن وصاية علي ، وأخذ عثمان الخلافة  
منه بغير حق . فكان لمن بمصر نشاطهم ضد  
عثمان — كما هو معروف — واتجه الاهتمام  
الى التشيع لعلى — لكن مشاطرة عمرو بن  
العاص لمعاوية ، واطعام معاوية عمرا مصر

جعل الأمر يستقر لمعاوية والعثمانية ، ويخف  
صوت التشيع .. ويتظاهر الناس بسبب على ..  
ثم بسقوط الأموية خمدت العثمانية ..  
وفي عهد العباسيين كان يخرج بمصر علويون ،  
أو كانوا يظهرون الخارجين على أبناء عمهم  
العباسيين ، فتكون النتيجة هي اخراج  
العلويين من مصر الى العراق ، غير مرة ..  
ويضطهدون فيخرج الأمر في مصر بالألا يقبل  
علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر  
من القسطنطين الى طرف من أطرافها ، وأن  
يمنع العلويون من اتخاذ العبيد ، الا العبد  
الواحد .. وأن من كان بينه وبين علوى  
خصومة يقبل قوله في العلوى ولا يطالب بيينة  
.. الخ .

ثم يجيء العصر الطولوني فيثار الحديث  
عن أفضلية أهل البيت وينقسم الناس بشأنه  
حتى يرجح القول به .. فيقوى أمر الشيعة  
بمصر شيئا ما .. لكن لا يستمر ذلك ولا يزداد  
.. ففى منتصف القرن الرابع الهجرى يهيج  
السودان على الناس منكرين ذلك ، مشتهدين  
فيه ، حتى ليسألون الذى يلقاهم في الطريق :  
من خالك ؟ .. فان لم يقل : خالى معاوية  
بطشوا به .. وكان في مصر من يهتف على باب  
المسجد يوم الجمعة معاوية خالى ، وخال  
المؤمنين ، وكاتب الوحى ، وريدف رسول الله  
— عم — .. وكان المتشيعون يعذبون ..

ويبث الفاطميون من الغرب دعواتهم ،  
ويجدون في مصر تلك البيئة التى تقوم بدولة

وكانت تعرف بتربة الزعفران ، وتحمل عظامهم على الحمير لترمى في المزابل . وتلك نهاية مقالة اسلامية سياسية أيدتها قوى الدولة ، وأتيح لها من أسباب التشجيع والانتشار ما لعله لم يتح لمقالة أخرى من مقالات الفرق الاسلامية .. ولكن مصر فيما رأينا لا تشبث بمثل هذا ، ولا تعده شيئاً في التدين ..

ويزيد الأمر بيانا أن نلمح في سرعة لونا آخر من ألوان النزاع الاعتقادي غير السياسي في أصوله وهو :

الاعتزال : فانه مقاله كلامية ، فلسفية ، ليست سياسية في أساسها كالتشيع ، وان انغمست عمليا في السياسة بعد .. والاعتزال — كما نعرف — قد هز أركان الحياة العقلية الاسلامية بدعوته الى احترام العقل ، وتمكينه من النظر ، كما هز أركان الحياة الاسلامية العملية مدى طويلا ، اذ جعل الخلفاء قضاياء عقائد يلزم الناس بها ، ويضطهدون أفسى اضطهاد لمخالفتها ، كما فعل المأمون وخلفاء بعده في مسألة خلق القرآن ، التي هي فكرة اعتزالية ... قاسى الناس بسببها العنت الكثير ، وكان منه في مصر ما سمعنا قريبا من أمر البويطى الفقيه الصعيدى . حتى سميت في التاريخ بحق « محنة خلق القرآن » .

ونسأل ماذا كان أمر هذا الاعتزال في مصر فنعرف أنه كانت بمصر ، في حين ما حلقه للاعتزال تحدث عن خلق القرآن ، لأن

متميزة فينقلون اليها دولتهم الجديدة من المغرب ، وتستقبل مصر عهدا من التشيع السياسى ، تدبر الدولة فيه للدعوة المتشيعه الخاصة بأولئك القواطم تدييرا فسيح المدى ، عميق الأساس ، معانا من المال والرجال ، بمثل ما تبذل اليوم وزارة الدعاية الحديثة أو بأكثر منه .. وحديث التاريخ عن رجال الدعوة ، ونظمها وخطواتها ، والسرى منها والعلنى .. الخ مما يستهلك وصفه كتبنا لهم ، وكتبنا عنهم . وهكذا يسود التشيع في مصر ، ويجرى العمل على الفقه الشيعى ، فمثلا : لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ، ولا جد ، ولا ابن أخ ، ولا ابن عم .. لأن في ذلك عداوة لفاطمة بنت الرسول — عم — .

ويمتد ذلك الى الأعمال العادية في حياة الناس الخاصة فيصدر مرسوم حكومى بتحريم بيع شربات الشعير ، وضرب من يبيعه لأن عليا كان يكرهه ، والى مثل هذا ترجع نزوات الحاكم بأمر الله فيما كان يصدر من الأوامر بتحريم الطعام أو الشراب ..

وبدل أن كان يسب علي<sup>3</sup> على المنابر يكتب سب الصحابة على أبواب المساجد ، وفي داخلها ، وعلى الدكاكين بل على المقابر وفي الصحراء ، ويلون ذلك بالأصباغ ويذهب بالذهب .

وباتهاء الدولة الفاطمية يتبخر كل هذا ، ولا يمضى كثير من الزمن حتى تنبش قبور خلفائهم التي كانت في مكان خان الخليلي ،

السياسة قد تدخلت فيه .. وقد جاءت المقالة الى مصر من الخارج .. وفيما وراء ذلك تشعر أن الاعتزال لم يأخذ في مصر أهمية تقاس في شيء الى ما كان له في بغداد ، وغيرها من ضجة .. وتأليف .. ومؤلفين .. وخلافات .. ومجادلات .. وكذلك ثبتت مصر اسلامها ..

بلا خلاف اعتقادي هام — ولا فرق .. ولا مقالات رائجة .

\*\*\*

والجدل الاعتقادي في الاسلام انما كان صدى من أصداء الصناعة المنطقية ، وضرباً من عدوى الفلسفة الميتافيزيقية النظرية ، التي تلقاها العرب عن قبلهم ، وكانت في تقدير بعض المقدرين مشغلة للقوم عن النزوع العملي الجاد ، وسواء أكان الرأي الحق انها كذلك ، أو لا ، فان صلة علم الكلام الاسلامي بالفلسفة قوية واضحة .. ومن هنا تشعر أن صدوف مصر عن الجدل الكلامي ذو صلة — الى حد غير قريب — بنظرها الى الفلسفة ، وقلة نشاطها في ذلك .. ولبعض القائلين تعليقات في هذه الظاهرة تستحق المناقشة — ولكن ليس من عملنا الأول هنا أن نؤرخ لمركز مصر الفلسفي ، في العصر الاسلامي .. فترك ذلك كله للناظرين في الحياة العقلية ، من هذا التاريخ الحضاري ، شاعرين بأن نظرة مصر المسلمة الى الفلسفة لم تكن نظرة الحضي بها ، ولا المهتم .. ولذلك

سببه من طابع الحضارة المصرية العام .. ومن الظروف الخاصة في مصر الاسلامية مما يقف عنده المختصون .

وتمام القول في خصائص اسلام مصر أن نتحدث عن :

### مصر .. وراء الخلاف الفقهي

ونعرف أن هذا الخلاف الفقهي في استخراج الأحكام العملية مما يقتضيه اختلاف طبائع البيئات ، التي عاش فيها المسلمون ، واختلاف عاداتهم ومعاملاتهم .. كما تقدر أن هذا الاختلاف رحمة — كما يقولون — . ولكننا في الوقت نفسه لا ننسى أن التطلع الى وحدة تشريعية جامعة قد وجد منذ عصر مبكر ، حينما ظهرت آثار هذا الاختلاف التشريعي ، ولا تشير من هذا الى أكثر مما يذكر من سبب تأليف « مالك » لمجموعه الحديثي الفقهي المعروف باسم « الموطأ » وأن طلب تأليفه من الخليفة العباسي الذي طلبه — على اختلاف الرواية في تعيينه — انما كان تطلعا الى هذه الوحدة التشريعية ، وربما بآثار هذا الخلاف ، كما يبدو ذلك صريحا في رسالة « ابن المقفع » المعروفة برسالة الصحابة .. وفي الحوار بين الخليفة ومالك .. ورغبة الخليفة في حمل الناس على الموطأ ..

وهذا التطلع الى وحدة مركزية في التشريع الاسلامي قد أيدت حوادث التاريخ بعد ذلك حسن أثره ، إذ كان بين الفقهاء من سعة

أم الشافعي ، فكان له حظه من النظر والنقاش ، الذي لم يعرف قبله بمصر .. وقد شعر المصريون بما لهذه الوفادة من خطر الفرقة ، فكان قاضي مصر اذ ذاك يصيح بالشافعي : ويقول له : يا كذا .. دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا ، وألقيت بيننا الشر ، فرق الله بين روحك وجسمك .. ومهما يكن لقول هذا القاضي من أسباب شخصية أو غيرها فانه يدل على رغبة البيئة في هذه الوحدة في الأمر والرأى .. وعلى أن افسادها مما يعاب به فاعله .

ولعله لشيء من ذلك لم ينتشر المذهب الحنفي بمصر ، لأنه فقه الرأى الواضح ، وان كان المقریزی يعلل ذلك بأن مذهب أبي حنيفة ابطال الأوقاف ، فتقل أمره على أهل مصر وسئموه .. وهو تعليل غير كاف وحده لأن صاحبى أبى حنيفة لا يبطلون الأعباس ، والعمل قد جرى على قولهما ..

وفي كل حال فقد هيات الشخصية المصرية التي عرفنا خصائصها لكراهية الجدل ، في أى لون ما ، ويزيد تلك الكراهية وضوحا عند هذه الشخصية ما نقله الينا التاريخ من شعور الفقهاء بعد تفشى الاختلاف وتأصله بأن التوفيق الموحد لهذه المذاهب المختلفة نعمة يقوم بها فقيه جليل ، رشحوه هم من فقهاء مصر البارزين ، ففى مطلع القرن السابع الهجرى جلست بمكة طائفة من العلماء يقولون لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة في هذا

الخلاف وعنفه ما كان مما رأينا معه تنابذ القوم وتناجرهم بقسوة ، من كل منهم على صاحبه ، قسوة لا تشغل القارىء في هذا الموجز بشيء من تفاصيلها .. وخطتهم الفقه بالكلام أحيانا فكانت الفتن بين الشافعية والحنابلة .. وفرق كل ذلك كلمة المسلمين ، حتى شعر أبناء عصرنا هذا بالحاجة الماسة الى التقريب بين المذاهب ، وكانت لهم في ذلك التقريب محاولة تأخذ طريقها .. كما اشتغل بعض العصرين بجمع ما سموه الفقه الموحد .. يرجون رجوع المسلمين كلهم اليه .

وكل أولئك كاف لبيان الآثار الاجتماعية غير المحببة للمذهبية الفقهية ، واعتبار الشعور بضررها في العصور السابقة ضربا من دقة الايمان وسلامة الفطرة ، وتقاء التدين .

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقدر عمل مصر في هذه الناحية اذا ما وصفنا موقعها من الخلاف الفقهي .

\*\*\*

وما عرفناه عن السلوك المصرى في الخلاف الكلامى يهيب للرأى في شعور مصر نحو الخلاف الفقهي ، منذ أول شيوع لهذا الخلاف ..

لقد عرفت مصر المذهب المالكي ، لتقدمه، وصلته بدار الهجرة ، ثم وفد عليها الشافعي في القرن الثاني الهجرى ، وقد أصاب من فقه الرأى حفا بتلمذته على محمد بن الحسن الشيباني ، وصيرورة كنهه اليه ، لتزوج محمد

وفي فقهه الذي ارتفع عن الخلاف المذهبي  
المفرق .. ودعا الى التوفيق الموحد منذ بضعة  
أجيال .. وحاوله فعلا .. وكل أولئك يؤيد  
ما تمثلناه من ملامح الشخصية المصرية  
الدينية .. في عمق تدينها .. وسعة افقه ..  
وادراك الجوهر الصافي للدين ..

\*\*\*

على أنا حين نلتمس الدلالات الاجتماعية  
العليا لموقف مصر من المذاهب الفقهية ،  
ونظرتها الى الاختلاف والتحزب لا ننسى مع  
كل ذلك ان هناك عوامل سياسية واجتماعية  
وغيرها تؤثر في انتشار المذاهب الفقهية  
وشيوعها ، فتستقر مذاهب غير قليلة في مصر،  
أو يسود مذهب منها لمثل هذه الاعتبارات ..  
أو تقدم البيئة المصرية العلمية أعيانا ووجوها  
من علماء المذاهب المختلفة .. أو يكون في  
مصر قضاة ممثلون لتلك المذاهب على  
اختلافها .. فذلك كله وما اليه لا يؤثر على  
ما اطماننا اليه ، من تشوف الروح المصرية  
الاجتماعية الى تلك الآفاق العليا ، والغايات  
البعيدة من الترفع على الخلاف ، والدعوة الى  
الوفاق ، في الأصلين الاعتقادي والعملى ،  
مما سمعناه عن كلامها وفقهها .. ولا تأثير  
لهذا على ذلك ، ولا ابطال لهذا بذاك ..  
وليمض مؤرخو الفقه مثلا الى وصف جهود  
مصر وأثرها في حياة المذاهب الفقهية المختلفة،  
مع كل هذا الذي يقرره التاريخ الحضارى  
في نظرتة التكاملية العامة .. ولكل وجهته .

الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب  
لنفسه مذهباً من الأربعة بعد اعتبار هذه المذاهب  
المختلفة كلها لازدان الزمان به ، واتقاد الناس  
له ، فاتفق رأيهم على أن هذه الرتبة لا تعدو  
الشيخ تقي الدين السبكي ، ولا ينتهى لها  
سواه ؛ والسبكي هذا هو الذى انتهت اليه  
رياسة العلم بمصر ، وقالوا : ما جاء بعد  
الغزالي مثله ، فقال الصفدى : انهم يظلمونه  
بهذا ، وما هو عندي الا مثل سفيان الثورى ..  
ولعل العلماء رشحوه لهذا التوفيق المصلح لأن  
نزغته نحوه معروفة ...

وإذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا  
فقط في هذا الشاهد فانا لنجد هذا الميل  
المصرى للتوفيق ، بل الدعوة اليه يتجه اليها  
صوفى مصرى بلدى السبكي المنوفى هو  
الشعرانى المنوفى أيضا ، وهو أصيل في الفقه  
فوق كونه صوفيا من الطراز الأول وقد  
حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة ، كمحاولته  
التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر  
والاستدلال ، ويقول الباحثون الغرييون :  
انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ..  
وحسبنا به تزكية لميل البيئة المصرية الى هذا  
التوفيق الفقهى ، الذى لا نسمع فيه لهذه  
العصور صوتا أجهر من هذا الصوت ..

\*\*\*

وبذلك يبدو اسلام مصر متسق الجوانب،  
متناسك الأجزاء : في روحيته التى قادت  
التصوف .. وفي ايمانه الذى لم يهش للجدل ..

والآن وقد تبينا اتجاه مصر ، وآمالها في الحياة الاسلامية الاعتقادية ، والحياة الاسلامية العملية وما نمته بيئتها ذات الطابع المتميز الواضح .. الآن نشعر بضرورة توجيه مثل هذه النظرة الكلية الشاملة الى :

### الاسلام ٠٠ والمجتمع المصرى

#### الشعب :

هذه العصور التى تتحدث عنها من القرن السابع الهجرى الى قرابة القرن الثانى عشر الهجرى أيضا عصور تسود فيها النزعة الدينية ، وتسيطر الروح الدينية فى توجيه الحياة وتديرها .. ومصر هذه بخاصة قد عرفنا لها هذا النزوع الدينى القوى ، وذلك التعمق الروحى فى التدين فلا غرابة فى أن يكون الدين فى تلك العصور مسيرا قويا للشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها .

\*\*\*

وقد كان المجتمع المصرى يتألف من مسلمين ، وذميين ، من أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، كالنصرانية واليهودية .. ودون أن ننظر الى نظام الذمة النظرى فى الاسلام ، ومدى انسانيته ، نستطيع أن نقرر فى ثقة أن النظام الاسلامى للذمة لم يكن دائما وفى كل حين هو النظام الواقعى الفعلى فى الحياة ، اذ لا بد من وجود الفرق — رغم كل شيء — بين المثال المثمل ، والواقع المتحقق .. والتاريخ الحضارى انما يلتبس وصف سير الحياة الفعلى ، وان لم يبخص التنظيم المثالى

حقه ، فى الدلالة على حسن استعداد منظمية . وبملاحظة الواقع العملى نجد أعمالا مختلفة : بعضها لا يحقق المثال الاسلامى لحياة الذميين ، وبعضها يحاول أن يحى المثل الصحيح الذى أرادته الاسلام .. فحينما يعتسف وال مسلم فيهدم الكنائس المحدثه مثلا .. وأنا يأذن وال آخر بنائها ، بمشورة الفقهاء أو القضاة الخيرين ، الذين يحتجون بأن بناء الكنائس من عمارة البلاد ، وأن الكنائس التى بمصر لم تبني الا فى الاسلام زمن الصحابة والتابعين .

وإذا ما قدرنا أن حكومات هذه العهود لم تكن تفكر فى شيء من اصلاح عقلى أو اجتماعى ، للشعوب المحكومة الا بقدر ما تسير الأمور ويستقر النظام ، وأن الأعمال الاصلاحية الاجتماعية كانت نشاطا فرديا شخصا من تفضل الخيرين ، يتقربون به الى الله .

ثم اذا ما قدرنا أن حكام هذه العصور أيضا لم يكن لهم من سعة الأفق وبعد النظر ما يفهمون به المعانى الدينية السامية أو يتشربون روح التسامح الذى توجيه نظرة الاسلام الى الوحدة الدينية الانسانية مثلا ... وكان العامة اغمارا جاهلين يدركون من التدين معناه القريب ، ويرون المخالف عدوا محاربا ، وضالا مضلا ، والحكام فى حاجة الى ترضيهم اذا شغبوا على أهل الذمة أو بطشوا بهم ، ثم الحكام أنفسهم — كما قلنا — ضيقوا الآفاق ..

والى جانبهم علماء ، منهم من كانت تنقصهم تلك الساحة الروحية .. وبكل أولئك يقع ما يقع من ارهاق أو اعنات للذمين بالزامات قاسية ، وتشريعات خشنة ، دفعت اليها طبيعة الحياة اذ ذلك وروح العصر نفسه .

وهكذا يتردد الأمر بين تسمح يولى الذمين من النصارى واليهود مراكز رئيسية فى الوزارة والادارة .. وتعتن يضطهدهم ويتطرف فى ذلك .. فلا يستطيع المنصف أن يتخذ من السماح الأول صورة لحياة هؤلاء الذمين فى المجتمع المصرى لعهد من العهود ، أو فى العهود جميعا .. كما لا يستطيع أن يتخذ تلك الصورة لحياة الذمين فى المجتمع المصرى من الاضطهاد الذى قد تمارسه قلوب قاسية شرسة ، وتقشعر الأبدان من فظاعتها .. ولعل الانصاف أن يقدر المؤرخ الحضارى الدرجة التى يقف فيها هؤلاء الناس — حكاما وأفرادا — من سلم الرقى الانسانى .. ويدرك أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يرتفعوا على آفاق عصرهم ، ويظفروا الى درجة فوق الدرجة التى أهلهم زمنهم للصعود اليها .

والحق الذى ينبغى أن تنتهى اليه اليوم هو عدم التكثر فى ادعاء الانصاف دائما .. مع عدم التجنى فى المؤاخذة بالاعتساف دون تقدير الظروف المخففة .. ولو قدرنا أن السياسة لا قلب لها .. وان الملك — كما قالوا — عقيم .. وأن هؤلاء الحكام فى

معاملتهم للمسلمين أنفسهم ، بل فى معاملة أعضاء الأسرة الحاكمة منهم بعضهم بعضا ، قد كانوا يقسون بل يتوحشون ، لرأينا ما يقضى به الواجب الاجتماعى علينا من الحكم المنصف الذى يهب أخطاءهم لعصرهم ومستواه الانسانى .. ولا يحمل ذلك للدين فى نظامه النظرى وروحه الاجتماعية .. ولا يثير به شيئا فى الأفتس اليوم ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ولا يسأل عن أخطائها دين أو نظام .. بل يفسر تصرفها مستوى الحياة لعهدا ، ودرجة الشعور بالمعانى الانسانية فى أيامها .

وعلى كل حال فقد كان العنصر الاسلامى فى المجتمع المصرى يقدر العنصر المسيحى بخاصة ، ويعرف عند اللزوم ما له من أثر فى خدمة المصالح المصرية ، عن طريق الصلة الدينية بين مسيحيى مصر ومن حولهم من أصحاب مذهبهم ، كالذى كان فى القرن الخامس من ارسال الخليفة المستنصر بطرك مصر الى بلاد الحبشة بهدية سنوية للملكها ، من أجل تقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك فأمر ملك الحبشة بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ، ففتح ، وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع .. — على ما يروى — .

الحكومة : فى مثل هذا الجو تكون الحكومة تيوقراطية — الى حد ما — فأساس السلطان فيها الأمر الالهى بطاعة أولى الأمر مع الأمر بطاعة الله ورسوله « وأطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ..

وقد يكون من حكامها — ولاة أو أمراء أو خلفاء أو سلاطين — من هو خير يستشير من حوله ، دون نظام مقرر أو ترتيب ملزم ، مع الأمر القرآنى الصريح بالشورى « وشاورهم في الأمر » وأنها الشأن الثابت « وأمرهم شورى بينهم » .

وفي هذا الوضع كان العلماء الدينون ، بطبيعة ثقافتهم وعقيدتهم ، هم الذين يمثلون سلطة الشعب ، لأنهم كما قيل « يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء » .. وهم يعرفون: أن أفضل الجهاد عند الله كلمة حق في مجلس حاكم ظالم ؛ وهم يعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي صارت به هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس . وأن تغيير المنكر مأمور به : باليد ، أو اللسان ، وأضعف الأيمان أن يكون التغيير بالقلب .

ولكن العلماء المثاليين ليسوا هم الموجودين دائما ، فمنهم — كما رأينا — حتى في أعصرنا — من يتأول الآية القرآنية « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » بترك الأمر وعدم التدخل . بل منهم من كانوا أدوات ووسائل لتحقيق رغبات الحكام ، واقتائهم بما يريدون ، والتوقيع الكتابي بذلك على ما يطلب منهم الافتاء به .

وفي مصر بالذات قد عرفت لمثلئ سلطة

الشعب هذه وقفات مذكورة في مقاومة الظلم ، ومواجهة الطغيان ، ففي القرن الثالث رأينا البويطي يريد أن يموت في حديده ليعرف من بعده أن ناسا ماتوا في حديدهم ، كما رأينا الليث بن سعد وغيره قبل ذلك يقاومون هدم الكنائس ويرون تعمييرها من عمارة البلاد ، وفي القرن الثامن الهجري نرى بين مؤلفات السبكي كتابا اسمه « كشف الدسائس في هدم الكنائس » وهو اسم ان دل على شئ فانما يدل على مقاومة رغبة هوجاء في هدم الكنائس والاستيلاء على ما فيها كما كان يحدث في الظروف التي أشرنا اليها سابقا .

بل اتنا في القرن السابع الهجري نسمع العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الجليل — ت ٦٦٠ هـ — يعلم في مصر والشام : أن المخاطرة بالنفس مشروعة في اعزاز الدين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وأن من قال بأن التفرير بالنفوس لا يجوز فقد بعد عن الحق ، ونأى عن الصواب ..

وقد عرف هذا العالم الكريم بأنه سلطان العلماء وامام عصره بلا مدافعة ، والقائم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في زمانه .. وله في الشجاعة والمخاطرة ، وتحدى الطغيان مفاخر جديدة بأن تداع ، وهي من الكثرة بحيث لا نجد لها المكان هنا ، وحسبنا منها واحدة هي : موقفه من أمراء دولة المماليك

أن يقتل في سبيل الله .. ثم خرج ، وكأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة ، فحين وقع بصره على النائب يبست يده وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدي خير .. أى شيء نعمل ؟ قال : أنادي عليكم وأبيعكم .. قال : فقيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين — قال : من يقبضه ؟ .. قال أنا .. فتم له ما أراد ونادى على الأمراء ، واحدا واحدا ، وغالى في ثمنهم ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير ..

فمع كل اعجابنا بهذا الموقف وغيره مما يروى عن حياة العز بن عبد السلام لا نقول الا كما قلنا من قبل عن مظاهر الانسانية ، وأحداث الاضطهاد في معاملة الشعب ، تقول: اننا لا نستطيع أخذ الصورة الصحيحة لموقف علماء الدين من الحكومة عن مثل هذه المواقف البطولية وحدها .. كما لا نستطيع التقاط تلك الصورة عن مواقف الممالة والتراجع أمام الحكام .. فلا هناك سلطة مقررة لمعارضة العلماء ، ونهيبهم عن المنكر .. ولا هناك ضعف دائم أمام السلطة الحاكمة .. وانما هو مجتمع في مرحلة مناسبة لعصره : لا حماية مقررة لحقوقه .. ولا اهدار مستمر لهذه الحقوق .. هى نوبات من الصدف والاتفاق .. والوجود المتفضل .. لم تشعر الحكومة فيها بواجب فتلترمه .. ولم يشعر

الأتراك في مصر : اذ لم يثبت عنده أنهم أحرار ، بل أن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، ومن جملتهم نائب السلطنة نفسه .. فهالهم ذلك واستشاطوا غضبا فاجتمعوا وأرسلوا اليه فقال : نعقد لكم مجلسا ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعى .. فرفعوا الأمر الى السلطان ، وبلغ الشيخ أن السلطان أنكر دخوله في الأمر ، وقال : ان هذا لا يتعلق به .. فغضب الشيخ « عز الدين » ، وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير ، ومشى خلفهم خارجا من القاهرة ، قاصدا نحو الشام ، فلحقه غالب المسلمين : لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه اليه يتخلف ، ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار فبلغ نبأ هذه المظاهرة الهائلة الى السلطان ، وقيل له : متى راح ذهب ملكك ؛ فركب السلطان بنفسه ، ولحقه ، واسترضاه ، وطيب قلبه فرجع .. واتفقوا معه على أنه ينادى على الأمراء .. ثم أرادوا ملاطفته فلم يقد ذلك معه وأصر على رأيه .. وفزع هؤلاء الأمراء : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض !! وقال نائب السلطنة : والله لأضربنه بسيفي هذا .. وركب بنفسه في جماعته ، وجاء بيت الشيخ والسيف مسلول في يده فطرق الباب .. وعرف الشيخ الحال فما اكترث ، ولا تغير ، وقال لابنه الذى وصف له ما رأى : يا ولدي ، أبوك أقل من

العلماء فيها دائماً شعورا واضحا بحق فيقرروه .. ولا الشعب بين هذين يدرك حقه فيصم على طلبه .. ويقدم من يقتضيه كما اقتضى الشيخ العز بن عبد السلام أثمان الأمراء الأتراك الحاكمين ، وصرفها في المصالح العامة — فذلك كما قال ناقلو هذه الحوادث « مما لم يسمع بمثله » .

\*\*\*

الى هنا حدثنا عن الحياة الدينية ، في سير الحضارة الانسانية بمصر خلال أجيال تاريخها المتوسط عصر الاسلام ، من القرن السابع الهجرى الى مطلع التاريخ الحديث ، فوضعنا بين يدي القارىء — فيما نرجو — الاطار

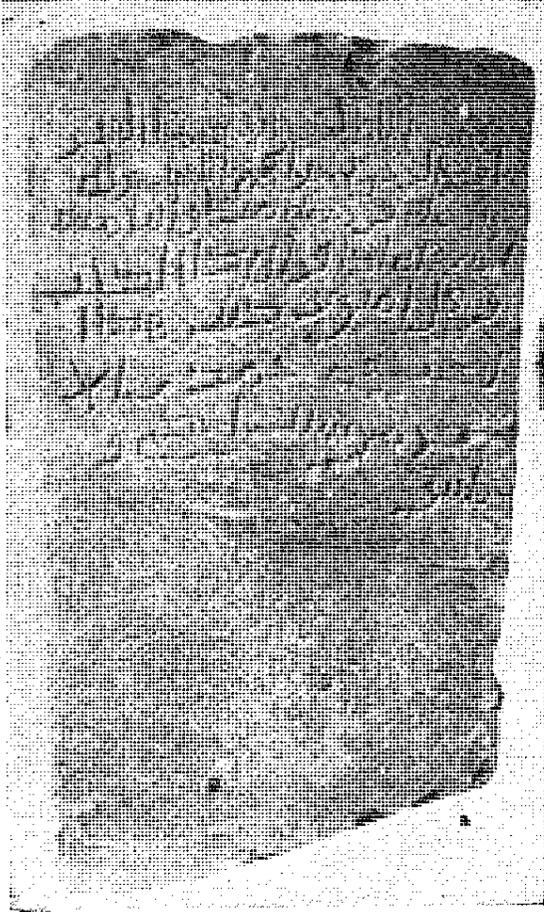
العام ، الذى يحدد ويضبط صور الحياة ، وأحداث الزمن في هذه العصور ، واضحة الدلالة ، مفسرة الأسباب ، مفهومة الأهداف في الحياة الدينية ، وجانب من الحياة الاجتماعية بما يؤثر فيها الدين بعامة .. والاسلام بخاصة ولعلنا بهذا الاطار قد ميزنا صورة مصر المسلمة ، أو صورة اسلام مصر عن غيرها من البيئات الاسلامية الأخرى .. أو عن الاسلام في تلك البيئات .

... وفي كل حال فالذى قدمناه يهيم للحديث عن :  
الحياة الدينية بمصر في العصر الحديث .

# الحياة الفنية في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح التركي

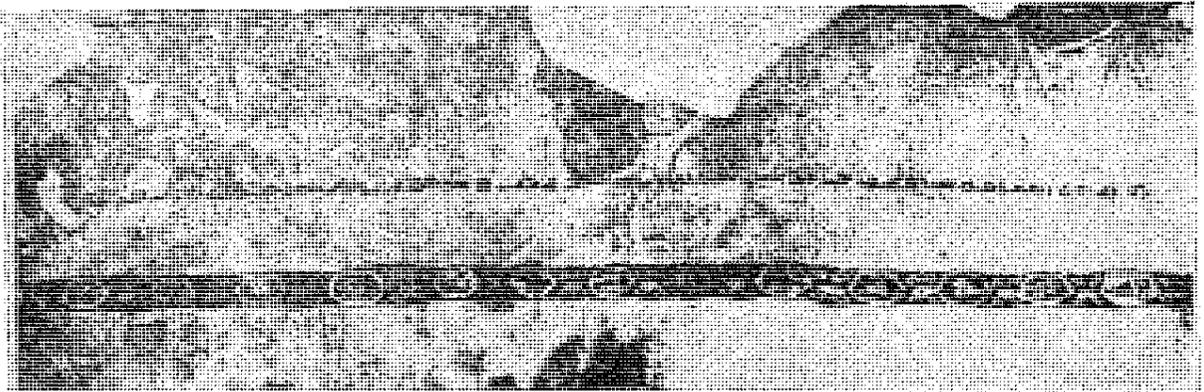
للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق



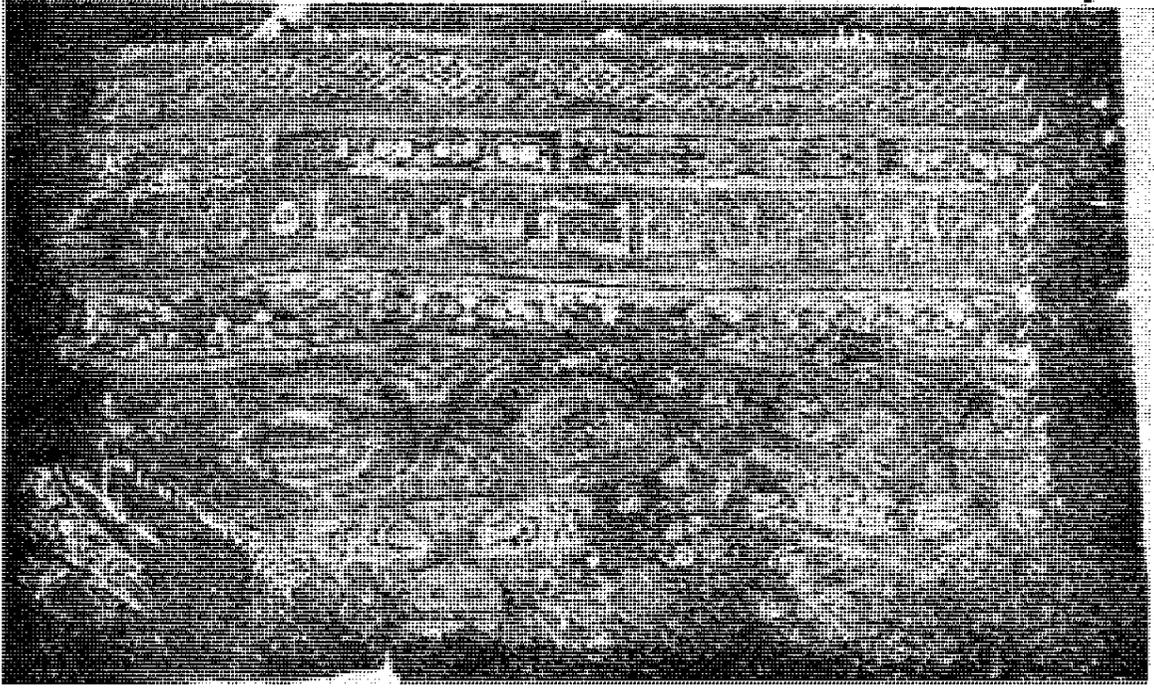
١ - أثر من عصر الخلفاء الراشدين ( شاهد قبر مؤرخ سنة ٣١ هـ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ) .

لئن كانت الروح الموجهة للحضارة الإسلامية - وهي الإسلام - قد بزغت أول ما بزغت في بلاد العرب ثم بدأت توتى ثمارها في البلاد التي أشرفت عليها والمنتدة من المحيط الأطلسي الى ما وراء الغنضليج الفارسي في بلاد الهند والصين ، الا أن تراث هذه الحضارة قد ضاعت معظم معالمه - بفعل الحروب أو الإهمال أو بفعلهما معا - من كثير من تلك البلاد الا مصر فقد بقي فيها جانب كبير من هذا التراث نشاهده في مساجدها وكنائسها وفي مدارسها وقصورها وفي خوانقها وقلاعها وأسوارها وفيما تنطوى عليه جوانح متاحفها الإسلامية من تحف منقولة .

وتكون هذه الآثار ، سواء ما كان منها ثابتا أو منقولا ، سلسلة متماسكة الحلقات



٢ - أثر من عصر الامويين ( قطعة قماش مؤرخة سنة ٨٨ هـ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ) .



٢ - أثر من عصر العباسيين ( قطعة قماش من مدينة القيس من عصر الخليفة المهدي (١٦٨ هـ) بالمتحف الاسلامي بالقاهرة ) .

عنه ، وتحافظ عليه ، وتقوى ما تداعى منه ،  
وتكمل ما ضاع من أجزائه ، وتسعى جاهدة  
لكى تجليه على الناس في الصورة الرائعة  
التي كان عليها يوم شيئده أو صنعه المصريون  
في العصور الوسطى .

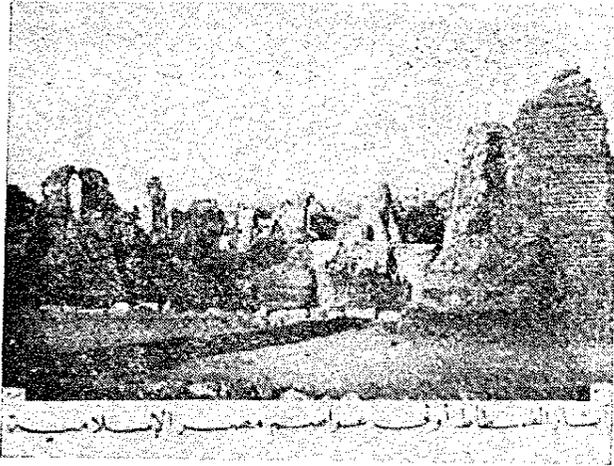
والصفحات القليلة المحدودة لى في هذا  
الكتاب لا تكفى لابرار الصورة الكاملة  
لهذا الجانب الفنى من حياة مصر الاسلامية ،  
ولكننى سأبذل قصارى جهدى فى أن أرسم  
لهذا الجانب صورة ان أعوزها التفصيل فى  
كثير من أجزائها فلا يعوزها الوضوح ، ولعل  
فى هذه الصورة الصغيرة ما يحفز القارئ  
الى مشاهدة هذه الآثار ويستهو به الى مطالعة  
المراجع المطولة التى تعنى بها فيزداد ايمانا  
بعظمة مصر فى العصور الوسطى ، ويؤمن  
بأنها قد شغلت نفس المكانة السامية التى  
شغلتها مصر من قبل فى عصورها القديمة .

تنظم العصور المختلفة للحضارة الاسلامية :  
ففى مصر آثار من عصر الراشدين ( صورة  
رقم ١ ) ، وفيها آثار من عصر الأمويين  
( صورة رقم ٢ ) . وفيها آثار من عصر  
العباسيين يوم كانوا أقوياء ( صورة رقم ٣ ) ،  
وآثار من عصرهم يوم أصبحوا ضعفاء ، وفيها  
آثار يتجلى فيها قيام المذهب الشيعى وثبات  
أركانه ، وفيها آثار تنطق باستعادة المذهب  
السنى لمكاته وتقوذه .

وهذه الميزة التى تتمتع بها مصر دون  
غيرها من بلاد العالم الاسلامى انما ترجع  
الى أمرين : الاول أنها كانت بمنجاة من بعض  
الكوارث التى تعرض لها العالم الاسلامى  
لاسيما فى جانبه الشرقى ، والثانى أن الشعور  
بأهمية تراث الماضى قد استيقظ فيها قبل  
غيرها من البلاد الاسلامية فقامت تكشف

## العمارة

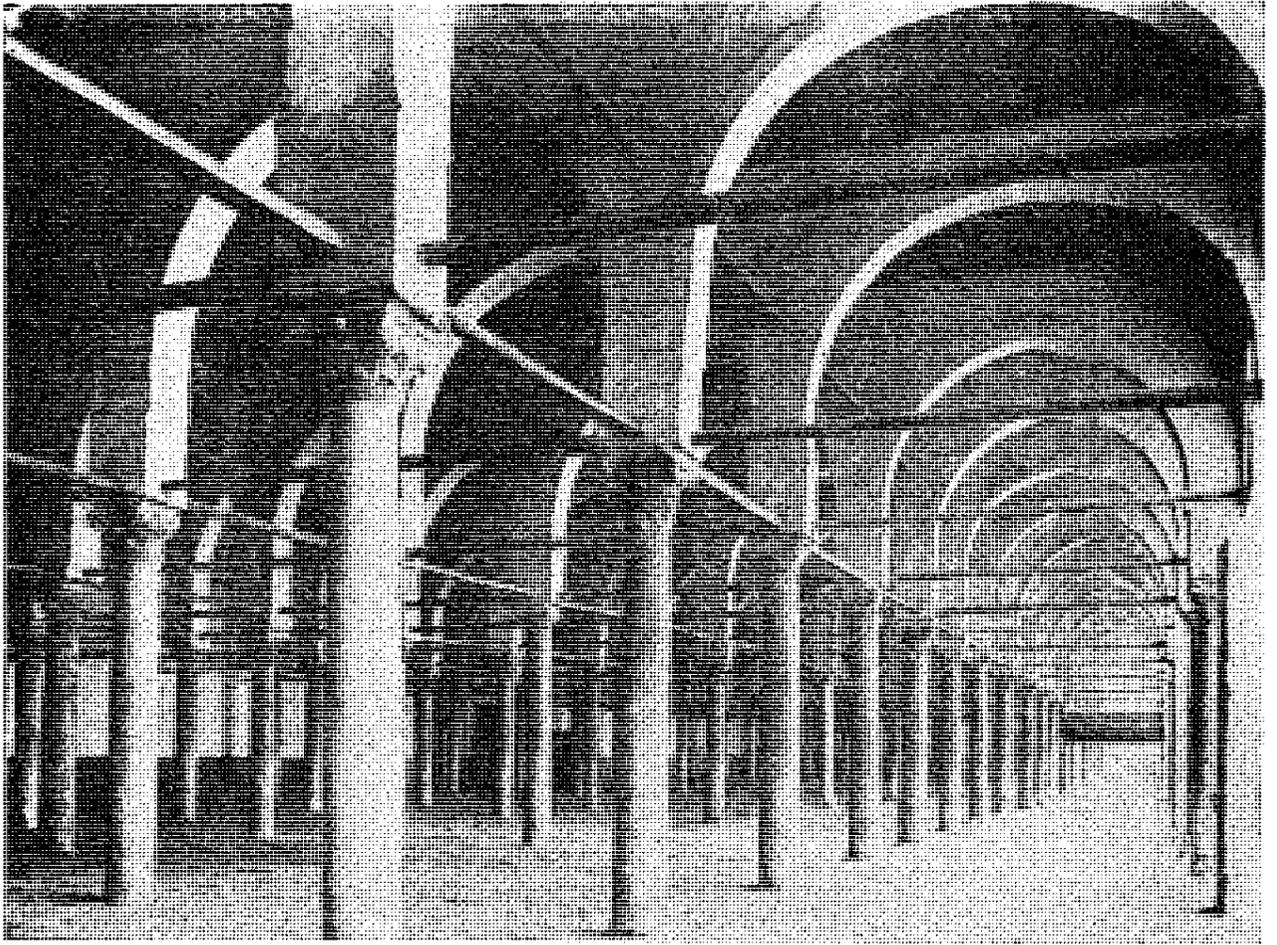
(المصر ما قبل الطولوني)



شكل - ٤

عصرنا الحاضر فقد كان فيها الأحياء الراقية  
بعمائرها العالية التي وصل بعضها الى أربع  
عشرة طبقة ووقف بعضها عند سبع  
طبقات حيث أنشئت حديقة غناء Roof-garden

وتعتبر الفسطاط - أولى العواصم  
التي شيدها العرب في مصر - نقطة  
الابتداء في هذا العرض السريع ، وخرائبها  
التي كان للمرحوم على بهجت فضل  
الكشف عنها في سنة ١٩١٢ تروى لنا فضلا  
شيقا من تاريخ المدن ( صورة رقم ٤ ) ، فقد  
بدأت ساذجة ، تم بسذاجتها عن بساطة  
منشئها ، ثم تطورت بمرور الزمن حتى  
وصلت الى ما وصلت اليه المدن الراقية في



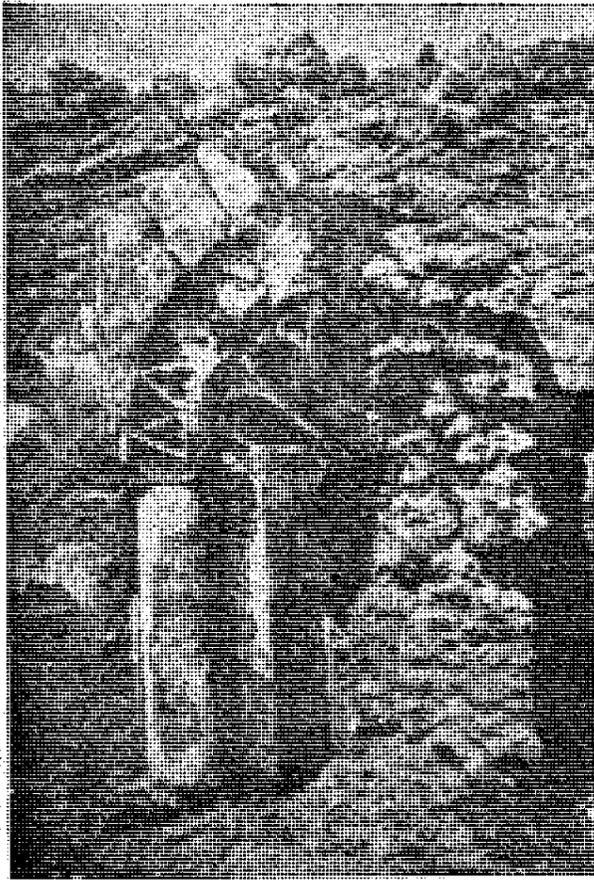
٥ - جامع عمرو كما هو الآن وترى فيه تيجان الأعمدة ذات الطرز المختلفة .

فالمسجد الذي أسسه محمد ، صلوات الله عليه ، في المدينة والذي اتخذ نموذجا للمساجد من بعده لم يكن سوى قطعة أرض مربعة الشكل أحيطت بجدران أسسها من الحجر وقوامها من اللبن وتجاه بيت المقدس — قبله المسلمين الأولى — أقيمت سقيفة من الجريد المغطى بالطين فوق جذوع النخل ، ولما تحولت القبلة الى الكعبة في مكة أقيمت سقيفة جديدة مثل السابقة وتركت الأولى حيث هي ليستظل بها فقراء المسلمين وبذلك أصبح للمسجد سقيفتان بينهما مكان مكشوف أحدهما الى الشمال والأخرى الى الجنوب ، ولما زاد عدد

فيها الأشجار والأزهار من سائر الأنواع على حد وصف الرحالة الايراني ناصر خسرو الذي زارها في القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) . وكان فيها أيضا الأحياء الفقيرة بساكنها المتواضعة وشوارعها القذرة ، وكان فيها الأسواق العامرة بالمتاجر ، ومصانع السكر ، والصابون ، ومسابك الزجاج والنحاس ، وأفران الخزف والفخار ، ولا تزال بعض أطلالها تؤيد الى حد كبير ما ورد في بطون الكتب عنها .

والأثر الوحيد القائم بين خرائب هذه المدينة والذي لا يزال الى اليوم يحقق الغرض الذي من أجله أنشئ هو جامع عمرو (صورة رقم ٥) الذي بدأ سادجا كما بدأت الفسطاط ، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر السنين ، وكلما ازداد عدد المسلمين ، وكلما ارتقت حياتهم ، انعكس ذلك فيه فاتسعت رقعته ، وارتفع سقفه ، وكثرت أبوابه ، وأخذ الشكل الذي هو عليه الآن : صحن مكشوف ، يحيط به من جوانبه الأربع أروقة أربعة مسقوفة بعضها ضاعت معالمه ولكن بقايا الأعمدة تدل عليه ، وبعضها لا يزال محتفظا بشكله .

ومهما اختلفت آراء علماء الآثار في مصدر هذا التصميم فالذي لا شك فيه أنه نابع من أعماق نفوس العرب ، متكيف بظروفهم ، وليس منقولا عن سبقتهم من الأمم . فاذا نحن تذكرنا حالة العرب قبل الاسلام وتذكرنا بساطة الاسلام وبعده عن الطقوس المعقدة سهل علينا ادراك هذه الحقيقة ،



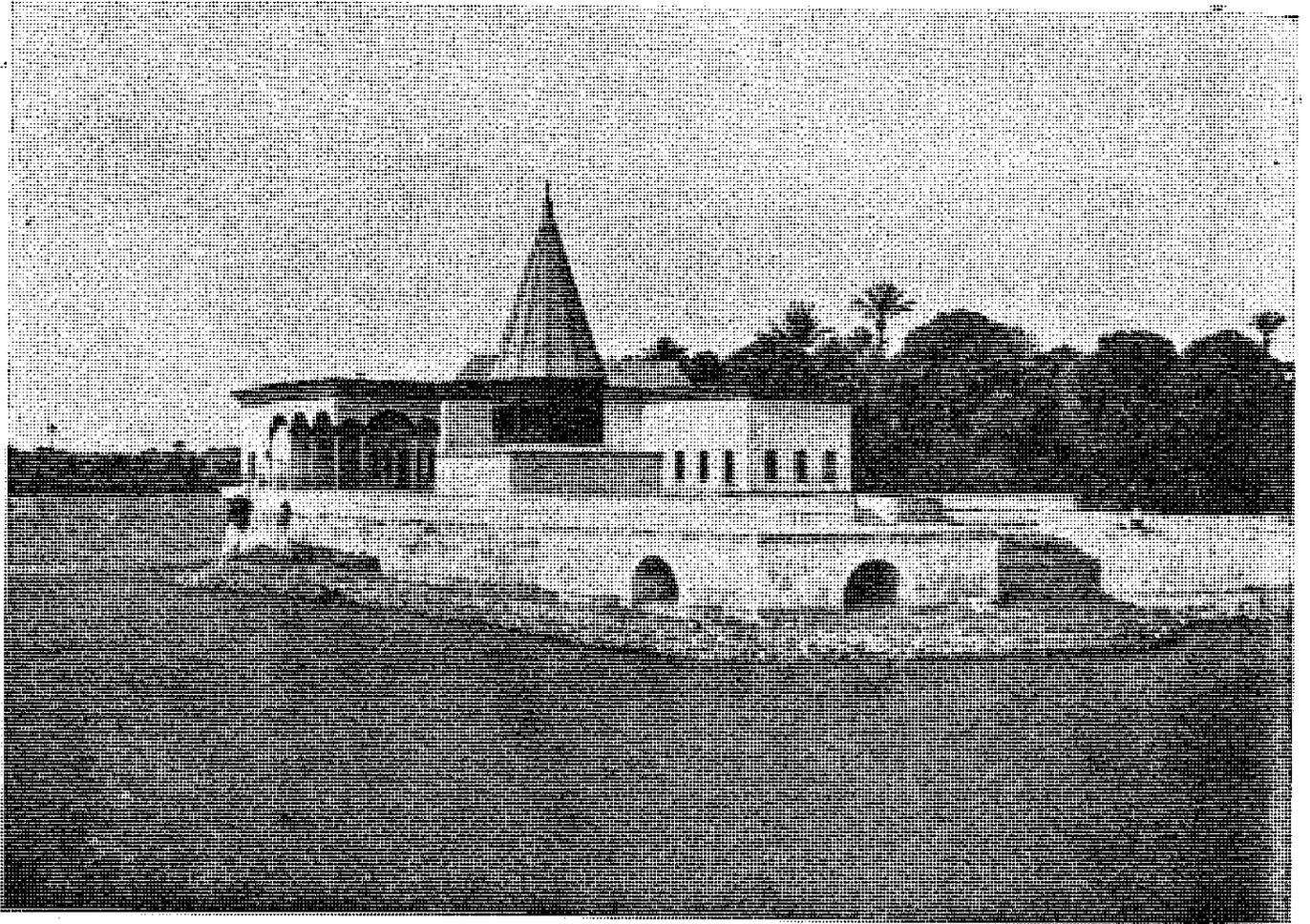
٦- من زخارف نوافذ جامع عمرو كما كان في العصر العباسي الأول

عمد المعابد والكنائس المهذمة ، شأنهم في ذلك شأن الرومان من قبلهم الذين كانوا يفضلون نقل العمدة اليونانية القديمة الى معابدهم . ولم يثبت قط أن العرب قد هدموا قصدا معبدا أو كنيسة لكي يحصلوا على أعمدته كما يدعى بعض الناس . ويتبغى أن نبادر فنذكر أن الصور التي نراها اليوم في مسجد عمرو إنما هي من عمل السلطان مراد بك أحد سلاطين المماليك في العصر التركي ولا علاقة بينها وبين المسجد الأصلي الا في البقعة المشيد عليها .

\*\*\*

المسلمين ، ومست الحاجة الى قدر أكبر من الظل ، وحصل ما بين هاتين السقيفتين بسقيفتين جانبيتين احدهما لليمين والأخرى للشمال ، وهكذا ولد تصميم بناء المساجد .

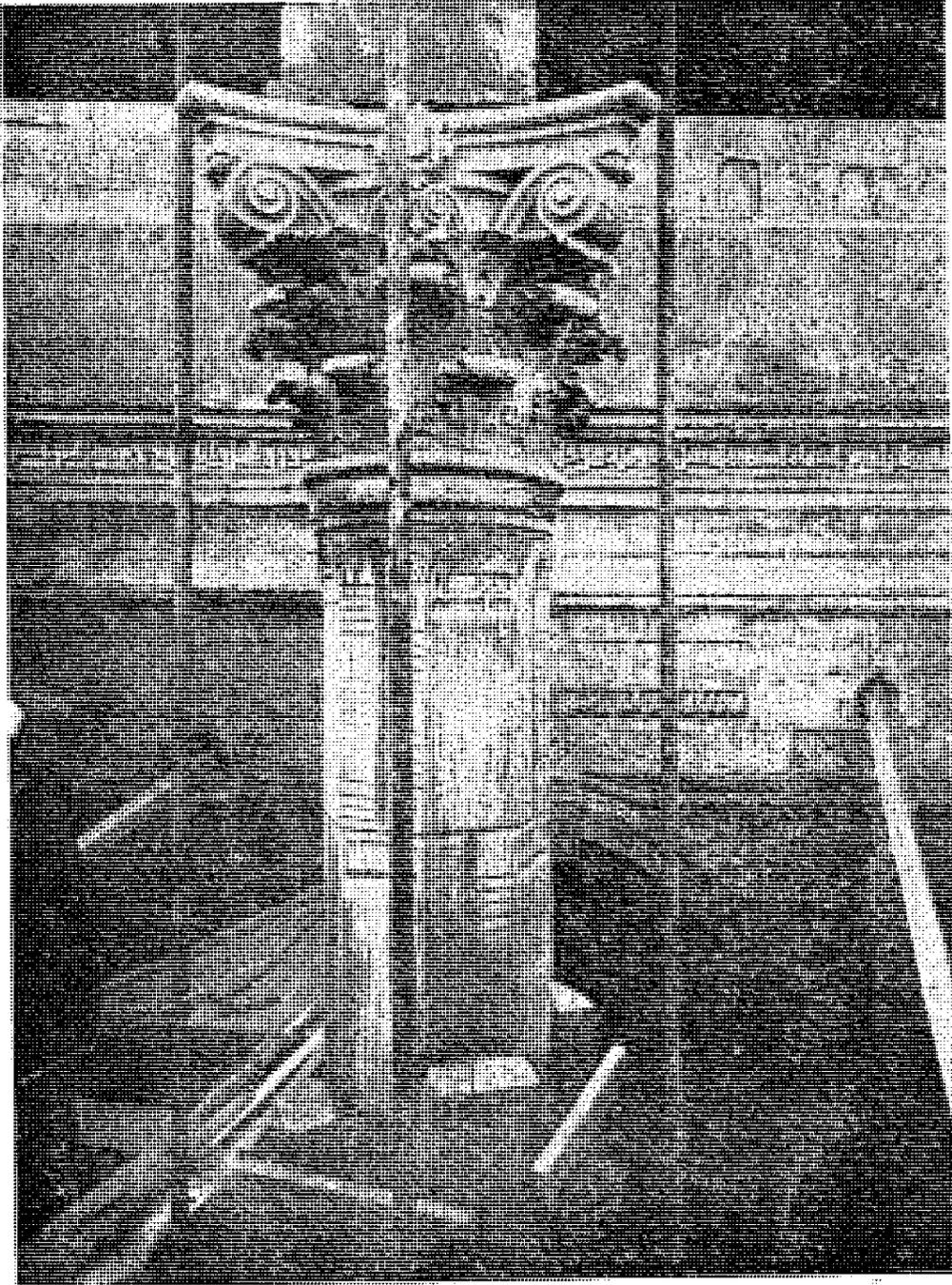
وطبيعى أن يتطور المسجد بتطور العرب الذين تأثروا بما رأوا في البلاد التي فتحوها من الأبنية القديمة فاستبدلت جذوع النخل التي كانت تحمل السقف بعمد الرخام ( صورة رقم ٥ ) . واذا نحن تأملنا في رؤوس الأعمدة التي تحمل سقف جامع عمرو، وجدنا أن تيجانها من طرز مختلفة ، ذلك أن العرب استخدموا ما وصلت اليه أيديهم من



٧ - مقياس النيل من الخارج بعد ان جددته مصلحة الآثار .

المدبغة النموذجية ومسجد ابي السعود .  
والأثر الباقي من هذا العصر العباسي  
والذي يعد أقدم أثر مصري اسلامي محتفظ  
بشكله وتفصيله ، هو مقياس النيل بجزيرة  
الروضة الذي أمر بإنشائه الخليفة العباسي

وانتهى عصر الراشدين ثم عصر الأمويين  
وجاء عصر العباسيين الذين انشأوا في شمال  
القسطنطينية وعلى مقربة منها عاصمة جديدة هي  
العسكر التي ضاعت معالمها ولكننا نستطيع  
أن نتصور موضعها في المنطقة القريبة من



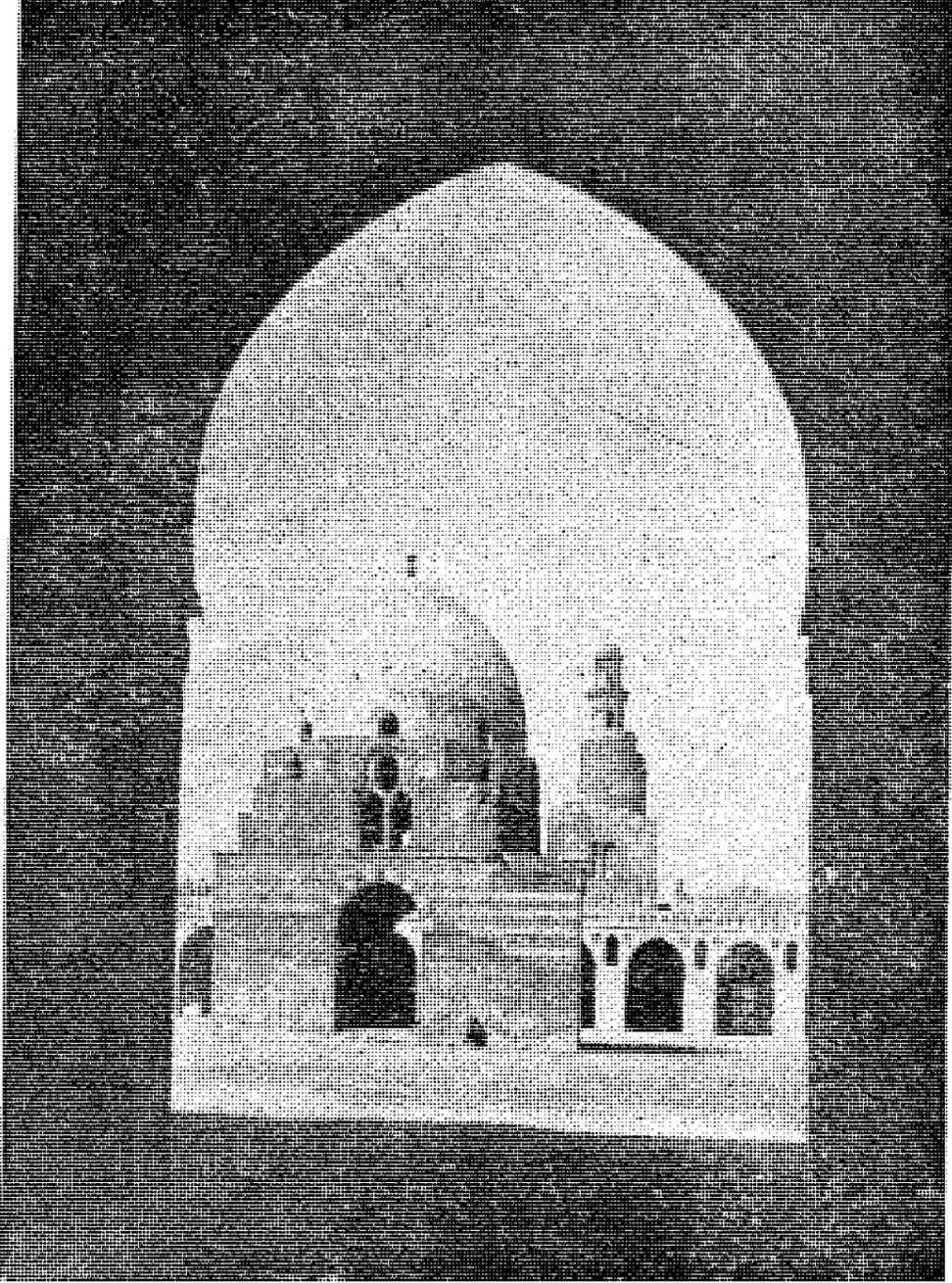
٨ - صورة مقياس النيل من الداخل ويرى بها أقدم طراز للكتابة الكوفية في مصر وأقدم  
مثال للعقود المدبغة .

طراز للكتابة الكوفية في مصر وفيه أقدم مثال  
للعقود المدبية بها . ( صورة رقم ٨ ) .

### ( العصر الطولوني )

وبدأ في مصر عصر جديد عندما ولى  
أمرها أحمد بن طولون ، عصر أصبحت فيه  
أمة جديدة يدين معظم أهلها بالاسلام ،

المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ ( صورة رقم ٧ ) .  
وانشاء هذا الأثر يفصح لنا عن مدى عناية  
أجدادنا في العصور الوسطى بأمر النيل كما  
كان يعنى به أجدادهم في العصور القديمة .  
ولهذا الأثر الذى جددته مصلحة الآثار أهمية  
كبيرة للذين يعنون بالناحية الأثرية ففيه أقدم



٩ - مسجد ابن طولون من الداخل وترى فيه المنذنة والنافورة .

وأما الدعامات التي تحمل العقود فهي الأولى من نوعها في مصر الإسلامية ، وهي كذلك من خصائص العمارة العراقية التي انتقلت الى مصر في هذا العصر الذي سيطر فيه الفن العباسي الذي شاع في العالم الإسلامي أجمع ( الصورة رقم ٩ ) .

وأما الزخرفة فهي تجلو علينا صورة صادقة للفن الإسلامي كما ازدهر في العراق ونحن اذا تأملنا في هذه الزخرفة قليلا وجدنا اننا لا نستطيع أن ننسب الى الفنان المسلم فضل ابتكار وحداتها لأن هذه الوحدات كانت موجودة بالفعل في الفنون السابقة على الإسلام ، الا أننا لا يمكننا أيضا أن نجحد مقدرة الفنان المسلم في طريقة توزيعها ، والتأليف بينها ، وتنسيقها تنسيقا جعلها تبدو كأنما اخترعت لأول مرة وما هي كذلك ، ولكنه صهرها في بوتقته ، وسلط عليها أشعة عبقريته ، فخرجت من بين يديه فنا جديدا ، لا يخفى علينا أصله ولكننا لا نستطيع أن نكر عليه شخصيته القوية .

وأما اللوحة التأسيسية المثبتة على احدى الدعامات ، فتدلنا على ما للكتابات التاريخية المنقوشة على الآثار من أهمية عظيمة ، فقد استطعنا بفضلها أن نقف على التاريخ الحقيقي لانشاء هذا المسجد ( ٢٦٣ هـ ) بعد أن أعطانا المؤرخون له تواريخ مختلفة جاءت من غير شك نتيجة لأخطاء الناسخين ، أو عدم الدقة في نقل الأخبار .

والمنزل الطولوني الذي كشف عنه المرحوم حسن الهوارى سنة ١٩٣٤ م بالقرب

ويتكلم معظم أهلها العربية ( بدلا من القبطية ) واتجهت فيه الى استكمال شخصيتها الجديدة بالاستقلال ذاتيا عن الخلافة العباسية التي كانت عاصمتها في « سر من رأى » ، وقد حقق لها حاكمها سالف الذكر هذه الرغبة فأنشأ عاصمة جديدة الى الشمال من مدينة العسكر سماها القطائع وشيّد فيها مسجده الرائع الذي لا يزال قائما يحدد لنا مكان هذه العاصمة الجديدة على وجه التقريب ، ثم أقام الى جواره قصره الذي أتمه من بعده ولده خمارويه وكان آية في العظمة على حد وصف المؤرخين له ، فقد ضاعت معالمه من الوجود وبقيت في بطون الكتب .

أما المسجد فيسير في تصميمه على النهج الذي شاهدناه في مسجد عمرو ولكنه خطأ نحو التطور خطوات تتجلى في خمسة عناصر هي النافورة والمئذنة والدعامات والزخرفة واللوحة التأسيسية .

أما النافورة التي تتوسط الصحن فقد أعدت في الأصل ليشرب منها الناس ولكنها في عصر المماليك ، عندما جدد هذا المسجد ، انقلبت الى مiazza كما تدل على ذلك الآية القرآنية المنقوشة بداخل القبة التي تغطيها .

وأما المئذنة فهي الوحيدة في مصر التي لها هذا الشكل العجيب ، وهي متأثرة بمئذنة المسجد الجامع في مدينة « سر من رأى » بالعراق ، وكلتا المئذنتين قد استمدت تصميمهما في الأصل من معابد النار الفارسية المعروفة باسم الزيجورات .



١٠- أحد جدران المنزل الطولوني ويرى به زخارف من طراز « سر من رأى » الثالث .

خطت البلاد في سبيل الحضارة المادية خطوات واسعة ، وسادت روح الترف في كل شيء ، وكتب التاريخ ، والآثار الثابتة ، والتحف المنقولة تعكس هذه الحياة المترفة ، وتبرز شخصية الفن المصري الاسلامى الذى تجلت فيه براعة المصريين فى صور كثيرة تفرغ من الاعجاب على كل من يشاهدها .

وإذا كانت حدود العواصم الاسلامية السابقة - الفسطاط والعسكر والقطائع - قد ضاعت ، فحدود القاهرة الفاطمية لا تزال قائمة نستطيع أن نتعرف عليها فى يسر؛ فسورها الشمالى لا يزال قائما نشاهد فيه

من منطقة أبى السعود من الأمثلة النادرة للعمارة المدنية فى مصر ( الصورة رقم ١٠ ) ، وهو فى تخطيطه وزخرفته يسير على نهج دور مدينة « سر من رأى » بالعراق . وعلى أساس هذا التخطيط ، وتلك الزخارف ينسب هذا المنزل الى العصر الطولونى .

### ( العصر الفاطمى )

وإذا لم يكن استقلال مصر تاما فى العصر الطولونى ، فانه قد أصبح كذلك فى العصر الفاطمى اذ صارت مصر مركزا للخلافة المناهضة للخلافة العباسية فى العراق ، والخلافة الأموية فى الأندلس ، وكان من أثر ذلك أن

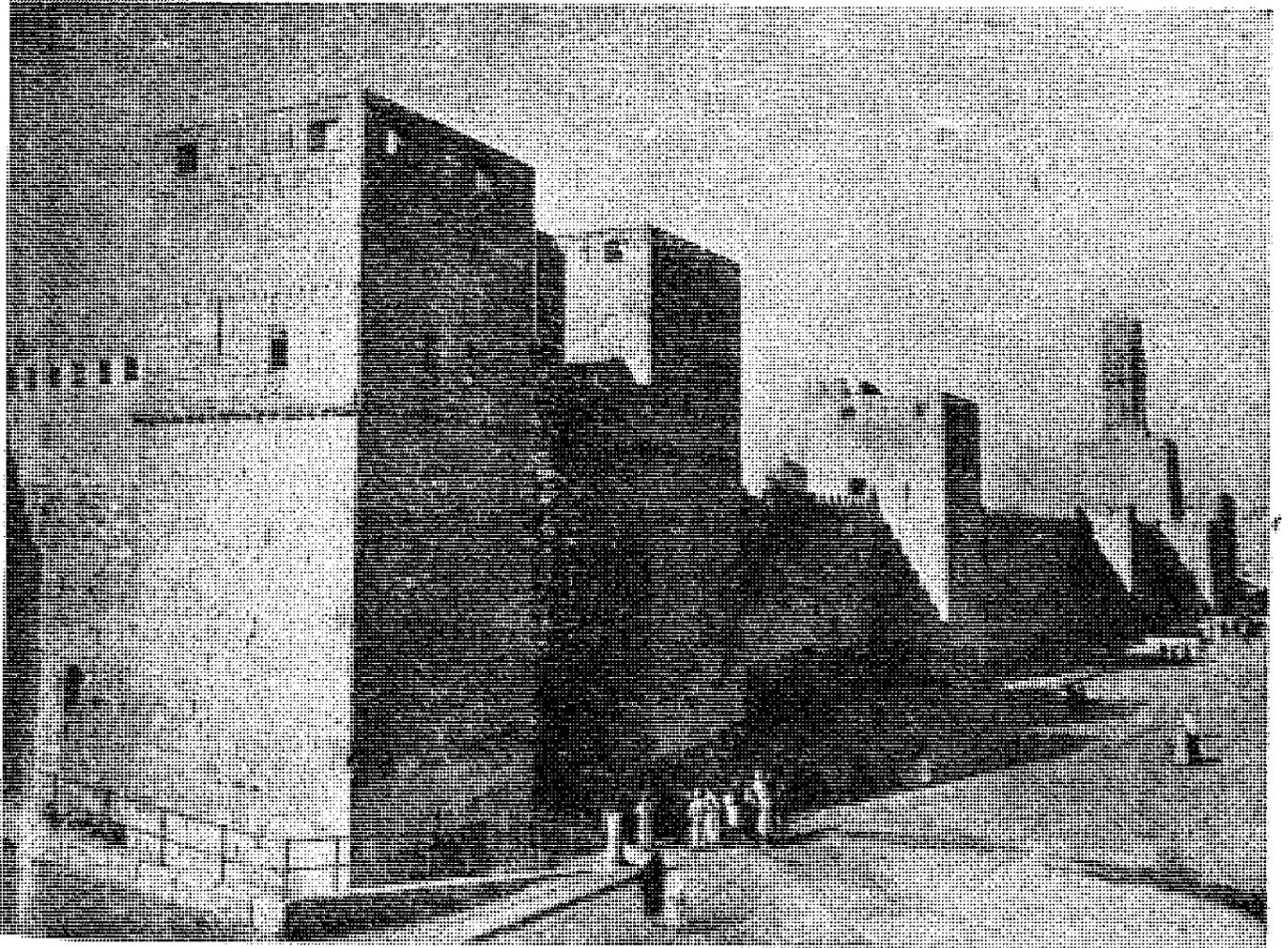
لا يستأهل الذكر ، ولكن « درب سعادة »  
المجاور لمحافظة القاهرة يذكرنا بحدود  
القاهرة في هذه الجهة .

وتعد أبواب القاهرة وأسوارها من أروع  
العناصر الحربية في العصور الوسطى  
في العالم أجمع ، وقد كانت ، ولا تزال ،  
موضع الإعجاب والتقدير من كل من رآها  
أو يراها ( الصورة رقم ١٢ ) .

وفي داخل أسوار هذه العاصمة الجديدة  
شيد الفاطميون قصرين عظيمين ضاعت معالمهما  
وبقيت مواقعهما : القصر الكبير ويشغل اليوم  
المشهد الحسيني وخان الخليلي جزءا من

باب النصر ( الصورة رقم ١١ ) وباب الفتوح ،  
وإذا دقت النظر في الكتابة المنقوشة على  
السور القائم بين هذين البابين وجدت أن  
اسمها هو باب العز ، وباب الأقبال .  
وسورها الشرقي لا يزال يجرى في موازاة  
تلال الدراسة ، وقد كشفت معاول عمال  
البلدية وهم يعملون لتوسيع رقعة القاهرة  
الحديثة عن باب التوفيق منذ بضعة  
شهور .

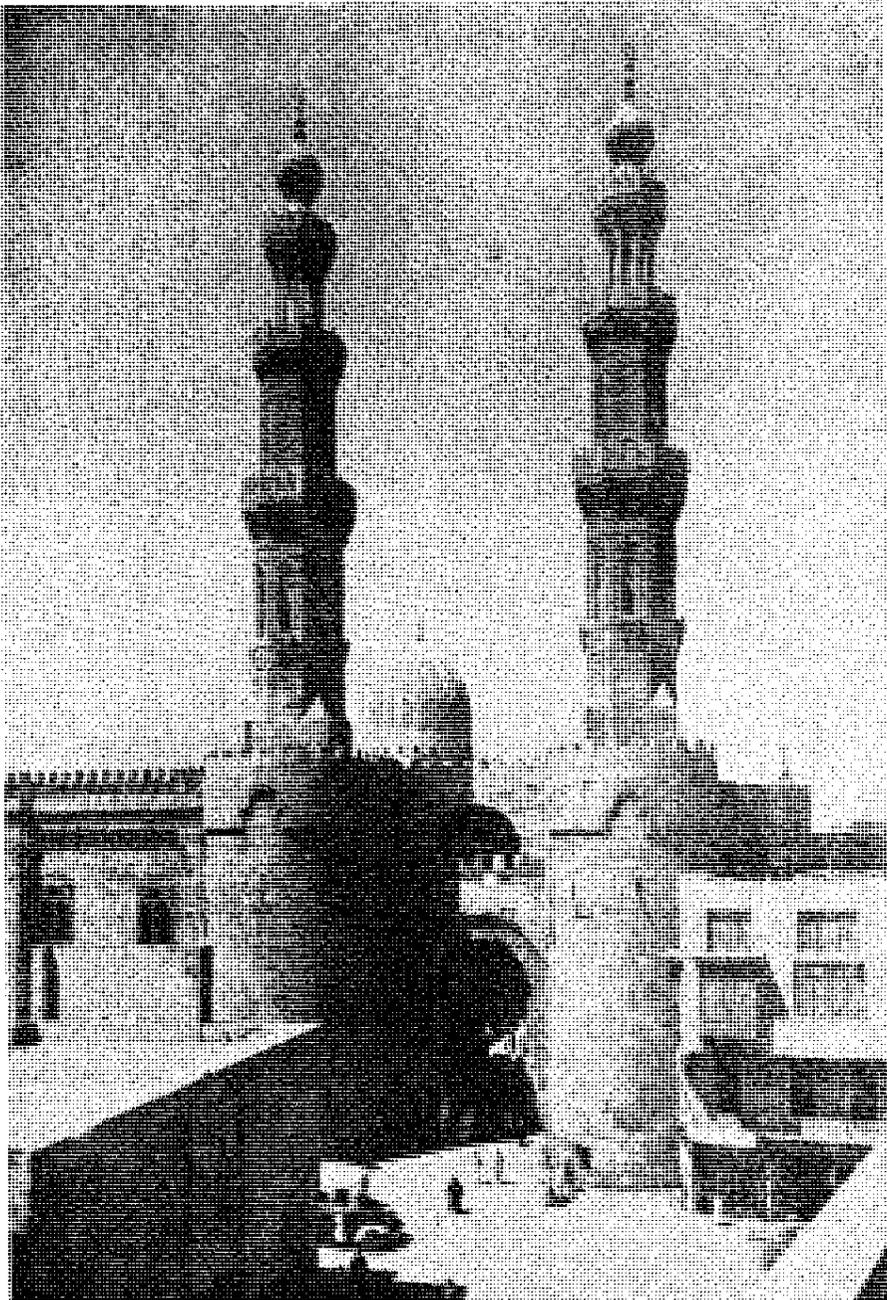
وسورها الجنوبي لم يبق منه الا باب  
زويلة أو بوابة المتولى كما يسميها العامة .  
وسورها الغربي كان يسير بموازاة  
شارع الخليج ، ولم يبق منه الا القليل الذي



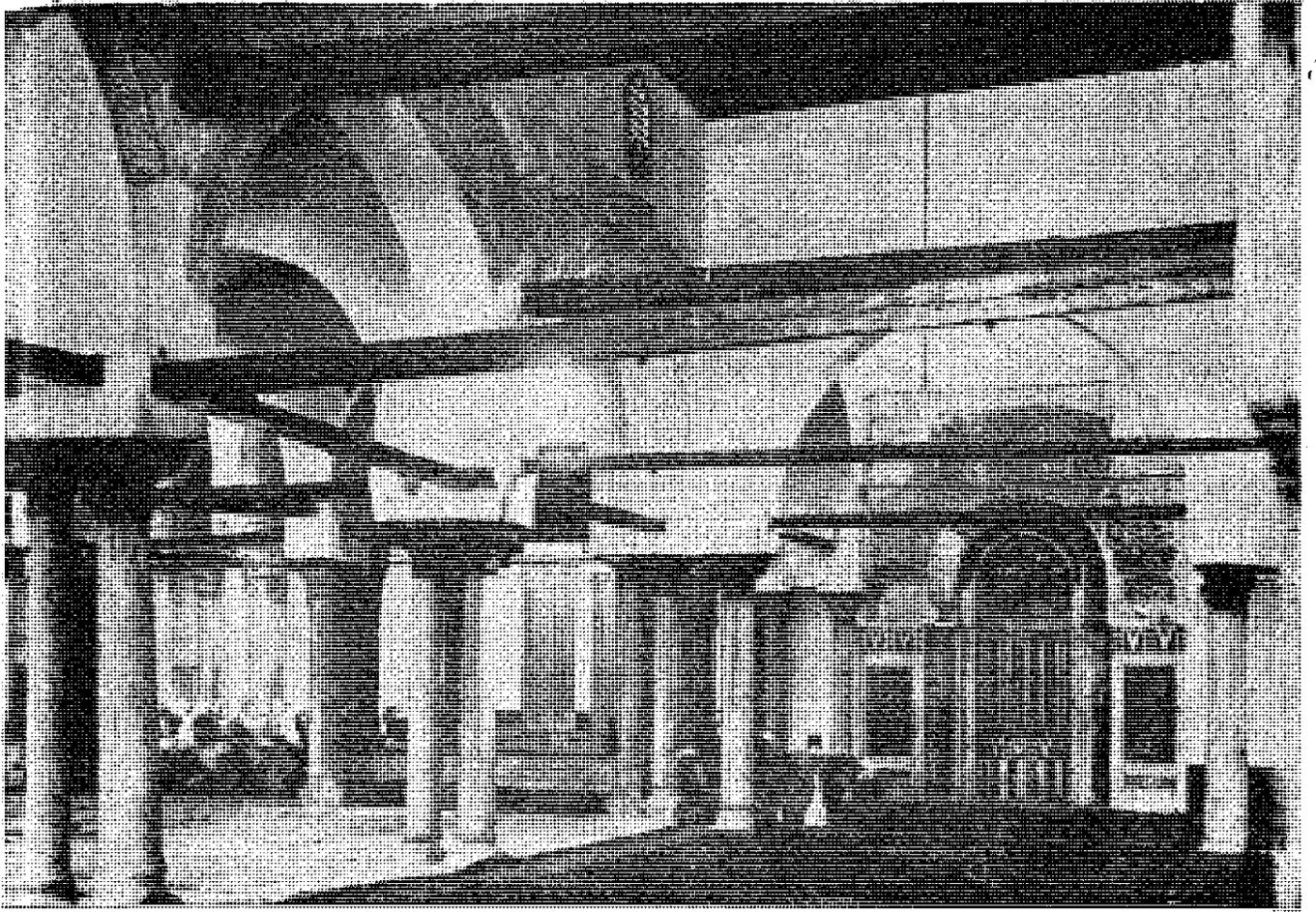
١١- باب النصر احد الابواب الشمالية للقاهرة

موقعه ، والقصر الصغير وتشغل اليوم الصاغة  
ومستشفى قلاوون جزءا من موقعه .  
وفي القاهرة المعزية وفي خارجها شيّد  
الفاطيون المساجد والمشاهد ولا يزال معظمها  
قائما حتى اليوم .  
ويفرض علينا ضيق المجال أن نختار من

بين الآثار الفاطمية الكثيرة ما كان محتفظا  
بمميزات هذا العصر في فن البناء ، فالأهر  
( صورة رقم ١٣ ) على شهرته العظيمة  
لا يستطيع أن يحقق لنا هذا الهدف ، لما ضاع  
منه ، ودخل عليه من التعديل والتحويل ،  
بينما الأنور أو جامع الحاكم بأمر الله ، على



١٢- باب زويلة أحد الأبواب الجنوبية للقاهرة

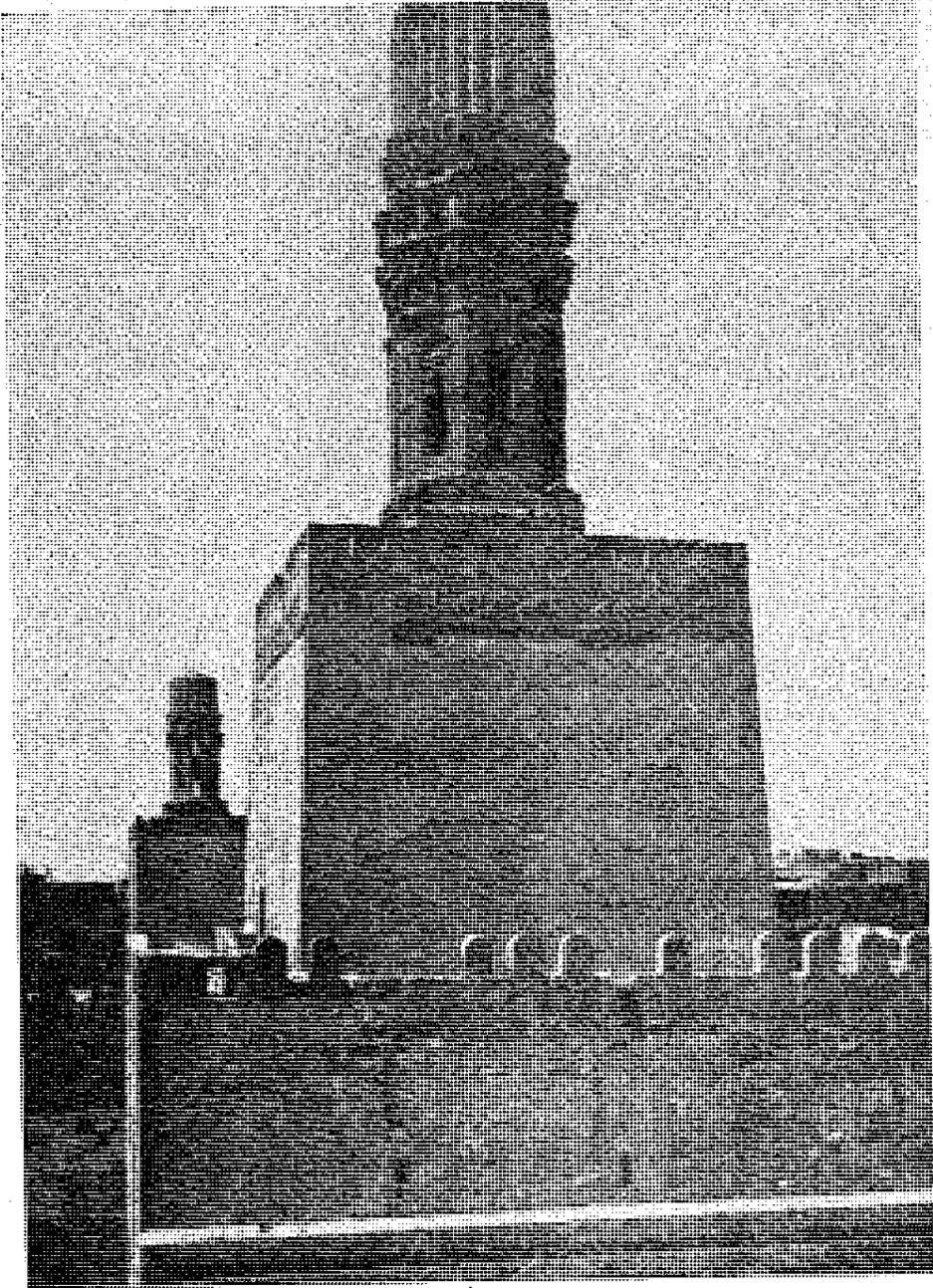


١٣ - الجامع الأزهر من الداخل .

أما الواجهة فمنقطعة النظير في مساجد مصر السابقة ، يقوم في زاويتها برجان عظيمان يكسبان المسجد مظهر القلاع ، يخرج من كل منهما منئذنة عالية تعد أقدم المآذن المؤرخة في مصر ( صورة رقم ١٤ ) ، تزدان كل منهما بزخارف رائعة ، وبكتابة كوفية تتضمن اسم الحاكم بأمر الله ، وقد تصدع الجزء العلوى من هاتين المنئذنتين اثر زلزال شديد أصاب البلاد في عصر المماليك ، وأعيد تشييد هذين الجزئين على الصورة التى نراها الآن . والمدخل الرئيسى واقع فى منتصف الواجهة ، وبارز عن سمتها بروزا قويا ، وقد

سوء حالته ، يبرز لنا هذه الخصائص ، والجامع الأحمر على صغر حجمه يجلو علينا جمال الفن الزخرفى فى صورة واضحة قوية ، ومشهد الجيوشى يكفى لبيان الغرض من مثل هذه الأبنية التى ظهرت لأول مرة فى مصر فى هذا العصر ، والحمام الفاطمى هو أقدم بناء موجود من نوعه فى هذه البلاد .

فجامع الحاكم يحتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهى الواجهة الفخمة ، والمدخل البارز ، ومجاز القبلة ، والقباب الثلاث .

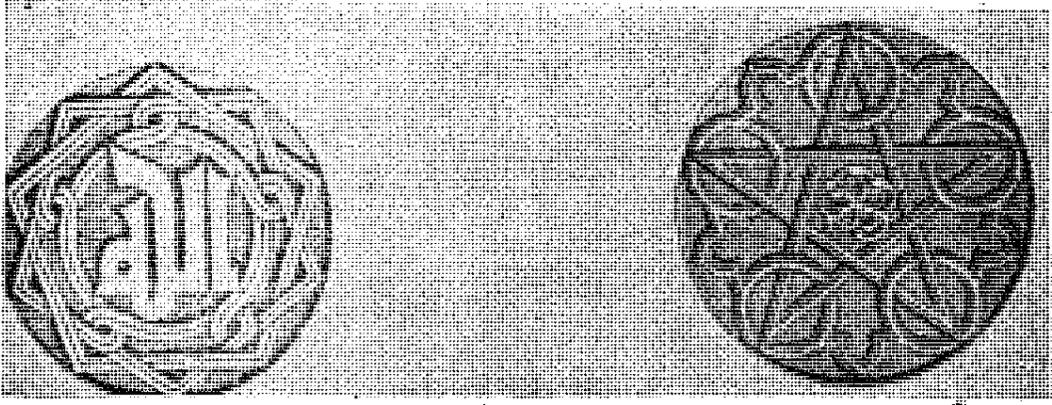


١٤- صورة جامع الحاكم من الخارج وتبدو فيها المنذنتان .

ظفروا بالخلافة أخيرا وأصبحت لهم قوة عظيمة يناهضون بها الخلافة العباسية في الشرق والخلافة الأموية في الغرب .

ومجساز القبلة ممتد من الصحن الى المحراب مباشرة ، ويمتاز بعلو سقفه عن سقف المسجد ، وبوجود سلسلة من العقود على كل

كان يتوجه لوح من الرخام ضاع أثره وبقي لنا رسمه الذي يتضمن اسم الحاكم بأمر الله مع الآية الكريمة « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » . واختيار هذه الآية فيه إشارة الى ما عاناه الفاطميون من الناحية السياسية حتى



١٥- من زخارف جامع الحاكم بأمر الله

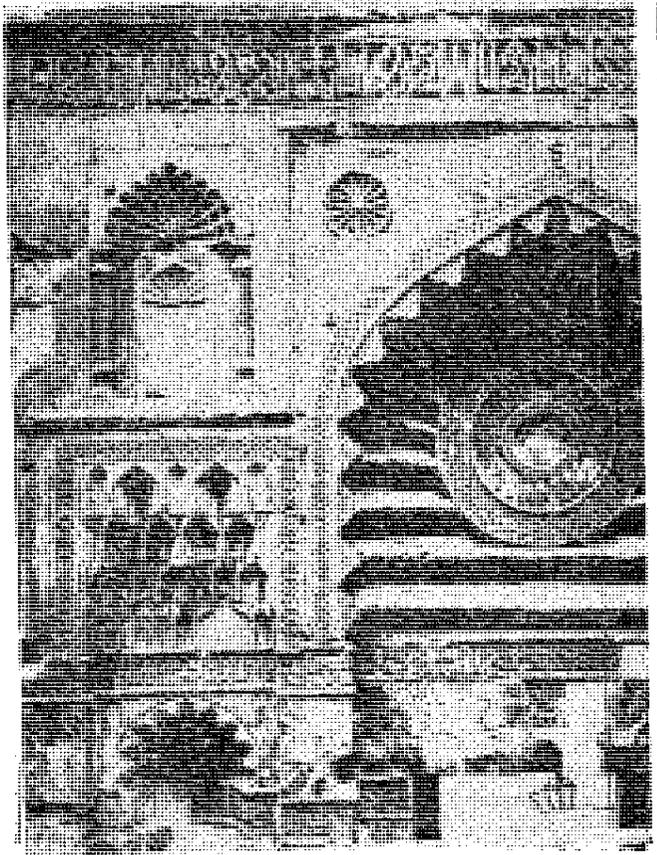
تنطق بأن الفنان المصرى قد تخلص من تقاليد الفن الطولونى الذى ظل مستعملا فى الجامع الأزهر ، وقد بدأ يستعين الآن بالعناصر الزخرفية التى كان يعرفها أجداده قبل الاسلام والتى انتقلت اليه عبر العصور . كما تدل أيضا زخارف بعض نوافذه على بدء ظهور الروح الأندلسية فى الزخرفة المصرية الاسلامية .

والجامع الأقرم له واجهة تعتبر قطعة من الفن الجميل ( صورة رقم ١٦ ) ، تنطق بالنضوج الفنى الذى وصل اليه أجدادنا فى القرن السادس الهجرى ( ١٢ م ) ، وتدلل على أنهم يقفون بحق على قدم المساواة مع رجال الفن ، السابقين منهم واللاحقين . ولن تفصل القول فى العناصر الزخرفية المختلفة الموجودة فى هذه الواجهة انما يكفى أن نقول اننا نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالمقرنص Stalactite ، والتى أصبحت من أخص مميزات الفن الاسلامى ، كما نشاهد فيها الأحجار التى

من جانبيه الأيمن والأيسر تسير فى اتجاه عمودى على جدار القبلة بينما تسير باقى عقود المسجد فى اتجاه مواز لجدار القبلة . والغرض من هذا المجاز هو ابراز أهمية المحراب فى المسجد باعتباره أهم بقعة فيه .

والقبة لم يتدعها المصريون فى العصور الوسطى ولكن فضلهم فى تطورها عظيم ، فقد عرفها أجدادهم الفراعنة من قبل كما عرفها العراقيون والرومان ، ثم تسلمها المسلمون ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وأخذوا يتطورون بها حتى لقد أصبحت من المميزات البارزة فى الفن الاسلامى ، ولم تقف القبة المصرية الاسلامية عند الحد الذى نراه فى القباب الثلاث الموجودة فى هذا المسجد والتى نشاهدها فى أقصى اليمين وأقصى اليسار من جدار القبلة كما نراها أيضا أمام المحراب — بل نراها قد تطورت تطورا بلغ أقصاه فى عصر المماليك . والزخارف التى نشاهدها فى هذا المسجد : فى مئذنته ( صورة رقم ١٥ ) ، وفى مدخله ، وفى واجهته كلها

منها الجيوشى (صورة رقم ١٧) يفرض علينا أن نشير أولا الى تلك البدعة التى استحدثت فى الاسلام ، ولقيت رواجاً عظيماً عند المسلمين فى شتى البقاع ، وهى تشييد القباب وانشاء المساجد فوق قبور البارزين والعظماء من رجال الدنيا والدين ، وأغلب الظن أن الدافع الى هذه البدعة انما هو الرغبة فى تمييز هؤلاء الناس بعد وفاتهم كما كانوا مميزين فى حياتهم ، وقد ظهرت هذه البدعة أول ما ظهرت عندما اتجهت النية الى تمييز بعض البقاع التى تحتل من نفوس المسلمين مكانة سامية لاتصالها بتاريخ النبى الكريم مثل صخرة بيت المقدس التى يقال ان النبى عرج منها الى السماء ليلة أسرى به ، فشيّدوا عليها قبة عظيمة تعد حتى اليوم من أروع الآثار الاسلامية ان لم تكن أروعها جميعاً ، وقد كان طبعياً أن ينتقلوا من تكريم البقاع التى قدستها الذكريات الى تكريم القبور التى تضم رفات من كانوا أعزاء عليهم ، وهكذا ظهر هذا النوع الجديد من الأبنية التى سناها الفاطميون بالمشاهد أى مكان الشهداء لأنهم كانوا يرون أن أئمتهم وعظماؤهم قد استشهدوا واستحقوا درجة الشهداء فى سبيل نصره مبادئهم ، ومشهد الجيوشى قد شيّد ليُدفن فيه الأفضل بن بدر الجمالى كما تدل على ذلك الكتابة التأسيسية التى تتوج مدخله ، ويستلفت النظر فيه استعمال القبو فى التسقيف لأول مرة فى مصر،



١٦- جزء من واجهة الجامع الأحمر .

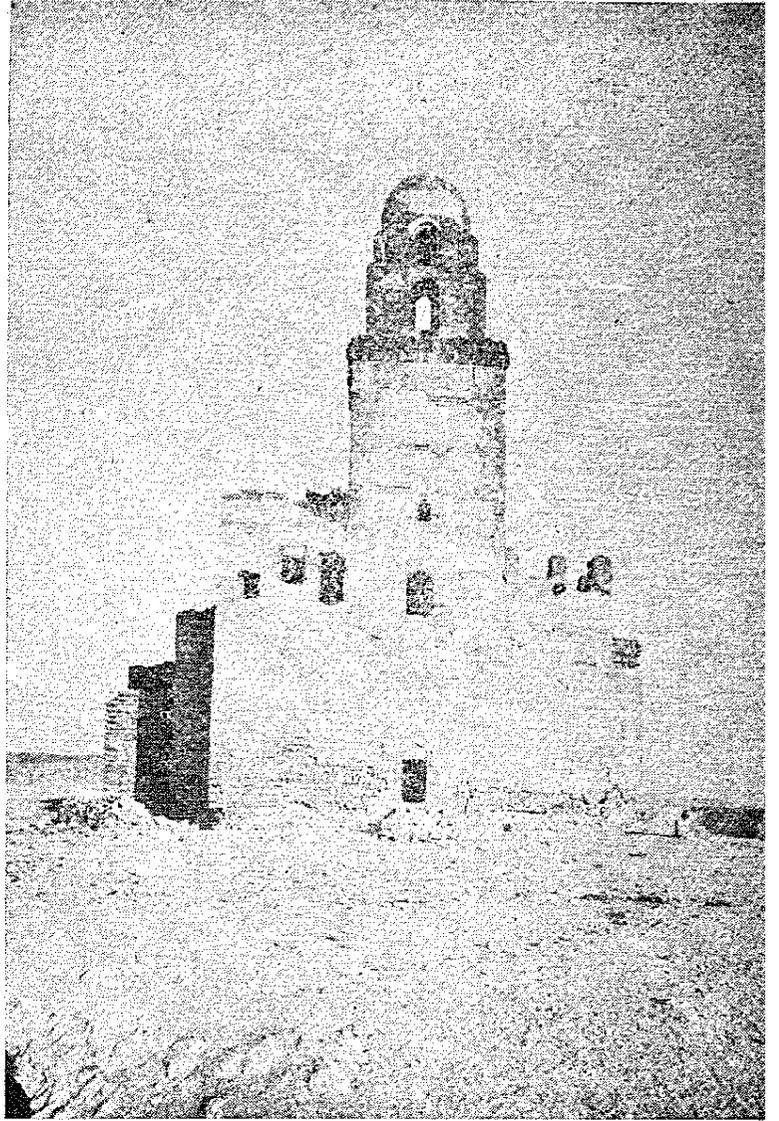
تفنن البناء فى قطعها وتعشيقها وهى ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة فى مصر فى عصر البطالمة فى مقابر كوم أبوبلة ثم اختفت لتظهر من جديد فى هذه الواجهة . كما نشاهد أيضاً كثيراً من العناصر الزخرفية التى كانت مألوفة فى العصر القبطى قد رسمت هنا بطريقة متقنة تدل على نضوج الملكة الفنية عند راسمها . والواقع أننا نلمس فى زخارف هذا المسجد والمسجد السابق ، الروح الفنية المصرية ، وندرك أنها أخذت تبرز من جديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبى الذى فرض على البلاد فى العصر الطولونى . والكلام على المشاهد الفاطمية التى اخترنا

الاسلامى بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م ، وهو يقع بالقرب من المنزل الطولونى الذى أسلفنا الاشارة اليه . وهو يعد أقدم حمام اسلامى فى مصر .

والحمامات عامة ليست من ابتداع العرب بل عرفها الفراعنة واليونان والرومان من قبلهم ، ولقد سار المسلمون فى تخطيط حماماتهم على النهج الرومانى الذى وجدوه بين أيديهم ، وتحدثوا عنها طويلا فى كتب الأدب والتاريخ فذكروا صفاتها ومزاياها وآدابها ، ووصفوا ما ازدانت به جدرانها من صور جميلة ، وأوضحوا ما لهذه الصور من أثر فى نفوس المستحمين ، ولقد لعبت الحمامات دورا هاما فى الحياة الاجتماعية فى العصور الوسطى فى مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامى ، والحمام الفاطمى كان ، فى أغلب الظن ، حماما خاصا ملحقا بأحد القصور لصغر مساحته ، ولكنه على صغره يعطينا فكرة واضحة عن تصميم الحمامات ، وطريقة ايقاد النيران فيها ، وتوزيع المياه فى أجزائها المختلفة ، ولا تزال البئر التى كان يرفع منها الماء موجودة حتى اليوم ، أما الصور التى كانت تزين قبتة وجدرانه فقد نقلت الى المتحف الاسلامى بالقاهرة ( صورة رقم ١٩ ) .

### ( العصر الأيوبى )

ولقد ضعفت مصر فى أواخر العصر الفاطمى ، وطمع فيها من جهة مسيحيو الغرب ( الصليبيون ) الذين أنشأوا لأنفسهم ممالك



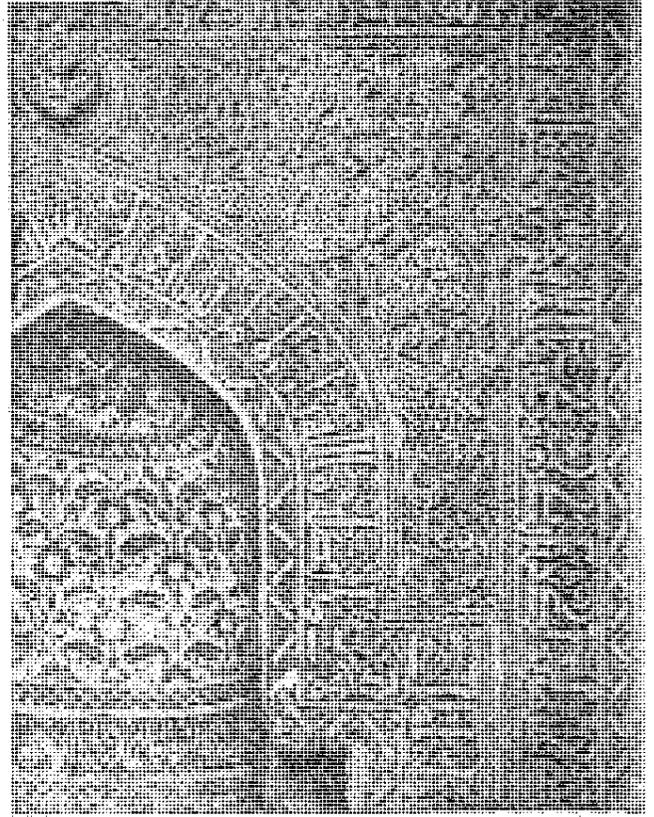
١٧- مشهد الجيوش من الخارج .

وهذا الاستعمال يكشف لنا عن ميزة معمارية تجعل للمهندس المصرى فى العصور الوسطى فضل السبق على زميله الأوروبى المعاصر له ، ومحراب هذا المشهد يعد آية من آيات الفن الاسلامى تجلت فيه عبقرية الفنان فى أروع صورها وأبداع مظاهرها .. ( صورة رقم ١٨ ) .

وآخر ما نذكره من العماائر الفاطمية « الحمام الفاطمى » الذى كشف عنه المتحف



١٩- صورة على الجص ( فرسكو ) كانت بالحمام  
الفاطمي ومعروضة الآن في متحف الفن الاسلامي  
بالقاهرة .

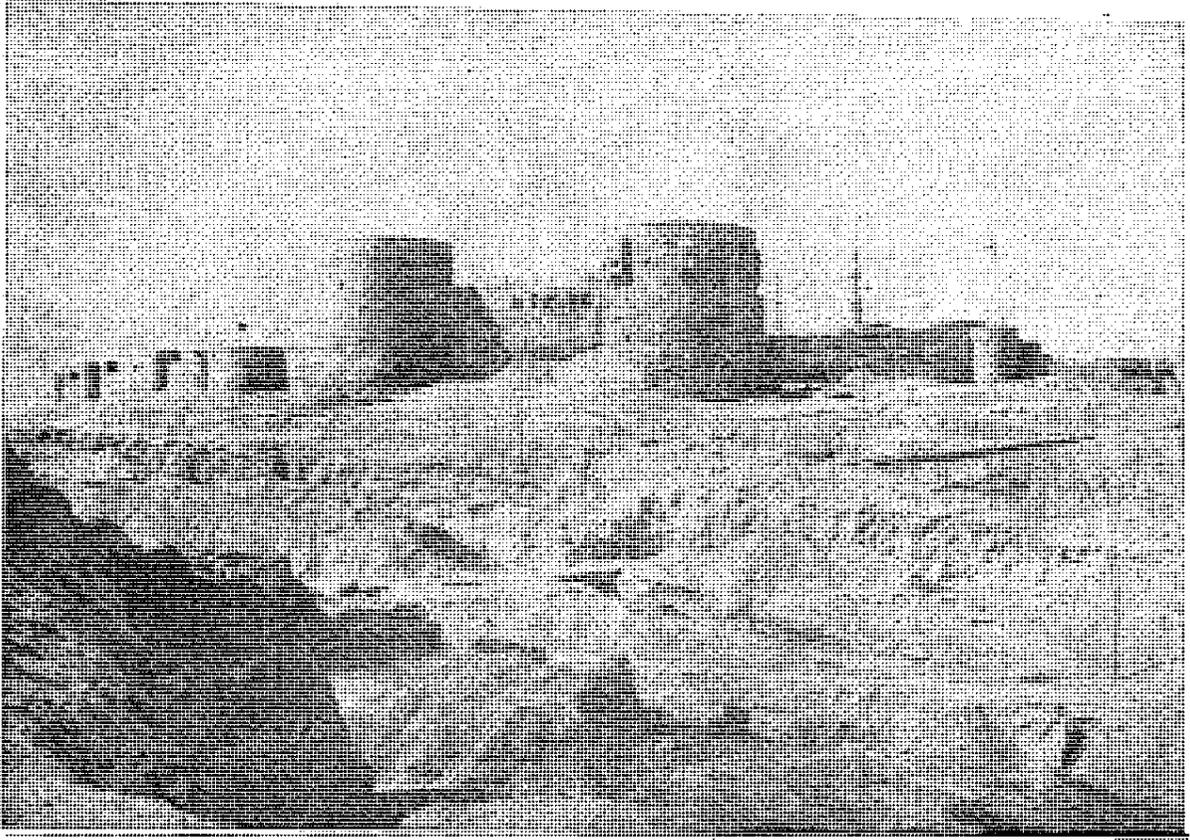


١٨- محراب مشهد الجيوش .

من الصليبيين الطامعين في مصر لتأمين ملكهم  
في الشام والاستفادة بخيراتها العميقة ،  
فأوحى اليه هذا الموقف أن يبحث عن مكان  
حصين يتخذه مقر له ، ويدفع به عن عاصمة  
البلاد شر العدو المهاجم ، ووقع اختياره على  
مكان القلعة المشرفة على القاهرة اليوم .  
( الصورة رقم ٢٠ ) . ولا تزال الكتابة  
الأثرية التي تتوج باب المدرج - وهو أقدم  
أبواب القلعة - تتضمن نصا تاريخيا يشير  
الى بناء صلاح الدين لهذه القلعة  
سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م ) بأشراف أخيه  
الكامل وعلى يدي وزيره قراقوش الذي

صغيرة في بلاد الشام ، ومن جهة أخرى  
مسلمو الشرق ( الأتراك السلاجقة ) ، وكان  
المسك بأعنة الوزارة في مصر صلاح الدين  
يوسف بن أيوب الذي انتهر فرصة موت  
ال خليفة الفاطمي العاضد ليعلن سقوط الخلافة  
الفاطمية وعودة الخلافة العباسية ، وسرعان  
ما كوّن هو الدولة الأيوبية التي رصدت  
نفسها للقضاء على الشيعة في مصر ، وعلى  
الصليبيين في الشام .

ولقد وجد صلاح الدين نفسه مهددا  
بثورات داخلية من المنشيعين للفاطميين  
الراغبين في إعادة ملكهم ، وبحروب خارجية

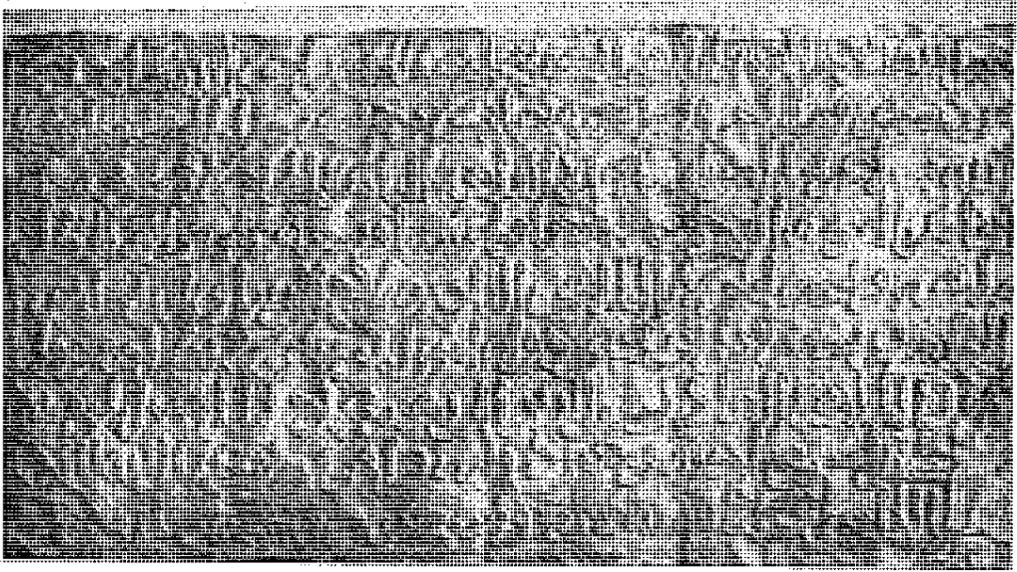


٢٠- قلعة صلاح الدين من الخارج .

تاريخ مصر منذ عصر الأيوبيين حتى عصر محمد علي ، فالعصر الأيوبي يمثل لنا أوضح ما يمثل في الأبراج التي نشاهدها في الجانبين الشرقي والجنوبي ، وعصر المماليك يمثل لنا أجمل ما يمثل في مسجد الناصر محمد ذي المئذنتين الرائعتين اللتين تزدان قمة كل منهما بألواح القاشاني الأخضر الجميل ، والعصر التركي يمثل لنا بطرازه الجديد في بناء المساجد في جامع سليمان باشا والي مصر ، وهو أول مسجد يذكرنا بمساجد القسطنطينية التي تأثرت في تصميمها بكنيسة أيا صوفيا حيث نشاهد في وسط رواق المحراب قبة عظيمة تحيط بها أربعة أنصاف

لا يزال يردد العامة اسمه حتى اليوم للدلالة على جمود الفكر والعسف في الحكم . ( الصورة رقم ٢١ ) .

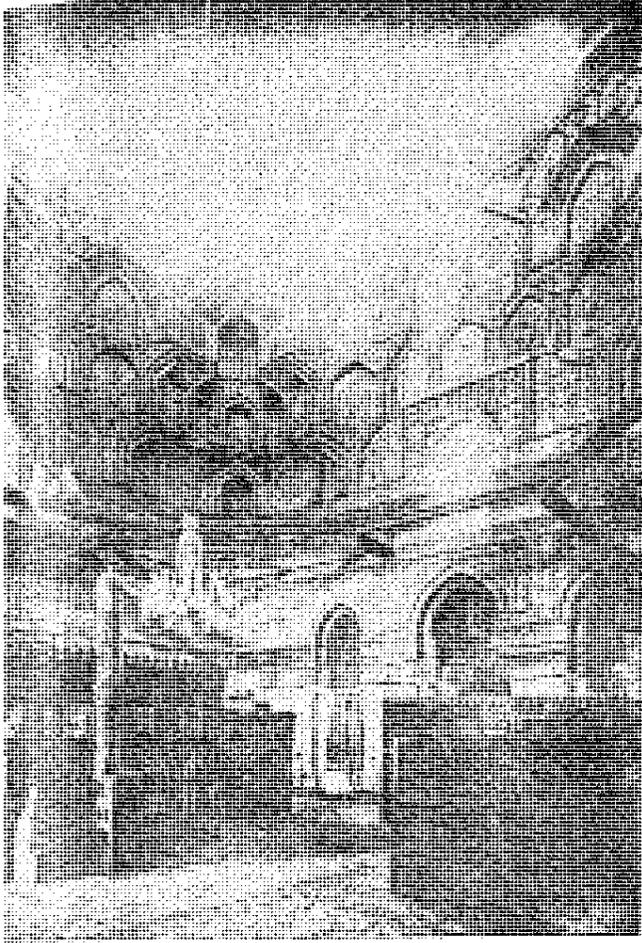
وامتد العمار بين الفسطاط والعسكر والقطائع حتى أصبحت مدينة واحدة كانت تسمى مصر أحيانا وأحيانا الفسطاط . وأمر صلاح الدين بإحاطتها بأسوار تتصل بأسوار القاهرة الفاطمية . وققدت القاهرة أهميتها بعد أن انتقل منها الحاكم والحكم الى القلعة التي ارتفع نجمها منذ ذلك العصر حتى أيام الخديو اسماعيل الذي بنى قصر عابدين . وتحدثنا القلعة بأسوارها وأبراجها ، وبما في ساحتها من أبنية مختلفة ، أصدق حديث عن



٢١- الكتابة الأثرية على اقدم ابواب قلعة صلاح الدين



٢٢-قناطر المياه التي كانت تحمل الماء من النيل الى القلعة .



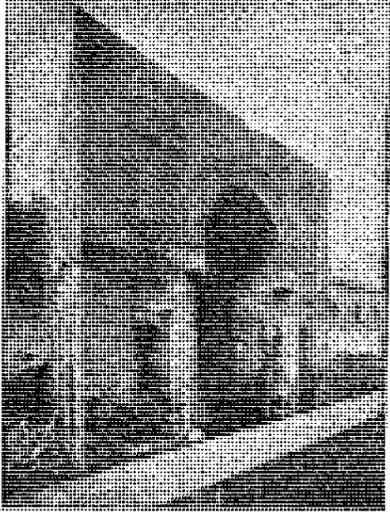
قباب حافلة بالزخارف الملونة والكتابات ، كما  
 تمثل أيضا هذا العصر في باب القلعة المشرف  
 على ميدان صلاح الدين المعروف بباب العزب  
 والذي يحف به من جانبيه برجان عظيمان  
 ينطقان بأن البناء المصرى كان لا يزال في  
 هذا العصر يحتفظ ببراعته القديمة . وعصر  
 محمد على يتمثل لنا في المدخل الرئيسى  
 للقلعة الذى نستعمله الآن ، وفيما وراء هذا  
 الباب من المصانع الحربية والدواوين  
 والمدارس ، وفي قصوره التى من أهمها قصر  
 الجوهرة الذى ردت اليه الحياة وزارة الثقافة  
 والارشاد بما وضعت فيه من أثار فبدا في  
 الصورة الجميلة التى كان عليها ، وفي مسجده  
 العظيم الذى دفن به والذي يشرف بمئذنتيه  
 الرشيقتين على القاهرة .

#### ٢٢- قبة الامام الشافعى من الداخل .

وبلدية القاهرة من جهة أخرى لاطهار هذه  
 القناطر وتعميد الطريق الذى يحف بها من  
 الجانبين لتبدو في الصورة التى كانت عليها  
 عند انشائها . ولكن سكان القلعة ليسوا دائما  
 فى مأمن من انقطاع مياه النيل عنهم لسبب من  
 الأسباب ، لذلك حفرت فى داخل القلعة بئر  
 عميقة تستخدم مياهها عند الضرورة ، وهى  
 لا تزال موجودة حتى اليوم وتعرف ببئر  
 يوسف .

وأنشئت فى هذا العصر فوق قبر الامام  
 الشافعى قبة عظيمة تعد من أجل القباب  
 وأجملها وأغناها بالنقوش من الداخل

وطريقة اتصال الماء الى تلك القلعة العالية  
 فى العصور الوسطى جديدة أن نقف عندها  
 قليلا فهى تكشف لنا عن مدى نضوج أجدادنا  
 فى تلك العصور فى الهندسة المدنية اذ كانت  
 المياه ترفع من النيل بواسطة ست سواق  
 كل منها ترفع الماء الى حوض كبير يجرى منه  
 الماء فى قناة مخفورة فى أعلى قناطر بنيت  
 خصيصا لهذا الغرض تمتد من جوار مجرى  
 النيل وتنتهى الى القلعة ( صورة رقم ٢٢ ) ،  
 ولا تزال حتى اليوم — عند فم الخليج —  
 آثار هذه السواقى وكثير من قناطر المياه  
 التى جددت فى عصر الغورى أحد سلاطين  
 المماليك ، وتعمل مصلحة الآثار من جهة



٢٤ - مسجد الظاهر بيبرس من الخارج .

### المساجد :

وأقدم المساجد المملوكية هو مسجد الظاهر بيبرس ( ٦٦٥ هـ ) الذى خلع اسمه على حى عظيم من أحياء القاهرة ( حى الظاهر ) ( الصورة رقم ٢٤ ) والذى يعد تاريخه مختصرا لتاريخ مصر منذ أمسك المماليك بزمام الحكم فيها حتى العصر الحديث : ففى بنائه الفخيم مظهر لعظمة مصر فى عصر المماليك ، وفى اهماله وبيع أبقاضه مظهر للفوضى التى شاعت فى البلاد بعد الفتح التركى ، وفى جعل الفرنسيين منه قلعة فى وسط القاهرة مظهر للغزو الفرنسى ، وفى تحويله على يد الانجليز الى مذبح بجهزون فيه ما يأكلونه من الحيوان حتى ليعرف الى اليوم عند العامة بمذبح الانجليز مظهر للاحتلال البريطانى ، وفى بدء العناية به ومحاولة اعادته الى أصله على يد مصلحة الآثار مظهر لمهد الاستقلال. وهو أول مسجد

والخارج . وتتجلى فى الزخارف المحفورة فى رقبة هذه القبة من الخارج روح أندلسية لا يخطئها المشاهد . ( صورة رقم ٢٣ ) .  
وفى أواخر هذا العصر أنشأت «شجرة الدر» قبة فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب نشاهد فيها لأول مرة فى مصر الفسيفساء المذهبة تزين المحراب .

### ( العصر المملوكى )

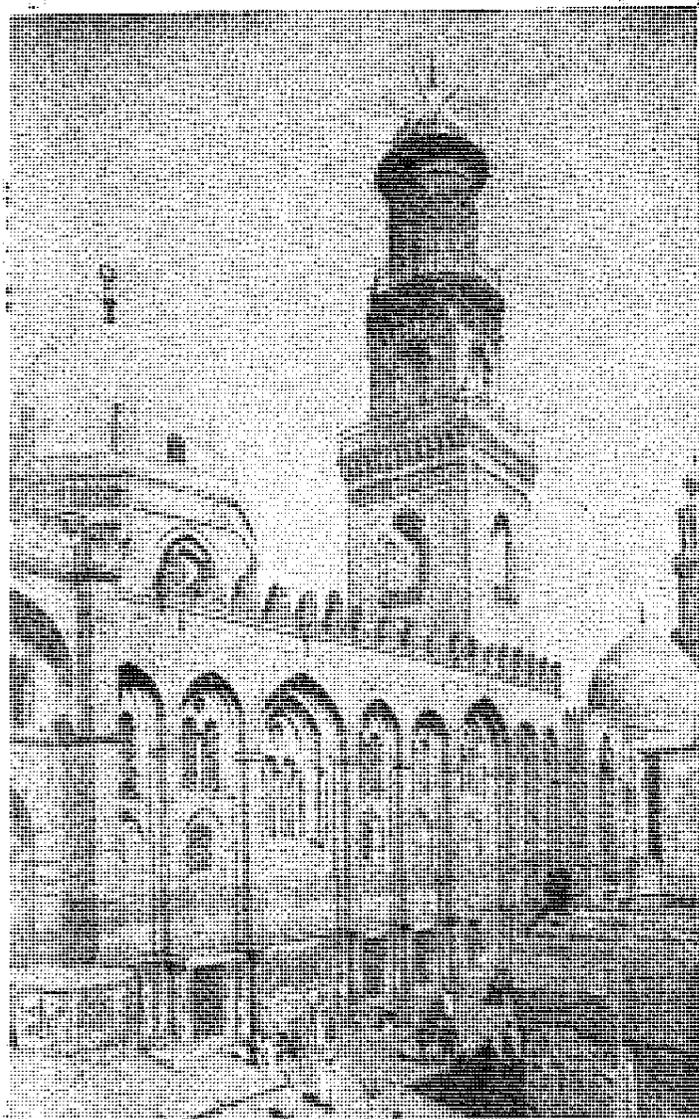
وضعت الدولة الأيوبية ، واشتد النزاع والتحاسد بين أفراد أسرة بنى أيوب ، واستكثر أغلبهم من شراء المماليك ليكونوا عوناً لهم ضد منافسيهم من أقاربهم ، وسلموا هؤلاء المماليك زمام الجيش والقصر فوصلوا الى درجة عظيمة من النفوذ ، ونجحوا أخيراً فى الاستيلاء على الملك والترى على عرش مصر أكثر من قرنين ونصف قرن كانت البلاد فيها من الناحية السياسية مسرحاً للفوضى ولكنها بلغت من الناحية الفنية درجة سامية لم تبلغها من قبل فى عصرها الإسلامى . وفى الحق لقد استطاع هؤلاء المماليك أن يكتبوا لأنفسهم فى تاريخ الفن المصرى صفحات تشع من بين سطورها آيات النضوج الفنى التى تقرأها فيما تركوه وراءهم من ثروة عظيمة من المساجد ، والقباب ، والخوانق ، والقصور ، والمدارس ، والخانات ، والقلاع ، والأسبلة ، والمارستانات ، ومن التحف المنقولة التى يفخر بها المتحف الإسلامى بالقاهرة ، ودار الكتب المصرية ، وكثير من المتاحف فى الشرق والغرب .

ظهرت على استحياء في العصر الفاطمي في بعض نوافذ جامع الحاكم ، وأسفرت قليلا عن نفسها في العصر الأيوبي في زخارف قبة الامام الشافعي ، فهي في عصر المماليك تبدو قوية واضحة في زخارف الواجهة الداخلية لهذه القبة ( الصورة رقم ٢٧ ) التي تذكرنا عند مشاهدتها بالزخارف الجصية لقصر الحمراء .

تمتاز واجهته بتلك الظاهرة التي لعبت دورا هاما في العمارة الاسلامية حتى كادت تصبح علما عليها وهي تزيين الواجهة بأشرطة عريضة أفقية متوازية لونها أحمر وأصفر على التوالي، ويلاحظ أنها هنا انما أتت نتيجة لاستعمال نوعين من الحجارة يختلف كل منهما عن الآخر في لونه ، وصحن المسجد تشغله اليوم حديقة عامة ، وقد ضاعت معظم معالمه من الداخل الا بعض النوافذ الجميلة ورواق المحراب ، الذي بقي منه جزء تقام فيه الشعائر .

### القباب :

وأجمل القباب قبة قلاوون ( ٦٨٣ هـ ) التي تعتبر من أروع المدافن الأثرية الاسلامية في مصر ، ( الصورة رقم ٢٥ ) وهي تتكون من غرفة مربعة الشكل يتوسطها مشن تعتمد على أربعة أكتاف وأربعة أعمدة من الجرافيت الأحمر تم تيجانها وقواعدها على أنها من صنع المصريين في عصر البطالمة ، ومحرابها قطعة من الفن الجميل ، وواجهتها من الداخل ومن الخارج مثال ناطق على مدى ما وصل اليه البناء المصري في عصر المماليك من النضوج الفني ( الصورة رقم ٢٦ ) ، والواقع ان هذه القبة لترهف الوجدان بجمالها الرائع ، وتغذى النفس بصنعتها المحكمة ، وتوسع أفق العقل بما فيها من كتابات تاريخية . واذا كانت التأثيرات الأندلسية قد



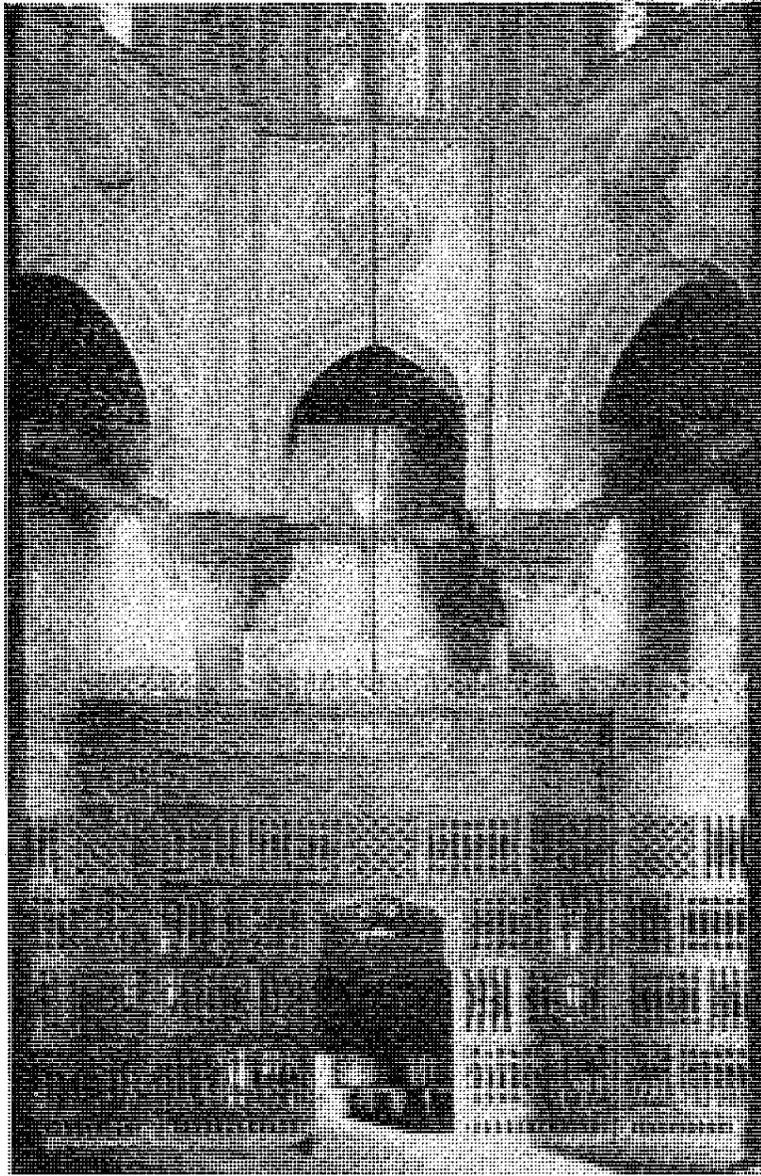
٢٥ - واجهة قبة السلطان قلاوون من الخارج .

## المارستانات :

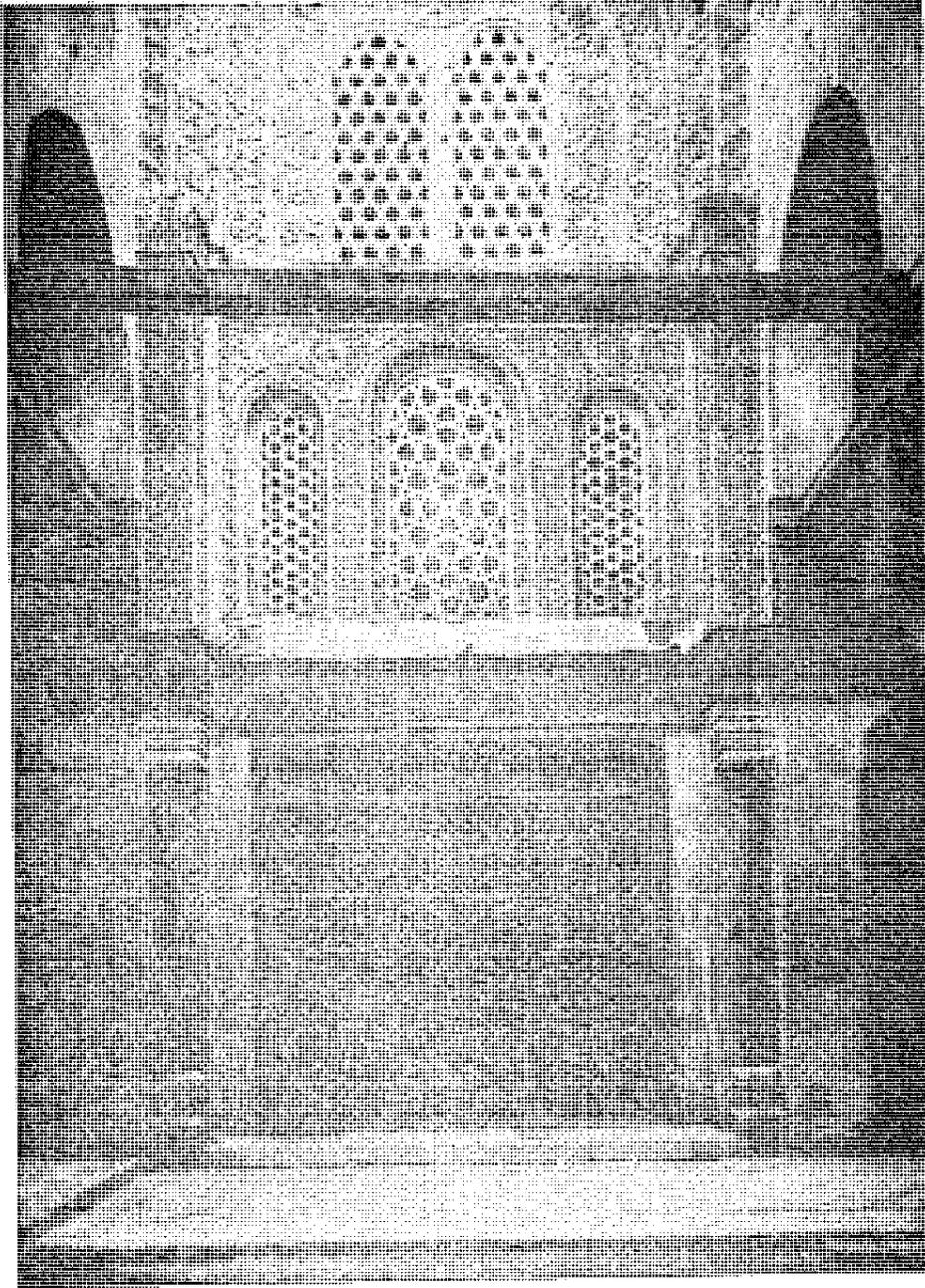
أطباء من قبل الدولة يعاونهم موظفون يقومون بطبخ الأدوية والأغذية .

ومارستان قلاوون ( ٦٨٣ هـ ) قد امتدت إليه يد الزمن فلم يبق منه الا الأرض التي يشغلها اليوم مستشفى حديث للرمذ يحمل اسم قلاوون ، والابقايا لا تستأهل الذكر ، وهو لم يكن الأول من نوعه في مصر بل سبقته مارستانات أخرى ضاعت معالمها .

والمارستان ( دار الشفاء ) بناء يتكون من أيهاء وحجر بها أسرة بعضها للنساء وبعضها للرجال ، ولكل مرض قسم خاص ، وفي مخازنه الملابس التي يرتديها المرضى عند تواجدهم به ، كما هو الحال في أحدث المستشفيات اليوم ، وقد كان يتفقد شئونه



٢٦- قبة السلطان قلاوون ( من الداخل )



٢٧- واجهة قبة السلطان قلاوون من الداخل

التي سنشير اليها — تعد من مفاخر الحضارة  
الاسلامية ( التي كان لمصر النصيب الأوفر  
فيها ) والتي سبقت بها غيرها من الحضارات ،  
وأوربا عندما نهضت نهضتها العظيمة ، واتجهت  
الى هذه النواحي الانسانية انما اقتفت أثر  
الشرق واقتدت بأجدادنا ، ولعل خير ما يترجم

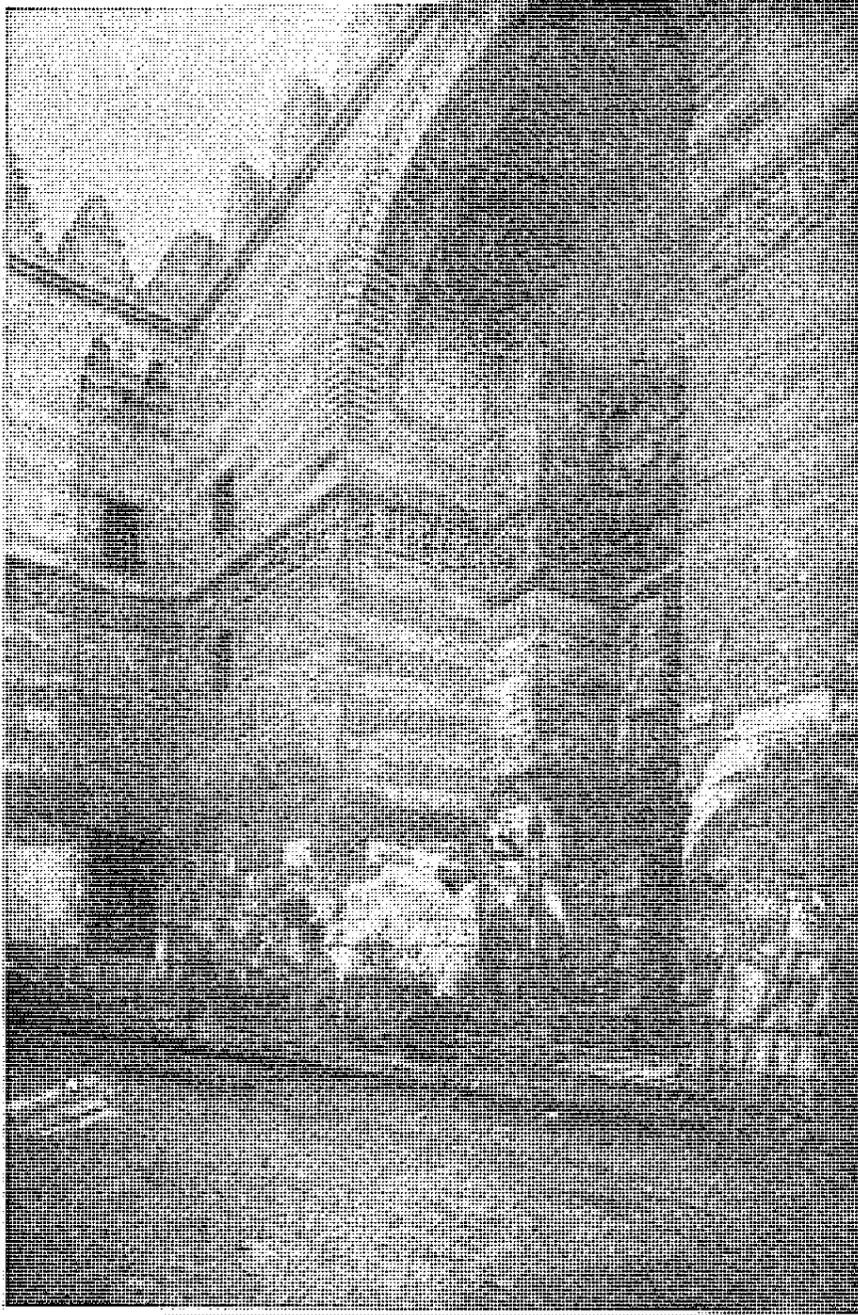
وهذه المنشآت العامة التي كانت تنشئها  
الدولة لكي توفر وسائل العلاج للشعب كما  
هو الحال في هذه المارستانات ، ولكي توفر  
المعرفة لهم كما هو الحال في المدارس التي  
سندكرها فيما بعد ، ولكي تخفف عنهم وطأة  
الظما في بلد حار — كما هو الحال في الأسبلة

هو مثلى أو دونى ، للغنى والفقير ، للحر  
والعبد ، للذكور والإناث .

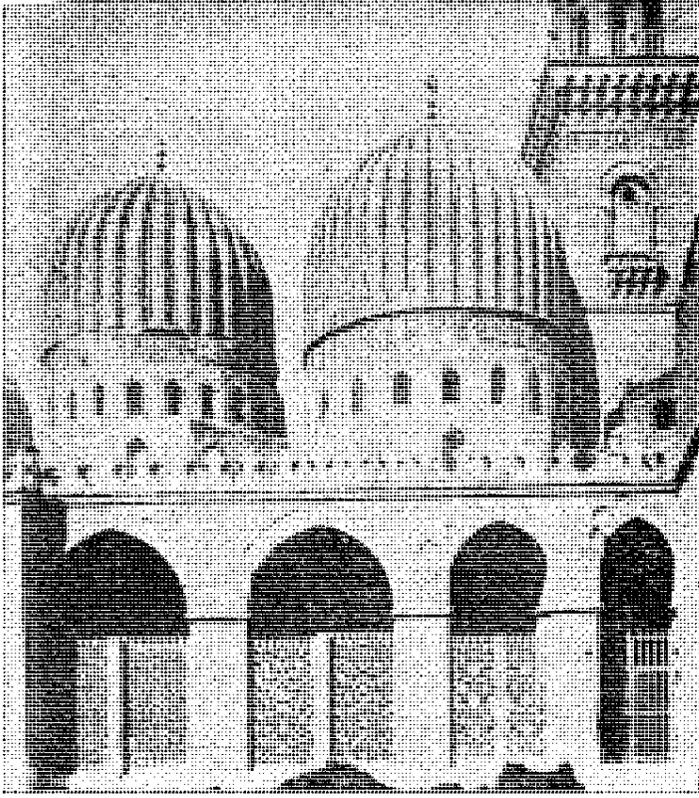
### الخواتق :

والخاتقاه ( دار الصوفية ) أشبه ما تكون  
بالدير عند المسيحيين ( الصورة رقم ٢٨ ) ،

عن سمو حضارة هؤلاء الأجداد فى العصور  
الوسطى — عصور التعصب للجنس وللدين  
وللطبقة الاجتماعية — هو تلك العبارة التى  
قالها قلاوون عند الفراغ من بناء هذا  
المارستان : « انى بنيت لوجه الله ، لمعالجة  
المرضى من جميع الطبقات والأجناس ، ممن



٢٨-خاتقاه بيبرس الثانى ( من الخارج ) .



٢٩- الخانقاه الجاولية من الداخل وتبدو  
فى الصورة الشبائيك الحجرية الجميلة .

القصور كما ندرت فى جميع العصور المصرية  
الاسلامية قبل الفتح التركى ، ولعل السبب فى  
ذلك خشية الناس من الاعتداء على بيوت الله  
من عقاب الله فعاش الكثير من هذه البيوت  
حتى وصل الينا ، أما بيوت الأعداء من البشر  
فما أهون الاعتداء عليها اذا ما ملك الانسان  
السلطة والنفوذ .

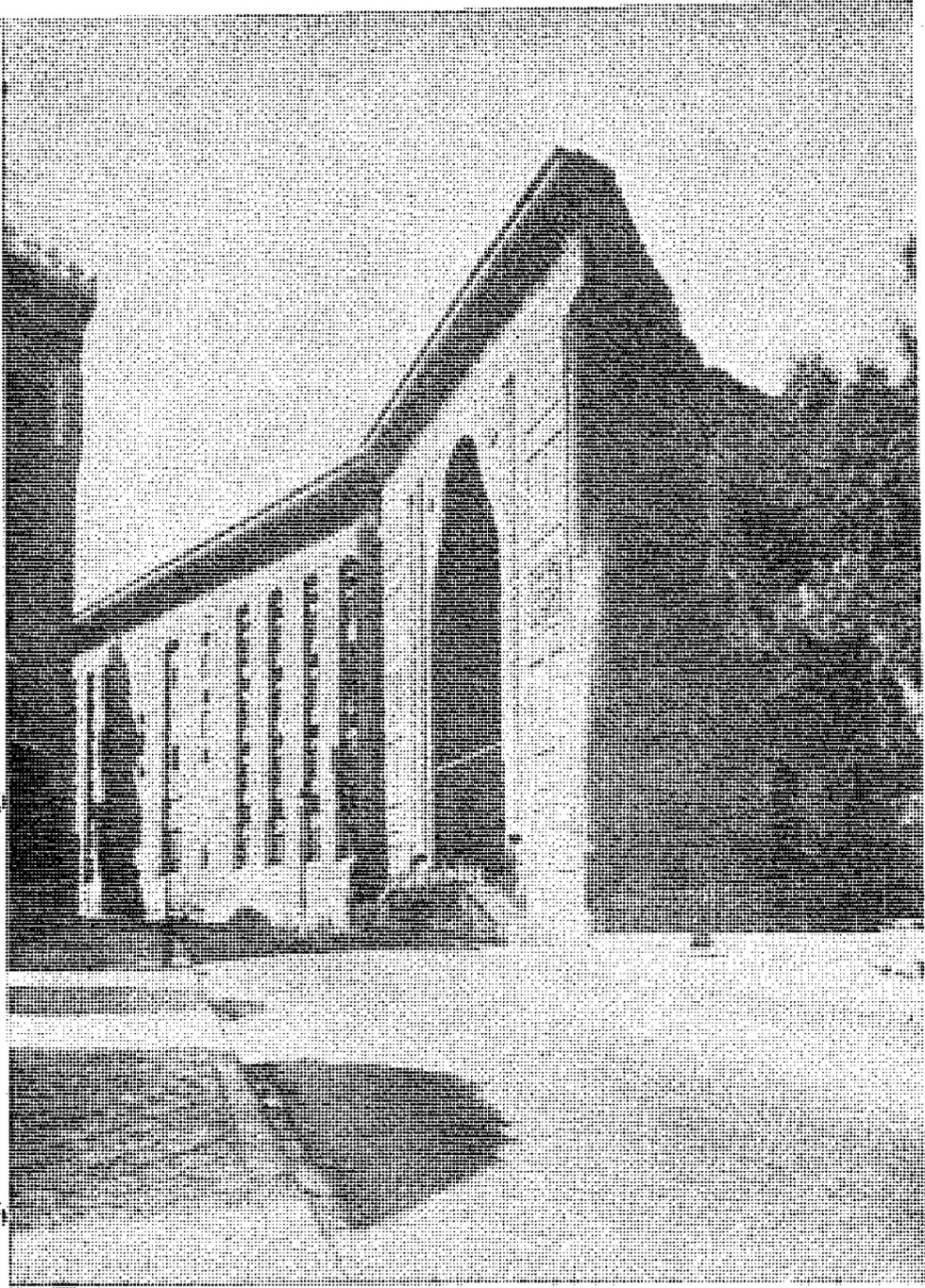
### المدارس :

وقد كانت مجالس العلم تعقد فى المساجد ،  
وظلت كذلك الى ان اتسعت دائرة المعرفة  
وتشعبت فروعها ، وحينئذ أحس الناس ان  
المنظرة والجدل — وهما من أسس الدراسة  
— قد يخرجان بالطلاب والأساتذة أحيانا عن

وقد نشأت فكرتها عند المسلمين عندما ضعفت  
روح الدين فى النفوس مما دفع ببعض الناس  
الى العزلة زهدا فى الحياة الاجتماعية التى  
اصبحت حافلة بألوان اللهو فشيّدوا هذه  
الأبنية التى تحتوى على غرف متعددة يعيش  
فيها هؤلاء المتصوفون ، وقد ظهرت الخوانق  
فى مصر أول ما ظهرت فى عصر صلاح الدين ،  
وتعد الخانقاه الجاولية ( ٧٠٣ هـ ) من أجمل  
ما شيّد من هذا النوع ، وواجهتها المظلة على  
شارع مارسينه تفصح عن مقدرة المهندس  
الذى خططها ، والبناء الذى نفذ هذا  
التخطيط ، فالقبتان المتماثلتان مظهرًا ، المختلفتان  
ارتفاعًا ، والمئذنة القائمة الى جوارهما تكوّن  
معا لوحة فنية تتوفر فيها أصول الجمال  
الفنى بصورة رائعة ، ولقد امتدت يد التخريب  
الى الغرف المعدة للصوفية ، ولكن بقى لنا  
بعض النوافذ التى تغطيها شبائيك من الحجر  
مزخرفة بزخارف جميلة لا مثيل لها فى العمارة  
الاسلامية فى مصر . ( الصورة رقم ٢٩ ) .

### القصور :

وقصر الأمير بشتك ( ٧٣٥ هـ ) كان من  
أعظم مباني القاهرة يستطيع الانسان أن يشرف  
من أعلاه على القاهرة والقلعة والنيسل  
والبساتين ، كما يقول المقرئى ، ولم يبق لنا  
منه الا قدر قليل يتمثل فى قاعة عظيمة ذات  
سقف جميل ونافورة رائعة ، ثم بعض الأجزاء  
التي تعاون على اعطاء فكرة عن شكل القصر  
من الخارج فى هذا العصر الذى ندرت فيه

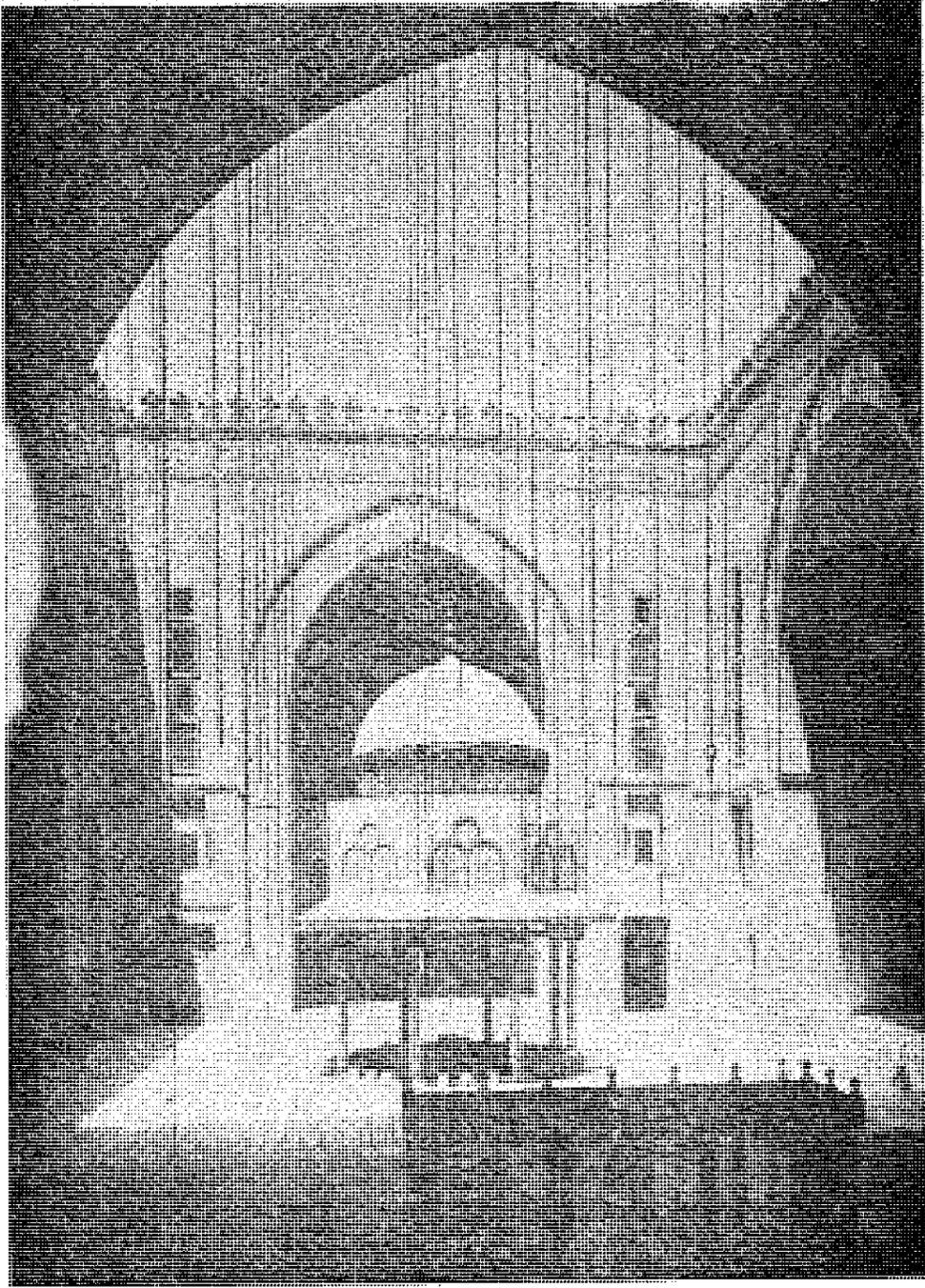


٣٠- مدرسة السلطان حسن ( من الخارج ) .

بعد ذلك في العالم الاسلامى . ودخلت مصر  
مع صلاح الدين ، ثم أقبل الناس على انشائها  
بعد ذلك اقبالا شديدا .

وتعد مدرسة السلطان حسن ( ٧٥٧ هـ )  
( صورة رقم ٣٠ ) من أعظم الآثار الاسلامية

حد الهدوء الواجب توفره في المساجد ، فأروا  
أن يخصصوا للدراسة قاعة في دورهم ، فلما  
ضاقت القاعات بالطلاب أنشأوا أماكن خاصة  
هى المدارس التى عرفها المسلمون لأول مرة  
في القرن الخامس الهجرى في ايران ثم انتشرت



٢١- مدرسة السلطان حسن ( من الداخل ) \*

النسخى ، وفيها الزخارف التي تعلمها المسلمون ممن قبلهم من الأمم ، والزخارف التي أبدعوها وصارت من أخص مميزات فنهم .

وتصميم المدرسة يقوم على صحن

في العالم وأروعها في مصر ، والواقع ان عظمة الفن الاسلامى وجلاله يبدوان واضحين في كل جزء من اجزاء هذه المدرسة العظيمة .

وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص هذا الفن : ففيها الخط الكوفى والخط

فيها الطلاب والأساتذة . واختصت كل مدرسة بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة ، ويتصل بهذه المدرسة أو الجامعة على الأصح مدفن أعد لكى يدفن فيه مؤسسها السلطان حسن ، تعلوه قبة شاهقة وتزينه زخرفة جميلة وقد يكون من الطريف

مكشوف تتوسطه نافورة ، وتطل عليه من الجهات الأربع أربعة عقود عظيمة ( الصورة رقم ٣١ ) . وفي الزوايا الأربع لهذا الصحن أقيمت أربع مدارس يتكون كل منها من ايوان ، وفناء تتوسطه نافورة ، وتحف به مساكن بعضها فوق بعض ، أعدت ليعيش

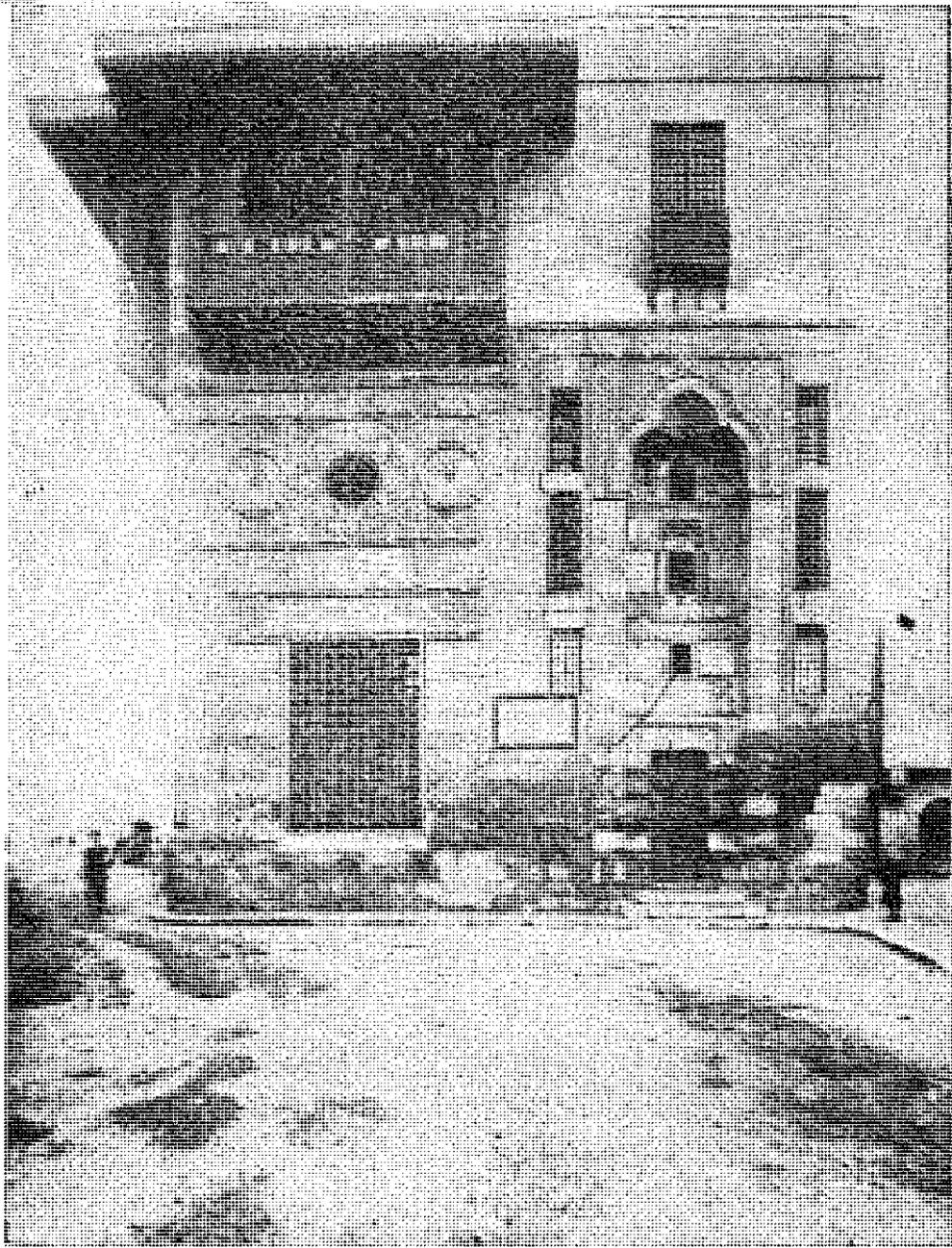


٣٢- خان الخليل .

## الخانات :

وخان الخليلي الذي ذاعت شهرته يستمد اسمه من سيف الدين جركس الخليلي أحد امراء المماليك الذي كان يعيش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وقد كان الخان في الأصل أشبه ما يكون بفنادق اليوم مع فارق واحد هو أنه كان يتسع لدواب

أن نذكر أنه كان في هذه الجامعة بكلياتها الأربع مراقبان لمراقبة الحضور والغياب ، أحدهما يعمل بالنهار والآخر بالليل ، وكان لها اطباء ثلاثة اختص أحدهم بالطب الباطني والثاني بطب العيون والثالث بالجراحة . وكان في كل كلية مكتبة عظيمة لها أمين خاص بها .



٢٢- سبيل السلطان قايتباي ويرى باعلاه الكتاب .

## الفنون الزخرفية

بقى علينا ان نتحدث في ايجاز عن  
المصنوعات وما كان يزيناها من فنون زخرفية  
وهي الركن الثاني من ركنى الحياة الفنية في  
مصر الاسلامية .

واذا كان للعمائر الدينية التي درسناها  
طابع خاص يكاد يكون منقطع الصلة بما  
سبقه من عمائر دينية في مصر ، طابع يترجم  
عن الدين الجديد الذي دخل الى هذه البلاد  
ويتشئ من حيث التصميم والمظهر مع العمائر  
الدينية الاسلامية خارج مصر فالامر ليس  
كذلك في المصنوعات ، وما تزدان به من فن  
زخرفي اذ ظلت التقاليد المصرية السابقة على  
الاسلام واضحة وضوحا قويا في العصر  
السابق على الطولوني حتى ليصعب علينا في  
بعض الأحيان أن نفرق فيها بين ما صنع قبل  
الفتح العربي وما صنع بعده بقليل .

ولكى ندرك مدى ما أحدثه أجدادنا في  
العصور الوسطى من تطور في هذه المصنوعات  
وزخارفها نرى لزما علينا أن نخص كل مادة  
من المواد التي استخدمت في الصناعة بكلمة  
خاصة نبدؤها بما كانت عليه قبل الفتح العربي  
ثم نسير معها متبعين تطورها حتى الفتح  
التركي .

### مواد البناء

ففي مواد البناء نلاحظ أنه على الرغم من  
وجود المهاجر التي استمد منها المصريون في  
عصورهم السابقة الأحجار لتشييد عمائرهم

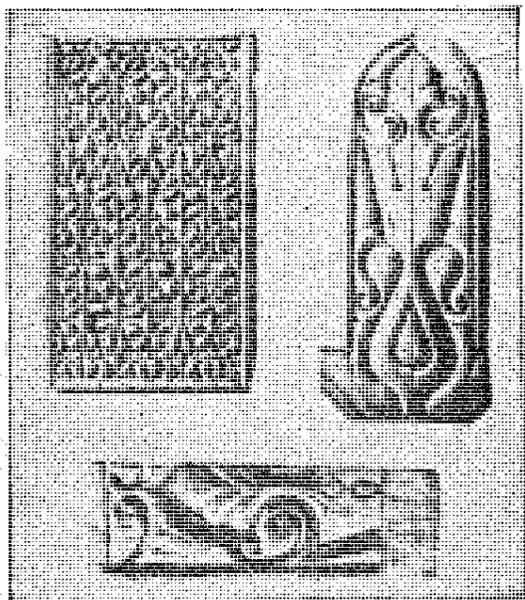
المسافرين — وقد كان أغلبهم من التجار —  
ويتسع كذلك لما يحملونه من بضاعة ، ففي  
صحنه المكشوف كانت تربط الدواب —  
وهي وسيلة السفر في تلك الأيام — وفي غرفه  
التي تطل على الصحن كانت تحفظ البضاعة،  
وفي غرفه التي تفتح على الطريق العام كان  
يعرض البعض من هذه السلع للبيع أو المبادلة،  
وفي الطبقة العليا غرف متعددة أعدت لنزول  
التجار وغيرهم من المسافرين . وقد هدم  
السلطان الغوري هذا الخان وانشأ مكانه  
حواصل وحوانيت وجعل له ثلاثة أبواب لا تزال  
تحمل اسمه حتى اليوم . ( الصورة رقم ٣٢ ) .

### الأسبلة :

وسبيل السلطان قايتباي ( ٨٨٤ هـ )  
بالصلبية يعد من أروع ما شيده هذا السلطان  
من عمائره الكثيرة ، ومن أجمل ما يجلو  
علينا هذا النوع من الأبنية ، وهو يتكون  
في أسفله من مورد ماء عذب يشرب منه  
الناس ، وفي أعلاه « ككتاب » لتحفيظ القرآن  
وتعليم القراءة والحساب ، وقد كان السبيل  
« والكتاب » جزءا من المدرسة أو المسجد  
ثم استقلا بوجودهما كما هو الحال هنا .  
وأقبل الناس على الاكثار منهما ، وجسوا  
عليهما الأعيان التي يصرف ريعها على التلاميذ  
ومعلميهم وعلى توفير ماء الشرب للناس في  
بلد اشتهر بجوه الحار ، فليس أقرب الى  
الله من سقى الماء ونشر العلم . ( الصورة  
رقم ٣٣ ) .

وهو وان كان لم يصل فيه الى الدرجة التي سمت اليها الفنون القديمة السابقة على الاسلام الا أن هذا لا يعد دليلا على تأخر المبدعين له وليس فيه ما يزرى بمكانة هذا الفن بين الفنون ، لأن لكل فن بيئته التي نشأ فيها والعوامل التي تحكمت في نشأته ، والقرآن الكريم لم يحرم فن النحت ( صناعة التماثيل ) وقد أدرك أسلافنا أن التحريم ان وجد فهو منصب على التماثيل التي تعبد من دون الله ، وأما غيرها فلم يتخرجوا من استعمالها في تزيين قصورهم وقد وصلت اليها أمثلة عدة ، منها ما هو على هيئة الانسان ومنها ما هو على هيئة الحيوان ، وفي القاعة الفاطمية بمتحفنا بالقاهرة تماثلان من الحجر يمثلان أسدين يزحفان على مهل تتجلى فيهما العضلات واللبد بشكل واضح .

ولا ينبغي أن ننسى أن استعمال الحجر



٣٤- طريقة الحفر المائل كما تتجلى في قطع أخشاب طولونية بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

فإن العرب استصعبوا قطع الحجر واستسهلوا عمل اللبن فبنوا به مساجدهم الأولى . وعندما جاء ابن طولون الى مصر حمل معه تقاليد العراق في البناء وهي تقوم كذلك على استخدام اللبن والطوب المحروق لعدم توفر الحجر عندهم فظلت مصر تسير على نهجها السابق ، وقد كان طبيعيا أن يغطى الطوب بالجبس وأن تنقش الزخارف على هذا الجبس . وفي العصر الفاطمى — ذلك العصر الذى أحيانا تقاليدنا القديمة كما ذكر من قبل — نجد البناء بالحجر يظهر من جديد ، ويعود النشاط الى المحاجر ، ونلمس في واجهة جامع الحاكم ومذنتيه ، وفي واجهة جامع الأقمر ، وفي أبواب القاهرة وأسوارها ، أمثلة رائعة للمهارة الفائقة في البناء وفي النقش على الحجر .

وظل استعمال الحجر بارزا في العصرين الأيوبي والملوكى ، وتجلى في هذا العصر حذق أجدادنا في نقشه ، وفي طريقة استعماله في المآذن والقباب والشبابيك .

ولم يستخدم الحجر في البناء وحده بل اتخذت منه شواهد للقبور ( الصورة رقم ١ ) ، والمتحف الاسلامى بالقاهرة غنى بهذه الشواهد التى تعطى الباحث فكرة واضحة عن تطور الخط الكوفى والنسخى ، كما عملت منه أيضا المنابر والأواني والتماثيل ، وهذه الأخيرة وان كانت نادرة الا انها كافية لكى تثبت أن الفن الاسلامى قد عرف فن النحت



٢٥ - محراب السيدة رقية من الخشب وتحتل فيه طريقنا التجميع والحفر بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

فعل أجدادهم ولكنهم في العصر الطولوني خرجوا على ما ألفوه من قبل ، واستعملوا طرازاً زخرفياً جديداً جلبه معه أحمد بن طولون هو الحفر المائل ( الصورة رقم ٣٤ ) ويشير المقرئى الى التماثيل الخشبية التي كانت تزين قصر خمارويه والتي تدل من غير شك على استمرار تقاليدنا القديمة في هذه الناحية .

ليس بمعناه عدم استعمال الطوب والجص بل لقد سارا معا ، والخبرة التي اكتسبناها منذ العصر الطولوني في استعمال الجص ظلت تتطور وتتلور حتى وصلت الى غاية نضجها في عصر المماليك الذي شهد أروع أمثلة الزخارف الجصية سواء في النوافذ أو على الجدران .

والرخام الذي استعمل على قلة قبل عصر المماليك قد شاع استعماله في هذا العصر ووصلت اليها ثروة عظيمة منها ما نراه في الأبنية القائمة ومنها ما هو معروض بالمتحف الاسلامى بالقاهرة . ويكفى أن نشير الى أرضية كثير من المساجد التي تكسوها ألواح الرخام المختلفة الألوان ، والى النافورة الرائعة في المتحف سالف الذكر .

## الأخشاب

ولقد كانت مصر طوال تاريخها فقيرة في الأنواع الجيدة من الأخشاب ، فاستوردتها من لبنان ( الأرز والصنوبر ) ، ومن السودان ( الأبنوس ) ومن الهند ( الساج ) ، واستعملتها مع بعض الأنواع المحلية ( الجميز والنبق ) في صناعاتها المختلفة ، وفي المتحف المصرى وفي المتحف اليونانى الرومانى ، وفي المتحف القبطى أمثلة رائعة تدل على المهارة والحذق في صناعة النجارة .

وسار المصريون في العصر الاسلامى على النهج القديم في الصناعة وفي الزخرفة ، فاستعملوا الحفر ، والتلوين ، والتطعيم كما

وطريقة التجميع ، وطريقة الخراط ، والطريقتان الأولى والثانية نشاهدهما في التحف التي ذكرناها وفي غيرها من منابر كثيرة ، والطريقة الثالثة تتجلى فيما يعرف « بالمشريات » التي كانت تزين واجهات كثير من منازلنا وقصورنا في العصور الوسطى والتي كانت من غير شك متفقة مع جو بلادنا ، ومتلائمة مع نظامنا الاجتماعي حينئذ ، فهي تساعد على دخول الضوء اللطيف ، ومرور النسيم العليل ، فتوفر بذلك في المنزل جوًا مناسبًا في بلد اشتهر بشمس الساطعة ومناخه الحار ، وفي المتحف القبطي ومتحف أندرسون أمثلة جميلة لهذه المشريات .

### التصوير

والاستعانة بالتصوير في تزيين الجدران أمر كان معروفًا عند أجدادنا المصريين ، وكان معروفًا أيضًا عند العرب في جاهليتهم فقد زينوا دعائم الكعبة — قبل الإسلام — بصور الأنبياء ، وكان من بينها صورة إبراهيم خليل الرحمن ، وصورة السيد المسيح وأمه علي حد قول الأزرقي في كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الأثر .

ولما جاء الإسلام اقتصر المسلمون في استعمال التصوير على تزيين القصور والحمامات دون المساجد ، ولم يكن الدافع إلى ذلك كراهية التصوير كفن ولكن كان سموا بالإسلام كدين يرتفع فوق الماديات ، ويجعل الصلة بين العبد وربه صلة روحية

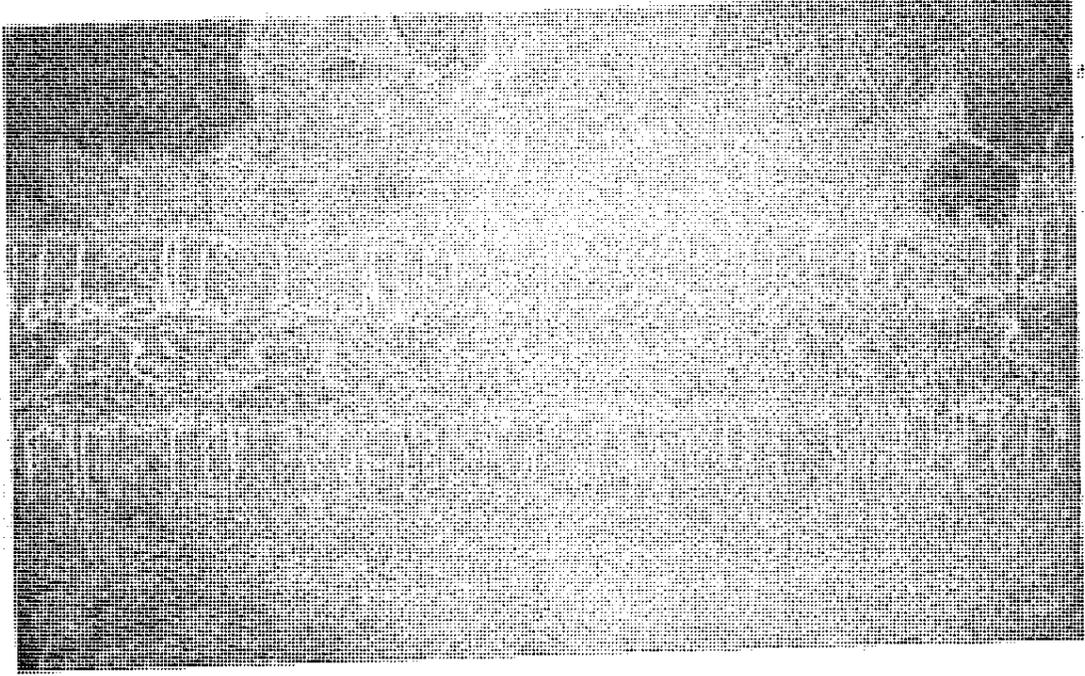
على أننا قد عدنا إلى التقاليد القديمة بشكل واضح في العصر الفاطمي ، فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التي ألفها أجدادنا ، وتجلت في صور رائعة نشاهدتها في حجاب كنيسة الست بربرة بالمتحف القبطي وفي المنبر الموجود في مسجد قوص ، وفي محراب السيدة رقية ( صورة رقم ٣٥ ) ، وفي ألواح القصر الفاطمي الصغير في المتحف الإسلامي . وإذا كانت هذه التحف الخشبية تعكس لنا رقي الذوق الفني عند أجدادنا في العصور الوسطى فالتحفتان الأولى والأخيرة تساعدنا على تكوين فكرة عن الحياة الاجتماعية في تلك العصور بما عليها من صور تمثل مناظر الصيد ، ومجالس الطرب ، وأشكال الرقص ، وطرق الانتقال ، ومظاهر الزي .

وتقدم فن الحفر على الخشب تقدمًا ملحوظًا في العصرين الأيوبي والملوكي ، وقد عنى النجارون في هذين العصرين أكثر ما عنوا بالزخارف الهندسية والنجمية التي أقتنوها اتقانًا ينتزع الإعجاب من كل من يراها ، ويكفي دليلاً على ذلك ما نراه في تابوت الامام الشافعي ( بقبته ) وتابوت الامام الحسين ( بالمتحف الإسلامي ) ، والمنبر الموجود بمسجد ابن طولون .

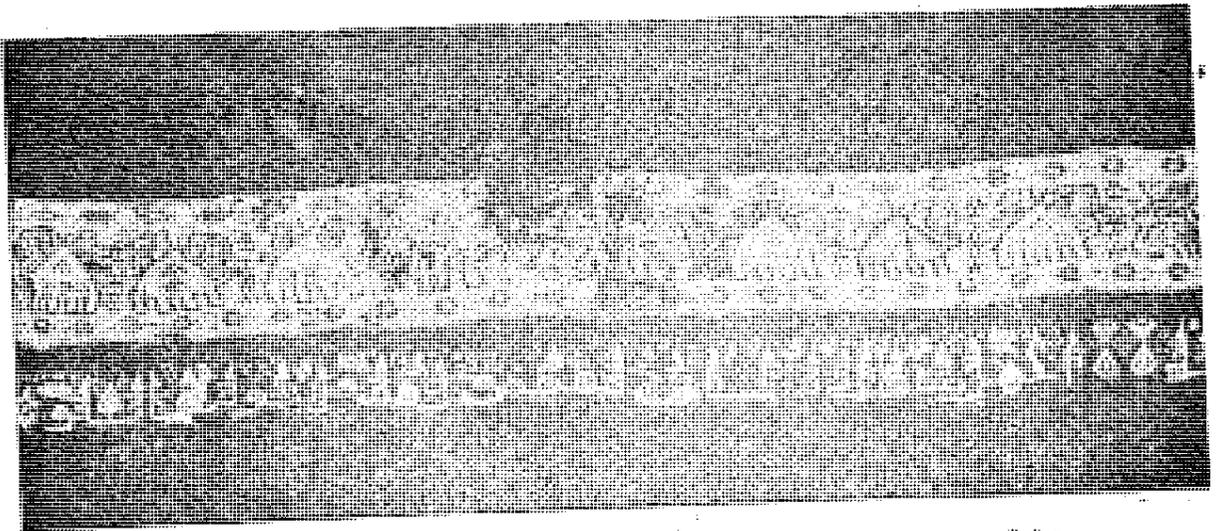
على أننا لم نقف في العصور الوسطى جامدين عند تلك الطرق التي ورثناها عن أجدادنا في زخرفة الأخشاب بل ابتدعنا طرقًا جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وذاعت بفضلنا في شرق العالم وغربه كطريقة التشويق،

الجدران نقل من الحمام الفاطمي الذي أشرنا  
اليه من قبل ( الصورة رقم ١٩ ) ولعل فيما  
ذكرناه هنا أبلغ رد على الذين يتهمون الاسلام  
بتحريم التصوير ، فعلى الرغم من أن القرآن  
الكريم خلو من أى نص يحرم هذا الفن فان  
المنطق السليم يأبى أن يسلم بأن هذا الدين

قوامها التجرد من كل ما هو مادي ، وقد  
كشفت الحفائر الأثرية سواء في مصر أو في  
خارج مصر عن حمامات وقصور ترجع الى  
القرن الثاني والثالث والرابع بعد الهجرة كانت  
تزدان بالصور الجميلة ، وفي القاعة الفاطمية  
بمتحفنا الاسلامي مثال رائع للتصوير على



٣٦- قطعة نسيج من العصر الفاطمي بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .



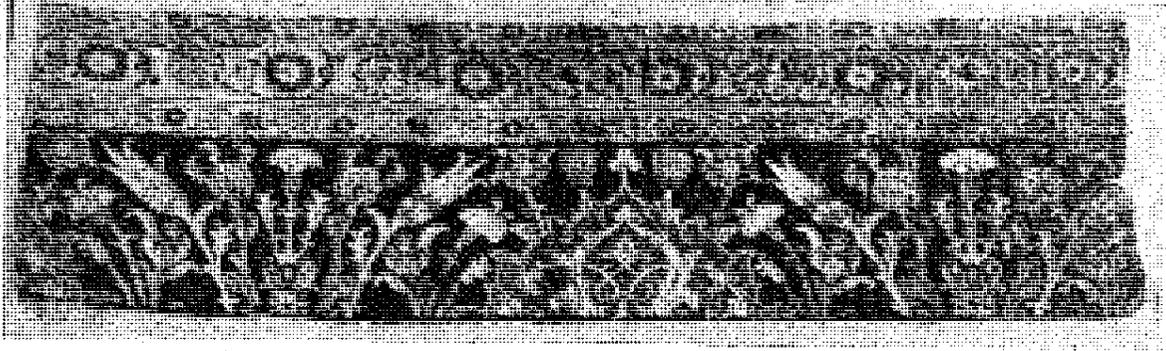
٣٧- قطعة قماش نسجت في اقليم الفيوم تنجلي فيها زخارف الفن القبطي والكتابة العربية  
التي لها هنا طابع خاص بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

النساجين وأثمنه الرسامين وأعلى المواد الخام حتى تستطيع أن تخرج من الأقسمة ما يليق بالخلفاء والأمراء والحكام ومن يلوذ بهم ، وقد كان الشعب من ورائهم يترسم خطأ هذه المصانع ، ويسير على هديها ( الصورة رقم ٣٧ ) وليست «دار الكسوة» الموجودة حتى اليوم الا بقية من «دور الطراز» القديمة ، وهي لا تختلف عنها الا في انكماش اعمالها ، واقتصارها على نسج كسوة الكعبة التي ترسلها كل عام الى مكة .

قد حرم التصوير مع ما له من دور خطير في الحياة العلمية والحياة الاجتماعية .

## المنسوجات

ومنذ فجر التاريخ بل وقبل أن يشرق هذا الفجر عرفت مصر صناعة المنسوجات ، والأمثلة التي تنطق بمهارة أجدادنا في هذه الناحية في كل العصور تفخر بها المتاحف في مصر وفي الخارج . والمكانة السامية التي وصلنا إليها في العصور القديمة في هذه



٣٨- قطعة من طنفسة مصرية عملت للسلطان العثماني بإيد مصرية .

ولقد ساهم اجدادنا في العصور الوسطى في نشر الحرير في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد تزعموا تجارته في تلك العصور ، ولعبت الاسكندرية دورا هاما في هذه التجارة اذ كانت هي التي تحدد اسعاره للعالم المتحضر حينئذ .

## الطنافس

وهناك صنعة من عظمة مصر في الصناعة طواها النسيان ، وكشف عنها البحث الأثري هي تفوق مصر في العصور الوسطى في صناعة

الناحية بلغناها أيضا في العصور الوسطى ، ( الصورة رقم ٣٦ ) وكان في تقاليدنا في تلك العصور من كسوة الكعبة ، وعادة منح الخلع ما عاون على بلوغ هذه الدرجة بل وتجاوزها في كثير من الأحيان كما تشهد بذلك قطع النسيج الاسلامية المعروضة في المتحف . والفضل في ذلك راجع الى الدور الذي لعبته « دور الطراز » أو بعبارة أوضح المصانع الحكومية للنسيج التي انتشرت في طول البلاد وعرضها وكانت تستخدم أمر

ندرك مدى الفرق بين عمل الأستاذ وعمل التلميذ .

ويلاحظ أنه لم يصل إلينا من التحف



٣٩- تمثال صغير من البرونز وجد في خرائب الفسطاط - بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

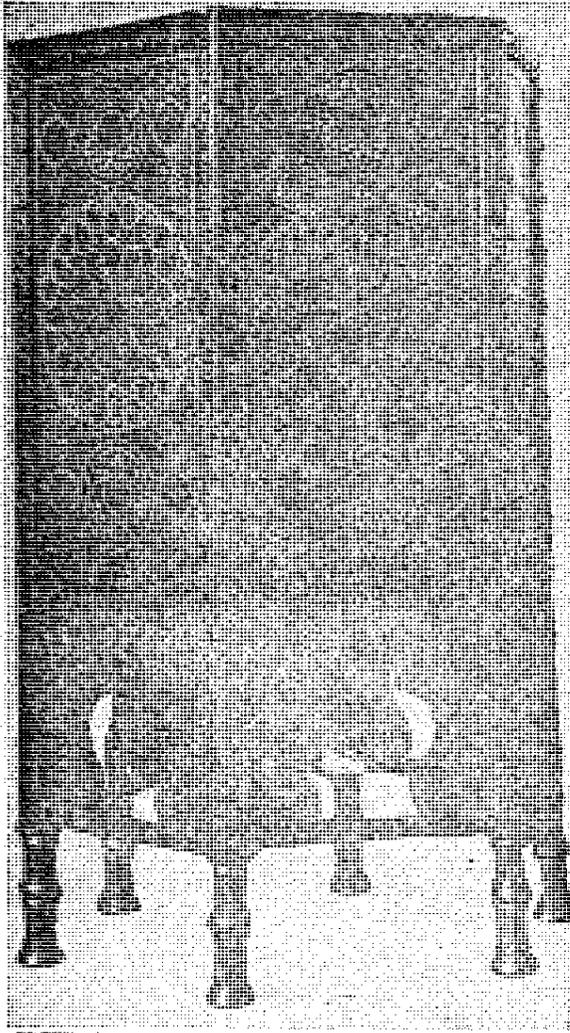


٤٠- تمثال من البرونز من العصر الفاطمي موجود الآن في مدينة بيزا بإيطاليا .

الأنشطة ذات العمل أو الطنافس كما ينبغي أن تسمى . وقد كانت حينئذ أكبر منافس لبلاد المعجم في هذه الصناعة ، وأمدتنا حفائر الفسطاط بما يثبت قيام هذه الصناعة عندنا منذ العصر العباسي ، واستمرت كذلك حتى العصر المملوكي الذي بلغت فيه ذروة نضوجها ( الصورة رقم ٣٨ ) والأمثلة القليلة الموزعة بين متاحف أوروبا لا سيما في فينا تشهد بهذا النضوج ، وفي متحفنا بالقاهرة مثال منها يقل في أهميته وجماله عن تلك الأمثلة التي تعيش في دار الغربية ، وتؤدي لنا هناك رسالة عظيمة اذ هي في الواقع سفير صادق يكشف للغير عن مجدنا وحضارتنا في العصور الوسطى .

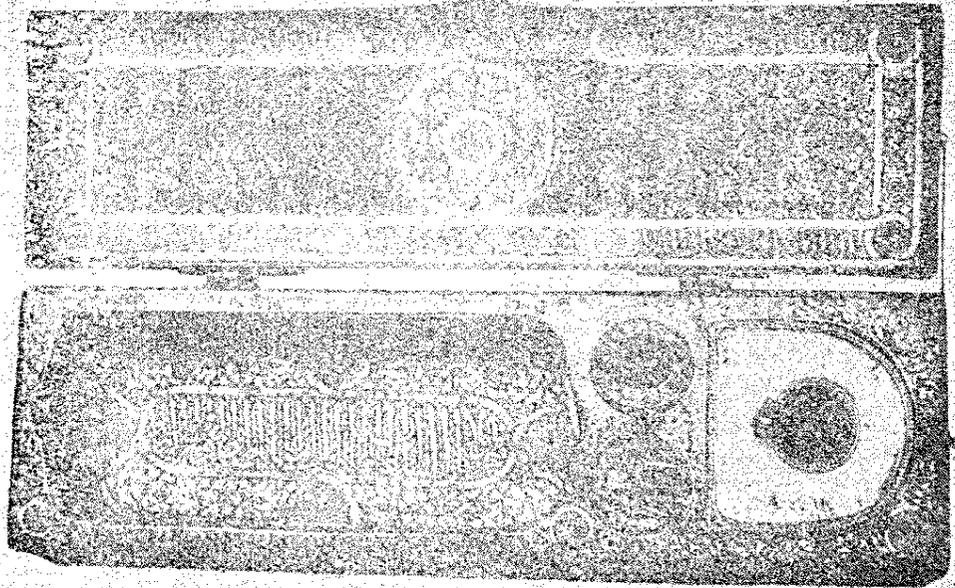
## المعادن

ولقد سرنا في صناعة المعادن في العصور الوسطى على النهج القديم الذي كان يسير عليه أجدادنا من قبل ولكننا أضفنا إلى طرق الزخرفة القديمة : من حفر غائر أو بارز ، أو تخريم ، أو ترصيع بالمينا ، طريقة جديدة هي طريقة التكفيت - أي تطعيم الأواني بالذهب أو بالفضة أو بهما معا - التي ابتكرها أجدادنا من المسلمين ، وقد شاعت هذه الطريقة ، وتعلمها الأوربيون على أيدينا ، ويمكن أن نشاهد في المتحف الاسلامي عندنا أمثلة مصرية اسلامية ، وأمثلة قد صنعت في إيطاليا تقليدا لهذه التحف الاسلامية حتى



٤١- كرسى ( مائدة صغيرة ) من النحاس المكفت  
بالفضة من عصر الماليك - بالمتحف الاسلامى  
بانقاهرة .

المعدنية الا القليل ، اذ جرت العادة بصهر  
الأواني المعدنية كلما تقادم عليها العهد لكى  
تستبدل بأوان جديدة . وفي المتحف الاسلامى  
بالقاهرة بعض التماثيل الفاطمية المصنوعة من  
البرنز ( الصورة رقم ٣٩ ) على أن أروع تمثال  
برنزى من هذا العصر موجود فى مدينة بيزا  
بايطاليا وهو يمثل حيوانا له جسم أسد ورأس  
نسر وبه زخارف محفورة من بينها كتابات  
عربية ( الصورة رقم ٤٠ ) . وقد أولع الناس فى  
عصر الماليك - كما يقول المقرئى -  
بالأواني المعدنية ، وفى المتحف مجموعة قيمة  
من هذا العصر تتمثل فى تلك الثريات والشماعد  
والأباريق والأواني ، ونخص بالذكر منها  
كرسى ( مائدة صغيرة ) من عصر السلطان  
الناصر محمد بن قلاوون ( الصورة رقم ٤١ )  
ودواة من عصر حفيد هذا السلطان ( الصورة  
رقم ٤٢ ) وكلاهما من أروع التحف المعدنية  
فى العالم .



٤٢- دواة من النحاس المكفت بالفضة من العصر المملوكى .

## الخزف

وإذا كانت التحف المعدنية التي وصلت إلينا قليلة كما ذكرنا فإن التحف المصنوعة من الفخار والخزف كثيرة لا تحصى ولا عجب في ذلك ، فالأولى من اليبير صهرها والثانية لا تبلى مهما تقادم عهدهما .

وصناعة الأواني من الفخار عريقة في القدم ، أتقنها أجدادنا الفراعنة فأخرجوا لنا أواني فخارية جميلة ، وابتكروا الخزف أى الفخار المنطى بطبقة زجاجية ، وحذقوا صناعته ، وعلموها لغيرهم من الأمم . والملاحظ أن صناعة الأواني الفخارية والخزفية في العصور السابقة على الإسلام لم تكن موضع رعاية الحكام والملوك لأن هؤلاء قد اتخذوا معظم أوانيهم من الذهب والفضة والبرنز ، وعندما ظهر المسلمون على مسرح التاريخ لم تشهد هذه الصناعة في أول الأمر تطورا يذكر ، ويظهر أن الخلفاء الأمويين في الشام قد ساروا على نهج ملوك الدولتين الساسانية والبيزنطية ففضلوا استعمال الأواني المعدنية على غيرها ، أما في العصر العباسي فقد تغير الحال ، إذ كان من أثر تبادل الرحلات والتجارة بين البلاد الإسلامية وبلاد الصين أن وجدت الأواني الخزفية الصينية طريقها إلى أسواقنا ، وأصبح لها مكانة ممتازة بين السلع المختلفة مما حملنا على تقليدها وقد نجحنا في هذا التقليد نجاحا باهرا يتجلى في « خزف الفيوم » الذى نشاهد منه أمثلة جميلة في

المتحف الإسلامى . ثم انتقلنا من مرحلة التقليد إلى مرحلة الإبداع وكان لبعض الأحاديث النبوية التى كرتت الناس فى استعمال الأواني المصنوعة من الذهب أو الفضة أثر واضح فى هذا الإبداع فظهر نوع جديد من الخزف لم يعرفه الشرق القديم ولا الصين نفسها ، له بريق كبريق الذهب هو المعروف « بالخزف ذى البريق المعدنى » الذى نراه لأول مرة فى العصر الطولونى ( ولا يستبعد أن تكون الفكرة قد أتت إلينا من العراق مع أحمد بن طولون ) ، وتفوقنا فى صنعه فى العصر الفاطمى فوصلنا فيه إلى درجة سامية يؤمن بها كل من يشاهد الأمثلة الفاطمية المعروضة من هذا الخزف فى المتحف الإسلامى ( الصورة رقم ٤٣ ) .

وقد استمر اتاجنا فى شتى أنواع الخزف يتقدم عبر العصور ، وأبدعنا فى عصر المماليك أنواعا جديدة منها ما هو مبتكر ( الصورة رقم ٤٤ ) ومنها ما هو تقليد لأنواع شتى من خزف الصين ( الصورة رقم ٤٥ ) وخزف إيران .

وقد عرفنا الكثير من أسماء الخزافين الذين عاشوا فى العصر الفاطمى أو العصر المملوكى ولكن معرفتنا بهم لا تتجاوز أسماءهم المنقوشة على الأواني التى صنعوها . وفى خلال عصر المماليك ظهرت صناعة القراميد ( ألواح القاشانى ) التى تستعمل فى تكسية الجدران ولا تزال بقاياها ماثلة فى بعض العماائر المملوكية . ( الصورة رقم ٤٦ ) .

بحسن الذوق يستوى في ذلك آنية الأمير  
المصنوعة من الذهب ، وآنية الفقير المصنوعة

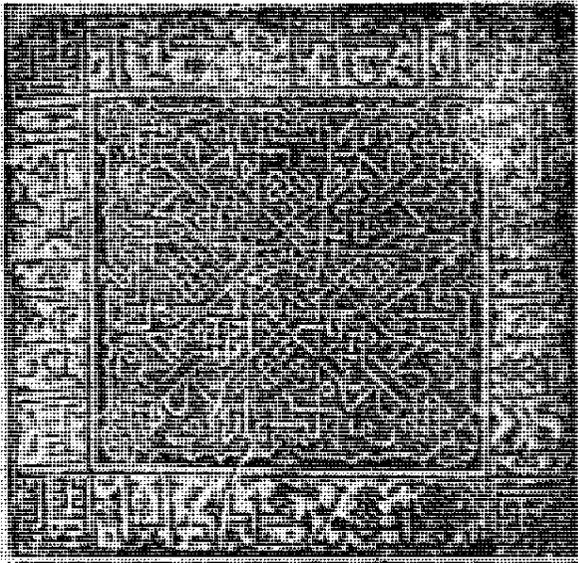


٤٥- آنية من الخزف الذي قلدنا به خزف بلاد  
الصين في العصر المملوكي - بالمتحف الاسلامي  
بالقاهرة .

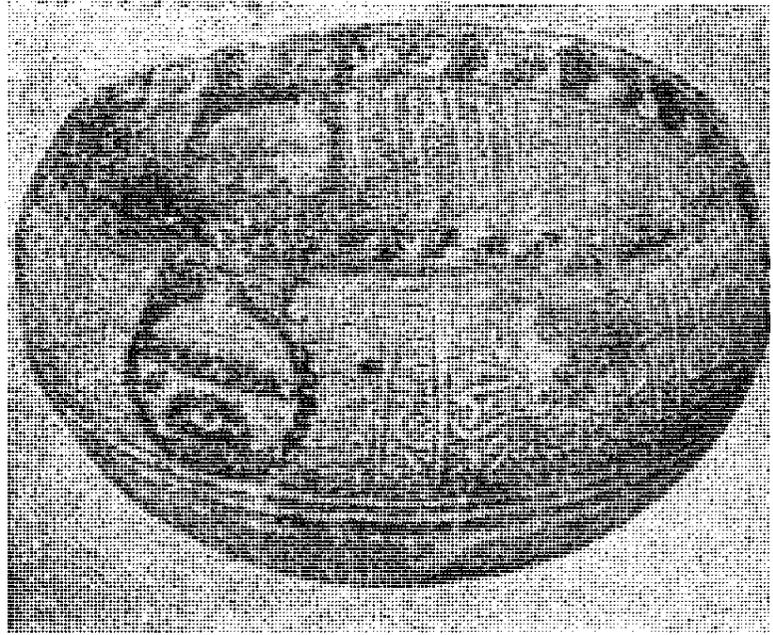
وثمة سلعة تعتبر أرخص مما يمكن أن  
يصنعه صانع ، وهي على رخصها تكشف لنا  
عن ميزة توفرت لأجدادنا في العصور الوسطى  
هي انهم أحبوا الفن للفن ، وحرصوا على أن  
يضيفوا على كل ما أخرجته أيديهم جمالا  
زخرفيا يشبع الغبطة في النفوس ويشهد لمبدعه



٣٤- قطعة من الخزف ذي البريق المعدني به  
صورة للسيد المسيح بالمتحف الاسلامي  
بالقاهرة .



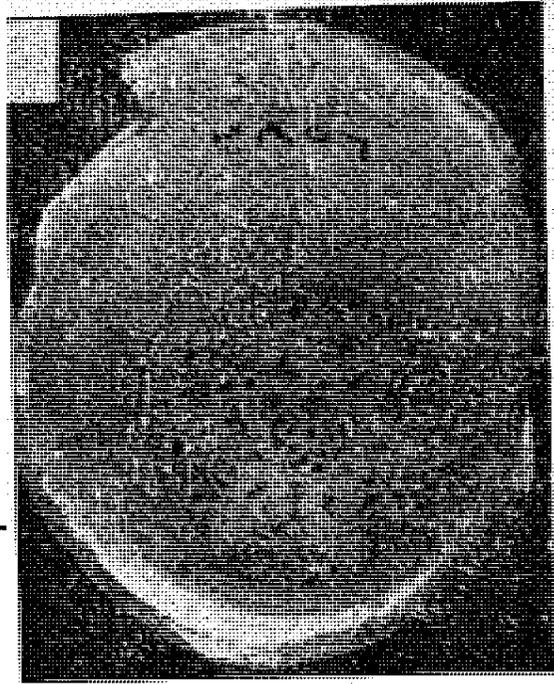
٤٦- تربيعات من القاشاني من العصر المملوكي  
- بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .



٤٤- آنية من الفخار المظلي في العصر المملوكي  
بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

وسخ ، واذا اتسخت فالماء وحده ينظفها ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ومن يشرب فيها فكأنما يشرب في اناء وماء وهواء وضياء . وفي العصر الطولوني أخذت القسطاط مكان الصدارة في صناعته ، وأمدتنا حفائرها بكثير من القطع الزجاجية ومن القنينات الصغيرة ذات الأشكال المختلفة الجميلة ما يدل على أننا قد سرنا بهذه الصناعة الى الأمام خطوات واسعة . ( الصورة رقم ٤٨ ) .

وفي العصر الفاطمي استمرت عجلة التطور تدور ، وقد أثبت ذلك الرحالة ناصرى خسرو اذ قال انه كان يصنع ببصر زجاج شفاف عظيم النقاوة ، وقال أيضا ان التجار في مصر كانوا يمنحون المشتريين أواني من الزجاج لكي يضعوها بها السلع التي اشتروها مما يدل على انتشار صناعة الزجاج وشيوعها ، وقد ابتكرنا في هذا العصر « الزجاج ذا البريق المعدني » وأضفنا الى هذا الابتكار ابتكارا جديدا اهدتينا اليه في العصر الأيوبي هو « الزجاج المموه بالمينا » الذي وصلنا فيه الى ذروة الاتقان في العصر المملوكي ( الصورة رقم ٤٩ ) والمصاييح الزجاجية أو « المشكاوات » كما تسمى عادة التي يفخر بها متحف الفن الاسلامي ( الصورة رقم ٥٠ ) هي خير ما يعرض علينا جمال هذه الطريقة التي ابتدعتها لزخرفة الزجاج في العصور الوسطى ، والتي تعلمها منا الايطاليون وقلدونا فيها تقليدا نراه في بعض التحف المعروضة بقاعة الزجاج في المتحف الاسلامي .



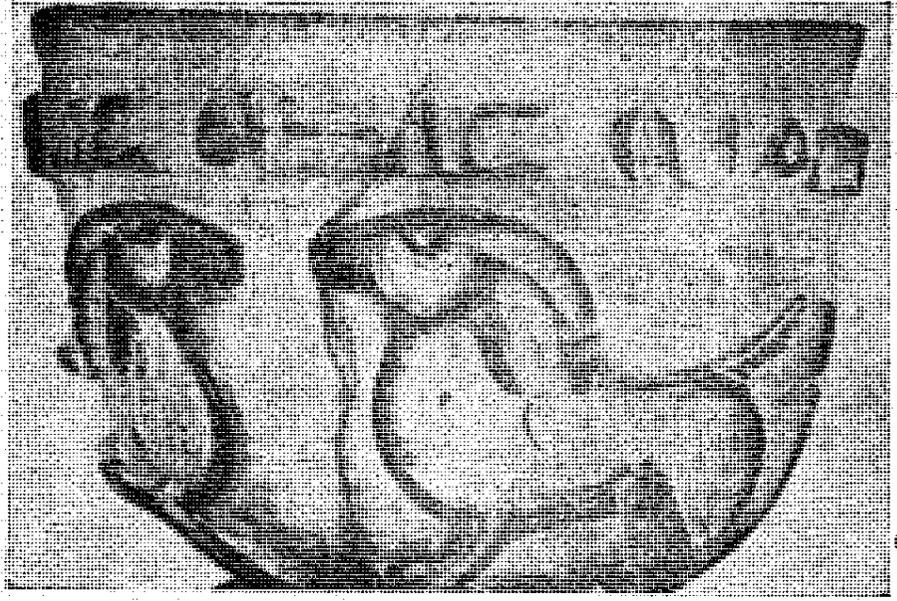
٤٧- شباك قلة من الفخار بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

من الطين ، هذه السلعة الرخيصة ليست سوى « قلال » من الفخار تفنن الفخاراني في زخرفة شباييكاها ( الصورة رقم ٤٧ ) تفننا ينتزع الاعجاب من كل من يراها .

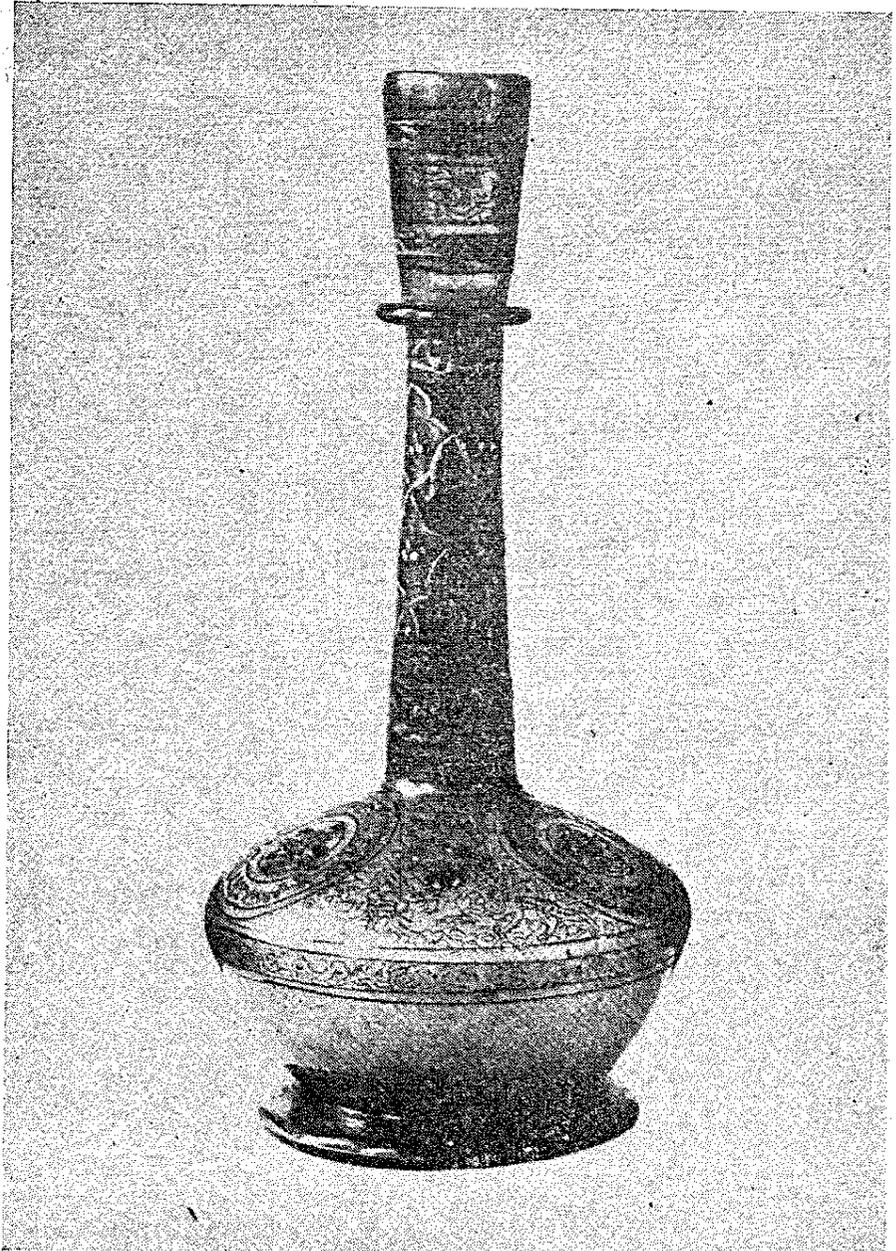
## الزجاج

ولقد كانت صناعة الزجاج مزدهرة في مصر منذ عصر الفراعنة ، وكانت مدينة الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان والبيزنطيين من أعظم مراكز صنعه في العالم ، وقد حافظت مصر في العصور الوسطى على هذه المكانة ، ولا عجب فلقد أدرك أجدادنا حينئذ الدور الذي يلعبه الزجاج في الحضارة فأقبلوا على صنعه ، وأشاروا في كتب الأدب الى ما له من مزايا على غيره من المواد ، فقالوا ان أوانيها لا تصدأ ، ولا تندى ، ولا يتخللها

٤٨ - أنيسة من  
الزجاج من العصر  
الطولوني بالمتحف  
الإسلامي بالقاهرة.



٤٩ - دورق من  
الزجاج المموه بالمينا  
من العصر الأيوبي  
بالمتحف الإسلامي  
بالقاهرة.





٥٠ - مشكاة من الزجاج الموه بالميناء من عصر المماليك بالمتحف الاسلامى .

اخراج الكتاب فى الصورة التى نراه عليها  
الآن ، وهو فن متشعب النواحي يتصل بالمواد  
التي كان يكتب عليها ، وبالخط الذى كان  
يكتب به ، وبالصورة التى توضح موضوع  
الكتاب ، وبالتذهيب وبالتجليد .

### فن الكتاب

ولعل خير ما نختم به هذا العرض السريع  
للجانب الفنى من حياة مصر الاسلامية هو  
ما كان لأجدادنا فى العصور الوسطى من  
فضل عظيم على « فن الكتاب » أى فن

البردى قد أحكم لصقها بعضها الى بعض حتى أصبحت كأنها الورق المقوى (الكرتون) ثم كسوها بالجلد ، وزخرفوا هذا الجلد وهذه تكاد تكون نفس الطريقة التي تتبع اليوم في تجليد الكتب .

واختراع الورق ، ثم استعماله بدلا من الرق ، لم يحدث تغييرا في صناعة التجليد التي ظلت تسير على نهجها القديم ، على أننا نستطيع أن نسجل لأجدادنا في العصور الاسلامية فضل التقدم نحو الأمام خطوة جديدة في هذه الناحية هي ابتكار « اللسان »



٥١ - الصفحة الأولى من مصحف السلطان شعبان أحمد سلاطين الماليك - في معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ولقد كتب أجدادنا على الحجر والخشب وعلى الفخار والعظم وعلى الكتان والجلد ، وفي معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة أمثلة كثيرة لذلك ، على أن أهم ما استخدم للكتابة عليه هو البردى والرق والورق ، والبردى نبات كان ينبت بكثرة في مصر ، وقد لعب في العصور القديمة والعصور الوسطى نفس الدور الذي يلعبه الورق في عصرنا الحاضر ، ولم يكن لمصر منافس في إنتاجه ، والكتاب المتخذ منه كان يتكون في معظم الأحيان من صحائف مختلفة يُلصق بعضها الى بعض بحيث يتكون من ذلك شريط طويل مستطيل الشكل يلف ليصبح في شكل الاسطوانة ، وقد كانت الصحيفة الأولى في هذا الملف أكثر سمكا من الصفحات الأخرى لأنها كانت تغطي الملف وتكون له بمثابة غلاف .

ولكن سرعان ما اتخذ الكتاب شكلا آخر غير شكل الملف هو الشكل الذي نراه عليه الآن وذلك في الغالب عندما استعمل الرق ( وهو ما اتخذ من معدة الحيوان لا سيما الماشية والغزال ) للكتابة عليه ، إذ كان جمع الرقوق المختلفة بعضها الى بعض يحتاج الى غلاف يمسكها ، ويحفظها من التلف ، فوضعت بين لوحين من الخشب . وقد عنى أجدادنا قبل الاسلام بزخرفة هذه الألواح الخشبية ، وتجميلها بالمعادن النفيسة والأحجار الكريمة ، ثم خطوا نحو التطور خطوة جديدة عندما استبدلوا هذه الألواح الخشبية بقطع من

الذى يطوى لحماية الأطراف الأمامية للصفحات . واذا كنا قد تعلمنا صناعة تجليد الكتب من البيزنطيين فقد علمناها بدورنا للايطاليين فى البنديفة ومن هناك تعلمها باقى الأوربيين .

ولقد عنى أجدادنا بإنشاء المكتبات فى كل عصور حياتهم عناية عظيمة ، ومكتبة الاسكندرية الشهيرة ، ومكتبات الأديرة والكنائس والمساجد خير شاهد على ذلك ، ولولا الفتن والاضطرابات الداخلىة لوصلت

الينا أمثلة كثيرة من كتبهم التى ساهم فى عملها الخطاطون ، والمذهبون ، والمصورون ، والمجلدون ، ولكن القليل الذى وصل الينا والذى نستطيع أن نراه بالمتحف القبطى ، ونراه فى المجموعة الرائعة بدار الكتب المصرية بعوضنا بعض العوض .

والواقع أن « فن الكتاب » قد بلغ ذروة نضجه فى عصر المماليك ، كما تشهد بذلك المصاحف الجميلة المعروضة فى دار الكتب . ( الصورة رقم ٥١ ) .



فهرس

سلسلة تاريخ الحضارة المصرية  
العصر اليونانى والرومانى والعصر الإسلامى

المجلد الثانى



العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى - للدكتور ابراهيم نصحي  
مصر فى عصر البطالمة :-

٤	.. .. .	الفصل الأول - دولة البطالمة :
٤	.. .. .	الفتح المقدونى
٤	.. .. .	الاسكندر فى مصر
٥	.. .. .	مؤتمر بابل
٦	.. .. .	قيام دولة البطالمة
٧	.. .. .	تفكك الامبراطورية المقدونية
٨	.. .. .	بناء امبراطورية البطالمة
١١	.. .. .	بداية النهاية
١٢	.. .. .	زوال امبراطورية البطالمة
١٣	.. .. .	صحوة الموت
١٦	.. .. .	الفصل الثانى - ادارة الحكم - السلطة المركزية - الملك - الوزراء
١٧	.. .. .	المدن الاغريقية
١٨	.. .. .	الاسكندرية
٢٢	.. .. .	تقراطيس - بطوليميس
٢٣	.. .. .	السلطة المحلية - قوات البطالمة - الجيش
٢٦	.. .. .	الأسطول
٢٧	.. .. .	الشرطة
		الفصل الثالث - سياسة البطالمة الدينية - البطالمة والمصريون - اتخاذ صفات الفراعنة -
٢٨	.. .. .	احترام الديانة المصرية
٢٩	.. .. .	موقف البطالمة من الكهنة المصريين
٣٠	.. .. .	البطالمة والاغريق - عبادة البطالمة عبادة اغريقية عامة
٣١	.. .. .	احترام الديانة الاغريقية
٣٤	.. .. .	الاغريق والديانة المصرية
٣٥	.. .. .	البطالمة وعناصر السكان الأخرى - اليهود - الفرس
٣٦	.. .. .	عناصر أخرى - ديانة سيرابيس
٣٩	.. .. .	الفصل الرابع - السياسة الاقتصادية - الزراعة
٤١	.. .. .	الصناعة
٤٣	.. .. .	التجارة

٤٧	..	..	..	..	..	..	..	التقود
٥٠	..	..	..	..	..	..	..	الفصل الخامس - النظام المالى - الادارة المالية
٥١	..	..	..	..	..	..	..	نظام الاراضى - ارض الملك
٥٢	..	..	..	..	..	..	..	ارض العطاء - الارض المقدسة
٥٣	..	..	..	..	..	..	..	الاقطاعات العسكرية
٥٤	..	..	..	..	..	..	..	ارض الهبات - ارض الامتلاك الخاص
٥٥	..	..	..	..	..	..	..	نظام الصناعات والحرف - صناعة الزيت
٥٦	..	..	..	..	..	..	..	صناعة النسيج - المصاريف المالية
٥٧	..	..	..	..	..	..	..	نظام التجارة - التجارة الداخلية
٥٩	..	..	..	..	..	..	..	التجارة الخارجية
٦٠	..	..	..	..	..	..	..	ضرائب شتى
٦١	..	..	..	..	..	..	..	نظام جباية الضرائب
٦٢	..	..	..	..	..	..	..	الفصل السادس - القضاء - القانون المدنى - الاحوال الشخصية
٦٤	..	..	..	..	..	..	..	الاحوال العينية
٦٦	..	..	..	..	..	..	..	القانون الجنائى
٦٧	..	..	..	..	..	..	..	الهيئات القضائية - محاكم المصريين - محاكم الاغريق
٦٨	..	..	..	..	..	..	..	المحكمة المختلطة
٦٩	..	..	..	..	..	..	..	محاكم القضاء الخاص
٧٠	..	..	..	..	..	..	..	الفصل السابع - الحياة الاجتماعية - الاغريق - حالهم على عهد البطلمة الاوائل
٧٢	..	..	..	..	..	..	..	علاقتهم بالمصريين
٧٢	..	..	..	..	..	..	..	حالهم على عهد البطلمة الاواخر
٧٣	..	..	..	..	..	..	..	علاقتهم بالمصريين
٧٤	..	..	..	..	..	..	..	فئات الاغريق
٧٤	..	..	..	..	..	..	..	حضارة اغريق مصر
٧٥	..	..	..	..	..	..	..	المصريون - البطلمة ولطبقات المصرية المختلفة
٧٨	..	..	..	..	..	..	..	حضارة المصريين
٧٩	..	..	..	..	..	..	..	الثورات القومية
٧٩	..	..	..	..	..	..	..	الاسباب
٧٩	..	..	..	..	..	..	..	الثورات
٨٢	..	..	..	..	..	..	..	الاداب
٨٢	..	..	..	..	..	..	..	دار العلم والمكتبة

٨٣	.. .. .	الشعر
٨٤	.. .. .	النثر
٨٥	.. .. .	العلوم
٨٥	.. .. .	الطب والجراحة
٨٥	.. .. .	علماء الحيوان والنبات
٨٦	.. .. .	العلوم الرياضية
٨٧	.. .. .	الفنون والمعمار والمقابر
٩٢	.. .. .	المنازل والمعابد
٩٤	.. .. .	النحت

### مصر في عصر الرومان - للدكتور ابراهيم نصحي

١٠٨	.. .. .	الفصل الأول - مصر تصبح ولاية رومانية
١٠٨	.. .. .	الفتح الروماني
١١١	.. .. .	سياسة أباطرة الرومان في مصر
١٢٤	.. .. .	الفصل الثاني - أداة الحكم
١٢٤	.. .. .	السلطة المركزية
١٢٥	.. .. .	السلطة المحلية في القرنين الأول والثاني
١٢٩	.. .. .	المدن الاغريقية
١٣٠	.. .. .	التعديلات التي أدخلت في القرن الثالث
١٣٢	.. .. .	الشرطة
١٣٣	.. .. .	الجيش الروماني
١٣٥	.. .. .	الفصل الثالث - السياسة الدينية
١٤٠	.. .. .	الفصل الرابع - السياسة الاقتصادية - الزراعة - الصناعة - التجارة
١٤١	.. .. .	النقود
١٤٢	.. .. .	المصارف
١٤٣	.. .. .	حالة البلاد الاقتصادية
١٥٠	.. .. .	الفصل الخامس - النظام المالي - الادارة المالية
١٥١	.. .. .	هدف النظام المالي
١٥٢	.. .. .	نظام الأراضي
١٥٨	.. .. .	الحرف والصناعات
١٦٢	.. .. .	التجارة - التجارة الخارجية
١٦٤	.. .. .	التجارة الداخلية

١٦٥	ضرائب شتى
١٦٨	نظام جباية الضرائب
١٧٠	<b>الفصل السادس - النظام القضائى</b>
١٧١	القانون المدنى
١٧١	الأحوال الشخصية
١٧٢	الأحوال العينية
١٧٣	القانون الجنائى
١٧٣	الهيئات القضائية
١٧٥	<b>الفصل السابع - الحياة الاجتماعية</b>
١٧٥	عدد السكان وحالهم
١٧٦	طبقات السكان
١٧٦	الاغريق : وضعهم وفئاتهم
١٨٠	حضارة الاغريق
١٨٢	اليهود
١٨٤	المصريون : فئاتهم
١٨٥	حضارة المصريين
١٨٦	ثورات المصريين
١٨٧	<b>الفصل الثامن - الآداب والعلوم والفنون</b>
١٨٧	الآداب - دار العلم ( الجامعة ) والمكتبة
١٨٩	الشعر
١٨٩	النثر
١٩١	العلوم
١٩١	الطب والجراحة
١٩٢	العلوم الرياضية
١٩٣	الفنون
١٩٣	فن العمارة
١٩٣	المقابر
١٩٤	المنازل
١٩٤	المنشآت العامة
١٩٥	المعابد
١٩٥	فن النحت

## من ديوقلديانوس الى دخول العرب - للدكتور مراد كامل

١٩٧	مقدمة
١٩٧	من ديوقلديانوس الى هرقل
١٩٧	ديوقلديانوس
١٩٨	من قسطنطين الى يوستينيانوس
١٩٩	أسرة يوستينيانوس
١٩٩	أعماله التشريعية
٢٠٠	اصلاحاته الداخلية
٢٠١	الحالة الاقتصادية في عهد يوستينيانوس
٢٠١	خلفاء يوستينيانوس
٢٠٢	هرقل
٢٠٣	النظام الادارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية في مصر في العصر البيزنطى
٢٠٣	النظام الادارى
٢٠٥	الجيش
٢٠٥	النظام المالى
٢٠٦	الحالة الاقتصادية
٢٠٩	<b>الفصل الأول - الحياة السياسية</b>
٢١٠	الصراع مع الأباطرة الوثنيين
٢١٢	الصراع مع الأباطرة المناصرين للنهراطقة
٢١٣	هرطقة أريوس
٢١٤	أثناسيوس وجهاده
٢١٧	فترة هدوء
٢١٧	الأنبا كيرلس وبدعة نسطور
٢١٨	الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومه
٢٢٠	بدء انقسام الكنيسة
٢٢٢	فترة هدوء
٢٢٣	عودة الاضطهادات
٢٢٦	<b>الفصل الثانى - الحياة اللغوية</b>
٢٢٦	مراحل تطور اللغة المصرية
٢٢٦	اللغة المصرية القديمة
٢٢٦	اللغة المصرية الحديثة
٢٢٦	اللغة المصرية المتوسطة

٢٢٦	الديموطيقية
٢٢٦	القبطية
٢٢٧	اسمها
٢٢٧	الخط الهيروغليفي
٢٢٨	الخط الهيراطيقي
٢٢٨	الخط الديموطيقي
٢٢٨	الخط القبطي
٢٢٨	اللهجات القبطية
٢٢٨	لهجات مصر السفلى
٢٢٨	لهجات مصر العليا
٢٢٩	احتضار اللغة القبطية
٢٢٩	أثر اللغة القبطية خارج مصر
٢٣٠	اللغة القبطية وأثرها على العربية
٢٣٢	<b>الفصل الثالث - الحياة الفكرية</b>
٢٣٢	الانتاج العقلي والفلسفة
٢٣٢	الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية
٢٣٣	الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية
٢٣٤	الفلسفة الغنوسية
٢٣٤	الغنوسية وتاريخها ومدارسها
٢٣٥	فالتينوس
٢٣٥	الوثائق القبطية
٢٣٥	الغنوسيون الارثوذكس
٢٣٦	الافلاطونية الحديثة
٢٣٦	أمونيوس سقاص
٢٣٧	مدارس الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي
٢٣٧	الحاجة الى انشاء هذه المدرسة
٢٣٨	تاريخ المدرسة وشهرتها
٢٣٩	مشاهير أساتذتها
٢٤٠	اكليمينضس الاسكندري
٢٤٠	أوريجانوس
٢٤٢	ديديموس الضرير
٢٤٣	باقي الأساتذة

٢٤٣	العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية
٢٤٥	الانتاج العلمي والأدبي والثقافة الشعبية
٢٤٥	الانتاج العلمي
٢٤٧	صناعة الورق
٢٤٨	التاريخ الكنسي
٢٤٨	تاريخ بطارقة الاسكندرية
٢٤٩	المصادر التاريخية لسير البطارقة
٢٤٩	يوحنا النقيوسى
٢٤٩	ساويرس بن المقفع
٢٤٩	الأنبا ميخائيل أسقف تنيس
٢٥٠	الأنبا يوساب اسقف فوة
٢٥٠	السنكسار
٢٥٠	تاريخ الجامعات
٢٥٠	الجامع المحلية
٢٥٠	الجامع العالمية ( المسكونية )
٢٥١	يوحنا النقيوسى
٢٥٢	الانتاج الأدبي والثقافة الشعبية
٢٥٢	ترجمة الكتاب المقدس
٢٥٢	أقوال الآباء
٢٥٢	سير القديسين
٢٥٣	القصص
٢٥٣	الإصلاح الاجتماعى
٢٥٣	أغراض أخرى
٢٥٣	النظم
٢٥٤	الندب
٢٥٤	لغة الأدب
٢٥٥	أقوال الآباء : أثرها وشهرتها
٢٥٥	كتابات الآباء اللاهوتية
٢٥٦	أقوال الآباء فى النسك
٢٥٧	اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية
٢٥٩	<b>الفصل الرابع - الحياة الفنية</b>
٢٥٩	الفنون القبطية
٢٥٩	الصفات العامة للفن القبطى

٢٥٩	فن شعبي
٢٦٠	فن ديني ومدني
٢٦٠	فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها
٢٦٠	ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فنية
٢٦٠	فن جمال لا ضخامة
٢٦١	فن للزينة
٢٦١	فن يستخدم الاشكال الهندسية والرمزية
٢٦١	صور من الفنون القبطية
٢٦١	العمارة
٢٦٣	التصوير
٢٦٤	النقش على الحجر والخشب
٢٦٤	المنسوجات
٢٧٢	الفنون الصغرى
٢٧٥	الخط والتجليد
٢٧٥	خاتمة
٢٨٠	الرواسب الفنية
٢٨٠	الموسيقى والالحان
٢٨٤	<b>الفصل الخامس - الحياة الاجتماعية</b>
٢٨٤	مركز المرأة في الحياة المصرية
٢٨٨	الأسرة
٢٩٢	العادات
٢٩٥	الأصوام
٢٩٦	الأعياد
٢٩٧	الموالد
٢٩٩	التقويم القبطي
٣٠١	قيمة التقويم للمصريين
٣٠١	شهر توت
٣٠٢	شهر بابة
٣٠٢	شهر هاتور
٣٠٢	شهر كيهك
٣٠٢	شهر طوبة
٣٠٢	شهر أمشير

٣٠٢	شهر برمهاث
٣٠٢	شهر برموده
٣٠٢	شهر بشنس
٣٠٢	شهر بؤونة
٣٠٢	شهر أييب
٣٠٣	شهر مسرى
٣٠٣	الدولة الرومانية والتقويم المصري
٣٠٣	تطور التقويم المصري الى قبطى
٣٠٣	أغراض التقويم القبطى
٣٠٤	التقويم القبطى القمري
٣٠٤	الشهور القبطية
٣٠٥	التقويم الأثيوبى
٣٠٥	الرهينة قيائها فى مصر
٣٠٦	أطوار الرهينة
٣٠٦	التوحيد
٣٠٦	القديس انطونيوس
٣٠٧	الرهينة الاجتماعية
٣٠٧	القديس مقاريوس
٣٠٨	الرهينة الديرية ( حياة الشركة )
٣٠٨	الأنبا باخوميوس
٣٠٩	نظام الأنبا شنودة
٣١١	آثار الرهينة
٣١١	التربوية
٣١١	الاجتماعية
٣١٢	انتشارها فى أنحاء العالم المسيحى
٣١٢	فى الشرق
٣١٤	فى السودان
٣١٥	فى الغرب
	فهرس اسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الاسكندرية من عصر ديوقلديانوس
٣١٧	الى دخول العرب
٣١٧	الأباطرة الرومان
٣١٧	أباطرة العصر البيزنطى

٣١٧	أسرة قسطنطين
٣١٨	أسرة ثيودوسيوس
٣١٩	أسرة ليو
٣١٩	أسرة يوستينيانوس
٣٢٠	أسرة هرقل

## القسم الثاني

### العصر الاسلامى :

تاريخ مصر من الفتح العربى الى أن دخلها الفاطميون - بقلم الدكتور حسين مؤنس

٣٢٣	الفتح العربى لمصر
٣٢٥	مشكلات تتصل بالاعلام : المقوقس
٣٢٩	سير الفتح
٣٣٢	بابلليون ومصر
٣٣٥	موقعة عين شمس ( بابلليون ) والاستيلاء على الحصن
٣٣٨	معاهدة بابلليون
٣٤٠	استكمال فتح الوجه البحرى والصعيد والفيوم
٣٤١	فتح الاسكندرية
٣٤٣	مصر جزء من الدولة الاسلامية
٣٤٨	الفترتان الاموية والعباسية
٣٤٨	الادارة
٣٥٢	شئون المال
٣٦٣	الاسلام والتعريب
٣٧٢	الاحوال العامة
٣٧٢	الزراعة والصناعة والتجارة
٣٧٦	الفسطاط والحيزة ومنازل العرب فى الاسكندرية
٣٨٠	أهم أحداث مصر من الفتح العربى الى قيام دولة أحمد بن طولون
٣٨٨	دولة بنى طولون
٣٨٨	أحمد بن طولون
٣٩٩	خمارويه وأبو العساكر وهارون بن خمارويه
٤٠٢	نظرة عامة على دولة بنى طولون
٤٠٥	من الطولونيين الى الاخشسيديين
٤٠٦	الاخشسيديون

صفحة	
٤١٨	مصر في العصر الفاطمي - ملامح مصر في العصر الاسلامي الاول - للدكتور جمال الدين الشيبان
٤١٩	من هم الفاطميون
٤٢٠	الحزب الشيعي
٤٢٠	نشأته وتطوره
٤٢٣	قيام الدولة الفاطمية في المغرب
٤٢٥	الخلفاء الفاطميون في المغرب ومصر
٤٢٦	الدولة الفاطمية في المغرب
٤٢٨	الفتح الفاطمي لمصر
٤٣١	مصر في العصر الفاطمي
٤٣١	تأسيس القاهرة
٤٣٥	الجامع الأزهر
٤٣٨	العصر الفاطمي الاول عصر القوة والازدهار
٤٤٤	العصر الفاطمي الثاني عصر الضعف والانحلال
٤٥٤	انتهاء الدولة
٤٥٨	الدولة الأيوبية - للدكتور محمد مصطفى زيادة
٤٨١	الدولة المملوكية الأولى - للدكتور محمد مصطفى زيادة
٥٠٨	الدولة المملوكية الثانية
	الحياة الدينية في مصر الاسلامية ( من ظهور الاسلام الى مطلع العصر الحديث )
	للأستاذ أمين الخولي
٥٢٩	الدين والتدين
٥٣٢	التاريخ الحضاري
٥٣٣	ملامح الشخصية المصرية الدينية
٥٣٤	عمق الروح الدينية
٥٣٤	قوة الايمان بالحياة الأخرى
٥٣٥	سعة الأفق الديني
٥٣٧	مصر تتلقى الاسلام
٥٤١	تحول غير سريع
٥٤٣	روحية مصر في الاسلام
٥٤٦	حيوية مصر في الاسلام
٥٤٨	اسلام مصر بلا نحل ولا مقالات اعتقادية
٥٥٣	مصر وراء الخلاف الفقهي
٥٥٦	الاسلام والمجتمع المصري

## الحياة الفنية في مصر الإسلامية

٥٦١	.. ..	للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ..	من الفتح العربي الى الفتح التركي -
٥٦٣	.. ..	.. ..	العمارة ( العصر ما قبل الطولوني )
٥٦٧	.. ..	.. ..	( العصر الطولوني )
٥٦٩	.. ..	.. ..	( العصر الفاطمي )
٥٧٦	.. ..	.. ..	( العصر الأيوبي )
٥٨١	.. ..	.. ..	( العصر المملوكي )
٥٨١	.. ..	.. ..	المساجد
٥٨٢	.. ..	.. ..	القباب
٥٨٣	.. ..	.. ..	المارستانات
٥٨٥	.. ..	.. ..	الخوانق
٥٨٦	.. ..	.. ..	القصور
٥٩٠	.. ..	.. ..	الخانات
٥٩١	.. ..	.. ..	الأسبلة
٥٩١	.. ..	.. ..	الفنون الزخرفية
٥٩١	.. ..	.. ..	مواد البناء
٥٩٣	.. ..	.. ..	الأخشاب
٥٩٤	.. ..	.. ..	التصوير
٥٩٦	.. ..	.. ..	المنسوجات
٥٩٦	.. ..	.. ..	الطنافس
٥٩٨	.. ..	.. ..	المعادن
٦٠٠	.. ..	.. ..	الخزف
٦٠٣	.. ..	.. ..	الزجاج
٦٠٤	.. ..	.. ..	فن الكتاب



# منتہی سورا الازبکیہ

---

WWW.BOOKS4ALL.NET